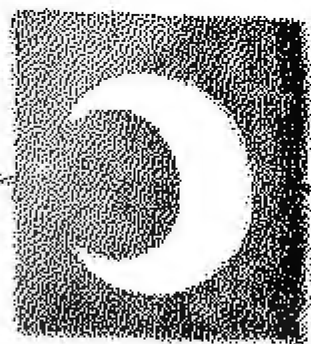
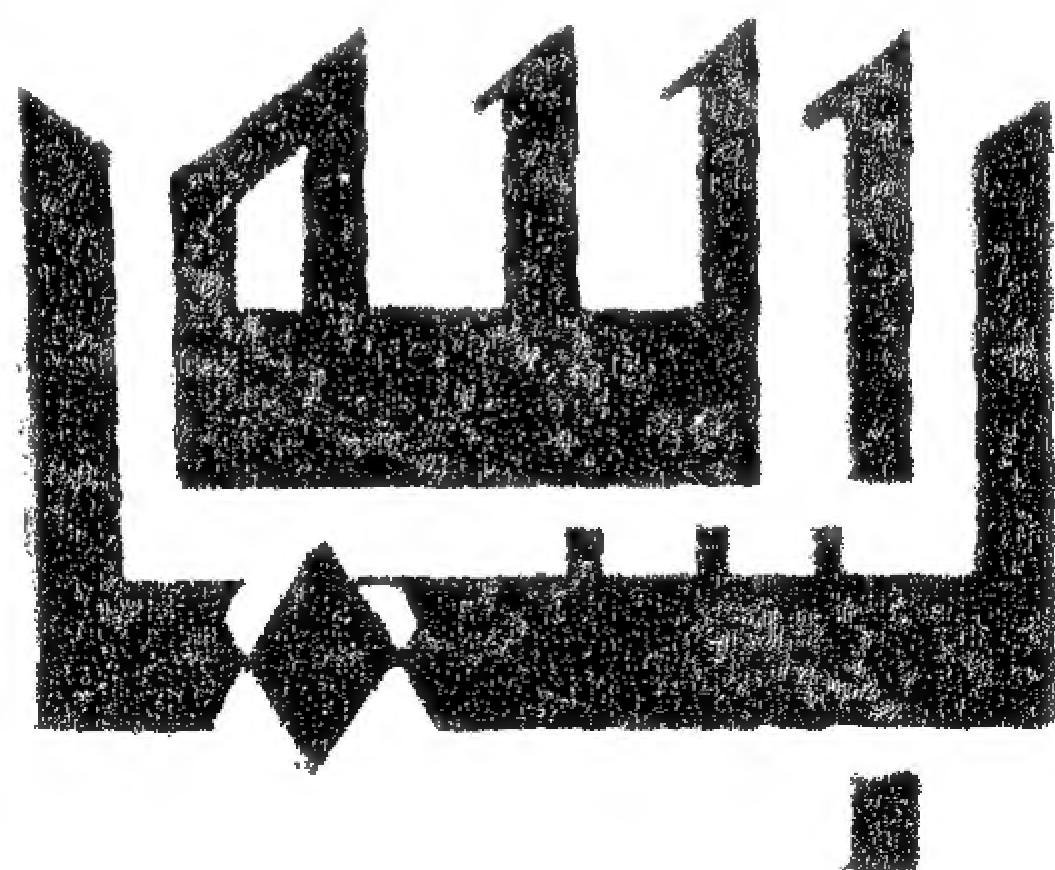
كتاب الهلال



إلى القرآن الكريم

الشيخ محمود شلتوت



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩١ – رمضان ١٤٠٣ – يولية ١٩٨٣

No. 391 — July 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج شيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين

إلى القرآن الكريم

•

بقلم

الشيخ محمود شلتوت

•

دار الهلال

مقاصد القرآن

القرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس اجمعين : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » .

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين ..

وقد رأينا أن نقدم هذه الطريقة التى ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التى يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، فتاخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع فى التفقه والمعرفة . وسنبدأ ان شاء الله من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ، ونشير الى أساليبه التى اتخذها سبيلا للدعوة اليها .

ونرجو أن يكون هذا بمثابة منار يهدى الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه .

وان نظرة فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا » لترينا ان مقـــاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الاخلاق ، وناحية الاحكام .

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الايمان به فى جانب الله من صفات الجلال والكمال ، وما يجب الايمان به فى جانب الوحى والرسالات من الملائكة والكتب والنبيين ، وما يجب الايمان به فى جانب اليوم الآخر من البعث والجزاء .

والاخلاق : تهذب النفس وتزكيها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الانسان : وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق فى الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التى يجب أن يكون عليها عباده .

أما الاحكام : فهى ما بينه الله فى كتـــابه ، أو بين أصوله من النظم التى يجب اتباعها ، فى تنظيم عـلاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانســـان ، وتشمل : أحكام الصـلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العبادات التى تغذى الايمان ، وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك ممـا يدخل فى دائرة الاحوال الشخصية ، أو أحكام الاسرة.

وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمداينة، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية .
وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقة ، والافساد فى الارض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة العقوبات : وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل فى دائرة الاحكام الدولية العامة .

مصادر التشريع الاسلامى

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين انها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الرأى ، أرباب العلم بالمصلحة فى نواحى الحياة .

كما عرض لاساس الحكومة فى الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من اخص أوصاف المؤمنين .

اساليب الدعوة

هذه هى الخطوط الاصلية لمقاصد القرآن الكريم .. أما الاساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهى :

اولا : الارشاد الى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء ، لتعرف أسرار الله فى كونه ، وابداعه فى خلقه ، وبذلك تمتلىء القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع ، لا عن تقليد وابتداع.

وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الاجسام واسرار الكائنات في الارض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كي ينتفع بها في حياته ، ويستخدمها في التعمير والانشاء .

ثانيا : قصص الاولين ، أفرادا وأمما ، الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن في ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله في معاملة عباده، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين .. فلم يذكره على انه تاريخ يحدد الزمان والمكان والاشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الاسباب والنتائج ، ولم يذكره على أنه أساطير تتحدث عن الغرائب والاعاجيب التى يسمر بها الناس في النوادى والمجتمعات .

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطنى في الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، واضع الاسباب والمسببات ، رب الارض والسموات ، مدبر الامر ومصرفه ، وتلك هى الفطرة التى ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

رابعا : أما الاسلوب الرابع الذى اتخذه القرآن في الدعوة الى مقاصده ، فهو أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين

فى الارض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الاعداء .

وثانيهما : للترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذى لاينقطع، الصافى الذى لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد فى الارض والطغيان على عباد الله بعد بعذابها الدائم المهين .

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه فى الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسمعها . ونستخلص أحكامه ، ونعرف اغراضه .. وعسى أن نجد فى هذا ما يقرب لنا الامر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمل به فى خاصة أنفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضاء الله واسعاده فى الدنيا والآخرة :

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين » .

محمود شلتوت

الفصل الاول :

الفاتحة وسورة البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

ســورة الفاتحـة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هى احدى سور خمس فى القرآن الكريم بدأت باثبات الحمد لله (١) .

(*) وقد أجملت الفــاتحة كل ما فصل فى القرآن الكريم من اثبات التوحيــــد والبعث . وبيان الطريق المستقيم الذى يسلكه الانسان فى تنظيم حياته مع ربه ومع نفســه ، ومع الناس : فالجملتان « الحمد لله رب العالمين » ، « الرحمن الرحيم » تثبتان توحيد الله فى الخلق والتربية عن طريق الرحمــة الواصل اثرها الى عباده . والجملة الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التى يقع فيهــــا الجزاء على الاعمــال . والجملتان « اياك نعبد ، واياك نستعين » تقرران مبدأ عبادة الله وحده ومبدأ عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبـــادة والاستعانة .

وجملة « اهدنا الصراط المستقيم » ، توجه الانسان الى طلب الاحكام التى ينظم بها شأنه من الله سبحانه

---

(١) وهى : الفاتحة . الانعام . الكهف . سبأ . فاطر

★ فى تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم ــ راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم ــ الجزء الاول .

وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع .

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين أنعمت عليهم » ترشد الى أن الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى أضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قدوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله وأحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون » .

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة في المبدأ والمعاد ، وبها كمال الانسان من الجانب العلمي ، واستوفت طريق العمل الصالح ، وبه كمال الانسان من الجانب العملي ، وأشارت الى تاريخ البشرية الفاضلة فى التزام الحق عن العلم والعمل ، وهذا اجمال لكل ما فصل فى القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وأم الكتاب .

سورة البقرة

الربع الاول :

* سورة البقرة هى أطول سورة فى القرآن ، واول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد فى النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التى اعد لها فى هذه الحياة .

طوائف الناس امام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وانه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به انما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والعصبية الغاشمة ، فآمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحق عباده فأنفقوا فى سبيله « ومما رزقناهم ينفقون » وعرفوا ان رسالته فى جميع الازمان واحدة ، فآمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه

★ يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا ، وكل جزء يحتوى على أرباع والربع هنا من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥

وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الضالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجى منهم خير ولا ايمان ، وهؤلاء هم الذين أيأس الله من ايمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هي شر ما ابتلى به الحق وأهله في هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ، ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم في الربع الاول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاءت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته في ظلمة لا يهتدي فيها الى صواب .. ومثل من أخذته السماء بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا في شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، أن الله على كل شيء قدير .

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والايمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفي سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الارض ومنافعها ، والسماء

ومائها فى الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم ـ ان لم يفعلوا ولن يفعلوا ـ النـــــار التى وقودها الناس والحجارة .

وهنا يأتى الامر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ، جمعت لذائذ المـادة والروح ، وهم فيها خالدون .

الربع الثانى :

ضرب الامثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الامثال تقريبا لمـا يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القـــلوب .. فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للــكلمة الطيبة .. وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والاولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقربوهم الى الله ..

وقد جاء هذا الربع يقرر ان الله لا يمتنع من ضرب الامثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة الممثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما . بعوضة فما فوقها » .

★ من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة

أما الناس فهم امام هذه الامثال فريقان : فريق يفهم القصد الذى ترمى اليه ، ويكون لها أثرها الحسن فى نفوسهم .. وفريق يتعلق باسم الحيوان الذى ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا !؟ . ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك فى قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله فى خلقه ، وأساليب البيان التى طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد فى الارض - يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان فى انفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » ، وفى الآفاق : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الحكمة فى خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته فى خلق النوع الانسانى ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل فى هذه الحياة : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى

الارض خليفة » .. ثم بما كان من الملائكة فى الاستفسار عن الحكمة فى خلق هذا النوع ، وهو – على ما يعلمون – ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد فى الارض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الاشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا انهم لا يستطيعون الخلافة فى الارض التى أختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فآمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه فى تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما – لحكمته البالغة – بالنهى عن الاكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذى أبى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد ، وما زال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا فى المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات : « وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطريق سعادتهم وشقائهم : « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حاجة الانسان الى الوحى

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله فى الكون ليكون خليفة فى الارض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان فى حاجة الى الوحى الالهى يقيــــه ويحفظه من دواعى الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده ، وتنفيراً مما يشقيه ، فيجب علينا أن نعرف أنفسنا بغرائزها ، وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده .

الربع الثالث :

دعوة الرسول

* سورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة ، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجوار ممن

★ من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة

أوتو الكتاب من قبل ، وقد كان من المرتقب أن يلبى هذا الجوار الجديد دعوة النبى الذى يجدونه مكتوبا عنـدهم فى التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبـل مجيئه النصرة على أعدائهم ، ولكن خاب الفأل وضاع المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار، فتحدثت السورة عنهم فى أربع وثمانين آية ، بداها الله وختمهـا بندائهم ونسبتهم الى أبيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم بنعمته عليهم : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وأوفوا بعهـدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصـدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، لا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

انحراف رؤساء بنى اسرائيل

ثم بدا يبكت الرؤساء ـ الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه ـ على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والاهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم فى الوقت نفسه يأمرون الناس بالبر والخير ، ويحـكمون لهم بالهدى والايمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر، ويرشدهم الى الطريق الذى يقـودهم الى الخير فى انفسهم وفى جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون » .

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التى أنعم بها عليهم فى شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم الى الماضى فيذكرهم بتنجية اسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن انجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للانسان عليه ، ولا سبيل له فى الاهتداء اليه : كان يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى اذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، واتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ماغشيهم ، واضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، انجاهم وأهلك عدوهم .

ويذكرهم بعفوه عنهم حينما عبدوا العجل فى غيبة موسى ، ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التى بها يعرفون الحلال والحرام ، ويفرقون بين الحق والباطل ، ويذكرهم بعلاجهم من اثر الصاعقة التى أخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الارض

المقدسة ، وقالوا : « ان فيها قوما جبارين » ، فقضى عليهم بالبقاء فى الصحراء ، تائهين أربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم وهم فى ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ، وشدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ويذكرهم بما كان منهم بعد ان خرجوا من التيه ، وبعد ان رأوا نعمة الله عليهم فيه : يذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الارض المقدسة ، والتمتع بخيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير الفضل والرحمة ،والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون قولا غير الذى قيل لهم : يستمرئون العصيان ، وينغمسون فى الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل فى أفعاله وسلوكه على حكم الشهوة والهوى .

الربع الرابع :

نزق وطغيان

* والحديث فيه لا يزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبا ،

★ من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة

أقاموا فى صحراء التيه وانقطع عنهم الماء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أن يضرب الحجر بعصاه ، فتنفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ، ويأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا فى الارض .

يذكرهم الله بهذه النعمة ، ويذكرهم بتمردهم فى طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزق وطغيان فهم يعلمون انهم فى صحراء لا ماء فيها ولا زرع ، ولا تنبت شيئا مما يطلبون، ولكن العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه فى الضلال كل مذهب ، ويطلب به الادنى بدل الاعلى ، « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » ، ومع هذا فلكم ما سألتم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصرا ، تنبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لانبيائه، ولكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمات ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوءوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ايمان وعمل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى ان أساس النجاح والخسران ليس فى النسبة الى رسول ما ، دون الاخذ بأحكامه وارشاداته ، وانما هو فى صدق الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحا « فلهم أجرهم عند

ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . وفى هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعـــة لا تحفظ عند الله بالاحساب ، ولا بالانساب ، وانما تحفظ بمعان فاضلة تمـــلأ القلب وتظهر آثارها الطيبة فى الحياة .

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكرهم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخـذوا أحـكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح انفسهم بها لعلهم يتقون .

وتذكرهم بآية من آيات الله ، كان جديرا بهم أن يعتبروا بها ، وأن يعلموا ان القـادر عليها قادر على أن يقبلهـا عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم فى العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله واحســانه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » . ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله ان يتفرغوا فى يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبـــة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت فى حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه فى اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزى وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملأ قلوبهم بالطمع والشره، شأن القردة ، وكانت تلك عقـوبة ظـاهرة فيهم ، وفى أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » .

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا فى التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الامر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتيل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

الربع الخامس :

عناد ونفاق

* وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطمعون فى أنهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى أنهم أهل دين سماوى ، أصوله هى أصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ

★ من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة

بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسلهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ، وقد قص الله على نبيه فيما سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التى كان يعالجهم بها ، المرة بعد الاخرى ، وفى هذا وجه الخطاب الى النبى وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . واخذ يلفت الانظار الى أنهم فى الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيرون على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده فى التوراة من أوصاف محمد ، واذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » .

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الاحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون فى سرعة ايمانهم ؟

اكاذيب مردودة

ثم اخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التى كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم فى صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تلبيتها ، شأن المبطلين فى محاربة الحق فى كل عصر

وفى كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » « ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » : مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه، فيرد الله عليهم بأن تأقيت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، واخذتم به عليه عهدا « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ؟

الجزاء من جنس العمل

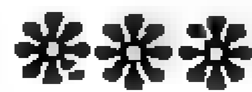
وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وانما هي ذات مبدأ عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم فى المبدأ والحكم سواء : « بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق الا يفعلوا الشر ولا يقترفوا المحرم : « واذا اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزي في

الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

ايثار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم القطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن فى نفوسهم ، وانه هو ايثارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم أنبيائهم الذين ارسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم « ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الامر ان الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضعوا عليها الغلاف والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه ، « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والاهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده « فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » .



وكان من كلماتهم التى يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذى نثق بأنه من عند الله ، ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن الذى يطلب منهم

الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصــدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم . وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوا اياه !؟ وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم !؟ « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

المربع السادس :

مزاعم باطلة

* والحـــديث فيه لا يزال فى شــأن بنى اسرائيل المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسممون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه أنهم لا يؤمنون بما ســواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وأنه مصدق لما أنزل عليهم ، فكيف يزعمون أنهم يؤمنون بما انزل عليهم ؟! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل

★ من الآية ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة

من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » ، « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا ان التعمير فى الدنيا مهما طال أمده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكن أجل كتاب ، « والله بصير بما يعملون » .

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وان جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول . نزله باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم ، بل كان مصدقا له ، وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزله ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعاقل لا يرفض الهداية أيا كان مصدرها .

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو أن ما نزل به جبريل أو غيره من الملائكة على محمد ، أو على غيره من الانبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخذ

أحدا منهم عدوا فقد عادى الله ، ومن عادى الله ، عاداه الله : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » .

الاسلام دين الفطرة

ثم أخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بأن ما أنزله عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكترث يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن أمرنا ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم بشىء ، وكأنهم لا يعلمون .

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

نبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، وأخذوا يصرفون الناس عن النظر فى الحقائق بالاوهام والاكاذيب ، التى كان يخترعها المردة المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين ببابل هاروت وماروت .

كانوا يخترعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة . وان الملكين عندهما أشد أنواع السحر التى تفرق بين المرء وزوجه ، ولمثل هذه الاحاديث شيوع ،

فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ، واتخذوها ديدنهم في الحيـــاة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلفوا على سليمان وعلى الملكين ، وقرر ان سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ، انمـــا كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا بمفســـدين في الارض ، ولا بمدلسين على الناس ، وانما كانا ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انمـــا نحن فتنة فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على ســليمان النبوة والملك الالهى ، كمـــا انكروا فضل الله على الرجلين الصالحين في معرفة خصائص الاشياء وأسرار النفوس، وزعموا ان ما عندهما وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على ما رسموا وتخيلوا ، وأخذوا ينفثـــون به في الروابط البشرية لتحـل ، والصلات الانسانية لتقطـــع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ، بين الوالد وولده ، بين الاخ وأخيه ، بين الصديق وصديقه ، وبالتالى بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله ، « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به انفسهم لو كانوا يعلمون » .

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل أنفسنا بالاوهام والخيالات .

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبى ببعض الكلمات التى كان يستقلها المعاندون في الاستهزاء بالرســول ، وتأمرهم بالسمع والطـاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب

الاليم . ثم ترشد الآيات الى ان عناد الكافرين منشؤه كراهتهم أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ؛ والله ذو الفضل العظيم .

الربع السابع :

المعجزة شأن من شئون الله

* والحديث فيه أيضا لا يزال في بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم فى التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، انه لم يأت بمعجزة تدل على انه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات موسى وعيسى ، كان العرب مثلهم فى هذا الشأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التى يذكرونها ويطلبون مثلها ، أو التى أنساهم اياها فلا يذكرونها ، الا اتى لرسوله محمد بمعجزة هى خير من المعجزات السابقة ؛ أو مثلها على الاقل فى الدلالة على صدقه « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالمعجزات شأن من شئوننا ، نختار منها ما نعلم أنه أوفق للمصلحة ، وأقدر على الاقناع وأنسب للعصر . ثم أخذ يذكرهم بسؤال أسلافهم لموسى ؛ وحذرهم أن يسألوا محمدا كما سئل موسى من قبل ، وأشار الى ان هذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفى هذا تحذير لضعاف

---

* من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة

الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم ، أو يسيروا فى طريقهم وقد أرشدهم الى ان هؤلاء المشككين يودون أن ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثر بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم ان تعتدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » ، وعليكم بتطهير انفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله » .

ثم يعود فيذكر بغرور الكذبين ، وزعمهم أنه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر ان أساس الاجر عند الله هو اسلام الوجه لله ، والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مسلك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء فى التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنا خاصا بكم ، وانما هى شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون به ، وانهم أرباب الدين الخالد ، وبهذه الخطة الفاسدة التى فرقت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم ان يختلفوا فى مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على

بعض بسببه ، فلله المشرق والمغرب ، يعبد فى كل مكان : « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » . ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الاقدس، فزعموا ان لله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما فى السموات والارض، وبأن كل من فيهما قانت له وخاشع ، وانه خالقهما ومدبرهما ، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون. واذا كان هذا شأنه فى الملك والتصريف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل منه وينسب إليه بالجزئية التى هى أساس البنوة والابوة : « لم يلد ولم يولد » . ويرد عليهم فى طلب مكالمته اياهم : بأنه طلب التعنت والاعراض من الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من أعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات اتباعه فى شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعدما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا شأن الكثرة الســـــاحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع فى ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا ففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، ويتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئك هم الذين يصح أن تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمع فى تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » ، أما الاكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقلدين الجاهلين ، فأولئك هم الخـــاسرون ، الذين لا ينبغى ان تكترث بهم ، ولا أن تطمع فى ايمانهم .

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بتسبتهم لاسرائيل ، نبى الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وانه لا يليق بمن كرمه ربه ، وفضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفى سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العـــالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » .

الفصل الثانى :

سورة آل عمران وسورة النساء

سورة آل عمران

الربيع التاسع :

أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، « لو أطاعونا ما قتلوا » .

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله فى هـذا الربع الى حملة من العلاج الذى يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثر بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بانفسهم فى سبيل الله، انهم ليسوا ــ كما يظن هؤلاء ــ امواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون ، بل لقد

★ من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرف عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهى : « فرحين بما آتاهم الله من فضله» ، وفرحين بما رأوا من المكانة التى أعدت لاخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترثين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضـــالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والاراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمـانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمـان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثر بالاراجيف والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انمـــا نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » .

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى : ان الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ، وانما شأنه وسنته أن

يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل السلم يختلط الكاذب بالصـــادق ، والخبيث بالطيب ، فيجرى الله احداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة الايمــــان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورســله وان تؤمنوا وتتقوا فلـكم أجر عظيم » .

عاقبة البخلاء

وكان مما ارشدوا اليه ان هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق في سبيل الله ، ويبخلون بمــا آتاهم الله من فضله : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى اعناقهم لا يستطيعون التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث السموات والارض ، والذى أنعم عليهم به من فضـــــله ليبلوهم أبشكرون أم يكفرون .

وبهذه المنـــاسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها الاعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام : « ان الله فقير ونحن أغنياء » « ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » . وتتوعدهم بالعذاب الاليم ، وتأمر الرسول بأن يرد عليهم بقوله : « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » ؟

تســـلية

ثم تأخذ فى تسلية الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد أن جاءوهم بالبينات ، وكان جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القوم المكذبين الخزى والدمار .. وتلك سنتنا مع الاولياء والاعداء ، وستنقضى هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئهـا وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصـادقون ما أعد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

الربع العاشر :

اعداد واستعداد

* بعد ان أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التى اصابتهم فى أحد لفت أنظـارهم الى أن ما أصـابهم فى تلك الغـزوة ليس آخر ابتـلاء يصيبهم من أعدائهم ، وأكد لهم أنهم سيختبرون فى مستقبل حياتهم بالشدائد فى الاموال والانفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا . فلا يظنوا ان الامر يقف عند حد هذه الغزوات الاولى ، فمرحلة الجهـاد

★ من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران

طويلة ، وتضحيات النصر كثـــيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : «لتبلون فى أموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلـكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التى اقترفوها وصدوا بها الناس عن الايمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا فى جنب الله ،وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله ، وأحباؤه وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوا لدعوتهم في التأليب ضد الحق الذى يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

الامر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى فى مواقف الجهاد والاخلاص فى الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق وأهله ، تأخذ فى تقرير ربوبية الله ، وانه صاحب الامر والملك والتدبير فى السموات والارض ، لا شأن لاحد فيهما سواه . فهــو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الـــكافرين : « ولله ملك السموات والارض والله على كل شىء قدير » .

وجوب النظر فى آيات الله

ثم تأخذ الآيات فى فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الاهواء والشهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » .

ثم تصف أولى الالباب بصفتين ، هما الحبل المتين الذى يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان فى هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع اوقاتهم ، وفى جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والارض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » تنزيها لك عن الباطل فى خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مآل غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من انصار » . ثم يؤكدون تلبيتهم لدعوة الحق التى ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان

ان آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » .

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق في الايمان والذكر والتفكير والتنزيه ، « فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه .

ثم يذكر بعض أسباب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة . ويخص أهم ما يطلب من المؤمن وقت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايذاء فى سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه ابرز دلائل الايمان ، وأقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب » .

تسلية وتوصية

ثم أخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاغتزاز بتقلب الذين كفروا فى البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .

أما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فمأواهم جنات تجرى من تحتها الانهار .

ثم يرشد احقاقا للحق الى أن من أهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما انزل اليكم وما أنزل اليهم ، خاشعين لله ، لا يؤثرون

دنياهم الفانية على رضا الله الباقى . ويبين ان هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم وفى هذا أطماع لغيرهم من أهـل الكتاب فى أن يعـدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وأن ينهجوا منهج اخوانهم الخـاشعين لله ، المحافظين على حدوده .

ثم تختم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء

الربع الاول :

(*) سورة النساء اطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهى سورة مليئة بالاحكام التى ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والاحكام التى يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، واغارة المحاربين . وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الاحكام التى تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد فى غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » فى مقابلة « سورة النساء الصغرى » التى عرفت فى القرآن بسورة « الطلاق » .

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها الله بنداء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم فى سبيل ذلك الامر بنعمة الخلق

★ من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١

والايجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هى رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الامر بتقوى الله الذى اليه تفزع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الارحام التى بينهم والتى ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشعوب ، والقبائل ، والاسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التى وضعها الله للناس ليحفظ قويهم ضعيفهم .

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذى فقد أباه والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتى تنتظمهن ولاية الرجال ، ففى اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » ، أو عن طريق الخلط « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم »» . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك التزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية فى أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن ، وأرشدت الى ان لهم فى غيرهن من النساء متسعا للتزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع .

وذكرتهم فى هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعددات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على

واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى الا تعدلوا » .

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها « نحلة » أى فهى ليست أجرا ، ولا ثمنا ؛ وانما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة .

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفى جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتيه ، وكل من لا يحسن التصرف ،حذرت دفع الاموال اليهم احتفاظا بها لهم ، وابقاء عليها للأمة ، فهى فى الواقع مال الجميع . واشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الاموال . وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الاموال اليهم وهو وقت الرشد، بعد أن يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية

فيما يختص بالحجر على السفيه ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم اذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الاحكام بتهديد الاوصياء فى أبنائهم الذين يتركونهم فى كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون ان يفعل الغير مع أبنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الاخروى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الاطفال ، ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وزاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فأبطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم .

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » .

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والازواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطبيب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من

الفقراء والمساكين والاقارب الذين لا يرثون ، « واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه . أما المبادىء التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين .. » .

الربع الثانى :

تفصيل الميراث

* بين الله فى هذا الربع ، وفى آخر آية من السورة، الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالابوة ، وبالامومة ، وبالزوجية ، وبالاخوة واهمل استحقاق الارث بالتبنى الذى كان معروفا عندالجاهلية، وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... » ، « ولكم نصف ما ترك أزواجكم .. » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة .. » وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الابناء : « للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » وميراث الوالدين : « ولابويه لكل واحد منهما السدس

* من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء

مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له أخوة فلامه السدس » .
وميراث الزوج : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » . ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس قوى فى تبادل التعاون والشعور بالمسئولية المشتركة ، حتى كأن الزوجية نوع من النسب والقرابة الاسرية .

ميراث الاخوة

أما ميراث الاخوة فيتبع جهة الاخوة ، فميراث أخوة الامومة ذكر بقوله : « وان كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد) أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » .

وميراث الاخوة الاشقاء ، أو لاب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت بها السورة : « ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » .

وجدير بالمؤمنين اذا قرءوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » ، وقوله :

« وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

جدير بهم أن يتدبرا تشديد الله فى المحافظة على احكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس مجل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير احكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التى لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو ايذاء وارث . ومنه يعلم بطلان التصرفات التى تجيء على أساس من حرمان بعض الورثة ، فعادة حرمان الاناث بالبيع الصورى ، أو بالوقف الذى أراح الله الناس منه : « من بعد وصيته يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم » .

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأنيب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففى فاحشة النساء « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن

اربعة منكم فان شـــهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن ســـبيلا » . وفى فاحشة الرجال « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » .

تعزير يؤدب به النساء أو الرجال فى فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بداقع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى الاقلاع والرجوع الى الله ، أما من يفعلهـــا ويرجىء التوبة الى أن يحضره الموت ويستشعر مقدماته ، فتوبته مرفوضـــة قطعا ، وهى كتوبة الذين يموتون وهم كفار . أما توبة الذين يفعلون السيئات عن ألف واطمئنـــان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شـــاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انمـا التـوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحـدهم الموت قال انى تبت الآن » .

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع ليأخذ مالها . وكان يضـايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعـــه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم

الانساني العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، ويقول :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذوا بهتانا وإثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الربع الثالث :

المحرمات من النساء

* والكلام فيه ، لا يزال فى الاسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى أصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الاسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب أن ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه القرآن : « انه كان فاحشة وساء سبيلا » ، وحرم التزوج بالام وان علت ، والبنت وان نزلت ، والاخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الاخ ، وبنات الاخت . وحرم بسبب طارىء وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقرابة . واقتصرت الآية على الامهات والاخوات ، وجاء فى السنة الصحيحة « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا

★ من الآية ٢٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء

كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلائل الابناء الذين هم من الاصلاب ، وحرم تحريمـــا مؤقتا الجمع بين الاختين ، ومن فى معناهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات ، واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتى تركن أوزاجهن الـكفار ، وتبين صدق ايمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن » .

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هـذه المحـرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من أحصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة ، كما أوجبت بذل المهور ، وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهى الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوج من غيرهن الا عند العجـــز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع فى الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وان تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التى يكون منها النسل ، ويتربى فيها .

النهى عن أكل الاموال بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد أن أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حمأة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثانى فى حياة الاسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعا فى حل الاموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، واجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله أثره السيىء

فى سلامة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء فى هذا المقام قوله تعالى: « ولا تقتلوا انفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشد العذاب من يعتدى على أخيه فى ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صغائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » . ولما كان معظم أسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد المكثر ، وتمنى أن يكون ما فى يد غيره فى يده ، نهى الله عن ذلك ، وبين ان لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه وقدرته فى الكسب والعمل ، ولا يتطلع الى شىء غيره : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله » .

أما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات المستحقين فيه وانصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم أصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض لا فى كسبه ، ولا فى ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » .

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الاعمال والانصباء ، وكان ذلك مبعثا لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات أن

الحكمة فى ذلك ترجع الى طبيعة كل من الرجل والمرأة ، فكلف الرجل ، بماله من قوة ، بالجهاد والاعمال الشاقة ، ومنح بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيبا أكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

معنى قوامة الرجال

ثم أرشدت الآيات الى أن تلك القوامة ليست قوامة استعباد وتسخير وانما هى قوامة رئاسة ونصح وتأديب ، كالتى بين الرجل وأبنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة أثر بالنسبة لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان أثرها بالنسبة لمن يظن فيها النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتأديب الذى يجرى فيها بين الرجل وأبنائه « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل العلاج من التأديب الذى يباشر الزوج الى التحاكم عند الاهل والاقارب الذين يهمهم شأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تتدهور الاسرة ، ويتشرد الاطفال ، وبقدر نية المحكمين ، واخلاصهم فى ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره .

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » .

الربع الرابع :

الاحسان فى كل شىء

* والكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالاحكام التى بينتها السورة فيما يختص باليتامى والاسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى ان سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان فى عبادة الله ، وهى أصل الخير كله ، والاحسان فيها أفراده بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيما هو من خصائص الالوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لانهما عماد الاسرة ، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الاقارب والجيران والاصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الامة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرةواحدة، متعاونة فى السراء والضراء ، فيتحقق الرحم الانسانى العام الذى افتتحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة .

ثم تشير الآيات الى أن التقصير فى هذا الحق الاجتماعى شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر

★ الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء

ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلات ، وتحدث بينهم الضغائن والاحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . وصنف يتعاظم على الناس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون أن يدفعه الى ذلك شعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذى أغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذى يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء فى اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايمانا يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص فى أدائها على وجه يغرس الفضيلة فى نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع أنهم لو اخلصوا لما فاتهم شىء مما يحبون ، ولحصلوا فى الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل أمة رسولها ؟ . « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا » .

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجا من شأنه اذا قاموا

على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلا ، ذلكم العلاج هو « الصلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر : « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وأرشدهم فى ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، ثم تلفت الانظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن « وان كنتم جنبا فاطهروا » ، وتذكر بنعمة الله عليهم فى الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهى طهارة التيمم حين لا يقدرون على الطهارة الحقيقية ، وهى طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من امرها ما يعلمون ، من الاعراض عما آتاها الله من أحكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لانفسها من عناوين التزكية كأبناء الله وأحبائه ، وما يوهمون به أنهم فى غنى عن العمل بنصيبهم من كتاب الله وشرعه ، وفى أثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى : « يأيها الذين اوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه فى وجوب الاخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين يبخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتزكية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن

مسلمون لله ، أن يتدبروا هذا التهـــديد الالهى ، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه وأحكامه ، وحرف كلمة عن مواضعه ثم عليهم أن يستمعوا الى وعد الله لمن حاد عن طريقه « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنـــات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » .

الربع الخامس :

الامانة والعدل

* والكلام فيه لا يزال فى التشريع الداخلى الـذى يحفظ على الامة استقرارها وهدوءها . وقد أرشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهـذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتهما ، والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الامانات الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والامانة اسم للحق الذى أودع عند الانسان ، وكلف

★ الآيات ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء

حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، او الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، واداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، واداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، واداؤه ابداؤه لمن يحتاج اليه ، أو لمن بيده التنفيذ ، واداء الامانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهذبة التى ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، وتنقية التعاليم الدينية من البدع والخرافات والاساطير التى تفسد على الناس دينهم وتصورهم ، كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ، وحفر الترع ، وانشاء المصانع كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو أمانة فى عنقه .

اما العـــــدل فى الاحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشـدت الآيات الى أن سبيل الامانة والعدل انما هو اطاعة الله المشرع ، والرسول المبين ، وأولى الامر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الامة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » .

ثم تلفت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، وتظهر ايمانها بشخصية الامة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الامة وقانونها ، وهم فى الواقع ينطوون على ارادة التحـــاكم الى غير دينها الحق تبعا لشـــياطينهم ، وسيرا مع أهوائهم : « واذا قيل لهم تعـــالوا الى ما انزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

وهذه نابتة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فاحذروهم واحذروا طريقتهم التى تفسد عليكم أمركم : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .

الا وان هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة الا اذا تابوا وطهروا انفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على البر والتقوى ، وخضعوا لاحكام الله، واتخذوها حكما فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدهم الى ما فيه خيرهم من الامتثال لما يلقى عليهم من أحكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها الطيبة : « ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذن لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » ، ثم تختتم الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من أول السورة ، تختمه بوعد كريم لمن يطيع الله والرسول فيه، وتعدهم برفع مكانتهم الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الاخيار « النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخل

ثم تأخذ الآيات فى الارشـــــاد الى ما يتوقف عليه استقرار الامة من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العـدة والاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء عليها ، المغتصب

لها ، وتأمر بتطهير الأمة من عناصر الفساد والتخذيل التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها .

ثم تعرض الآيات فى سيح طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سـبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما يتوقف عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقـاتلون فى سبيل الله ، الذين يبيعون الحيـاة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بانفسهم وأموالهم فى اعلاء كلمـة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين . « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعـا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

الفصل الثالث :

ســـورة الأنعــام وسـورة الأعراف

سورة الأنعام

الربع السادس :

تعامي المعاندين عن الحجج

قال تعالى : « ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

❊ هذا هو الربع السادس من سورة الانعام ، وسورة الانعام ، هي سورة الحجاج العقلي بين الحق والباطل ، وقد سلكت في حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكي بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين في كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا ــ تبريرا لعنادهم واعراضهم ــ حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا انهم ان جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وانما هم بذلك لا تنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ،

★ الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الانعام

وانه مهما سيق اليهم من حجج ، وهيىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون الا اذا سلكوا سنة الله فى ايمان من يؤمن . فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، وأقبلوا على النظر البرىء فيما يدعون اليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والايمان .

وان واجب أهل الحق بالنسبة اليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم . ولا يكترثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » .

واجب الدعاة

وليعلم أهل الحق أن سنة الله جرت مع كل نبى وكل داع ، أن ينبت لهم أعداء يقفون أمام دعوتهم ويعملون جهدهم فى صرف الناس عنها ، وما على هؤلاء الدعاة الا أن يصبروا ويصابروا ، ويعصموا أنفسهم وأتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفاسد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العاقبة للصابرين « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن » . ولقد كان فى قدرة الله ان يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتداء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما فعلوه » .

واذن فيجب على دعاة الحق أن يتركوهم وان يعتصموا بالحق الذى معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمائرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لاخوانهم السابقين :

« افغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم فى النصر والتأييد ، وبسنته مع أعدائهم فى الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم « وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله » ، « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان أطعتموهم — فى عقيدة أو عمل — انكم لمشركون » .

اعداء الحق

وقد جرت سنة الله أيضا أن يجعل أعداء الحق فى كل أمة « أكابر مجرميها » أرباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وأنهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم فى وضع العقبات ، وفى الكيد لارباب الحق ، ولكنهم فى سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدى هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » .

بهذا مضت سنة الله فى الاولين ، وتمضى به فى الآخرين ، وبه يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ، الذين يكيدون للحق ويصرفون الناس عن الحق « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد

بما كانوا يمكرون » . أما من يطهر قلبه من دواعى الاجرام ونوازع النفس الخبيثة ، ويستقبل الحق بقلب نقى فانه يدخل فى رحمة الله ، وينعم بفضله وهدايته :

« وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

الربع السابع :

مهتد وضال

* يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين طهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا فى أدلة الحق ، فانشرحت به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم ، ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا فى كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التى يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لاغراء المتبوعين . والتى تقطع عليهم فيها اعذارهم ، ويذكرون برسل الله وآياته ، فيشهدون على انفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هى التى غرتهم ، وصرفتهم عن الايمان بالرسل ، وعن النظر فى الآيات : « يا معشر الجن قد

★ الآيات ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام

استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض » ، « يا معشر الجن والانس . ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا » .

شبيه الشيء منجذب اليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » . وفيما بين هذا التصوير الآخذ بالنفوس والذى يعبر تعبيرا قويا عن عن علاقة الاتباع بالمتبوعين فى الدنيا والذى يوضح أن ضلال الفريقين انما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله فى خلقه ، تختص احداهما بالضلال والاضلال ، وهى ان النفوس المتشابهة فى عوامل الاعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم وأهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

الجزاء بعد الانذار

وتختص السنة الاخرى بشان الله فى الحساب والجزاء ، وهى انه ليس من شانه سبحانه أن يعذب الامم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى

صراطه المستقيم، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

سر التكليف والاختبار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التي يعامل الله بها عباده ـ في الضلال والهدى ، والانذار والتبشير ، والحساب والجزاء ـ لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغني الذى يحتاج اليه كل من سواه، وانما هى من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسىء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شاء سبحانه لاذهب العصاة المارقين ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولا يعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختبار ، واظهارا لفضل العقل الذى فضل به الانسان على غيره من سائر المخلوقات .

اذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما أحكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين فى عقائدهم على بعض تصرفاتهم التى كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، واعراضهم عن شرائعه وأحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم فى الحرث والانعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن فى طبائع الاشياء ما يسمح به

و يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ؛ وبعد هذا يأخذون ممـــا جعلوه لله ويضيفونه لمـا جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الانعـــام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون ، حرموا ظهور بعض الانعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها ، وأكلوا ما ذبحوه باسم الاصنام والشركاء ، وحرموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات .

وعبرتنا فى ذلك : ان التشريعات والتصرفات التي لا تؤســس على الايمان بالله وشرائعه لابد أن تكون عاقبة اهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم فى افساد نطف النسل الذى به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله فى خلقه ، وليقرءوا جميعا قوله تعالى :

« وقد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الربع الثامن :

نعم الله دلائل وحدانيته

* وفى هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد

★ الآيات ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الانعام

الماثلة فى نعم الله التى يتقلب فيها عباده ، والتى يسدون بها حاجياتهم ، ويمتعون بلذائذها أنفسهم ، يدبر من ذلك الزروع ، ويذكر الانعـــام ، ويلفتهم الى ما فى الزروع والاشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها فى مهامهم ، وبثمارها فى طعـــامهم ، والى ما فى الانعام من ثروة حيوانية ، لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » « ومن الانعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الانعام، كما تأكلون من الزروع والثمـــار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحله لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات فى الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحـــريم ولا يملك التحليل والتحريم سواه « قل الذكرين حـــرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا » .

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء اذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الانعام ، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى أهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام فى هذه الاصناف الاربعـــة ، وقد جاء ذلك الحصر فى سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى الى

محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى فى سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الانعام ، وسورة النحل مكيتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة فى سورة البقرة على نحو ما جاء فى سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » ثم جاء مرة رابعة فى سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من أواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام فى هذه الاربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم .

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين ، كان يتذرع بهما القوم فى أصل التحريم ، وفى عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم فى هذه الاربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ . وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ . ويجيب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل » ، « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون فى أصل التحريم والشرك ،

وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » يريدون أن الله رضيه وأمر به ؛ أو أنهم مجبورين عليه بقهره الذى لا يستطيعون التخلص منه ؛ وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون - ويجادل بها المبطلون ؛ فأشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ؛ فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكترث باعتذارهم : فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم على ما هم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » . واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : « قل فلله الحجة البالغة » .

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم ووعد وأوعد ، وترككم كما خلقكم ؛ مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسيء أساءته ، ولو شاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرون على العصيان ، أو قهركم على العصيان فلا تقدرون على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعده للخير والشر ، وهداه النجدين .

ثم يستنهض همتهم فى استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير فى طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الانعام لكثير من ادلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعاة ، وبينت فى سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله فى الاضلال والهداية ، وفى معارضة الباطل للحق حتى أوفت فى ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » ... الآيات . فركزت الدعوة فى أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففى جانب العقائد :

« ألا تشركوا به شيئا » . فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتحريم .

وفى جانب العمل :

« وبالوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفى احضانهما تربى ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقرير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة فى سلسلة النوع الانسانى ، وفى حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم .

★ الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الانعام

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعمارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أرادها الله . نعم . أهدرت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها . أو على نظام الله العام فحاربته وأفسدته ، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداء .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . فالاموال صنو النفس ، وعنصر الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر « الاكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس فى المعاملات التى لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. » .

وفى جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لامة عرفت بنقض العهود .

« وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الامم ، ومورد التهلكة .

وصايا الهية

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وانزل بها كل كتاب . فهى شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاءه بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى احسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لامانة الله « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع أحدهما الى تقرير الدعوة فى نفسه صلى الله عليه وسلم تقريرا يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلىء قلبه برهانه المادى والتاريخى : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم » ، «قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء » .

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الاثر فى قوة الداعى ، وفى تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة المعارضة الى مكان سحيق .

أما الخاتمة الثانية والاخيرة فهى ارشاد الانسان الى مكانته التى أعدها الله له فى هذه الحياة ، تلك المكانة التى تمثلها خلافته فى الارض ، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب عليه أجياله ، ويقوم اللاحق فى ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه قد

فاوت فى المواهب ليظهر من يحسن فى الخلافة فيكون له من الله مغفرة ورحمة ، ومن يسىء فيكون له من الله شديد العقاب : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » .

ســـورة الأعراف

الربع الاول :

مهمة التنزيل المكى

(*) سورة الاعراف اول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، واول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الانبياء، وهى أطول سورة فى المكى ومهمتها هى مهمة المكى : تقرير التوحيد . ربوبية ، والوهية ، وتشريعا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة . وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لاجلها جميع الرسالات الالهية.

واجب الداعى وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وارشدت الى الغاية التى لاجلها انزل ، والى ما يجب على الرسول بصفته الداعى ان يطرده عن قلبه حتى يقوى فى الدعوة ويقوم بالمهمة التى

★ أنظر أول الاعراف الى نهاية الآية ٣٠

ألقيت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » : فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير ، والا يضعوا أمامهم العقبات التى تحرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الاصول فى آية واحـدة ، تحمل الامر بناحية الايجاب ، وتحمـــل النهى من ناحية السلب ؛ فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم فى التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم فى الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .

ثم سلكت سبيل الانذار : فأنذرت بما أصاب الامم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعتت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم أن يسألوا عما أنزل اليهم، ويوم أن يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان او يخف : « فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعم ، فلفتت الانظار الى نعمة تمكين الناس فى الارض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى ، يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة والباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيهـا معايش » .

ولفتت الانظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم

به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء فى الارض وعمارة الكون، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد ان قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف أبى واستكبر ، وتعالى وتعاظم وقال « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به فى هذه الحياة ، والذى يجب عليه ـ ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله فى خلقه ـ أن يتخذه عدوا ، يتحسس نواياه ، ويتعرف وسوسته ويكافحه بكل ما أوتى من قوة . يعرف أنه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطته فى اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من اثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه فى رغد من العيش فابتلاهما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعا فى شر المخالفة ، فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما

الشيطان » ، « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا فى المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وأن لم تغفر وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وهكذا يجب أن يربط أولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا — كما عرف — كيد الشيطان ، ويطهروا أنفسهم — كما طهر — من وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله فى الارض ، وابتلاهم بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ، ويكيد ، ويفرق ، ويغرى ، ونظم حياته على قوى الافساد ، فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ».

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات اربعة تتجه بها الى الناس بوصف البنوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح فى الدنيا والآخرة .

الربع الثانى :

الانسان بين الخير والشر

* قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان له جانب خير يتلقى به أمر ربه ويمتثله وينفذه ، فيصل الى سعادته والى رضاه ، وله جانب شر ، به

★ الآيات ٣١ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة الاعراف

يستجيب لوسوسة الشيطان واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله ، وأولاد آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعداده فلهم كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم فى المخالفة والعصيان ، وابليس الذى نشأ على عدواتهم يغريهم ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لابيهم من عورات وسوءات .

لهذا وجه الله الى أبناء آدم ، بعد أن بين لهم عداوة ابليس لابيهم ، اربعة نداءات متتالية بوصف البنوة لآدم « يا بنى آدم » يرشدهم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عدوهم ، ويرشدهم الى أن هدايته لهم والتمسك بها هى وحدها سبيل عصمتهم من الوقوع فى كيده ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذى أصاب والديهم ، انما كان بنسيانهما نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان ، واغفالهما هداية الله .

امتن عليهم بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذى به يستـــترون عورتهم ويريشون به أنفسهم فى مناسبات التجمل ، ولفت أنظارهم الى ان تقوى الله فى الانتفاع بنعمة اللباس على الذى رسم الله هو أســاس الرضا ، وأساس الشكر « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتــكم وريشا ، ولباس التقــوى ذلك خير » .

وفى تحذيرهم من فتنة الشيطان التى فتن بها والديهم من قبل ، ووقعا بها فى المخالفة والعصيان : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » . وفى

سبيل هذا يرشدهم الى أن عدم الايمان بالله والاعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذى به يتسلط الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون لهم ان ما يفعلون من شر وفاحشة انما هو باذن الله وأمره « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجيء النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانسانى فى اللباس ، وانه من الزينة التى تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها فى المساجد وما يماثلها من المجتمعات ، ويرشدهم الى الاعتدال فيها ويضم اليها الاكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » .

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو المتنطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدهم الى ان الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش» التى تأباها الانسانية ،و«البغى» في الارض . و « الشرك » الذى لا تقوم له حجة ، ولا يوحي بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ، وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله واحكامه . وترشدهم الى أن لكل أمة أجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الاجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرماته ، وأصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حرمان ابدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذبين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على أنفسهم بالكفر والتكذيب ، وأن أربابهم ــ الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله ــ قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضـــالين ومضلين الحرمان الابدى ، ويوصد فى وجوههم أبواب الرحمة ، ويصف تقلبهم فى طبقات الجحيم المستعرة ، « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين » .

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذبين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين : صفاء النفوس من الغل والحقد ، وحمدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهـــار » ،

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

* يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه الوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين، وتجرى فى هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والايمان . وفرقة الكافرين ، اصحاب النار، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا فى هذه السورة ، وفى هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهى الفرقة التى سميت بأصحاب الاعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » . « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » .

مشهد أخروى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخييل تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شماتة أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا أن يقولوا

* الآيات ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الاعراف.

« نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، ومشيرا الى أن ظلمهم للحق ولانفسهم هو الذى حملهم على الصد عن سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ؛ وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين ان بين الجنة والنار حجابا ، وأن على الاعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم «ان سلام عليكم» وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم . ويبين لهم ما كانوا فيه من من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟ . ثم يلتفتون الى أهل الايمان ويقولون : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

ويستقر أهل الكفر والضلال فى الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء أهل الجنة : « ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله أعذارهم بأنهم كانوا فى حل يوم ان جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ « وقد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ؛ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الاعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيتهم للمنكرين الضالين .

الحجاب والاعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا فى الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا فى معنى الاعراف وفى رجاله . والذى يجب علينا أن نؤمن به ان هنالك حجابا بين الجنة والنار ، قد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا . والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد ان هناك ما يمنع وصول اهل الجنة الى النار ، أو وصول حرارة النار اليهم ، ويمنع وصول أهل النار الى الجنة ، أو وصول نعيمها اليهم . وأن هذا الحجاب لا يمنع من وصول الاصوات عن طريق المناداة ، ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الاصوات دون رؤية ومشاهدة . أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخييلا ولا تمثيلا .

أما الاعراف ، فأظهر ما يراه فى معناها ، الاماكن العالية الممتازة ، يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ما جعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الامم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم فى مثل قوله تعالى : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيدا وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ، «وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

عظات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض الادلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ،

وتحذر الافساد فى الارض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التى تنفعل بهذه الادلة فتؤمن وتصدق وترد الامر كله الى مصدره ، خالق السموات والارض ، والذى له الخلق والامر . ومثلا آخر ـ يقـــابله ـ للقلوب الملتوية التى تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما اجملته السورة فى أولها من أحوال الامم المكذبة : فتذكر جملة من الامم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الاول الاب الثانى للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وأن الذين ناصبوه العداء وأخذ يسـالمهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وان نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين .

الفصل الرابع :

سورة يونس
وسورة هود

سورة يونس

الربع الثالث :

* عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التى كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ؛ وحول القرآن . ووصفت فى كل ذلك ما شاءت أن تصف وفى هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التى خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة، وهى دعوة الله التى يدعو بها الى دار السلام ، والامن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التى لا يلحقهم فيها تكدر ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم فى دار الخزى من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم تصف مشهدا من المواقف التى يصير اليها المكذبون

★ الآيات من ٢٥ الى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس

يوم الحشر الذى ينكرونه ويهزءون بذكراه ، ذلكم المشهد الذى يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتتقطع ما بينهم من صلات . ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم ايانا تعبدون » : « ان كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفى هذا الموقف ينكشف الغطاء . وتزول الاهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل : ليس لها شفيع من دونه : « وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات الى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية فى الخلق والتدبير والرزق ، والاحياء والاماتة وتسجل عليهم الجواب المتين الذى لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الالوهية القاضى بعبادة الله وحده : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال » .

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة ايضا فيما وراء الخلق المادى ، من أنواع الهداية المودعة فى نفوس البشرية ، وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أم من لا يهدى الا أن يهدى » .

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون أنه من

عند الله ، فبينت لهم أولا ان القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، واقامة الادلة الكونية وشرح النفسيات الانسانية . والسنن الاجتماعية ، والمغيبات الماضية والمستقبلة ، والاحكام التي ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الاولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » .

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد فى البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبليغ وبلغاء .

ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى أنهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم تنفذ عقولهم الى أسراره وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لاخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم ايمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وانما هو ناشىء عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وانه لا ذنب لاحد سوى أنفسهم في تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها

ولم ينتفعوا بشيء منها ، او كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الابدى بما فرطوا فى جنب الله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

الربع الرابع :

انذار وامهال

* من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم ، ثم لا يأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة انفسهم ، فاذا انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما اسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون انهم فى الانكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟! . وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به !

أمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم ان العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وانهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيدا لذلك فى نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعتلج به حينما يطوقهم العذاب من محاولة الافتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التى أوقعتهم فيما هم فيه.

★ تقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس

ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر فى الفطرة البشرية من ان صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو الله الذى له ملك السموات والارض ، والذى له الاحياء والاماتة ، والذى اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات فى بيان فضل الدعوة على الناس ، وانها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الاوهام والخرافات ، وارشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الانسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها . ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير مما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التى ليس وراءها الا الخسران المبين .

ثم تبكتهم فى أثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله فى التحليل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله « قل آلله اذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » . أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟ . « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع فى كونه الذى خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . وانه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم فى الدنيا ما يضىء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة

وجاه ، ولهم في الحياة الآخرة ما يضيء وجوههم من غلو الدرجات وزيارة الفضل والعطاء .

خرافة الشركاء

وإذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن فى صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذى له ملك السموات والارض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونهم شركاء ، ليسوا فى واقع أمرهم شركاء ، وانما هم ضعفة عجزة ، لا يدفعون عن انفسهم شيئا ، « والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وانما خيل لهم الهوى والشيطان انهم شركاء، فضلوا « وان هم الا يخرصون » . ان الله الذى جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذى جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، ويقولون فى شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم الينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

الربع الخامس :

* تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقليـة ، ودفعت كثيرا من الشبه التى كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر فى الاثناء بما أصاب الامم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

تسلية وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات « واتل عليهم نبأ نوح » تفصل من هذه النذر الاجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث فى قصة نوح على ما دعت اليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه أبو طالب ، وفقد النصير فى البيت ، بموت زوجة خديجة ، واشتد القوم فى ايذائه والكيد له ، فأخذت الآيات فى تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا فى ذلك على الله وحده ، وأرشدته الى أن طول الامد على نوح ، وشدة أعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ،

★ الآيات من ٧١ الى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس

وطلب اليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا فى أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم فى سبيل الايقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون امهال او تردد ، وسوف يرون انه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبأ لهم بجمع ، وكيف يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته اياهم جاها ولا مالا ، وانما يطلب بدعوته تنفيـــذ أمر ربه ، الذى وكل أمره اليه ، واعتمد فى السراء والضراء عليه : « يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت » .

فهذا يا محمد ، موقف اخيك نوح ، تمسك به وان طال عليك الامد ، واشتدت شكيمة الاعـداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هى عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصـــالحة بايمانهم وتوكلهم على الله سينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على انزاله بأعداء الحق فى كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنـــا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

اما قصة موسى واخيه ، فقد تحدثت الآيات فيهمـــا عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التى استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة، وردتهـــا الى أمرين : التمسك بالموروثات الفـاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعـوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى واخيه « وتكون لكما الكبرياء فى الارض » وأخذوا بهذا

وينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « ان هذا لسحر مبين » .

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التى توقع فى روع العامة ان المعارضين على حق فى المعارضة والتكذيب ، ولكن الباطل لا صبر له على البقاء امام الحق ، وسرعان ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا فى ميدان التحدى « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الايمان ، ولكن الجبروت يتخذه صاحبه سلاحا فى يده، يرد به الناس عن تلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الايمان ، ولا يقوم عليه الا أرباب النفوس القوية ، التى تبدد قوة ايمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب فى قلوب أعدائهم ، وهى ان يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسموا أرواحهم ويشرق عليها نور الحق .

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

ينطلق لسان موسى بدعـــوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب السماء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان ســـبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأييده .

الربع السادس :

النظر فى العواقب

لو تمثل للسارق وقت سرقته قطع يده أو للزانى وقت زناه ، حرمانه من الرأفة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا قتلهم أو نفيهم من الارض ، لـمـا أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض . ولا مفسد على الافســـاد . وتلك طبيعة بشرية تتجلى فى المجرمين حينما يأخـــذهم العذاب ، وينزل بهم النكال ، وهكذا قص الله علينا المرحلة الاخيرة من شأن موسى وفرعون فى تأييد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

ايمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقــومه ، بقصد الفتك بهم « بغيا وعدوا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه وعيه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة

★ الآيات من ٩٠ الى آخر سورة يونس

التوحية «آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل». ولكن هيهات بعد أن كاد للحق ، وكان فى سعة من الامر ، والرسول يدعوه ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه، مفتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء ان يقبل منه ايمان ، أو يلحقه عفو وغفران ، « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى أن يجعل منه آية، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله فى المفسدين : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هى الخاتمة السيئة التى زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها أن تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته .

تأسيس الايمان

أما الجملة الاولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك فى القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان ، لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين .

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزى ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟ . ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجاء ، ولو أراد الله ذلك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجـزاء ، وتلك سنته التى ربط فيها بين الاسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعـل الرجس على الـذين لا يعقلون » .

واذن الله ، سنته ونظامه فى ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ، عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجاء ، واذا كان الشأن مبينا على ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على المعرفة ، آمن وعرف ، ومن اعرض عن النظر والتدبر فماذا تنفعه الآيات والنذر ، ليس له فى سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

ثبات الرسول

ثم اخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبى على دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من مساومة أو محاولة ، وفى هذا السياق ، تقرر الآيات الاصول الاولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص العبادة له وحده وربط القلب

به عن طريقه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، ثم توصد باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ، والعاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وان يركن اليها ، فكما لا يعبد غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب سواه ، فهو صاحب الامر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لاحد من عباده حق التصرف فى خلقه : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله .

هو هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح المعالم ، بين المسالك فمن اهتدى به فقد انقذ نفسه ، وحصل سعادته ، ومن ضل واتبع الاهواء فقد دس نفسه وعرضها للخزى والنكال

أما أنت يا محمد فسر فى طريقك وثبت قلبك ، «واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

سورة هـــود

الربع الاول :

* هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكى : تقرير أصول الدين ، واقامة الادلة عليها ، ورد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام .

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر للسورة يرى انها .. أولا : قررت عناصر الدعوة الالهية ــ وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث

---

* الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود

ـ عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الاول منها : « مثل الفريقين كالاعمى والاصم .. » .

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وانذارا للمكذبين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » ثم ذكرت فى اثنتى عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله فى أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبى ومن تاب معه فى مثلها اثنتى عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية السورة : «ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

كتـــاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود . وقد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل ، وبالتفصيل فليس فيه خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا تخفى عليه مصلحة ، تأخذ فى تقرير الوحدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو وحده المرجع فى طلب المغفرة وقبول التوبة ، وأن مهمة الرسول، هى الانذار والتبشير : « الا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم

متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » .

وفى أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتى الدنيا والآخرة اذا هو لبى الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور لنا حالة المعرضين فى محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم فى ثيابهم على صـــدورهم مع وضوح الادلة فى أنفسهم وفى الآفاق : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقهـــا » . « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام » .

ثم ترشد الى أن أعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوســهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعماء ، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر فى قلوبهم ،لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العـــاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفـــرة وأجر كبير » . ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات فى تسليته ، وبيان ان فى القرآن الغناء لمن يريد أن يؤمن ، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهى التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم اياه لم يكن لطلب حجة هم فى حاجة اليها . وانما هى الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر فى حجة الله التى أنزلها بعلمه ، وسيرون ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ،

وخبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتا على حقبة الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه وأتجه اليها ، والى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع الى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله الى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به الا الذين حرموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الاولين : « فلا تك فى مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الاوصاف وترشد الى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم تختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

الربع الثانى :

❋ هذا هو الفصل الثانى من سورة هود ، ومن سنة القرآن ان يتبع تقرير الدعوة بما يدل على أنها بأصولها وأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، هى دعوة الالوهية الوحيدة ، التى بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة

★ الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود

الى مرحلتها الاخيرة ، مرحلة الاكمال والاتمام ؛ وهي مرحلة محمد عليه السلام . وان محمدا لم يكن بدعا فيها ، كما انه لم يكن بدعا في المقابلة بالتكذيب من قومه، وانما شأنه في الدعوة وفي أعراض قومه عنه ؛ شأن اخوانه السابقين مع أممهم ؛ وسيكون شأنه ؛ وشأن قومه في العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « فهل ينظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين ، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

وفي هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه هودا وقومه ؛ وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعونه . وفي كل قصة من هذه القصص عبرة أو عبر ؛ جدير بدعاة الحق في كل زمان ومكان أن يملأوا بها قلوبهم ، فيطمئنوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذبين أن يتمثلوها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم من قبل .

قصة الاب الثاني للبشرية

وبدأت السورة بالاب الثاني للبشر ، وهو نوح عليه السلام ، فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه انذرهم الشقاء الابدي اذا هم أعرضوا عن دعوته ؛ واستمروا على عبادة الاصنام من دون الله : « اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وذكرت أن القوم طعنوا في رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، أي والبشر لا يصلح في نظرهم أن يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا أراذل القوم يريدون الطبقة الدنيا و « الفقراء » ولو

كانت حقة لسارع اليها أرباب المصالح والثراء « الطبقة العليـــا » ، وانه لا ينبغى لهم أن يجعلوا أنفسهم وهم أصحاب المال والسلطان فى مستوى هؤلاء الفقـــراء ، يجمعهم واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم أن ينزلوا بأنفسهم الى مشاركتهم فى اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف من قوم نوح ، هو أول بعث لفكرة الطبقات ، التى تقلب بها المجتمع البشرى — ولا يزال — على كتل من الجمر ، محـــرقة للفضائل ، مضيعة للكفارات ، فمتى يفيق العالم وهو فى آخر مراحل الرقى ، ويخلص نفسه من هذه العلة المزمنة التى اندفع اليها وهو فى طور الطفـولة التى لا رشد فيه ؟

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولا ان صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة الايمان بها ، ليس من شأنه أن يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ، وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولاترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ، وانما يدعوهم اليها طلبـــا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام هذا الموقف الذى ان دل على شيء فانما يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق ؟ ، والا فـكيف ينقمون منه أن أجاب الفقراء دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر ، ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ، والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه ان يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله أن طردتهم » ؟

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ، وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو ان يكون محيطا بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر ، ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ رسالته ، ولم يجعل الناس أمامه في التبليغ الا كما جعلهم في الخلق ، سواسية لا طبقات ، ولا أسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين » .

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه الف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ويدفع الشبهة حتى اخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول . فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الموغل فى العناد ، يلقى بنفسه فى اليم ، أو فى النار ، حتى لا يقال : غلب على أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدرى انه يسجل على نفسه نهاية الخزى فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا أن كنت من الصادقين » ، فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين » .

وتأتى المرحلة الاخيرة فيعلم الله فيها نوحا أنه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ،

واتخذ وسيلة النجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون » ، فيمتثل نوح الامر ، ويصنع الفلك « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » ، فيؤكد لهم أن عاقبتهم في موقف السخرية والعذاب ، هي عاقبتهم في موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزى العذاب ، كما أصابهم خزى الحجة والبرهان . وان من العذاب ما يرفع صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين في سبيل الحق يصيبهم على أيدى الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم .

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلا يشفى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الاعراض عن الحق والكيد لاهله وهو عذاب الخزى الذى يعقبه عذاب دائم أليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

الربع الثالث :

بنوة الايمان هى الحقة

★ صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفجر الماء حتى طغى ، واخذت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » .

★ الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٠ من سورة هود

فأبى الولد ، وعزف عن دعوة ابيه ، واعتقد أنه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الابوة الطبيعية . فطلب من الله انجاز وعده فى أهله معتقدا ان ابنه من أهله الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين » . فيرد الله عليه بأن النبوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد ازرها بنوة الحق ، والاعتصام بامر الله « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا فى رسالة محمد يؤيد ويفصـــــــل ما جاء فى رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح » ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى أعــوذ بك ان أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل: بأن الطوفان لم يكن عاما ، وأن التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الاب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومه بحكم السنة الالهية فى ارسال

الرسل الى أقوامهم . ومن قائلٍ بأنه لم يكن بسطح الارض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه فى السفينة ، وأن رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه ، لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ، وأن نوحا هو الاب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وأن الطوفان كان عاما للمعمور من الارض اذ ذاك .

هكذا اختلف الناس وأكثروا من القول .

رأى الامام الاكبر

والذى نراه أن المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحي لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الاوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وأنواع العبرة . وعلى كل ف « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو أنه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شيء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح الارض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا . وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالته على أن القرآن من عند الله ، يختم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من انباء

الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » .

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح ، بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته أيضا الى قومه ، وانه اخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتوالوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان الهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرأ من آلهتم ويتحـــداهم ، ويستنهض همتهم فى اقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وانه سوف لا يعبأ بهم ولا يجمعهم : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » .

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصرة أوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » .

الفصل الخامس :

سورة الكهف وسورة مريم

سورة الكهف

تقـديم :

* سورة الكهف هي السورة الثالثة من سور خمس فى القرآن الكريم ، بدأت ب « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والانعام ، وبعـدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الـكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم الفه الناس فى تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الارض من زينة ونعم مادية انمـــا كان طريقا لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون ؟ . وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا » .

قصص وامثلة للعظة والعبرة

وفى سبيل ذلك تقص ثلاث قصص لكل منها دلالتهـا الخاصة فى تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة

* تقدمة عامة لسورة الكهف

ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وقصة موسى مع العبد الصالح ، وهي قصة التواضع الذي لا يعرف في سبيل العلم والتكمل بالمعرفة التكبر ولا الغرور : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ؟ . وقصة العدل واغاثة الضعيف ، وهي قصة ذي القرنين الذي اتصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين .

وكما استخدمت السورة في سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بينت بها ان الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغني المكاثر بماله والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين .. » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء » . ومثل ابليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » . وهنا حذرت الآيات أبناء آدم فسجدوا واعوانه أولياء من دون الله وبينت لهم انه وذريته أعداء لهم من أول النشأة ، يدفعونهم الى الشر يكيدون لهم عن طريق الاغواء ، ويصرفونهم عن ارباب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يطردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف .

ثم تبين ان هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم في شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت ان خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم في

فعل او يشركهم في رأي ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟ ، وكيف تروج عند الناس وسوستهم .. ؟ « ما أشهدتم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . فتخلوا عنهم كما سيتخلى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم الى النار « ولم يجدوا عنها مصرفا » . ثم تشير الآيات الى أن أعراضهم عن الحق لم يكن ناشئا عن حاجة الحق الى دليل وانما هو الطغيان الذي يمنع صاحبه من الايمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليدحض به الحق ويحول بينه وبين التفكير في العاقبة فلا يتذكر الا اذا استمر به العذاب او فاجأته سنة الاولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيراها المنكرون من بعد .

ثم تذكر الآيات انه لولا رحمة الله بعباده وانه يمهلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولكنه جعل لهم موعدا لن يجدوا من دونه مصرفا عن العذاب « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

وجوب التواضع فى طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع فى طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فان موسى مع علو شأنه في المعارف الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق فى سبيل العلم دون نظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفي هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وانه لا ينبغي أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعي اليهم ، وتزكيه النفس بعلمهم ، فهذا موسى نبى الله وكليمه ، لا يكاد

يعلم بالعبد الصالح وبما عنده من علم حتى يجمع امره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين أو امضى حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا فى أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل : فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . فيعده العبد الصالح بالبيان اذا هو التزم الشرط : « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجىء به موسى ان العبد خرقها ، وكان لخرقها هول فى نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فأنكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان .

وكان الحادث الثانى أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الانكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العلاقة ان عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه اقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال « هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

الربع الاخير :

سر الاحداث التى انكرها موسى

وفى هذا الربع يفى العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الاحداث التى فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، والاحسان لقوم لا يعرفون قيمة الاحسان . وقد كان منشأ الانكار عند موسى أنه لم يعرف سببا يبيح اتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشـقة لقوم لا يطعمون المحتاج . ويدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظـالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح أن يعيبها فتسلم لأهلها الفقراء : « واما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لابويه ، فاحتفاظا بسعادتهما، وابقاء على ايمانهما قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » .

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده .

★ الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان احد طرفيها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن اين لهم مثل موسى نبى يوحى اليه ، وتجرى حوادثهم على يديه .

واما الجدار فليس الشأن فيه لاهل القرية ، وانما هو لايتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليهـا أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب « أخف الضررين » التى تبيح للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير » .

ولقد عرف موسى من هـذه الرحلة ان وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عادته باطنا تشرق عليه فيه انوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثر بالعلائق المادية ، والمنغصات البشرية ، ويصفوا لله فى الدعوة الى الله .

نبأ ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدى الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقى المحسنون فيها جزاء احسانهم، فبخس احسان المحسن لا يقل فى ضرر الجماعة عن محاباة المسىء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محاباة الظالم تغرى بالظلم فان بخس الاحسان يحرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين .

أما الجانب الآخر من قصته : فهو ماثل من قوته واعتمـــاده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من افســاد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق .

يصل ذو القرنين الى قوم لا تســاعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شـــكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال : « ما مكني فيه ربى خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا. ولا يلقوا بكل أمرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفســدون اليهم سبيلا : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب، ولا تقبل دعوة خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمــل حازم يقى الشعوب ضرر المفسدين ، وواجب الامة مع

هؤلاء المخلصين أن يبذلوا فى معونتهم ما استطاعوا بقوة واخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتأليب الاعداء عليها ، فهى دعوى يجب أخذ الحيطة منها وواجب الامة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها النابعة من الايمان وحب الوطن .

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس فى هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتنكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم فى غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه . ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجمل للقوم رسالته : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

سورة مريم

كهيعص

* سورة مريم من السور المكية التى تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهى احدى تسع وعشرين سورة بدأت بحروف هجائية . وقد لوحظ ان هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتنويه بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة .

ولعلها لهذا بدأت كلها ببدء غير مألوف .. وهو تلك الحروف الهجائية التى تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون البدء الغريب قرعا للاسماع واعدادها لتلقى غرائب لا تعرف السنن المألوفة .

★ الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦ من سورة مريم

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبى الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وأرشدت فى أولها ان ما ستتحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، أثر لرحمة الله به ، ولا ريب ان الخلف الصالح ، الذى يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الاب ، واستمرار لأثره ، الذى يتحقق به نفعه فى الممات ، كما تحقق نفعه فى الحياة .

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال أقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه فى القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهى فى كفالته ــ كما تحدثت عنهـــا سورة آل عمران ــ فشجعه ذلك على دعاء ربه أن يمنحه على كبره وليا يرثه فى مهمته ، فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من أقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، وأكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب انى يكون لى غلام » . فيسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » . فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها

حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب أجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءته هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة .

وعبرتنا من قصة زكريا أن أقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، واخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام .

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين فى غير موضع ، وقصة مريم أدخل فى الغرابة من قصة زكريا ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه فى بنى اسرائيل . وتحدثت سورتها هذه عن حملها بعيسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتغدير ظنون الناس فيها « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح فى معرفة

ما تجيب به قومها . وهي لنفسها أعرف ، ولا تملك من أمر الناس شيئا ، فتلبيها الرحمة الالهية : « فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما » . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم ابعث حيا » .

وبذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا أجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الارض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الاهواء اخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا ادا : « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ..

الربع الثانى :

قصة ابراهيم

* وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد

★ الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم

عنى القرآن بالحديث عنه عنـاية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس الى حجة ، وتحدث عن رحلته ، واسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين أنه أثر دعـوته ، وأن رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذه القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابيين .

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : «كان فتى الفتيان ، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، وماله للضيفان ، وأهله للوديان واقرأ كل ذلك فى القرآن » .

بهذا ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر فى الـكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابى ولا مشرك الا وهو يقـدس ابراهيم ، وما من مسلم يصلى ليلا أو نهارا فرضا أو نفلا ، الا ويدعو الله فى صـلاته أن يصلى ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذى يأمر الله نبيه أن يذكره لقـومه ، فيخففوا من حدتهم ، وأن يذكره لنفسـه فيتأسى به ، ويهتدى بهديه .

اسلوب ابراهيم فى الدعوة

وتخص سورة مريم جانبا من جوانب ابراهيم هـو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والادب الجم ، الذى من شأنه الاستيلاء على العقل الناد والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل

والفساد : « يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا ابت انى أخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم فى دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار والتهديد . « لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء : « سلام عليك سأستغفر لك ربى أنه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى الا أكون بدعاء ربى شقيا » . وهكذا تقف البنوة البارة من الابوة القاسية ، ومن قبل وقفت هذه الابوة الرحيمة مع البنوة العاقة ، دعا نوح ربه لنجاه ولده ، فعاتبه ربه وبين له أنه ليس من أهله ، ولكن للابوة مكانتها ، فلم ينكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنوة للابوة وان كانت مشركة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم اباه وقومه ، ويلقى بنفسه فى أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير فى طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

رسل كرام

ثم تقفى الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفاء النفس واخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر

اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التي هي درعه في دعوته ، والصدق حلية الايمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح .

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عند الله .

وبعد ان تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشد بذكراهم أزر الرسول في دعوته ، تعود فتجمعهم في اطار من الشرف الالهي ، وتنسبهم جميعا الى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الانساني العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحي الالهي .

ثم تشير الى الرباط النسبي الخاص بذرية نوح ومن كان معه في السفينة ، والخاص بذرية ابراهيم واسرائيل، ثم تذكر امتيازهم الديني ومكانتهم الربانية « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا ، اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

وبازاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت في وجهتها عن سلسلة آبائهم الاولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الاهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة الا لمن عاد اليه رشده فأدرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » .

من وصف الجنة

* قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتفنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وانما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرحمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحى دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وأن كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيدا لاستحقاقهم اياها يخلع الله عليها صبغة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وانما يراد بها ثمرة العمل والجهود ، وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .

ونظرا الى أن أهم أهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل أعباء التكاليف ، كان من سنته المفاجأة فى أثناء

★ الآيات من ٦٣ الى آخر سورة مريم

الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته .

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجىء وهو فى أحكام الطلاق والاسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفى سورة طه اذ يفاجىء ـ وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا ـ بقوله في شأن خاص بتلهف الرسول على تلقي الوحي : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما » . ومن ذلك قوله في سورتنا على ألسنة ملائكة الوحى فى شأن نزولهم على النبى صلى الله عليه وسلم وتطمينه على السير فيه الى النهاية : « وما نتنزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا، رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » .

البعث حق

ثم تنتقل الآيات وترد على حجج المكذبين فى انكار البعث : « ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وأنه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المنكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » .

غـرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم : وزعمهم أنهم متفوقون بها عن هــؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر اسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثا ورئيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحيــاة ليس الا اغراقـا لهم فى الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبـــة امرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شىء ، وسيجمعون فى ساحة العدل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا واضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين فى كل زمان أن ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، ويصوروهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم ، وعن ذلك الطريق يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهــؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الائمة المنتحلين سيتبرءون منهم ويكفرون بعبـــادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وفدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير .

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد،

والهوى المتبع لكثير من الطوائف ، فاتخذوه عقيـــدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التى شهد بها كونه فى تنزيه الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخر الجبال هدا » .

صورتان

ثم تختم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيهـــا ارتباط قلوبهم ، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيهـــا ما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضي عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فتتم عليهم كلمة الله : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .

الفصل السادس :

سورة طه

وسورة النمل

ســـــورة طـــه

الربع الاول :

* وسورة طه من السور المكية الاولى ، وقد نزلت لشد أزر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقى من الكيد والعناد ، ولارشاده الى أن مهمته هى فقط التبليغ والتذكير ، وسينتفع بهـــذا التذكير من طهرت نفسه وأشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الاهواء وزخارف هذه الحياة ، وانه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صـــدره بكفرهم واعراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » .

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئنه على نجـاح دعوته ، من جهة أنها دعوة القوى القادر الـذى خلق الارض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره الى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها .

---

* الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه

ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال فى كلمة التبليغ التى أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » .

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية ، نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين . وكما تذكر له قصة الصبر على مكايد القوم ، ونتيجته فى موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات فى آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التى يريد الله أن يتحلى بها فى دعوته وهى الصبر ، وعالجته من الناحية السلبية التى يريد الله أن يعصم نفسه منها وهى الحزن وعدم الثبات .

ثم تختتم باجمال المبادىء التى تملأ قلبه بالصبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون، وبتنزيه الله وتذكره الاعتماد عليه . وتحذره أن يمد عينه الى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عونا على أداء مهمته كما كان هرون عونا لموسى .

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة الى الرزق وتكله الى الله المنعم الذى تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق بك خير وابقى » « نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » ثم بعد أن تزوده السور بالاسلحة التى يبدد بها خواطر الضيق والحرج ، تغرس فى نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى » .

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح ان الشقاء المذكور فى قوله : « لتشقى » ليس هو الشقاء الجسمانى الذى نشأ من طول اقامته فى التهجد على احدى قدميه حتى تورمت ، وان « طه » ليست نداء له بمعنى يا رجل ، أو فعلا يأمره بأن يطا الارض بقدميه ، ليس شيء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل — والرسول يعرف دين الله ويسره — أن يقبل شيء من هذا . كما انه لم يعهد فى القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل ؟ ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس فى السورة شيء يتصل بقيامه فى عبادته على قدميه أو على احداهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسى الذى تولت السورة من أولها الى آخرها علاجه .

و « طه » هى كاخواتها ، حرفان من حروف التهجى التى افتتح بها كثير من السور التى عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خوطب النبى بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلا على ان الكلمة نداء له أو أمر له بمعناها : « المص كتاب أنزل اليك » . « الر كتاب أنزلناه اليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول فى كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه .

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل

الرسالة ، وأجملتها فى التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لمـــا يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله اياه فى الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت ان موسى فى سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه وان يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى فىدعوته، وان الله أجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته اياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ . « اذهب انت وأخوك بآياتى ، ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح فى الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف فى نفسه بعدم نجاحه ، فنلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها فى جـــوف البحار « لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلىء موسى ايمانا بمعية الله وحضانته ، ويتلقى من ربه مرة أخرى « فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنـــا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

الربع الثانى :

❋ وفيه يوجه موسى وهارون الانذار الالهى لفرعون

★ لآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه

وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الاخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى ، وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله ، وتلطف بالغ فى توجيه الانذار .

اسئلة واجوبة

وقد سألهما فرعون عن ربهما صاحب الوحى ؛ ومصدر الانذار ، وسألهما عن القرون الاولى وما تم فى شأنها ، اختبارا لعلمهما ، وكأنه ظن أن الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحى والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التى تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى » اعطى كل شىء الوضع والشكل الذى به تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التى توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثانى ان شئون القرون الاولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء اعلمنا بها وان شاء امسكها عنا : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

وجوب النظر فى الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ، التى يجدر بفرعون أن ينظر اليها ، وان يتعرف

حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليـه وعلى الناس : « الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سـبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » تبصرهم بالرب وترشدهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه .

أشياء لا يفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الاولى فما فائدته ، وقد عميت الابصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه أن شأن أولى النهى والعقول ألا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل فى سر غيبه ، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو ؟ وكيف يدخل فى جسم الانسان ؟ وكيف يوسوس له ؟ . وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سعتها ؟ ما أرضها ، ما سماؤها ؟ وما الى ذلك مما يترك به الانسان الجـاد النافع الى ما لا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى أن يذكر فرعون بالمبدأ والموت والبعث ، رجاء أن تهزه تلك الاطوار التى تمر بالانسان فتخفض من كبريائه : « منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

لجاج وحجاج

وامام روعة الادلة التى يرشد موسى اليهـا لا يملك فرعون الا أن ترتعد نفسـه ، فلا يجد الا جواب المبهوب

الذى يهرف بما لا يكون : « اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، واين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على أن يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الاعلى ؟ اللهم ان هى الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء .

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى توعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذى يجتمع فيه موسى بالسحرة، ويبذل فرعون أقصى جهده في جمع السحرة ، ويلتقى موسى بهم ، فيقول لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، قياما بواجب الارشاد والتبليغ ، « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » ويتركهم موسى بعد نصحهم يتنازعون ويتشاورون ، وأخيرا جمعوا كيدهم وتواصوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخيرونه بين أن يتقدم أو يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » فيوجس موسى فى نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى ان العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك أنت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا دعوة موسى فلا يملكون سوى أن يخروا سجدا : « آمنا برب هرون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعدهم بلجلجة الباطل : « آمنتم

له قبل ان آذن لكم أنه لكبيركم الذى علمكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرف عليهم نوره، ولا يعبئون بتهديده ، شأن العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم ان يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التى ادركوها بعلمهم .. الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى » .

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق . أما العلم الذى لا يصل بصاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فجدير به أن يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق ، فيوحى الله الى موسى ، انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « ان أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله أولياءه بما يرد كيد الاعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقى فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية

والزعامة الضالة تودي بأمنها الى مكان سحيق .

قتل الانسان ما أكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذى كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والنشأة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذى جاهد فى سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، علهم يخففون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله فى العفو والمغفرة مهما تضخمت الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم، ترغيبا للعباد فى الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

سورة النمل

الربع الاخير *

* هذا هو الربع الاخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التي عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهى احدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية : وهى سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها فى المنهاج ، بدات كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذى يوضح سنة الله في معاملة المكذبين الاولين ، وعن طريق لفت الانظار الى آثار القدرة الباهرة التى لا يعجزها شىء فى الارض ولا فى السماء ، وعن طريق التحدث عن الاحوال والمشاهد الهولية التى يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء . وهو حديث اليها أو تصير اليها يوم البعث والجزاء .

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى

★ تقدمة الآيات ٨٢ الى آخر سورة النمل

انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا « أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين » وحتى قالوا : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفى سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة اسلافهم الذين كذبوا بالبعث « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ». وأرشدت الرسول عليه السلام ان ينذرهم بمشارفة بعض أنواع العذاب الذى يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا فى الدنيا بأيديهم وأيدى المؤمنين . وان ارجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وانه سيقضى بينهم بحكمة فلا يضيق صدرك يا محمد بأعراضهم . « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الاكبر الذى أعد لهم فى الآخرة .

وفى هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه ، وان دابة لها من غرابة الشأن ما لها ستخرج لهم من الارض تنطق بالحق الذى أنكروه . وان الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا فى شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : انها ولد ناقة صالح فر الى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة وماذا علينا لو وقفنا فى حديثنا عن المغيبات عند القدر الذى أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل الى اليوم الذى يأتى فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وانما هو انذار ووعيد وتهديد .

فلنقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيما استأثر الله بعلمه « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الاهوال والمشاهد التى يراها الظـــالمون فى هذا اليوم : حشر لآخرهم على أولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزائه من صلات « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى اذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علمــا أم ماذا كنتم تعملون » « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : « صاغرين » « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » . وهنا أيضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عمن يحمله ، وعن عدد النفخات ، أهى ثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة فى الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « الا من شاء الله » تكلموا فى كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف .

وواضح ان فعلا من الله يصدر عن قــدرته النــافذة يقضى على هذه الحياة ، ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها الى حياة أخرى ذات نعيم دائم أو عذاب أليم .

ثم أرشــدت الآيات الى ان المكلفين امام شرع الله

ودينه ، أما محسن فله خير من حسنته ، وأما مسىء فعاقبته الخزى والنكال « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » ثم تختم السورة بهذه الوصية البالغة التى ترسم للنبى طريقه الذى يلزمه ، غير ضائق صدره بكفرهم ، وأن هدايتهم لا تنفع أحدا سواهم ؛ وترشده الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وان يكل القوم فى كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم يرون بأعينهم ما كانوا به يستهزئون : « قل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

الفصل التاسع :

سورة القصص
سورة العنكبوت
سورة غافر

سورة القصص

الربع الاول :

* سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت في المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق فى منهجها وهدفها كما اتفقت فى جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص فى قصة موسى وفرعون يتضح فى كثير منه أنه تتميم أو بيان لما أجمل فيها في السورتين قبلها .

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هى السورة الوحيدة التى انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من

★ الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص

القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو فى مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه فى تسمية السورة«القصص» وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الاحداث ، تتجلى فيها ـ أولا وقبل كل شيء ـ رهبة الطغاة من كل ما يتخيلون ان فيه زعزعة ملكهم ، والقضاء على سـلطانهم الذى يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب .

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو فى الارض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سيوفا يضرب بعضها بعضا ، وتلك عادة الطغيان فى كل زمان ومكان ، الرغبة تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من اثر تلك الرهبة ان أوحى الى فرعون من بعض شياطينه ان وليدا يولد فى بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصـدر أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبعث عسسه ، ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفذ الامر فيهم كى يطمئن على عرشه وسلطانه ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية فيتولى الله رعايته بما يرد على فرعون كيده فيه وطغيانه عليه ، ولا يزال رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت واذابة الطغيـان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعمـاء والقواد المصلحين والانبياء المرسلين : « ان فرعون علا فى الارض وجعل

أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوراثين ونمكن لهم فى الارض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا سنة الله فى الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ، رأيناها فى فرعون وموسى ورأيناها فى محمد وأصحابه، ورأيناها فى كثير من الازمنة وكثير من الامكنة . وحياتنا الحاضرة أكبر شاهد وأوضح مثال ، فهى سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن طريقه وطغى وبغى واخذ بالناس عن طريق الهدى والرشاد .

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد امه عليه ، فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره صدر زوجه وتوصى بالمحافظة عليه « قرة عين لى ولك لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

من عجائب الاقدار

ومن عجائب الاقدار ان الله نجى موسى بالبحر من فرعون ، واغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى

هذا ان الله يعد للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى. فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاظم فرعون بالانهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فرده اليها واحتضنته وهو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئة بالاشواك والاقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الاخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجأ عند الشدائد ، ويستنصرونه فى كربهم فينصرهم ، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان أنه عدو مضل مبين » .

ويتلقى موسى نبأ أئتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين .

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امراتين معهما أنعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهم ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احداهما « ان أبى يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه

القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والامانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات أو عشرا ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران « ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

الربع الثاني :

* وفيه ان موسى عليه السلام وفى الشيخ الكبير بما التزم فى رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التى عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والامانة ، وكانت سكنه وشريكته فى تلكم الرحلة الميمونة التى تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين .

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذى اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتمسا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا . فيرى النور الذى لا يلحقه ظلام ،

★ الآيات من ٢٩ الى نهاية الآية ٥٠ من سورة القصص

ويسمع الهداية التى لا يعتريها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى أنا الله رب العالمين » ، ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التى يعتمد عليها فى دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنهـا جان ، ويدربه على اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء « فذانك برهانان من ربى الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين» يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف ان يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن أتبعكما الغالبون » .

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزأ بالدعوة « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشتد طغيانه ، فيهزأ حتى بالله رب العالمين « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى » .

سنة الله مع اعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع اعداء

الله ، يجعلهم فى الدنيا أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته مع أوليائه دعاة الحق ، يجعلهم كما وعد أئمة فى الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفى كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله فى كتابه لتكون العظة اتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها فى كل زمان دعاة الحق على دعوتهم ، ويأخذ منهـــا الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع اسلافهم .

انباء اوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بما يقطع شك النفوس فى أنه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له انك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما فى أهل مدين تتلقى عنهم نبأ موسى فى سن الانعام ولا نبأه فى الزواج ، ونبـأه فى الاجلين . تقص عليهم هـذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليهـــا الزمن حتى نسى الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فارسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص

عليهم أنباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك أبطلنا حجتهم وقطعنا أعذارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضي عليهم بالايمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين .

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته فى النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟ أو لم يكفروا به من قبل ألم يقولوا عن موسى وأخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا ، انا بكل كافرون » فهؤلاء من أولئك .

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم . انكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية أن يأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما ؟ اما أن يكذبوا دون أن يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لاهل مكة اســاليب الدعوة ، والوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر فى آثار قدرته ولفتهم لتدبر سنته ، وكشف لهم عما أعد من عـذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول فى ذلك كله بعضه ببعض ، ووافاهم بحججه وامثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعـد عبرة . ومع هذا لم يؤمنـوا بل ظلوا على على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لـكان لهم من توصيل القـــول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك فى حقبة دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون حقيتها وانهـا تلتقى مع دعوة اخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كمـا آمنوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » .

★ الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت فطرهم ولم تفسدها العصبيات الضالة ، كما تعرض لاوصافهم التى استحقوا بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صبرهم فى مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لمصدر اساءتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم فى سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجاراة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير فى طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . فتلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم انت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله فى أنفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من أقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم أن هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد أن كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، ووهم باطل ، فالله الذى مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه أن يحفظهم

وأن يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم انصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكاره سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ثم ترشدهم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان مآله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئا من قضاء الله : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم في أى الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون وصورة الذين يرفضونها وبه يكفرون . « أفمن وعدنا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيهم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل . فتتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين اغوينا ، اغويناهم كما غوينا» أى لم يكن لنا سلطان في غيهم وانما عرضنا عليهم ان يغووا باختيارهم كما غوينا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الانباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون » .

النبوة شأن من شئون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحى على رجل

فقير يتيم من بينهم وقالوا « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القـــريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الاصطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشئون الخاصة بالله . فكمـــا لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيتهم لما يريد : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم في تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لاحد سواه فى ذلك التنظيم اذ هو جعل الليل أو النهار سرمدا : « من اله غير الله يأتيكم بضياء ؟ . من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا انفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويضل عنهم ما كانوا يفترون .

الربع الرابع :

علاج لنزعات الشر

* يعتز الناس فى دنياهم بمـــا لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر ، تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون عصـــابات الشر

★ الآية من ٧٦ الى آخر سورة القصص

والفســـاد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة فى الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، والى ان الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذا هو استمر على طغيانه ، وبطره ، وانه لا ينبغى لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايمان والتقوى والعمـــل الصالح .

قارون وأمواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفى سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتحه ، ونسى حق الله فى ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه ســيق اليه باستحقاق ذاتى ، وأعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ أمره وسلطانه .

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وان أحوالها فى تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وان سعادة الانسان انمـا هى فى أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم ،

وخرج بطرا فى زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا ان ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منهـا ما لا يدرك غيرهم ، أخـذوا يؤنبونهم على هذا التمنى ، ويؤكدون لهم ان ما وراء هذه المظاهر الفاتنة ما هو اسمى منها ، وهو معرفة حق الله فى نعمه وان للبغى من العواقب ما يجدر بالعاقل ان يقدره . وان يدخله في حسابه ، وقد صـدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هى الا دوره فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه فى طي صحائف الماضي : « فخسفنا به وبدأره الارض فما كان له من فئـة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا فى وصف زينة قارون، و كيفية خسف الارض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة « زينة » بالنسبة لما عهد فى مظاهر ارباب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فخسفنا به وبداره الارض »، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبنى قول الامام الرازى فى هذا المقـام : « والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة، وانها فى أكثر الامر متعارضة مضطربة ، فالاولى طرحها، والاكتفاء بما دل عليـه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب » .

وأرجو أن ننهج فى تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذى يحفظ علينا وعلى الناس ايماننا بجلال معانى القرآن وقصصه الحق الذى لا ريب فيه .

قص الله علينا فى السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وافساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه وتكبره ، وكلها سنن مطردة فى معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

تربية

شأنان لابد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالسعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد فى الارض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمال احكامه وشرائعه ، واهمال سنته ونظمه ، وقد نبه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس ، وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد .

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التى أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ،

والتى لا ينالها أحد سواه : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . وبقدر ما يتعلق اتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى ان انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به ، ومن رحمته بعباده ، فتمسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن من المشركين . « ولا تدع مع الله الها آخر ، لا اله الا هو ، كل شيء هالك الاوجهه له الحكم واليه ترجعون » .

سورة العنكبوت

الربع الاول :

الناس أمام الدعوات الجديدة

* من شأن كل دعوة جديدة دينية كانت أم سياسية ، أن تجد لها في الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله فى سبيل نشرها وتركيزها واقناع الناس بها ،وأن تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده فى ظاهره وباطنه في مكافحتها والقضاء عليها . فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فاذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون ما دام فى صفوفهم ، وما دام فى أمن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية ، واذا ترك هذا الصنف فى تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول

★ الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت

هدم فى جماعة المؤمنين ، وكان أشد فتكا بهم وبدعوتهم من اعدائهم البارزين .

لهذا اقتضت حكمة الحكيم ان يكون له فى كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تطهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل ، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الانظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وأنواع البذل فى سبيل الله : « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

الابتلاء سنة فى الاولين والآخرين

وفى هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وارشدت الى ان الابتلاء سنة فى الاولين ، وماضية فى الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

عناية الله بالمؤمنين

وفى اشد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون فى جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى ان الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولابد أن يقع دعاته تحت سلطان الله القوى

القاهر ، الذى لا مفر منه : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون » .

وتشد الآيات أزرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا فى تعذيبهم ، أو لتحصيل كمال ينقصه ، وانما يمتحنهم بالشدائد تقويه لايمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لاجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، فى عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوهم الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد فى سبيل الدعوة التى يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفى حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للابوة حقها الذى لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الابوة فى الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

من اوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين، فتذكر انهم يضعفون عن تحمل ايذاء الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشيا مرهوبا ، ولا يقدرون على

دفعه . وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم ، وتذكر أيضا أنهم لا يظهرون فى صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر ربك ليقولن انا كنا معكم » .

وقد كان من صور تغرير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم أن كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا ان عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد . والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ،وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، انهم لكاذبون » .

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فترشد بالاسلوب التاريخى الى أن الابتلاء ليس شأنا خاصا بمحمد وأمته ، وانما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشيعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فأنجاه الله كما انجى المؤمنين قبله .

ولا يفوت الآيات ان تقرع أسماع المكيين أثناء هذا القصص بالتبكيت والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثانا لا يملكون لهم رزقا ، وتأمرهم بالنظر فيما خلق الله ، وبالسير فى الارض ليعلموا آثار قدرته ، وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الاولى والآخرة ، وأنه على كل شيء

قدير : « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

الربع الثانى :

عاقبة صبر ابراهيم

* وفيه بيان عاقبة الصبر الذى اعتصم به ابراهيم فى الدعوة الى الله وفيما وجهـــه اليه قومه من كيد وايذاء ، قد كان منها أنه اكتسب قوة من عشيرته كان لها أثرها الواضح المستمر فى الدعوة الى الله ، هــو وابن أخيه لوط ، ومنها ان الله أعزه بالهجرة التى مكنت له فى القيام بدعوته ، ومنها أن الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير فى طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلأت جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العـــزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنـــا فى ذريته النبوة والـكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » .

لوط وقومه

وتسير الآيات فى تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتنويه بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والاذى ،

★ الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه فى دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التى شـذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بهـا خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرنى على القوم الفاسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر « ولما ان جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهـم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحـزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

عناصر الشر التاريخية

وتشير الآيات فى التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح ، ثم تذكر قـارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الارض وثلاثتهم من عنـاصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم فى الارض ، وبغيهم على عباد الله .

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم فى محاربة الحق ، على حروف المعـاقبة التى حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من عذاب الله « فـكلا أخـذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليـه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصـيحة ، ومنهم من خسفنا به الارض ، ومنهم من أغرقنـا ، وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

واذا كانت سنة الله فى أخذ الظالمين واحدة ، فنحن فى عصرنا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الاشجار وتنزل بشاهقات العمـــائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الارواح من الاشـباح ، وعن البراكين تتفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الارض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها، وعن الفيضانات ، وقد فار تنورها ، وأتت على كل شيء من الحضارات . كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم فى اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جديرا بهم اذا كانوا أرباب دين وايمان أن يبذلوا جهدهم فى وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، واقامة العدل ، والكف عن المظالم .

اوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل فى سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون النـــاس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصـور لهم ضعف الملجأ الذى اعتصموا به ، وهو الاوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، فى اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت فى اتخاذها بيتا من تلكم الخيـــوط الواهية الضعيفة التى تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فـذلك ولاية الاوثان لهـؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم

خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتـــا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويريهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل ـ الذى لا يقدر ـ وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره ، وبين من يتخذ المحيط بـكل شيء ، القادر على كل شيء وليا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » ، « خلق الله السموات والارض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين » .

ثم تتجه الآيات الى أهل الايمان الحق فى شـخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى فى هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده ، وقصصه واخلاقه ، وأحكامه ودلائله .

ثم توصي على وجه خاص بالصلاة واقامتهـا ، فهى المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهى العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهى النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما أوحى اليك من الـكتاب ، وأقم الصـلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

سورة غافر

الربع الثالث :

* هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بدأها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ؛ وكان فى مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التى يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب » . ولهذا البدء سميت بسورة غافر . وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لانها انفردت — وهى تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام — بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذى يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، وأخذ يلقى عليهم مواعظه التى من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق، والاستكبار عن قبوله . حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى وأنذرهم عاقبة استمرارهم فى الطغيان ، وضرب لهم فى ذلك الامثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذى سينالهم يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من

★ الآيات من ٤٦ الى ناهية الآية ٦٥ من سورة غافر

أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهـدى والرشاد ، وأنكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحيـاة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » .

يربط نفسه بالباقى الدائم ، لا بالمتاع الفانى : « يا قوم انما هذه الحيـاة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » .

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم — بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة — أن يدعوه الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل فى باطنهم : « ويا قوم مالى ادعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعوننى لاكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار » .

وأخيرا ، وبعد أن يبذل فى نصحهم أقصى الجهـد البشرى ، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحى بنفسه فى سبيل الحق الذى يدعو اليه :

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته أن حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم أن نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » .

العبرة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة أمران : أحدهما أن الحق ،

مهما تكتل على اخفائه ورفضه أعوان البـاطل ، لابد ان يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويغار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته فى سبيله حتى يظهره الله .

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين فى كل عصر ، وفى كل زمان .

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به ان يبذل غاية وسعه فى دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن ان لا فائدة من دعوته اياهم واعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سـيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعـذاب بئيس بما كانوا يفسقون » .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف أتباعهم من متبوعيهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزى والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعد أن قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسـلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال مبين » .

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله فى سـبيل الدعـوة

اليه ، وتؤكد لهم ان معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وانما هى أثر لكبر ملأ قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار » . ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الاكبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير » .

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله في الكون ، فتذكر نعمته على العباد بالليل الذى فيه يسكنون ، وبالنهار الذى فيه ينتشرون ، وبالارض التى عليها يقرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماء التى بمائها ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التى هى دعوة الحق : « ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

الربع الرابع :

* هذا هو الربع الرابع والاخير من سورة غافر ، وقد ختم الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة، تدعو الى أفراد الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق

* الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر

« قل انى نهيت ان أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين ».
فى الربوبية والعبادة فى نفسه ، وفى عمله ، وفى دعوته:

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الانظار الى جملة من الادلة النفسية التي يدركها الانسان فى كيفية خلقه وفى الاطوار التى مرت به : « هو الذى خلقكم من تراب من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا اجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون » .

شأنه كن فيكون

هذه الاطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاها، ودرج بالانسان فيها « هو الذى يحيى ويميت » والى أنه صاحب الامر النافذ الذى لا يعجزه شىء فى الارض ولا فى السماء « فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » وهذا شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم ، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الانسان ، وهو شأنه فى الحال ، وشأنه فى المال ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . « وكن فيكون » شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . واذا كان شأنه « كن فيكون » فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يغار عليه ، والذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ؟ ان حجج الحق قد طوقتهم ، وأخذت عليهم جميع المسالك ، ولم تجعل

لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الاغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلك الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » .

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون » .

ثم تلفت الانظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أوذوا فى سبيل الله وصبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بألبانها ونسلها . وفيما هيأ لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون » .

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين أنكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون : « فلما رأوا

بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون » .

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ، وسنة الله التى يأخذ بها الطغاة واحدة فى كل العصور ، فليحذر هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ، ومخترعات فى استعباد خلق الله واستعمار أوطانهم ، فليحذروا غضبة الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجد لسنته تبديلا .

الفصل الثامن :

سورة فصلت وسورة الشورى

ســورة فصلت

الربع الاول :

✽ سورة فصلت ، وتعرف بســورة السجدة ، هى السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفى « حا ميم » وعرفت لذلك فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت فى المصحف كما نزلت، هى كلها تؤكد أن القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العــزيز العليم » « تنزيل من الرحمن الرحيم » « تنزيل الـكتاب من الله العــزيز الحكيم » .

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس ـ كما يزعم المبطلون ـ من سحر الكهان ، ولا من أســـــاطير الاولين ، ولا من

★ الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت

مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقرر به أصول دينه من الايمان بوحدانيته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها فى سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه فى الانفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما أنذرت

ورغبت . انذرت بالعذاب الذى حل بالامم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة فى الدنيا ، وبالنعيم الدائم فى الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحليل نفسية المكذبين ، وصورت أعراضهم ، وجنايتهم على استعدادهم لسماع الحق والحكمة ، تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة لنفسه ، ونفوس أصحابه المجاهدين .

عنــاد

وها هى ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير أعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » . يصفون أنفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلا ينفذ اليها شعاع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهى لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى ــ محمد عليه السلام ــ حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الرأى . والمعنى فى ذلك كله أنهم طمسوا

استعدادهم ، وطمسوا على أنفسهم سبل الحق. وتصوير أعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والهدف ، فالقصد فى آية الختم بأنهم بأهوائهم أعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصد فى آية الاكنة ، انهم يحقرون شأن الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما يستحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الآذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل .

اوامر من الله لنبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته ، وانه ليس الا بشرا يوحى اليه ، فيبشرهم ان آمنوا ، وينذرهم ان أعرضوا ، وليس عليه شيء من تبعة أعراضهم وتكذيبهم « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » .

وتأمرنا ثانيا : ان يقرر لهم ان أعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر التكوين وأطواره فى الارض وما أودع فيها من جبال وأقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد افلحوا وسعدوا ، وان هم أعرضوا : « فقل انذرتكم

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

وتأخذ الآيات في بيـــان ما كان لهؤلاء من قـوة واستكبار في الارض ، ومع ذلك لم تغن عنهم قـوتهم ولا استكبارهم ، بل أخذهم الله بالعـذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

تأمره ثالثا : ـ بعد هذه المثلات الخالية ـ أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم ـ التي استخدموها في الشر والفساد ـ أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقر لهم الجوارح ان الله ، الذي انطق كل شيء بوحدانيته ، قد أنطقها بجرائمهم ، وأنهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

وهكذا تكون نهايتهم ، أجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا في ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ « فان يصبروا فالنار مثوى لهم ، وأن يستعتبوا فما هم من المعتبين » .

الربع الثاني :

اخوان السوء

* صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة ، وبين مصيرهم يوم القيـــامة وما يلحقهم من الخزى

★ الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت

والخسران وفى هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هـذا المصير السيء لم يكن أثرا لطبعهم على الضـلال ، ولا اكراها لهم من الله عليـه ، وانما هو أثر لتأثرهم باخوان السوء الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الاهواء والشهوات ، وعبرتنا فى ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الانسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء ان أرادوا حيـاة طيبة أن يتخيروا الاصدقاء ، وان يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سـلطان على قلوبهم .

وكما صور الربع الاول اعراض المشركين عن الدعوة فى أنفسهم بقولهم : « قلوبنا فى أكنة » ، صور هـذا الربع طريقتهم فى محـاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه ألسنتكم ، أشيعوا السخط عليـه ، انشروا عنه الاباطيل . وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق فى كل زمان ، يغمرونه بالاراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفـاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الاسفلين » .

المؤمنون فى رعاية ربهم

ثم تشد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم انهم ــ بايمانهم واخلاصهم فى الدعوة ، واستقامتهم على حدودها ــ فى حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويطرد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله فى منزلة لا يوجد فى حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزعات الشيطان التى يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

بعض دلائل الوحدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الانظار الى بعض دلائل الوحدانية فى علوى العالم وسفليه ، وأن كل ما فى الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى ان العدول عن مقتضى هذه الادلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد

هؤلاء الملحدين باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الالحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتي آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » .

تسلية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الامر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الامم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والاهواء، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذآنهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

ثم تختم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذة بالاعمال صالحها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الربع الأخير :

* ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ، وتصف الحشر اخرى ، وتتحدث عن العذاب ثالثة ، وعن أحوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه فى القرآن الكريم ، ومما جاء فى ذلك من سورتنا : « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » ، « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » ، « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ » .

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة وعن عذاب الآخرة تارة بالانكار والتعجب من الاخبار به ويقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « ومن يحيى العظام وهى رميم » ، وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرون : « ما ندرى ما الساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » ، وكثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان القرآن فى كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التى لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ،

★ الآيات من ٤٧ الى آخر السورة

وكان – فى سؤالهم عن الوقت – يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه ، ومن ذلك ما جاء فى هذا الربع : « اليه يرد علم الساعة » ، والعبارة واضحة فى أن علم الساعة لا يعلمه احد سواه ، وقد ضمت الآية اليه بعض الاحداث الكونية التى تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه ، « وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك المعنى فى كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » « قل انمـــا العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى » .

الحكمة فى اخفاء الساعة

والحكمة فى اخفاء الساعة هى الحـــكمة فى اخفـــاء الآجال ، هى الحكمة فى اخفاء الاحداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها لخـــارت قواه ، وانسد أمامه باب الامل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار فى حالة تشبه القهر والالجـــاء . وبعد أن وأضحت لهم الآيات شأن الساعة ، أخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم ينادون : أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرءون منهم ، ويسجلون على انفسهم أن أحداً منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » ، وهذا نوع

من الحيرة والتردد ، يلازمهم في الآخرة ، كما كان يلازمهم في الدنيا .

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات أن الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه في الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء الى ربه في وقت الشدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام والانعام ، واليأس والقنوط عند التقتير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته والاعراض عنه صلفا وكبرا ، وفي تلك الاحوال النفسية ، التى تحللها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى » . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التى يحملها القلب الذى لم يعتصم بالايمان بالله « فلما نجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق » ، « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور » .

أما العلاج فهو ما جاء فى قوله تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر

كبير » . وفى قوله : « أن الانسان خلق هلوعا أذا مسه الشر جذوعا واذآ مسه الخير منوعا الا المصلين .

ثم تختم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير — وهو على الاقل يحتمل أن يكون من عند الله — ليس فى نظر العقلاء الا ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟ » .

وبأن الادلة على حقية القرآن ، وانه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرف خواصه ، وسنن الله فيه ، فى الآفاق والانفس : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شىء وهم فى مرية من لقائه ، انه بكل شىء محيط .

سورة الشورى

الربع الأول :

* هذه هي السورة الثالثة من السور السبع ، التى عرفت فى القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهى تشارع زميلاتها فى الهدف والمنهاج ، فهى تؤكد ان القرآن ما هو الا تنزيل من الله الجـــامع لصفات الجلال والجمال ، والذى خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلى العظيم » وانه ليس الا وحيا أوحى به الله الى رسوله ، لينذر الاقوام الذين فســـدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دونه ، وهو الولى الذى لا ولى سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » .

وأرشدت السورة مع هذا كله الى ان وحى الله الى عباده حقيقة ثابتة ، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لاخوانه السابقين ، فليس الوحى شأنا خاصا به ، ولا هو بدعا من الرسل : « كذلك يوحي اليك

★ الآيات من ١ الى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى

والى الذين من قبل الله العزيز الحكيم » . « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

الوحي روح

ثم تصف الوحي بأنه روح يحيي القـــلوب الميتة ، ويهدى الى صراط مستقيم ، وأنه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة في أن القرآن ليس من عنده وانما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الـكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلنا نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .

ثم تقرر الســورة ان الوحي من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التى ظهرت آثارها في الخلق والرزق : « فاطر السموات والارض » ، « له مقاليد السموات والارض » .

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا، فذهب فريق الى انكارها ، وفريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هى أن الدين الذى أوحى الله به الى محمد هو الدين الذى أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرقة فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قــومه ، ولـكن الناس كبر عليهم ، حقــدا

وجسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأنكروها . او فرقوها ، وزعموا ان الاديان تتعدد بتعدد الرسل ، وأن لكل دين أصـــــولا واتباعا ، وأخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون ، والدين منهم برىء ، والله من رائهم محيط ، فدين الله واحـد ، وانـكاره من أحد الانبياء انكارا له من جميعهم .

وقـد عرض القرآن كثيرا فى مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت فى سورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه الســـلام ، واضع اللبنة الاخيرة من هـذا البناء الالهى ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصـــلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية فى القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المفرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته فى الهجرة ، وعدته فى الدعوة ، وعدته فى الوصول الى الغـــاية : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وامرت لأعدل بينكم ،

الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » .

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاة الحق الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها ـ بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها ـ معارضة ضائعة فاشلة : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

فالحق متى أخـذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله فى النفوس دون حرب ولا نضـــال ، وهكذا انتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الافئدة دون اكراه أو الجاء .

ثم أخذت الآيات فى تبكيتهم على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء فى العفو والمغفـــرة اذا هم اقبلوا عليه ، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعمـــلوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » .

الربع الثاني :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

* جاء في الربع السابق ، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وأن للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون في بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد في جل الازمان ان لم يكن في كلها .

وفي هذا الربع تكشف الآيات عن شأن في الانسان ، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بذلك الى عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الاليم ، فكان من الحكمة الوقوف بالمؤمن ــ فيما يجر الى الطغيان ــ عند حد القصد والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق الكمال الذي لا يؤدي الى الطغيان .

حكمة في بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين ، في الاعم الاغلب ، أقل من غيرهم في متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم ولا كذلك الذين جحدت قلوبهم ،واستولت الدنيا على نفوسهم : « ولولا ان يكون الناس أمة واحدة

---

* الآيات من ٢٧ الى آخر السورة

لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

بهذا طمأن الله المؤمنين ، قرر أنه لو بسط الرزق لهم ، كما بسط لغيرهم ، لمالوا الى الشهوات وانحرفوا عن عن الطريق المستقيم ، وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذي يعلم انه يقوم بحاجتهم وعزتهم ولا يطغيهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غيرهم ، ولا بخلا عليهم بما لم يبخل به على غيرهم فهو القادر على العطاء بغير حد ، وهو الذى بيده أسباب الرزق وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو الذى ينزل الغيث ، وهو الذى خلق السموات والارض وسخرها للانسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهو الذى وفقهم الى صنع السفن واجرائها فى البحار ، وكل ذلك ليس الا متاع الحياة الدنيا ، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين . وانما الذى يحبه لهم هو المتاع الباقى الذى لا ينفد ، والذى لا يحصل عليه الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل جعل همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره من الاثم والفواحش ، وانقياده النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخاشعة ، وحق اخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه عزة المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وانما انتصر لنفسه دون اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق » .

أجملت الآيات بهذا صفات المرضيين عند الله ، وهي كلها صفات تتصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة في الجانب الروحي ، والذي يجدر التنبيه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . وأشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شـــــورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

مكانة الشورى في الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق في سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان في هذا وذاك ابلغ دلالة على مكانة الشـــورى في شريعـة القرآن ، وحسبهـــا أنها عنصر من عناصر الشخصية الايمانية الحقة ، نظمت في عقد حيـــاته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصـــلاة والانفاق في سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان .

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عـدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاســـتبداد بالراى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب اهل الراى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفـــاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى – حين يضعها هذا الوضع – هذه الصورة الهزيلة التي يتواضع عليهـــا أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستارا للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانمـا

يريدها حقيقة نقية بريئة مما يكدر صفوها ، ويفقد خيرها .

وبعد أن تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » وتقرر للنبى صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وأنه ليس عليه شيء من تبعه كفر الكافرين ، واعراض المعرضين ، « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » .

ثم تؤكد له أخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم ، « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور » .

الفصل السابع :

سور

الملك • والقلم

والحاقة • والمعارج

سورة الملك

سورة الملك هي أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكي الذى نزل فى أول أطوار الدعوة تقريرا لاصولها الثلاث : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء .

والله ذو الفضل العظيم

فى القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعانى السمو المطلق فى الذات والصفات وبمعانى الكثرة والزيادة فى الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذى خلقه وابدعه وأودع فيه من الاسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناهه والاحاطة به .

وهذا الكتاب المتلو الذى ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشرى الى معرفة الحق فى الوجود ، والى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسراره ومنافعه .

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظـــر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع .

وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما فى كتاب الكون من آيات وعجـائب ومستودعات هى للانســان مسخرات .

وبهذين الكتابين ، الصــامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقـد جاءت أول كلمة فى الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة .

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هيىء له أن يصـل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له فى كتاب الكون ، والى كماله الروحى عن طريق ما أرشد اليه كتاب الوحى فى العقيدة والسلوك .

وقد أنزل - فى لفت الانظار الى الكتاب المتلو ، وتقرير انه الفاصل بين الحق والباطل - سورة الفرقان بكلمة التمجيد والتعظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبـده ليكون للعالمين نذيرا » . وأنزل - فى لفت الانظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية المادية - سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير » . ثم ساقت السورة جملة من مظاهر سـلطانه وقدرته وتفرده بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحيـاة يتواردان على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه، وهل هو من الشاكرين لنعمة الحيـاة ، المقدرين لرهبة

الموت ، أو هو من الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . وذكرت في العالم العلوى ، انه خلق سبع سموات هي مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاتقان ، لا يرى فيها شىء من الخلل مهما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى خاضعة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا اذا شاء واضعه وممسكه .

نظام محكم

ثم ارشدت الى ما فى هذا النظام المحكم من وجوه المصالح التى تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصابيحها ، تتمتع النفس بجمالها ، وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر والبحر ، وهى قذائف حق يرمى بها هؤلاء الشياطين ، الذين يعملون جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، واعتدنا لهم عذاب السعير » .

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين بجملة أوصاف ، تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدها عليهم ، كما تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعترافهم أنفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ، واقرأ فى ذلك : « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور .. » الى

آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سـلطانه ونعمته فى العالم السفلى تهيئة الارض للسير والزراعة ، والتقلب فى جميع أرجائها ، ثم تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الارضية بالخسف والزلازل ، وبارسال الرياح التى تقذفهم بالاحجار ، فتكدر عليهم صفو الحياة .

ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير ، وهو يحلق فى الجو باسطا أجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى قدرة الله المنبعثة عن رحمتـه ، « ما يمسكهن الا الرحمن » . ثم ينـكر عليهم ، ان يخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، ان لهم من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أم من هذا الذى يرزقكم ان امسك رزقه ؟ » ثم يحـاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد ان تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمـة السمع والبصر والافئدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستهزئون به كما ذكر لهم ،ويقولون: « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ » ، وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم عند الله ، وانما أنا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم لى به ،وليس علمه من مهمتى ، وانه واقع بكل لا محالة سترونه بأعينكم : « فلما رأوه زلفة « قريبا »

سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هـذا الذى كنتم به تدعون » .

وأخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمـــان بالله والتوكل عليه ، فهو صاحب المنع والعطاء : «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل ارأيتم ان أصبح ماؤكم « مادة حياتكم » غورا « غائرا » فمن يأتيكم بماء معين ؟ » .

ســـــورة القـــلم

ضلال

* كلما كان الناس فى غرقى فى الشهوات والاهواء ، مسلمين انفسهم للاوهام والاباطيل كانت دعوة الحق فى نظرهم هى دعوة الباطل ، ودعوة الخير هى دعوة الشر ودعوة الجنون . ومن هنا كان اول ما قوبل به النبى صلى الله عليه وسلم حينمـا دعا قومه الى توحيـد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسو وعبادة الاصنام : « انك لمجنون » والجنون عند ارباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسايرتهم فيما نشئوا وورثوه من الاهواء والخرافات.

وقد نزلت سورة القـــلم فى فجر الوحى ، تكشف الغطاء عن أعينهم ، وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الانظار الى أن الذى اجتباه ربه وكرمه وحياه بنعمة الحق والذكاء والفطنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم يعظم الاجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذى به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون .

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها ارسالا ، بل أبرزتها فى اطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم

القاضى على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتابة وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمانت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم أيضا بأعينهم أى الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع فى ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ثم تعود السورة وتؤكد للنبى فى آخرها أن اتهامهم اياه بالجنون لم يكن الا اثرا من آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة التى ستزلزل سلطانهم وتقضى على عزتهم التى تخيلوها ، وقد سيق هذا المعنى فى اسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » . ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على أن حقيته غاية فى الوضوح والظهور ، وانه راسخ فى النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ: « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع أولها فى ردتلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح .

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرته اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرته من اطاعتهم بخلال سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتأباها طبيعته

النقية الطـاهرة : « فلا تطع المـكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، عتل ، بعد ذلك زنيم » . ثم تنبه الآيات الى ان سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها فى عزتهم ، ثم تؤكد عاقبتهم . وان الله سيشهر بهم، ويفضح امرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصغار بعلو سلطان الحق ، وادلة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم » .

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الاموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفى سبيل ذلك تذكر لهم قصة أصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به أحق وأولى ، واتفقوا على جنيهـــا فى وقت مبكر غير الوقت الذى كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون » .

وبعد أن بيتوا النية على ذلك ، وذهبوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعـــوا فى حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ، ثم تبين لهم الامر ، وانها هى هى ولكن قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فوقعـــوا فى اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قـالوا ياويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وان يبدلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنـــا راغبون » . ثم تذيل القصـــة بأن سنة الله فى هؤلاء المستكبرين ، وفى كل أرباب النعم هى سنته فى أصحاب

الجنة : ان تداركوا خطأهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم في الدنيا : « ولعــــذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم ان لانفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقــــراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ الصورة فى تبكيتهم على هــذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند ، فــلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ، ولم يأخذوا به عند الله صكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه انصار يحفظونهم من امره ، يوم يشتد الكرب ، ويـكشف عن ساق « ديدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة ابصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم ســــالمون » . ثم تخفف السورة وطأة تكذيبهم على النبى ، وتطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه ، وترشده الى ان الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاءا واســـتدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعال النفسى مخافة أن يقــع فيمــا وقع فيه اخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفى كله تقول السورة :
« افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » .
« فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » :

عظة

أما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحاقدين على الحق وأهله ، أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق ، احتفاظا بانسانيتهم وحرصا على مزاياهم التي كرمهم الله بها .

وجدير بأرباب الاموال الذين يضنون بحق الفقراء فيها وقد أنعم الله بها عليهم ـ أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيرة الله على عبادة الفقراء .

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير والصلاح ، الا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيء الذي يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط المحبة والاخاء ، عليهم أن ينشئوا أبناءهم على خلال الخير والفضيلة . وجدير بهم أن يتدرعوا في كل ذلك بالصبر والالتجاء الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة، ويركزوا الحق الذي رضيه الله لعباده وبينه في كتبه ، وكلف رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية .

ســـورة الحاقـة

* وجهت سورة الملك أنظار القوم الى بعض ما فى الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة؛ وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التى وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهى تهمة الجنون ، وحذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الامثال فى عاقبة الاغترار بالاموال والبنين ، ولم يفتها أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء .

ثم تجيء سورة الحاقة فتضع الحـــد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وأنها بلغت فى عظم الشأن أن يقف الانسان أمام انبائها وأهوالها مبهوتا متســـائلا : بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ما هى ؟ وما ادراك ما هى ؟ استفهام يملأ النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطيء بحر متلاطم الامواج ، لا يدرك البصر أطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى أن يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

★ سورة الحاقة

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » ككلمات القارعة والواقعة ،والطامة، والصاخة ، أعلام بالقلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، وأثر من آثارها . فهى حاقة فى ذاتها ، وهى حاقة لانبائها ، وهى بمقوماتها واحداثها تقرع القلوب وتصك الاسماع ، وهى التى بعد هذا كله كان انكار الامم السابقة لها سببا فى فسادهم وطغيانهم، وفى التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره واخباره تنبىء بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه « المؤتفكات » القرى التى أؤتفكت وانقلبت على أهلها بفعلتهم الشنعاء : قرى قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها ، فاندفعوا فى طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ، وجعلهم أثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم فى السفينة « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب ــ وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان ــ أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعو العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .

انــــذار

وبعد ان فخمت السورة من شأن الساعة ما فخمت، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى اصابت المكذبين بها ، أخذ تصور أحداثها ، من مقدماتها الى نهـــــايتها ؛ فصورت بالنفخ فى الصور انحلال النواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس فى سلطان القــــادرين الاقوياء : « والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس فى دنياهم . اما كيف تقف الملائكة على الارجاء ، أو كيف يحمل العرش ، او من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغي أن نخوض فى حقيقته ، وانما هو روعة القضاء الالهى ، والحكمة القاهرة .

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى العرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاة، وعلى آخر بالادانة ، وان الاولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، انى ظننت انى ملاق حسابيه » .

وأن الآخرين يسـلمون صك الادانة ـ على العكس ـ بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم اوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابية ، يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنى مالية ، هلك عنى سـلطانية » . وبعد أن يصدر الحكم يجىء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية » .

جزاء المكذب

اما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سـبعون ذراعا فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هـذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين أن يكون اهمـال أمره وعدم الحض على اطعامه عديلا فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله .

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله ـ الذى ليس فى حاجة الى القسم ـ بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين .

ثم تعبر السورة عن موقف الالوهية بالنسبة لمحمـد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه :

« ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقضينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعها من تنفيذ ارادتنا فيه ، وموقفنا منه ـ وقد افترى علينا ـ هو موقفنا منكم وقد كذبتموه في رسالته .

اثر القرآن في النفوس

ثم تختم السورة ببيان اثر القرآن فى النفوس ، وانه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الاخرى التى أفسدت استعدادها بالشهوات والاهواء ، « وانه لتذكرة للمتقين » . « وانه لحسرة على الكافرين » . ثم تؤكد ان القرآن هو الحق الثابت الذى لا شبهة فيه وتأمر الرسول بالتزامه واهمال المكذبين ، معتصما فى ذلك بتنزيه الله الذى أحاطه بعنايته ، والذى لا يرجى ولا يخاف سواه : « وانه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

سورة المعارج★

* كان من اساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذبين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن — على نحو ما رأينا فى السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الاخروى والمحاكمة أمام القضاء الالهى .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية ، ولقد وصل بهم الامر فى ذلك الى حد ان استعجلوا العذاب ، والى حد ان قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد أن حققت سورة الحاقة أنباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، اذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذى به يوعدون، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب وتؤكد أن العذاب واقع

★ سورة المعارج

بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى ان طول الامد ، الذى لم يظهر فيه شيء منه ، انما هو طول نسبى فى أنظارهم فقط . أما فى واقعه ، وفى تدبير الله ، فهو يوم واحد، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة ، هى مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذى اقتضت حكمة الله أن يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد فى يوم كان مقداره فى أيامكم خمسين ألف سنة . وما هى الا أن تمضى مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتى مرحلة الحساب وتحديد المسئوليات ، واذن فلا تكترث يا محمد بموقفهم عنك واصبر صبرا جميلا .

العروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا فى نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء أستأثر الله بعلمه .

ويلتقى هذا التصوير مع مثله فى آية اخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

وفى آية ثالثة « يدبر الامر من السماء الى الارض ثم تعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » .

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك أن وقع العذاب الذى يسألونه يعقب ذلك اليوم الذى يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلائق ، وهو البقية من يوم النشأة الاولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت انا والساعة كهاتين ، وأشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة فى وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه ، وقد افصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

من علامات القيامة

ثم اخذت السورة تذكر علامات القيامة فى السماء وانها ستكون كالمهل « مائع الزيت » ، وفى الجبال وأنها ستكون كالعهن المنفوش « الصوف المنفوش » : وفى الانسان وانه سيتلهى فيه كل امرىء بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم تترقى فى وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه وأحبهم عنده ، ثم تقطع عليه امل الفداء ؛ وتصور لحوق العذاب به يطمع النار فيه : « انها لظى ؛ نزاعة للشوى ؛ تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . ثم تشير الآيات الى الانسان فى انكار الحق ومحبته

الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفى التصديق بيوم الدين ، وفى الخوف من عذاب الله ، وفى حفظ الاعراض والامانات ، وفى الشهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك الخلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التى يكون أهلها : « فى جنات مكرمون » . ولو ان هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم واخذوا يسخرون بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لانفسهم استحقاق الجنة ، بل أحقيتهم بها : « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » .

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبى الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور فى ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم فى حالتهم هذه بحالتهم فى فى دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » .

الفصل العاشر :

ســـــور

نوح - الجن - والمزمل والمدثر - والقيامة

سورة نوح

* قوبل النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن دعا الى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الامم الخالية جزاء الانكار والتكذيب .

وفى هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم الى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسلية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقومه ـ ان استمروا على العناد والاستهزاء ـ بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد .

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهى رابطة البنوة ، ففى التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النقمة التى أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التى انقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهروا فى الوجود

★ سورة نوح

وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا فى الارض ، والى هذا تشير آية الحاقة : « لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » .

وقد تكررت فى القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسلية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولها

أولهما : بيان دعوة نوح ، وانها ترتكز على أصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الاصنام .

تقوى الله باجتناب المعاصى التى تفسد الاخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الاسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده ، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الامم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فوائد الدعوة

ثانيهما : بيان فوائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم ينتفعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم » .

ناحية الاجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى أجل مسمى » .

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

سبل الدعوة

ثالثها : ان نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة : أسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا » .

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ثم دعاهم بلفت الانظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » .

لفت أنظارهم بعد أن هز عواطفهم الى برهان العقل فنبه الى خلق أنفسهم والاطوار التى مرت بهم ، ونبه

الى خلق ما يحيط بهم من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيا وطيب الحياة .

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون أن الآيات لم تجعل الشمس فى السموات وهـذا يتفق تماما مع ما عرف أخيرا من أن الشمس مركز النظام الشمسى ، وان الكواكب تختفى بها ، وان القمر له مركز فيهـا ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ،وتلك البراهين الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتدانكارهم لها ، وقد صور نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى أنفسهم ، سدوا آذانهم وتغطوا بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الدعوة ، واشار الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين بالاموال والاولاد : « قال نوح رب أنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » .

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بهـا هؤلاء الماكرون : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، وهى أسماء لتماثيل كواكب اعتقدوا أنها منبع الخير ،

او أسماء لقوم صالحين اطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دون الله ، ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ التماثيل وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الانبياء والاولياء بما يقدس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ، ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله .

عاقبة المكذبين

خامسها : بيان العاقبة التى صار اليها القوم جزاء اعراضهم عن سماع الحق « مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة الطوفان التى اغرقت القوم : « واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . ثم أشارت الآيات الى حكمة الله فى أخذ الجبارين المستكبرين وهى ترجع الى ارادة تطهير العالم من جراثيم الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وازاء هذه العاقبة السيئة التى تقطع على الجبارين حياتهم تشير الآيات الى العاقبة الطيبة لعبادة المؤمنين « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا » .

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت فى سورة نوح ، قصها الله على كفار مكة ، وعلى جميع الناس ، وهى مثال حى ناطق بسنة الصراع بين الحق والباطل فى كل زمان ومكان ، وناطق بأن فســاد العقلية البشرية ليس من أصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين الماكرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته وينتشر فى العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره .

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك ، وسار على سنتك فى الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم .

سورة الجن

* فطر الناس على ان فى العالم خلقا آخر غير الانسان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

الجن والانس

وذكرت الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » « أدخلوا فى أمم قد خلت من

★ سورة الجن

قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت اختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » .

تكليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد اشرك الانس مع الجن فى المسئولية والمؤاخذة والمصير ، ووضعهما فى اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وشرع فى وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

حقائق ثابتة

واذن فليس فى وجود الجن شك ، وليس فى تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس فى مسئولياتهم ومؤاخذتهم بالتقصير شك ، وليس فى استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء . وان محاولة تأويل شيء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للالفاظ عن

معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس .

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا فى موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هذا الاستماع كان له أثره البالغ فى نفوسهم ، صحح عقائدهم فى الله ، وطهر نفوسهم من الاوهام والخرافات المتعلقـة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، واندفعـوا به الى انذار قومهم فأرشدوهم الى الحق فى العقيـدة ، والى الحق فى الرسالة ، والى الحق فى علاقتهم بالانس ، والى الحق فى معرفتهم الغيب ، أجمل كل ذلك فى قوله تعالى من الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لـما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجـيركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » .

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادىء الخير والفضيلة التى ادركوها من القرآن ، وتصحح على لسانهم الاخطاء التى كانوا عليها وادركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن .

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ الصاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس أن للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا فى نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم ، وقد درج الناس على هذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و « التحويطة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وأيدوهم بحكايات وروايات موضوعة — وقد يشاركونهم فى الاستغلال والدجل — حتى أفسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن أنفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم فى العقيدة الفاسدة . عقيدة أن الجن يعلمون الغيب ، وأن أناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى أو خير فيرتقب . ثم يعلنون أن الغيب لله وحده ، وأن القرآن قصر علم الغيب على الله

فلا يعلمه أحد سواه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » . « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم اراد بهم ربهم رشدا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف فى العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

توجيهات

ثم تختتم السورة ـ بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق ـ بجملة توجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فتأمره ان يتمسك بدعوته ، وأن يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير أو الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجىء اليه ، وانه مبلغ لرسالة ربه فقط ، وانه متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله ، وان الله لا يطلع على غيبه أحدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما أراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد بلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » .

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والاهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن ـ كما انتفع به الجن ـ وهم من جلدة الرسول ، تجمعه واياهم بيئة واحدة ، ورحمة واحدة ، ونشأة واحدة ، وفى الحق ان فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر مايلقم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الابصار .

سورة المزمل والمدثر*

* ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما احدثه القرآن من عظيم الاثر فى نفوس الجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة فى ذاتها ، وفى آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفى فى تقبل الناس لهما وانتفاعهم بها ، بل لابد لهما مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو اليها ويعمل على نشرها والاقناع بها . وأن الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم فى ظل الراحة والسكون ، ولا فى ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

أولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التى ترسل عليها اشعة الانوار الالهية فتضىء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات .

★ سورتا المزمل والمدثر

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذى يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها الممهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمل والمدثر » ترشدان الى ما يجب من هذين الامرين لينجح الداعى فى دعوته ، ويقوم بمهمته . والكلمتان معناهما : « المتلفف بالثياب » وقد يكون ذلك اشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبى فى بعض ظروفه المتصلة بمفاجأة الوحى له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحالة الدعة والسكون والتفكير العميق فى وسائل الدعوة التى كلفها ، وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقى من تعليم .

يا أيها المزمل

وقد تضمن النداء الاول : « يا أيها المزمل » نهيه صلى الله عليه وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بهما الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحى الذى يلقى عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لكى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الاوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد

والتعليم ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : « يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا .. الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » .

يأيها المدثر

ثم يجيء النداء الثانى : « يأيها المدثر » فينزعه مرة اخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه . يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة . « قم فأنذر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جراثيم الفسوق والعصيان . « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الاخلاق الذميمة » « والرجز فأهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصى والذنوب . واذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد او صلاح منشؤه العقل او النفس أو الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير .

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحى العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحققه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الاخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الاولى بعد الارشاد الى وجود

الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحى العمل « ولربك فاصبر » .

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، فى شد ازره صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعده لهم عند الله من العاقبة السيئة والعذاب الاليم فتقول الاولى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما ، يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . الى أن تقول : « فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا » وتقول الثانية : « فاذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا » .

وصف الجحيم

ثم تأخذ فى وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القلوب ، وتختم الاولى « المزمل » بارشاد المؤمنين دعاة الحق ، والمؤمنين بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » . وتختم الثانية

بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنفسهم بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين .. » الى أن تقول « كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

أما بعد . فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شاء ان يصل الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزمل ، وليعمل على أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتدرع بالصبر والاخلاص ، وليسر بنفسه وأمته في ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، العليم بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم المولى ونعم النصير .

سورة القيامة

عقيدة البعث

* كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الانكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية . وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون أنها براهين تحيل وجودها . وتمنع التصديق بها « أئذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم فى ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيداته المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيده هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سور من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة فى ناحية من نواحيها .

والواقع ان الايمان بالجزاء اقوى ما يغرس فى النفس الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجىء بعد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، فى وقتها الذى يعلمه

الله ، أمر بين لا يحتـــاج الى قسم : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

واذا كان من سنة الله فى القرآن أنه لا يقسم فى موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره من مخلوقاته، ودلت العبارة على ان القيامة لا يحتاج فى ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها ــ كان فى ذلك ارشاد الى ان القيـــامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، واظهرها وجوداً ، وفى هذا تقرير لتحققها ووجودها .

النفس اللوامة

وفى ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد آخر الى مكانة هذه النفس التى لا تترك صاحبها عند درجة يلام عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الـكمال ، فهى على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات العــلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل فى هذا اليوم الخطير .

ابطال دواعى الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة ، تأخذ السورة فى ابراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من الظنـــون والاوهام التى زينت له الانكار والجحـــود « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جـذوره : « بلى قـادرين على أن نسوى بنانه » . قادرين على جمع عظامه ، واعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ، وهو تسوية البنان والاطراف .

ثم تبرز السورة شانا آخر ـ كان له أثره في أنكار البعث والقيامة ـ غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الانسان شهوته ؛ واندفع بها فى لذته فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » . فلم ينكره نزولا عن برهان ، وانما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة ، ولقد أبعد فى ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين : « يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الاهوال التى تحيط به ، والتى لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه : « فاذا برق البصر وخسف القمر يقول الانسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لاوزر ، الى ربك يومئذ المستقر » .

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر ، بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الامر في ذلك ليس اليه وانما هو الى الله صاحب الشأن فى عرض الاعمال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به أن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التى تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

وهنا تعرض السورة ان الناس فى هذا الموقف ابرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » . ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما

تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع أسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى أهله يتمطى » يختال ويتكبر .

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الاول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الاعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن ــ وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع ــ أن يتركه سدى وهملا كالعجماوات دون حساب ولا جزاء ، رسم له شرائعه ، ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملا قويا مفكرا من مويهة قدرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلابد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » . آمنت بالله العظيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦٤٨ ـ ١٩٨٣

الترقيم الدولى : ١ ـ ٠٣٧ ـ ١١٨ ـ ISBN ٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

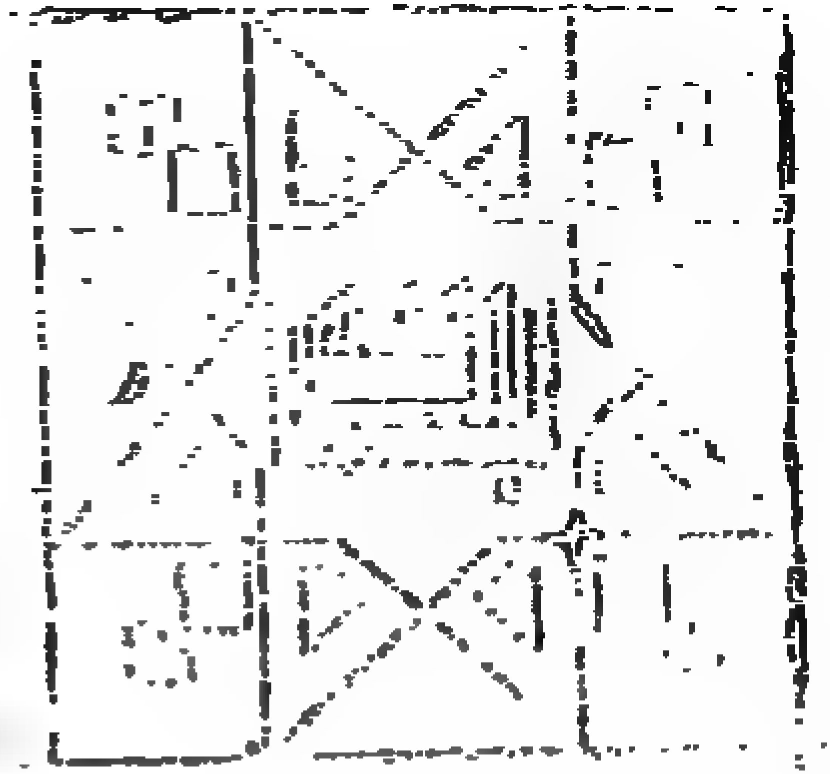
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٥٠٠ مليم :

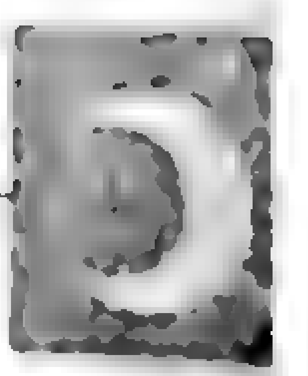
سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلسا ، العراق ١٢٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ مليم ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتيما ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٢٥٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، أسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٨٠ بنى ، أديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، أثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلن ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو ، نيويورك ٣٥٠ سنت ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين .



هــذا الــكتــاب

كتب المغفور له الاستاذ الجليل محمود شلتوت شيخ الازهر السابق مؤلفات وبحوث عـديدة تناولت الكثـير من نواحى الاسـلام وشـئون المسلمين . واصدر تفسـيرا القرآن الكريم يعد مرجعـا عصريا من اهم التفسـيرات التى صدرت فى السـنوات الاخيرة .

وهـذا الكتاب ـ الـذى اشرف فضيلته على مراجعته قبيل وفـاته بأيـام ـ ليس تفسير الكلمات ولا الآيات . وانما هو سـعى بين يـدى القرآن نفسه يلفت النظر الى ما فيه من دعوة الحق وموقف الانسان من هذه الدعوة . . انه يهدف الى حمل المسلمين على أن يتجهوا مبـاشرة الى القرآن ويقفوا امامه فى اجلال يستلهمونه الهداية فى مشاكل الحياة . . ومـن هنـا كان عنوانه : « الى .. القـرآن الكريم » .



ـسلة
ـافية
ـهرية

كتاب الهلال

الأسطورة في الأدب العربي

د. أحمد شمس الدين الحجاجي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٢ – شوال ١٤٠٣ – أغسطس ١٩٨٣

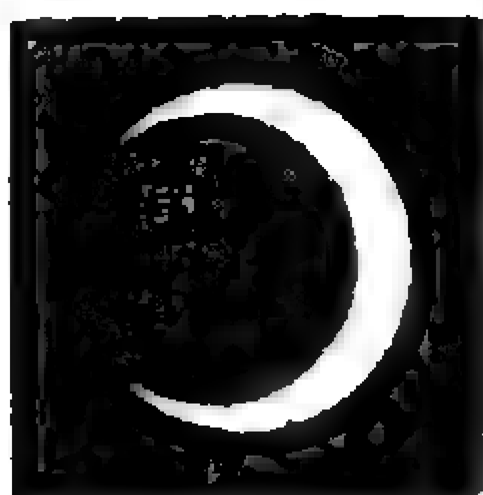
No. 392 — August 1983

الاشتراكات

قيمه الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كـــــتاب الهـــــــــــلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشـــة
الفنانة سـميحة حسـنين

الأسطورة في الأدب العربي

تأليف

الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي

دار الهلال

مقدمة

ازداد اهتمام الدارسين فى العالم اجمع فى السنوات الاخيرة بدراسة الاسطورة وعلاقتها بالادب . هذا الاهتمام يختلف كثيرا عن الاهتمام الذى شاهده الغرب فى القرن الماضى والذى قام على أكتاف علماء الانثروبولوجيا فى دراساتهم للأديان البدائية . فقد كان الهدف من معظم هذه الدراسات استعماريا أو تبشيريا أو كليهما معا .

ومصدر هذا الخلاف أنه لم يعد يقوم على العلماء من قادة الاستعمار أو المبشرين فقط وانما على أكتاف كثير من أبناء الشعوب التى كانت مستعمرة ايضا ، والهدف منه هو محاولة فهم للذات . والكتاب الافريقيون يعودون الى أساطيرهم يستلهمونها فى كتاباتهم وذلك حتى يوازنوا بين المعطيات الغربية ومعطياتهم وحتى لا يفقد مجتمعهم أصالته وما يربطه بماضيه .

ولقد استهوتنى دراسة الاسطورة سنوات وسنوات وانا أحاول أن أبحث عن الجذور الاسطورية للأدب العربى حتى تكاملت لدى مادة هذا البحث .

يقوم هذا البحث بدراسة اسطورة الخلق الفنى فى

الادب العربى ، واعنى بأسطورة الخلق الفنى العقيدة الشائعة لدى العرب الاقدمين عن وجود قرين للشعراء يقول الشعر على السنتهم ، اى ان الشاعر وسيط فى عملية الخلق الفنى .

وقد ضعفت هذه العقيدة فى العصر العباسى ولم تجد صدى عند الشعراء . واصبحت موضوعا طريفا دخل ميدان الأدب الشعبى . واستخدم فى أعمال فنية على قدر كبير من الجودة فى القديم والحديث .

حدد استخدام هذا الموضوع المنهج الذى اتبعته فقسمت البحث الى مدخل وبابين :

حاولت فى المدخل توثيق مادة هؤلاء الشعراء من بين الاعمال المدونة فى العصر العباسى محاولا التعرف على شكلها الشعبى .

والباب الاول خص الاعمال المكتوبة نثرا وقد قسمته الى فصلين ، فصل خاص بالمقامة الاسودية والمقامة الابليسية لبديع الزمان الهمذانى . والفصل الثانى دراسة لرسالة التوابع والزوابع لابن شهيد .

أما الباب الثانى فقد خصصته لدراسة الاعمال الشعرية ، وقسمته الى فصلين . الفصل الاول دراسة لقصيدة الحكم بن عمرو البهرانى . والفصل الثانى دراسة لمسرحية مجنون ليلى لاحمد شوقى .

حاولت فى كل ذلك أن أكشف الى اى حد تساعد الاسطورة على فهم طبيعة العمل الادبى ووظيفته ودورها فى تشكيله الجمالى .

وباستثناء قصيدة الحكم بن عمرو البهراني فان كثيرا من الدارسين تناولوا هذه الاعمال بالدراسة ولكن أحدا لم يدرسها من حيث علاقتها الجمالية بالاسطورة ، مما جعل هذه الاعمال في حاجة الى اعادة النظر من خلال الأسطورة التى تناولها هؤلاء الكتاب والشعراء .

ولما كانت دراسة الاسطورة فى علاقتها بالعمل الادبى موضوعا جديدا فى الدراسات الادبية العربية ، فـانى لا اريد أن أثقل على الدارسين بالالحـــاح على أهميـــة الموضوع تاركا هذا العمل بين أيديهم علهم يقنعون بقيمة دراسة العلاقة بين الادب والاسطورة .

هذا وانى لأشكر كل زملائى وأصدقائى الذين قرأوا هذا البحث وشجعونى على المضى فى هذا الطريق شكر ممتن لكل ما منحوه لى من حب وعون .

مدخل المصادر

ارتبط الشعر العربى فى عصوره الاولى بقوة من قوى ما وراء الطبيعة وتحددت هذه القوة فى الجن ، وقد اعتقد الجاهليون والاسلاميون فى أن لكل شاعر تابعا من الجن يلقى على لسانه الشعر ، وتحددت أسماء لهؤلاء الجن فكان مسحل السكران شيطان الاعشى ولافظ بن لاحظ شيطان امرىء القيس ، وهادر شيطان النابغة الذبيانى .

ولم يتوقف هذا الاعتقاد بعد ظهور الاسلام ، بل استمر شائعا ، وكان لكثير من شعراء صدر الاسلام ، والعصر الاموى جن يلقون الشعر على أفواههم . غير انه فى العصر العباسى تغيرت هذه الصورة ، ولم يعد للشيطان دور كبير فى الهام الشعراء ، اذ حل العقل فى تفسير الظواهر الفنية بديلا عن الاسطورة ، ورجع العرب فى تفسيرهم لقدرة الخلق عند الشاعر للملكة والموهبة ، وجعلوا للصنعة مكانا مهما فى عملية البناء الشعرى ؛ حتى أنه دخل ميدان المنطق ليصبح أحد علومه .

وأصبح واضحا ان الشعراء والنقاد لم يعودوا يعتقدون فى دور الجن فى الابداع الشعرى ، وانحصر

الموضـوع فى دائرة القصص الشـعبى . وجـد بعض الشعراء فى الموضـــــوع مادة خصبة لاعمـال فنية فاستخدمت فى النثر والشـــعر على حد ســواء ، استخدمها نثرا بديع الزمان الهمذانى فى مقامتين من مقاماته ، وهما المقامة الاسودية ، والمقامة الابليسية ، واستخدمها ابن شهيد فى رسالة التوابع والزوابع .

وفى ميدان الشعر استخدمها شاعران احدهما قديم ، وهو الحكم بن عمرو البهرانى والآخر حديث وهو أحمد شوقى .

تعد المقامة الابليسية ورســالة التوابع والزوابع من الاعمال الدرامية على قدر كبير من الجودة . تكشف عن مقدرة أصحابها القصصية الكبيرة حتى انها لتقف جنبا الى جنب مع الاعمال الادبية العظيمة التى خلفها التراث الانسانى .

ويجب أن يكون مفهوما أن هذه الاعمـــال القصصية تختلف عن الاعمـال القصصية المعـــروفة فى العصر الحديث . ولا تقارن بها ، ففن القصة الحديثة مرتبط الى حد كبير بالمطبعة والواقع الاجتماعى للقاص وهو مختلف عن الواقع الاجتماعى للقاص القديم . تحددت له حدود وخصائص ابتعدت به الى حد ما عن القصص القديم ، وان اخذ القاص المعاصر يعود الى القاص القـديم والشعبى يستلهمها ، وذلك فى محاولة منه ان يطرق ميـــادين جديدة لفنه حتى يرضى جمهوره . هذا الجمهور الذى لم ينقطع عن تراثه القديم والشعبى ، وما زال حنينه اليهما يوجه ذوقه . وقد قامت محـاولات فى معظم بلاد العالم لبعث الادب الشـــعبى واحيائه والبحث عنه

وتسجيله وتدوينه . ويحاول القاص الحديث باقترابه من التراث الشعبى والقديم أن يقرب المسافة بينه وبين الادب القديم . ولقد ارتبط فى القصة المكتوبة فى الادب القديم بالادب الشفوى فهو ينهج نهجه ويستمد منه كثيرا من الموضوعات ، هذا فضلا عن طريقة الاداء والعرض .

استمد الهمذانى كثيرا من موضوعاته من القصص الشعبى حتى ان احدى مقاماته ، وهى البغدادية (١) تحوى طرفة ما زالت تعيش وتروى مع بعض التغيير فى الاسماء فى بعض البيئات فى مصر ، وان لم يكن معروفا ان كان قد استمدها من الطرف المروية فى عصره أم أنه اخترعها مترسما طريقة الطرف الشعبية المعروفة لديه .

ولا شك أن هذين الكاتبين يمثلان حلقة واحدة فى الكتابة فى موضوع واحد . وليس صدفة أنهما عاشا فى عصر واحد كان أسبقهما هو الهمذانى (٣٦٠ ـ ٣٩٨ هـ) الذى تحددت كتابته للمقامة فى عام ٣٨٢ (٢) أو عام ٣٩٢ (٣) هـ بينما كتب ابن شهيد (٣٨٢ ـ ٤٢٦ هـ) رسالة التوابع والزوابع فيما بين ٤١٧ ـ ٤١٨ هـ أى بعد كتابة المقامة بحوالى خمس وعشرين سنة .

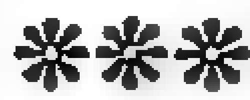
---

(١) بديع الزمان الهمذانى ، أبوالفضل . مقامات شرح الشيخ محمد عبده المصرى . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، (د . ت) . ص ٦٣ ـ ٦٧ .

(٢) الثعالبى ، ابو منصور عبد الملك بن محمد . يتيمة الدهر . القاهرة : مطبعة الصاوى ، سنة ١٩٣٤ . جـ ٤ ، ص ١٦٨ .

(٣) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين بن ابى بكر . وفيات الاعيان . تحقيق محيى الدين عبد الحميد . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ . جـ ١ ، ص ١١٠ .

واذا كانت هذه الكتابات النثرية ارتبطت بشكل قصصي فان الشعر استخدم هذا الموضوع استخداما مخالفا . استخدمها الحكم بن عمرو البهراني في قصيدة أدان فيها بعض المظالم في عصره ، واستخدمها شوقي لتكون البناء الاساسي لمسرحية من مسرحياته وهي مجنون ليلى . وبين المحاولة الشعرية الاولى والثانية وقت طويل .



اما المادة التي تأثر بها هؤلاء الكتاب في الادب الشعبي القصصي الذي كان معروفا متواترا أيامهم عن الجن وعلاقتهم بالابداع الشعري — ومن السهل معرفة مصادر المادة التي تأثروا بها فقد دونتها بعض كتب الادب العربي . روى الجاحظ بعضا منها في كتابه الحيوان والاصبهاني في كتابه الاغاني . وكلا الكتابين مؤلف قبل أن يكتب هؤلاء المؤلفون كتاباتهم باستثناء الحكم بن عمرو البهراني فهو أسبق من هذين الكتابين ومصادره ترجع الى الاصول الشفوية التي استقى منها هذان الكتابان مادتهما . عندما كان الحديث عن الجن وعلاقته بالشعراء عقيدة شائعة وان أخذ الشك طريقه اليها في عصره . وهناك أيضا مادة هامة مجموعة في كتاب جمهرة أشعار العرب . يضاف الى ذلك القصص الشعبي الشائع في عصر هؤلاء المؤلفين . والجاحظ هو أول مؤلف عربي وصلت الينا شكوكه عن علاقة الجن بالشعراء مدونة في كتاب وقد جمع مادة كبيرة عن الموضوع وسجل تعليقه

عليهما بأنها زعم (١) وأن « ضعفة النساك وأغبياء العباد يزعمون أن لهم شيطانا قد وكل بهم » (٢) وقد صدر الحديث عنها فى باب أسماه « باب من ادعى من الاعراب والشعراء أنهم يرون الفيلان ويسمعون عزيف الجان » (٣) وفى هذا الباب يذكر كثيرا من الشعر الذى رواه الشعراء عن علاقتهم بالجن بما يجعل هذا الكتاب مصدرا أساسيا ومباشرا فى فهم طبيعة هذا الموضوع . وقد استخدم الهمذانى أبياتا مما روى فى هذا الفصل وبنى عليها مقامته الاسودية (٤) .

وكتاب الاغانى من أهم الكتب العربية لا كمصدر لهذه المادة فقط ولكن كمصدر أساسى للادب العربى . جمع صاحبه تراث الادب العربى كله تاريخه وتاريخ أدبائه بما يمكن أن يعطى صورة كاملة للشعر العربى القديم ، فضلا عن صورة كاملة لعالم الادب الشعبى والمعتقدات الشعبية . نالت علاقة الجن بالشعراء وصورة الشعراء من الجن اهتماما خاصا غير أنها متفرقة فى ثنايا الكتاب لم يجمعها فصل واحد وذلك لطبيعة الكتاب الذى أفرد فصولا للشعراء لا للموضوعات . وقد انفرد هذا الكتاب بذكر قصة عبد الله البجلى الصاحبى ولقائه بالجنى

---

(١) الجاحظ ، أبوعثمان عمرو بن بحر . كتاب الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة : البابى الحلبى ، سنة ١٩٦٧ . جـ ٦ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ .

(٢) المرجع نفسه . ص ١٩٤ .

(٣) المرجع نفسه . ص ١٧٢ .

(٤) المرجع نفسه . ص ٢٢٩ والهمذانى . المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

مسحل صـــاحب الاعشى (١) وعلاقة جرير بجنية (٢) وكذلك قصة ابراهيم بن اسحاق الموصلى ولقائه بابليس وهى القصة التى كانت المصدر المباشر للمذانى فى كتابته المقامة الابليسية (٣) .

والمصدر الثالث لا يقل اهمية عن المصدرين السابقين هو المادة المجموعة فى كتاب الجمهرة . ومؤلف الكتاب أبوزيد القرشى مجهول لم يلق الضوء بعد على تاريخ حياته أو تاريخ تأليف الكتاب . وقد تعددت الآراء فى تاريخ وفاته وهذا التعدد يوضح الغموض الذى يحيط بصاحب الكتاب . فقد حددها الرافعى (٤) إقدم مؤرخى الادب المحدثين ـ الذين تناولوا القرشى بالتأريخ ـ بسنة ١٧٠هـ وتابعه فى ذلك يوسف سركيس (٥) وأحمد أمين (٦) . الذى استند فى ذلك الى أن القرشى يروى عن المفضل الضبى فيقول : « ان صح ذلك فهو تلميذ من تلاميذه (٧)» وابتعد جرجى زيدان عن هذا التأريخ فحددها بأواسط القرن الثالث ولـكنه يبدو غير متيقن من تأريخه فهـو

(١) أبوالفرج الاصبهانى ، على بن الحسين . كتاب الاغانى . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، سنة ١٩٦٣ . ج ٩ ، ص ١٥٦ .

(٢) المرجع نفسه . ج ٨ ، ص ٦٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣١ ـ ٢٣٥ . والهمذانى . المرجع السابق . ص ١٩٠ ـ ١٩٥ .

(٤) الرافعى ، مصطفى صادق . تاريخ اداب العرب . بيروت : دار الكتاب العربى سنة ١٩٧٤ . ج ٣ ص ١٨٤ .

(٥) سركيس ، يوسف الياس . معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة : مطبعة سركيس ، سنة ١٩٣٨ . ج ٤ ، ص ٢١٣ .

(٦) أحمد أمين . ضحى الاسلام . القاهرة : مكتبة النهضـــة ، سنة ١٩٣٥ ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٧) المرجع نفسه .

يستخدم كلمة يظهر أنه نبغ (١) ويقترب من ذلك بروكلمان فيذكر أن حياته كانت أواخر القرن الثالث الهجرى (٢). ولا يبتعد شوقى ضيف عن ذلك كثيرا ، فهو يحدد تاريخا له أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، ولم يجزم بذلك ، فقد استخدم كلمة « ولذلك نظن (٣) » مستندا الى ما « يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة ان الوسائط بينه وبينهم فى السند غير بعيدة (٤).

ولم تتوقف الابحاث فى تحديد هذا التاريخ فان أحدا من هؤلاء الباحثين لم يدعم رأيه بالاسباب التى ادت الى تحديداتهم هذه حتى نشر مصطفى جواد بحثا بعنوان « مؤلف جمهرة أشعار العرب » . والبحث طويل لم يكشف فيه الباحث شيئا عن حياة القرشى ، وحاول أن يحدد تاريخ حياته من خلال دراسته للرواة وتاريخ وفاتهم ؛ فكان أن انتهى الى أنه من أهل القرن الخامس للهجرة ومع أن الباحث بذل جهدا كبيرا الا انه لم يحل مشكلة تأريخ حياة القرشى ، بل زادها غموضا .

حدد مصطفى جواد نقاطا مهمة ، وهى ان القرشى ذكر كتاب الصحاح للجوهرى المتوفى سنة ٣٧٠ ، وكتاب الفارابى المتوفى نحو سنة ٣٧٠ ، كما نقل عن المفضل بن

---

(١) جرجى زيدان . تاريخ اداب اللغة العربية . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة . (د . ت) . ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٢) بروكلمان ، كارل . تاريخ الادب العربى . ترجمة عبد الحليم النجار . القاهرة : سنة ١٩٦٥ . ج ١ ، ص ٧٥ .

(٣) ضيف ، شوقى . العصر الجاهلى . القاهرة : دار المعارف سنة ١٩٧٦ . ص ١٧٨ .

(٤) ضيف . شوقى . المرجع نفسه .

مسعر الذى توفى سنة ٤٤٣ (١) . وقد رد على ذلك بروكلمان بأن النقل عن الصحاح لا يوجد الا فى حاشية الكتاب ، وينكر أن يكون الكتاب قد روى عن المفضل ابن مسعر (٢) . أما العبارة التى استند اليها مصطفى جواد بأن المؤلف قد ذكر كتاب ديوان الادب للفارابى ، فهى عبارة أرجح أن تكون حاشية فى الكتاب من ان تكون فى صلبه ولم يتوقف مصطفى جواد عند هذا الحد بل حاول جاهدا أن يضع نسبا للقرشى ، وحار فى أمر هذا النسب وأصاب حديثه القلق فهو مرة يذكر «ولانستطيع أن نبالغ فنقول انه من ذرية زيد بن الخطاب العدوى أو من ذرية عمر بن الخطاب اخيه » (٣) ، ثم يعود ليضيف الى ذلك النسب شيئا آخر مستخدما كلمة يغلب على الظن « ان أبا زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى كان عدوى الاصل أو اموى النسب (٤) وبعد أن قال لا نستطيع ثم يغلب على الظن يعود ليتناقض مع رأيه الاول بقوله « استرجع ان يكون عدوى الاصل من رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه » (٥) وهو فى ذلك معتمد على اسمه أبى زيد محمد بن أبى الخطاب لا حجة له غير ذلك ، وهذا تخمين غير مقنع فهو مبنى على غير أساس فضلا عن أنه لا يفيد فى تحديد تاريخه .

---

(١) جواد مصطفى . مؤلف جمهرة أشعار العرب . مجلة المجمع العلمى العراقى . بغداد : المجلد السابع ، سنة ١٩٦٠ ، ص ١٧٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(٣) المرجع نفسه . ص ١٨٤ .

(٤) المرجع نفسه . ص ١٨٦ .

(٥) المرجع نفسه

وروايات الجمهرة لا تسعف كثيراً فهى قلقة والاسناد فيها منقطع ، حين يروى مباشرة عن الضبى مثل قـوله « فمن ذلك ما حدثنا بى الضبى (١) يرفعه الى عبد الله ابن عباس دون أن يذكر أسماء الرواة فيما بين الضبى وابن عباس ، وبينه وبين الضبى . وسلسلة الرواية بعد ذلك تؤكد أنه لم يرو مباشرة عن الضبى حيث أنه ذكر ابن اسحاق وثلاثة رواة من بعده . والضبى عاصر جانبا من حياة ابن اسحاق . ولا يعنى هذا أن الرواية لا ترد الى الضبى ، ولكن ذلك معناه أن هناك اضطرابا فى سلسلة الرواة . ويصعب تحـــديد ما اذا كان هـــذا الاضطراب من المؤلف أم من النساخ . ولما كان هناك أكثر من راو يسمى بالمفضل يروى عنه صاحب الجمهــرة ، فقد تصور مصطفى جواد أنه وجد حلا لذلك ، فالمفضل الضبى والمفضل بن عبد الله المجترى اسمان لشــــخص واحد هو « المفضل بن عبـــد الله بن محمـــد بن المجبر (عبد الرحمن) بن عبد الرحمن بن عمر القرشى العدوى العمرى (٢) » ولقد استخدم كل ضروب التخمين ليضع هذا النسب ليدلل على أن القـــــرشى عاش فى القرن الخامس . ولما لم يكن هذا دليلا على أن المفضل الضبى والمفضل بن عبد الله شخص واحد فقـــــد انتهى الى أن أحد الوراقين لما رأى أن المفضل بن محمد الضبى أكثر شهرة من المفضل بن عبد الله حذف اسمه ووضع

(١) القرشى ، أبوزيد محمد بن أبى الخطاب . جمهرة أشعار العرب. تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٩٦٧ . جـ ١ ص ١ .

(٢) المرجع نفسه . ص ١٩٤ .

مكانه المفضل الضبى . وهذه حجة ضده اذ أن الحديث عن الوراقين واضافتهم وحذفهم يمكن أن يعكس القضية، فيقال ان أحد النساخ حذف اسم المفضل الضبى ووضع مكانه اسم المفضل بن عبد الله (١) ، غير انه لو أراد النساخ الحذف لما أبقوا على اسمى المفضل ليكونا من رواة الجمهرة ولابقوا اسما واحدا منهما .

والحق ان هذا كتاب بلا صاحب معروف ومن الممكن ان يكون هناك خلط من الشراح ومن النساخ ، ولكن ليس هناك دليل على ذلك ، وحتى توجد نسخة أقدم من النسخ الموجودة حاليا فان الحديث عن النساخ وعبثهم حديث لا يستند الى دليل .

ومحاولة متابعة راويتين من رواة الجمهرة احدهما هو ابو عبد الله المفضل بن عبد الله المجترى . والمفضل ابن الحباب البصرى قد يسهل عملية الوصول الى تحديد تاريخ تأليف الكتاب ، لقد ذكر فى الكتاب اسم المفضل عن أبيه عن جده (٢) دون أن يذكر أى مفضل هو ، وذكر فى موضع آخر اسم « أبى عبد الله بن عبد الله المجترى » (٣) .

وهو حين يذكر اسم المفضل عن أبيه عن جده دون تحديد لاسميهما فهو يعنى المفضل بن عبد الله ، وهو يرد روايته عن أبيه عن جده الى ابن اسحاق (٤) . واذا أخذنا بهذا يكون القرشى هو الرابع فى سلسلة الرواة ،

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) المرجع نفسه . ص ٣٧ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٣٤ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٥١ .

ويكون بينه وبين ابن اسحاق ثلاثة أجيال . وقد توفى ابن اسحاق سنة ١٥٢ هـ (١) ، واذا حسبنا مدة ثلاثين عاما فيما بين الجيل والجيل يضاف اليها ثلاثون عاما هى مدة نضج صاحب الكتاب العلمية فيكون نضجه فى المدة الواقعة قبل سنة ٢٧٢ هـ أو بعدها بقليل ، وهذا يقترب الى حد ما مع جرجى زيدان . ويتفق مع بروكلمان وشوقى ضيف .

وعند استقراء رواية المفضل بن أبى عبد الله نجد أن روايته ترد فى الكتاب مسندة اسنادا مباشرة الى محمد ابن سلام الجمحى ، أى بين الجمحى وبين مؤلف الكتاب جيل واحد تضاف اليه مدة نضج المؤلف ، فيكون البعد الزمنى بينه وبين وفاة ابن سلام ستين سنة .

ولما كان تاريخ وفاة ابن سلام هو سنة ٢٣٢ هـ (٢) فيكون زمن نضج القرشي هو سنة ٢٩٢ أو بعدها بقليل . ولما كان هذا التاريخ يقترب من التاريخ السابق فانه يمكن الاستناد اليه فى تحديد زمن نضج المؤلف فى المدة ما بين ٢٧٢ ــ ٢٩٢ هـ ويكون كتابته لهذا الكتاب واقعة في حدود هذه السنوات . وبالرغم من الوصول الى هذه النتيجة المشتركة مع اكثر من باحث ، فان كثيرا من المشكلات المتعلقة بالكتاب ومؤلفه لم تحل ، وأهمها مشكلة صحة نسبة الكتاب الى القرشى ، وهل للكتاب مؤلف واحد فقط ؟

وما يعنينا هنا أن هذا الكتاب كان مؤلفا قبل ان يكتب

(١) ابن هشام . السيرة النبوية . المقدمة . تحقيق مصطفى السقا وآخرين . القاهرة : مصطفى البابى الحلبى ، سنة ١٩٣٦ . ص ٥ .
(٢) زيدان ، المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

بديع الزمان الهمذاني كتابه ، وحتى اذا لم نقنع بهذا فان المادة المجموعة فى كتاب الجمهره بشـــكلها الذى وصلتنا به كان معروفا فى عصر الهمذانى وصاحبه ابن شهيد . فالمادة التي قدمت تحت عنـــوان « فى قول الشـــعر على ألسنة الجن » (١) . لا تبرز رؤية مشابهة لرؤية الجاحظ ونقده للجن في كتابه الحيوان أو ذلك الشك الظاهر فى هذه القصص عند الثعالبى فى كتاب ثمار القلوب للثعالبى ، وانما تبرز على شكل حكايات شعبية مدونها قاص شعبى لا يهدف الى البحث والنقـــد في طبيعة هذه القصص . وربما كان ذلك ما ادى بحميده الى أن يشك فى الروايات الثلاث الاولى على انها « من وضع أبى زيد القرشي » . أراد أن يتحدث فيها عن بعض ما شاع فى الجاهلية والاسلام من وحى الشياطين الى الشعراء والقائهم الشعر على ألسنتهم (٢) بينما لم يطعن فى بقية الروايات ، وذلك لانها مذكورة فى مصـــادر اخرى . ففى الروايات التى ذكرها صاحب الجمهرة ست قصص تروى عن علاقة الجن بالابداع الشعرى والبقية تتحدث عن شعر الجن وقدرتهم النقدية . منها قصتان مرويتان عن ابن الزرودى احداهما مروية عنه مباشرة عن أبيه (٣) بينما الثانية يرويها عنه مظعون ابن مظعون الاعرابى (٤) . والثالثة عن رجل من أهل زرود عن أبيه

---

(١) القرشي ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ـ ٦٣ .

(٢) حميده ، عبد الرازق . شياطين الشعر . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٥٦ . ص ٢٢٥ .

(٣) القرشى ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٤) المرجع نفسه . ص ٤٦ .

عن جده يرويها مطرف الكنانى بن دأب (١) . والرابعة عن المفضل عن أبيه عن جده عن العلاء بن ميمون الآمدى عن أبيه (٢) . والخامسة بلا راو محدد وتبدأ بالفعل المبنى للمجهول « ذكر » (٣) ويشترك فى رواية هـذه القصة المرزبانى فى الموشح (٤) وربما كان ذلك سببا لابتعادها عن شك عبد الرازق حميده الذى يشـك فى القصص على أنها من وضع القرشى دون أن يوضح أسباب شكه ، ولا سيما ان هناك قصصا أخرى عن الجن وقولهـا الشعر ترد رواياتها الى ابن اسحاق ، وهو لم يشك فى أن ابن اسـحاق قد وضع هذه القصص مع أنه كان معروفا بين القـدماء بأنه « مطعون عليه غير مرضى الطريقة » (٥) وابن النديم يجرحه بأكثر من ذلك بأنه « كان يقال بأن الاشعار تعمل له ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها فى كتابة السيرة فيضمن كتابه من الاشـعار من صار به فضيحة عنده رواة الشعر (٦) » فأبن اسحاق هنا يوضع فى درجة اقل من أن يؤلف الاشعار ويضعها فهى تعمل له كما أن هنـاك روايات بلا راو محـدد . وما ينطبق على الروايات الثلاث الاولى ينطبق على كل الروايات المذكورة فى الجمهرة كما أنه ينطبق على كثير

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٧ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٢ .
(٤) المرزبانى ، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، الموشح ، تحقيق محمد على البجاوى ، القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٥ ، ص ٥٥٢ ، ٥٥٣ .
(٥) ابن النديم ، الفهرست ، بيروت : مكتبة الخياط ، (د . ت) ، ص ٩٢ .
(٦) المرجع نفسه .

من الروايات التى ذكرها الاصبهـــانى فى الجمهرة عن علاقة الجن بالشعراء . وموقف عبد الرازق حميده يمثل اتجاها فى دراسات الادب العربى القديم بدأ مع ظهور كتاب الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين (١) عام ١٩٢٧ . وما قاله عن الانتحال فى الشعر الجاهلى . وقد وجـه هذا الكتاب الباحثين نحو بذل كثير من الجهد لكشف المنحول من غير المنحول من الشعر العربى القـــديم . ولا يكاد يخلو كتاب واحد من الكتب التى درست الادب العربى القديم من التعرض لهذه المشكلة . وهذا الجهد محمود ولكنه وجه الدراسات الادبية فى غير طائل ، فلم يستطع أحد من الباحثين ان يحدد المنحـــول من غير المنحول فى معظم الشعر الجاهلى . وكان من الخير لو توجهت الدراسات الادبية نحو الراوى تحدد ذوقه وذوق عصره وجمهوره ، فكل راو على قدر كبير من الابداع ، فهو خالق بدرجة لا تقل عن القصاص والشعراء الذين يروى عنهم . وفى الروايات التى يبعد ما بين راويتها الاول والراوية المدون أو الملى يكون قد دخل الرواية كثير من الزيادة والنقصـــان بفعل تغير الراوى وتغير ثقافته أيضا ، فالراوى انسان صاحب موقف وصاحب دور . والحكاية لا تروى بطريقة واحدة عندما تنتقل من راو الى راو آخر كما انها لا تروى بطريقة واحدة مرتين من نفس الراوى ، فهى تتغير حسب نوعية الجمهور سواء أكان يستمع اليها على انها عقيدة أم على أنها نوع من التسلية الفنية . وكذلك حسب مزاج الراوى ســـاعة

(١) طه حسين . الادب الجاهلى . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، سنة ١٩٢٧ .

القص ورؤيته لنفسه . ومدى احساسه بهذا الجمهور .

وهناك أمر هام وهو الاسناد ، فالرواية الشعبية لها اسنادها كما أن لرواية العالم اسنادها . فهل كان اختراع الاسناد فى الرواية الشعبية مؤثرا فى رواية العالم أم ان العكس هو الصحيح ؟ فالقصص العربية الشعبية لها تاريخ عريق فى صياغة الحكم وهى لا تبدأ بحدث ذات يوم على عادة القصص الشعبى العالمى وانما تبدأ « بيحكى أن » أو « روى » أو « كلام قالوه أهل زمان » . هذا بالاضافة الى أن كثيرا من السير الشعبية المعروفة تضع سندا للسيرة يرد فى بعضها للاصمعى أو لوهب بن منبه . ولهذا الاسناد وظيفة هامة، فهو فى رواية العالم محاولة لتأكيد الصدق التاريخى للرواية بينما فى القصص الشعبى هو محاولة للايهام وجذب انتباه السامع بهذا الايهام ، فالقاص الشعبى يحاول أن يوقع فى نفس محدثه أن ما يقوله حدث فعلا وهو واقع تاريخى . ويمكن القول أن هناك علاقة تبادل بين القاص الشعبى والقاص العالم فان التراث العلمى العربى فى التوثيق لم يصدر عن فراغ ولابد أن له أصوله الاولية ، وربما كان أكثرها شيوعا هو لفظة روى ، ويحكى أن ، وذكر ، ثم تطور ذلك ليصبح اسنادا متصلا كما أصبح ضرورة لرواية العالم . جعلها ضرورة هامة علم الحديث ومحاولة ضبط روايته وتحقيق صحته . ولقد انعكس ذلك بالطبع على الراوى الشعبى الذى جعل اختراع السند جزءا من المكونات الفنية لعملية القص .

ولقد نجح القاص الشعبى لا فى اخفاء عنصرى الصدق والكذب على مستمعيه فقط ، وانما على الرواة

العلماء أيضا الذين تصوروا هذه الروايات بعد مضي زمن على روايتها وشيوعها انها احدى روايات العلماء ونقلوها دون أن يكون لها سند موثوق أو راو معروف ولم يشك في هذه الروايات سوى بعض العلماء العقلانيين من أمثال الجاحظ .

وهنـــا يجب التفريق بين نوعين من الرواة : الراوى الشعبى والراوى العالم ، فالراوية الشعبى أكثر حرية من الراوية العالم لذا فهو أكثر ابداعا لارتباطه بالجمهور ارتباطا مباشرا ومحاولته ارضاء هذا الجمهور هدف من أهم أهداف الرواية الشعبية ، يرضيه بخلق الغريب من القصص أو بزيادة الاغراب فيها . كما يرضيه بالتلوين الصوتى الذى يصاحب روايته . يقلد الطبيعة ويغرق فى تقليدها كما يستخدم الحركات الجسمانية مصاحبة لادائه ، فهو يعيش الرواية معيشة تامة وينقل جمهوره الى العالم الذى يتحدث عنه . أما الراوى العالم فهـو ملتزم الى حـــد ما بالنص وبجمهور مثقف لا يروى له ليسليه وانما يروى ليعلمه . ولقـــد استخدم الرواة العلماء منحى توثيق الرواية واهتموا اهتمـــاما كبيرا بالاسناد . ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على كلمات النص فقد حدث فيها تغيير كبير . وعند النظر الى كتاب مثل كتاب الاصبهانى الاغانى فان كل الروايات المنسوبة الى الجاهليين والاســلاميين على حد سواء يسودها لغة واحدة وتنتفى فيها حدود اللهجات ولا يظهر اختلاف بين قبيلة وقبيلة أو عصر وعصر اللهم الا القليل وفى الفاظ محدودة بما لا يدع مجالا للشك أننا أمام لغة الاصبهانى لا لغة الراوى ويستثنى من ذلك ما نقـله من

الكتب التي لا شك انه حدث في رواياتها نفس ما حدث للرواية في كتاب الاغاني .

وما حدث للفظ في روايات القـــرشي حدث لمسيرة الاحداث . ولغة الروايات التي تتحدث عن الجن لاتتغاير فهو أسلوب راوية واحد . كما أنه يروى عن مجهـولين أو راو لا يذكر اسمه وانما بصفة من صفاته مثل « شيخ من البصرة » أو رجل من أهل زرود .

فروايات قصص الجمهرة هذه تتبع أسلوب القصص الشعبي في القص . وهذا يمكن أن يجعل مشكلة الزمن الذي الف فيه كتاب الجمهرة غير ذات موضوع . وسواء ألف الكتاب في القرن الثاني أو الثالث أو الرابع أو الخامس فان القصص التي روتها الجمهرة عن الشـــعر وعلاقته بالجن قصص شعبية متداولة عرفت في عصر الـكتاب وبعد عصر الـــكتاب في عصر بديع الزمان الهمذاني وابن شهيد وقبل عصرهما . وطبيعي أن تكون معروفة لديهم . وقد يكون الزمن والرواة لعبا فيها بالحذف والزيادة عن قصد أو غير قصد ولكن الشكل الذي رويت فيه الحكاية أو الخبر يرد أولا واخيرا للراوي فهو صاحب القدرة على سبك الحكاية بصيغتها الاخيرة المروية بها .

ومن الواضح ان هذه القصص رويت لجمهور مؤمن بها كما ان راويها على قدر كبير من الثقافة الشعبية ولم يكن من أصحاب المواقف العقلانية . وهذا ما يجعل لهذه الروايات قيمة كبيرة فقد حملت صورة واضحة عن عالم الجن وعلاقتهم بالشعراء دون أن يكون الراوي شخصية من شخصيات الخبر فان أحدا منهم لم يقل انه رأى هؤلاء الجن المبدعين .

ففى الخبرين الاولين حكاية واحدة ، وراوى الخبر الاول هو ابن المروزى وفى رواية الزرودى وفى رواية ثالثة ابن الزرودى وقد ذكر فى هامش احدى الروايات اسم أبى طلحة موسى بن عبد الله الزرودى ويحدث تغيير فى هامش نسخة أخرى فى الزرودى هذا ليصبح الزوردى (١) . وعدم الثبات فى اسم الشخص يوضح الى اى مدى أن هذه الرواية لمجهول كما يوضح أن التغيير لم يحدث فقط فى الرواية الشعبية وانما حدث ذلك أيضا فى رواية العلماء . يقص الراوى عن أبيه انه التقى بهبيد جنى ابن الابرص وروى له من شعره ، كما حادثه عن ابن عمه مدرك بن واغم صاحب الكميت (٢) وبعد ذلك أتاه الجنى بعس من لبن كرهه لزهومته فعلم بعد ذلك أنه لو شرب هذا العس لكان أشعر قومه فندم على عدم شربه .

لم تنته القصة عند هذا الحد اذ أن الراوى يجعل من قصته مقدمة للقصة الثانية ، فلقد ادته هذه القصة الى أن يعيش متشوقا لرؤية هادر او مدرك حتى كبر وضعف ولزم وطنه ، فكان يلقى الرائحين والغادين . وكان ذلك تمهيدا للقاء رجل من أهل الشام ورد عليه فأكرمه وقدم له العشاء ثم اخذ الرجل فى الصلاة بينما كان يروى ابنيه شعر النابغة ، فانفتل الرجل من صلاته ليخبره انه فى احدى سفراته سار فى بلقعة من الارض لا أنيس بها ، فرأى نارا ذهب اليها ، فالتقى برجل معه صبية صغار . روى له الرجل من اشعار امرىء القيس

---

(١) القرشى . المرجع السابق . ص ٤١ ، والهامش .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥ .

والنابغة وعبيد وحين انشده شعر الاعشى اســتخدمت الرواية لفظ « اندفع » لتوضح الحرارة التى انشد بهـا شعر الاعشى حتى لا يفاجأ السامع حين يعلم ان هــذا الرجل ليس الا جنيا وانه مسحل الســـكران صاحب الاعشى (١) . وبالتالى فان الشعر شعره .

والقصة الثالثة يرويها مطرف الكناني عن ابن داب عن رجل لا تتحدث عنه الراوية الا بأنه ثقة والرواية عن أبيه عن جده أنه خرج فى طلب لقاح له على فحل من الابل فجرى به الفحل يسبق الريح حتي وصل الى خيمة بها شيخ كبير . ولم يكن هذا الشيخ سوى لافظ بن لاحظ شيطان امرىء القيس ولم تكن هذه الارض سوى أرض الجن ، فأنشده الشيخ من شعره وطلب من ابنة له أن تنشد من شــعر هادر صاحب الذبيانى قصيدة، علمها لها » (٢) .

والقصة الرابعة تروى عن المفضل عن أبيه عن جده عن العلاء بن ميمون الآمدى عن أبيه ومكان أحداثها بعيد عن الجزيرة العربية فى جزيرة من جزر بحر الخزر . ولم يكن والد العلاء بمفرده ، وانما كان معه رجل آخر من قريش ، التقيا بالسفاح ابن الرقراق الجنى صــاحب الحارث بن مضاض الجرهمي وقد اعتزل موطنه منــذ أن تفرقت الجن « وتطلقت الطوالق المقيدة من وقت سليمان عليه السلام (٣) » . وبقى عابدا لله وقد آلى الا يغادرها حتى يسمع بخروج النبى عليه السلام . وفى القصــة

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٧ ــ ٤٩ .

(٣) القرشى ، المرجع السابق . ص ٥٥ .

خلط تاريخي فراوى القصة يجعل المدة بين سليمان عليه السلام وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه باربعمائة سنة كما يجعل سليمان معاصرا لعبد مناف (١) .

والقصة الخامسة بلا راو وبلا اسـناد تروى عن الفرزدق وحديثه عن الهوبر والهوجل (٢) .

وليست هذه كل قصص الفصل الخاص بقول الجن الشعر فى الكتاب ، وانما هناك روايات اخرى عن قول الجن الشعر وبصرها بنقده ، فهناك قصة يظهر اسنادها قلقا فهى تروى عن سنيد أو عن سعيد بن حزام عن ابيه عن ابى عبيدة عن ابى بكر المزنى عن شيخ من أهل البصرة لم يذكر اسمه انه خرج فى ليلة مقمرة فاقبل عليـه شخص ينشد شعرا ، ويدرك الشيخ أنه من الجن اذ اقبل راكبا على ظهر ظليم قد خطمه . ثم دار بينهما حوار عن الشعر والشعراء سأله فيه الرجل عن أشعر الشعراء ثم سأله أن يحدد قائل بعض الابيات الشعرية (٣) .

وهكذا تكون هذه القصص قد احتفظت بالمعالم الخاصة باطار الحكى الشعبى وهذا لا يتفرد به الـكتاب ولـكنه يتفرد بهذا اللون من القصص بما يعطى صورة واضحة عن هذا الموضوع . واذا أضيف اليها قصص الجاحظ فى الحيوان والاصبهانى فى الاغانى فان الصورة تكون قـد اكتملت عقيدة وفنا ما زال صداها يعيش الى الآن .

ولقد استطاعت هذه القصص أن تلهم وتؤثر فى أهم

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) المرزبانى . المرجع السابق ، ص ٥٥٣ .
(٣) القرشى . المرجع نفسه . ص ٥٠ ـ ٥١ .

الاعمال الدرامية فى الادب العربى . وعنـد النظر الى البعد الزمنى بين أول من استخدم هذا الموضـوع كفن لا كعقيدة وهو الحكم بن عمرو البهرانى وبين آخر من استخدمها وهو أحمد شوقى ما يزيد عن ألف ومائتى عام . وهذا يؤكد ان هذا الموضوع يملك قوة جذب كبيرة وانه قادر على الحياة وتخطى حدود الزمان الذى نشأت فيه هذه القصص .

الباب الاول :

فى النشر

الفصل الاول :

المقامة الأسودية والأبليسية للهمزاني

— أ —

أخذ بديع الزمان الهمذاني شهرة كبيرة فى الادب العربى بكتابته المقامات المشهورة باسمه . والمقامة نوع من القصص القصيرة مبنية فى معظمها على شخصيتين احداهما عيسى بن هشام والاخرى أبو الفتح الاسكندرى، وهو من الأدباء السيارين أو المكدين السائلين يطوف من مكان الى مكان يستجدى الناس بفصاحته . وراوى القصة هو عيسى بن هشام الذى كثيرا ما يحكى أخباره وأخبار صاحبه أبى الفتح الاسكندرى (١) . ولقد أثيرت قضايا كثيرة حول الاصول الفنية للمقامة : أهى من اختراع بديع الزمان أم أنه سبق اليها (٢) ، كما أثير نقاش حول عددها (٣) . وهذا البحث لا يعنى بأى من هذه القضايا ، اذ انه منصب حول دراسة موضوع الجن وعلاقته بالابداع الشعرى كما استخدمه بديع الزمان

(١) من بين التعريفات الكثيرة للمقامة أخترت تعريف شوقي ضيف ، وادخلت عليه بعض الاضافات . أنظر : ضيف ، شوقى . الفن ومذاهبه فى النثر العربى . القاهرة : دار المعارف . سنة ١٩٦٥ . ص ٢٤٦ ، ٢٤٧

(٢) حسن ، محمد رشدى . أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٤ . ص ٩ ــ ١٥ .

(٣) أنظر : ضيف ، شوقي . المرجع السابق . ص ٢٤٧ .

الهمذاني في مقامتين من مقاماته وهى المقامة الاسودية والمقامة الابليسية .

– ١ –

تسمى المقامة الاسودية (١) نسبة الى الاسود بن قنان الذى نزل بيته عيسى بن هشام .

والمقامة تبدأ بحديث عيسى بن هشام ، وقد اتهم أنه اصاب مالا بغير حق فهام على وجهه هاربا حتى أتى الى البادية . ووصل الى ظل خيمة يستظل بها ، فصادف غلاما حدثا يلعب فى التراب مع أترابه ، وهو ينشد الشعر . تعجب عيسى من قدرة الغلام ، فرد عليه الطفل كاشفا السر فى نبوغه الشعرى صغيرا :

انى وان كنت صغير السن
وكأن فى العين نبو عنى
فان شيطانى أمير الجن
يذهب فى الشعر كل فن
حتى يرد عارض التظنى
فامض على رسلك واغرب عنى (٢)

وبعد ذلك انتقلت المقامة الى الموضوع الاساسى وهو الكدية والمدح بمناداة الفتى الصغير على فتاة ، فتحضر وتطمئن عيسى الى أنه نزل فى مأمن ، يستخدم الهمذانى ذلك مدخلا ليمتدح الاسود بن قنان ، ثم يتحرك بعدها

(١) الهمذانى . أبوالفضل بديع الزمان . المقامات . شرح الشيخ محمد عبده المصرى . بيروت : المطبعة الكاثوليكية . (د . ت) . الطبعة الثانية ص ١٤٤ – ١٤٨ .

(٢) الهمذانى ، المصدر السابق . ص ١٤٥ .

للشكل العام الذى بنى عليه معظم مقاماته ، وهو الكدية، فالفتاة تومىء للفتى الصغير أن يأخذه الى بيت الاسود حيث يجد أبا الفتح الاسكندرى بين الضيوف .

كان المركز الاساسي للحدث فى المقـــامة مبنيا على الابيات التي أنشدها الطفل « انى وان كنت صغير السن. الخ » وهى تنسب لمالك بن أميـــــة . وقد ذكر منها الجاحظ الاسطر الثلاثة الاولى (١) . وذكر الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر اشطرها الاربعة (٢) ، وسجل بن جنى فى كتابه الخصائص الاشطار الخمسة الاولى (٣) . وليس للهمذانى غير الشطر الاخير فقد وضعه ليصبح جزءا من الموقف وملائما لرد الطفـــــل على تعجب عيسى منه ؛ فالشطر « فامض على رسلك واغرب عنى » مؤتلف مع موضوع الفخر والتحرك به الى موضوع الكدية فالمدح . ولقد استخدم البيت الاخير ليبين أيضا حدة الفتى التى تجعل عيسى يشعر بالهيبة من الغلام فيقول له :« يا فتى العرب ادتنى اليه خيفة » (٤) ، ويكون ذلك مدخله لطلب القرى ، فطفل هذا ذكاؤه وقوته يمكن أن يسأل عن القرى، بل وما هو أكثر من القرى الامن الذى يحتاجه الهارب « فهل عندك أمن أو قرى » (٥) وبذلك يدخل الى بقيه أحداث المقامة .

كانت الابيات معروفة متواترة للادباء فى عصرالهمذانى

---

(١) الجاحظ ، أبوعثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : سنة ١٩٦٧ ، جـ ٦ ، ص ٢٢٥ .

(٢) الثعالبى ، أبومنصور عبد الملك بن محمد ، ثمار القلوب ، القاهرة : مطبعة الظاهر ، سنة ١٩٠٨ ، ص ٥٩ .

(٣) ابن جنى ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، تحقيق محمد على النجار ، بيروت : دار الهدى ، سنة ١٩٥٢ ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٤) المرجع نفسه .

الذى كان على معرفة تامة بالجاحظ ، ظهرت معرفته هذه من خلال موقفه النقدى من الجاحظ ، وقد صاغه فى مقامة أسماها « المقـامة الجاحظية » (١) . وبطبيعة الحال كان يعرف كتابه الحيوان الذى أورد الابيات ، كما كان يعرف الثعالبى الذى كان معاصرا له ، فقد ذكر فى اليتيمة أنه كتب مقاماته فى نيسابور حين وصلهـــا سنة ٣٨٢ (٢) . وهناك رأى آخر يجعل تاريخ كتابتهـا سنة ٣٩٢ هـ (٣) ، لو صـــح الرأى الثانى فان بديع الزمان الهمذانى يكون قد أطلع على كتاب ثمار القلوب الذى كتب فى هذه الفترة ، ولقد توفى بديع الزمان الهمذانى سنة ٣٩٨ هـ (٤) وتحدث الثعالبى عنه باعجاب شديد . وقد أورد الابيات دون أن يذكر قائلها وصدرها بنفس عبارة الجاحظ « وقال آخر » ولم تكن هناك قصة وراءها تلائم الهمذانى ليضمنها مقامته ليقوم بوضع قصة حولها ، غير أن الابيات ومحاولة تفسيرها بشكل قصصى لم تكن كافية لتملأ احداث مقامة ، فيضيف مع شخصية الفتى شخصية الفتاة وشخصية أخرى لم تظهر ، وانما هى المقصودة بالمقامة ، وهى شخصية الاسود ابن قنان

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) الثعالبى . يتيمة الدهر . القاهرة : مطبعة الصاوى سنة ١٩٣٤ ، ص ٢٤١ .

(٣) ياقوت الحموى . معجم الادباء . بيروت : داود دافيد صمويل مارجليوت ، سنة ١٩٣٦ . ج ٢ . ص ١٦٦ .

(٤) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر . وفيات الاعيان . تحقيق محيى الدين عبد الحميد . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٤٨ ، ج ١ ، ص ١١٠ .

التى تبرز من خلال شعر الفتاة فى مدحه ، وحين يذهب الى البيت ويلتقى بالاسكندرى لا يتوقف المدح فهو ايضا يأخذ فى مديح الاسود بن قنان ، وتنتهى المقامة بتعجب عيسى من أساليب الاسكندرى فى الكدية فهو لم يترك طريقا الا سلكها ثم يفترقان .

ـ ب ـ

وفى المقامة الابليسية (١) يطرق موضوعا متداولا عن علاقة الجن ودورها فى الهام الشعراء .

ويروى عيسى بن هشام ان أبلا له ضلت فخرج فى طلبها فحل بواد أخضر به أنهار جارية وأشجار باسقة ، واذا به يجد شيخا جالسا ، فأصابه الروع غير أن الشيخ هدأ من روعه . وسأله ان كان يروى أشعارا ، فأنشد له من أشعار أمرىء القيس ولبيد وطرفه ، فلم يطرب لهذا الشعر ، ثم أنشد الشيخ قصيدة « بان الخليط ولو طووعت ما بانا ... » حتى أتى على القصيدة كلهـا فأنكر عليه عيسى أن يدعى قصيدة معروفة مشهورة لجرير ، ولكن الشيخ لم يهتم لما يقول وسأله ان كان يروى شعرا لابى نواس فأنشده « لا أنشد الدهر ربما غير مأنوس » فطرب الشيخ وشهق وزعق ، فلم يستملح عيسى بن هشام منه أن ينتحل شعر جرير ثم يطرب لفويسق عيار . ويبدو أن الشيخ ضاق به فطلب منه أن يمضى لحال سبيله ، ثم وصف له الكيفية التى يجد بها ضالته وذلك بطريقة ملغزة . وانتهى الموقف مع

---

(١) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٤٦ .

الشيخ بأن كشف له عن شخصيته ، فهو أبو مرة أبليس ، وغاب الشيخ بعد ذلك عن عينيه .

سمع عيسى نصيحة أبي مرة ، فاهتدى الى ابله التى كانت مختبئة فى غار فردها الى الوادى .

وتنتهى المقامة حين يدخل أبو الفتح الاسكندرى على عيسى بن هشام وهو تدب الخمر ويسلم عليه فيخبره بخبره ، فيومىء الاسكندرى الى عمامته ويقول هذه ثمرة بن ابليس ، وتكون آخر عبارة يقولها عيسى بن هشام له : « يا أبا الفتح شحذت على أبليس » (١) .

والحكاية التى بنيت عليها المقامة ليست جديدة ، فتأثير الحكايات التى رويت عن الشعر الجاهلى والاسلامى والهام الجن للشعراء واضحة فيها .

وهناك أكثر من قصة استلهمها المؤلف من هذا الادب . ومن أهم هذه القصص القصة المروية عن جرير بن عبد الله البجلى الصحابى ولقائه بمسحل السكران صاحب الاعشى وقد أنشد له احدى قصائده . ولما كان جرير بن عبد الله البجلى يعرف ان هذه للاعشى ، فقد أخبره الجنى انه مسحل السكران يظهر تأثيرها أيضا فى المقامة . فلقد تم اللقاء بين الاعشى وصاحبه دون أن يعرفه وقد ضل الطريق ، وانشد له الاعشى من شعره : « رحلت سمية غدوة أجمالها » ، كما أنشد له « ودع هريرة أن الركب مرتحل ؟ وبعد أن تحادثا وقتا كشف له مسحل عن

---

(١) الهمذانى . المصدر السابق : ص ١٩٥ .

(٢) أبو الفرج الاصبهانى ، على بن الحسين . كتاب الاغانى . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ١٩٦٣ . جـ ٩ ، ص ١٥٦ وانظر الكتاب ص ١٤ .

نفسه ولم تكن سمية وهريرة سوى ابنتيه ، وبعد ذلك دله على الطريق (١) .

ويروى صاحب الجمهرة قصتين قريبتين لحكاية المقامة ، فهى تتبع نفس الخط الذى سارت فيه الرواية. يذكر صاحب الجمهرة عن المروزى عن أبيه انه خرج على بعير صعب . وسار به البعير دون أن يملك من أمر نفسه شيئا ، فمر على ظباء خافت منه ، ثم التقى برجل عليه أطمار حاول أن يمنعه الظباء فلما لم يفلح صاح بالبعير صيحة ، فضرب بجرانه على الارض فوثب عنه ، وقد علم ان هذا الرجل من الجن ، فاعتذر له ثم سأله ان كان يروى شعرا . فأنشده الجنى « طاف الخيال علينا ليلة الوادى » ولم تكن هذه القصيدة سوى قصيدة عبيد بن الابرص (٢) . والقصة لا تنتهى عند هذا الحد فالمروزى نفسه يروى عن نفسه أنه كان يخرج فى الفيافى ليلا ونهارا لعله يلتقى بأصحاب الشعراء من الجن حتى كبر ولزم بيته ثم لقى رجلا من أهل الشام كان يسير ببلقعة من الارض لا أنيس بها ، اذ رفعت له نار ، فدفع اليها فاذا بخيمة بفنائها شيخ كبير ومعه صبية صغار . تحادث الشامى معه طويلا ثم سأل الشيخ أن ينشده من شعره فاندفع ينشد للاعشى فاستغرب الشامى أن ينشده شعرا معروفا للاعشى ، فما كان من

---

(١) الألوسى . محمود شكرى . بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب . تحقيق محمد بهجت الاثرى . القاهرة : مكتبة محمد الطيب ، سنة ١٩٤٣ هـ ج ٢ ، ص ٣٦٧ ــ ٣٨٦ .

(٢) القرشى ، أبوزيد محمد بن أبى الخطاب . تحقيق على محمد البجاوى . جمهرة أشعار العرب . القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٩٦٧ ج ١ ، ص ٤٢ ــ ٤٦ .

الشيخ الا أن أخبره بحيتيته فهو مسحل السكران تابع الاعشى (١) .

وهناك رواية أخرى من روايات صاحب الجمهرة عن المطرف الكنانى عن رجل من أهل زرود (٢) . والرواية تبدأ برجل يروى أنه خرج فى طلب لقاح له على فحل قصير قوى ، فمر به يسبق الريح حتى دفع الى خيمة بفنائها شيخ كبير ، فلم يرد عليه السلام ، ودار بينهما حوار فسأله الشيخ : من أين ؟ فاستحمقه الرجل اذ بخل برد السلام وأسرع الى السؤال . والقصة تسير نفس مسار قصة المقامة حتى استخدام الحوار بين عيسى وابليس يلتقى مع الحوار بين الرجل والجنى ، اذ أن هذا الجنى لم يكن سوى لافظ بن لاحظ جنى امرىء القيس . وثمة فرق بين القصتين هو ان القصة تحوى دورا لابنة الجنى فقد قامت بالانشاد من شعر الذبيانى ، وكما انتهت قصة عيسى بن هشام بعثوره على ابله . فقد انتهت قصة الزرودى بأن نهض به الفحل وعاد الى لقاحه .

تلتقى هذه الروايات مع المقامة فى أداء فنى واحد فالقصة عادة تبدأ :

برحلة يقوم بها الراوى
يضل فيها الراوى الطريق
ثم يلتقى فيها بشيخ
يتم التعرف على الشيخ فاذا به « جنى » .
يتعرف الراوى بعد ذلك على الطريق .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٢ ـ ٤٦ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

والراوى هنا أو من تنسب اليه الرواية يقوم برحلة ، وقصة الاعشى تبدأ بخروجه الى حضرموت يريد قيس ابن معد يكرب (١) . وقصة البجلى تبدأ بقوله « سافرت فى الجاهلية » (٢) . ورواية ابن المرورى « خرجت على بعير لى صعب » (٣) وقصة الشامى تبدأ « بينما أنا أسير فى طريقى ببلقعة » (٤) وقصة جد الزرودى تبدأ بقوله « خرجت فى طلب لقاح » (٥) . والمقامة تبدأ بحديث عيسى بن هشـــــام « أضللت ابلا لى ، فخرجت فى طلبها » (٦) .

فالحركة الاولى هى الرحلة أو الخـــروج ، فالجنى الشـــــاعر والملهم لا يلتقى بهؤلاء الناس فى منازلهم ولا يذهب اليهم وانما يلتقى بهم عن طريق الصدفة . والصدفة تأخذ مكانهـــا بعد الرحلة وذلك بأن يضل المسافر الطريق . ولقد ضل جميع ابطال هـــذه الروايات طريقهم ، وليست لاحد منهم يد فى هذا ، فانه تم لعدم معرفة بالطريق أو لعجز الراوى عن التحـــكم فى دابته فتقوده الى موقع الجنى الملهم .

ويتم اللقاء عادة دون معرفة أو تصور مسبق بأنهم سوف يلتقون بجنى .

ويبدأ تعرف الانسى على الجنى بعد أن ينشده الجنى

---

(١) الالوسى . المرجع السابق . ص ٣٦٧ .
(٢) القرشى . المرجع السابق . ص ٤٣ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٤٧ .
(٤) الاصبهانى . المرجع السابق جـ ٩ ، ص ١٥٦ .
(٥) المرجع نفسه . ص ٤٦ .
(٦) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٩٠ .

من شعره ، هذا باستثناء رواية الزرودى ، ففى احدى نسخ الجمهرة يتعرف الراوى عليه قبل انشاد الشعر . ويبدو أن هذه اضافة ؛ اذ يروى فى معظم النسخ التى اعتمد عليها البجاوى فى تحقيق نسخته أنه تعرف اليه بعد ذلك (١) .

ولقد تم تعرف عيسى بن هشام على ابليس بعد أن تطارحا قول الشعر ، اذ قال ابليس : « ما من احد من الشعراء الا ومعه معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة وأنا الشيخ ابو مرة » (٢) .

ويأخذ الرواة الشك فيما يقول الجنى فى كل هذه القصص . وقد يسخر الراوى منه كما فى قصة الزرودى اذ يسخر من صاحب امرىء القيس بقوله : « الا تستحى أيها الشيخ » (٣) وحين ذكر له اسمه لافظ بن لاحظ علق بقوله : « اسمان منكران » (٤) . ويتكرر هذا الموقف فى المقامة فان عيسى بن هشام سخر من ابليس حين ادعى قصيدة جرير لنفسه وطرب حين استمع لقصيدة أبى نواس بقوله : « قبحك الله من شيخ لا أدرى أبنتحالك شعر جرير أنت أسخف أم بطربك من شعر أبى نواس وهو فويسق عيار » (٥) . وواضح هنا أن الهمذانى قد استبدل فى مقامته جريرا بامرىء القيس كما استبدل بشعر النابغة شعر أبى نواس .

---

(١) القرشى . المرجع السابق . ص ٤٨ .
(٢) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٩٢ .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) القرشى . المرجع السابق . ص ٤٨ .
(٥) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٩٢ .

وكما وجد جميع هؤلاء الرواة طريقهم بعد ذلك اما بمساعدة الجنى أو دون مساعدة منه فقد دل مسحل السكران الاعشى مباشرة على الطريق بقوله : « لا تعج يمينا ولا شمالا حتى تقع ببلاد قيس » (١) . وفى رواية ابن المروزى أن الجنى قال لابنى : « امض راشدا مصاحبا » (٢) ، فهو دعاء لا يخلو من هداية الجنى له . أما فى المقامة فقد دله على الطريق بالقاء لغز لغوى له يعنى حله أنه اذا وجد رجلا يحمل مذبة فليسأله عن الطريق وعن مسرجة . وساعده حل هذا اللغز على أن يجد ضالته .

وتعقيد الهمذانى لموقف التعرف هو الفارق بين الرواية الشفوية والرواية المكتوبة ، فالهمذانى يحاول أن يكشف عن قدرته اللغوية التى لم يكن الراوى فى حاجة الى أن يقيم دليلا عليها ، كما أنها لم تكن هدفا من أهداف الرواية الشفوية .

أما صورة الجنى كما قدمتها هذه الروايات فقد اختلفت باختلاف الراوى ، ففى قصة الاعشى لم تبرز صورة واضحة لتكوين الجنى الجسمانى . وربما كان ذلك لان الاعشى ضعيف البصر وكان من الطبيعى الا تبرز صورة جسمانية عن الجنى . يختلف ذلك عن الرواية المسندة للبجلى ففيها تقدم صورة تصف الجن بالقبح والدمامة . وتصف مسحلا بأنه « أشد تشويها منهم » (٣) . ولما كان البجلى صحابيا فانه من الطبيعى أن تصف الرواية

---

(١) الالوسى . المرجع السابق . ص ١٨ .
(٢) القرشى . المرجع السابق . ص ٤٨ .
(٣) المرجع السابق . ص ٤٥ .

المنسوبة اليه الجن بهذه الصورة القبيحة . اما في الروايات التى ذكرها القرشي فهو يبرز فى هيئة الانسان . يصوره ابن المروزى بأنه « رجل عليه اطمار » (١) . ويصفه الرجل الشامى بأنه « شيخ كبير » (٢) . وهذا الوصف يلتقى مع رواية الزرودى (٣) غير ان هذه الروايات لا تزيد عن هذا الوصف المقتضب .

ولقد تفاوتت الروايات المروية عن العصر العباسى ، تجعله تارة قبيحا وتارة ذا هيبة وجمال . والرواية المسندة الى اسحاق بن ابراهيم الموصلى عن أبيه تختلف من مرويات العصر الاموى بأن تجعله يذهب الى ملهمه (٤) . هذا فضلا عن أنها تبرزه شيخا ذا هيبة وجمال .

يبدو ان هناك اجماعا على جعل ابليس يبدو فى صورة الشيخ فقد عاصر خلق الكون ، وكان سابقا عليه وقد سماه ابو نواس بالشيخ « والشيخ نفاع على لعنته » (٥) والهمذانى لم يخرج عن هذا اذ جعله شيخا (٦) .

وقد استخدم الهمذانى الرؤية العامة لهذه الروايات عن الجن فهم — فضلا عن منحهم الشعراء ابداعهم — أصحاب قدرة على تمييز الشعر الجيد من الردىء .

---

(١) أبو نواس ، الحسن بن هانىء ، ديوان ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى ، بيروت : دار الكتاب العربى ، (د . ت) ، ص ٣١٥ .
(٢) الهمذانى ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
(٣) القرشى ، المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٤٧ .
(٥) المرجع نفسه .
(٦) الاصبهانى ، المرجع السابق ، ص ٥ ، ص ٢٣١ — ٢٣٥ .

واذا استثنينا رواية الاعشى والبجلى ـ فقد أنشدوا اشعارا اخرى لغيرهم او اظهروا اعجابا بغيرهم من الشعراء . وقد ذكر ابليس انه أملى على جرير قصيدته. ولقد اختار الهمذانى لابليس أن يكون ملهما لجرير الذى كان يعترف به صاحبا لالهامه وكان يسميه « ابليس الاباليس » (١) . وذكر ايضا انه أعجب بشعر ابى نواس وان لم يذكر انه أملى عليه قصيدته .

وكما اتفق معظم الرواة فى تحديد صورة الجنى فقد اتفقوا على صورة الجو الذى حدثت فيه أحداث الرواية والمكان الذى التقى فيه الرواة بالجن . وقد اجتمعت الروايات التى ذكرت على أن مكانهم الصحراء ، اما فى الارض المنبسطة أو الجبل فى مكان موحش لا انيس فيه ، قفر من كل شيء الا الظباء . وهذا تكميل لصورة الجو الذى يعيشون فيه ، فقد عرفت الظباء بأنها مطايا الجن (٢) . غير ان الصورة قد تغيرت عند الهمذانى . وكان مرد ذلك ان جميع هؤلاء الرواة كانوا ممن عرفوا الصحراء . وكان ذلك متفقا مع اعتقادهم أن الخرائب والقفار من بين مساكنهم (٣) . اما الهمذانى فهو ابن الخصب وابن المدينة فكان من السهل عليه أن يختار مكانا آخر للجن غير الصحراء ، وان كان ارتباط الجن بالوحشة والبعد عن العمران ما زال قائما . ولقد وجد عيسى أبليسا جالسا وحوله أنهار مصردة ، وأشجار

(١) الاصبهانى . المرجع السابق .

(٢) الجاحظ . المرجع السابق . ص ٤١٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ . والشبلى آكام المرجان فى أحكام الجان . القاهرة : مطبعة السعادة ، سنة ١٣٢٦ هـ ص ١٢٠ .

(٣) الجاحظ . المرجع السابق .

باسقة ، وأثمار يانعة ، وازهار منورة ، وانمـــــاط مبسوطة (١) ، ولكنه كان وحيدا بين هذه الخضرة حتى ان عيسى بن هشام « راعه منه ما يروع الوحيد من مثله » (٢) .

كان ذلك يتلاءم مع الحياة التى كان الهمذانى يحياها ؛ والجو الذى عاش فيه والعـالم الذى اختلفت صورته كثيرا عن عالم الصحراء .

— ٣ —

واذا كان الهمذانى قد استمد موضوعه من التراث الشـــعبى والادبى ، فان عمله يعد نقلة بين الادب الشفوى والادب الفصيح بما يجعل هذا العمل ومثله من الاعمال جسرا يقرب المسافة بين الادبين .

كان الاطار الذى اعتمد عليه الهمذانى مقاربا للأدب الشفوى ومرتبطا به ارتباطا كبيرا . والفارق بين عمل الهمذانى وبين هذه الروايات هو وظيفة العمل الفنى فالروايات التى اعتمد عليها الهمذانى هى روايات شفوية مدونة ولم يضف اليها المدونون عن قصـــد تعديلا فى البنية أو اللغة ، وحافظوا على شكلها الاولى وهو المروى شفويا ، فالرواية حكاية بسيطة تهدف الى أن تروى حادثة لها غرابتها مرتبطة بالاعتقادات الشعبية للجمهور المستمع للرواية . ولم تكن تهدف الى الاهتمام باللغـــة كما كان اداؤها الفنى بسيطا لا تعقيـــد فيه بينما عقد الهمذانى اللغـــة والاداء القصصى للمقامة . لقد عقـــد

---

(١) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه .

الموقف الذى صور فيه لقـــاء عيسى ابن هشام بالفتى الشاعر فى المقامة الاسودية . وتبدى الهدف من هذا التعقيد ان يجعل الابيات المركز الذى تدور عليه الاحداث ثم ينتقل منه الى المديح فيمتدح الاسود بن قنان ، فهى مقامة فى المدح ركبت فيها الاحداث بشكل قصصى .

وفى المقامة الابليسية مهد لوقف التعرف بين عيسى ابن هشام وابليس بلغز يصف فيه الرجل الذى سيهديه الى ابله ويصف المسرجة بشكل يظهر معاناة الفكر للكاتب والقارىء ، فالهمذانى كان يكتب لجمهور محـــــدود على قدر كبير من الثقافة كما انه كان يهتم بشكل واضح بابراز قدرته اللغوية لهذا الجمهور : « فاذا لقيت فى طريقك رجلا معه نحى صغير يدور فى الدور ، حـول القدور ، يزهى بحليته ويباهى بلحيته . فقل له دلنى على حوت مصرود فى بعض البحور ، مخطف الخصور ، يلدغ كالزنبور . ويعتم بالنور . ابوه حجر وامه ذكر . وراسه ذهب . واســـمه لهب . وباقيه ذنب . له فى الملبوس عمل السوس . وهو فى البيت آفة الزيت . شريب لا ينقع . اكول لا يشبع . بذول لا يمنع . ينمى الى الصـــــعود . ولا ينقص ماله من جود . يسوؤك ما يسره . وينفعك ما يضره (١) » . ولقد جمع الهمذانى فى هذا الوصف الكثير من المحسنات البديعية ، كمـــا غلب عليه السجع والجناس والطباق . ولم تصدر الفاظه بتلقائية كما كانت تصدر الفـاظ الروايات الشفوية ، فهو مهتم بجرس الكلمات اهتماما لا يقل عن اهتمامه بالموضوع بل ان الموضوع هنا بدا تابعا للفظ ، حتى

(١) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٩٣ .

ليبدو استخدام الرجل الذى يحمــــل النحى او المذبة لا دور له الا ليكمل صورة اللغز الذى كان هدفا فى حد ذاته ، فالهمذانى كان يريد أن يثبت وجوده بابراز هذه القدرة اللغوية بين معاصريه من الادباء .

وتبعا لاختلاف الوظيفة بين القصة الشفوية وقصـــة المقامة فقد تغاير دور الشخصيات تغايرا كبيرا . ففى القصص التى تناولت الجن وعلاقتهم بالشــــــــــعراء شخصيتان اساسيتان . شخصية الراوى وشـــخصية الجنى . وهما يقفـــــان متواجهين ، الانسى بفضوله ، والجنى بعبقريته . وقد تضاف شخصية أخرى ، وهى شخصية الجارية ابنة الجنى التى تنشد الشعر كمـــا حدث فى رواية الاعشى ، فقد ابرز فيها فتاتين ، وهمـــا سمية وهرير ، فأنشدته سمية « رحلت سمية غدوة اجمالها » ، فلما اتمت القصيدة انصرفت ، ثم طلب الجنى من ابنته هريرة أن تنشـــــد « ودع هريرة ان الركب مرتحل » (١) . وفى رواية الزرودى انشد ابنة الجنى قصيدة هادر صاحب الذبيانى « نأت بسعاد عنك نوى شطون » (٢) .

ودور المنشدة هنا له جانبان احدهما انها تقف شاهد اثبات على صدق الجنى . وثانيهما انها تعطى صـــورة المفهوم العام للاعتقاد فى دور الجن فى عملية الخلق الفنى ومدى اهتمامها بالشعر والشعراء .

استغنى الهمذانى عن معظم هذه الشخصيات باستثناء

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ج ٩ ، ص ١٥٦ .
(٢) القرشى . المرجع السابق . ص ٤٩ .

الراوية . فهو فى كل من المقامتين اعتمدعلىأربعشخصيات شخصيتان تكررتا فى هاتين المقامتين كما تكررتا فى معظم مقاماته الاخرى ، وهما شخصية الراوى عيسى بن هشام وشخصية أخرى مكملة له وهى شخصية أبى الفتح الإسكندرى . وهمـا فى الحقيقة مرتبطتان ارتباطا كبيرا حتى يكادان أن يكونا شخصية واحدة . فعيسى بن هشام يقص ويمهد لاحداث المقامة ، فهو فى المقامتين كان يواجه مشكلة . كانت المشكلة فى المقامة الاسودية اتهامه بمال أصابه (١) ،وفى المقـامة الابليسية يبحث عن ابله الضالة (٢) ، والرواية تبدأ مباشرة بهـذه المشكلة ، ينتقل بعدها الى محاولة حل هذه المشكلة وحين تحل المشكلة يلتقى بالاسكندرى . والاسـكندرى هنـا يعكس وجهة نظر عيسى بن هشام وان أبدى تعجبه من موقف الاسكندرى ، ففى المقامة الاسودية يقول عيسى للاسكندرى » اى طرق الكرائة لم تسلكها « (٣) . بينما يقول له فى المقامة الابليسية « شحذت على ابليس انك لشحاذ » (٤) . وهو يختم بهذه العبارة مقامته. ومحاولة لتطبيق هذا القول على عيسى فان كلمته للاسكندرى فى المقامة الاسودية وكذلك كلمته له فى المقـامة الابليسـية تنطبق على عيسى . وهذا ينعكس على معظم المقـامات فحين يكون بطل الاحداث عيسى فانه يتصرف تماما كمـا يتصرف الاسكندرى كما فى المقامة البغدادية (٥) . التى

---

(١) الهمذانى . المصدر السابق . ص ١٤٤ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .
(٤) المصدر نفسه . ص ٦٣ ـ ٩٧ .
(٥) المصدر نفسه . ص ٦٣ ـ ٩٧ .

لم يستخدم فيها الاسكندري وكان عيسى صورة اخرى له . وحين يكون بطل القصة الاسكندري فان دور عيسى هو التعليق على الحدث : وحين يشتركان ويكون عيسى هو بطل القصة يضع تهمة الكرائة على الاسكندرى دون مبرر موضوعى واضح غير تكوين اطار للاحداث بشكل يجعل القارىء شغوفا لمعرفة دور الشخصية الثانوية فى المقامة .

وشخصية عيسى بن هشام هى شخصية الراوى الذى ينظر الى الاحداث ثم يرويها بعد ذلك غير انه لا يرويها دون تدخل منه فهو صانع الحدث . ورؤيته للاشياء هى التى تدفع الى تطويره ، فانه بعد أن يعرض للمشكلة التى تواجهه يتحرك حركة جسمانية بمعنى انه لا يقف فى مكانه ، ففى المقامة الاسودية بعد أن يتحرك عيسى الحركة الاولى يلتقى بالفتى الشاعر ، وبعد أن يستمع لانشاده يعجب من قدرته على رواية شعر « يقتضبه حاله ولا يقتضيه ارتجاله » ثم يمتد الحوار بينهما حتى يلتقى بالفتاة . ولقاؤه بالفتى يجعله يعرض لموضوع الجنى والخلق الفنى أما لقاؤه بالفتاة فيؤدى لان يعرض لمديح الاسود بن قنان ثم تكمل الفتاة صورة المديح بأن تشير على الفتى أن يأخذه الى بيت الاسود .

لم يتغير دور عيسى عن هذا فى المقامة الابليسية فهو بعد المشكلة التى واجهته بضياع ابله يأخذ فى الحركة ، ويلتقى بعدها بابليس ثم يدور بينهما حوار ويتناشدان الشعر . وفيه يعبر عيسى عن عدم ارتياحه للشيخ الذى ينتحل الشعر ويطرب لشعر الفويسق العيار أبى نواس

وهو بهذا النقد يخسر ابليس الذى كان يمكن أن يعيش معه فى رخاء .

يترك عيسى ابليس وبعد هذه الحركة الجسمانية يجد ابله .

فى كلتا المقامتين تظهر شخصية الاسكندرى فى نهاية الاحداث ويتحدد لكل منهمـــا دور يبدأ بعيسى وينتهى بالاســـكندرى . فعيسى هو الراوى وهو بادىء الخير والممهد للأحداث بينما تبنى على شـــخصية أبى الفتح الاسكندرى نهاية المقامة . وهو فى كلتا المقامتين يمثـــل الكدية خير تمثيل أو على الاقل هو المتهم من عيسى بن هشام بأنه ممثل الكدية خير تمثيل ، فهو قد سلك جميع طرفها . وجده عيسى بن هشام فى نهاية المقامة الاسودية فى بيت الاسود ن قنان ، وبين ضيوفه ، كما وجده بعد ان وجد أبله فى المقامة الابليسية ، واذ به يجده قد شحذ حتى على ابليس ، فليس هناك طريق سلكه عيسى الا وسلكه الاسكندرى ، فهو ممثل الجانب الهزلى فى المقامة مما جعلها حية وأخرجها عن الجفاف فكلتا المقامين تنتهى بطرفة يقولها عيسى بن هشام يعلق فيها على صنيعه . وهذا أيضا متواتر فى معظم المقامات.

أما الشخصيات الاخرى فى المقامة فكانت لها صفة واحدة وهى انها شخصيات حدث . لا يبرز لها موقف أو تطـور نفسى ، فهى شخصيات جاهزة كان دورها أن تعرض للحدث الذى أراده القاص . وتعتمد المقامتان على ابراز شخصيتين يتحدث عنهما الكاتب ، ففى المقامة الاسودية كانت الشخصيتان هما شخصيتى الطفـــل والفتاة الشاعرة .

القى الهمذانى الضوء على الطفل أكثر من القائه الضوء على الفتاة . فقد تحادث مع الطفل وكشف عن نبوغه الذى رده الى قدرة الجن ، ثم استخدمه عيسى بن هشام بعد ذلك ليحرك الاحداث نحو الفتاة ومديح الاسود ابن قنان ، فطلب منه مكانا يأوى اليه وطعاما ، فدله على الفتاة . ولم يبرز من الفتاة أى جانب شخصى فهو يقدم صورة عامة لفتاة كريمة ابنة رجل كريم . ذكية شاعرة . ولم تظهر هاتان الشخصيتان الا بشكل مسطح لا عمق فيه ، وفيما يبدو لم يكن الهمذانى يريد أن يعمق هاتين الشخصيتين ويظهر تكوينهما النفسى بقدر ما كان يجعلهما طريقا لتصعيد أحداث المقامة والوصول الى هدفه من مديح الاسود بن قنان . وينتهى الحدث بلقائه بأبى الفتح الاسكندرى ، وكأنما أراد أن يجعل من ذلك مفاجأة لقارئه . ولكنها مفاجأة تخدم صورة الاسود بن قنان فتبرزه كرجل كريم .

لم يخرج الهمذانى عن هذا الاطار فى تقديمه لشخصيتى ابليس والرجل حامل المذبة فى المقامة الابليسية فقد قدم شخصية ابليس لتكون جزءا من البناء القصصى للمقامة فهو يهدى عيسى الى حامل المذبة ليربط أحدهما بالآخر .

تظهر صورة ابليس هنا أيضا مسطحة بلا أعماق لا تبدو منه غير صورة حسية ، فهو يبدو جالسا جلسة الرجل الوقور يتناشد الشعر مع عيسى بن هشام . ويطرب حتى يخرج عن وقاره حين يستمع لشعر أبى نواس ، فالهمذانى لا يهتم من صورة ابليس بغير هذا الجانب المألوف فى القصص الشعبى .

اما الشخصية الثانية وهى شخصية الرجل الذى دله على ابله فلم يظهر شىء يميزها فى المقامة سوى المذبة . وكان ظهورها ايذانا بانتهاء أحداث المقامة . فهى طريقة لان يجد ابله ، ويلتقى بعد ذلك بالاسكندرى لتختم المقامة بهذا اللقاء .

ولقد كانت المقـــامة أول عمل نثرى يتناول هـذا الموضوع فتح به الطـــريق لظهور عمل ادبى كبير وهو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد .

الفصل الثاني :

التوابع والزوابع لابن شهيد

يعد ابو عامر احمد بن عبد الملك بن احمد الملقب ب « ابن شهيد » من أهم الكتاب الذين استخدموا هذا الموضوع في أعمالهم الادبية ، ولقد اشتهر ابن شهيد بالشعر والنثر ولكن أهم اعماله هو « التوابع والزوابع » الذى استخدم فيه موضوع الجن وارتباطها بالابداع الادبي . وما بقى من أعمال ابن شهيد الشعرية والنثرية لا يصل الى مستوى التوابع والزوابع ، فهذا العمل لا يعد أهم ما خلف ابن شهيد من أعمال ادبية فحسب وانما يعد ايضا من أهم الاعمال الادبية التى بقيت لنا من التراث القديم .

ولقد عرف الادب الاندلسي شعراء وكتابا تفوقوا على ابن شهيد ولكنهم لم ينالوا الاهتمام الذى ناله من المعاصرين ، وذلك بفضل رسالته التوابع والزوابع . وترجع قيمة هذا العمل الى انه دفاع شاعر وكاتب عن نفسه امام معاصريه من ابناء وطنه . فهذا الحس الانساني هو الذى أبقى الرسالة حية لتصبح مادة

خصبة للدراسة ، وقد تناولها اكثر من دارس فى العصر الحديث (١) .

ولم يصل هذا العمل كاملا فقـــــد أورده ابن بسام

(١) ابن شهيد الاندلسى . رسالة التوابع والزوابع . تحقيق وتقديم بطرس البستانى . بيروت : مكتبة صادر ، سنة ١٩٥١ .

بلا ، شارل . ابن شهيد الاندلسى ، حياته وآثاره . عمان : منشورات الجامعة الاردنية ، سنة ١٩٦٥ . وذكى يعقوب . ديوان ابن شـــهيد . القاهرة : دار الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٩ قد طبع الديوان بمقدمة ترجمها محمد قدال عن

Dickie, James, M.A., Ibn Shuhayd. Al-Andalus. 1964. Vol. XXIX, p.p. 243-307.

وضيف ، أحمد . بلاغة العرب في الاندلس . القاهرة : مطبعة مصر ، سنة ١٩٢٤ . ص ٤٣ ـ ٥٩ . وضيف ، شوقى . الفن ومذاهبه فى النثر العربى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٩٦٥ . ص ٣١٩ ـ ٣٢٤ . وهيكل ، أحمد . الادب الاندلسى . القاهر : دار المعارف ، سنة ١٩٧٩ . ص ٣٧٧ ـ ٣٩٤ .

وعباس ، احسان . تاريخ الادب الاندلسي . بيروت : دار الثقافة ، سنة ١٩٧٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٥ ، ص ٢٧٠ ـ ٣٠٢ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٤٠ .

والداية ، محمد رضوان . تاريخ النقد الادبى فى الاندلس . بيروت : دار الانوار ، سنة ١٩٦٨ . ص ٢٩٣ ـ ٣٠٦ .

وخفاجى ، عبد المنعم . قصة الادب فى الاندلس . بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٦٢ . جـ ١ . ص ٢٩٨ ـ ٣٠٥ .

ونعمة ، نهاد توفيق . الجن فى الادب العربى . بيروت : المؤلف ، سنة ١٩٦٠ ، ص ١٨٤ ـ ١٩٦ .

وحميدة ، عبد الرازق . شياطين الشعراء . بيروت : مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٥٦ . ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢ .

مختصرا ، اذ حذف منه ما رآه اطنابا واسهابا (١) وقد عنونها بما يوضح هذا الاختصار « فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع » (٢) . ومع ذلك فهذا العمل بشكله الحالى يبدو متكاملا . ولقد اعتنى بطرس البستانى بطبعها مع دراسة لها وللمؤلف . وقسمها الى خمسة اجزاء ، مدخل واربعة فصول ، الاول : توابع الشعراء ، والثانى : توابع الكتاب ، والثالث :نقادالجن، والرابع : حيوان الجن . وباستثناء عنوان الفصل الرابع فان التقسيم مقبول وستعتمد هذه الدراسة عليه مع تغيير فى عنوانه . اذ ان هذا الفصل ينقسم الى قسمين : شعراء الحمير والاوزة الادبية ، وبذلك يصبح تغيير اسم الفصل الى حيوان وطيور الجن اشمل .

— ١ —

ادت رسالة التوابع والزوابع وظيفة هامة لابن شهيد وهى محاولة الدفاع عن نفسه وعن أعماله الشعرية والنثرية أمام معاصريه . ولقد ظهر هذا الدفاع مباشرا فى أكثر من موضع فى الرسالة . وقد يكون هذا الدفاع مقنعا لمعاصريه أو غير معاصريه من قرائه الا أن الدفاع الحقيقى الذى دافع به ابن شهيد عن نفسه كان الرسالة نفسها . فان قارئه لم يعد يهتم بما كان يهتم به ابن شهيد من محاولة وضع نثره وشعره مساويا لكبار

---

(١) ابن بسام الشنتريني ، أبوالحسن على . الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . بيروت : دار الثقافة ، سنة ١٩٧٥ . القسم الاول ـ المجلد الاول ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٢٤٥ .

الكتاب والشعراء من معاصريه أو الارتفاع به درجات عنهم ، وما أصبح يهم القارىء هو العمل ذاته . فان دفاع ابن شهيد عن نفسه قد تحول الى أدوات كونت العمل الفنى ، وساهمت فى نجاحه الى حد كبير ؛ ولا سيما أن هذا العمل قد كتب من خلال عنصرين مرتبطين بالكاتب :

العنصر الأول : هو نظرة الكاتب داخل ذاته مدركا بوعى لاحساسه بالتفوق والتفرد على معاصريه .

والعنصر الثانى : هو الوعى بالجماعة والمجتمع المحيط به ، لذا فان العمل يكشف عن رؤية ابن شهيد لنفسه من خلال علاقته بالجماعة والمجتمع . وقد عبر ذلك فى كثير من شعره الذى ضمته الرسالة .

ولم أر مثلى ما له من معاصر
ولا كمضائى ما له من مضافر (١)

ولقد كان الفصل الاول « توابع الشعراء » مبنيا على محاولته كشف مقدرته الشعرية بشعر يكاد يكون معارضة للشعراء القدماء . وهو قد حدد شكل المعارضة من خلال نصيحة شيخ من الجن « يعلم بنيا له صناعة الشعر وهو يقول له : اذااعتمدت معنى سبقك اليه غيرك فأحسن تركيبه وارق حاشيته ، فاضرب عنه جملة . وان لم يكن بد ففى غير العروض التى تقدم اليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك وتقوى متنك » (٢).

وتبعا لذلك اتجه الكاتب الى عقد المقارنات فى هذا

---

(١) ابن شهيد الاندلسى ، المرجع السابق ، ص ١٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

الفصل بينه وبين معاصريه واكتفى بمعارضته للقدماء ثم اخذ فى الحكم على نفسه من خلالهم . فجعل أصحاب امرىء القيس ، وطرفة بن العبد وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام والبحترى وأبو نواس وأبو الطيب المتنبي يجيزونه ، وتتفاوت اجازة الشعراء له على حسب رؤيته لهم ، فصاحب امرىء القيس يجيزه شاعرا ، وكذلك صاحبا طرفة وقيس بن الخطيم ، بينما يقف منه صاحب أبى نواس مشدوها ، وهو يبدو أكثر الشعراء اعجابا به ، فهو يقول له بعد أن انتهى من انشاد قصيدة من مجونياته : « لله انت ! وان كان طبعك مخترعا منك (١) ثم يعلق على احد ابياته : « هذا والله شيء لم نلهمه نحن » (٢) ثم أجازه .

وهنا يتحول ابن شهيد من مدافع عن نفسه الى ذواقة للشعر يحدد موقفه من الشعراء . فهو فى لقائه بهؤلاء الشعراء يكشف عن نوعية الشعراء الذين يعجب بهم ، ويحاول ان يترسم خطاهم ، وان يجعل مجونياته مقابل ، مجونيات أبى نواس ، بينما يرى نفسه متفوقا على البحترى ، فيقف منه صاحبه أبو الطبع موقف الحاسد ، يجيزه على الرغم منه . وتظهر غيرته حين ينشده ابن شهيد قصيدته : « هذه دار زينب والرباب » التى يعارض فيها قصيدة البحترى « ما على الركب من وقوف الركاب » (٣) وحين أكمل ابن شهيد القصيدة « فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعة من الليل . وكر راجعا

(١) المصدر نفسه . ص ١٧ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٥٠ .

(٣) ابن شهيد المصدر السابق . ص ١٣٨ .

الى ناورده دون ان يسلم فصاح به زهير : اأجزته ؟ قال : أجزته لا بورك فيك من زائر ولا فى صاحبك ابى عامر » (١) . وهو لم يشر الى التهم التى وجهها اليه نقاده المعاصرون من أنه يسرق من أعمال غيره ، الا فى قول أبى الطيب « بلغنى انه يأخذ عن غيره » (٢) ، فكان رده اعترافا بهذا ودفاعا ايضا « قلت للضرورة الدافعة والا فالقريحة غير صادعة والشفرة غير قاطعة » (٣) . اما ابو تمام فقد حدد موقفـــــه منه من خلال مقارنته بمعاصريه « وما أنت الا محسن على اساءة زمانك » (٤) .

بعد ذلك انتقل ابن شهيد فى الفصل الثانى « توابع الكتاب » والفصل الثالث « نقاد الجن » الى التعرض الى اساءة أهل زمانه للأدب ، فهو يأخذ فى نقـد الكتاب من معاصريه بأن كلامهم « ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى اليه طريق ولا للبيان عليه سمة ، وانما هى لكنة أعجمية يؤدون بها المعانى تأدية المجوس للنبط »(٥). وحاول أن يدافع عن استخدامه للسجع بادانة مجتمعه كله ، فان صاحب عبد الحميد حين وجه اليه نقدا بأنه مغرى بالسجع ، فكلامه بهذا يعد شعرا لا نثرا ، يعلل ابن شهيد استخدامه له : « عدمت ببلدى فرسان الكلام، وذهبت بغباوة أهل الزمان وبالحرا أن احركهم بالازدواج، ولو فرشت للكلام منهم طولقا وتحـــــركت لهم حركة مشولم ، لكان أرفع لى عندهم وأولج فى نفوسهم » (٦).

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٤١ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٥١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه . ص ١٥٧ .
(٥) المصدر نفسه . ص ١٥٦ .
(٦) المصدر نفسه . ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

ولقد كان هذا الدفاع واهيـــا امام ما وجهه اليه معاصروه من نقد فهو متهم بأنه لم يأخذ العلم من العلماء، وانه ليس على حظ كبير من الثقافة ، وهو ان كان يتهم معاصريه بأن كلامهم ليس لسيبويه فيه عمل ولا طريق للخليل اليه ، فانه يعود بعـد ذلك ليسخر من كتاب الخليل بقوله « انه عندى فى زنبيل » (١) . أما كتـاب سيبويه « فقد خريت الهرة عندى عليه » ، وعلي شرح ابن درستويه » (٢) فهو محاج يستخدم الفكرة ونقيضها للدفاع عن نفسه ، فهو يعود مرة أخرى ويرفض فكرة « احسان النحو والغريب » (٣) . وربما كان ما يقصده ان يكون ذلك هدفا فى حد ذاته .

ركز ابن شهيد فى دفاعه عن نفسه هجـومه على معاصره أبى القاسم الافليلي الذى كان أحد نقاد شعره ونثره ، فقد كان يتسقط أخطاءه ويذيعها بين تلاميذه . ولم يجد ابن شهيد لذلك سببا الا حسد نقاده لتفوقه ، وهنا اصبح الحسـد مثيرا (أ) والنقد استجابة لهـذا المثير (ب) ، فالناقد هنا متحرك بدافع الحسد والضحية هنا الشعر (جـ) .

(أ) الحسد ــ الناقد ــ (ب) المحسود ــ الشاعر
(جـ) الضحية ــ الشعر .

فالحسد هنا مواز للناقد وهو بدوره مضاد للمحسود الموازى للشاعر والضحية هى الشعر فيتقابل الشاعر مع الناقد تقابل المحسود للحاسد .

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٦٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه . ص ٢٠٨ .

الشاعر ـ المحسود ـ الناقد ـ الحاسد .

ولقد سجل الشاعر موقف حساده منه فى احدى قصائده المذكورة فى رسالته « التوابع والزوابع » .

وبلغت أقواما تجيش صدورهم
على وانى منهم فارغ الصدر
أصاخوا الى قولى فأسمعت معجزا
وغاصوا على سرى فأعياهم امرى
فقال فريق : ليس ذا الشعر شعره
وقال فريق : ايمن الله ما ندرى (١)

ولقد كان موقف حاسديه هو المثير الذى أدى الى استجابة وهى رسالة التوابع والزوابع ، فالشاعر هنا متحرك من خلال هذا المثير .

(أ) الحاسد ـ دافع موجه لعملية الخلق الفنى وهى (ب) الشاعر خالق ـ (جـ) الاستجابة التوابع والزوابع .

لقد كان سبب انشاء هذه الرسالة كلمة القاها صديق من حساده « بأن به شيطانا يهديه ، وشيطانا يأتيه . وأقسم ان له تابعة تنجده وزابعة تؤيده » (٢) فهذا القول لم يكن أكثر من سخرية من هذا الصديق . ولقد ذكر اسم أبى بكر فى الرسالة مرتين . الاولى وهو يوجه اليه الرسالة « لله أبا بكر ظن رميته فأصميت وحدس أملته فما أشويت ، أبدينت بها وجه الجلية ، وكشفت عن غرة الحقيقة .. » (٣) . والثانية وهو يعدد حساده .

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٦٧ .
(٢) المصدر السابق . ص ١١٨ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٢١ .

وقد اختلف فى شخصية أبى بكر هذا . فبطرس البستانى يذكر انه الفقيه عبد الوهاب ابن حزم (١) . بينما يراه شارل بلا أبا بكر بن حزم شقيق الشاعر أبى محمد بن حزم (٢) . ويحدده أحمد هيكل بالكاتب المعروف بأشكمياط (٣) . ويتابعه فى ذلك رضوان الداية (٤) . بينما يتبع احسان عباس (٥) الحميدى (٦) فى تحديد شخصية أبى بكر بن حزم بانه أبو بكر واسمه يحيى ولا يمت لاى من أبى بكر بن حزم او عبد الوهاب ابن حزم بصلة . والحقيقة أن تحديد الحميدى لشخصية أبى بكر قد حسم المسألة ما لم يظهر دليل آخر اكثر ثقة منه يرفض هذا التحديد ، وعلى اية حال فان الاسماء التى ذكرها بن شهيد لم يكن هدفه منها تحديد شخصية بعينها باستثناء شخصية أبى القاسم الافليلى . فبعض هذه الشخصيات غير المسماه كان تصوير الكاتب لها يجعلها واضحة لاهل العلم فى قرطبة ، وبعضها كان رموزا لمجموعة من حاسديه ، ويبدو انهم كثير ، كما أنهم أصحاب قوة ونفوذ يسجل صاحب المطمح آثارها عليه « ودبت الى أبى عامر بن شهيد أيام العلويين عقارب ، برئت منها اباعد وأقارب واجهه بها صرف

(١) المصدر نفسه . ص ١١٧ .
(٢) بلا ، شارل . المرجع السابق . ص ٣٥ ، ٥٥ .
(٣) هيكل ، أحمد . المرجع السابم . ص ٢٨١ .
(٤) رضوان الداية . المرجع السابق . ص ٣٠٢ .
(٥) عباس ، احسان . المرجع السابق . ص ٢٨٤ . وذكى = زعم أن ابا بكر هذا هو إشكمياط . المرجع السابق . ص ٢٩ .
(٦) الحميدى ، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله ، جذوة المقتبس . القاهرة : مكتب نشر الثقافة الاسلامية ، سنة ١٩٧٥ . ص ٣٥١ .

قطوب ، وانبرت اليه منها خطوب ، نبالهـا جنبه عن المضجع ، وبقى بها ليال يأرق ولا يهجع الى ان أعلقت فى الاعتقال آماله ، وعلقته فى عقال أذهب ماله ، فأقام مرتهنا ، ولقى وهنا » (١) . وقد وصل موقف حساده منه ذروته بنجـاحهم فى أن يزج به فى السجن أيام الحموديين (٢) ، وسجل ذلك فى قصيدته الجحدرية التى كتبها فى سجنه وذكرها فى رسالته :

قريب بمحتل الهوان بعيد (٣)

كما أنها الهمته عملا مدبرا تدبيرا فنيا محكما وهى رسالته التوابع والزوابع .

حين ذكر المؤلف حساده جمعهم فى ثلاثة اشـخاص وهم « أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر » . وقد نال أبو القاسم الافليلى أكثر سهام نقده وذكر حقائق خاصة بعلاقته به بينما لم يذكر شيئا كثيرا عن أبى محمد وأبى بكر . وكل ما ذكره ان أبا محمد اغتابه عنـد الخليفة الاموى المستعين سليمان بن الحـكم « وساعدته زرافة استهواها من الحاسدين » (٤) أما أبو بكر فقد سخر منه فى قـــوله « اخصر . واقتصر على قوله له تابعـة تؤيده » (٥) ، ولم يحدد لاى منهما تابعا ممهدا بذلك انهما لن يكونا موضوعا فى الرســـالة بينما حدد لابى

---

(١) ابن خاقان ، الفتح . مطمح الانفس . القسطنطينية : سنة ١٣٠٢ هـ ص ٢٠ .

(٢) لم تحدد المصادر اسم الحاكم الذى سجن ابن شهيد هل هو على ابن حمود (٤٠٧ ـ ٤٠٨) أم أخوه القاسم (٤٠٨ ـ ٤١٢) ؟ وان كان من المرجح أن يكون ذلك فى بداية حكم على أى سنة ٤٠٧ هـ .

(٣) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٤٨ .

(٤) المصدر نفسه . ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٥) المصدر نفسه . ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

القاسم الافليلى صاحبا من الجن ، وفى الوقت نفسه ذكر تابعين لم يسم صاحبيهما وهما فرعون بن الجون والاوزة ، وترك لخيال القارىء ان يقوم بعملية التعرف عليهما من بين حساده وهم كثيرون . وقد تعدى نيلهم من شعره ونثره الى النيل من أخلاقه .

ولقد نال من حساده كثيرا باستخدامه لتوابع الجن وشمل فى نقده لهم رؤيته لنفسه ولمجتمعه . ذكر على لسان صاحبى الجاحظ وعبد الحميد موقف مجتمعه كله منه « وقد بلغنا انك لا تجازى فى أبناء جنسك ولم يمل من الطعن عليك ، والاعتراض لك » (١) وهذه العبارة توضح أن ابن شهيد بشعره ونثره وشخصه كان موضوعا للمحاكمة من اهل قرطبة . وقد دافع ابن شهيد عن نفسه بأن التهم التى وجهت اليه مصدرها القول لا الفعل :

فان طال ذكرى بالمجـــــون فاننى
شقى بمنظوم الكلام ســـعيد (٢)

ويبدو أن هذا الدفاع لم يتقبل ولم يغير رؤية مجتمعه له ، وقد سجل المؤرخون رؤيتهم لاخلاقه فذكر ابن حيان فى وصفه بأنه « رجل غلبت عليه البطالة فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ، ولا مرءوة ، فحط فى هواه شديدا حتي أسقط شرفه ووهم نفسه راضيا فى ذلك بما يلذه ، فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحة » (٣) .

---

(١) ابن شهيد . المصدر نفسه . ص ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٤٨ .

(٣) منقولا عن . ابن بسام . المرجع السابق . ص ١٩٣ . والقرشى . المرجع السابق . ص ١٧٩ .

ولم تتوقف هذه التهم عند القدماء وانمـــا انتقلت الى الباحثين المحدثين .

فاخرجه يعقوب زكى عن دائرة الرجال وعده من الجنس الثالث (١) . ولم يعتن هذا الباحث الذى جمع شعره بالوقوف عند قصيدة لابن شهيد يرثى فيها ابنة له ورد ذكرها فى الرسالة :

يا ايهـــا المعتـــد فى أهل النهى
لا تذب أثر فقيد ولهــــــا (٢)

لذا فكان طبيعيا أن تكون رسالته فى الدفاع عن نفسه تحمل سخطا على مجتمع قرطبة والسخرية منه فأدائه فقد بارت تجـــارة الادب ، وانعكس ذلك على الموقف الاخلاقى للافراد ، فأصبح استخدام الســجع لونا من الوان النفاق الاجتمـاعى يستخدمه كل من يريد ابراز تقدمه فى مجتمعه ، فيقول له صاحب الجاحظ « ارمهم يا هذا بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم » (٣) ، ويكمل ابن شهيد رأيه فى علاقته بمجتمعه من خلال صاحب الجاحظ بأنه حتى مع صنيعه هذا فلن يكون الا «ثقيل الوطـــأة عليهم كريه المجىء اليهم » (٤) . فالمشكلة بينه وبين مجتمعه مشـــكلة أخلاقية ، فلابن شهيد مجونه الذى يقره مرة وينكره أخرى ، والمجتمــع يؤكد أنه ماجن ويرفض مجونه . والمجتمع فى ذلك له نفاقه الذى يتعارض مع موقفه من

---

(١) يعقوب ذكى . المرجع السابق . ص ٦٠ .
(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٤٧ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٥٩ .
(٤) المصدر نفسه . ص ١٦٠ .

ابن شهيد لقد دفعت قرطبة رجالا الى صفوف الحكم بقدرتهم على النفاق والكذب . لذا فان ابن شهيد يمعن فى السخرية منهم فيجعل لهم مكانا فى رسالته وكانت الشخصية الممثلة لهم هى بغلة أبى عيسى التى جعل لها مكانا فى عالم الادب .

التقى ابن شهيد بحيوان الجن ، فوجد بغلة تتحاور مع حمير الجن . وحين اماطت لثامها فاذا هى بغلة صاحبة أبى عيسى . سالته البغلة « عما فعل الاحبة بعدها . وهل هم على العهد ؟ » (١) كان هذا السؤال مدخله السخرية ـ فى اجابته لها ـ من قرطبة ورجالها : « شب الغلمان ، وشاخ الفتيان . وتنكرت الخلان ، ومن اخوانك من بلغ الامارة وانتهى الى الوزارة » (٢) . وقد عبر بهذه الكلمات عن المرارة التى أصابته لما آلت اليه أحوال قرطبة .

عاش ابن شهيد حياته فى قرطبة وعقد له على الشرطة وهو ابن ثمان سنوات (٣) وان كان هذا العقد صوريا الا انه يمثل دخول ابن شهيد الحياة العامة فى مرحلة مبكرة من عمره . كما يمثل المكانة التى كانت تتمتع بها أسرته ، كان ابن شهيد من أبناء الارستقراطية العربية فى قرطبة ، وارتبط تاريخها بالدولة الاموية الاندلسية ارتباطا وثيقا فقد خدمت الدولة باخلاص كبير . وقامت بدور هام فى الحياة السياسية والثقافية لقرطبة ، ولم يمر ذلك دون تأثير على الشاعر ، فلقد

---

(١) المصدر نفسه . ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن بسام . المرجع السابق . ص ١٩٥ .

ادرك بوعى شديد هذا التراث العريض وكان له تأثيره الكبير عليه . والناظر الى سلسلة نسبه يدرك المكانة التى كانت لابن شهيد ولاسرته فى قرطبة ، فهو ابو عامر احمد بن عبد الملك بن احمد ابن عبد الملك بن عمر بن محمد بن أمية بن عيسى بن شهيد (١) بن عيسى بن شهيد وتنسب عائلته الى قبيلة أشجع وقد افتخر الشاعر بنسبة فى شعره (٢) .

من شهيد فى سرها ثم من أشجع فى السر من لباب اللباب (٣) .

الا أن هذا النسب لم يكن مجمعا عليه من اهل قرطبة ، اذ أختلفت الآراء فى حقيقة هذا النسب فبينما يثبتها كثير من المؤرخين المتأخرين فيردونه الى الوضاح بن رزاح الذى كان من الضحاك بن قيس فى معركة مرج راهط (٤) . فان ابن حيان المعاصر له يذكر فى الحديث عن حده عيسى بأنه مولى معاوية بن مروان بن الحكم (٥).

---

(١) أنظر : الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة . بغية الملتمس القاهرة : دار الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٧ . ص ١٩١ .
الحميدى . المرجع السابق . ص ١٢٤ . ولقد سقط اسم أمية من الكتابين وقد أثبت الاسم محمود على مكى . أنظر ، هامش . ابن حيان القرطبى .
المقتبس . تحقيق محمود على مكى . القاهرة : المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٧١ .

(٢) الضبى . المرجع نفسه . ص ٣٠٤ .

(٣) ابن بسام . المرجع السابق . ص ٢٥٨ .

(٤) أنظر : الضبى . المرجع السابق ص ١٩١ والحميدى . المرجع السابق . ص ١٧٩ ، وابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر : وفيات الاعيان . تحقيق محيى الدين عبد الحميد . القاهرة : مكتبة النهضة ، سنة ١٩٤٨ . جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٥) ابن حيان القرطبى . المرجع السابق . ص ١٦٦ .

وقد تابعه فى ذلك المقرى واضاف الى ذلك بأن جـدهم الاكبر شهيد « من سبى البرابرة وقيل انه رومى » (١) .

وفيما يبدو أن ابن حيان ــ وهو معاصر لابن شهيد فترة من حياته ــ كان ينقل ما يدور على السنة الناس فى قرطبة ، فقد كان الشك شائعا فى نسبهم . فلقد ذكر أكثر من مصدر موقفا بين جد الشاعر أحمـد بن عبد الملك وبين عبد الملك بن جهور عرض فيها بنسب جده الاكبر بأنه كان بيطارا بالشام (٢) ، وقد تناول أكثر من مصدر معاصر مشكلة نسب ابن شهيد ، كما تناولنا محمود على مكي وأيد الشك فى نسبه مستخدما عبارة يعلق فيها على هذه الشكوك « لعل هذا هو الصواب » (٣) فمحمود على مكى وغيره من البـــــاحثين لم يكن لديهم الدليل القاطع على اثبات صحة النسب أو عدم صحته. اذ أن التهم التى كانت توجـــه الى كثير من الرجالات المشهورين فى نسبهم كثيرة فى تاريخ العالم العـربى ولا سيما حين تكون المنافسات قائمة على السلطة بين الاسر الارستقراطية . ولا شك أن مشـكلة نسب ابن شهيد قد أثرت فيه الى حد كبير . وكان الحاجه على الفخر بهذا المنصب يؤكد ان التهمة لم تكن تخفى عليه . ويبدو أن تأثيرها على ابن شهيد كان أكثر من تأثيرها على أسلافه فهم قد تخطوا هذه القضية بما صنعوه من مجد

---

(١) المقرى التلمسانى ، أحمد بن محمد . نفح الطيب . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . بيروت : دار الكتاب العربى ، (د . ت) ج ٢ ، ص ٤٥ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ . والضبى . المرجع السابق . ص ١٩٠ .

(٣) ابن حيان القرطبى . المرجع السابق . ص ٢٦٥ .

لهم فى قرطبة وفى عالم الخلافة الاموية . ولقد كانت هناك مشكلة أخرى يعانى منها ابن شهيد ، وهى تختلف عن المشكلة الاولى وتتناقص معها وهى عراقة التراث الذى صنعه آباؤه . فلقد ورث تراثا عريقا عنهم ولم يكن بقادر على حفظه .

بدات حياة هذه الاسرة مع بداية الدولة الاموية فى الاندلس . كان جده شهيد الثانى أحد رجالات الامير عبد الرحمن الداخل . دخل الاندلس فى صحبته (١) وكان من قواده أرسله سنة ١٦٢ هـ « الى دحية الغسانى وكان عاصيا فى بعض حصون البيرة فقتله »(٢) . وذكر ابن عذارى انه تقلد قيادة جيش فى السنة نفسها (٣) ، وابن شهيد لم يكن من قواده فحسب بل كان أيضا من مستشاريه (٤) ، وأهل ثقته الذين ساهموا فى انشاء دولته . واستمر يقوم بهذا المنصب لابنه الامير هشام وتوفى فى ولايته سنة ١٨٨ هـ (٥) . وقاد أحد جيوشه سنة ١٧٤ هـ (٦) . وقام ابنه عيسى من بعده بدور كبير فى خدمة الامويين حتى نال ثقة الامير عبد الرحمن الثانى بن الحكم فعينه سنة ٢١٨ هـ وزيرا وولاه منصب

---

(١) ابن الاثير ، عز الدين ابوالحسن على بن ابى الحكم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى . الكامل فى التاريخ . بيروت : دار صادر ، سنة ١٩٦٥ . جـ ٦ ، ص ١٩٠ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٥٨٠ .

(٣) ابن عذارى المراكشى . البيان المغرب . تحقيق ليقى بروقنسال . ليدن : أ . ج . ابريل سنة ١٩٥١ . جـ ٢ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت : دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، سنة ١٩٥٩ . القسم الاول ، المجلد الرابع ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ . والمقرى . المرجع السابق . جـ ٤ . ص ٤٥ .

(٥) المرجع نفسه . ص ١٠٠ .

(٦) ابن الاثير . المرجع السابق . ص ١٢٠ .

الحجابة (١) ، وهو المنصب التالى للخليفة . واستمر يقوم بهذا المنصب لابنه الامير محمد (٢) . وقد اعترف بالدور الذى قام به عيسى فى خدمة الدولة الاموية ،وأجمع على انه ما خدم بنى أمية أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية . « ولا أكرم اصطناعا ، ولا أرعى لذمة » (٣) حتى انه بقى فى منصبه الى أن توفى . واستمر ابنه أمية فى خط أبيه يخدم الامويين باخلاص حتى صار حاجبا للأمير محمد (٤) . وقد خلفه من بعده خمسة أبناء عملوا جميعا فى خدمة الامويين . وهم عيسى وعبد الرحمن وعثمان وعبد الله ومحمد . تولى عبد الرحمن الحجابة للأمير المنذر بن محمد (٥) ، ولاخيه الامير عبد الله من بعده (٦) . أما ابنه محمد وهو جد الشاعر فقد ولى الوزارة وقام ببعض المهام العسكرية للأمير محمد فى سنتى ٢٦٩ و ٢٧٠ هـ (٧).

أما ابنه عمر بن محمد فقد مات فى حياة أبيه وهو يخدم الدولة الاموية حين كان فى عسكر السلطان وهو يحاصر اشبيلية سنة ٢٨٤ هـ (٨) . وقد ترك عمر ابنه عبد الملك صغيرا ليحتل بعد ذلك مركز الصدارة من آل شهيد ، وقد استوزره الامير محمد فى اخريات أيامه (٩) ، ثم ولاه الخليفة الناصر فى سنة ١٣٧ هـ (١٠)،

(١) ابن عذارى . المرجع السابق . ص ٨٤
(٢) ابن حيان . المرجع السابق . ص ١٦٧ .
(٣) المرجع نفسه . ص ١٦٩ .
(٤) المرجع نفسه . ص ١٦٩ .
(٥) ابن عذارى . المرجع السابق . ص ١١٣ .
(٦) المرجع نفسه . ص ١٢٠ .
(٧) المرجع نفسه . ص ١٠٥ .
(٨) محمود على مكى . المرجع السابق .
(٩) ابن سعيد ، عبد الملك وآخرين . المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٩٦١ ، ج ٢ ، ص ٧٧ .
(١٠) ابن عذارى . المرجع السابق . ص ٢٠١ .

وظهر فى هذا التاريخ خالد أحد أبناء عمه متوليا لخزانة الناصر (١) .

وبرز اسم احمـــــد بن عبد الملك كأحد اعلام رجال الناصر . وقد ولاه كور غرب الاندلس ، فأرسل هـدية تناقلت أخبارها كثير من كتب التاريخ . أعجبت الهدية الناصر حتى أنه منحـه لقب ذى الوزارتين (٢) ، وهو اول من تلقب بهذا اللقب من الاندلسيين .

خلف أحمد ثلاثة أولاد مروان ومحمد وعبد الملك . استعمل مروان خازنا على الاموال المرسلة للجنـــــد بالعدوة (٣) ، كمـــا استخزنه الخليفة الحكم المستنصر عام ٣٦٤ هـ على الاموال المرسلة للأمير غالب (٤) . وحين وصل الامر بوقوف عبد الملك على راس أسرة آل شهيد ، قامت الاسرة بدور آخر فى تاريخ الخـلافة الاموية ، فقد ساندوا محمد بن ابى عامر وشاركهم فى ذلك آل أبى عبده وآل جهور وآل فطيس (٥) وقد كانوا يعدون فى ذلك الوقت « أزمة الملك ، وقـوام الخدمة ، ومصابيح الامة » (٦) وآل شهيد لم يكونوا يتحولون من

---

(١) المرجع نفسه . ص ٢٠٢ .

(٢) ابن خلدون . المرجع السـابق . ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ ـ والمقرى التلمسانى ، شهاب الدين أحمد بن محمد . أزهار الرياض فى أخبار عياض . الرباط : صندوق احياء التراث الاسلامى المشترك ، سـنة ١٩٧٨ . ج ٢ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

(٣) ابن حيـان القرطبى . المقتبس . تحقيق عبـد الرحمن الحجى . بيروت : دار الثقافة ، سنة ١٩٦٥ . ص ٢٢٣ .

(٤) المرجع نفسه . ص ١٦٨ ، ١٨٣ .

(٥) ابن عذارى . المرجع السابق ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٦) المرجع نفسه .

سيد الى سيد فما زال اسم الدولة مرتبطا بالامويين ، فهم فى حزب المنصور موالين للدولة بالاسم ، ولم يكن ذلك يمثل عبئا نفسيا على ال شهيد والاسر الكبيرة فى قرطبة ، فالمنصور أعطى للموالين له الكثير من وده وحبه فكان أن عين عبد الملك بن أحمد والد الشاعر وزيرا له واستعمله على بلنسية وتدمير لمدة تسعة أعوام حتى سئم العمل وطلب الاقالة فاقيل ، وقد حمل معه الى قرطبة ثروة كبيرة قدمها الى المنصور الذى ردها عليه بقوله « لو أردنا أخذ ما أعطيناك ما قدمناك » (١) ، واضاف الى ذلك ان أهداه محصول ضيعه وكان ذلك تقديرا من المنصور لعبد الملك وخدماته . وأصبح عبد الملك منذ ذلك الحين جليس المنصور فى قرطبة .

وقد ذكر ايضا اسم ابن أخيه عبد الملك بن مروان بن أحمد متوليا للأحكام بقرطبة ، وكان محمودا فى أحكامه، وتوفى فى رجب سنة ثمان وأربعمائة (٢) وهو آخر الاسماء التى احتفظت بها كتب الادب والتاريخ الاندلسى عن أبناء شهيد . فلم يبق من الاسماء الكبيرة من أسرة ابن شهيد غيره ، مما أدى بكثير من المؤرخين فى العصر الحديث الى أن يعدوه خاتمة هذه الاسرة » (٣) .

---

(١) ابن بسام . المرجع السابق . ص ١٩٨ .

(٢) ابن بشكوال ، أبوالقاسم خلف بن عبد الملك . كتاب الصلة . القاهرة : الدار المصرية للتاليف والترجمة ، سنة ١٩٦٦ . ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

(٣) بلا . المرجع السابق . ص ٧٢ . لقد كان ذكى أكثر دقة فى تعبيره اذ لم يذكر أن أسرة بنى شهيد قد انتهت وانما ذكر أنه (بموته انتهت سلالة أبيه المرجع السابق) ص ٦٥ معتمدا فى ذلك على ماذكره الضبى بقوله : (وانقطع عقب الوزير ابنه بعد وفاته) . المرجع السابق . ص ١٩٣ .

ولقد تحول هذا التراث الى عبء على ابن شهيد . وحاول جاهدا أن يعيد بناءه ولكن الظروف فى عصره كانت مختلفة عن الظروف التى شهدها أسلافه ، فالاسرة الاموية تنقرض والدولة العامرية تنتهى وهو فى شبابه . كان تاريخ حياته نهاية عالم وبداية عالم آخر ، ففى الفترة التى عاش فيها ابن شهيد فيما بين مولده سنة ٣٨٢ هـ ووفاته سنة ٤٢٦ هـ ، أى فترة أقل من ثلاثة وأربعين عاما ، تغير فيها وجه قرطبة والاندلس تغيرا كاملا . انتهت الدولة العامرية وفي الفترة ما بين سنة ٤٠٦ — ٤٢٢ هـ تناوب حكم قرطبة ثمانية حكام . وما أن يشارف نهاية حياته حتى يبدأ عصر جديد سنة ٤٢٢ هـ لا في قرطبة وحدها بل فى الاندلس كله ، إذ يبدأ عصر ملوك الطوائف ، وتصبح قرطبة واحدة من العواصم التى عرفت بها الاندلس . ولا يصبح لابن شهيد مكان فيه .

واذا كانت الظروف السياسية أقوى من ابن شهيد فان الطبيعة أيضا كانت ضده . لقد أراد أن يكون الوزير الكاتب وهي وظيفة لم يصل اليها من أسرته سوى عبد الملك بن عبد الله بن امية كاتب الامير محمد . ولقد عجز أيضا عن الوصول الى هذه الوظيفة مع شعوره بانه يستحقها . وجد لذلك عذرا وهو ثقل سمعه . ولا حيلة له في ذلك فهو عجز لا يعرف اذا كان قد ولد به أم أنه أصيب به بعد مولده . وهو يقرر أن هذه الوظيفة تحتاج الى رجل سليم الحواس (١) واذا كان ابن شهيد قد فشل في أن يحتل مكانة أسلافه السياسية فانه تطلع الى أن يتفوق عليهم من الناحية الادبية .

---

(١) ابن بسام . المرجع السابق . ص ٢٤٣ .

لقد جعل من قدرته وقدرة أهله الفنية موضوعا يفتخر به على أقرانه فى رســالة التوابع والزوابع . وقد ذكر فيها أشعارا من تأليف أخيه وعمه وجده وجد أبيه (١) . وهو يريد أن يقرر أنه شاعر من أصول شاعرة . وهذه حقيقة فقد كان جده عبد الملك شاعرا كما كان أديبا حافظا ذاكرا الاخبار ، ألف للحكم ولى العهــد فى خلافة أبيه الناصر كتابا فى الآداب والحكم والوصايا سماه « اصلاح الخلق » (٢) . كما كان جده أحمد شاعرا مطبوعا (٣) . وكذلك كان والده عبد الملك الذى كان فيمــا يبدو عالما وكان له تلاميذ ينقلون عنه كما أنه ألف كتــاب التاريخ الكبير ، وهو أزيد من مائة سفر (٤) . وكان لابن عمه عبد الملك بن مروان عناية بالحديث وكان واسع الادب والمعرفة (٥) . ولا شك أن ابن شهيد تفوق عليهم جميعا فهو أفضل أفراد هذه الاسرة شاعرية ، واقلها حظا فى المكانة الاجتماعية . وهو لم يتفوق على أفراد هذه الاسرة فقط بل تفوق على معظم شعراء عصره حتى عد اديب قرطبة . ذكر عن ابن حيان خبر مؤداة ان قرطبة كانت تعترف له بهذه القدرة وتعده أديبها . فان أبا جعفر بن عباس وزير الصقلبى لما قدم الى قرطبة « تنقص اديبهم أبا عامر بن شهيد » (٦) ، وهذا القول من ابن حيان بأنه

---

(١) ابن شهيد . المرجع السابق . ص ١٩٨ ــ ٢٠٠ .

(٢) عبد الملك الاوسى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد . الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة . تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، سنة ١٩٦٥ . القسم الاول ، ص ٣٦ .

(٣) أنظر : المقرى . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٣٨ .

(٤) ابن بشكوال . المرجع السابق . ص ٣٥٥ .

(٥) المرجع نفسه . ص ٣٥٧ .

(٦) ابن بسام . المرجع السابق . القسم الاول ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .

اديب قرطبة اعترافه بمكانة الرجل فى عالم قرطبة الادبى .

واذا كانت قرطبة قد اعترفت له بالصدارة فى عالم الادب وحرمته التفوق السياسى فان ذلك لم يمر ببساطة على نفسية ابن شهيد . لقد أدى به ذلك الى اغراق فى المتعة ليخفى قلقه ، فالمجون الذى عرف به ابن شهيد مجون ازمة وليس مجونا صادرا عن فلسفة . لقد كان ينفث فى هذا المجون طاقاته التى لم تجد لها متنفسا غير الادب والانطلاق فى المتع . ولم تكن هذه المتع لترضيه ايضا فكان كثير الملل ، ولقد جعل هذا الملل مدخلا لرسالته « وكان لى فى اوائل صبوتى هوى اشتد به كلفى ، ثم لحقنى بعد ملل فى اثناء ذلك الميل » (١) ، وقد استخدمها استخداما فنيا جعل لقاءه مع تابعه الجنى يبدو طبيعيا اذ ان هذا الملل ادى به الى موقف درامى فقد مات من كان يهواه مدة هذا الملل ، فأخذ يرثيه الى ان انتهى الى الاعتذار عنه فتوقف عند البيت .

وكنت مللتك لا عن قلى
ولا من فساد جرى فى ضميرى

فأرتج عليه القول وأفحم ، وهنا ظهر تابعه زهير بن نمير من أشجع الجن (٢) .

استخدم ابن شهيد حياته فى أعماله استخداما جعلها مرتبطة بفنه ارتباطا كبيرا . وكان حسه الفنى أقوى من حسه السياسى فهو قد تبع عاطفته فى كل فعل قام

---

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١١٩ — ١٢٠ .

به وتحولت حياته بما فيها من حركة وخلق الى بناء فنى متكامل ، فهذا الذى كان متهما فى أخلاقه ، كان أيضا ممدوحا فى جوانب كثيرة . وكما كان له أعداء كان له أصدقاء يحبونه ويرتبطون به . وكثير من هؤلاء الاصدقاء كانت بينه وبينهم علاقة يختلط فيها الحب بالكره .

ولعل أبلغ مثل على ذلك ابن الافليلى الذى نال ابن شهيد بسهام نقده . كما رماه ابن شهيد بأقسى مما نقده به ، مدحه ابن شهيد فى شعره :

غير أنى مع الوزير أبى القـاسم
حزب محض من الاحـــزاب
التقى النقى كهـــلا وطفـــلا
فارس الجيش راهب المحراب (١)

كما مدحه ابن الافليلى مع نقده له . وقد عرض عليه شاعر شعرا استخدم فيه وحشى الكلام « فقال له : ان أبا عامر يستعمله . فقال : يضعه فى موضعه وهو أدرب فى اســـــتعماله » (٢) ، فعداء ابن شهيد لابن الافليلى عداء فنى استخدمه ابن شهيد مادة لفنه كمـــا استخدم حياته مادة لكتابته ،فهو فنان يقف مع العاطفة بشقيها الحب والكره .

كان ابن شهيد يمثل الفتى القرطبى الذى عاش أحداث حياته معيشة كاملة واحبها بكل نفسه حتى انه اعتذر عن مفادرتها . وهو فى اعتذاره يكشف عن انه لم يكن حبا أعمى فهو يعرف عيوب قرطبـــة . ويدرك القلق

(١) ابن بسام . المرجع السابق . القسم الاول ، جـ ١ ، ص ٢١٥ ، ٢١٦
(٢) المرجع نفسه . ص ٢٣٥ .

والانهيار الذى حدث لها . ولقد رد على عبد العـــزيز المؤتمن بن عبد الرحمن بن المنصور حين طلب منه ان يلحق به معتذرا بهذا الحب « ولكنى ممنوع وعن ارادتى مقموع ، يملكنى سلطان قدير ، وامير ليس كمثله امير. شيء غلب صبر الاتقياء ، واستولى على عزم الانبياء وهو العشق » (١) ، لم يبرر هذا الحب بأن مدينته أجمل المدن أو انها تتميز بما لا تتميز به مدينة أخرى ، بل على النقيض من ذلك تصور حبيبته بأنها عجوز بخراء سهكة درداء زانية تدعى قرطبة :

عجوز لعمر الصـــبا فانية
لها فى الحشا صورة الغانية
زنت بالرجال على ســـنها
فيا حبذا هى من زانيـــــة
تربك المقـــول على ضعفهـــا
تدار كما دارت الســـاقية
تقاصر عن طولهـــــا قونكة
وتبعد عن غنجهـــــا دانية
ترديت من حزن عيشى بهـــا
غراما فيا طـول احزانيه (٢)

ولم يكن بمستغرب ذلك منه ، فقد ســبقه ابوه الى ذلك حين التمس الاقـــالة من عمله قائمـــا بأمر تدمير وبلنسية لكن الامر مختلف عن موقف والده ، فهـــو لا يترك المدينة ويعود متشوقا اليها ، وانما هو يرفض تركها ، ولقد ذكر ابن بسام فى مقدمة قصيدته :

---

(١) المرجع نفسه . ص ٢٠٧ .
(٢) ابن بسام . المرجع السابق . ص ٢٠٨ .

أرى أعينا ترنو الى كأنما ...

أنه « ازمع على الخروج من قرطبة الى مالقة لاحقا بيحيى بن على » (١)،وقد كانت هذه العبارة مثاراً لتكهنات كثيره ، فأحمد هيكل يذكر أنه زار الامير يحيى بن حمود فى مالقة ، ولكن اقامته لم تطـل (٢) وتابعه فى ذلك مونرو وبلا (٣) بينما كان احساس عبـاس أكثر حرصا منهما ، فهو لم يجزم بشيء وانما ذكر « انه فكر فى اللحاق به الى مالقة . ولا ندرى هل نفذ هذا العزم أو رجع عنه (٤) وليس هناك دليل يدعم فكرة سفره الى مالقة فهى تكهنات لا تجد دليلا يسندها ، فابن شهيد ربمـا فكر فى الخروج من قرطبة فى لحظة من لحظـات قلقة وضيقة ، ولكن تنفيذ هذا العزم أمر مختلف عن التفكير فيه ، فلقد ارتبطت نفسه بقرطبة وحديثه عن الخروج ليس أكثر من لفتة شاعر تعبر عن عدم ارتيـاح نفسى للفتنة التى وصلت مداها فى قرطبة وعجزه عن أن يجد طريقا لتحقيق طموحه فيها . فهو قد عاش ضغوطا كثيرة، ولكن هذه الضغوط لم تخرجه عنها ، وانما ادت به الى كتابة رسالة التوابع والزوابع ليعبر فيها عن كل ما يقلقه فى قرطبة ومجتمعها .

لقد وصل ابن شهيد الى السلطة فى فترات قصيرة فقد استوزره المستظهر سنة ٤١٤ هـ ، ولكن ذلك لم

---

(١) المرجع نفسه . ص ٣١١ .

(٢) هيكل . المرجع السابق . ص ٢٧٠ .

Monroe, J.T. Op. Cit. « p. 14 ».

(٣) ذكر بلا أن ابن شهيد هرب بعد قتل المستظهر فى سنة ٤١٤ ولحق بمالقة ملتجئا الى يحيى بن حمود . وليس هنـاك دليل يدعم مايقول . أنظر بلا . المرجع السابق . ص ٤٥ .

(٤) عباس . المرجع السابق . ص ٢٧٧ .

يطل ، وبقى منذ ذلك التاريخ يتطلع الى وجود سياسى قومى فى قرطبة . وتعجل ابن شهيد الوصول الى السلطه حتى أتيحت له الفرصة ابان دخول الخليفة هشام المعتمد قرطبة سنة ٤٢٠ هـ ، فقد أصبح وزيره ، وتعامل مع حاجبه الحكم بن سعيد الذى كان مكروها من أهل قرطبة (١) . وقد أساء سعيد اليهم واشترك ابن شهيد معه فى الاساءة الى أهل قرطبة ، فكان أن تحمل بعض وزر الحكم بن سعيد . واصبحت نهاية خلافة هشام المعتمد سنة ٤٢٢ هـ نهاية لابن شهيد سياسيا كما كانت نهاية للخلافة الاموية فى الاندلس . ومع نهاية الخلافة وقعت قرطبة فى يد رجل ذكى ابتعد بنفسه عن أن يأخذ مكانا فى الفتنة . ونال احترام أهلها ، وكان بذلك هو الرجل المهيأ لان ينهى الخلافة وان يصبح أمير قرطبة . وهو ابو الحزم بن جهور والفترة التى تنحصر بين وقوع قرطبة فى يده فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ (٢) حتى وفاة ابن شهيد فى جمادى الاولى سنة ٤٢٦ تمثل فترة صمت سياسي فى حياته ، فهل كان هذا الانتظار ترقبا أم يأسا ؟ . ربما يبدر الى الذهن أن ابن شهيد كان يترقب الفرصة التى تتاح له ليأخذ دورا فى حكومة ابن جهور . ولكن الحقيقة غير ذلك فابن شهيد كان يعرف الا مكان له مع ابن جهور ، فالحاكم الجديد لم يكن فى حاجة الى ابن شهيد . وقد ادرك ابن شهيد الا مكان له معه ، فكان عليه أن يغادر قرطبة ليبحث عن سيد آخر يخدمه أو أن يبقى فى قرطبة الحبيبة الى نفسه . ومع الشعور بالاحباط والخيبة ، واليأس من مستقبل سياسى فقد

(١) ابن عذارى . المرجع السابق . ج ٣ ، ص ١٤٧ ــ ١٥٠ .
(٢) المرجع نفسه . ص ١٨٥ .

اختار أن يبقى بقرطبة مخفيا ألم الاحساس بالفشل ومستسلما له . وهو فى بقائه بقرطبة يؤكد صدق قوله بأنه « عاكف على الوطن عكوف الراهب الصنم » (١) ، الا أن جسده لم يحتمل فقد سقط مريضا فى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٥ هـ مريضا بمرض أقرب الى أن يكون سرطان الرئة الذى عانى منه معاناة شديدة أكثر من ستة اشهر كتب فيها قصائد فريدة عبر فيها عن لحظة الالم ، وموقفه كانسان من عقيدته ، وحياته ، وحبه للعالم المحيط به ، ولاصدقائه العديدين . ولقد مثلت هذه القصائد شخصية ابن شهيد العاطفية ولون العلاقات التى كان يحياها ، فهو بعد سقوطه كسياسى بقيت فيه شخصية الانسان مؤثرة فى عالمه الى حد كبير . وحين وافته منيته فى أخريات جمادى الاولى سنة ٤٢٦ هـ سقط أمام أهل قرطبة كبطل مأساوى صرعته أحلامه ونزوعه للحياة كما صرعه القدر دون أن يحقق لنفسه وجودا سياسيا مساويا لوجود أسلافه . ولقد ودعته قرطبة وداعا حارا عند رحيله عن عالمها الى الابد بما يكشف أن العلاقة بينهما لم تكن من طرف واحد بل كانت علاقة دينمية سجلت قرطبة حبها له فى هذا الوداع اذ « لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل ، وأنشد على قبره من المراثى جملة موفورة لطوائف كثيرة » (٢) .

ولقد ترك ابن شهيد من بين ما ترك من أعمال « رسالة

---

(١) ابن بسام ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ .

التوابع والزوابع » التى شغلت الدارسين المحدثين بما جعل ابن شهيد علما من أعلام الادب العربى القديم .

- ٢ -

امتزج فى رسالة التوابع والزوابع عالم الخيال بعالم الواقع ، فكل حركة وشخصية فى العمل مرتبطة بالواقع . لقد التقى بشعراء من عالم الجن هم اصحاب لشعراء من عالم الانس . ووقف عالم الخيال متداخلا مع عالم الواقع تداخلا كاملا ، فاطار عالم الخيال — وان استمد عناصره من التصورات المحيطة به — مركب تركيبا اصبح بقدرته الخالقة من صنعه هو . وفى الوقت نفسه فان عالم الخيال هذا لم يكن ممثلا الا لصورة عالم الواقع . فالشخوص الخيالية لعالم الجن متماثلة لشخوص حقيقيين لعالم البشر . وعالم الجن بما فيه يقف متماثلا لعالم الانس بكل مافيه . وهو بذلك جعل من عالم الجن وعالم الانس عالما واحدا ، اى ان الخيال والحقيقة قد اتحدا ، ولم يصبح عالم الخيال هنا جديدا، اذ هو صورة لعالم الواقع حتى ان كلمة خيال تلغى تماما لتتحول الى واقع . وتصبح المسألة مسألة رموز ليست صعبة الكشف . وهو لم يكن يريد أن يخفيها فعالم الجن او عالم الخيال هو عالم ابن شهيد أو هو عالم الواقع ، ومن ناحية اخرى لم يتوقف المؤلف عند هذا الحد بل تعداه الى الارتفاع بالمقابلةبين عالم الجن وعالم الانس ليتحول عالم الجن الى عالم الباطن وهو المثل ، وعالم الانس آلى عالم الظاهر وهو الممثول ، ويحدث بذلك تحول

يصبح فيه عالم الجن هو الحقيقة ، أو يصبح عالم الخيال هو الواقع بينما يصبح عالم الانســـان هو الوهم ، أو يصبح عالم الواقع هو الخيال . فالانسان هو الصورة التى تفنى وتموت ، بينما الجن الخالق باق بقـــدراته الفنية .

ولقد حدد لكل الشعراء الذين ذكروا فى الرسالة الاصل الخالق . وهو لم يستعر الاســماء المعروفة فى التراث العربى لاسماء الجن الخالقين ، وانما وضع لهم اسماء جديدة واحتفظ بالاطار العام لفكرة ارتباط الجن بعملية الخلق .

الاصل ــ الجن ــ فى مقابل ــ الصورة ــ الانس .

وقسمهم الى عدة أقسام توابع الشعراء وتوابع الكتاب غير المعاصرين له وتوابع معاصريه من الكتاب والشعراء ثم ختم رسالته بالتوابع من حيوان الجن وطيوره

الشعراء : الصورة

عتيبة بن نوفل : امرؤ القيس

عنتر بن العجلان : طرفة بن العبد

أبو الخطار : قيس بن الخطيم .

عتاب بن حبناء : أبو تمام

أبو الطبع : البحترى

حسين الدنان : أبو نواس

حارثة بن المغلس : المتنبى

الكتاب

أبو عيينة عتبة بن الارقم : الجاحظ

أبو هبيرة : عبد الحميد

زبدة الحقب : بديع الزمان
معاصرو ابن شهيد من الشعراء والكتاب :
انف الناقة بن معمر : ابو القاسم الافليلى
ابو الآداب : اسحاق بن حمام
فرعون بن الجون : تابعة رجل كبير من قرطبة
حيوان الجن وطيوره
الاوزة : تابعة شيخ من مشايخ قرطبة
بغلة ابى عيسى : بغلة ابى عيسى

لم تقف المقابلة فى الرسالة بين الجن والانس عند حدود الشعر وانما تعدتها لتصبح بين الصورة والاصل فى الصفات الخلقية على قدر ما أسعفته مصادر معرفته بالشاعر أو الكاتب . وقد أراد بهذا أن يضيف جوا يقارب من حقيقة ما يقوم بتصويره ، فهو حين أراد تصوير الشاعرين امرىء القيس وطرفه لم تسعفه مصادره فى تصويرهما تصويرا جسمانيا ، لذا فانه صورهما بما اشتهر عنهما فى أشعارهما ، فيظهر امرؤ القيس فارسا على فرس أشقر (١) وصاحب طرفة يبدو شابا راكبا لم يحدد الدابة التى يركبها ولكن بطء الحركة يوضح أنه كان يركب ناقة . ويظهر شابا جميل الوجه معجبا بنفسه متوشحا سيفا ، واشتمل على كساء خز وبيده خطى(٢). ويظهر قيس بن الخطيم كالاسد على فرس كأنها العقاب ، جرىء عنيف صاحب قنص حتى ليخافه ابن شهيد (٣) . وحين يظهر له ابو تمام يدهش لوجهه الفتى كفلقة

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٢٣ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٢٥ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٢٩ .

القمر (١) . ويجد صاحب البحتري في قصر ـ اشارة الى شهرته في تصوير القصور ـ راكبا فرسا أشعل وبيده قناة (٢) وحين وصف صاحبي المتنبي وأبي نواس أسعفته المصادر ليكون صورة أوضح وأعمق عنهما . فرسم للمتنبي صورة مستمدة من بيئته :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم (٣)

تصور الرسالة المتنبي شيخا وقورا صاحب قنص يظهر راكبا « على فرس بيضاء » كأنه على كثيب وبيده قناة قد أسندها الى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء ،وقد ارخى لها عذبة صفراء (٤) . أما صاحب أبي نواس فقد كان أكثر الشعراء حظا في تصوير المؤلف له . لقد نقل الجو الذي عاش فيه أبو نواس ، فهو حين توجه مع تابعه للقاء تابع أبي نواس ، سارا حتى انتهيا الى جبل دير حنة الذي ورد ذكره في شعر ابي نواس . وحين وصلا الى الجبل سمع قرع النواقيس . وسارا في الجبل يجتابان أديارا وكنائس حتى وصلا الى دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه . ولم يكن هذا الدير سوى دير حنة واقبلت نحوهما الرهابين مشدودة بالزنانير بيض الحواجب واللحى فأخذوهما الى بيت أبي نواس ، فاذا الدنان فيه مصطفة . أما أبو نواس فيظهر شيخا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٣٩ .
(٣) أبو الطيب المتنبي . ديوان . تحقيق نصيف اليازجي : دار الصياد ، سنة ١٩٦٤ . ج ١ ، ص ١٢١ .
(٤) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٥١ .

طويل الوجه والسبلة . عكف على الخمرة عشرة أيام . افترش أضغاث زهر واتكأ على زق خمر وبيده كأس يشرب منه . وحوله الصبية كالظبيان (١) . وأنشده ابن شهيد من شعره فى الخمر والقصيدة فيها روح أبى نواس فهى معارضة لشعره . أخذ أبو نواس يصحو بعد هذا ، وحاول أن يفيق فاستدعى ماء شرب منه وغسل وجهه وأفاق ثم اخذا يتناشدان الشعر ، وانتهى الموقف بأن اهتز أبو نواس طربا حين سمع بيتا من شعر ابن شهيد « فقام يرقص وقد أخذ يردده » (٢) .

ولم ينل الكتاب من ابن شهيد هذا الاهتمام فى تصويره لهم ، فصاحب الجاحظ لم يزد فى تصويره عما عرف عنه من أنه كان جاحظ العينين ، فرسمه شيخا جاحظ العين اليمنى أصلع . واضاف الى ذلك أنه كانت على راسه قلنسوة بيضاء طويلة (٣) . ولم يرد لصاحب عبد الحميد اى ذكر عن صورته الجسمانية . وكذلك كان حظ بديع الزمان الهمذانى ، فهو لم يزد فى وصفه على القول بأنه فتى (٤) ، فلقد مات بديع الزمان وهو لم ينه العقد الرابع من حياته (٥) .

ولم يكن فى حاجة الى أن يقوم بتصوير هؤلاء الكتاب تصويرا دقيقا ، فاستعاض عنه بالحوار يصور به الجو العام للمجلس ، فكان وصفه للشعراء تلوينا للرسالة

(١) المصدر نفسه . ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٥٠ .
(٣) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٥٨ .
(٤) المرجع نفسه . ص ١٩٢ .
(٥) الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد . يتيمة الدهر . القاهرة : مطبعة الصاوى ، سنة ١٩٣٤ هـ ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

اخرجها عن الجفاف وجعل روح الفكاهة غالبة عليها وخلق متعة لقارئه بينما كان الحوار بين الكتاب على درجة كبيرة من الهزل فلم يكن جامدا متوقفا .

وقد كان حظ معاصريه أكثر من حظ الكتاب فهو يعرفهم أكثر مما يعرف الشعراء والكتاب غير المعاصرين له . وهو اذا كان قد خلق جوا فكها رجادا فى تصويره لابى نواس والمتنبى فانه كان هازلا وساخرا فى تصويره لمعاصريه . وقد صبغت هذه السخرية تصويره لابى القاسم الافليلى « أشمط ، ربعة ، وارم الانف ، يغمز فى مشيته ، كاسرا لطرفه ، زاويا لانفه » (١) .

ولم يتوقف ابن شهيد عن بث روح السخرية من معاصريه بتصويراته الكاريكاتيرية المازحة ، فاختار لاحدهم أوزة لتكون تابعته امعانا فى السخرية منه ، وهو لم يحدد متبوعها ، فقط ذكره بأنه شيخ من مشايخهم (٢) كما انه لم يذكر اسم صاحب فرعون بن الجون ، اذ انه بهذه الاوصاف قد كشفها لمعاصريه من ابناء قرطبة أو انه جعلهم يتعرفون من خلالها على أكثر من شخص من الشخصيات التى أراد أن ينال منها ابن شهيد . فهما يعبران عن رمز مكشوف . وفى صورته للنعامة يقدمها « أوزة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة ، كأنما ذر عليها الكافور أو لبست غلالة من دمقس الحرير لم أر اخف من راسها حركة ولا أحس للماء فى ظهرها صبا ، تثنى سالفتها ، وتكسر حدقتها ، وتلولب قمحدوتها ؛ فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها »(٣).

---

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٦٨ .

(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وبتبديل بعض الكلمات فى هذه الصورة لا تخـــرج عن صورة لانسان محدد ، كشف بقية ملامحه حين جعله أو جعلها لا تهتم من الادب بغير احسان النحو والغـريب اللذين هما فى نظرها أصل الـكلام . وعاد يصور الاوزة تصويره لمبتدعها بأن عقله محشو هواء مثله فى ذلك مثل الاوزة فان الطبيعة لم تمنحه العقل والطبع فلا سبيل له اليهما ، وكل ما يستطيعه أن يحصل على عقل التجربة وهو يعنى بذلك القراءة والمدارسة ، وعلى متبوع الاوزة أن يحاول ذلك ، فاذا ما أحرز العلم فان عليه أن يناظر فى الادب . وحتى يصل الى ذلك فان رايه حتى الآن كراى الاوزة غذاؤه ماء وحشـــو راسه هواء (١) . وختم الرسالة بصورة هذه الاوزة انما كان محاولة منه أن يحقق رغبته فى الانتصار على ناقديه ، ووضع كل ما يريد أن يقوله دفاعا عن نفسه أمامهم وامام مجتمعه .

كان لهذا التصوير دور كبير فى أن يجعـــل رسالة التوابع والزوابع باقية حتى الآن ويجعل الحس الانسانى فيها يتخطى الزمن الذى كتبت فيه ، اذ لم تعد هناك قيمة للقارىء المعاصر ، أن يكون ابن شهيد قد ذكر اسماء معاصريه أم لم يذكر فهى قيمة تاريخية ، وسواء تكشفت العلاقة بين التابع والمتبوع أم لم تتكشف . فان شخصية هؤلاء التوابع تحولت الى شخصيات فنية فى عمل قصصى مستقل عن عصره بقدر ارتباطه به . ولم يكن ذلك وحده هو الذى ساهم فى نجاح هذا العمل وانما كان هناك عامل آخر ساهم أيضا فى نجاحه وأبقائه حيا الى الآن ، وهو الكيفية التى استخدم بها التراث استخداما واعيا مترابطا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٩ .

يخدم بناء العمل القصصي بدقة دون أن يفقد التراث شخصيته ودون أن يفقد الفنان شخصيته باستخدامه والاضافة اليه بما يسمح به العمل نفسه .

ـ جـ ـ

يحدد عنوان الرسالة موضوعها ، فهى عن التوابع والزوابع ، وقد أدى الموضوع بمونرو . ج الى الحكم على مؤلفها بأنه متأثر فى كتابتها بالافلوطينية المحدثة ، متصورا أن المؤلف كان يؤمن بقدرة الجن على الخلق فهو هنا يجعل الجن مقابل الميوس التى كان اليونانيون القدماء يعتقدون أن لها دورا فى عملية الخلق الفنى (١) ، ووضع رسما بيانيا يوضح وجهة نظره ويدعمها يقابل فيه بين رأى أفلوطين وبين رأى ابن شهيد فى عملية الخلق الفنى :

أفلوطين ـ العقل ـ الكلى ـ النفس الكلية ـ العفاريت ـ النفس المفكرة ـ النفس العاقلة ـ روح حيوانية .

ابن شهيد الله القرآن الفصاحة الجن الشاعر (عقل الطبيعة) المؤدب (عقل التجربة) موجب ـ سالب الاتان ، الاوزة (عالم (٢) ما وراء الطبيعة) .

ويبدو من شكل هذا الرسم وكأن العلاقة واضحة ما بينها الا انه لا علاقة البتة بين مفهوم أفلوطين وبين

---

(١) Monroe. J.T. Op. Cit., « p.p. 37 - 38 ».

(٢) Ibid.

مفهوم ابن شهيد عن الخلق الفنى . فالعالم المقدس لدى المسلمين لا يسير فى هذا التتابع :

الله ــ القرآن ــ الفصاحة ــ الجن .

لقد خرج الجن تماما من المقدس منذ بداية الاسلام ولم يعد له دور فى القداسة وتحدد الى أن يصبح دنيويا مساويا للانس . ويصبح الشعر ذا شقين أحدهما مقدس والآخر دنيوى وقد تم الفصل بينهما تماما (١) . وحين يأتى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى يخرج الشعراء الجن من دائرة الخلق الفنى الشعرى ليبقى فى المعتقدات الشعبية العربية . ولقد كان يمكن أن يطبق هذا النظام وبتعسف شديد على الشعر فى العصر الجاهلى غير أنه لا يصبح له مكان فى الحديث عن ابن شهيد . واذا كان هناك ما يمكن أن يقال عن تأثر ابن شهيد بالافلوطينية المحدثة فهى فكرة المثل والمثول ، وهو لم يستعرها مباشرة منها ، فقد كانت فكرة الظاهر والباطن شائعة بين الاسماعيليين والصوفية هذا فضلا عن أنها فكرة أقدم من عصر ابن شهيد وأقدم من علاقة العرب بأفلوطين فهى ترجع الى العصر الجاهلى حين لم يكن العرب يعرفون شيئا عنه .

ولقد عرفت الشعوب هذا اللون من الاعتقاد بما يسبق تاريخ الافلوطينية نفسها فهى قديمة قدم اعتقاد الانسان. فى قوى ما وراء الطبيعة . يضاف الى ذلك أن ابن شهيد لم يكن يعتقد فى دور للجن فى عملية الخلق فهو قد

(١) اعنى بالمقدس المرتبط بقوة الهية واعنى بالدنيوى المرتبط بقوة الجن والشياطين .

حددها عند حديثه مع صاحب أبى القاسم الافليلى ، وقد اراد أن يوضح له أن منحة الادب منة منها الله عليه فاستخدم دليلا على ذلك من كلام الله تعالى « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » (١) ، فابن شهيد كان يستخدم التراث فى وقت لم يعد فيه هذا التراث جزءا من عقيدة الشعراء الكبار . وقد تحول الى موضوع طريف يصب فيه الكاتب آراءه وافكاره .

ويجب أن يوضح هنا أن ابن شهيد وجد مادة ضخمة فى التراث الشعبى والدينى هضمها وقدم منها عمله بما يؤكد الا دخل لعناصر اجنبية فى عمله الفنى . فكلمة التوابع مفردها تابع وهو القرين ، الشيطان من ولد ابليس « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » (٢) يزين للانسان سوء أعماله « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » (٣) .

ولقد كان هناك اعتقاد شائع أنه ليس من ولد آدم الا وله شيطان قد قرن به . والاعتقادات فى هذا لا تستثنى من ذلك أحدا .

أما الزوابع فمفردها زوبعة ، وتعنى فى اللغة « اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمى الاعصار زوبعة (٤) . وقد ذكر هذا الاسم علما على واحد من جن نصيبين اسمه زوبعة ، فقد روى عن رجل من التابعين « أن حية دخلت فى خبائه تلهث عطشا ، فسقاها ثم أنها ماتت ، فدفنها

---

(١) ١ ــ ٤ ك الرحمن ٥٥

(٢) ٣٦ ك الزخرف ٤٣ .

(٣) ٢٥ ك فصلت ٤١ .

(٤) الفيروز أبادى ، مجد الدين القاموس المحيط . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، (د . ت) ص ٣٣ .

فأتى من الليل (رجل) فسلم عليه ، وشكره وأخبرهأن تلك الحية كان رجلاً صالحا من جن نصيبين اسمه زوبعة»(١).

واستخدام ابن شهيد موضوع « التوابع والزوابع » وجعل شخوصه من الجن تابعى الانس هو محاولة ذكية من المؤلف لينقل قارئه مباشرة الى جو العالم الذى اراد أن يوهم بانه يتحدث عنه ، فهو يحاول أن يستخدم الايهام حتى لا يعطى الحقيقة كلها لقارئه ليدفعه للتأمل والتفكير فيما اراد ان يقوله . ولما كانت فكرة شيطان الشعر شائعة فى عصره ، فلن يكون غريبا على القارىء أن يجد هؤلاء التوابع مجسدين فى عمل فنى ، فيتابع المؤلف متابعة دقيقة فى هدفه . لقد كان المؤلف يريد لعمله وظيفة محددة وهى الدفاع عن نفسه فى محكمة ادبية . وكان أليق به أن يستخدم الجن هنا فى مقابل الشعراء والكتاب ليكونوا الحكومة التى تحكم له أو عليه، فهو يكون محكمة ادبية لا يريد أن يجعل اعضاءها من البشر بل من عالم ما فوق الطبيعة ليوهم بصدق الحكومة . فالعودة الى المثل لمثولين قد انتهوا من هذه الحياة هو امتداد بالحكومة حتى عصره . وحين يلتقى بتوابع الاحياء يكون لقاؤه لقاء المتهم المدافع عن نفسه فى هذه المحكمة ، فيدينهم ويدينوه .

ومحاولته استخدام الجن المبدعين المملثلين لشعراء وكتاب ماتوا او ما زالوا على قيد الحياة انما يواجه عالم الشعراء كله ممثلا فيهم .

---

(١) الدميرى . المرجع السابق .

ولما كان ابن شهيد يعرف مسبقا نتيجة هذا الحكم ــ فهو صانعه ــ فانه بهذا العمل كان يسخر من نقاده ، سخرية مرة ، ويدينهم في عملهم وخلقهم وينتهى بذلك الى أن أحدا من معاصريه ليس جديرا بالحكم له أو عليه فهم جميعا مدانون منه .

بدأ ابن شهيد رسالته موجها حديثه الى ابى بكر يذكر فيها كلمة قالها عنه ، ساخرا من قدرته ، « فقلت كيف أوتى الحكم صبيا ، وهز بجزع نخلة الــكلام فاساقط عليك رطبا جنيا ؟ » (١) وقد أداه ذلك الى الحكم على ابن شهيد بأنه على علاقة بقوى ما وراء الطبيعة وهي الجن اذ ان ذلك في نظره « ليس في قدرة الانس ، ولا هــذا النفس لهذه النفس » (٢) . وابن شهيد يبدأ الرسالة بمدح نفسه وشعره بأن له قدرة ليست في مقــدور نظرائه من الشعراء . وهو يعود بذلك الى أبيات قديمة معروفة لمثقفي عصره فهي متداولة في أكثر من مصــدر ادبي سابق لابن شهيد ومعروفة له فانه استخدم اثنين ممن ذكرا هذه الابيات في رسالته ، وهما الجاحظ وبديع الزمان . وحديثه هذا كان مستمدا من الابيات ويقترب أن يكون شرحا لها :

انى وان كنت صــغير السن
وكان في العــــين نبــو عنى
فان شـــــيطاني كبير الجن
يذهب بي في الشعر كل فن (٣)

فالابيات منحته المدخل ليبدأ رحلته في عالم الجن ،

---

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١١٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر . كتاب الحيوان . تحقيق =

اذ لم ينكر ابن شهيد هذا القول بل أكده في حواره مع صاحبه أبي بكر الذي وجه اليه الرسالة « فأما وقد قلتها ، أبا بكر فاصغ اسمعك العجب العجاب » (١) .

واخذ يتحدث عن أيام صباه وكيف در له العلم بمواد روحانية ثم قص عليه قصـــة حبيبه الذي مله ثم مات فأنشد يرثيه معتذراً . وكان ذلك نقطة التقائه بجنيه . والمؤلف يعود في هذا الموقف الى مصدر سابق عليـــه معروف أيضا ليس لابن شـــهيد فقط بل لمثقفي عصره أيضا فهو منشور في الاغاني ، يروى عن جرير ، فقد هجا سراقة البارقي جريرا ، وفضل عليـــه الفرزدق بقوله :

ان الفرزدق برزت أعـــــراقه
سبقا وخلف في الغبـــار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعـــلا
وابن المراغة مخلف محصــــــور

فأرسل بشر بن مروان القصيدة الى جرير مع رسول وقد أمره الا يبرحه في يومه ان لقيه نهاراً أو لقيـــه ليلا حتى يجيب عليهـــــا ، فأخذ جـرير القصـــيدة « ومكث ليلته يجتهد أن يقول شيئاً ، فلا يمكنه ، فهتف

= عبد السلام هارون . القاهرة :البابي ، ســنة ١٩٦٧ . جـ ٦ ، ص ٢٢٥ . يوجد فقط الاشطر الثلاثة الاولى . والهمذاني بديع الزمان . مقامات أبي الفضـــل بديع الزمان الهمذاني . شرح الشيخ محمد عبده المصري . بيروت : المطبعة الكاثوليكية . (د.ت) ، ص ١٤٥ ، وقد ذكر البيتين أبو منصور عبد الملك بن محمد . ثمار القلوب . القاهرة : مطبعة الظاهر ، سنة ١٩٠٨ . ص ٥٦ .

(١) ابن شهيد . المصدر السابق ،ص ١١٨ .

به صاحبه من الجن من زاوية البيت ، فقال له : « أزعمت انك تقول الشعر أما هو الا ان غبت عنك ليلة حتى لم تحسن أن تقول شيئا ! فهلا قلت :

يا بشر حق لوجهــــك التبشير

هلا قضيت لنـــا وأنت أمير (١)

نقل ابن شهيد هذه الصورة وقد أضاف اليهــــا الرتوش الملائمة حتى تتناسق مع عمله ، فانه بعـد أن أصابته حالة التوقف ، اذ بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه ، قد اتكأ على رمحه ، وصاح به صيحة تشبه صيحة جني جرير « أعجزا يا فتى الانس » . وقد أقام بعد ذلك حوارا يتفق مع الشكل القصصي الذى أراده . فلقد رد عليه « لا وأبيك للكلام أحيان وهذا شأن الانسان » (٢) . ويفعل الجنى معه فعل جني جرير مع صاحبه فيلقي عليه بيتا من الشعر تتمة للمعنى الذى توقف عنده . ويكون ذلك بداية تعارفه على جنيه زهير بن نمير الذى يعود نسبه الى قبيلة أشجع وهى نفس قبيلة ابن شهيد . ويتحدد فى هذا اللقاء العلاقة بينهما . ويعلمه زهير بالطريقة التى يمكن أن يستحضره بها متى أراد ، وذلك أن ينشد أبياتا من الشعر حددها له . والابيات تمثل تعزيمة أو رقية مثل رقى الساحر حين يريد أن يحضر جنيه الى عالمه ليقوم بخدمته .

يذكر المؤلف ان الصحبة تأكدت بينهما ، وأنه كلما

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى ، على بن الحسين . كتاب الاغانى . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، سنة ١٩٦٣ ، جـ ٨ ، ص ٦٩ .

(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١١٩ .

اربج عليه وانقطعت به المسالك ، ينشد الابيات فيحضر نه زهير فيسير به الى ما يريد .

وهذا التعرف بين المؤلف وجنيه زهير قد امتد ليكون تعرفا من القارىء عليهمـــا . وهذا يدفع الى ترقب تفصيلات الحدث القـادم ، فلقد حدثت قصص كثيرة بينهما . ذكر المؤلف انه سيروى بعضها . وبهذا يكون التحول من المدخل الى الفصل الاول من الرسالة وهو توابع الشعراء طبيعيا وتلقائيا .

والرسالة منذ الفصل الاول حتى الفصل الاخير تصور رحلة الى عالم الجن . بدأها باظهار رغبته فى لقــــاء التوابع والزوابع أصحاب الشعراء والخطباء من أصدقاء صاحبه زهير بن نمير ، فانصرف عنه صاحبه ليـأخذ الاذن من شيخ الجن بالذهاب الى أرضهم . وعندما عاد زهير بالاذن بدأت الرحلة .

والرحلة ليست نقلة الى مكان محدد فى أرض الجن وانما أتبعتها سفرات أخرى متعددة فهى مجموعة رحلات داخل أرض الجن .

بدأت الرحلة بامتطاء ابن شهيد مع صاحبه زهير بن نمير جوادا . سار بهم كالطائر يجتاب الجــو ويقطع الفلوات . وتستمر جميع سفراته فى أرض الجن على ظهر هذا الجواد .

وفكرة الجواد الطــائر استمدها المؤلف من المعتقد الشعبى ، فهناك الحصان الطائر فى القصص الشعبى كما أن هناك البراق الذى حمل الرسول فى معراجه .

فجواد ابن شهيد من عالم ما فوق الطبيعة ، مثله فى

ذلك مثل الجن يملك قدرات ليست في الجواد الارضي .

وهو لم يستخدم صورة الجواد السماوى المعروف في المعتقدات الشعبية الاسلامية باسم البراق الذى حمل الرسول في معراجه اذ ان ابن شهيد لم يرد أن يبتعد عن عالم الجن ومقابلته لعالم الانس ، فرسم حيوان الجن وطيوره بصورة لا تبعده عن موضوعه ، وتخدم الفكرة التي بنى عمله عليها . وانه اذا كان الجن متفوقين بقدراتهم الخارقة فكذلك جواد الانس . وقد مهد ذلك للصورة التي قدمها عن حيوان وطيور الجن . وهو لم ينقل الصورة المألوفة عن حيوان الجن فقد عرف الجن باستخدامهم الحشرات والوحش مطايا لهم واختصوا من بينها الظباء بأهمية كبرى يجوبون بها البلاد ويدفعونها مهورا عند الزواج (١) . وابن شهيد لم يستخدم هذه الصورة وانما جعل حيوان وطيور الجن تلتقى مع حيوان الانس وطيوره في الاسماء وان اختلفت في القدرات فهى تتمايز عن حيوان وطيور الانس بقدرة كونية خارقة لها على التمتع بالادب ، وخلقه ، تتعامل مع الطبيعة تعامل الكائن الحى العاقل ليلون به الحس الساخر من مجتمعه ومن منافسيه .

لقد برزت البغال والحمير تتعارك من أجل اختلافهم في الحكم على شعر بغلة وحمار . وهنا تظهر الاوزة لتأخذ دورها في المعركة الادبية محتجة فتدين موقفهم من اتخاذ ابن شهيد حكما في العمل الشعرى . وبهذا الموقف يكون المؤلف قد ساوق بين عمله وبين ما يريد

---

(١) انظر . الجاحظ . المرجع السابق . ص ٤١٧ ، ٤٧٠ ـ ٤٧١ .

بهذه الاستخدامات المتقابلة لحيوان وطيــــور الجن مع حيوان وطيور الانس .

وهذه الصورة الدنيوية لا تلتقى مع الصورة المقدسة بعالم السماء ، لذا لم يكن ابن شهيد فى حاجة الى أن يخلط الدنيوى بالمقدس . واستخدام البراق هنا بديلا للجواد كان يمكن أن يكون خلطا لا يتسق مع عمل ابن شهيد . هذا فضلا عن أن ابن شهيد كان يدرك أن التهمة الاخلاقية الموجهة ضده من بين بعض خصومه قد تزداد اذا ما حاول أن يستخدم المقدس فى عمل دنيوى . وابن شهيد لم يكن يكتب عملا يرتبط بالدين والمعتقد ، وانما كان يكتب عملا يرتبط بالادب وبرؤيته له وموقف النقاد منه وموقفه منهم ، لذا فقد كان من الاوفق أن يتجه الى الدنيوى وأن يكون معراجه الى عالم الجن وليس الى العالم السماوى وابن شهيد لم يقتحم العالم السماوى ، لانه لم يكن يأمن على نفسه الزلل فهو مع كل التهم التى وجهت له فى أخلاقه ومع بعض تصرفاته غير المقبولة من المتدينين كان على قدر كبير من الايمان بالله وكان على خشية منه فهو فى أخطائه يمثل الشخص السنى الذى يؤمن بالله ويعصيه وفى الوقت نفسه يطمع فى المغفرة . لقد كانت أشعاره فى أخريات أيامه توضح قوة ايمانه ويقينه فى الله وفى البعث ، وقد سجل ذلك فى وصيته وكان من بين هذه الوصية أن يكتب على لوح رخام « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيهــــا وأن الله يبعث من فى القبور » (١) . ورجل مثله لم يــكن ليجــد حرية فى

(١) ابن بسام . المرجع السابق . ص ٣٣٣

الحديث عن العالم السماوى . وهذا ما يجـده عنـد الحديث عن العالم الدنيوى ، عالم الجن .

ولقد برزت هذه الحرية فى الصورة التى رسـمها للجن . فكما أن للانس أرضا فللجن أرض . وكما أن للانس جوا فكذلك للجن جو ، فهما هنا يلتقيان ولكنهما يختلفان فالارض لا تشبه أرض البشر ، والجو لا يشبه جو البشر .

ولقد خالف ابن شهيد الرؤية العـامة لعالم الجن الموحش ، واقترب بصورة هذا العالم من عالم الانس على الرغم من قوله السابق انه مختلف عنه ، فهو مقابل لعالم الانس ، ولقد استمد صورته من عنصرين :

العنصر الاول : هو صورة الشعراء والكتاب وأماكنهم .

والعنصر الثانى : هو صـورة الطبيعة فى قرطبة نفسها .

وفى وقفته الاولى عند مسكن امرىء القيس استمدها من حياة امرىء القيس وشعره ، فاختار المكان قريبا لصورة ما ذكر عن يوم دارة جلجل . ولقد ذكرت كتب الادب القديم قصة هذا اليوم وأفاضت فيه (١) .ورسمه ابن شهيد واديا من الاودية ذا روح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره » (٢) . وفى وقفته الثانية عند طرفة نقل ابن شهيد صورة الواحة لتكون مسكنه ، فهى غيضة شجرها شجران :

---

(١) القرشى . أبوزيد محمد بن الخطاب جمهرة أشعار العرب . تحقيق محمد البجاوى القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٩٦٧ . ج ١ ، ص ١١٩ ـ ١٢١ .

(٢) ابن شهيد . المصدر السابق ص ١٢٣ .

سام يفوح بهارا ، وشجر يعبق هنديا ، وغارا . فرأينا عينا معينة تسيل ، ويدور ماؤها فلكيا ولا يحول » (١) .

وحين انتقل الى أبى تمام نقل جو الطبيعة الذى وصفه أبو تمـام فى شـــعره فمسكه « شجرة غيناء يتفجر من أصلها ماء كمقلة حوراء » (٢) .

وهو فى لقائه بالبحترى لم يزد عن أن ذكر قصر ابن مالك دون أن يجعله سكنا له وجعله فى الناورد .

وحين وصل الى أبى نواس وقف طويلا ليصور مكان اقامته ، وكان أن جعله دير حنة .

أما المتنبى فلم يلتق به فى مكان اقامته وانما التقى به فى ساعة من ساعات قنصه .

وتم لقاؤه بالكتاب فى مرج ، وتجاهل تماما تصوير المكان ، ويبدو أنه لم يكن محتاجا الى ذلك ، اذ أن أمثال هذه اللقاءات يكفى أن يذكر المكان بأنه « ناد عظيم » (٣) و « مجلس من مجالس الجن » (٤) .

ولقد تغير ذلك حين تحدث عن حيوان وطيور الجن ، لقد كان موجزا ولكنه كان ينقل صورة الحياة فى قرطبة « فهو قرارة غناء تفتر عن بركة ماء » (٥) . وكانت هذه الصورة مدخله لتصوير حمير وبغال الجن . فانها تسبح فى بركة ، فيأخذ فى تصوير حركة هؤلاء الحمير والجن، وهم فى حالة من الهياج يختصمون حول شعر حمـار وبغل . وبعد أن انتهى من هذا الموقف عاد الى البركة

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٢٥ .
(٢) ابن شهيد . المصدر السابق .ص ١٣١
(٣) المصدر نفسه . ص ١٥٧ .
(٤) المصدر نفسه . ص ١٧٩ .
(٥) المصدر نفسه . ص ٢٠٢ .

ليتحدث عن الاوزة وعن علاقتها بالحمير والبغـــال والادب .

واذا كان ابن شهيد قد استطاع أن يخلق عالم الجن متقابلا مع عالم الانس دون أن يتقيد بالاعتقادات الشائعة عن عالم الجن كما روتها كتب الادب وتصرف فيها ، فان علاقة الجن بالشعر كما روتها هذه الكتب كانت المادة التى بنى عليها اطار رسالته .

ذكر شوقى ضيف أن مقامة بديع الزمان الهمذانى الابليسية « هي التى أوحت لابن شـهيد فى الاندلس رحلته المشهورة فى عالم ما وراء الطبيعة ، وهى الرحلة المعروفة باسم « التوابع والزوابع » (١) . وتابع شوقى ضيف أكثر من باحث (٢) .

وانه من الممكن قبول فكرة ان بديع الزمان الهمذانى قد أوحى لابن شهيد بتناول هذا الموضوع غير أن شوقى ضيف قد ذهب الى أبعد من هذا فذكر ان ابن شـهيد عارض بديع الزمان فى مقامته الابليسية وانه استمد عمله مباشرة من البديع ومقاماته فلم يدخل الا تغييرات قليلة وتعديلات طفيفة (٣) . ولا شك أن ابن شهيد قد قرأ بديع الزمان وتأثر به فى بعض رسـائله كما تأثر بغيره من الكتاب السابقين له مثل الجـاحظ وعبد الحميد الكاتب . وهو يعترف بأستاذيتهم له فى رسالته (٤) . وكان تأثره بالهمذانى وبسجعه واضحا ، فقد كان السجع

---

(١) ضيف ، شوقى . المقامة . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ . ص ٣١ .

(٢) ذكى ، يعقوب . المرجع السابق ص ٤٤

(٣) ضيف ، شوقى . المرجع السابق . ص ١٣٤ .

(٤) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٥٨ ـ ١٦١ .

يمثل في ذلك الوقت تيارا عاما سائدا بين الكتاب . وطبيعي أن يكون ابن شهيد على علم بالمقامة الابليسية . ولكن هذه المقامة ليس بينها وبين الرسالة علاقة أصيلة الا في كون بديع الزمان الهمذاني قدم البداية للكتاب في ادخال موضوع مطروق في الادب الشعبي الى عالم الادب الفصيح . من هنا يكون عمل بديع الزمان لا يمثل نموذجا لابن شهيد يعارضه ، فالنموذج موجود وسابق على بديع الزمان الهمذاني ، ويرتد الى المصادر الاصلية التي استلهم واستقى منها الهمذاني مقامته (١) ولقد استخدم ابن شهيد نفس المصادر التي استخدمها الهمذاني وتخطاه وتخطى هذه المصادر بعمل متكامل ، فان ابن شهيد لم ينقل عن هذه المصادر نقلا حرفيا واكتفى بمعارضة الاطار المعروف بغير في مضمون الاحداث ، وهو فيما صنع لم يخرج عن المألوف في هذه القصص .

عرف ابن شهيد والمثقفون من معاصريه القصص التي رويت في كتاب الجاحظ « الحيوان » وكتاب الاصبهاني « الاغاني » ، وكتاب القرشي « جمهرة اشعار العرب » ، عن لقاء الشعراء بتوابعهم من الجن وعن اشخاص التقوا « بهبيد صاحب عبيد بن الابرص » (٢) ، ولافظ بن لاحظ صاحب امرىء القيس (٣) ومسحل السكران صاحب الاعشى (٤) . كما عرفوا قصصا عن شعراء قد التقوا

(١) انظر الفصل الاول الخاص بالمقامة من هذا الكتاب .
(٢) القرشي . المرجع السابق . ص ـ ٤٤ ـ ٤٥ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) المرجع نفسه . ص ٤٦ ، ٤٧ ، والاصبهاني : المرجع السابق . ج ٩ . ص ١٥٦ .

بأصحابهم من الجن روى ذلك عن الاعشى (١)؛وجرير(٢)؛ لذا لم يكن ابن شهيد يقدم شيئا جديدا على جمهوره حين تحدث عن لقائه بصاحبه الجنى زهير بن نمير .

قسم المؤلف الشعراء والكتاب الى قسمين :

قسم يقف منه موقف التلميذ المعترف لهم بالاستاذية والتفوق . وقسم آخر يقف منه موقف الند للند يحاول ان يبرهن على تفوقه عليهم . ولقد حكم له شعراء وكتاب القسم الاول بالتفوق وأجازوه شاعرا وكاتبا .

كان هؤلاء الشعراء والكتاب هم أصحاب امرىءالقيس وطرفة وقيس بن الخطيم وابى نواس والجـــاحظ وعبد الحميد . والقسم الثانى يقف منه موقف المنافس وهم ينقسمون أيضـــا الى قسمين : قسم يعترف له بالاستاذية مع وجود هذه المنافسة وهما البحترى وبديع الزمان .

والقسم الثانى وهم معاصروه يراهم دونه فى المرتبة الادبية ، وهم أصحاب أبى القاسم الافليلى وابى اسحاق الحمام وآخرون لم يذكر اسماءهم الحقيقية .

واستخدم ابن شهيد عند الحديث عن نقاد الجن مادة كانت موجودة بين يديه مجموعة فى الــــكتب المعروفة والمشهورة فى عصره مما ذكر فى جمهرة القرشى واغانى الاصـــبهانى وموشح المرزبانى عن علاقة الجن بالنقد وبصرهم به .

يروى القزوينى قصة عن اعرابى أبق له غلام ، فخرج يقفو أثره ، وبينما يسير اذ وجـــد اربعة من الجن

(١) الالوسى . محمود شكرى . بلوغ الارب فى معرفة احوال العرب تحقيق محمد بهجت الاثرى . القاهرة : مكتبة محمد الطيب ، سنة ١٣٤٢ هـ . جـ ٢ ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) الاصبهانى . المرجع السابق . جـ ٨ ، ص ٦٩ .

يختصمون فى شعر جرير والفرزدق (١) ومدون القصة وأن كان متأخرا عن ابن شهيد الا أن الحدث الذى بنيت عليه القصة كان متواترا معروفا فى عصر ابن شهيد وقبل عصره .

ويذكر المرزبانى المتوفي سنة ٣٨٤ هـ أى بعد سنتين من ميلاد ابن شهيد رواية عن أبى عبيدة يتحدث فيها عن بصر الجن بالشعر ونقده ، فانه لما قال ذو الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل
وبين النقا آأنت أم أم سالم
فعيناك عيناها وجيدك جيدها
ولونك لولا حمشة فى القوادم

أجابه جنى من حيث لا يراه ناقدا لشعره :

أأنت الذى شبهت ظبية قفرة
لها ذنب فوق استها أم سالم
وقرنان اما يعلقانك يتركا
بجنبيك يا غيلان مثل المياسم

وما حدث لذى الرمة حدث لنصيب وجرير والفرزدق اذ سمع كل منهم جنيا من حيث لا يراه يقوم بنقد بعض أبياته (٢) .

ولم تكن هذه المواقف بكافية ليبنى عليها ابن شهيد

(١) القزوينى . زكريا بن محمد بن محمود . عجائب المخلوقات . على هامش الدميرى . حياة الحيوان . بيروت : مكتبة البيان ، سنة ١٣٠٩ هـ . جـ ٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) المرزبانى ، أبوعبيد الله محمد بن عمران بن موسى . الموشح . تحقيق على محمد البجاوى . القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٩٦٥ . ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

الفصل الخاص بنقاد الجن ، فامتد الى صور المجالس الادبيه فى العصر الجاهلي والاموى والعباسي . ولقد جمعت كتير من هذه القصص فى كتب الادب العربى المتداولة فى عصر ابن شهيد . ولعل اقدم صورة لهده المجالس هى المجالس التى كانت تقام فى سوق عكاظ . وقد روى ان النابغة كانت تضرب له « قبة حمراء من ادم فى سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها » (١) . وقد تطورت هذه المجالس لتأخذ مكانتها فى بلاط الامويين والعباسيين وقصور سراة المجتمع . وكان من أوضح صور هذه المجالس الادبية ، مجالس عبد الملك بن مروان وواليه الحجاج بن يوسف الثقفى ومن بعدهما مجالس خلفاء بنى أمية وبنى العباس وولاتهم . اما مجالس السراة فكان أوضحها مجلس سكينة بنت الحسين التى كان يفد عليها الشعراء فتستقبلهم من وراء حجاب . زارها جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل ونصيب . وقيل أنهم مكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . واخرجت اليهم جارية قد روت الاشعار والاحاديث . نقلت هذه الجارية نقدسيدتها لبعض أشعارهم . وكما قامت السيدة سكينة بالنقد فانها وصلتهم جميعا (٢) .

ولم تتوقف هذه المجالس طوال عصور الادب العربى حتى عصر ابن شهيد وبعد عصره . ومن هنا فان تصويره لمجلس من مجالس الجن النقدية كان يمثل مقابلة لمجالس الانس . نقل فيه موقفا نقديا معروفا لمعاصريه.

---

(١) ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر والشعراء . بيروت : دار الثقافة ، سنة ١٩٦٤ . ج ١ ، ص ١٠١ .

(٢) المرزباني . المرجع السابق . ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦ .

ويمثل في نفس الوقت وجهة نظره في الشعر ، فيقول « حضرت أنا وزهير مجلسا من مجالس الجن فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من المعاني ومن زاد فأحسن الاخذ ومن قصر » (١) . وفى هذا المجلس قامت الموازنات بين أبيات للأفوه ، والنابغة ، وأبى نواس ، وصريع الغواني وأبى تمام عن تصوير الطيور التى تتبع الجيش ، فكان رأى احد نقاد الجن أن الشعراء جميعا قصروا عن قـــول النابغة :

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدى بعصــائب (٢)

وقد ذكر ابن قتيبة أنه يأخذ عليه وعلى البيت الذى يليه :

جوانح قـــد ايقن ان قبيـــله
اذا ما التقى الجمعـــان اول غالب

أنه « جعل الطير يعلم الغالب من المغلوب قبل التقاء الجمعين والطير قد تتبع العساكر القتلى ولكنها لا تعلم أيها يغلب » (٣) . وهذا النقد يمثل رؤية عقلانية ، اذ ان الاسباب التي أدت الى عدم استحسان البيت هى نفسها الاسباب التى جعلت من البيت متميزا ومتفردا فى تصوير بطولة الممدوح اذ أنه من القوة لدرجة ان الطير تعرف ذلك ، لذا فهى تتبعه مطمئنة الى أنه سيطعمها من جماجم الاعداء ، وحاول كثير من الشعراء استعارة هذا المعنى . وقد عرف ابن شهيد ذلك ، وقد أدرك قيمة هذا البيت ، فرآه يتفوق على جميع الذين تناولوا هذا المعنى باستثناء المتنبى فى بيته :

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٧٩ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ابن قتيبة . المرجع السابق . ص ١٠٣ .

له عســـــكرا خيل وطير اذا رمى
به عسكرا لم تبق الا جمـاجمه (١)

اتخذ ابن شهيد مواقف متعـارضة عن مواقف ابن قتيبة معتمدا على ذوقه ورؤيته للحياة . ذكر ابن قتيبة أنه يعاب على أمرىء القيس تصريحه بالزنا والدبيب الى حرم الناس ، والشـــعراء تتوقى ذلك فى الشعر وان فعلته ، قال :

سموت اليهـا بعد ما نام أهلهـا
سمو حباب الماء حالا على حال (٢)

خالف ابن شهيد ابن قتيبة فى رأيه هذا وذلك فى حديثه مع أحد النقاد والشعراء حين سأله عن « أى معنى سبقك فيه غيرك ، فوجدته حين رمته صعبا عليك الا أنك نفذت فيه » فذكر له أبياتا من تأليفه مستعارة من بيت امرىء القيس .

ولمـا تملأ من ســـكره
فنام ونامت عيون العسس (٣)

وكثير من شعر ابن شهيد فى الرسالة يكون مرفوضا بمقاييس ابن قتيبة ، فابن شهيد يقف موقف المعارض للموقف العقلى والاخلاقى فى الشعر . وهو فى موقفه النقدى هذا كان يستخدمه ليدافع عن نفسه وعن شعره حتى أمام النقاد السابقين له .

---

(١) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٨١ .
(٢) ابن قتيبة . المرجع السابق . ص ٧٤ .
(٣) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٨٥ .

وهناك قضية هامة تختص بمصادر رسالة التوابع والزوابع قد أثارها أحمد ضيف ، فهو يرى أن ابن شهيد قد تأثر برسالة الغفران لابى العلاء المعرى (١) . وقد كتبت رسالة الغفران فى ٤٢٤ هـ (٢) . وقد تابعه فى ذلك عبد المنعم خفاجى (٣) ومعنى ذلك ان رسالة التوابع قد كتبت بعد سنة ٤٢٤ هـ .

ولقد اختلف الباحثون فى تاريخ هذه الرسالة ولكن النظر الى روح الرسالة ومشاعر ابن شهيد فيها يمكن أن يلقى ضوءا على هذا التاريخ .

ولقد ذكر « بلا » انه كتبها عام ٤٠٠ أو ٤٠١ هـ (٤) معتمدا فى ذلك على تحديده لشخصية من أرسلت له الرسالة ، فقد تصور انه ابو بكر بن حزم اخو ابى محمد على بن حزم الذى توفى سنة ٤٠١ هـ . ولما كان كثير من الاشعار الواردة فى الرسالة ترجع الى تاريخ متأخر عن هذا التاريخ فقد فسر ذلك بأن ابن شهيد « اتم الرواية قبل سنة ٤٠١ هـ ثم أضاف اليهـا نصوصا جـديدة أو أضافها أصدقاؤه ، وليس هذا الامر بعجيب لان المؤلفين والكتاب العرب قد عودونا عليه اذ نراهم يهذبون وينقحون مؤلفاتهم ويزيدون عليها » (٥) .

---

(١) ضيف ، أحمد . المرجع السابق . ص ٤٨ .

(٢) أبوالعلاء المعرى . رسالة الغفران . تحقيق بنت الشـاطىء . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٠ . ص ٤٤٢ .

(٣) خفاجى . المرجع السابق .

(٤) بلا . المرجع السابق . ص ٣٦ .

(٥) المرجع نفسه . ص ٩٧ .

وهذا القول مجانب للصواب لاسباب ثلاثة : أولاها ان ابا بكر بن حزم المذكور فى الرسالة ليس بأخى على بن حزم المتوفى فى عام ٤٠١ هـ . فهو شـــخص اخر غيره (١) . والامر الثانى ان شخصية ابن شهيد ليست من شخصية أولئك الـكتاب الذين ينقحون ويراجعوا ما كتبوا ، فهو يعتمد على الطبع ويفتخر به ورسالته كلها فخر بقدرته الفنية ، وانه منح عقل الطبيعه (٢) ، فهو مشهور بأنه من أصـحاب البديهة والقـدرة على الارتجال ، فليس ابن شهيد عالما يقف مع ما يكتب موقف الباحث ينقح ويصحح . لقد كتب ما كتب وهذا فخره . كما لم يعرف أن هناك أحدا من أصدقائه اعتدى على عمله بالتهذيب والتنقيح باستثناء ابن بسام وانما حبا فى أجزاء من الرسالة ليس بهـدف التنقيح وانما حبا فى الاختصار ومنعا للاطالة ، فهو قد قدم أجزاء من الرسالة ليوضح قدرة الكاتب لا ليشوه عمله ، ولا أظن أنه كان يتصور أن يضيع هذا العمل ويصبح كتابه المصـدر الوحيد الذي احتفظ بالرسالة . والامر الثالث ان ابن شـهيد فى عام ٤٠١ هـ لم يكن لديه الدافع ليكتبها فان الحيـاة كانت ممتدة أمامه ، فهـو فى هـذا العـالم لم يبلغ العشرين من عمره اذ انه من مواليد سنة ٣٨٢ هـ . والرسالة حصيلة تجربة مع الحيـاة وخبرة بالناس وبالعالم المحيط به فلم يكن ابن التاسعة عشرة ليقف مفاخرا ائمة الادب فى قرطبة بهذه السهولة اذ ليس لديه مبرر يدفعه الى ذلك ، هذا فضلا عن أن كل ما يطمع اليه ابن هذه السن أن يعترف به الكبار

---

(١) الحميدى . المرجع السابق . ص ٣٥١ .
(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ٢٠٦ .

من أدباء عصره واحدا منهم وليس قمة عليهم . وعلى كل فالرسالة توضح ان ابن شهيد قد اكتمل شاعرا وأديبا ورجلا من رجالات قرطبة يعرف انه قمة أدباء عصره .

ويذكر بروكلمان فى كتابه تاريخ المسلمين انها كتبت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة (١) ، ولما كان المعرى قد كتب رسالته سنة ٤٢٤ هـ ، فيكون تأليف الرسالة في نظره هو عام ٤٠٤ هـ . ولسنا فى حاجة الى مراجعة بروكلمان ومناقشته اذ أنه عاد فصحح هذا التاريخ فى كتابه تاريخ الادب العربى وجعله « حوالى ٤٢١ هـ » (٢) وذكر كلمة حوالى توضح انه لم يكن على يقين من هذا التحديد فهو لم يبين سببا لتحديده الاول أو الثانى .

ويحدد زكى مبارك للرسالة تاريخا فيما بين سنتى ٤٠٤ ـ ٤٠٧ هـ (٣) ، ولم يوضح أيضا أسباب هـذا التحديد بينما يذكر البستانى لها تاريخا وهو ٤١٤ معتمدا على احداث حـدثت فى هـذا التاريخ (٤) وذكرت فى الرسالة ولا يقف احمد هيكل عنـد هـذا التـاريخ بل يتخطاه ليجعله عام ٤١٥ هـ (٥) دون أن يبين سببا لذلك

(١)
Brockelmann, C. History of the Islamic People.
Trans. Joel Carmichael and Moshe Perlman.
New York : 1960, p. 116.

(٢) بروكلمان . تاريخ الادب العربي . ترجمة رمضان عبد التواب ويعقوب بكر . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ . جـ ٥ ص ١٢٢ .

(٣) مبارك . المرجع السابق . جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٤) ابن شهيد . المقدمة . المرجع السابق . ص ٩١ ـ ٩٥ .

(٥) هيكل . المرجع السابق . ص ٤٢٣ .

ويحددها مونرو فيما بين عامي ١٠٢٥-١٠٢٦ م (١) ، أي مدة حكم الحموديين الاخيرة لقرطبة فيما بين ٤١٦ - ٤١٧ ، معتمدا في ذلك على أن ابن شهيد قد كشف عن نزوع نحو الحموديين (٢) .

واذا كان مونرو قد حدد تاريخ الرسالة لرؤيته لنزوع في الرسالة الى الحموديين فان ذلك لا يحددها بتاريخ ٤١٦ - ٤١٧ ، وهي أسوا فترات الحكم الحمودي في قرطبة وكان يمكن أن يكون في أي فترة أخرى من حكمهم لقرطبة السابق لهذا التاريخ .

يرى يعقوب زكي تحديدا آخر لها وهو في المدة ما بين عام ٤١٦ - ٤٢٠ هـ معتمدا في ذلك على ان ابن شهيد اقتبس أبياتا من مرثيته في ابي عبدة حسان ابن مالك المتوفى عام ٤١٦ هـ . ولم يبين لماذا امتد هذا التاريخ الى سنة ٤٢٠ هـ .

والحقيقة ان ابن شهيد لم يكتب هذه الرسالة ابان حكم الحموديين وانما كتبها في المدة ما بين خروج الحموديين من قرطبة ١٠ من ربيع الاول ومبايعة هشام لخمس بقين في ربيع الآخر سنة ٤١٨ وهي مدة دخول مجاهد وخيران العامريين (٣) ، ووصول الوزير ابي جعفر بن عباس الى قرطبة . لقد تم لقاء بين هذا الوزير وبين ابن شهيد أهين فيه بشكل يجعل الرسالة تصدر صدرا مباشرا عن هذا الموقف ، فهو يسمى الرسالة « شجرة الفكاهة » ، اذ أن الاحداث التي مرت به ومرت

---

(١) Monroe, J.T. Op. Cit., p. 16.

(٢) ذكي . المرجع السابق . ص ٢٣ .

(٣) ابن عذارى . المرجع السابق . جـ ٣ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

بقرطبة تجعل المجال مفتوحا للسخرية لما يحدث فى عالمه، فالمثير موجود والاستجابة هنا شجرة الفكاهة أو رسالة التوابع والزوابع . وكان ذلك اكبر اساءة يساء بها ابن شهيد أن يهان فى قدرته فهجاه ، ولكنى لا أظن أن هذا الموقف قد مر دون تأثير على نفسية ابن شهيد المعجبة الحساسة لكل ما يصدر عنها من ابداع . ومن هنا كان الوقت مهيأ ليرد ابن شهيد لا على أبى جعفر بن عباس فقط بل على كل نقاده واذا لم يكن ابن عباس من أهل الحسب ، وليس له تاريخ يمكن أن يفاخر به ابن شهيد أو أهل قرطبة فانه تصرف تصرفات أدت بابن بسام الى أن يتهمه بالجهل والغرور . فالمقارنة بين أسرة ابن شهيد وبين أسرة عباس تدعو ابن شهيد الى الغضب فابن عباس يحجب كبيرهم الشيخ ابا عمر ابن ابى عبدة من غير عذر وما عرف والده الا بخدمة ابن عمه (١) . ومن هنا ليس غريبا على ابن شهيد أن يضع جميع حساده أو من تصورهم حساده فى سلة واحدة يهاجمها من خلال توابع الجن الذين لم يقرنهم بشخصيات محددة ليترك للقارىء حرية التصور .

وقد نقل صورة هذا اللقاء بابن عباس فى حديثه مع الجنى فرعون فقد سأله أن يعطيه كلاما يرعى قلاع الفصاحة وأن يضعه على أى معنى والا ينزل عن مستوى كلام المتنبى . وهنا يأخذ ابن شهيد فى الفخر بنفسه وبأسرته .

---

(١) ابن بسام . المرجع السابق . القسم الاول . ج ٢ . ص ٦٦٥ – ٦٦٦ .

لقد استدعى ابن شهيد اللقاء هذا الوزير وكان قد حضره قسيم من شعره وهو يسأل اجازته ، ويذكر ابن شهيد أن الحناطى قال .. « وكان كثير الانحاء على ، جالبا فى المحافل ما يسوء الاولياء الى أن الوزير حضره قسيم من شعره . وهو يسألنا اجازته . فعلمت أنى المراد ، فاستنشدته فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق

فقلت لمن حضر ! لا تجهدوا أنفسكم فلستم المراد ، فأخذت القلم وكتبت بديهة :

مرض الجفون ولثغة فى المنطق
سببان جرا عشق من لم يعشق (١)

وقد علم ابن شهيد أنه لم يرض ما جاءوا به على البديهة يصور ذلك فى لقائه مع الجنى فرعون ابن الجون الذى لم ينل أحد من نقاده احتقاره مثلما ناله هذا الجنى وصاحبه فهو لم يصفه بالادب أو العلم وانما وصفه بانه تابعة رجل كبير منهم . وحين يفتخر عليه ابن شهيد بأسرته وابداعاتها الشعرية يظهره بصورة رجل من غير أبناء الاسر العريقة فى قرطبة فانه لم يجد ما يفاخر به ابن شهيد ، لذا فانه قل واضمحل حتى أن الخنفساء لتدوسه فلا يشغل رجليها هذا الرجل هو الوحيد الذى ذكر أنه يحدق فيه دون بقية الجن ويرميه بسهام نافذة (٢) وحين انتقل الى حيوان وطيور الجن القى بسخريته على الوزراء الذين رآهم لا يزيدون عن كونهم لبغلة أبى عيسى سيد أبى جعفر ابن عباس زهير الصقلبى

(١) ابن بسام . المرجع السابق . ص ٣٠٧ .
(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ص ١٨٨ ـ ٢٠١ .

فهما من اخوان بغلة أبى عيسى الذين رآهم ابن شهيد قد بلغوا الامارة وانتهوا الى الوزارة (١) لقد أتاحت له البغلة الفرصة للتعرض لاعدائه جميعا لكى يضعهم . لم يشر اليهم أنه يضعهم جميعا مع ابن عباس فى سلة واحدة ، فهو حين يرسم الاوزة المعجبة بنفسها بغير حق كان يرسم أبا جعفر وأمثاله ممن امتلأ بهم عالم الادب فى الاندلس فى ذلك الوقت فهم يقتنون الكتب دون أن يمنحوا عقل الطبيعة فهو لا يفيدهم بشىء ، فان رءوسهم محشــــوة هــواء ، ويصبح ادعاء منهم المناقشة فى الادب (٢) .

ان فترة وجود هذا الوزير واسياده فى قرطبة كانت ملائمة ليكتب فيها ابن شهيد هجائية من نوع جديد على الادب العربى .

(١) المصدر نفسه . ص ٢٠٥ .
(٢) ابن شهيد . المصدر السابق . ٢٠٩ .

الباب الثاني :

فى الشعر

الفصل الاول :

قصـــــيدة
الحكم بن عمرو البهرانى

يتناول هذا الفصل بالدراسة قصيدة الحكم بن عمرو البهرانى . وهى قصيدة كانت الاسطورة موضوعها كما كان الجن وعلاقتها بالخلق الفنى أحد العنـاصر المـكونة لبنائها .

لقد تحدث كثير من الشعراء عن اســـطورة الجن وعلاقتهم بالانسان . يتبدى فى بعضــــها ان هؤلاء الشعراء يؤمنون بما يقولون أو أنهم يعلمون ان جمهورهم يؤمن به ولقد روى الجـاحظ عن أبى نواس انه خرج يطلب اعرابيا فصيحا فسأله « هل القنفذ يحمل الجنى أم الجنى يحمل القنفـــذ . قال : هـــذا من تـكاذيب الاعراب » (١) وأنشده شعرا فى قنفذ ويربوع رآهمـا ليلة يلتمسان الرزق وقد ربط بينهما وبين الجن فسأله ان قال غير هذا الشعر فأنشده :

اراه سميعا للسرار كقنفـــذ
لقد ضاع سر الله يا أم معبد

(١) الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر . الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة : البابى الحلبى ، سنة ١٩٦٧ . ص ٢٤٠

ويرى هذا الاعرابى ان هذا الشعر أصدق شيء قاله لزوجته (١) . ولقد كانت قصـــيدة الحكم بن عمرو البهرانى أكمل قصيدة تحدثت عن الاعتقادات فى الجن وعلاقتهم بالانسان . عالج فيها أكثر من موضوع . لذا ألقت القصيدة الضوء على كثير من أســاطير الاعراب وايماناتهم بقوى ما وراء الطبيعة .

ولم يكن البهرانى يؤمن بشيء ممـــا يقول فالقصيدة تهدف لوظيفة محددة . لقـــد كان الحـــكم البهرانى يسجل اداناته فى عصره لمظالم الحكام . وقد اختار منهم فئة الماكسين فلم يهجم على طريقة الهجاء فى عصره من ذم اخلاقهم وتصرفاتهم وانما هجاهم بصـورة ارتبطت بالقوى الكونية فان لعنـــة الله عليهم مسختهم ضباعا وذئابا ، فان هذه الحيوانات فى حقيقة الامر لم تكن الا أولئك الماكسين الظالمين .

فى قصيدة من واحد وأربعين بيتا سجل سخطه على الظالمين وسخر منهم كما سخر من نفسه . والبهرانى شاعر مجهول « أتى بنى العنبر بالبادية على أن العنبر من بهراء فنفوه من البادية الى الحاضرة وكان يتفقه ويفتى فتيا الاعراب وكان مكفوفا عدمليا » (٢) . هـذا كل ما يعرف عنه . ويبدو أن الرجل كان ساخرا ساخطا الى حد كبير حتى أن بنى العنبر نفوه من البادية ولا أظن أن هذا النفى كان لسبب دينى .

ولقد استخدم فى قصيدته بداية منطقية تجعـــل

---

(١) المرجع نفسه . ٢٤٠ ـ ٢٤١ .
(٢) الجاحظ . المرجع السابق ص ٨٠ .

ما يقول يبدو كالحقيقة . فان الله قادر على صنع كل شيء لا مفر من ارادته .

ان ربي لما يشاء قدير
ما لشيء أراده من مفر (١)

ثم انتقل بعد ذلك ليرى قدرة الله فهو مسخ الماكسين ضبعا وذئبا وقامت بينهما علاقة جنسية كان من نتيجتها ان تناسلا على ما بينهما من خلاف فلا تجمعهما رابطة غير هذه الرابطة .

وتحدث بعد ذلك عن قدرة الله التي بعثت الذر والجراد ليهلك به أمما ظالمة ، وتبع ذلك ارساله الطاعون . ومن قدرة الله ايضا ان فارة خرقت سد العرم ليكون ذلك آية على عظمته وعبرة لمن يعتبر ولو أن اهل مأرب ارادوا أن يوقفوا ذلك بكل قوتهم ما استطاعوا . بعد ذلك عاد البهراني الى الماكسين ليقول ان الله سبحانه وتعالى مسخ الضب وسهيلا وكان عشارين أحدهما في الارض والآخر في السماء .

والبهراني لم يخترع أيا من هذه القصص فهو ينقل الاساطير المعروفة لدى العرب في العصر الجاهلي والتي عاشت بين الاعراب حتى العصر الاسلامي ، وان كان بعض هذه القصص اسلاميا . كقصة سد مأرب فهناك من يظن ان فارة هي التي هدته . وكذلك كان العرب يؤمنون بأن الله اهلك بالذر امما وقد سجل ذلك امية ابن أبي الصلت في شعره .

---

(١) المرجع نفسه .

أرسل الذر والجراد عليهم
وسنينا فأهلكتهم رمورا
ذكر الذر أنه يفعل الشر
وأن الجراد كان ثبورا (١)

كما كان الاعراب يقولون « ان الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابى خراج وأتاوة اذا كان ظالما ، وأنه مسخ ماكسين أحدهما ذئبا والآخر ضبعا » (٢) وأسطورة مسخ العشارين لم تتوقف عند هذا الحد بل هى متسعة تصل الى الكون لتربط الارض والسماء برباط فهم يعتقدون « أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين فمسخ الله احدهما فى الارض والآخر فى السماء (٣) . والبهرانى فى الحقيقة شاعر ملتزم ربط نفسه بفكرة العدل وتناول فى هذا الجانب الاسطورة الكونية المرتبطةبالعدالة ارتباطا وثيقا ، فالانسان فى ايماناته بالقوى العلوية لم يفصل الايمان بها على الايمان بواقعه الاجتماعى فاولئك الذين يقومون على جمع الضرائب هم ممثلون لسلطة دنيوية صارمة يحسنون استخدامها لمصلحتهم وكثيرا ما كانت اساءة هذه السلطة تتحول الى عنت على الاهالى. لقد عرفت الجزيرة العربية هؤلاء العشارين. وحين لا يكون هناك حاكم عادل يفرض سلطته ويعجزالانسان عن مواجهته فانه يتجه الى القوة الكونية العليا لتنصفه من ظالميه

(١) المرجع نفسه • ص ١٥٠ •
(٢) المرجع نفسه • ص ٤١٦ •
(٣) الجاحظ • المرجع نفسه • ص ١٥٥

فالمسخ لون من الوان العقاب الموجه الى الظالمين وهـذا اللون من العقاب الكونى ممتد فى الزمن . اذ الانسان يعتقد ان المسخوط حيوان يحس ويشعر فهو يعيش فى جلد الحيوان لا يستطيع منه فكاكا . ولقد ربط المسخ بموقف اسلامى آخر وهو اللعنة فى الحياة الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة .

واستخدم لذلك شخصية أبى رغال الذى وجهه النبى صالح على صدقات الاموال فخالف امره وأساء السيرة فقتل ، ولم يتوقف الامر عند قتله وانما تعداه الى ان أصبح الناس يرجمون قبره اذا اتوا مكة فأبو رغال تحول الى صورة ابليس . فالظلم موقف مرفوض من الانسان ومن هنا التزمت العقائد المرتبطة بالكون بالموقف الاخلاقى فالايمان وحده لا يكفى وانما يجب أن يتصل به الالتزام الاخلاقى ، فأبو رغال هنا هو المثل لهـؤلاء العشارين . فرجم قبر أبى رغال هو رجم لكل العشارين والماكسين الظالمين .

مسخ الضب فى الجـدالة قدما
وسهيل السماء عمـدا بصغر
والذى كان يكتنى برغـال
جعل الله قبـره شر قبـر
وكذا كل ذى سـفين وخرج
ومكوس وكان صـاحب عشر (١)

وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن نفسـه وعلاقته بالغولة . هذا الانتقال ليس عفويا وفيما يبدو اراد أن

---

(١) المرجع نفسه . ص ٨١

يخفف من حدة نقده للعشارين فهو لم يكن صاحب قوة يستطيع ان يواجههم بها . هذا الانتقال اتخذ شكل السخرية مع ارتباطه بالقوى الكونية العليا . ولكن هذا الارتباط مختلف تماما عن حديثه الاول ، ففى الجزء الاول كان يربط العدل بالقوى العليا ويجعل الظلم نتيجة عادلة يعاقب بها الله الظالمين . فالعلاقة متبادلة بين الله والانسان ، فالله يريد العدل وحين يريد الانسان الظلام فلابد من العقاب فى الارض والعقاب فى السماء ، فالضب مثل للعقاب فى الارض وسهيل مثل للعقاب فى السماء فضلا عن الجحيم الابدى للظالمين . لقد كان البهرانى يدين الظلم فى عصره كله ، اذ أن الظلم يقف مضادا للمقدس .

أما حديثه عن نفسه فهو يعود الى قوى كونية غير مقدسة ارتبطت بالدنيوى أو الدنس وهو عالم الجن . وليس جميع الجن يرتبطون بالدنس وان ارتبطوا بالدنيوى . فهم جميعا عالم مقابل لعالم الانسان مسئولون كالانسان . فيهم الخير والشرير . ولهم القدرة على كسر الحاجز بينهم وبين الانسان . وحين يكسر هذا الحاجز الجنى ويرتبط مع الانسان برباط جنسى فانه يصبح دنسا .

والبهرانى يستخدم الصورة التى كان يعتقدها الاعراب فى عصره ويرسم صورة لهذه الجنية فجعلها غولا . « وهى اسم لكل شىء من الجن يعرض للسفار ويتلون فى ضروب الصور والثياب ذكرا كان أو انثى الا أنه انثى على الاكثر » (١) .

يحكى البهرانى قصة تظهر وكأنما ترجمة ذاتية . بدأها

(١) المرجع نفسه . ص ١٥٨ .

بالحديث عن زواجه من غول ، وانه دفع لها صداقا غزالا وزقا من الخمر . وهى تتلون له كما يريدها فهى مرة ثيب ومرة بكر . وهى من عائلة من عائلات الجن المعروفين للانسان فهى ابنة عمرو شيطان المخبل السعدى والفرزدق وخالها مسحل تابع الاعشى .

وتزوجت فى الشبيبة غولا
كفزالا وصدقتى زق خمر
ثيب ان هويت ذلك منها
ومتى شئت لم أجد غير بكر
بنت عمرو خالها مسحل الخير
وخالى هميم صاحب عمرو (١)

والبهرانى ينقل صورة لمعتقدات معروفة ولا يستحدث شيئا وكل ما يصنعه انه يربط هذا الاعتقاد به مباشرة فالعلاقة الجنسية بين الانس والجن معروفة لدى العرب حتى ان بعض الروايات العربية تجعل من أم ملكة سبأ جنية (٢) . وهذا الاعتقاد لم يتوقف فى ريف مصر وصعيدها فما زالت هناك قصة تروى أن جدة العبابدة غول تركت زوجها ومضت . وهم يفسرون الحدة فى طباعهم ويردونها الى الغول . كما ان هناك أحاديث كثيرة عن غياب بعض الرجال وخطف الجن لهم أو علاقات زوجية بين رجال ما زالوا يعيشون وتسمى هذه العلاقة « معاشرة » ولعل أهم القصص التي سجلت عن العلاقات الجنسية بين العرب والجن مختصة بالغول هو ما قيل من أن عمرو بن يربوع « تزوج الغول وأولدها بنين ومكثت

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨١ .
(٢) ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢١ .

عنده دهرا فكانت تقول اذا لاح البرق من جهة بلادي وجهة كذا فاستره عني فان لم تستره عني تركت ولدك عليك وطرت الى بلاد قومي ، فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه » (١) . فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع فلم يستر وجهها فطارت وقالت وهى تطير :

امسك بنيـــك عمرو انى آبق
برق على أرض السعالى آلق (٢)

وقد ارتبط ذلك التاريخ الاسطورى بآل عمرو فدعوا بنى السعلاة حتى أنهم كانوا يهجون بذلك (٣) .

لقد تم الزواج بين البهراني والغـــول وكما تصور الانسان عالم الجن عالما مقابلا لعالمه له تقاليده المقاربة لتقاليد الانس وان اختلفت التفاصيل فلابد للزواج من مهر ، فكذلك الجن ارتبطوا بهذا التقليد فهم أيضا يدفعون مهرا . ومهر الغول يتفق وطبيعة الجن مركب من مراكبهم وهو الغزال والخمر المرتبطة بالدنيوى والدنس فى العقيدة الاسلامية يكون جزءا من مهرها . والجاحظ يذكر ان الخمر كانت مهرها « لطيب الرائحة » فربما كان الجن يستخدمون الخمر استخداما مختلفا عن اســـتخدام الانس . فما كان دنسا للانسان هو فى المقـــابل عطر للجن .

---

(١) الالوسى . محمود شكرى . بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب . تحقيق محمد بهجت الاثرى . القاهرة : مكتبة محمد الطيب ، سنة ١٣٤٣ هـ ج ٢ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الجاحظ . المرجع السابق . ص ١٦١ .

ولقد اعتقد ان الغول تتلون ، وقد قال كعب بن زهير:

فمـــا تدوم علي حال تكون بها
كما تلون في أثوابها الغـول (١)

« ويقال تغولت المرأة اذا تلونت » (٢) . وهناك أحاديث كثيرة عن الغول واعتقادات العرب فيها وهناك أحاديث تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم تذكر فيهـــا الغيلان (٣) والبهرانى لم يتحدث عن شكلها الجسمانى وانما تحدث عن شيء يمثل تشوقا ذاتيا ذكره بوعي منه، وهو قدرتها على تحقيق الاشـباع الجنسي ، فتتلون له الغول بالصورة التى ترضى رغباته الحسية فهى تتشكل حسب اشتهائه ثيبا ان أراد وعذراء ان رغب فهى طوع تشوقه الجنسى .

ولتكمل الصورة يجعل لها هذا النسب بأولئك الجن المبدعين . ادى ربطه لهذه الغول بعمرو ومسحل بالجاحظ الى أن يعرض لذلك المعتقـد عن شعراء الجن فيسجل أول صورة مجموعة متكاملة عن الاعتقاد فيهم كمصـدر لابداع الشعر العربى القديم .

دفع البهرانى الى ربطها بعمرو ومسحل القرابة التى تربطه بالفرزدق فهو يشير الى أنه خاله في قوله و « خالى هميم صاحب عمرو » فكما ارتبط الفرزدق بعمرو فهـو ايضا مرتبط بالفرزدق . وشكل هذا الانتساب يجعـل

---

(١) ابوزكريا يحيى بن على الخطيب . شرح قصيدة كعب بن زهير فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم . تحقيق ف . كرنكو . بيروت : دار الكتاب الجديد ، سنة ١٩٧١ . ص ١٦ .

(٢) الدميري . الشيخ كمال الدين . حياة الحيوان الكبرى . القاهرة : المطبعة الخيرية ، سنة ١٣٠٩ . ج ٢ ، ص ١٦٧ .

(٣) المرجع نفسه . ص ١٦٨ .

قرابته من الفرزدق مباشرة وان لم يكن سهلا أن تحقق هذه القرابة هل هي قرابة مباشرة ام انها قرابة تجمعه بالفرزدق عن طريق النسب ؟ والاجابة عن هذا السؤال صعبة فالرجل كما قلنا من قبل غير معروف التاريخ . وهو بالتأكيد يذكر ذلك على سبيل الفخر .

اخذ البهراني بعد ذلك يعدد ممتلكات زوجته الغول بأرض وبار المعروفة بأنها ارض الجن . وهي ارض لم يصل اليها انسان متعمدا أو غالطا « الا حثوا في وجهه التراب فان أبىَ خبلوه وربما قتلوه » (١) . يملك البهراني في هذه الارض التي عدت مثلا في الضلال الابل الحوشية التي اعتقد العرب انها التي ضربت فيها ابل الجن فكما يتصل عالم الجن بعالم الانسان فان حيوانهم يتصـــل بعالم الانسان أيضا .

أرض حـــــوش وجامل عكنان
وعــــــروج من المؤبل دثر (٢)

وصور هذه الغول امرأة من عالم الجن ، وميز نساء ذلك العالم بأنهن غر زهر نفيت عنهن صفات العفاريت من استراقهن للسمع . وهن يأكلن طعاما خاصا تتمشى الغول ذا البساطة وتفطر روث الحمار في الفجر . وانتهى الامر بقتلها واستخدم الشـــاعر الفعل المبني للمجهـول ضربت دون أن يذكر لنفسه دوراً في هذا القتل وان كان متبديا أنه صانع هذا . أما كيف قتلت فهو يذكر انهـــا :

ضربت فردة فصارت هبـــــاء
في محاق القمير آخر شهر (٣)

(١) الجاحظ . المرجع السابق . ص ٢١٥ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٨٦ .
(٣) المرجع نفسه . ص ١٣٣ .

واستخدم هنا المعتقد الشعبى فى عصره « بأن الغول اذا ضربت ضربة ماتت الا أن يعيد عليها الضارب قبل أن تقضى مرة أخرى وقد ذكر أبو البلاد الطهوى أنه انتحى للغول بحسامه فخرت صريعـــــة فطلبت منه أن يزيد فرفض :

فقالت زد ، فقلت رويدا انى

على أمثالها ثبت الجنــــان (١)

والى هنا يصبح التساؤل ضروريا لماذا تحدث عن هذه الغول ؟ وقص قصته معها ؟ وهل كان الرجل بلا هدف فيما قصه .

ليس من السهل تقبل ان يكتب فنان عملا بلا هدف . فالعمل الفنى وراءه موقف هو الدافع لكتابته وقد نوافق أو لا نوافق عليه . فان العقل البشرى يعمل بدينمكية خاصة . وانه من خلال موقف الفنان تحدد وظيفة العمل الفنى .

واذا كان البهرانى قد تحدث بشجاعة عن الماكسين وعمال الخراج فانه لا يمكن أن تكون قصته هذه صادرة عن فراغ

يذكر الجـــاحظ ان الاعراب تؤمن بكل ما جاء فى القصيدة (٢) . ولكن من الواضح أنه لا يؤمن بشىء مما قال فهو رجل على بعض المعرفة ويمكن أن يكون فى البادية التى عاش فيها مثلا للعـــالم المرتبط بحدود المكان اى لا يوضع بجوار علماء عصره وانما يوضع مع أصحاب

---

(١) المرجع نفسه . ص ٢٣٤ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٨٠ .

المعرفة فى بيئته ممن لهم موقف متقــــدم اذا قورن بمعاصريهم .

هذه ظاهرة عامة يمكن أن تنطبق على رجالات الريف المصرى كما يمكن أيضا أن تنطبق على سكان البادية . واذا كان الجاحظ يدينه بأنه يفتي فتيــا الاعراب فان ذلك لا ينفى عنه علمه بأوليات المعرفة لمن هم فى مكانه من حفظ القرآن ومعرفة الحديث . وبالتالى عدم ايمانه بكل ما قاله . فضلا عن ان المثقف العربى العادى كان يعرف ان الغول هو ثالث المستحيلات .

الغول والخل والعنقــاء ثالثة
اسماء أشياء لم توجد ولم تكن (١)

يضاف الى ذلك الجانب الشخصي الذى ذكره لو انه رواه عن شخص آخر لظن انه يصدقه ولكن بمــا انه يتحدث عن نفسه وعلاقته بالغول فهو يعلم أنه يخترع ولا يريد احدا أن يصدقه فى هذا الموضوع بشكل حرفى وانما ان يتقبلوا ما ذكر مرتبطا بواقعه الشخصي فلا شك انه يعرض واقعه ويسخر منه . فهــذه الغول مقــابلة لزوجته . وهذا الرسم للغول هو تصوير لزوجتــــه ولعاله . وما يؤكد ذلك انه عاد يتحدث عن أولادها فهى قد خلفت له تســـعة منهم مزاحم بكريه وعبدل الذى يصوره بشمال اليتامى :

تركت عبدلا ثمــــال اليتامى
وأخـــــوه مزاحم كان بكرى

---

(١) الدميرى . المرجع السابق . ص ١٧٠ .

وضعت تسمة وكانت نزورا
من نساء فى أهلها غير نزر (١)

وواضح ان حديثه عن اهل زوجته الغول انما كان يغمز به أهل زوجته فهو يرى أن أبناءه قد أخذوا صفاتها أو بمعنى آخر صفات أخوالهم ففيهم بعض طبائع الانس ولكن أصول اخوالهم تظهر بشكل واضح فيهم فالنجار صورة الجن ، وهو يريد ان يقول ان محاسنهم ترتد اليه أما مساوئهم فترتد الى أصول أمهم .

غلبتنى على النجابة عرسى
بعد أن طال فى النجابة ذكرى
وارى فيهم شمائل انس
غير ان النجار صورة عفر (٢)

انتقل بعد ذلك ليتحدث عن حياته مع الجن فهو يركب مراكبهم ويعيش حياتهم يجوب البلاد فوق ظبى يتحول بالليل الى جنى .

ويبدو أن البهرانى كان يعيش وحيدا منفردا لم يكن يشعر بالانس للناس . وليس ادل على ذلك من أنه نفى من البادية فأراد ان يقول أن عالمه هو عالم الجن فهو مغترب عن عالم الانسان لا مكان له بينهم فاذا كان عالم الانسان ضاق به ففى عالم الجن متسع له .

---

(١) الجاحظ . المرجع السابق . ص ٨٣ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٨ ـ ٨٣ .

وسجل ما آلت اليه حياته فبعد أن كان غنيا أصبح فقيرا .

ثم اصبحت بعــد خفض ولهــو
مدنفا مفردا محالف عسر (١)

ويحاول أن يحدد الشاعر أسباب تعاسته وذلك أنه واجه أعداء أقوياء اختار عداوتهم . فهو استخدم لفظة مقت من عداوة الديك اى انه يكره حرب الضعيف وانه يواجه الاقوياء المهابين بكل قوته .

اترانى مقت من ذبحى الديك وعاديت من أهاب بصقر (٢)

وينهى قصيدته نهاية طبيعية فهو بدأ بالهجوم على هؤلاء الاقوياء وانتهى مصورا حالته . وهذه الحالة تظهر نتيجة لما يصنعه ، فهو يقول :

وسمعت النقيق فى ظلمــة الليل
فجاوبته بسر وجهـــر (٣)

وواضح أنه يصور حركة أعدائه ضده بالنقيق ، ويصور قوته بعدم صمته عليهم فجاوبهم فى السر والعلانية فكانت مواجهته لا تهدأ ثم انتهى به الامر الى أن يلقى فى الجحيم جهارا فلقد كان اعداؤه أقوياء تحددوا بأصحاب السلطة وممالئيهم .

وانتهى الشاعر كما بدأ بالحديث عن قدرة الله الى

---

(١) المرجع نفسه . ص ٨٤ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .

الحديث عن طلب الرحمة منه فيظهر بمظهر من لا يطلب من أحد شيئا سوى الله الذى يعود اليه بالتوبة .

فلعل الاله يرحم ضـــعفى
وبرى كيرتى ويقبل عـذرى (١)

نجح البهرانى فى أن يقدم قصة حياته مرتبطة بواقعه الاجتماعى . ربط هذا الواقع بالقوة الكونية فكان جادا وســـاخرا فى حديثه من الماكسين وربطهم بالسخط الالهى .

وكان جادا وساخرا ايضا حين ربط حياته بعـالم الجن . كثف الصــورة تكثيفا دقيقا ، واستخدم علمه بالمعتقدات الشعبية التى كان بلا شك على علم كبير بها .

ولم ينل الشاعر وقصيدته اهتمـــاما من الناقدين باستثناء الجاحظ الذى لم ينظر اليها الا لتخدم هدفه وهو الحديث عن الحيوان وان أدته الى أن يتطرق لاحاديث أخرى عن الجن وعالمهم وعن علاقتهم بالانسان والشعراء. أما قيمة القصيدة الفنية من حيث علاقتها بعالم الشاعر وحياته فهذا لم يتعرض له أحد بالمرة بما فيهم الجاحظ الذى توقف عن الحديث عن القصيدة عنـد آخر بيت تحدث فيه البهرانى عن حيوان الجن . واغفل الجانب الذاتى فى آخر قصيدته مع أهميته فى كشف وظيفـة العمل الشعرى ، فالجـــاحظ لم يكن يحترم الرجل ولا عقيدته ..

دفع عدم الاهتمام بالقصيدة لان ينحصر الموضـوع بعيدا عن الادب الرسمى ويدخل دائرة الادب الشعبى ،

---

(١) المرجع نفسه .

فالحديث عن الخلق الفنى والشعر لم يتنـــاول تناولا فنيا ، وكذلك الحديث عن الجن . والجاحظ علق على قصيدة أبى البلاد الطهوى التى يتحدث فيها عن الغـول بأنه « كان من شياطين الاعراب وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويطيل الكذب ويجيزه » (١) . والجاحظ هنا يضم هذا اللون من الابداع بأنه كذب وأن صاحبه كذاب فهو لا يأخذ جانب الابداع الفنى كموضوع قابل للنقـــد والمناقشة ، بالرغم من أن قصيدة أبى البـلاد الطهوى منسوبة الى تأبط شرا اى انهـــا منسوبة الى العصر الجاهلى .

ولا اظن ان حكم الجاحظ حكم فردى وانمـا يمثل اتجاها عاما فى عصره . هذا الاتجاه قتل هذا اللون من الابداع فلم يظهر حتى اخريات القرن الرابع والربع الاول من الخامس فى الاعمال النثرية لبديع الزمان الهمذانى وابن شهيد وأبى العلاء المعرى . اما فى الشعر فلم يظهر عمل شعرى يستخدم موضوع الجن والخلق الشعرى حتى كتب شوقى مسرحيته مجنون ليلى .

(١) المرجع نفسه . ص ٢٣٥ .

الفصل الثانى :

مسرحية
مجنون ليلى لأحمد شوقى

منذ ان أدخل شوقي الى المسرح العربى أداة جديدة وهى الشعر فان دراسة هذا المسرح لم تتوقف ، وقد تعدت هذه الدراسات محاولة الوقوف عند دراسه النصوص المسرحية وعرضها او الاداء الشعرى وكيفية مطاوعته لفن المسرح الى الحديث عن علاقة مسرح شوقى بالتراث العربى . وتأثير المذاهب الغربية من كلاسيكية ورومانسية وواقعية على هذا المسرح .

وهذا الفصل لا يشغل بما يقال عن شوقى الا فى حدود مسرحية مجنون ليلى . وان كان ما قيل عنها يمثل فى الحقيقة صورة لما يكتب عن مسرح شوقى .

كان شوقى ضيف من اكثر الدارسين اقتصادا عند الحديث عن تأثر شوقى بالمذاهب المسرحية الغربية فهو يرى أن شوقى قد تأثر بالمذهب الكلاسيكى والرومانسى، فمن تأثره بالكلاسيكية اختيار شخصياته من النجوم التاريخية ، واعتداده بلغة بليغة ليس فيها شىء من العبارات اليومية المبتذلة . وليس ذلك كل ما جاءه من المدرسة الكلاسيكية ، فقد اخذ عنها اعتداده بعاطفة

الحب فى كل مآسيه ، فهى تتوهج فيهـــا وتشتعل اشتعالا واضحا ؛ ولعل ذلك ما دفعـه الى أن يخصها بروايته : « مجنون ليلى » (١) .

ويظهر تأثره الواضح بالكلاسيكية فى أن مآسيه تخلو غالبا من تمثيل الحوادث فلا تشاهد على المسرح وانمـا يعرف ذلك من كلام الممثلين (٢) .

ويرى شوقى ضيف أنه يستقل عن الكلاسيكية ويتصل بالرومانسية فى عدم تقيـده بوحـــدة الزمان والمكان والموضوع .

ولم تتوقف مجاراة أحمد شوقى الرومانسية عند هذا الحد فى رأى شوقى ضيف وانما جاراهم وجارى شكسبير أيضا فى ادخال عناصر فكاهية فى مآسية (٣) .

ويقارن محمود حامد شوكت بين شوقى وشكسبير فيرى أنه « لا تظهر فى شخصياته تلك الخاصية التى تجدها فى روميو وجولييت لشكسبير من حيث نوعية التشخيص والتحليل بحيث تنفذ الى ما وراء النوع من فرد خاص ، فتلمس فيه كائنا حيا كالكائنات التى تعيش بيننا وتحتفظ بانسانيتها فى كل عصر . وأين قيس من ذلك الشاب الخيالى الذى أحب فى أول حياته لمجرد الفكرة ، حتى استقرت عواطفه فجاة حول جولييت ، الفتاة الساذجة التى تهوى فجأة ، وتحب حبا بسيطا ساذجا عنيفا ـ ابن عدو بيتها ـ وأين تلك الصفة النوعية

---

(١) ضيف ، شوقى . شوقى شاعر العصر الحديث . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٩٦٣ . ص ١٧٦ .

(٢) المرجع نفسه . ص ١٧٧ .

(٣) المرجع نفسه .

التي تجدها في باريس من منازل ، لقد شغل شوقي عن هذا العمق في التحليل والتعقيد الفني بالانصراف الى الشعر ، غير مدرك لهذه الآفاق الواسعة البعيدة المدلول » (١) .

ويناقش محمد مندور شوقي مقارنا بين مسرحه وبين المسرح الكلاسيكي الفرنسي ومسرح شكسبير فيرى أنه « لم ينجح النجاح الكامل في استغلال عنصر الصراع الذي استغلته التراجيديا الكلاسيكية عند الفرنسيين فوصلت الى قمة الدراما والتأثير المسرحي » (٢) ، ويخص مندور كورني في هذه المقارنة فيرى أن شوقي لا يصور النفس البشرية ويتعمقها تعمق كورني (٣) .

ويقارن مندور بين شوقي في مسرحية مجنون ليلى وشكسبير في مسرحيته روميو وجولييت ، فينتهي الى أن « شوقي الشاعر الغنائي الموهوب كان لسوء الحظ لا يملك شيئا مما تميز به شكسبير من نفاذ البصيرة وتحليق الخيال ، كما أن حصيلته من الثقافة الانسانية العامة كانت ضحلة ، ولذلك لم يستطع أن يعيد خلق أسطورة روميو وجولييت ، بل نراه يتقيد في مسرحيته بالكثير من التفاصيل التافهة أو الخرافية التي يرويها صاحب الاغاني » (٤) .

ولقد سار غنيمي هلال أبعد من ذلك فهو يراه متأثرا

---

(١) شوكت ، محمود حامد شوكت . المسرحية في شعر شوقي . القاهرة : دار الفكر العربي ، سنة ١٩٤٧ . ص ٨٤ .

(٢) مندور ، محمد . مسرحيات شوقي . القاهرة : مطبعة مصر ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٤) المرجع السابق . ص ٤١ ، ٢ .

بالمذاهب الكلاسيكية والرومانسية والواقعية ، وأن أول مظهر من مظاهر تأثر شوقى بالكلاسيكية هو نظم المسرحيات ، والمظهر الثانى هو التزامه بقاعدة وحدة الزمان والمكان وان لم يراع الدقة فى تصوير البعد النفسى كما هو الحال عند الكلاسيكيين (١) .

أما مفهوم الصراع فى المسرحية الكلاسيكية وهو انتصار الواجب على العاطفة ، فانه كان ظاهريا ، اذ تظل العاطفة هى المتحكمة فى مصير البطلين . لقد وفت ليلى لعاطفتها وهذا الوفاء فى نظره كان من تأثير الرومانسية عليه (٢) .

أما الواقعية فيظهر تأثيرها فى المسرحية من حيث « أن الواقعيين كانوا يرون أن يلتزم المؤلف بحقائق التاريخ ووقائعه لا يحيد عنها ولا يتصرف فيها الا بترتيبها وعرضها الفنى ، بحيث تصور الماضى تصويرا يشف عن اتجاهاته الحقيقية التى يقصد الكاتب الى بعثها تبعا لما يرمى اليه من أهداف اجتماعية » (٣) ويعود غنيمى هلال بعد ذلك ليقرر أن حظ الواقعية فى انتاجه ضئيل وانه لم يتعمق هذا المذهب وأن تأثره به كان نتيجة اطلاع سطحى (٤) .

وسار وراء هذا الاتجاه كثير من الباحثين ، ممن تناولوا المسرحية ، مما أدى الى تشابه فى الاحكام عليها .

---

(١) هلال ، غنيمى . دور الادب المقارن . القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ . ٥٤ ، ٥٦ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٥٧ ، ٦٤ .

(٣) المرجع نفسه . ص ٥٠ .

(٤) المرجع نفسه . ص ٥٢ .

وانه لمن الخير اعادة قراءة المسرحية من خلال معرفة ثلاثة أشياء . الاول وهو رؤية المسرح المصرى حتى كتابة مسرحية مجنون ليلى . والثانى مصادر مسرحية مجنون ليلى . والثالث وهو الاطار الكونى فى مسرحية مجنـون ليلى . فقد يســاعد توضيح هـذه الجوانب على رؤية المسرحية بمنظار جديد .

— ١ —

ليس من السهل فصل ثقــافة شوقى المسرحية عن ثقافة عصره ، فلا شك ان ثقافة اى عصر تظهر من خلال أبنائه . لقد أطلع شوقى على المسرح الغربى ولكنه اطلاع لم ينفرد به عن أبناء جيله ، اذ انه كان مرتبطا بمفهوم العصر للمسرح . وليس من السهل أن يـكون لشــوقى مفهوم مخالف لمفهوم العصر ، فشوقى لم يبدأ كتــابته للمسرح من العدم ولكنه وجد تقاليد سابقة عليــــه وأضاف اليها تجديده ، وهو اســــتخدام الشعر اداة للمسرح .

ولقد ارتبطت حياة شوقى بتاريخ المسرح ارتباطا وثيقا اذ ولد المسرح مع مولده . اختلفت المصادر فى تحديد ميلاد شوقى ولكن هذا الخلاف لا يغير من هذه الحقيقة شيئا . فالسنوات التى حددت لمولده ارتبطت ارتباطا كبيرا باحداث هامة فى تاريخ ميلاد المسرح المصرى وهى

سنة ١٨٦٨ (١) وسنة ١٨٦٩ (٢) وسنة ١٨٧٠ (٣) .

ولقد انشيء فى عام ١٨٦٨ مسرح الازبكية اول بناء مسرحى فى مصر . وفى عام ١٨٦٩ :فتتحت دار الاوبرا لتستقبل اول فرقة مسرحية اجنبيـــــة لتمثل أوبرا ريجوليتو التى لحنها فردى .

ولم يكن غريبا أن يكون اول عمل عربى يقدم على دار الاوبرا المصريه عملا مسرحيا غنائيا . فهذا الشكل ملائم للفنون الادائية المصرية فى ذلك الوقت . فالعالم العربى لم يكن خاليا من الفنون الادائية التى تمثل بعض أشكال المسرح فى صورته الاولية .

كان خيال الظل يتمتع بشـــــعبية كبيرة بين جميع طبقات الشعب المصرى وكذلك فن الاراجوز بموضوعاته الكوميدية المحددة المعالم وقام بدور فى عملية النقـد الاجتماعى . وفن السيرة يلعب دورا هاما فى الحيـــاة الفنية الشعبية . فهـو يؤدى عن طريق الاداء التمثيلى والغنائى فمغنى السيرة كان ممثلا مغنيا .

وفن الغنـــاء فى ذلك الوقت فن متميز له جمهوره العريض وقد كان للعامة مغنوهم كمـــا كان للخاصة مغنوهم وان طفا على السطح اصوات مغنين صارت لهم شعبية بين جميع الطبقات .

لذا فان تمثيل اوبرا ريجوليتو يمثل ارضاء للذوق

---

(١) احمد شوقى . الشوقيات المجهولة . تحقيق محمد صبرى . بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩ . ج ١ ص ٥ ، مكى ، الطاهر احمد . الشعر العربى المعاصر . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ . ص ١١٣ ، الموسوعة العربية الميسرة . اشراف شفيق غربال . القاهرة : دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ . ص ١١٠١ .

(٢) ضيف . المرجع السابق . ص ٩ .

(٣) وادى ، طه . شعر شوقى الغنائى والمسرحى . القاهرة . دار المعارف ١٩٨١ ص ١٥٣ .

الغربي المتمثل فى ضيوف مصر الذين قدموا الى مصر للاحتفال بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ . كمـا أنه يمثل أيضا ارضاء لذوق المصريين الذين شاهدوا هـذا العرض ، وبالرغم من أنهم الصفوة الا أنهم من ابناء هذا التراث . وقد شجعوا الفرق الاجنبية التي وفدت الي مصر تباعا دون توقف في دار الاوبرا . وكانت الحكومة المصرية تنفق عليها ببذخ . كما كان الجمهور يقدم لها الكثير من المنح والهدايا .

وتعد هذه الفرق من أكبر الفرق الفرنسية والايطالية وشاهدت مصر أكبر ممثلى فرنسا يقدمون عروضهم وكان من بينهم ســـــارة برنار وكوكلان من أعمـدة التمثيل الفرنسي (١) .

ولما كان رجال البلاط الملكى من أهم رواد هذه الفرق فانه لا يشك فى أن احمد شوقى شاهد بعض هـذه العروض مع أسرته وتعرف على ما يقدمون قبل سفره الى اوربا سنة ١٨٨٩ .

أما عام ١٨٧٠ فقد شهد أهم حدث فى تاريخ المسرح المصرى . فقد كون يعقوب صنوع أول فرقة مسرحية ارتبطت ارتباطا كبيرا بالفنـــون الادائية والقصصية الساخرة . فكان مسرحا كوميديا .

لم يستمر مسرح صنوع طويلا وأصبح ميدان المسرح

---

(١)
Al-Haggagi, A. Sh. The Origins of Arabic Theater. Cairo : General Egyptian Book Organization, 1981, p.p. 83 - 96.

خاليا الا من الفرق الاجنبية حتى ١٨٧٦ حين وفدت فرقة سليم النقاش الى مصر . وقدوم هذه الفرقة لم يكن بلا تمهيد سابق فقد كان الجمهور المصرى بعد توقف فرقة يعقوب مهيأ لتقبل هذه الفرقة . ومع ان المصريين تلقوها بالترحاب اذ كتبت عنها صحيفة الاهرام (١) ونوهت بأعمالها الا ان سليم النقاش تركها واشتغل بالصحافة . وتولى الفرقة من بعده سنة ١٨٧٧ يوسف خياط . وانشق عنه القرداحي ليكون فرقة مسرحية سنة ١٨٨٢ (٢) وهذا الانشقاق لا يمثل نكسة للفرقة وانما معناه ان دائرته اتسعت حتى ليمكن ان يتقبل فرقة جديدة ويؤكد ذلك قدوم فرقة القبانى لتكون الفرقة الثالثة التى تعمل على مسارح القاهرة سنة ١٨٨٤ (٣) التى صادفت نجاحا كبيرا . وكان شوقى فى ذلك الوقت فى اخريات دراسته فى المرحلة الثانوية . ولم يكن شوقى شخصا عاديا بل كان فنانا شاعرا ظهرت قدراته الشعرية مبكرة . وما كان لشاب فنان فى مقتبل العمر أن يغفل عن هذا التيار الفنى الذى يتحرك من حوله . وكان قادرا وهو ابن الارستقراطية على متابعة هذا النشاط المسرحى من الفرق المسرحية الاجنبية الوافدة والفرق المسرحية العربية .

ولقد قدمت الفرق المسرحية فى ذلك الوقت مجموعة

(١) الاهرام . العدد ٢٤ فى ١٣-١-١٩٧٧ .

(٢) الاهرام . العدد ١٣٤٢ فى ١٠-٣-١٨٨٢ ..

(٣) الاهرام . العدد ١٩٧٤ فى ٢٣-٦-١٨٨٤ .

من المسرحيات المقتبسة والمؤلفة ، التى لم تخرج فيهـا عن الاطار العـام للحكاية الشـعبية ، فصـناع المسرح المصرى كانوا يترجمون ويؤلفون بنفس الطريقة فهم يصنعون عملا بالشكل القصصى المعروف والمستقبل بالنسبة للمصريين .

ولا يمكن دراسة هذا الشكل تحت أى شكل مذهبى سواء أكان الكلاسـيكية أم الرومانسية فاذا ظهر فى مسرحية غلبة الواجب على العاطفة فليس هذا من تأثير الكلاسيكية . واذا تغلبت العاطفة على الواجب فى مسرحية فليس هذا أيضا من تأثير الرومانسية . فهذه مؤثرات من الحكاية الشعبية التى اختلطت فيها المواقف فقد تتغلب العاطفة وقد يتغلب الواجب ، المهم هو النهاية وكيفية تحرك الاحداث التى تحددها الحكاية الشعبية .

ولقـد قام المسرح المصرى فى ذلك الوقت بعملية مسرحة للحكاية الشعبية ولاحداث التـاريخ ، فقـدمت مسرحيات عن قصص « أنس الجليس » و « نفح الربى » و « عفة المحبين أو ولادة » و « عنتر » و «الامير محمود» و « زهر الرياض » و « الشـيخ وضاح ومصباح » و « قوت الارواح » و « المروءة والوفاء » و « المعتمد بن عباد » و «اللقاء المأنوس فى حرب البسوس» و «السموءل» أو « وفاء العرب » و « مهلهل سيد ربيعة » و « الرشيد والبرامكة » .

ولم يكن فى هذه المسرحيات اضافات تزيد عما فى النصوص الشعبية . وكان هناك شكل محدد فى عملية كتابة المسرحية يمثله خير تمثيل ابو خليل القبانى (١) فهو

---

(١) أبوخليل القبانى ، أحمد . المسرح العربى دراسات ونصوص . اختيار وتقديم محمد يوسف نجم . بيروت : دار الثقافة ، (د.ت) .

في المسرحيات التي قدمها كان يأخذ الحكاية الشعبية فيقسمها حسب تغير الامكنة الى فصول ولا يغير من الموقف القصصي غير الجمل التي تصف موقفا ويستخدم نفس الحوار في الحكاية ليكون حوارا للمسرحية . والاضافة التي يضيفها على الحكاية هي الغناء فكما كان الشعر والنثر يختلطان في الحكاية الشعبية فكذلك كانت المسرحية يختلط في حوارها النثر والشعر . وكان القباني يلحن هذا الشعر ويغنيه .

عاش شوقي تجربة المسرح معيشة كاملة وحين سافر الى أوربا لم يذهب ليدرسه وانما ليدرس القانون ولم يتوفر توفرا كاملا على دراسته وانما كان يتعامل معه تعامل الهواة .

وما كان له أن يتخلص من رؤيته للمسرح بالصورة التى عرفها في مصر ، فاذا ما شاهد شوقي المسرح الكلاسيكي او الرومانسي الفرنسيين ، أو مسرح شكسبير فانهلا يراه بعيدا عن صورة المسرح في مصر المرتبط بالحكاية الشعبية والقصص التاريخي . ولقد كتب أولى مسرحياته على بك الكبير ابان بعثته فى فرنسا (١٨٨٩ ــ ١٨٣٩) وأرسلها الى الخديو توفيق الذى لم يرحب باتجاه شاعره للكتابة المسرحية .

وكتابة شوقي مسرحية عن على بك الكبير هو ثمرة تأثيرات المسرح المصرى عليه فقد كان يتحرك فى دائرته ودائرة الادب الشعبي ورواية التاريخ . وربطها محمد صبرى في تعليقه عليها بمسرحيات نجيب الحداد التى مثلها سلامة حجازى (١) ، ومع أن سلامة حجازى لم يكن

(١) أحمد شوقي ، المرجع السابق ، ص ٦٣ .

قد احترف التمثيل فى ذلك الوقت الا ان ربط المسرحية بمسرحيات نجيب الحداد أمر طبيعى ويؤكد ان شوقى وهو فى أوربا كان مرتبطا بواقع المسرح المصرى اكثر من ارتباطه بواقع المسرح الاوربى .

ومنذ عودة شوقى حتى كتابته لمسرحية مجنون ليلى تطور المسرح المصرى تطورا كبيرا .

لقد كان اتجاه القبانى مؤثرا وفعالا فى المسرح المصرى قبيل سفر شوقى وبعد سفره انشق اسكندر فرح عنه سنة ١٨٩٠ مكونا فرقة تعد فى غاية الاهمية فى تاريخ المسرح المصرى . حافظت على اتجاه القبانى وجعلت له الصدارة فى عالم المسرح . وساعد على بقاء هذا الاتجاه سلامة حجازى الذى عمل مغنيا فى الفرقة ثم ممثلا بعد عودة شوقى من أوربا حتى كون لنفسه فرقة خاصة به سنة ١٩٠٥ (١) .

وسار سلامة حجازى فى طريق القبانى مقـــدما المسرحية الشعبية والتاريخية ومســتخدما الغناء كجزء اساسى فى عروض فرقته المسرحية .

وحاولت فرقة سلامة حجازى وفرقة اسكندر فرح أن تقدما المسرحية العصرية ولكن غلب اتجاه الميلودرام على هذه المسرحيات . وكان هذا الاتجـــاه أقرب الى السيرة الشعبية بمغامراتها المتزاحمة . فالمسرح حتى هذه المرحلة لم يقبل الا ما هو متوافق مع المزاج الثقافى للانسان المصرى وطريقته فى القص .

---

(١) الاهرام . العدد ٨٢٠٤ فى ٢ـ٣ـ١٩٠٥ .

وولدت في هذه الفترة فرق مسرحية كانت تذهب الى الاقاليم لتعرض التمثيليات المستمدة من التاريخ والادب الشعبي كما كانت تقدم مسرحيات كوميديه متطورة عن فن الاراجوز وطبيعي أن تختلف مقومات المسرح في فن الاراجوز فقد استبدلت الشخوص بالعرائس واستخدم العرض الامكانات التي أتاحها المسرح الحديث له .

في هذه الفترة لم يكن المسرح يتطور ذاتيا وانما كان هناك كتاب حاولوا ان يقدموا النظريات الغربية لهذا الفن .ساهمت كتاباتهم في خلق مناخ صحي حوله وعملت على ابرازه للجمهور كفن راق كما ساهمت في خلق حركة ترجمة لنصوص مسرحية أقرب الى الاصل اختيرت لقربها من الروح المصرية .

لم تكن هذه الترجمة تمثل اتجاها فنيا واحدا وانما قدمت الكلاسيكية جنبا الى جنب مع المسرحية الرومانسية فقدمت مسرحية السيد لكورني ومسرحيتي أفيجيني وأندروماك لراسين كما قدمت مسرحيات شكسبير هاملت وعطيل وروميو وجولييت ومسرحية هرناني لفكتور هيجو ، وهي مسرحيات قريبة الى روح القص الشعبي . لذا تقبلها الجمهور دون أن ينظر الى المذاهب التي صدرت عنها .

ولقد حاول عزيز عيد وسليمان القرداحي ان يطورا أعمال الفرق الكوميدية الجوالة بانشاء فرقة مسرحية كوميدية تقدم ترجمات للمسرحيات الكوميدية الفرنسية الرفيعة ولكن هذه المحاولة لم تستمر واقفل المسرح . في هذا العام بدأ شوقي يكتب مسرحية شعرية من نوع

(١) المقطم . العدد ٥٦٩ . ٧ من سبتمبر ١٩٠٧ .

الكوميديا الاخلاقية ولكنه لم يتمهـا فى ذلك الوقت ، وربما يرجع توقفه عن اتمامها الى فشل هذا المسرح اذ لم يكن ذلك مشجعا له على الانتهاء منها .

ولقد أخر ظهـور أول مسرحية اجتماعية مصرية زمنا ولم يتم لهـا أن تظهر الا حين انشأ جورج أبيض فرقته المسرحية لتمثل باللغة العربية سنة ١٩١٢ (١) .

تعد فرقة جـورج أبيض بداية جـديدة للمسرح الحديث ، فهو أول عربى درس المسرح دراسة علمية . اهتمت به الدولة اهتماما كبيرا ، فبعث من قبل الحكومة المصرية ليدرس المسرح فى فرنسـا (٢) . وحين عاد فتحت له دار الاوبرا ليقدم عروضه التمثيلية على مسرحها فقدم ثلاث مسرحيات من عيون المسرح العـالمى . هى اوديب ولويس الحادى عشر وعطيل . وهى مسرحيات لا تمثل مذهبا واحدا من المذاهب المسرحية .

والحقيقة أن هنـاك وحدة تربط هذه المسرحيات بالنسبة لجمهور المسرح المصرى هى أنها مسرحيات ذات أبطال يقاربون أبطال الحكايات والسير الشعبية وكان ذلك مصدر أعجابهم بها .

ولقد أدرك احد النقاد من معاصرى هذه الفترة هذه العلاقة فتحدث عن اعجاب الجمهور بمسرحية الاحدب وأرجعه الى المشـابهة بينها وبين القصص العربية الشـعبية التى « اطـربت وما تزال تطرب الشعب المصرى (٣) .

كان موسم مسرح ابيض فى سنة ١٩١٢ موسـما

(١) الرقيب . العدد ٢٠ فى ٢ من أبريل سنة ١٩١٢ .
(٢) الاهرام . العدد ٧٩٧٣ . ١١ من يونيو سنة ١٩٠٤ .
(٣) المقطم . العدد . فى ٥-١٠-١٩١٢ .

مشهودا فقد احتفلت به معظم الصحف المصرية ورأى فيه القوميون المصريون ميلاد نهضة فنية حاولوا ان يشجعوها ويسجلوا لها دورها . واقترن حدث هام بظهور هذه الفرقة وهو اشتراك عبد الرحمن رشدى المحامى أحد أبناء الارستقراطية المصرية فيها وكان ذلك كسر للفواصل التى تفصل بين الفن وبين الطبقات العليا للمجتمع وايذانا بأنه لم يعد فنا للتسلية وانما للمشاركة فى الحياة . وقد تبع ذلك حدث من أهم الاحداث الفنية بعد عام من افتتاح مسرح جورج أبيض فى ١٥ ابريل سنة ١٩١٣ اذ قدمت الفرقة أول مسرحية اجتماعية مؤلفة وهى مسرحية مصر الجديدة ومصر القديمة . ومع ان هذه المسرحية تمثل قفزة في عالم التأليف فهى لم تخرج عن اطار الحكاية الشعبية المصرية .

هذه الاحداث التى تواترت على المسرح المصرى لم تكن بعيدة عن رجل مثل شوقى أو عن اهتماماته .

وحين نفى شوقى ابان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٥ كان جورج أبيض يتهاوى ولم يستطع أن يقاوم مسرح سلامة حجازى وأولاد عكاشة فكونوا فرقة واحدة. كان ذلك تعبيرا عن عودة تيار المسرح المرتبط بالغناء والحكاية الشعبية . قدمت الفرقة الجديدة المسرحيات المترجمة والمقتبسة منذ بداية ظهور المسرح المصرى . وانتهى الامر بأن انحل الوفاق بين جورج وسلامة حجازى ، فانفصلا سنة ١٩١٦ ، ثم توفى حجازى بعد ذلك سنة ١٩١٧ .

ولا شك أن شوقى عرف الرجلين معرفة تامة وعبر عن تقديره لحجازى فى احدى قصائده فى احتفال بيوم

ذكراه فى سنة ١٩٣١ ووصفه فى قصيدته بما يوضح معرفته بعبقريته :

عبقريا كأنه زنبق الخـــــلد

على فرعه السرى الاسيل (١)

عمل ابيض بعد ذلك منفردا الا أن فرقته لم تكن تمثل بانتظام ولم يصبح لها المكانة الكبيرة التى استحقتها فى بداية ظهورها .

وكان تيار المسرح ابان الحرب العالمية يسير فى اتجاه مختلف عن البدايات التى حملها سلامة حجازى ، اذ ساد تيار المسرح الخليج يقدم مسرحيات الفـــــودفيل الفرنسية ممصرة وقد حاول اصـــحابها ان يستهووا الجمهور بتقديم موضوعات تخاطب الغرائز الجنسية مما حول المسرح الى مكان اقــرب الى المواخير التى كانت سائدة فى شارع عماد الدين .

وقد انجذب لهذا التيار رجال من خيرة رجال المسرح مثل عزيز عيد ونجيب الريحانى وامين صدقى وعلى الكسار . حتى أن نجيب الريحانى وعلى الكسار ومعهما عزيز صدقى قاما بتمثيل استكشات تمثيلية فى مقاهي عماد الدين اشتهر فيها نجيب الريحـــــانى بشخصية كشكش بيه وعلى الكسار بشخصية البربرى . ولقــد اخذت هذه الاسكتشات فى مقـــاهي عماد الدين دور الشاعر الشعبى والاراجوز فى مقاهى الاحياء الشعبية .

وقف امام هذا التيار القوميون والمثاليون المصريون . حاولوا أن يقاوموه فانشأوا جمعية انصار التمثيل التى كان من بين أعضائها محمد تيمور وعبد الرحمن رشدى .

---

(١) احمد شوقى . الشوقيات . القاهرة : دار مصر للطباعة ، (د.ت) . ج ٣ ، ص ١٣٨ .

حاول أعضاء هذه الجمعية أن يقاوموا المسرح الخليع بتشجيع المسارح الجادة وقاموا بدور عملى . فأنشأ عبد الرحمن رشدى سنة ١٩١٧ فرقة مسرحية وكتب محمد تيمور ثلاث مسرحيات « العصفور فى القفص » و « عبد الستار أفندى » و « الهاوية » تمثل الاتجاه الذى تبنوه وهو مذهب الحقيقة ترجمة لكلمة

وهو شكل من اشكال الواقعية النقدية فى صورتها الاولية . وقد كان ظهور هذا المذهب محاولة لتطوير المسرحيات الكوميدية السائدة كما حاول أصحاب هذا الاتجاه أن يطوروا المسرح والفناء المسرحى فاتجهوا الى الاوبريت فاقتبس محمد تيمور أوبريت العشرة الطيبة الذى قدمته فرقة الريحانى . كما قدمت فرقة منيرة المهدية مسرحية عايدة التى ترجمها فرح أنطون .

عاد شوقى من منفاه سنة ١٩١٩ ليجد الثورة المصرية وقد شملت جوانب شتى من حياة مصر ومنها المسرح . وعاصر جزءا من الدور الذى لعبه محمد تيمور فى المسرح المصرى حتى أنه اهتز لوفاته سنة ١٩٢١ اهتزازا عميقا ورثاه فى أحدى قصائده :

ضربوا القبـاب على اليباب
وثووا الى يوم الحساب (١)

ولم تمض سنتان على وفاة تيمور حتى ظهرسنة١٩٢٣ مسرح رمسيس . ويعد هذا المسرح خطوة متقدمة فى تاريخ المسرح المصرى .

---

(١) أحمد شوقى . المرجع السابق . ص ٣٦ .

عاد هذا المسرح الى مفهوم الفن للفن وان قدم بعض المسرحيات الاجتماعية الهادفة . ولكن هذا المسرح لم يخرج تماما عن مفهوم المسرح كما عرفه المصريون . فاتجه الى المسرحية الاجتماعية والتاريخية واستخدم عناصر الميلودراما التى امتلأت بها السير والحكايات الشعبية .

وانفصل عن مسرح رمسيس سنة ١٩٢٦ عزيز عيد وزوجته فاطمة رشدى ليكونا مسرحا خاصا بهما . فى هذا التاريخ كان المسرح يعيش نهضة كبرى ، فانه مع وجود فرقة رمسيس وفرقة فاطمة رشدى كانت فرقة الريحانى تطور فن الكوميديا نحو المسرحية الاخلاقية وتلتزم بها دون الخروج على الروح المصرية الساخرة . وكان على الكسار يمزج فى مسرحه بين الكوميديا والغناء وبين القصص الشعبى فى مسرحيات استمدها من التراث الشعبى . كما كانت تتربع على قمة المسرح الغنائى منيرة المهدية .

فى هذا المناخ كتب شوقى مسرحياته الشعرية التى لم يخرج فيها عن الاطار المعروف .

عرف شوقى الكلاسيكية وعرف شكسبير حتى أنه كتب عنه احدى قصائده تكريما لذكراه .

أعلى الممالك ما كرسيه الماء
وما دعامته بالحق شماء (١)

ولكن هذه المعرفة لا تزيد عن معرفة المصريين به ، أى أنها معرفة عامة ، فقد احتفى المصريون

---

(١) أحمد شوقى . المرجع السابق . ج ٢ ، ص ٦ .

بشكسبير وقدمت بعض الدراسات عنه منذ سنة ١٩٠٢ (١) .

وعرف شوقي فيكتور هيجو وكتب عنه قصيدة احتفالا بذكراه .

ما حل فيهم عيدك المأثور
الا وأنت أجل يا فكتور (٢)

ولكن هذه المعرفة لا تمثل شيئا هاما فى أعمال شوقي المسرحية ، فهو لم ينظر خارج أرضه حين كتب مسرحه ولكنه نظر الى عالمه الذى تمثله جيدا فكتب مسرحه بالامكانيات التى أتاحها له عصره وأتاحتها له ثقافته . وهو لم يكن كلاسيكيا حين كتب مسرحه شعرا فقد كتب بعض المسرحيات نثرا . وكان الشعر هو مصدر قوته . ولم يكن فى شعره المسرحي يختلف عنه فى شعره الغنائي غير أنه استخدم أداته الشعرية استخداما جديدا ولا شك ان كبار كتاب المسرح العالميين كانوا فى ذهنه ولكنه لم يتمثل أعمالهم وان تمنى أن تكون مكانته فى لغته مماثلة لمكانتهم فى لغتهم . فالتمثل كان فى النموذج الاجتماعى لا فى النموذج الفنى ، فكتابة شوقي المسرح الشعرى هو عملية انتقال بالاداة من نوع الى نوع دون تغير فى الاداة نفسها .

كتب شوقي سبع مسرحيات شعرية منها ثلاث مسرحيات ذات أصول تاريخية ، وهى « كليوباترا » و « قمبيز » و « على بك الكبير » واثنتان ذات أصول شعبية وهما « مجنون ليلى » و « عنترة » ومسرحيتان

---

(١) الجامعة . جـ ٦ . السنة الثالثة ، يناير ١٩٠٢ .
(٢) أحمد شوقي . المرجع السابق . ص ٧١ .

هزليتان وهما « الست هدى » و « البخيلة » التى لم تطبع كامله حتى الآن .

لم ينقل شوقى قصصه من مصدر واحد من كتب التاريخ أو الادب الشعبى وانما قام بعملية انتخـــاب للقصة أى أنه اتخذ موقفا من رواية الاحداث واختـار من بينها ما يجعل القصة مترابطة ثم يمسرحها وقـد يضيف موقفا أو أكثر من بين التراث المحيط بعـــالم القصة وهذا ما حدث لمعظم مسرحياته باستثناء مسرحية الست هدى والبخيلة التى استمدها من واقعه الاجتماعى غير أنه صنع فيها نفس الشىء الذى صنعه فى مسرحياته المستمدة من التـاريخ والادب الشعبى . وهـو مسرحة القصة . وكان ما يقدمه معروفا ومتقبلا لدى معاصريه . لذا فانه يجب النظر الى مسرحه من مفهوم الحـكاية الشعبية وليس من الاصول الفنية للمسرح الغربى ، فلم يكن شوقى محتذيا للأصول الكلاسيكية عنـدما أبعـد الاحداث الفاجعة عن خشبة المسرح كما حدث فى لقـاء قيس بمنازل واخذ زياد له خارج المسرح كى يؤدبه تاركا قيسا بمفرده فهو بهـذا قد أفسح الطريق لدخـول شخصية جـديدة على المسرح . أما التزامه أو عدم التزامه لوحدة الزمان والمكان والحدث فهذا لم يفرضه عليه مذهب معين من مذاهب المسرح بقدر ما فرضته الحكاية نفسها .

وهـذا ينطبق على كثير من كتـاب المسرح فى ذلك الوقت ويفسر الكثير من القضايا المتعلقة بدراسة المسرح الحديث ، فهو الى مسرح الحكاية أقرب منه أن يكون مسرحا يسير على الاصول الغربية لفن المسرح .

وانه ليمكن القول بأن المسرح لم يتخلص من الحكاية ولا يستثنى من ذلك عمل مسرحى مصرى واحد بمـا فى ذلك مسرح توفيق الحكيم .

وعند دراسة مسرحية « مجنون ليلى » لا يمكن رد أصولهـــا الى أى من المذاهب الادبية من كلاسيكية أو رومانسية أو واقعية . فمادة المسرحية جاهزة سجلها أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الاغانى . كما أن القصة الشعبية المتبقية عن هذا الحب مدونة فى كتاب .

ـ ب ـ

استخدم شوقى قصـة باقية معـــروفة فى الادب العربى ، شائعة بين العـــامة والخاصة . وبالرغم من قدمها ما زالت جزءا من التراث العربى ، وما زال اسم قيس وليلى يعيشان رمزا للحب العـذرى الصـادق ، فالقصة تخطت حدود الزمن لتعيش فى كل عصور الادب العربى .

غذت القصـــة المتصوفة ، فرأوا فيها رمزا للحب السامى . واستخدموا معـانيها فى حديثهم عن الحب الالهى . وتغنوا بليلى وعدها البعض رمزا للذات الالهية وعدها آخرون رمزا لـ « لا اله الا الله » ، فلم يكن غريبا أن يتناولها شوقى فالقصة مملوءة بايحاءاتها الشعرية .

ولقد اشتركت روايات الاصـــبهانى عن قيس (١) والقصة الشعبية المطبوعة تحت عنوان قصة قيس بن

(١) أبو الفرج الاصبهانى ، على بن الحسين . كتاب الاغانى . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، سنة ١٩٦٣ . جـ ٢ . ص ١ ـ ٩٦ .

الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى (١) ومسرحية شوقى مجنون ليلى (٢) فى اطار لم تخرج عنه .

فتى يعشق فتاة

هذا الفتى شاعر

يجنى الشعر على الشاعر بعد اذاعته قصة الحب .

ترفض القبيلة زواج ابنتها منه .

تتزوج الفتاة من شخص آخر .

يجن الحبيب ويتوحش بعيدا عن الناس .

يتسبب الحب فى موت العاشقين .

وقصة الاصبهانى فى الاغانى موزعة بغير ترابط زمنى . اعتمد فيها على مجموعة من الرواة وعدد من الروايات وقد أخذت الرواية الشعبية شكلا تاريخيا اذ تعددت فى بعض أحداث القصة الروايات غير أنها التزمت بخط قصصى واضح . ألف شوقى من بين هذه العملين أهم أحداث قصته وأضاف اليه اضافة هامة مستمدة من روايات أخرى لا علاقة لها بقصة قيس وهى شخصية الجن ودوره فى المسرحية اما عذرية ليلى فقد ردها غنيمى هلال الى الادب الفارسى فهو يرى أن « هذه الفكرة ليس لها أصل فى المراجع المعول عليها فى اللغة العربية » (٣) . والحقيقة أن القصص الشعبى المصرى الذى يروى عن ليلى يؤكد عذريتها والمتصوفة من العامة فى مصر

---

(١) قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى . القاهرة : المكتبة المصرية ، (د.ت) .

(٢) أحمد شوقى . مسرحية مجنون ليلى . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى . (د.ت) .

(٣) هلال . المرجع السابق . ص ٦٦ .

يعتقدون فى عذريتها وهذا ما ربط اسمها بالشعر الصوفى فهى السر الذى لم يفض .

***

تحرك شوقى فى مسرحيته من دائرة الروايات التى جمعها الاصبهانى وانتقى منها خطا يتحرك من خلاله فى بناء قصته .

ذكر الاصـــــبهانى فى أكثر من موضوع فى روايات القصة مجالس السمر بين فتيان وفتيات قبيلة بنى عامر وذلك فى معرض حديثه عن بداية التعارف بين قيس وليلى (١) .

استخدم شوقى هذه الصـورة فى بداية المسرحية لا ليقدم بها لعملية التعارف بين العاشقين وانما ليكشف عن الازمة التى تواجه هذا الحب .

رسم المنظر الاول فى الفصـــــل الاول من المسرحية « ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر مجلس من مجالس السمر فى هذه الساحة ــ فتية وفتيات من الحى يسمرون فى أوائل الليل ، وفى أيدى الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون » (٢) . وظهرت فتيات باسم « سلمى » و « هنـــــد » و « عبلة » . لم يذكر أسماءهن صاحب الاغانى . واسم صاحبتها التى ذكرت فى كتابه « كريمة » مر قيس ومعهـا نسوة فدعونه للنزول والحديث فنزل وظل يحادثهن وينشدهن وهن أعجب شىء فيما يرى » (٣) .

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ١٢ ــ ١٤ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) المسرحية . ص ٧ .
(٣) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٢٩ .

ظهرت ليلى عند ارتفاع الستار ويدها فى يد قيس بن ذريح . وجه هذا الموقف التهم الى شوقى بأنه متأثر فى هذا بالغرب .

والحقيقة أن شوقى انساق مع الجو الذى صوره صاحب الاغانى لهذه المجالس . ولم يكن وجود قيس بن ذريح من اختراع شوقى وانما كان أخذا بما ذكره صاحب الاغانى .

ادت قصة ابن ذريح ولقاؤه بليلى الى تعرف الازمة التى بنيت عليها أحداث المسرحية .

يلتقى قيس بن ذريح فى رواية الاغانى بقيس بن الملوح وهو جالس وحده فى نادى قومه لا يكلم أحدا فسلم عليه قيس بن ذريح فلم يرد عليه السلام مع أن كلا منهما كان يشتاق الى لقاء الآخر فلم يكن من ابن ذريح الا ان عرفه بنفسه فوثب اليه قيس بن الملوح « فمانقه وقال له : مرحبا بك يا أخى ، أنا والله مذهوب بى مشترك اللب ، فلا تلمنى ، فتحدثا ساعة وتشاكيا ، وبكيا ، ثم قال له المجنون : يا أخى ان حى ليلى منا قريب ، فهل لك ان تمضى اليها فتبلغها عنى السلام ، فقال له : افعل . فمضى قيس بن ذريح حتى أتى ليلى فسلم وانتسب ، فقالت له حياك الله لك حاجة ؟ قال : نعم ، ابن عمك ارسلنى اليك بالسلام فأطرقت ثم قالت : ما كنت أهلا للتحية لو علمت أنك رسوله ، قل له : عنى أرأيت قولك :

أبت ليلة بالغيــل يا أم مالك
لكم غير حب صادق ليس يكذب

ألا انمــــــــــا أبقيت يا أم مالك
صدى أينما تذهب به الريح يذهب (١)

لون شوقى هذا الموقف فلم يقصره على هذه الرواية فقد قدمت ليلى فى المسرحية قيس بن ذريح الى فتية وفتيات من الحى فرحبوا به .

ويظهر من هذا الترحيب الموقف السياسى فى هــذا العصر . فابن ذريح هو رضيع الحسين والـدولة التى تحكم نجد هى الدولة الاموية فيتكشف موقف الامويين الذين يحكمون بالحديد والنار .

« ابن ذريح :

ان حديث النـــــاس فى يثرب
همس وخطو الناس فيهــا احتراس

بينما كانت ليلى تقف مع الامويين .

« ليلى :

ابن ذريح لا تجر واقتصـــــــــد
أحلام مروان جبــــــال رواس

يؤسسون الملك فى بيتهـــــم
والعنف والشدة عند الأساس (٢)

ثم يتحادثون عن الحضر والبادية ويظهر ضيق الفتيات من البادية ومن عيشتها الجافية . استخدم هذا شوقى ليبرز شخصية ليلى القانعة بالبادية ، العاشقة لها ، فهى تدافع عنها دون ان تنال من الحضر . ويكشف هذا الدفاع عن الجانب العــاطفى فى شخصيتها والحوار

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٩٤ .
(٢) احمد شوقى . المرجع السابق . ص ٩ .

تمهيدا للأحداث ، فليلى منذ البداية مهيأة لان تـكون شهيدة للعشق .

« ليلى :

ويقتلنا العشق والحـــاضرات
يقمن من العشـــق فى عافية
ولم نصطدم بهموم الحيـــاة
ولم ندر لولا الهـوى ماهية (١)

ويبرز بعد ذلك الحديث مباشرة حب ليلى بقيس فهى تخدر ثم تذكر اسمه ليخف عنهـا الخدر ، فهى تظهر عاشقة منذ بداية الفصل . وشوقى يجعل لقصة الحب أبعادا قديمة في حياة العـاشقين . فقد بدأت منذ طفولتهما لم يذكر ذلك شوقى الا فى نهاية المسرحية فى مناجاة قيس لجبل التوباد .

« وعلى سفحك عشـنا زمنا
ورعينا غنم الاهل معـــا
هذه الربـوة كانت ملعبـا
لشـــبابنا وكانت مرتعا (٢)

وشوقى يعتمد فى ذلك على رؤية أبى عمرو الشيبانى وأبى عبيدة كما يرويها الاصبهانى وتذكر أن المجنون كان يهوى ليلى وتكنى أم مالك وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه ، قال ويدل على ذلك قـوله :

---

(١) المرجع نفسه . ص ١١ .
(٢) شوقى . المصدر السابق . ص ١٢٠ .

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابـــــــة
ولم يبد للأتراب من ثديهـــا حجم

صـــغيرين نرعى البهم يا ليت اننـــا
الى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم (١)

والرواية الشعبية تذكر ان البعض يزعم أنهما شبا صغيرين يرعيان الغنم فتحابا وذكر نفس الابيات السابقة بتغير فى الشـــــــطر الاول « تعشقت ليلى وهى غر صغيرة » (٢) .

أراد شوقى أن يصور فى الفصل الاول قوة الحب عند قيس مستخدما احدى روايات الاغانى فقد « قيـــــل للمجنون اى شىء رأيت أحب اليك قال : ليلى ، قيل : دع ليلى فقد عرفنا مالها عندك ولكن سواها ، قال : والله ما أعجبنى شىء قط فذكرت ليلى الا سقط من عينى واذهب ذكرها بشاشته عندى ، غير أنى رأيت ظبيا مرة فتأملته وذكرت ليلى فجعل يزداد فى عينى حسنا ، ثم انه عارضه ذئب . وهرب منه فتبعه حتى خفيا عنى ، فوجدت الذئب قد صرعه وأكل بعضه ، فرميته بسهم فما أخطأت مقتله وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه ثم جمعته الى بقية شلو ودفنته وأحرقت الذئب » (٣) .

وسع شوقى مساحة هذه القصة بما يتلاءم ووضعها فى منظر مسرحى وجعل القصة حديث الســـمار وكان « بشر » أحدهم قد أخذ يتحدث عن مهارته فى الصيد فذكر هذه القصة مستخدما أبياتا لقيس :

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ١١ .
(٢) قصة قيس بن الملوح . ص ٤ .
(٣) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٧٣ ، ٧٤ .

رأيت غزالا يرتعى وســـط روضة
فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهـــرا
فيا ظبى كل رغدا هنيئـا ولا تخف
فانك لى جار ولا ترهب الدهـــرا
وعندى لـكم حصن حصين وصارم
حسام اذا اعملتـــه أحسن الهبرا
فمـــا راعنى الا وذئب قد انتحى
فأعلق فى احشائه الناب والظفـرا
ففوقت سهمى فى كتوم غمزتهـــا
فخالط سهمى مهجة الذئب والنحرا

ولم يغير شوقى فى هذه الابيات سوى الشطر الاول من البيت الثانى « فيا ظبى كل رغدا هنيئا ولا تخف » بـ « فقلت له يا ظبى لا تخش حادثا » .

حول شوقى هذا الموقف الى لحظة ساخرة اذ ادرك الجميع أن بشرا يسرق شعر قيس ثم أخذت ليلى تقص قصة الظبى والذئب مع قيس مظهره عاطفـة الحب ثم تقطع حديث الذئب فى لوعة وصـــوتها مخفوض يبرز عاطفتها تجاهه .

بروحى قيس هـــل راحت
ظباء القـــاع تهـــواه
وهـــل يرثى لـــه الريـــم
ولا ارثى لبـــــلواه (١)

اندفع الفتية بعد هذا يكملون حديث الذئب ، ودفن قيس للظبى فى شكل ساخر وهنا يتدخل قيس بن ذريح

(١) المسرحية . ص ١٦ .

ليحدث ليلى بالرسالة التى يحملها من قيس . وينقد شوقي لانه جعل ابن ذريح يخطب ليلى من نفسها (١) . ولم يكن شوقي مخترعا لهذا الموقف ، وانما كان ينقله كما روى (٢) ، فليلى تغضب من عرض ابن ذريح فى المسرحية كما غضبت فى قصة الاغانى ، وتتهم قيسا بأنه مستهتر فى هواه لم يصنها مشيرة بذلك الى حديثه عن ليلة الفيل « قد تفنى بليلة الفيل ماذا كان بالفيل بين قيس وبينى ؟ » . وهنا يبرز ما نسميه التناقض فى موقف ليلى ، فهى تحبه وفى الوقت نفسه تغضب لان ابن ذريح يقدم ليخطبها لقيس .

كان شوقي محاصرا بالاطار العام للقصة . وهو من القوة بحيث يحد شوقي الذى التزم به . وان حاول أن يفسر هذا التناقض ليكون موقفا طبيعيا من الفتـــاة . فأضاف الى شخصية ليلى العاشقة المرتبطـــة بالبيد صراعا بين حبها لقيس وبين تقاليد القبيلة ، فانها مع معرفة دور شعر قيس فى حياتها تراه قد عرض بعرضها ، فموقفها هنا هو موقف القبيلة التى رأت انه نال من سمعة ابنتهم فهى تعيش الصراع بين الحب وبين تقاليد القبيلة ، بين حرصها على حبيبها وبين حرصهـــا على عرضها .

أنا بين اثنتين كلتاهما النـــــار
فـــلا تلحنى ولـــــكن أعنى
بين حرصى على قداســـة عرضى
واحتفـــاظى بمن أحب وضنى (٣)

---

(١) المسرحية . ص ١٧ .
(٢) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٣٧ .
(٣) المسرحية . ص ١٨ .

وتدخل ليلى الخباء فينفض السامر فهى كما أرادها شوقى مركز حركة الفتية والفتيات ومحط انتباههم فلا سامر دون ليلى . وبينما الجميع يتحركون للرحيل يظهر قيس ويلتقى بمنازل ويحدث خصام بين منازل وبين قيس من ناحية ومنازل وزياد الذى يغضب لاكاذيب منازل فيطلب من قيس أن يكل له تأديبه فيجره خارج المسرح حيث يسمع أصواتهما من بعيد . ولم يكن هذا المنظر من أختراع شوقى أيضا ففى احدى روايات الاغانى ان قيسا لما مر باحدى نساء بنى عقيل وأخذ فى محادثتهن عقر لهن ناقته ثم أقبل منازل فأقبلت النسوة عليه بوجوههن فغضب قيس فقال له منازل « هلم نتصارع أو نتناضل ، فقال له : ان شئت ذلك فقم الى حيث لا تراهن ولا يرينك ، ثم ما شئت فافعل » (١) .

قدم شوقى قيسا بالصورة المعروفة عنه فاقدا قواه البدنية كلية ولم يشأ أن يجعله يقوم بدور المصارع فأبدله بزياد . وما ان خرج زياد ومنازل عن ساحة المسرح حتى أقبل قيس على خباء ليلى يناديها فيظهر والدها الذى يسله عن أسباب وقوفه ويزعم قيس أنه يريد حطبا فقد خلت دارهم منه فينادى الاب ابنته ليلى لتعين قيسا . بنى شوقى هذا المنظر على احدى روايات صاحب الاغانى عن أحد أبناء عشيرة قيس « قال : قلت لقيس بن الملوح قبل أن يخالط : ما أعجب شىء أصابك فى وجدك ليلى ؟ قال طرقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أدم فبعثنى أبى الى منزل أبى ليلى وقال لى : أطلب لنا منه أدما ، فأتيته فوقفت على خبائه فصحت به ، فقال :

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٣٠ .

ما تشاء ؟ فقلت : طرقنا ضيفان ولا أدم عندنا لهم فأرسلني أبى نطلب منك أدما فقال : يا ليلى أخرجي اليه ذلك النحي فاملئى له اناءه من السمن ، فأخرجته ومعى قعب ، فجعلت تصب السمن فيه وتتحدث ، فألهانا الحديث وهى تصب السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعا ، وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا من السمن قال : فأتيتهم ليلة ثانية أطلب نارا وأنا متلفع ببرد لى فأخرجت لى نارا فى عطبة فأعطيتها ووقفنا نتحدث ، فلما احترقت العطبة خرقت من بردى خرقة وجعلت النار فيها فكلما احترقت خرقت أخرى وأذكيت بها النار حتى لم يبق على من البرد الا ما وارى عورتى وما أعقل ما أصنع » (١) .

لقد حول شوقى هذه الرواية الى منظر مسرحي وقام بعملية انتخاب ليجعلها تلائم المسرح ، فألغى حادثة السمن وأبقى حادثة النار ولم يضعها على المسرح جافة وانما استخدم خياله ليوضح كلمة « ووقفنا نتحدث » ليجعل الحوار يدور بين قيس وليلى بوحا بالحب فليلى التى أظهرت الغضب من تحدث قيس بن ذريح اليها عن زواجها من قيس ، نسيت ذلك كله وامتدت بنفسها اليه تعاتبه لا على ذكره ليلة الغيل وانما على وصفه للظباء غيرة منها وبينما هم فى الحديث تصل النار الى كم قيس وهو لا يأبه للنار وبينما ليلى تصرخ وتتألم لما أصابه يرد عليها بما يكشف عن العاطفة القوية التى يكنها لها .

انت أججت فى الحشى
لاعج الشوق فاستعر

---

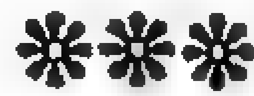
(١) الاصبهانى . المرجع نفسه . ص ٣١ ، ٣٢ .

ثم تخشين جمـــــرة
تأكل الجـــلد والشـــعر (١)

ويترنح قيس بعدها وتظهر عليه بوادر الاغمـــاء ثم يخر صريعا الى الارض فتتلقـاه على صـدرها صارخة وتنادى أباها وحين يفيق قيس من اغماءه يكون والدها قد حدد موقفه منه فيطلب منه أن يترك الدار .

امض قيس امض جئت تطلب نارا
أم ترى جئت تشعل البيت نارا (٢)

وينتهي الفصـل بهـذا البيت وقد أصبح واضحا أن الطريق الى أهل ليلى مغلق أمامه الى الأبد .



وفى الفصل الثاني يحدد شوقى مكان الاحداث طريقا من طرق القوافل بين نجد ويثرب على مقربة من حى بنى عامر حيث تبدو مضاربهم على مدى البصر على سفح جبل توباد وقيس وزياد جلوس يستشرقان شبحا يسير نحوهما .

ولم يكن هذا الشبح سوى بلهاء جاريته التى أرسلتها أمه بطعام لقيس . فقد بدا قيس فاقدا لعقله معروفا بين شخصيات المسرحية بالمجنون . هذا الجنون الذى أفاض فى الحديث عنه الاصبهانى والقصة الشعبية . وقد نقل شوقى هذا المنظر مما روى عن أن امرأة كانت تصنع له طعاما فجاءته فوجدت الطعـــام على حاله (٣)

---

(١) المسرحية . ص ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٣٣ .
(٣) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٩٠ .

والرواية توحى أن قيسا توقف عن الطعام قبيل وفاته . الا أنها هنا تقدم له طعـــاما صنعته والدته له فرفض الطعام ثم تتركه بلهاء مع زياد وتسير الى الحى بينما تظهر طائفتان من الاطفال طائفة تهجو قيسا وأخـــرى تمدحه ولقد أبرز شوقى هؤلاء الصبية ليكونوا تعبيرا عن موقف المجتمع من قيس كما أنها كانت المدخـل الذى استخدم فيه شوقى ابن عوف أمير الصدقات ليقوم بدور فى المسرحية فلقد سأل ابن عوف كاتبه نصيب عن هذه الضجة التى سمعها وعن الفتى وهنا يلتقى به زياد يخبره أن هذا الفتى هو امام العاشقين ، وهنا يلون شوقى الموقف بمنظر آخر وهو الركب الحسينى يسير الى المدينة بينما قيس فى اغماءة لم يشغل الركب له بالا ولم يوقظ له فكرا .

تابع شوقى الموقف ليخرج منه الى الحديث عن حج قيس فلقد ذكر « أن أبا المجنون حج به ليدعو الله عز وجل فى الموقف أن يعافيه » (١) وقد ذكر أن أباه قال له : « تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : « اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا » (٢) . ولم يجعل شوقى هذا المنظر حركة فى المسرحية وانماذكرهروايةعلى لسان زياد وقد تعجب ابن عوف الا يحـــرك الموكب الحسينى ساكنا لقيس فكان رد زياد أن هناك ما هــو أعظم من الركب الحسينى لم يحـــرك لقيس ساكنا ، فشوقى لم يقدم المنظر الذى عاشه قيس وانما أبرزه عن طريق الحكاية .

« ابن عوف ...

---

(١) الاصبهانى . ص ٥١ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٢٢ .

(الى زياد مشيراً الى قيس)

زياد أنظر فمـــــا أنفك
صريع الوجد والذكـــرى
كمـــا مر بنا الركب الـــ
حسينى بـــه مـــرا
فلم يشـــغل له بالا
ولم يوقظ له فـــكرا
زيـــاد : رويدا سيدى مهـــلا
ولا تستغرب الامـــرا
لقد ســـقناه بالامس
فحج الكعبة الغـــرا
فلمـــا لمس الركـــن
ومست يده الســـترا
وقلنـــا الآن من ليلى
ومن فتنتهـــا يبـــرا
سمعناه ينادى الله من ساحته الكبرى
ابن عوف : وماذا قال :
زيـاد : ما تاب من العشق ولا استبرا
ولكن قال يـــارب
ملكت الخيـــر والشرا
فهـــات الضر ان كان
هوى ليلى هـــو الضرا
وان كـــان هو الســـحر
فلا تبطـــل لهـــا سحرا

ويا رب هب السلوى
لغيرى وهب الصبرا (١)

ثم قام ابن عوف فى المسرحية بالدور الذى قام به فيما روى عن قيس . فلقد روى الاغانى قصة رجلين قاما بدور فى قصة حب قيس وليلى ولكنهما ردا وهما عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، ونوفل بن مساحق . اختار شوقى أن يتحدث عن دور عمر بن عبد الرحمن بن عوف فهو لم يكن محتاجا ان يكرر الحدث مرة ثانية بقصة نوفل بن مساحق واعتمد فى ذلك على ما رواه الاغانى عن الهيثم فقد قال « ولى مروان بن الحكم عمر بن عبد الرحمن بن عوف صدقات بنى كعب وقشير وجعدة والحريش وحبيب وعبد الله ، فنظر الى المجنون قبل أن يستحكم جنونه فكلمه وانشده فأعجب به فسأله أن يخرج معه ، فأجابه الى ذلك فلما أراد الرواح جاءه قومه فأخبروه خبره وخبر ليلى وان أهلها استعدوا السلطان عليه فأهدر دمه ان أتاهم ، فأضرب عما وعده وأمره بقلائص فلما علم بذلك وأتى بالقلائص ردها عليه وانصرف » (٢) ولم يلتزم شوقى بحرفية هذه الرواية فابن عوف فى المسرحية يعرف عن قيس الكثير كما يعجب بشعره ويرويه . ويستخدم شوقى هذا اللقاء ليعرف الجمهور بأن الخليفة قد أهدر دمه كما ذكرت الروايات فى حديثه الى ابن عوف يعاتب فيه الخليفة لموقفه منه .

(١) المسرحية ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .
(٢) الاصبهانى ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

قيس :

قل للخليفة يابن عـوف فى غـــد
من ذا أباح له دم العشـــــــاق
هدرت حكومته دمى فتحــرشت
بدم على سيف الجفون مراق (١)

لم ينته الموقف عند اعتراض قيس وانما امتد ليوضح انه لا يابه لموقف الخليفة واباحته دمه فقد سأله ابن عوف ان كان يرضاه عند الخليفة شافعا فيرفض قيس فى أنفه فهناك من هو اعظم من الخليفة ومن يهتم لهـا أكثر من اهتمامه بالخليفة فيسأله ان يشفع له عند ليلى . لم يترك شوقى موقفا يدعم احساس الجمهور بحب قيس لليلى الا ذكره ، فليلى أميرة قيس ، ومهدرة دمه .

ليلى اذا هى أقبـــلت حقنت دمى
كرما وفـكت يا أمير وثاقى (٢)

وكان ذلك مدخلا للفصل الثالث فشوقى يتابع قصة قيس بتسلسل الاحداث . وتكون وظيفة ابن عوف فى المسرحية هو وضع خاتمة للأمل الذى كان يمكن أن يلوح بزواج قيس من ليلى .

***

ذهب ابن عوف فوجد القبيلة منقسمة على نفســـها بعضهم لا يرى عيبا فى حب قيس لليلى وبعضهم يراه قد انتهك الحرمات ويبرز منازل غريم قيس يؤلب عليه القبيلة كلها غير ان الذى حدد نهاية الامل لم يكن والد ليلى أو أهلها أو غريمه زياد وانما كانت ليلى . وقد مهد

(١) المسرحية . ص ٤٧ .
(٢) المصدر نفسه .

شوقي لهذا الموقف بحديث بين رجلين من قبيلة عامر يتحدثان عن منازل فيذكر احدهما انه سيخيب وان ليلي ستتزوج رجلا غريبا من نواحي ثقيف وانها تبحث عن مهرب لها وارض ثقيف هي المهرب .

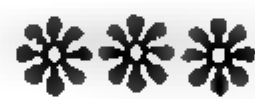
وان رضيت ورد بعـلا لها
وقيس الاحب لهـا والاقرب
فيا طالما التمست مهـربا
وارض ثقيف هي المهرب (١)

ولكن لماذا تهرب ليلي الى ارض ثقيف ؟ جعل شوقي هذا الخيار لها وجعلها تختار وردا على قيس كما تكهن هذا الرجل لقد قبل والد ليلي بعد جهد وساطة ابن‌عوف وجعل الكلمة النهائية لابنته فاختارت وردا . كان يبدو هذا الاختيار غير ملائم لفتاة تحب فتاها . ولكن شوقي منذ بداية المسرحية هيأ لهذا الاختيار . فليلي ترفض وسـاطة قيس بن ذريح من زواجها بقيس فهي قد رسمت فتاة قوية الشخصية مرتبطة بالتقاليد تصـون القديم ، وقد عبر عن ذلك احد أبناء قبيلتها . وان لم يكن ذلك وحده مقنعا .

أراها وان لم تخط الشـباب
عجـوزا على الرأى لا تغلب
تصون القديم وترعى الرميم
وتعطى التقـاليد ما توجب
وبالجاهلية أعجابهـا
اذا قل بالسـلف المعجب
ومن سنة البيـد نفض الاكف
من العاشقين اذا شببوا (٢)

(١) المصدر نفسه . ص ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٦٦ ، ٦٧ .

فليلى بشخصيتها اذن مهيأة لرفض قيس ، وشوقى يضعها محركة للحدث فى المسرحية مخالفا ما رواه صاحب الاغانى فقد خيرت ليلى بين ورد وقيس كما حدث فى المسرحية الا ان أهلها « دخلوا اليها فقالوا : والله لئن لم تختارى وردا لنمثلن بك » (١) فاختارت وردا وتزوجته على كره منها . اختلفت القصة الشعبية كثيرا عن هذا فى تحديد أسباب زواجها من ورد ، فقد جعلت القصة الشعبية قوة أعلى من قوة القبيلة تدفعها الى الزواج . تدخل عبد الملك بن مروان نفسه فى أمر زواجها اذ أرسل الى أبيها أمره بتزويجها (٢) فهى لم تصنع الحدث وانما كانت متلقية له .



ولقد كان اختيار ليلى لورد نهاية للفصل الثالث تصعد به الاحداث الى ذروتها ولم يبق بعد ذلك لقيس وليلى سوى الالم . فانها ما ان اختارت حتى أعلنت الندم . ولكن بعد فوات الاوان فقد ذهب ابن عوف وبقيت وحدها تعيش صراعا مؤلما تحدد كلماتها خطوط الاحداث المقبلة .

مالى غضبت فضاع أمرى من يدى
والامر يخرج من يد الغضبان
قالوا انظرى ما تحكمين فليتنى
أبصرت رشدى أو ملكت عنانى
ما زلت أهذى بالوساوس ساعة
حتى قتلت اثنين بالهذيان (٣)

---

(١) الاصبهانى ، المرجع السابق ، ص ١٤ .
(٢) قصة قيس بن الملوح ، ص ٤٨ .
(٣) المسرحية ، ص ٨٧ .

والقصة بعد ذلك تسير نحو النهاية التى حددتها ليلى

قسم شوقى الفصل الرابع الى منظرين أحدهما فى قرية الجن والآخر فى حى بنى ثقيف .

وفى المنظر الاول يظهر الجن وقد اجتمعوا للحفاوة بقيس وهو يهيم فى الفلوات آخذا طريقه الى بيت ليلى .لقد استبد الحب به فتوحش وهام على وجهه فى البيد . وليس توحش قيس جديدا فى المسرحية ، فان هناك روايات كثيرة عن توحش قيس وجنونه وهيامه على وجهه فى الصحراء (١) .

ويدل الجنى الاموى قيسا الى ديار ليلى وهناك يظهر زوج ليلى الذى يترك قيسا ليلتقى بزوجته منفردا . وشخصية ورد هنا أكثر وضوحا منها فى روايات الاغانى فهو شخصية انسانية ، يكن احتراما كبيرا للعاشقين . ودخل قطبا ثالثا فى الصراع الدائر فى قصة الحب فاذا كان المجتمع قد حرم قيس وليلى من الزواج فان الحب حرم وردا من زوجته ومن التمتع بها فهو طرف فى المأساة بينما تجعل روايات الاغانى والقصة الشعبية (٢) الصراع بينه وبين قيس صراعا مباشرا تكون التقاليد جزءا منه . ذكرت الروايات أن ليلى حين حجبت عن المجنون « خطبها جماعة فلم يرضهم أهلها وخطبها رجل من ثقيف موسر فزوجوه وأخفوا ذلك عن المجنون » (٣) . وقيل ان ليلى رضيت به مكرهة (٤) . كما روى أنها

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ١٥ ، ١٦ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ٨٤ .
(٢) الاصبهانى . المرجع نفسه . ص ٤٧ ، وقصة قيس بن الملوح . ص ٤٨ – ٥٠ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٤٧ .
(٤) المرجع نفسة . ص ١٤ .

رضيته (١) . وألمح قيس فى شـــعره أنها أكرهت على الزواج .

ألا تلك ليلى العـامرية أصبحت
تقطع الا من ثقيف حبالهـــا
هم حبسوها محبس البدن وابتغى
بها المال أقوام ألا قل مالهـــا (٢)

وكان لقاء قيس بزوجها فى المسرحية مختلفا عنه فى روايتى الاغانى والقصة الشعبية . تذكر رواية الاغانى انه مر بزوجها وهو يصطلى فى يوم شات وقد أتى ابن عم له فى حى المجنون لحاجة ، فوقف عليـه ثم أنشأ يقول :

بربك هل ضممت اليك ليلى
قبيل الصــبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قـرون ليلى
رفيف الاقحـوانة فى نداها

قال اللهم اذا حلفتنى فنعم (٣) . أما فى القصةالشعبية فان زوج ليلى اشتاق الى رؤيته وحين وجـده ذكر له الابيات مع تغيير فى لفظ القسم فقد استبدل «بعيشك» بدلا من « بربك » بينما تغاير رواية البيت الثانى :

وهل دارت رحاك بمنكبيهـــا
وهل مالت عليك ذؤابتاها (٤)

(١) المرجع نفسه . ص ٥٦ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٤٧ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٤٧ .
(٤) قصة قيس بن الملوح . ص ٤٨ ، ٤٩ .

ولا تذكر قصة الاغاني علاقة ما بين قيس وزوجها غير انها تذكر رد فعل اجابة الزوج عليه فقد قبض المجنون بكلتا يديه على قبضة من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشيا عليه ويسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفتيه فقطعها ، فقام زوج ليلى مغموما بفعله متعجبا منه فمضى (١) .

وتختلف القصة الشعبية اذ ان اللقاء فيها تم بينهما عن طريق حب الاستطلاع فقد اشتاق الزوج لرؤية قيس فأخذ يترقب الفرص لملاقاته حتى قام برحلة قنص في الصحراء وهناك التقى به .

استخدم شوقى هذا الحدث مع تغيير في المواقف اذ أن قيسا هو الذى يقوم بالرحلة الى أرض ثقيف قاصدا ليلى . وحين وصل قيس الى خيامها التقى به . استخدم شوقي شعر قيس كما يرويه الاصبهاني :

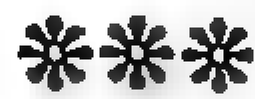
« بربك هل ضممت اليك ليلى .. » (٢) فيجيب ورد اجابة مختلفة عن اجابة الاغانى والقصة الشعبية فلا يتوقف عند نعم وانما يضيف اليها بعد فترة سكون « نعم ولا ياقيس » وحين يصر قيس على جواب محدد يكون جواب ورد كاشفا عن جوانب انسانية تبرز واضحة فى شخصيته .

هبها نعم يا قيس هل
مع الحلال من تهم
المرء لا يسأل ! هل
قبل أهله ؟ وكم ؟

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٢٥ .
(٢) قصة قيس بن الملوح . ص ٤٨ - ٥٠ .

اجل لقـــد قبلتهـــا
من رأسها الى القـــدم (١)

ويستمر الحوار بينهما وفيه يطمئن ورد قيسا الى انه يلتقى بصديق لا عدو حتى تخرج ليلى من الخباء فيناديها ورد لتلتقى بقيس وينتهى هذا اللقاء بأن يخرج قيس غاضبا من ليلى حين ترفض أن تترك زوجهـا وتتبعه وينتهى الفصل بما يمهد للجمهور أن نهـاية ليلى قـد قربت .



يبدأ الفصل الخامس على مقابر جبل التوباذ ، وقد ماتت ليلى وقد اخذ المشيعون فى الانصراف وهم يعزون اباها وشوقى يخالف رواية الاغانى التى تذكر وفاة قيس قبل وفاة ليلى ويتبع فى ذلك القصة الشعبية التى تذكر « أن ليلى ماتت قبل قيس فقد عاشت لا تستطعم بطعام وتعض على يدها أسفا وندامة حتى زال نشاطها وحال وتمكن منها المرض والبلبال وفى كل يوم تزداد عليها الآلام حتى انقطع صوتها عن الكلام وشربت كأس الحمام فكفنها أهلها وواروها التراب واكثـروا عليها الانتحاب ومزقوا ما عليهم من الثياب » (٢) . وتذكر القصـة أن فارسين مرا على قيس فنعيا اليه ليلى فاستعظم المصاب وذهب الى أهل ليلى فعزاهم وعزوه . ويذكر راوى القصة ان رجلا هلاليا أحب لقياه فخـرج فى طلبه فى البرارى والقفار حتى لقيه ، فأخذ يتناشد معه الشـعر حتى ظهرت ظبية فاذا بقيس يثب مسرعا فذهب وهو يقول له

(١) المسرحية . ص ٩٩ .
(٢) قصة قيس بن الملوح . ص ٦١ .

« أيها الرفيق والحبيب الصديق ما أراك بعد هذا اليوم تراني فقد كفاني ما دهاني » ، فرجع الهلالي الى اهل قيس يخبرهم بخبره ثم عاد في اليوم التالي يفتش عنه فلما لم يعثر له على اثر اخذ أهله وطلبوه في القفار حتى هبطوا الى واد كثير الاحجار واذا به معلق ميت بين حجرين . فغسلوه وكفنوه والى جانب ليلى دفنوه(١)؛ فلم تكن القصة الشعبية لتحرم قيسا من أن يساكن ليلى بعد موتها وتحقق لهما ما كان يمكن أن يتحقق في حياتهما وتلبى أمنية من امانيه .

فياليتنا نحيا جميعا وان نمت
تجاور في الهلكى عظامي عظامها (٢)

واستخدم شوقي اعلان والد ليلى على قبرها واعترافه بخطأ ما صنع بليلى وبقيس وندمه على ذلك . ولقد أجمعت الروايات التي تحدثت عن قصة الحب عن هذا الندم وتذكر القصة الشعبية ان والد ليلى ضم قيسا الى صدره بعد وفاته وبكى عليه (٣) .

ويروى صاحب الاغاني أن والد ليلى عندما علم بوفاة قيس « كان أشد القوم جزعا وبكاء عليه وجعل يقول ما علمنا الامر يبلغ كل هذا ، ولكني كنت أمرا عربيا أخاف من العار وقبح الاحدوثة ما يخافه مثلي فزوجتها وخرجت عن يدي . ولو علمت آمره يجرى على هذا

---

(١) المرجع نفسه . ص ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) المرجع نفسه . ص ١٢ ، وقيس بن الملوح . الديوان . تحقيق عبد الستار فرج . القاهرة : دار مصر للطباعة ، (د.ت) ص ٢٤٩ .
(٣) قصة قيس بن الملوح . ص ٦٤ .

ما أخرجتهـــــــا من يده ولا احتملت ما كان على فى ذلك (١) .

ترجم شوقى ذلك شــــعرا من قول والد ليلى على قبرها :

وليلى فتــــاة حرة بنت حـــرة
احبت غلاما سيدا وابن ســـــيد
واعلم انى كنت حرب هواهمــــــا
وكنت مع الواشى وعون المفند (٢)

كان لهذا الموقف تأثير كبير سواء فى رواية الاصبهانى او فى القصة الشعبية او عند شوقى . فقد أدى دورا فى تخفيف حدة التوتر فى المأســـــاة ، اذ كان اعلانا لانتصار حب قيس بليلى فى النهاية .

اضاف شوقى هنا موقف غضب الناس من زوج ليلى ليدفع الجمهور الى التعاطف معه .

وبعد أن رحل الناس جميعا يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر الفريض المغنى والشاعر ابن سعيد وامية وسعد وهم فى طريقهم الى مســـاكن عامر لعزاء قيس وقد استخدم شوقى هنا الفريض بالذات لانه معروف بأنه مهيج للبكاء وهو بذلك يهيىء الجو لانتظار وفاة قيس وبعد أن يخرجوا الى ناحية الحى يدخل من الجانب الآخر قيس وزياد فيعرف قيس بوفاة ليلى من بشر الذى قدم من ناحية القبر وتكون الفاجعة قد وصلت قمتها فلم يــكن لحياته معنى بعـد وفاتهــا فيدخـل

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٩٠ ، ٩١ .
(٢) المسرحية . ص ١١٥ .

مرحلة الاحتضار فيسمع اسم ليلى تناديه وينتهى قيس وقد استخدم شوقى كلمة النهاية على لسانه ليخفف من حدة المأساة بمنح العاشقين خلودا أبديا .

نحن فى الدنيـــــا وان لم ترنا
لم تمت ليلى ولا المجنون مات (١)

وهكذا فان شوقى تابع المعروف عن قصة قيس هضمه وأعاد بناءه فى اطار محدد ولكن ذلك وحده لا يؤدى الى فهم هذا العمل المسرحي . فهناك جانب هام يساعد على تفسير النص وتفهم موقف النقـــــاد من المسرحية وهو الاسطورة التى بنى عليها شوقى مسرحيته .

ـ جـ ـ

وصف معظم النقاد موضـــوع مجنون ليلى على أنه اسطورة شعبية أو أدبية . وهم فى ذلك قد استخدموا لفظ أسطورة بالمعنى الشائع للكلمة والذى يربطهـــــا بالاباطيل . اذ أن كلمة أسطورة لا دخل لها بالاباطيل وانما ترتبط بعقيدة كونية .

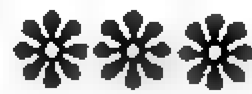
ولقد ربط شوقى أحداث مسرحيته وشخصيته بقوة كونية ليفسر قصة هذا الحب واقام بنـاء المسرحية على هذه الرؤية ، فأضاف المنظر الخاص بعلاقة قيس بجنيه الاموى .

ومع أن هؤلاء النقاد وصفوا القصة بانها اســطورة فانهم لم يتوقفوا عند هذا المنظر الذى تشابكت حـوله

(١) المصدر نفسه . ص ١٣٤ .

الاحداث . وعدوه خللا فى المسرحية باستثناء شــوقى ضيف الذى تقبله فى اطار المسرحية على أنه ساهم فى اتساع العنصر الفكاهى (١) فيها .

ويرى غنيمى هلال أن « رباط منظر الجن بالمسرحية رباط واه » (٢) ويشاركه مندور فى ذلك بأن مشاهد الجن لا علاقة لها بعناصر الدراما (٣) بينما يعيب محمود حامد شوكت على « هذا الفصل ظهور الشياطين قبل ظهور قيس . والشياطين شخصيات مسرحية رديئة اذا ظهرت بشكل قاطع فهى لا ترى فى الحياة وربما امكن تعليل وجودها بعد ظهور قيس على أنهــا أوهام عقله السقيم (٤) ويقترح اختصار دورها على الشر الذى يدفع قيســا الى اغراء ليلى ويوحى له بهجرها فيكون ذلك تمهيدا طريفا لحوادث المنظر الثانى » (٥) .



والحقيقة انه اذا اغفلنا هذا المنظر بأحداثه فان مضمون المسرحية يتغير عما أراده شوقى تغيرا تاما .

أراد شوقى ان يرد هذا الحب الخــــالد والاحداث المأساوية فيه الى قوة كونية تدعم هذا الحب وتوجهه . وكل ما يحدث فى هــذه العواطف المتأججة له مثيره الخارجى الذى لا يتوقف عن اشعال هذه العواطف وخلق الوسائل من صد وحرمان لتظل نيران هذا الحب حية لا تخمد .

(١) ضيف ، شوقى . المرجع السابق . ص ٢٣٤ .
(٢) هلال ، غنيمى . المرجع السابق . ص ٦٧ .
(٣) مندور ، محمد . المرجع السابق . ص ٥١ ، ٥٢ .
(٤) شوكت . محمود حامد . المرجع السابق . ص ٨٠ .
(٥) المرجع نفسه .

يتبدى المنظر الخاص بقرية الجن ولقاء قيس بجنيه على انه ليس الا المثل وان جنيه الاموى هو الممثول فهما شيء واحد عند رؤية البشر لقيس او رؤية الجن للاموى . تداخلا كل فى عالمه يمثل واقعا خاصا به ومماثلا لواقع الآخر .

فالاموى هنا يصبح (أ) المؤثر فى عملية الخلق الشعرى وعملية التحريك العاطفى بينما قيس يتحول الى (ب) وسيط فى عملية الخلق وعملية الاستقبال لهذا التوهج العاطفى ، ويأخذ الحب والشعر (جـ) شكل الاستجابة المتولدة عن المثير .

(أ) الاموى . (ب) قيس . (جـ) الحب والشعر .

سجل الجنى هذا فى حديثه لقيس .

هكذا شاء كل شاعر قوم عبقرى اللسان نحن لسانه (١) .

وتظهر هذه الرؤية حين يدخل قيس قرية الجن ويهتم الاموى بأمره ويتساءل الجن لماذا يهتم بأمره يقرر الاموى لأصحابه : الم تعلموا أن لى صاحبا من الانس أحكم فى شعره (٢) ويبرز من حديث أحدهما له أن الاموى يوحى لقيس بما يقول ولا يتوقف الامر عند هذا الحد بل أن الاموى نفسه يظهر حارسا لحب قيس لليلى فهو المفدى لهذا الحب والحارس له يكفل ليلى لقيس ويصرفها عن هوى غيره ويسهر على طهر العاشقين ولا يغمض عينيه عن الحفاظ على هذا الحب حتى أنه ليصرف ليلى من زوجها لتبقى عذراء لم يمسسها بشر .

---

(١) المسرحية . ص ٩٢ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٨١ .

ولم تكن هذه كلمة عابرة وانما هى الاساس الذى أقام عليه بناءه لصورة هذا الحب فليلى تموت عذراء لم ينل منها زوجها وطرا . وهذا يتكشف بعد لقاء قيس بجنيه فكان ذلك ممهدا للتعرف على أمر ليلى بعد ذلك وحين تتغنى ليلى بعذريتها « أنا عذرية الهـــوى أحمـــل العبء » (١) ترى انه لم تعذب عذراء بالحب قبلها ولن تعذب بعدها .

تذكر « عفراء : هى عذراء ؟ ربى أشهد .

ليلى : أجل عذراء حتى يضمنى ركن لحدى (٢) .

لم يكن هذا الموقف جديدا على مشـــاهد أو قارىء المسرحية . وقيمتــه أنه يؤكـد دور الجنى فى هـذه العلاقة .

حدد الجنى عاصف علاقة قيس بالجن فهو صاحب حنجرة لا يملكها بمفرده فهى منقسمة بين الانس والجن لهم فيها وتر كما أن للانس فيها وترا .

حنجرة لنـــــا وتر

منهـــا وللانس وتـــر (٣)

وتحدد وتر الانس فيها بترداد قيس لما يلقى عليه ، فدور الانس هنا لا يعدو نقل الصوت .

وحين اعترض الجن على اهتمامهم بأنسى كان الرد من بعضهم أن قيسا لا يعد من البشر فهو منهم وان كان ظهوره فى بنى عامر فهو يقيم بين البشر المثل بينما الجن

---

(١) المصدر نفسه . ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المرجع نفسه . ص ٨٢ .

هو المثول . ويبرز ذلك حين يتعجب قيس من الاموى فيراه صورة مطابقة له فيسأل هل هما قيس واحد أم قيسان وايهما يا ترى الشاعر .

ويحى أقيس واحـــــد
أم نحن قيسان هنــــا
واينـــا الشـــاعر هنـا
الاموى أم أنــــــا (١)

غير أن قيسا لم يشك فى الصورة التى يراها على انها من عمل الوهم .

وهذه المسوخ حولى جنـة
أم عمل الوهم وتهويل الكرى (٢)

ومع تطور الموقف بينه وبين الاموى يستمر فى شكه فى أن ما يحدث به ليس الا من عبث السحر أو أن جنونه يخيل له هذه الرؤى .

أم الـــذى بى وبــه
من عبث الســـــحر بنا
أم أنا مجنــون على حب ليلى قد جنى

وتطور الاحداث بعد ذلك يؤكد أن شوقى لم يكن يقدم صورة لتجسيم أوهام قيس وانما أراد أن يجعلها حقيقة واقعة ، فحين يروى الاموى شعرا لم يدعه قيس لاحد يتهمه بسرقة اشعاره ويرفض أن يكون شعره شعر جنى فيتحداه الاموى أن يقول شعرا . يحاول قيس الا انه يعجز وتخرج كلماته نثرا ، فقد أحس وكأنما وضع على

(١) المرجع نفسه . ص ٩١ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٨٦ .

لسانه حجر فينتهي الى الاعتراف بدور هذا الجنى وانه ليس اكثر من وسيط فى عملية الخلق .

الاموى : كيف ترى لسانك

قيس : الآن عليه حجر .

انت على مشـــــاعرى
وشـــــعرى المســـيطر
ان غبت غاب خاطـــــــرى
وان حضرت يحضر (١)

ولا ينتهى الموقف عند هذا الحد بل تظهر علاقة قيس بجنيه الاموى عند قبر ليلى اذ يناديه فيسأل قيس عمن ينادى فيذكر له الجنى صراحة دوره فى حبه ليلى ، فلم يكن دوره يتحدد بالحفاظ على طهارة قيس وليلى وانمـا تعداه ليكون الدافع لهذا الحب والموحى لقيس بحبها .

الاموى : قيس .

قيس : من الهاتف من نادى الشريد المطرح (٢)

الاموى : أنا الذى أوحى اليك حب ليلى واقترح .

يأخذ قيس بعد ذلك فى توجيه الاتهام له بما يحدد دور الجنى فى مأساته ، فلقد كان قرين سوء وكان شر ناصح له فلولاه ما باح بحبها ولا خدش عرضها بحديثه عن هذا الحب فى شعره .

لم يكن رباط شوقى لحب قيس فى المسرحية بقوة كونية من اختراعه وانما اســـــتمده من بعض روايات

---

(١) المصدر نفسه . ص ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٢٧ .

الاغاني . واهم هذه الروايات التى تربطه بالكون تروى انه لما قال :

خليلى لا والله لا أملك الـــــذى
قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتـــــلانى بحبها
فهـــــلا بشيء غير ليلى ابتلانيـــا

رؤى أن هذا اعتراض واضح على قدره وقد قيل انه برص (١) . والحديث عن قيس لا يذكر برصة الا في هذه الرواية . وقد قيل أن العقـــاب كان سلب عقله (٢) . ورواية اخرى تفصل فى هذا العقاب تذكر انه « نودى في الليل : انت المتسخط لقضـــــاء الله والمعترض فى أحكامه ! واختلس عقله فتوحش منـــذ تلك الليلة وذهب مع الوحش علي وجهه » (٣) . وقـــد قيل أيضا أن سبب جنونه دعوة دعاها فى الكعبة حين تعلق بأستارها « وقال : اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا فهام حينئذ واختلط فلم يضبط » (٤) .

تمهد هذه الروايات للجو الكونى الذى غلف قصـــة الحب غير ان ما الهم شوقى بوضع الفصـــــــل الخاص بالجنى فى المسرحية وربطه بحياة قيس وفنه رواية تتحدث عن مشاركة قوى كونية له في حبها فقد أخبر عنه « أن سبب توحشه أنه كان يوما بضريه جالسا وحده اذ ناداه مناد من الجبل :

---

(١) الاصبهانى . المرجع السابق . ص ٥٤ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٣٦ ، ٥٤ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٦٨ .
(٤) المرجع نفسه . ص ٢٢ .

كلانا يا أخى يحب ليـــلى
بفى وفيـك من ليلى التراب
لقد خبلت فـؤادك ثم ثنت
بقلبى فهو مهموم مصـاب
شركتك فى هوى من ليس تبدى
لنا الايام منه سـوى اجتناب

قال : فتنفس الصعداء وغشي عليه . وكان هذا سبب توحشه » (١) .

وصاحب هذا الصوت لا يرتبط بقوى الملائكة وانما بقوى لها رغبات أنسانية وما يشترك مع الانسان فى هذه الرغبات من قوى ما وراء الطبيعـة هم الجن ، فصاحب هذا الصوت جنى ، وهذا تفسير مقبول اتاح لشوقى الحرية فى أن يجعل الاموى شخصية من شخصيات المسرحية ويبنى عقدتها على موقفه من هذه العلاقة . ووسع شوقى دور هذا الجنى فلم يجعله الدافع الموجه للحب فقط وانما أضاف اليه دورا كبيرا فى شعر قيس .

أخذ ذلك شوقى من المرويات الكثيرة عن اعتقاد العرب القدماء بدور الجن فى عملية الخلق الشعرى فهم الدافع للخلق والشاعر هو الوسيط والشعر هو الاستجابة . هذا الاطار العام لمفهوم الشعر وعلاقة الجن به مذكور فى كثير من كتب الادب العربى .

---

(١) المرجع نفسه • ص ٦٥ ــ ٦٦ •

ولعل أهم القصص التى كان لهـا تأثير مباشر على شوقى هى قصة لقاء الاعشى بصاحبه مسحل السكران . التقى الاعشى بصاحبه فى طريق مقفر وتحادث الجنى معه وأسمعه من شعره ثم عرفه بنفسه وبعد ذلك هداه الى الطريق (١) .

وهذا ما حدث لقيس حين التقى بصاحبه الاموى فى طريق مقفر وأسمعه من شعره واصابته الدهشة ثم عرفه بنفسه ودله على الطريق .

والفرق بين مسحل والاموى ان مسحل لا يقوم الا بدور مانح الشعر بينما تعدى دور الاموى هذا ليكون مانح الحب .

وشوقى فى ذلك مدعم بتراث من العقائد الشـعبية التى ربطت الحب بالجن برباط وثيق . فما زال أهل الريف يلجأون الى الرقى والتعاويذ لكسب الحب او بث الـكره .

وعلى هذا فشوقى لم يكن مستمدا شخصية الجنى من تراث اجنبى وانما من تراثه العربى القديم والشـعبى الحديث .

---

(١) أبوالفرج الاصبهانى ، على بن الحسين . كتاب الاغانى . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر . نسخة مصورة عن دار الكتب ، سنة ١٩٦٣ . ج ٩ . ص ١٥٦ .

ووضع شوقى شخصية الجنى على المسرح متفق مع طبيعة المسرح التى تعتمد على الايهام الى حد كبير فان بعض نظريات المسرح لا تجعل من المحاكاة بالضرورة محاكاة للواقع . وقد تقبل المسرح فى جميع عصوره دورا لشخصيات من وراء الطبيعة . استخدمها المسرح اليونانى كما استخدمها المسرح الرومانسى . ولعل أهم استخدام لها كان فى مسرحيتين مشهورتين من المسرحيات العالمية همـا مسرحية فاوست لمارلو (١) والاخرى لجوته (٢) . وكان شكسبير أكثر تخففا منهما فى تقديمه للشبح فى هاملت والساحرات ودورهن فى مسرحية ماكبث .

وشوقى لم يقدم شخصية الجنى لوجودها فى المسرح العالمى وانما لان المسرح المصرى تقبل وجود شخصيات كونية تظهر على خشبة المسرح ولم يكن الجمهور يرى فى ذلك غضاضة اذ أن هذا ليس غريبا على الحكايات والسير الشعبية التى تأثر بهـا المسرح المصرى تأثرا كبيرا .

وقراءة المسرحية توضح أن بناء احداثها قام أساسا على دور الجن وعلاقته بقيس . فقد ألهم قيسا الشعر وأوحى له بحب ليلى واقترح عليه أن يشبب بها وأن

---

(١) مارلو . كريستوفر : مأساة الدكتور فاوستوس . ترجمة نظمى خليل . القاهرة . المؤسسة المصرية للتأليف . (د.ت) .

(٢) جوتيه . فاوست . ترجمة محمد عوض محمد . القاهرة : الاعتماد ، سنة ١٩٢٩ .

لا ينظر الى التقاليد التى تحـــرم العـاشق أن يبوح بحبه .

فلا خير فى الحب حتى يذيع
ولا خير فى الزهر حتى ينم (١)

وهذا يجعلنا ننظر الى المسرحية فى اطار الشـــاعر الخلاق المرتبط بقوة كونية تدير الاحداث .

ولكى تحدث المأساة فانها تنطلق من البغض لهـــذا الشاعر والوجه المقابل له الحب لهذا الشاعر . وكلا الاحساسين مرتبط بالاعجاب بالشاعر .

***

كان قيس شاعرا ولكى يكون شاعرا فلابد أن يتفرد بالألم العظيم والالم العظيم قد يكون سبيله حبا عظيما . والاموى يعرف ذلك .

تفـردت بالالم العبقـــرى
وأنبغ ما فى الحياة الالم (٢)

فكان أن انطلق قيس يشبب بليلى ويعلن حبه لها .. ادى هذا التشبيب علاقة قيس بليلى للدخول فى طريق مسدود ، فقد تغنى بها فى شعره مضطرا وذلك لينفث كربته .

يقولون بهـــــا غنى
لقــــد غنيت من كربى (٣)

---

(١) شوقى ، احمد . المسرحية . ص ١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٢٨
(٣) المصدر نفسه . ص ٥١ .

لم يلم قيس أحدا على هذا الا حين تبين دور جنيه في لعبة الحب والشعر . منحه الاموى الشعر وخلق له الدافع لقـــوله فكان بالنسبة لقيس قرين سوء وشر ناصح .

كنت قــرين السوء لى وكنت شر من نصح (١)

وقد عدته ليلى مسئولا عن عدم تحقيقهما لهذا الحب وتذكر ذلك في آخر لقاء تم بينهما .

قيس ... فيمن الفكر .

ليلى : في الذى تجنى (٢) .

كانت ليلى تشير الى شـعره الذى تحدث فيه عن لقائه بها فيما أسماه ليلة الفيل . وأدى الى اثارة قبيلتها عليه بينما لم يكن بينهما ليلة الفيل أكثر من السلام بين سمع وبصر الرفقاء .

صنت منذ الحداثة الحب جهـدى
وهو مستهتر الهـوى لم يصنى
قد تغنى بليلة الفيــــل ، ماذا
كان بالفيـــل بين قيس وبينى ؟
كل ما بيننــــا ســـــلام ورد
بين عين من الرفـــاق وأذن (٣)

فالشعر قد جنى على الشاعر جناية كبرى فحـرمه حبيبته وأدرك قيس جناية هذا الشعر عليه . وهو يلوم في النهاية جنيه على دفعه الى البوح بهذا الحب :

لولاك ما بحت بمـــــــا
خدش ليلى وجـــــــرح

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٠٣ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٨ .

كانه في عرضهـــــــــا
زيت على الثــوب سرح (١)

اظهر شوقي موقف الجنى واضــحا فى دفعه لقيس للحديث عن حبه .

قم اهتف بليلى وشبب بهـا
وخل التقاليد وأنسى الحــرم

ترتب على هذا تكون مأساة مجنون ليلى .

غضب المهدى والد ليلى حين سمع شـــــعر قيس يتحدث عن ابنته فيما أسماه ليلة الغيل وعد حديثه هذا اهانة لشرف قبيلته وشرفه وشرف ابنته ، فهو يرى أن قبيلة عامر ذلت بما قال قيس وأصبح كل فتى منهـــا يحنى جبينه ذلا حين يلقى الناس .

وغــــدا كل فتى من عامر
حين يلقى الناس محنى الجبين

أصر والد ليلى الا يزوجها لقيس وحين يسأله عما جناه ليحرمه ليلى لا يذكر له سوى ما تذيعه الرواة من أخبار وأشعار عنه ولا سيما حديثه عن ليلى ليلة الغيل .

قيس : عم ماذا جنيت .
ليلى : ماذا جنى قيس .
المهدى : نسيت الرواة والاخبارا .
قيس : انهم يأفكون يا عم .
المهدى : والغيلَ اليلا غشيته أم نهارا .

ما الذى كان ليلة الغيــل حتى
قلت فيها النسيب والاشــعارا (٣)

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

شخصية الاب تعيش ازمة تتصاعد فى داخله فهو يقف ضد قيس ويكره ما صنع به وبليلى ويقاسى من شعره ومع هذا فهو يحب هذا الشعر ويعجب به ويرويه ويصور نفسه فى ذلك بالمشرك الذى يعجب بالقرآن الكريم ويرويه بالرغم منه .

أرانى شـــــعرك الويل
وما أروى ســـوى شـعرك
كمـــا لذ على آلـــكره
كـــلام الله للمشرك (١)

يحب المهدى شعر قيس ويحب ابنته ولكن هذا الحب لم يكن ليمنحه الشجاعة ليقف أمام التقاليد ويخشى اشد الخشية أن تذيع زيارة قيس لخبائه حين خر صريع النار .

فكأنى بقصة النـــار تروى
وكأنى بذلك الشعر ســـارا
وكأنى ارتديت فى الحى ذلا
وتجللت فى القبائل عارا (٢)

وينتهى به الامر الى أن يطرد قيسا ويقتل اى أمل فى أن يلتقى الحبيبان .

***

واذا كان الشعر قد جنى على قيس فمنعه من الحصول على ليلى فان هذا الشعر قد خلق له حسادا كان أظهرهم منازل حسده لقدرته الشعرية فانطوى حقدا عليه

(١) المصدر نفسه ، ص ٣١
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

وحاول أن ينافسه فى حب ليلى . ولقد أشقاه حبيده لقيس اضعاف ما أشقاه حبه ليلى .

واحسده حسـدا ما علمت
اقيس الشـقى به أم أنا (١)

فان حب قيس ليلى يفوق حبه لها كما أن شعر قيس رواه البدو والحضر بينما لم يرو شعره أحد .

روى شعره البدو والحاضرون
وشعرى ليس له من روى (٢)

كانت شخصية منازل هى شخصية الشرير التى اراد بها شوقى أن يقيم تضادا بين الشخصيتين ليكشف عن جوانب الخير فى قيس ويدفع الى التعاطف معه

كان منازل خبيثا حين سأله قيس عندما التقى به أين كان ؟ أجابه ليطعن قلبه بأنه قادم من عند ليلى ولم يكن منازل كاذبا ولكن طريقته توهم بأنه كان مختصا بحديثها .

« قيس : منازل ، من أين ؟

منازل : من عندها ، من السمر الممتع المشتهى (٣)

وحين يذهب قيس خاطبا ليلى مع ابن عوف يقوم منازل بتحريك جموع بنى عامر ضده بأسلوب استخدم فيه التضاد ليستفزهم ضد قيس ويستحثهم فى النهاية على النيل منه .

بدأ حديثه عن جوانب قوة قيس ثم أخذ يتسلل منها ليذكر ما سببه قيس لقومه من عار حين تحدث عن

(١) المصدر نفسه . ص ٣٢ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٣٢ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٣٣ .

ليلى ولقد نجح فى تحريكهم فأخذ بعضهم ينادى بتأديبه فكان كما وصف أحدهم فعله بفعل جزار اليهود بالبقر يبرأها من العيوب ثم يقوم بذبحها .

كفعل جزار اليهــــود بالبقر
برآها من العيــوب وعقر (١)

كشفت كراهية منازل لقيس الموقف الاجتماعى الذى حدد سلوك الفرد فى علاقته بالفتاة التى يريد الزواج بها واستغل ذلك منازل ليبعد قيسا عن ليلى . غير أنه لم يفز بها .

ولقد لعب منازل فى المسرحية دور البطـل الخصم وإصابته المأساة التى أصابت قيس فما كانت ليلى لتتزوج من عدو قيس .

***

اما من ناحية الاعجاب بشعر قيس اعجابا مرتبطــا بالحب فقد نال قيس اعجاب الكثيرين وحبهم . وتتحرك المسرحية حول هذا الاعجاب بشعر قيس اعجابا وصل الى قمته بحب ليلى التى بادلته اياه . لقد رفع قيس ذكرها بشعره حتى ان رفيقاتها كن يرينها تزهو وتتعالى عليهم بما خلعه عليها من شعره كأنها ابنة النعمـان أو ابنة كسرى .

كان هذا الاعجاب مكونا لمأساة حبها .

سلمى : سلمى انظرى هند ترى ليلى اكتست زهوا وكبرا وتعالت كابنة النعمان أو كابنة كسرى (٢) .

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

هند : لم لا سلمى ، ألم يرفع لها المجنون ذكرا !

وليلى : تدرك بوضوح أن قيسا بنى لها مجـدا فحين يغنى أهل نجد تبقى قصائده فيها حية خالدة فلولا هذه القصائد التى نوهت بها ما علم أحد مكانها .

والنفس تعلم أن قيســـا قد بنى
مجدى وقيس المـــكارم بانى
لولا قصـــــائده التى نوهن بى
فى البيـــد ما علم الزمان مكانى
نجد غدا يطـــوى ويفنى أهله
وقصيد قيس فى ليس بفانى (١)

ولقد وصل الامر بليلى ان كانت تغار من الظباء التى يصفها قيس فى شعره ، وكانت تسائله ان كان قد نسيها وحول عشقه عنها .

نبنى قيس ما الـذى
لك فى البيد من وطـــر
لك فيهـــا قصـــائد
جاوزتهـــا الى الحضر
اترى قـــد ســلوتنا
وعشقت المهـــا الاخر (٢)

تحول شعر قيس الى رقية لليلى تزيد اشتعال الحب فى قلبها وتمنعها أن تحب شخصا آخر وفى الوقت نفسه تمنعها من الزواج به .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

وحين تظهر ليلى فى الفصل الاول مع فتيات الحى وفتيانه تحاول أن تمد رجلها فلا تستطيع اذ أصابها الخدر فتتألم وتستغيث . وعلى عادة العرب الشعبية حين تخدر قدم الفرد فان هناك تعويذة تقال وما زال أهل صعيد مصر يرددون عن الخدر « موسى قتل فرعون » ولكن ليلى لا تحضرها العبارة أو التعويذة . فتذكر اسم قيس وحين تتضاحك الفتيات من هذا السلوك تبرر ذلك بأنها لا تعنى شيئا . ان هو الا اسم حضر على لسانها غير أنها تعود لنفسها فتعترف .

يا قيس ناجى باسمك القلب اللسان فعثر (١)

كان الموقف يمثل ليلى طوال المسرحية الفتاة المحبة ولكنها مع كل هذا الحب لم تتخذ قرارا فى صالحها وصالح قيس حين خيرها والدها ان تختار بين قيس وورد . بدت متمسكة بالتقاليد فرفضت قيسا . ولقد حير موقفها هذا النقاد اذ راوه قلقا متناقضا مع الحب. ولا شك أن ليلى كانت تعيش صراعا فى المسرحية بين حبها لقيس وبين تمسكها بالتقاليد ولكن ليلى حين اتخذت قرارها كانت مدفوعة بقوة كونية تحرك لسانها فقد كانت تهذى وكأنها مأمورة يحركها شيطان .

وليلى تدرك تماما أن القوى الاجتماعية تقف ضدها وتتبين ذلك بوضوح غير ان موقف القوى الكونية التى تحول دون زواجها تبدو غير متبينة لها بوضوح فهى لا تدرى ان كانت تهذى أو انها مأمورة باتخاذ قرار ضد علاقتها بقيس وان الذى يأمرها ويقود لسانها هو

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٢ .

الشيطان ، ولما لم يكن ذلك واضحا فى ذهنها فقد ردته الى الحظ .

ما زلت أهذى بالوساوس ساعة
حتى قتلت اثنين بالهذيان (١)
وكأننى مأمورة وكأنما
قد كان شيطان يقود لسانى
قدرت أشياء وقدر غيرها
حظ يخط مصاير الانسان

وقد وضحت المسرحية فى لقاء قيس بالجنى دوره فى اتخاذ ليلى هذا القرار . لقد كان الشيطان يريد لقيس ان يحترق بالألم حتى يكون ذا دافعا للابداع ولان ينقل عنه أجملَ أشعار الحب . وحين تزوجت ليلى من ورد دخل المسرحية طرف آخر فى الصراع . ودخوله طرفا فى الصراع جعل الاعجاب بشعر قيس يبلغ المأساة ذروتها .

***

ولقد اتخذت صورة الاعجاب بشعر قيس فى المسرحية حدة درامية ساهمت فى صنع ذروة مأساة قيس حين تقدم ورد من أبناء ثقيف طالبا الزواج من ليلى . وكان من الممكن أن يكون خصما لقيس يتقزز منه المتفرج أو القارىء الا أنه نال التعاطف بالصورة التى ظهر بها فى المسرحية فأصبح جزءا من مأساة الحب انعكست عليه آلام قيس وليلى .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

فشعر قيس الذى كان بلاء عليه وعلى ليلى كان بلاء على ورد أيضا .

فشعرك يا قيس أصل البـــــلاء
لقيت به وبليلى الضـــــلال

فقد عشق ورد شعر قيس منذ شبابه يتغنى بهويرويه. جسد له هذا الشعر صورة ليلى فكان يتمثل بين ألفاظه ظلها ويلمح خيالها بين قوافيه :

ذهبت بشـــعرك منـــذ الشباب
أغنى القصار وأردى الطـــوالا
أرى بين الفـــاظه ظل ليلى
وألمح بين القـــوافى الخيـــالا

وتدافع المسرحية عن ورد فهو لم يذهب لخطبتها الا بعد أن تأكد أن قيسا قد رد عن ليلى وان اعلان حبها فى شعره يقف حائلا دون ذلك .

فلما رددت وقيل القصائد والعشق بين المحبين حالا
خرجت الى حيهـــا خاطبا
ولم أدخر دون مســعاى مالا (١)

كان ورد كمن يريد أن يقتنى أثرا لفنان يعشق فنه فكانت ليلى التى أحاطها بالتقـــديس والرعاية احاطة الوثنى بصنمه .

كانت اطاقتى بهـا كالوثنى بالصنم (٢)

حفظ شعر قيس ليلى طاهرة نقية فقد كساها جمالا

(١) المصدر نفسه . ص ١٠١ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٠٠ .

وجلالا فكان كلما يقترب منها تنهاه هذه القداسة عن أن يمسها .

كساها جمـــالا فعلقتهــــــــا
فلمـــا التقينـــا كساها جلالا
اذا جئتهـــــا لانال الحقــــوق
نهتني قداســــتها أن أنالا (١)

ولكن هل تم ذلك بارادة ورد ؟ . لقد كانت هنـــاك قوة كونية تحيط بليلى وهذا ما أدى بالاموى جنى قيس الى القول :

سهرت على طهـــــر ليلى الزمان
ولم أغمض العين عن طهـــره (٢)

قد يكون ذلك بتأثير مباشر أو غير مباشر من الاموى اذ تحول شعر قيس الى تميمة تحفظ ليلى وتحميها .

ولم يكن الامر كله بيد ورد فقد هيبها هذا الشـــعر فامتنعت كأنها صيد الحرم .

هيبهـــا فامتنعت كأنها صيد الحرم (٣)

ويقف ورد فى هذا المنظر بصورة المعطاء الرحيم الذى يترك زوجته وقد وهبهـــــا لما عاشت له للحب والالم والشعر .

وهبتها للحب والشعر وقيس والالم (٤)

برز الرجل بالصورة التى تحدث عنها فقد أخذ قيس الى ليلى .

---

(١) المصدر نفسه . ص ١٠١ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٨١ .
(٣) المصدر نفسه . ص ١٠٠ .
(٤) المصدر نفسه . ص

لقد كانت ليلى الزوجة والحبيبة

وكان ورد الزوج

وكان قيس الحبيب

ولم يكن هناك صراع يتحدد فيه صاحب الموقف فقد تركه ورد ليلتقى بليلى وحيدا فالمكان هو مكان الحبيب أما الزوج فلا مكان له فى هذه اللحظة .

قيس أرى الموقف لا يجمعنـــــــــا
أنت حبيب القــلب والزوج أنا (١)

نال ورد التعاطف لا من الجمهور فقط بل من ليلى حفظت احترامه فى غيبته فهى كما حفظت حب قيس مع زوجها حفظت احترام الزوج ورد مع حبيبها وعرفت له قيمته كرجل ذى مروءة .

فورد يا عفر لاكفـــــــاء له
مروءة فى الرجال أو ورعا (٢)

ولم يكن ورد الزوج وهو يترك ليلى لقيس يشعر بأنه يعطى ما يملك لقيس فهو لم يملك ليلى ويعلم أنها ليست له وكان مقتنعا بصدق موقفه فلقد عبر عنه بندمه على زواجها منذ حوتها داره .

منذ حوت دارى ليلى ما خلوت من ندم (٣)

وحين تموت ليلى يشارك ورد فى احساسه بالمأساة فيبكيها وهو لا يبكى ليلى الزوجة وانما يبكى العـاشـقة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

التى حرمت من حبيبها فيودعها على قبرها بدعوة يتمنى لها السلام فى ثرى نجد ، فى ظل الله وفى خلده .

بظـل الله يا لبـــــلى
وفى بحبوبة الخـــــلد
وهـذى نجـــد يا ليلى
فنـامى فى ثرى نجـد (١)

واجه ورد موقفا قاسيا لحظة دفن ليلى فان أحـدا لم يعزه فى وفاتها ، فالناس كانوا ينظرون اليه شزرا ووجوههم مملوءة بالبغضاء متصـورين أنه سبب هـذه المأساة وأنه أخذ ليلى من قيس وزاد شقاءهما . وحين يحدثه أحد أصدقائه عما يشعر به مما يرى على وجوه الناس . يكون ورد أكثر يقينا من أنه لم يكن الا محسنا للعاشقين وليس فى يده شهادة الا قبر ليلى فان فى قبرها الجوابا .

يرون أنى عـــدو قيس
أخذت ليلى منه اغتصابهـــا
وزدت نفسيهما شـــقاء
وزدت قلبيهمـــا عـــذابا
ليسأل النـــاس قبر ليلى
فان فى قبرها الجـوابا (٢)

***

وهناك شـخصية عاشت أحـداث المسرحية معيشة كاملة . عاشتها بجانب شخصية قيس وهى شخصية زياد .

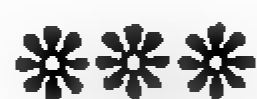
---

(١) المصدر نفسه . ص ١١٥ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١١٤ .

وشخصية زياد في المسرحية من شخصيات الادب الشعبى فهى شخصية مساعدة تقف بجوار البطل باخلاص وحب ولا تتخلى عنه أبدا فهى شخصية انعكاسية تنعكس عليها تصرفات البطل . تماثل شخصية أبى القمصان فى حياة أبى زيد الهلالى ، وشخصية شيبوب فى حياة عنترة . عواطف هذه الشخصية مرتبطة بعواطف البطل .

ظهر زياد فى المسرحية فى معظم المواقف التى ظهر فيها قيس . ولم يختف الا حين يلتقى قيس بجنيه أخذ زياد فى المسرحية دور راوية قيس والمدافع عنه .

وكان معه فى اللحظات الاخيرة من حياته . فهو شاهد المأساة . ولم تكن شخصية زياد شخصية تعبر عن موقف نفسى داخلى بقدر ما كانت شخصية مساعدة يحتاجها قيس ، الذى فقد عقله ليكون بجواره ، فهو المعبر عن الاعجاب الشديد بشعر قيس والحب له مما جعله يكرس حياته من أجله . ويكون مع قيس بن ذريح الوحيدين الذين شاهدا نهاية المأساة بوفاة قيس .



وهناك شخصيتان اتصلتا بليلى ممن أعجبوا بقيس وأحبوه أحدهما قيس بن ذريح والآخر عبد الرحمن بن عوف .

وقيس بن ذريح سمي قيس الذى اشتهر بحب لبنى وكان أحسن حالا من صاحبه اذ انتهت قصة حبه بزواجه من حبيبته .

ظهر فى المسرحية رسولا لقيس وكان اعجابه به

واضحا من حديثه عنه فهو يراه زين الشباب وابن سيد الحمى .

وقيس يا ليلى وان لم تجهــــلى
زين الشباب وابن سيد الحمى (١)

يظهر قيس بعد ذلك آخر المسرحية على قبر ليلى ليكون مع قيس فى لحظة احتضاره . ودوره فى النهاية مماثل لدوره فى البداية ، فقد كان المعبر عن جلال قيس وجلال الحب . أراد شوقى أن يربط بينهما بهذا الرباط الوثيق فلا يترك قصة المجنون تمر دون أن يكون ابن ذريح احد شخصياتها والواقف على قبره ليعلن وقوف القـــوى السماوية مع العاشقين بعد وفاتهما ليتحول هذا القبر الى مكان مقدس .

ابن ذريح :

يا ليلى قبرك ربوة الخـــلد
نفح النعيم بهــا ثرى نجـد
فى كل ناحيـــــة أرى ملكا
يتنفسون تنفس الـورد (٢)

فهو يقف بمفرده على مقربة القبر خاشــــعا باكيا ثم يلتقى بقيس ليكون حاضرا مع زياد لحظــة وفاة قيس وربما أراد شوقى أن يجعل الحب يجامل الحب .

***

أما شخصية أمير الصدقات ابن عوف فقد كان وجودها يخدم أيضا ابراز جانب التقــدير الذى لقيه قيس من

(١) المصدر نفسه . ص ١٧ .
(٢) المصدر نفسه . ص ١٣١ .

معـــاصريه ، فابن ذريح عاشق وابن عوف رجل دولة وكلاهما التقيا فى هذا التقدير فان الحب حرك رجـل السياسة الذى يعرف عن نفسه القسوة فيرق قلبـه ويلين لقيس .

يا ويح قلبي ما خــــلا من قسوة
ما بــــاله رق لقيس ورثى (١)

حتى انه ليتطوع ليقوم بدور فى قصة الحب اذ يذهب الى أهل ليلى خاطبا اياها لقيس .

التقى ابن عوف ومعه كاتبه نصيب بقيس فى الطريق قرب ديار ليلي مستلقيا على الارض فى شبه اغماءة وقد ضايقه الصـغار بمداعبتهم وزياد راويه يدفعهم بعيـدا عنه . ادى ذلك المنظر الى أن يسائل كاتبه نصيبا جلية الخبر فيعترض نصيب طريق زياد ويسـأله عن الفتى فيرد بأنه قيس امام العاشقين .

ولما كان كثير من العشاق المعـروفين بالحب يسمون قيسا فقد تساءل ابن عوف أى قيس هو ؟ فكان رد زياد انه أرفعهم ذكر وأعلاهم مجدا . هنا تظهر علاقة ابن عوف بقيس محددة وهى انه معجب بشعره من قبل أن يراه وانه يروى هذا الشعر .

لعله قيس الـــــذى نعــرفه
لقـد رويت شعره فيمن روى (٢)

وحين يفيق قيس يذكر له ابن عوف أنه من رواته وأنه لم يخل من الاشفاق عليه .

---

(١) المصدر نفسه . ص ٤١ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٤٠ .

بل من رواتك قيس من زمن مضى
لم اخل قيس عليك من اشفاق (١)

ويتعدى اعجابه بقيس الى اعجابه براويته فهو المهدى لكل قرية شعر قيس .

ويصف هـذا الشـــعر بأنه « مجاجة النحل ونفحة الربا » (٢) .

ويعبر ابن عوف عن هذا الاعجاب عمليا فيذهب الى والدها .

وحين يأخذه والد ليلى الى خبائه يخلع ابن عوف نعليه ويسير حافيا الى خيمته ليرى والدها اى درجة هـو معنى بأمر قيس ولقد خاب هذا اللقاء فلم يفلح ابن عوف فى مسعاه . ورأى بعينيه المأساة تصل الى ذروتها حين تقبل ليلى الزواج من ورد وحين تسأله أن يكون حليفها فى هذا الامر كما كان حليف قيس يرفض ابن عوف فانها تسأله المحال فهو لم يقدم لخطبتها لورد ثقيف وانمـــا لقيس الذى أسماه ورد القوافى :

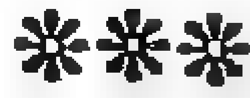
سألت محالا انما جئت خاطبـــا
لورد القوافى لا لورد ثقيف (٣)

ولم يدر ابن عوف بأنه ما كان ليستطيع أن يحقق لهذا الحب اجتماعا فان قوة كونية تحول بين لقـــاء العاشقين ، فقد كان الاموى يقف على لسان ليلى يمنعها أن تجيب ابن عوف الى ما طلب .

---

(١) المرجع نفسه . ص ٤٧ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٤٠ .
(٣) المرجع نفسه . ص ٧٧ .

ولم تكن ليلى متناقضة مع نفسها فى هذا ، فالقوة الكونية تحرك أحداث المسرحية وشخوصها لتجعل الواقع الاجتماعى يظهر وكأنه صانع للمأساة .



واذا كانت العوامل الثلاثة : التراث المسرحى المصرى والمصادر الادبية والشعبية والاسطورة قد شكلت العمل المسرحى فانه من الضرورى أن نقف عند القيمة الفنية لهذا العمل .

وعلينا أن نطرح تقاليد المسرح الغربى عند تحديده هذه القيمة فشوقى قد شكل عمله من خلال هذه العوامل الثلاثة وأقام عملا قصصيا ممسرحا . كان دوره الإساسى فيه هو عملية الانتخاب واعادة صياغة القصة ليفسير الحب تفسيرا كونيا . وربط القصة بالاسطورة منحه الحرية فى اختيار المادة وطريقة تحريك الاحداث .

ركز شوقى على عناصر عدة فى رسم شخصياته فهى تمثل أطرا عامة للجمال الصافى النقى والعاطفة التى لا تأثير للزمن عليها اذ أنها دائما مشتعلة لا تعرف التوقف ومع هذا الاشتعال فهى لا تتنازل عن أخلاقياتها فى سبيل تحقيق أغراضها حتى أنهـا ليمكن أن توصف بالسلبية . وقد تبدت الشخصيتان الرئيسيتان منذ البداية بهذه الصورة لم يحدث فيها أى تغير . وتتخذ ليلى قرارا ليست مستعدة لاتخاذه وتبعا لهذا فهما يواجهان أحداثا تؤثر فى مسيرتهما لتصنع المأساة الدامية فى قلبيهما . وحين تموت ليلى يحدث تغير فى جانب الشخصيات الثانوية فيتحول الكره للبطل الى

تعاطف وحب له كما حدث مع والد ليلى من تغير احساسه بقيس وكذلك جمهور القبيلة .

وهذا فى حد ذاته نجاح اذ استطاع أن يعكس مفهوم الشخصية الرئيسية النامية فى المسرح الغربى ليحولها الى شخصية من شخصيات القصص الشعبى الثابتة فى مواقفهـــا الانفعالية ويجعل الشخصيات الثانوية تمثل انعكاسات التحول فى العالم المحيط بها ..

ولم يتوقف شوقى عند الجمال فى رسم الشخصيات وانما قدم أيضا الجمال فى الحدث .فأحداث القصة تتابع فى خط واحد حتى يجد العالم المحيط بقيس قصة حبه الخالدة ، فمنذ الفصل الاول ولقـــــاء ليلى بابن ذريح لا يخرج الحدث عن قصة قيس وتبعـــا لذلك فقد كان السرد للأحداث ملونا لها ، ومضيفا الى القصة المسرحة حياة فما كان من عيب فى المسرح الغربى لا يعد عيبا فى القصة المسرحة . ظهر ذلك واضحا فى حديث زياد مع ابن عوف عن حب قيس لليلى . كما أن الجو السياسى الذى أضافه الشاعر من مرور موكب الحسين فى طريق قيس دون أن يحرك له ساكنا وضح تجسد هذا الحب فى قيس حتى لم يعد العالم يحرك له وجودا بعيدا عن ليلاه .

وحين قدم شوقى صورة وادى الجن نقل الصراع فى القصة الى العالم الغيبى فالعاشقان يواجهان قوة حددت لهما الطريق فلا لقاء . ولا اظن أن شوقى كان يسترشد فى هذا بالمسرح اليونانى فى صراع ابطاله ومواجهتهم له ولكنه بفطرة الفنان اتجه لهذا الصراع من خلال تراثه القصصى الشعبى فظهر ابداع شـوقى فى التقاط صورة

الجن وعلاقتها بالشعراء ليقدمها حية كمركز للصراع فى المسرحية . ويجعل آلام شخوصه ومواقفه مغالى فيها تماما كما تظهر فى القصص الشعبى .

وتبعا لذلك فان شوقى اهتم بالجمال أيضا فى حواره فيظهر الجانب السردى والخطابى ولم يكن ذلك عيبا فى القصة المسرحة وانما ساهم فى تشكيل مسرحية مجنون ليلى كعمل قصصى شعرى ممسرح .

ولم يكن من المنتظر أن يخرج شوقى عن اطار القصيدة العربية فى مسرحة لقصة بطلها شاعر يروى عنه أعذب قصائد الحب . وشوقى يعارضه فى بعض القصائد ويضمن بعض أبياته حوار المسرحية وفى ذهنه جمهور يعرف قيسا ويعرف شعره ، ومسرح له تقاليده الغنائية، فكان الاطار الشعرى الذى استخدمه شوقى ملائما للقصة المسرحة وملائما لعصره .

وانه من الخير ان يذكر هنا أن ما نسميه مسرح مصرى هو مسرحة قصصية ويجب النظر الى الاعمال المسرحية المصرية من هذه الزاوية سواء أنالت اعجابنا أم لم تنله .

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٥٨ ـ ١٩٨٣!
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٠٤٤ ـ ٠١٨ ـ ٩٩٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

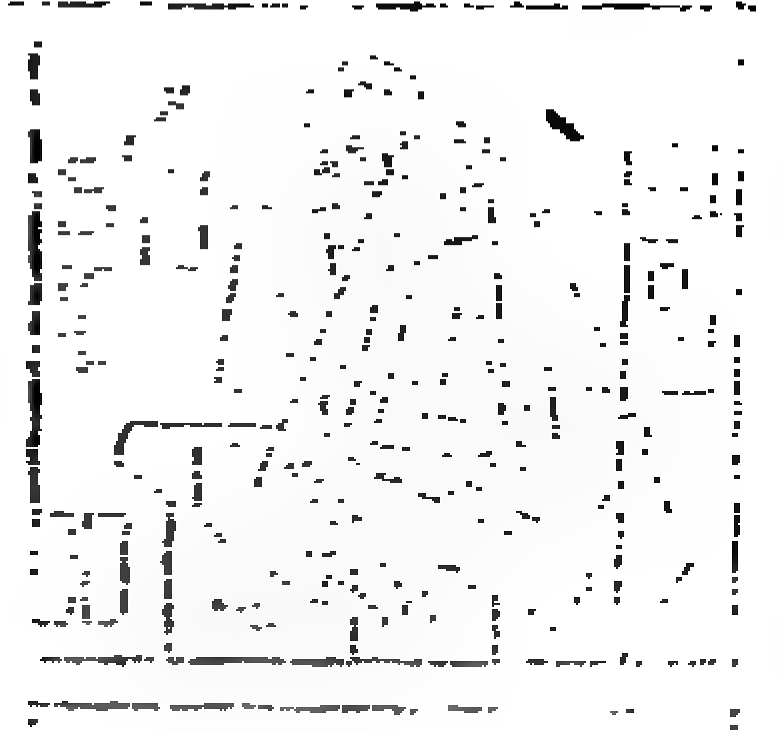
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Eckhopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL.

ـعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠مليما : ـ

يا ٧٠٠ ق.س ، لبنان ٧٠٠ ق.ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الـكويت ٩٠٠
، العراق ١٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، السودان ٧٠٠ مليم ، تونس
١ مليم ، المغـرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠سنتيم ، الخليج ٤٥٠ فلسا
الضفة ١٥٠ ليرة ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ،
الشمالية ٥٠ بنى ، الصومال ٥٠ بنى ، اديس آبابا ٥٠٠ سنت ، باريس
ـكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٣٫٥ فرنكات ،
دراخمـة ، فينا ٣٥ شلن ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، كوبنهاجن ١٠
، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سـنتا ، البرازيل ٣٥٠
، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سـنت ، هولنـدا ٤
نيويورك ٢٥٠ سنتا



هـذا الكتـاب

ازداد اهتمام الدارسين فى العالم اجمع فى السنوات الاخيـرة بدراسة الأسطورة وعلاقتها بالأدب • وقد قدم هذه الدراسة الأستاذ الدكتور احمد شمس الدين الحجاجي بعد ان استهوته دراسة الأسطورة سنوات طويلة وهو يحاول البحث عن الجـذور الاسطورية للأدب العربى حتى تكاملت لديه مادة هذا البحث القيم •

ويقم الكتاب راسة اسطورة الخلق الفنى فى الأدب العربى • وهي الفكرة التى كانت شائعة لدى العرب الاقدمين عن وجود قرين للشعراء يوحى اليهم بالشعر •

وقد حاول المؤلف ان يكشف الى اى حد تساعد الاسطورة على فهم طبيعة العمل الادبى ووظيفته ودورها فى تشكيله الجمالى •

ولما كانت دراسة الاسطورة فى علاقتها بالعمل الادبى موضوعا جديدا فى الدراسات الادبية العربية • فيسرنا ان نقدم للقارىء العربى هـذا العمل القيم فى دراسة العـلاقة بين الأدب والأسطورة فى ادبنا العربى ••

٣٥ قـرشـا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

ملامح القاهرة
فى ١٠٠٠ سنة

جمال الغيطانى

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٣ - ذو القعدة ١٤٠٣ - سبتمبر ١٩٨٣

No. 393 — September 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى • وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠م٠ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل عن الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين

جمال الغيطاني

ملامح القاهرة في ١٠٠٠ سنة

دار الهلال

مقاهى القاهرة

« .. مقاهى القـــــاهرة ، عالم فريد ، متشابك العناصر ، يحوى الملامح الانسانية العـامة ، وله ايضــا سماته الخاصة جدا . فى مقاهى القاهرة يجلس الناس حول المناضد متواجهين ، يتبادلون النجوى ، والاحاديث، والاشواق الانسانية ، والمصالح المادية ، وقضاءالحاجات، وعقد الصفقات ، وثمة من تلفه الوحدة ، يجلس محملقا فى الفراغ ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه الى جار لا يعرفه ، وربمـــا بدأت بينهما علاقة قوية قد تستمر عمرا ، وربما لم تعش أكثر من حدود اللقاء ... » .

الى أى عمق تاريخى ينأى عمر المقهى القـــاهرى ؟ لا يوجد مرجع تاريخى يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريس هذا العالم المتكامل ، ولكن الذى لا شك فيه ان المقهى كان جزءا من الحياة القــاهرية . منذ أن اتسعت القاهرة ولم تعد الحياة قاصرة فيها على الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم ، ولا شك أن المقهى كان موجودا بشكل مختلف عما نعرفه الآن ، فالقهوة التى استمد منها المكان اسمه لم تدخل مصر الا فى القرن السادس عشر الميلادى ، قيل ان أول من اهتدى اليها هو أبو بكر بن عبد الله المعــروف بالعيدروس ، كان يمر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته ،

فوجد فيه تجفيفا للدماغ واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة ، فاتخذه طعاما ، وشرابا ، وأرشد أتباعه اليه ، ثم وصل أبو بكر الى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، وهكذا أدخل الصوفية شراب القهوة الى مصر ، واختلف الناس حول هذا المشروب الجديد ، هل هو حرام أم حلال .

حرم البعض القهوة لما رأوه فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة وفى سنة ١٠٣٧ هـ زار القاهرة الرحالة المغربى أبو بكر العياشى ووصف مجالس شرب القهوة فى البيوت ، وفى الاماكن المخصصة لها .

في مطلع القرن العاشر الهجرى حسمت مشكلة تحريم القهوة أو تحليلها ، وانتشرت فى القاهرة الاماكن التى تقدمها ، وأطلق عليها اسم المقاهى ، ويبدو لنا أن هذه الاماكن كانت موجودة من قبل ذلك بمئات السنين ، ولكن لم يطلق عليها اسم المقاهى لان القهوة نفسها لم تكن دخلت الى مصر ، كانت هذه الاماكن معدة لتناول المشروبات الاخرى كالحلبة ، والكركديه ، والقرفة ، والزنجبيل ، ولم يكن الدخان معروفا أيضا حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، ويحدد الاسحاقى المؤرخ المعاصر ظهور الدخان فى سنة ١٠١٢ هـ ، غير ان مشكلة الدخان كانت أكثر تعقيدا ، لقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه ، وكثيرا ما كان يطارد مدخنوه تماما كما يطارد مدخنو الحشيش فى أيامنا هذه ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦ ، أن الوالى العثمانى اصدر اوامره بمنع تعاطى الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين ، وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الاغا ، ونادى بذلك ، وشدد بالانكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وكان كلما رأى شخصا بيده

آلة الدخان يعاقبه ، وربما اطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من نار .

القرن التاسع عشر

ربما كان أدق وصف وصل الينا عن المقاهى المصرية ، ما كتبه المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين ، فى كتابه « المصريون المحدثون » ، يقول « لين » الذى زار القاهرة وعاش بها فى مطلع القرن التاسع عشر « ان القاهرة بها أكثر من ألف مقهى ، والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود ، ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الاجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبا ، وفى داخل المقهى مقاعد متشـــابهة على جانبين أو ثلاثة ، ويرتاد المقاهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساءا وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه ، ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، أو عشرة فضة للبكرج الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة ، ويحتفظ القهوجى أيضا بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة ، وتستعمل هذه الاخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى ، ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الاعياد الدينية خاصة ... » .

وفى كتاب وصف مصر الذى أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهى فى زمن الحملة : « تضم مدينة القاهرة

حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ؛ حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من ان هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المبانى أثاثات على الاطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات « دكة » خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الاكثر فخامة بالاضافة الى بنك خشبى عادى بالغ البساطة .

ويبدو من وصف المقاهى هنا أنها تشبه الى حد كبير بعض المقاهى الصغيرة التى لا تزال قائمة فى قرى الصعيد الجنوبى ، لم يكن نظام الجلوس الى مناضد وفوق كراسى متبعا ، ويبدو ان هذا النظام لم ينتشر الا بعد إنشاء البارات المخصصة لتقديم الخمور ؛ ولكن لم ينتقل نظام الجلوس من المصطبة الى استخدام المقاعد والمناضد مباشرة انما مر بفترة كانت تستخدم فيهاالدكك الخشبية العريضة ، ولا يزال مقهى الفيشاوى القديم وبعض مقاهى القاهرة الفاطمية تحتفظ بدكك خشبية عريضة تتسع الواحدة منها لجلوس خمسة أو ستة أشخاص متجاورين ولا تزال احدى الدكك الخشبية فى مقهى الفيشاوى تحمل تاريخ صناعتها فى سنة ١٩١٠ أى فى فى بداية هذا القرن ، ويكاد المقهى القاهرى يشبه فى

ذلك الحين ، المقهى البغدادى الآن ، والذى يستخدم للجلوس فيها الدكك الخشبية ، غير أن الادوات التى كانت مستخدمة فى مقاهى القـــاهرة عند بداية القرن التاسع عشر ، لم تتغير كثيرا حتى الآن .

أدوات المقهى

فى أى مقهى قاهرى يطالعنا رف عريض فوق «النصبة» اى المكان الذى يتم فيه اعداد المشروبات ، هذا الرف يحمل عددا من النرجيلات ، وهى آلة التدخين ، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ مائتى عام ، فى بداية القرن التاسع عشر ، كانت النرجيلة تتكون من عدة أجزاء ، أولها الجوزة الهندية (وقد حل مكانها الآن البرطمان الزجاجى) ويوضع فيهـــا الماء ، ثم القلب النحاسى الذى يحمل الحجر المصنوع من الفخار ، ويوضع فوقه الدخان ، وفوقه جمرات الفحم ، وتتصل انبوبة التدخين بقلب النرجيلة (الآن يسمى الانبوب « اللى ») ويوضع فى مقدمته فم من الكهرمان ، لقد كانت صناعة النرجيلة فى بداية القرن التاسع عشر دقيقة ، ويوجد نماذج عديدة فى دكاكين التحف القديمة بخان الخليلى الآن ، كل منها كالتحفة الفنية ، بعضها صنع من الفضة، والنحاس ، والزجاج الثمين ، ويوجد حاليا قسم بأكمله من شارع المعز لدين الله فى القاهرة يضم عددا من المتاجر تختص بأدوات المقاهى ، ولوازمها .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت القهوة تقدم فى « بكرج » موضوع على جمر فى وعاء من الفضة أوالنحاس يسمى « عازقى » ويعلق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل ، ويقدم الخادم القهوة ممسكا أسفل الطرف بين الابهام والسبابة ، وعندما يتناول الفنجان والطـرف يستعمل كلتا يديه واضعا شماله تحت يمينه ، وتستعمل مجمرة تسمى « منقدا » من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحيانا ، وكانت القهوة يضاف اليها أحيانا الحبهان ، أو المصطكا ، أما الاغنياء فكانوا يضيفون اليها العنبر ، أما الآن ، فالقهوة تقدم فى كنكة من نحاس ثم تصب فى فناجين خزفية صغيرة ، وفى معظم المقاهى تقدم القهوة مجردة ، بدون اضافة أى شىء اليها ، ولكن هناك تاجر واحد للبن فى القاهرة الآن يقوم بخلط البن بالحبهان ومواد أخرى تضفى عليها مذاقا خاصا لطيفا ، ويعتبر هذه التركيبة من الاسرار ، ودكانه يقع فى احدى حوارى الفورية بالقاهرة القديمة .

ومن أهم المشروبات فى المقاهى الآن « الشاى » ، وهو مشروب حديث ، لم يدخل مصر الا فى القرن التاسع عشر ، وأثناء الجلوس بأى مقهى قاهرى ، تصل الى الاسماع نداءات يطلقها الجرسون مناديا العامل الذى يقف وراء المنصة ، يبلغه بطلبات الزبائن ، ولكل مشروب اسم معين ، والشاى له أكثر من اسم :

— شاى بنور : أى شاى عادى فى كوب زجاجى .
— شاى ميزة : أى شاى مخلوط باللبن .

ـ شاى بوستة : أى شاى غير مخلوط بالسكر ، انما السكر فى اناء صغير مجاور له .

ـ شاى كشرى : أى توضع أوراق الشاى الجافة فى مياه مغلية مع السكر .

اما القهوة فيكتفى للنداء بالآتى :

ـ واحد سادة : أى بدون سكر .

ـ واحد مضبوط : اى متوسط المذاق .

ـ واحد زيادة : أى السكر أكثر قليلا .

كما تسمى القرفة « فانيليا » . والنرجيلة الصغيرة « حمى » ، والنرجيلة التى تحمل كمية أكبر من الدخان الخـــــالص « عجمى » ، أما الدخان المخلوط بالعسل « المعسل » فينادون عليه قائلين « واحد بورى » ، أو « المصرى » وبالفعل فهو شـــــكل مصرى خالص من التدخين ، وان كان يشبه دخان « الجراك » المعروف فى الهند وبعض بلدان الجزيرة العربية ، غير أن الجراك عبارة عن فواكه عطنـــــــة مخلوطة ببعض الزيوت ، اما المعسل ، فهو دخان « تمباك » مخلوط بالعسل الاسود .

أبوزيد .. والظاهر

حتى انتشار المذياع فى مصر ، كانت المقاهى اماكن مخصصة لرواية قصص السيرة الشعبية والملاحم ، وكان أصحاب المقـــاهى يستقدمون رواة القصص ، وبعضهم يعرف باسم « الهلالية » لتخصصهم فى ســيرة أبوزيد الهلالى ، والبعض الآخر يعرف باسم « الظاهرية » نسبة

الى الظاهر بيبرس ، وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس فى القرن السادس عشر الميلادى ، وهى قصة طويلة تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة ، فضلا عن انها تصور حياة المجتمع المصرى بدقة ، وظهرت قصص أخرى هى سيرة الاميرة ذات الهمة ، و « الدرة الملكة فى فتح مكة المبجلة » ، و « غزوة الامام على مع اللعين الهضام ابن الحجاف » ، و «فتوح اليمن المعروفة برأس الغول».

ونلاحظ ان قصة الظاهر بيبرس قد انتشرت وذاعت بعد الغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ، ويبدو انها كانت كرد فعل على الهزيمة ، والجراح التى لحقت بالناس ، ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة للحمة «أبوزيد الهلالى» التى انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال الانجليزى لمصر ، انه رد فعل الشعب تجاه حدث أليم ، وشكل لحماية الذات بواسطة الفن .

كانت هناك قصص أخرى تروى بالمقاهى ، مثل قصة سيف ابن ذى يزن ، والف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة العبسى ، وكان المنشدون يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود ، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاءا مبرما .

يمكن القول ان العصر الذهبى لمقاهى القاهرة كان فى النصف الاول من هذا القرن ، خاصة فى العشرينات ، والثلاثينات ، وكانت القاهرة الجميلة ، الهادئة وقتئذ ، تزخر بالعديد من المقاهى ، منها مقهى نوبار والذى توجد مكانه الآن مقهى المالية ، وكان مجمعا للفنانين ، وكان عبده الحامولى يقضى أمسياته فيه ، ومعه بعض

أصحابه ، ومنهم باسيلي بك عريان الذى أفلس بعد ان انفق نصف مليون من الجنيهات ، وأحيانا كان يضيق بزبائن المقهى فيطلب من صاحبه أن يخليه من الزبائن له ولاصدقائه فقط ، على أن يعوضه الخسارة .

وفى ميدان الأوبرا ، كان يوجد مقهى السنترال : وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان الاوبرا ، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى الآن ، ويعرف باسم كازينوا الاوبرا ، وكانت تعقد به ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة ، وعندما التقيت به لاول مرة كان ذلك فى ندوة الاوبرا الشهيرة هذه .

أما مقهى متاتيا فمكانه فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان يؤمه جمال الدين الافغانى ، والامام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى المحامى المشهور ، ثم ارتاده عباس العقاد ، وابراهيم المازنى ، والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ التى كانت تصدر فى القاهرة ، وفى ركن المقهى مطعم صغير للفول والطعمية كان رواد المقهى يجدون فيه حاجتهم من الطعام .

وعلى مقربة من الموسكى ، قهوة القزاز ، ومكانها الآن بعض المبانى القائمة عند الجانب الايمن من الشارع بالقرب من العتبة ، وعامة زبائنها من أهل الريف ، الذين يجلسون فيها ويتأملون النساء القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء ، أثناء اتجاههن لشراء حوائجهن من أكبر شوارع القاهرة التجارية فى ذلك الوقت ، شارع الموسكى ، وبالقرب من مقهى القزاز كان يوجد محل حلوانى اسمه اللبان ، وكان زبائنه من

العسكريين القدامى ، والعجائز المتصابين ، بعضهم حارب مع عرابى ، وبعضهم شهد حرب الحبشة ، ومنهم من حضر فتح السودان ، كانوا يجلسون يتابعون المارة ، ويتبادلون الذكريات المستمدة من سنوات عمرهم البعيدة .

وفى شارع محمد على يوجد مقهى « التجارة » ، وهو من أقدم مقاهى القاهرة ، ويزيد عمره الآن عن مائة وعشرين سنة ، ولا زال قائما حتى اليوم ، ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين فى الفرق التى تتخذ من شارع محمد على مقرا لها ، هذه الفرق التى يطلق عليها ، فرق حسب الله ، وحسب الله هذا كان أحد الموسيقيين بجوقة الخديو اسماعيل ، وعندما خرج من الخدمة شكل أول فرقة للموسيقى تتقدم الجنازات والافراح .

وفى نهاية شارع محمد على ، أمام دار الكتب ، مقهى الكتبخانة ، وكان من روادها حافظ ابراهيم ، والشاعر عبد المطلب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان من رواد هذا المقهى أيضا الشيخ حسن الآلاتى ، وكان الشيخ يرتاد مقهى آخر بحى السيدة زينب ويطلق عليه اسم المضحكخانة ، ويشترط لدخول مجلسه وضع رسالة فى التنكيت والقفش ، حتى اذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها الى مجلس السادى ، وقد جمع الشيخ حسن الآلاتى كثيرا من نوادر المضحكخانة فى كتاب طبع فى نهاية القرن الماضى ، ويحمل نفس الاسم المضحكخانة .

وخلف دار الكتب كان يوجد مقهى بلدى صاحبه رجل عرف بهوايته لمصارعة الديوك ، وكان من رواده بعض الاثرياء الذين يشاهدون ما يقدمه من عروض ، وفى شارع الصليبة القريب كان يوجد مقهى الاتراك ، ومعظم

زبائنه من الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت محمد على للحرب ، وفى شارع محمد على أيضا مقهى عكاشة ، وهذا المقهى أنشىء فى الاربعينات ، بناه اولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة ، وكان مقهى مزودا بأجهزة استماع للموسيقى ، يجلس الزبون الى المنضدة ، ويضع السماعات الى أذنيه . ويطلب سماع اى اسطونة يرغبها ، لقد أدرك الزمان هذا المقهى بخطواته الثقيلة ، فأصبح مجرد مقهى عادى به آثار من العز القديم ..

وفى حى الحسين ، مقهى الفيشاوى الشهير ، وعمره الآن يتجاوز المائة عام ، وكان يتكون من واجهة انيقة ودهليز طويل حوله مقاصير صغيرة صفت فيها موائد رخامية ، ودكك خشبية ، وكانت شهيرة بالشاى الاخضر والاحمر الذى يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة ، وفى شهر رمضان يكثر رواده من الفنانين والكتاب والناس العاديين وفى أيام الشهور العادية ، كان للمقهى سحره الخاص ، وداخله يخيم هدوء يمت الى الازمان البعيدة الجميلة تؤطره هذه التحف العربية المتناثرة فى المكان ، وأمامه يجلس الحاج فهمى الفيشاوى يدخن باستمرار النرجيلة التى لا تنتهى ابدا ، وعلى بعد خطوات منه حصانه العربى الاصيل ، وفوقه اقفاص الحمام الذى كان مغرما بتربيته ، لقد صدر قرار بهدم هذا المقهى بعد عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع الحاج فهمى أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه ، فمات قبل أن يرتفع أول معول للهدم بأيام قليلة . ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه . كان من أشهر رواد المقهى الاديب العربى نجيب

محفوظ ، الذى كان يخلو الى جوه الهـــــادىء المعبق بالتاريخ يوميا أثناء عمله بمكتبة الفورى القريبة عنـدما كان يعمــل فى وزارة الاوقاف ، من الشــخصيات التى ارتبطت بالمقهى أيضـــا عم ابراهيم كان رجلا قصيرا ، ضريرا ، يتاجر فى الكتب ، وكان سريع النكتة ، فى ليالى الثلاثينات يجلس الى عدد كبير من الرواد ، ويبادلهم هذا الشكل الفكاهى من الحوار ، والمعروف فى مصر ، باسم «القافية» وكان يرد عليهم كلهم ويهزمهم ، لقد عرف مقهى الفيشاوى العديد من الشخصيات ، بعضها باق فى ذاكرة التــاريخ ، والــكثير منهــا رحل الى دروب الصمت .

على مقربة من الفيشــاوى كان هنـــاك مقهى قديم وغريب ، يقع تحت الارض ، واسمه مقهى سى عبده ، وكان دائرى الشكل ، يضم عــدة مقصورات ، تتوسطها نافورة مياه ، وقد وصف نجيب محفوظ هذا المقهى فى رواياته العظيمة ، الثــلاثية ، حيث كان يلتقى كمـــال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد اندثر هــذا المقهى تماما ، ومكانه الآن بعض المبانى الحديثة .

ومن المقاهى الشهيرة فى القاهرة القديمة والباقية حتى الآن ، مقهى عرابى الذى يقع بميدان الجيش ، عند نهــاية الحسينية ، وعرابى صاحبه كان أحد الفتـــوات المشهورين فى أوائل هذا القرن ، وقد بلغ من سطوته ان مأمور قسم الظاهر لجأ اليه يوما يطلب حمايته لان احد الاجانب هدده ، وكان الاجانب يحاكمون امام محكمة خاصــة فى ذلك الوقت ، ومن رواد مقهى عرابى نجيب محفوظ ، حيث يلتقى بأصـــــدقائه القدامى ، وزملاء

طفولته ، وفى هذه الجلسة التى تتم كل يوم خميس تلعلع ضحكات الاديب الكبير ، ويبدو مرحا ، سريع النكتة ، ولا يطرق هذه الجلسة من الشبان الا عدد محدود جدا عرف طريق المقهى الذى يستعيد فيه أديبنا الكبير ذكرياته وقصص شبابه مع رفاق الزمن القديم ، غير انه انقطع عن الانتظام فى حضور هذه الندوة الاسبوعية منذ عامين ، والسبب ، أزمة المواصلات فى القاهرة التى تعوق أديبنا الكبير عن الوصول من بيته فى العجوزة الى ميدان الجيش .

وفى مواجهة مسرح رمسيس « مسرح الريحانى » كانت تقع قهوة الفن ، وفيها البؤساء من الفنانين ، والكومبارس ، والنساء الضاحكات ، كانت هناك مارى منصور ، وزينب صدقى ، ودولت أبيض ، وأمينة رزق ، وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى ، وأحمد علام نقيب الممثلين .

أما مقهى « ريش » الذى لا زال موجودا حتى الآن ، فكان من أشهر مقاهى القاهرة .

وحتى أربعينات هذا القرن يوجد عدد كبير من المقاهى فى روض الفرج ، مقاهى جدرانها من الخشب ، محاذية للنيل ، وفى كل منها عدد من فنانى شارع محمد على ، يعرضون فيها الغناء والمونولوج ، ومنهم حسين المليجى ، ونعمات المليجى ، ولهلوبة ، وزينب فلفل ، وغيرهم ..

ويوجد فى شارع محمد على مقهى للمنجدين ، وفى باب الشعرية مقهى لا يرتاده الا عمال الافران البلدية ، وبجوار سينما كايرو فى القاهرة مقهى يؤمه الخرس فقط الذين فقدوا نعمة النطق ، وأشهر مقاهى النرجيلة فى القاهرة الآن ثلاثة : الندوة الثقافية بباب اللوق ،

وأخرى تحمل نفس الأسم بمصر الجديدة ، ومقهى ثالث بشارع أحمد سعيد بالعباسية .

واذا ما رحلنا الى الخمسينات سنجد مقهى انديانا فى الدقى ، وكان مقرا لندوة أدبية يومية محررها الناقد الراحل أنور المعداوى ، وكان من رواد هذه الندوة رجاء النقاش ، وسليمان فياض ، ومحمد أبو المعاطى أبو النجا .

والآن انحسرت الندوات الادبية التى كانت تعقد فى المقاهى ، لم يكن متبقيا منها الا ندوة نجيب محفوظ مع شباب الادباء فى مقهى ريش ، كل يوم جمعة ، وحتى هذه الندوة توقفت منذ ان قرر صاحب المقهى اغلاقه يوم الجمعة من كل أسبوع .

بالقرب من قهوة ريش ، مقهى آخر يلتقى فيه عدد كبير من المثقفين والادباء والصحفيين ولكن بشكل غير منتظم ، وهو مقهى « الندوة الثقافية » ، وهو مشهور بالنرجيلة ، ويوليها اهتماما خاصا ، فى نفس الوقت الذى لا تعنى فيه المقاهى الاخرى بهذا النوع من التدخين .

وحدة انسانية

لقد ولى العصر الذهبى للمقهى ، ولكن هذا لا يعنى تقلصها ، أو انحسارها ، صحيح ان المقاهى التى تفتح حديثا نادرة للغاية ، كما أن محلات تقديم المشروبات ووجبات الطعام السريعة تنتشر الآن ، ولكن لا تزال اكثر من خمسة آلاف مقهى فى القاهرة تعج بالزبائن والرواد ، كل مقهى منها يمثل وحدة سياسية ،

واقتصادية ، وأجتماعية ، وأنسانية ، فيه تصب كل العناصر التى يتشكل منها المجتمع ، الرأى العام للناس يتشكل فى المقهى ، وخلال الفترات التى ينتخب فيها اعضاء البرلمان يكون المقهى هو المكان الذى تنطلق منه وتتركز فيه الدعاية ، ويطوف المرشح بمقاهى المنطقة ، يجلس الى الرواد ويتحدث اليهم ويتودد اليهم ، وقد يدعو كل الجالسين لشرب الشاى أو القهوة .

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطا كبيرا ، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من سكنه أو مقر عمله ، قال لى أحد العاملين بهيئة الامم المتحدة انه عندما ذهب الى نيويورك فى أواخر الخمسينات شعر بفراغ غريب ، ثم أدرك بعد حين ان السبب افتقاده للمقهى ، والجلوس به ، وطاف بنيويورك حتى عثر على مقهى يونانى فيه طابع مقاهى حوض البحر المتوسط الذى يقترب الى حد ما من المقهى العربى فى مصر ، ولدهشته فوجىء بوجود عدد من المصريين يرتادون المقهى ، وكان عدد المصريين فى نيويورك كلها وقتئذ لا يتجاوز الثلاثين ، وفوجىء انهم اتخذوا مقرين للجلوس ، المقر الاول مقهى ذلك اليونانى ويرتاده الصعايدة ، والمقهى الثانى قريب ويرتاده أبناء الوجه البحرى .

فى المقاهى يتخذ البعض مقرا ثابتا لاعمالهم التجارية ، مثل السماسرة ، والمقاولين ، كما يطوف بها الباعة الجائلين يحملون بضاعتهم التى تتشكل من اقلام الحبر والنظارات ، والمحافظ الجلدية ، وسلاسل المفاتيح المعدنية ، وعندما يدرك التعب احد هؤلاء الباعة يأوى

الى مقعد ملتمساً بعض الراحة ، وفوق ملامحه يبدو الشقاء والكد .

يرى البعض ان المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت وتعطل الانتاج ، ولكننى اذ أركن الى أحد مقاهى القاهرة القديمة ، أحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام ، وايقاع الحياة السريع اللاهث ، ان المقهى نموذج مصغر لعالمنا يضج بكل ما تحتويه دنيانا .. » .

النـــرجيـــلة

« .. عرفت النرجيلة منذ خمسة عشر عاما ، عرفتها كصديق صامت ، يأنس اليه الفؤاد عنـدما ينوء تحت وطأة الاحزان والاكدار ، صديق يســـاعد العقل على التركيز ، واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك ، بدون أن يفرض مطالب خاصة ، أو ازعاجات ، أو يمر بمراحل التقلب من حب وكره وبغض ، اذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة المياه ونسة ، وتوحى الجمرات المتوهجة بحدود عالم سحرى ، مبهم ، عرفت النرجيلة فى آخر زمانها ، فلا شك انها تذوى ، ويدهسها ايقاع العصر السريع ، وفى كـل بلد ذهبت اليــه كنت أبحث عن النرجيلة ، عرفتها فى مقهى هافانا بدمشق ، وفـوق جبل قاسيون ، أرقب الافق الاخضر البعيد من خـلال صحبتها ، نرجيلة دمشقية أنيقة بزخارفهـا ، ودقـة صناعتها ، أما النرجيلة البغـدادية فى مقهى الإورفلى بشارع السعدون فهى غنية بالتمباك ، خشنة المظهر ، يشرف على تقديمها رجل عجوز ، يحيط خصره بفوطة حمراء . صامت دائما وكأنه يؤدى طقوس خاصة لا يجوز الاطلاع على مكنونها . أما النرجيلة القاهرية فهى انسانية فى مجتمعها ، لها مجتمع خاص يتجمع حوله الاصحاب،

أصحاب من نوع خاص يجمعهم هواية تدخين النرجيلة، وبعد أن كانت تقدم فى أماكن خاصة ، وفى أزهى الاشكال انزوت الآن فى مقاهى قليلة ، أما النرجيلة التركية فقد كادت تختفى ، ولا تقدم الا فى عدد قليل من المقاهى ، خشنة المظهر ، ذلت بعد عز كبقايا الامبراطورية العثمانية ، يقبل عليها شباب الهيبز الاوربيين وكأنها اعجوبة ، ينفثون دخانها ويحملقون الى مياه القرن الذهبى من موقع ذلك المقهى تحت كوبرى جلطة .

قد تختلف النرجيلة من هنا الى هناك ، ولكنها بشكل عام آخذة فى الاضمحلال ، والزوال . مع زحف ايقاع العصر السريع ، على روح الشرق التأملية ولن يمضى زمن طويل حتى يولى عصر النرجيلة تماما ..

التبغ

كانت البداية من امريكا ، عندما رأى البحارة الاوربيون هنود القارة الجديدة يدخنون هذه المادة التى تبعث دوارا خفيفا ، التبغ ، ومنها انتقل الى أوروبا ، ثم الى الشرق ، وظهر الدخان فى مصر سنة ١٠١٢ هـ، واثار ظهوره خلافات حادة بين علماء المسلمين ، وتمسك معظمهم بتحريمه ، ولا زال الوهابيون يحرمونه حتى الآن ، وكانت الاوامر تصدر بمنعه أحيانا ، فى حوادث سنة ١١٥٦ هـ ، يذكر الجبرتى ان الوالى العثمانى اصدر أمرا بمنع التدخين ، ونزل معه الاغا ، وتابع بنفسه المنع ، حتى انه كان يعاقب المدخن باطعامه الحجر الذى

يوضع فيه الدخان بما فيه من النار ؛ لكن المتصوفة تعصبوا للدخان ، كما تعصبوا للقهوة والشيشة من قبل ، ونظم أبو الذهب البكرى قصيدة فى الدخان :

هات اسقنى التبغ ان نبع الصفا سحرا
حتى أضرر منه وهو اغشاء

واستجل أنوار شمع من
قد زانه قامة بالحسن هيفاء

لعل ناراسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لها بالقرب اطفاء

ولم تكن لفائف التبغ معروفة وقتئذ ، انما كان التدخين يتم بواسطة الشبك ، أو النرجيلة ، وكان المدخنون يحملون الشبك اما بين ايديهم ، أو مع الخادم خلفهم اذا كانوا أثرياء ، ويبلغ طول قصبة التدخين – كما يصفها ادوارد لين – اربعة أقدام أو خمسة ، ويغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون ، أو تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة . ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد الاسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء يبلل بادىء الامر بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان ، أما الحجر الذى يوضع فيه التبغ فهو من الآجر ولا زال يصنع من نفس المادة حتى يومنا هذا ، وكان يوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، أما « الفم » فيتكون من قطعتين أو اكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليمانى واليشب والعقيق ، وخلاف ذلك من الاحجار الكريمة ، والفم أثمن جزء فى

الشبك وقد يرصع بالمــاس . وكان الشبك يحتاج الى تنظيف متواصل ، شأنه فى ذلك شأن البايب الآن ، لهذا كان كثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك ، ويبدو ان العائلات المسماة بالشبكشى كانت أصلا تتاجر فى الشبك ، أو تقوم بتصنيعه ، وهناك سمة مشتركة بين الشبك والنرجيلة وهى طول قصبة التدخين وبعد الحجر عن المدخن ، ويبدو ان ذلك ناتج عن الطبيعة الحارة للبلاد الشرقية ، بعكس البايب الغربى ، الذى يحيطه المدخن بيديه فيسرى اليهما الدفء من الحــرارة المنبعثة فى الخشب ، لقد انقرض الشبك الآن تماما ، وأصبح معلقا فى المتاحف على الجدران ، أو فى مراكز بيع الانتاج الفولكلورى القديم ، خاصة فى بغــداد ، حيث يضــم المركز الفولكلورى أنواعا متعددة من الشبك ، ولا شك ان النرجيلة ماضية فى الطريق نفسه ، فبعض النرجيلات الثمينة ، المصنوعة من الزجاج الملون ، والمرسوم عليهــا صور بعض ســلاطين الاتراك أو الحكام العثمانيين . أو بعض المناظر الطبيعية ، أما نراها الآن فى المتاحف ، أو معروضة فى بيوت الاثرياء .

النرجيلة مشتقة من لفظ « النارجيل » الاسم الذى يطلق على ثمر جوز الهند ، يمكن القــــول أن ترجمته الحرفية تعنى « الجوزة » وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الشعبية فى مصر ، لانها كانت مكونة فعلا من ثمرة جوز هند مفرغة ، وتثقب مرتين ، ثقب يوضع فوقه الحجر ، وثقب تنفذ من خلاله أنبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذى يمر خلال الماء الموضوع

فى الجوزة نفسها ، وصف الرحالة والعالم الدانمركى كارستين نيبور «الجوزة» المصرية ، التى لم تتغير ملامحها حتى أوائل هذا القرن، وعندما ارتفعت أسعار ثمار الجوز فاستبدل به كوز صفيح فارغ ، أو زجاجى ، وهذا أبسط الاشكال الشعبية للنرجيلة ، .ويدخن بواسطته المعسل ، وهو الدخان المزوج بالعسل ، ويعرف فى المقاهى المصرية باسم « البورى » أو « المصرى » ، يقـــول كارستين نيبور ان العامة يدخنون الجوزة للتدفئة أيضا ، ولكن النرجيلة الانيقة التى تستبدل فيهـــا الجوزة ببرطمان زجاجى فان كارستين نيبور يطلق عليهــــا « النرجيلة الفارسية » ، ويقول ان أثرياء فارس يتخـــذون هذه النرجيلة وكثيرا ما تكون كلها مصنوعة من الفضة ، أو النحاس ، وتوجد فى خان الخليلى الآن نرجيـلات من النحاس المنقوش ، يمكن أن يدخن منها عدة أشخاص فى وقت واحد ، عن طريق عدة ليات تخرج منها ، ومثل هذه النرجيلات تستخدم فى بعض بلدان الجـــــزيرة العربية خاصة اليمن والسعودية ، ويقول نيبور ان شيراز كانت مشهورة بصناعة النرجيلات الزجاجية الانيقـــة ، وأحيانا كانت توضع فيها زهور مختلفة الالوان مثبتة من الداخل ، والنرجيلات الفارسية كانت منتشرة فى الهند أيضا حتى القرن الماضى ، غير ان ادوارد لين يقدم الينا وصفا أدق للنرجيلة فى مصر .

الشيشة كلمة فارسية تعنى زجاج ، وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الآن فى مصر ، وهذا الاسم نتيجـــة

للوعاء الزجاجى الذى يملأ بالمـاء الى قـدر معين ليمر الدخان من خلاله ، ويقول ادوارد لين ان التدخين يتم من خلال أنبوبة طويلة لينة « تسمى لى » . ويغسل التمباك عدة مرات بالمـاء ، ثم يقطع ويوضع فى حجر الشبك وهو رطب ، ويوضع عليـه جمرتان أو ثلاثة ، ويقول لين ان للتمباك عطر لطيف مقبول ، لكن شـدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة ، ان الوصف الذى كتبه ادوارد لين منـذ حوالى مائة وخمسين عاما لم يتغير كثيرا حتى الآن ، ولكن الذى تغير هو شكل النرجيلة ، ونوعية الدخان ، حتى الخمسينات كانت هناك أنواع متعددة من التمباك ، عجمى ، ولاذقانى (نسـبة الى اللاذقيـة) وازميرلى ، وهندى ، ويمنى ، وعدنى ، ولكن الآن تنقسم الشيشة فى مصر الى نوعين رئيسيين ، عجمى وهو نوع خاص من الدخان مصدره ايران أو تركيا ، ويوضع بكمية أكبر فوق الحجر ويلف بورقة تمباك صحيحة لم تقطع بعد أن تبل بالماء . وتشبه الشيشة العجمى مثيلاتها فى دمشق وبغداد واستامبول ، لكن نوعية التمباك الذى يصل الى مقاهى القاهرة أردأ ، ولهذا فان النرجيلة العجمى يعتبر دخانها قاسيا ويحتاج الى صدر قوى لتحمله ، أما النوع الثانى فهو الشيشة « الحمى » ، وكمية الدخان فى الحجر هنا أقل ، ونوعية الدخان أهدأ ، وهذا هو النوع الاكثر انتشارا الآن .

وأشهر مقهى فى القاهرة لتدخين النرجيلة الآن مقهى

الندوة الثقافية في ميدان باب اللوق ، وكان صاحبه محمد حسنين يمتلك مقهى بناه في سنة ١٩٢٠ بشارع منصور بالقرب من مكان الغرفة التجارية الآن ، ثم هدم المقهى عام ١٩٥٩ ، وانتقل أبناؤه رشاد وجلال وعلى الى هذا المقهى القائم حتى الآن ، والذى يؤمه عدد كبير من الكتاب والفنانين من هواة تدخين النرجيلة ، لكن حتى منتصف القرن كانت هناك أماكن متعـــددة ، مشهورة لتدخين النرجيلة أهمها مقهى الاوبرا ، أو كما كان يعرف فى الثلاثينات والاربعينات باسم كازينو بديعـــة نسبة لصاحبته بديعة مصابنى ، كانت تقـدم فيه النرجيلات الزبائن ، كل زبون له « لى » خاص به مكتوب فـوقه اسمه ، لا يدخن به شخص آخر ، وكان الحجر يقدم محفوفا بالزهور ، وفى الماء توضع ثمرات من الكرز ، وكان يجلس بالمقهى عدد من كبـــار رجال السياسة ، والاقتصاد ، والادباء ، وأهمهم نجيب محفـوظ المدخن العريق للنرجيلة ، وكان منظرا مألوفا ان ترى السيدات المحجبات يجلسن بهـــذا المقهى ينفثن دخان النرجيلات بوقار ، بينما تمر بديعة مصابنى بنفسها تتأكد من وفرة الجمر ، واراحة الزبائن ، كانت هناك مقـــاهى آخرى مشهورة بالنرجيلة ، مثل مقهى عرابى فى ميدان الجيش، ومقهى الفيشاوى فى الحسين ، والذى كان يجلس أمامه المرحوم فهمى الفيشـــــاوى لا يفارق الفم فمه ليـــلا ولا نهارا ، كان ذلك بعد أن فارق الشباب وهجر الفتونة والشقاوة ، وكان هناك مقهى نوبار الذى كان يغنى فيه

عبده الحامولى ويرتاده خليل مطران ، وسليم سركيس الصحفي ، ومقهى الكتبخانة أمام دار الكتب ، وكان يقدم الشيشة لحافظ ابراهيم الشاعر ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وغيرهما ، وكان هنـــــاك مقهى الشيشة فى شارع الجمهورية ، ومكانه الآن دكان للتجارة ، وكان يجتمع فيه هواة التدخين ، وهواة المصارعة بالكلاب ، أما مدينة الاسكندرية فتزدحم حتى الآن بعدد من المقاهى المشهورة بتقديم النرجيلة ، مثل مقهى التجارة ، ومقهى جابر بالمنشية ، ومقهى فاروق بحى بحرى ، ومقهى وادى النيل بالرمل .

وتصنع النرجيلات فى منطقة القاهرة القديمة ، وتوجد عدة متاجر متجاورة بشارع بين القصرين تبيع النرجيلات، وأدوات التدخين ، من حجارة وليات ، وغيرهما ، ويبلغ ثمن النرجيلة المصنوع قلبها من النحاس وهو الجزء الذى يصل بين البرطمان الزجاجى والحجر ، حوالى خمسة عشر جنيها ، أما النرجيلة المصنوعة من النحاس الخالص المنقوش والتى تباع فى متاجر التحف بخان الخليلى ، فيبلغ ثمنها عدة مئات من الجنيهـــــات ، وأذكر قسما خاصا بالنرجيلات يحتل أحـــد فروع ســـــوق الحميدية بدمشق بالقرب من المسجد الاموى .

وفى الثلاثينات كان متوسط سعر النرجيلة من التبغ عشرة مليمات فى مقاهى القاهرة ، وفى الاربعينات كان ثلاثة قروش أى ثلاثين مليما ، وخضع سعر النرجيلة للتطور ككل شىء الآن فى القاهرة يبلغ سعر النرجيلة الحمى عشرة قروش ، والعجمى تصل الى أربعين قرشا ،

أما الكيلو من التبغ الخــاص بالنرجيلة فثمنـه ثلاثين جنيها ، وكان فى أوائل الخمسينات بثلاثة جنيهــات ، فى دمشق تستطيع أن تدفع نصف ليرة سورية مقــابل تدخين نرجيلة فاخرة ، كذلك فى بيروت ، فى بغـداد ثلاثين فلسا ، وفى استامبول يبلغ قيمة النرجيلة لحجر واحد ما يوازى نصف جنيه مصرى .

على أية حال ، فالنرجيلة ماضية فى طريق الانقراض ، ولن تمر سنوات طويلة قبل أن توضع فى المتاحف ، واننى لأرثى لهؤلاء الذين ســـيأتون فى الازمان المقبلة ، فلن يجدوا صديقا صـــامتا ، مستجيبا يلجأون اليه اذا ما ازداد الكرب ، واعتم الواقع ، وأدلهمت الظروف ، وبدت الايام رمادية مثقلة بكل باعث للضيق ، والكتمة ، نحن نلجأ الى النرجيلة ، ولـــكن هم .. الى من سيلجأون ؟؟

العمامة المملوكية

« .. للعمامة مكانة فى التـــاريخ ، بل مكانة هامة جدا ، ويبدو ذلك واضحا فى العصر المملوكى ، فحجم العمامة ، ولونها ، وطريقـــة تفصيلها توضح المكانة ، والفئة ، والطبقة ، والمهنة ، والدين ، ولا عجب ، الا تحتل أعلى جزء فى جسم الانسـان ؟ ، الرأس ، وما يلحق ذلك من مهابة ، ومكانة ، وطلعة ، وللعمامة تاريخ أبعد بكثير من العصر المملوكى ، كان سعيد ابن العاص بن امية يتميز بين العرب القدامى بجمال عمامته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعتم بعمامة كانت معروفة باسم السحاب ، وقد أورثها ، أو تنازل عنها لعلى ، ولعل ابن جبر فى كلامه عن « عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كعبتها على رأسه كأنها ســـحابة مركومة وهى مصفحة بالذهب » . قد أشار الى هذه العمامة البيضاء للرسول ، وذلك أثناء حديثه عن أمير مكة .

يقول رينهارت دوزى فى « المعجم المفصل بأســماء الملابس عند العرب » ان لهذه الكلمة مدلولان ، الاول يشير الى العمامة بقضها وقضيضها ، اى الكلوتة وقطعة القماش المحيطة بها ، أما المدلول الثانى فيعالج قطعـة

القماش وحدها ، وهى التى تلف عدة لفات حول الطاقية « الكلوتة » غير اننا هنا سنعالج العمامة فى منظـــرها الكلى ، وفى عصر محدد هو العصر المملوكى أزهى عصور العمامة ، خاصة فى فترات ازدهاره ، اذ نلاحظ انه فى فترات الرواج الاقتصادى كان ذلك ينعكس على العمامة من حيث المضمون والشكل ، الدندشة والابهــة ؛ وفى فترات القحط يتضاءل الحجم ، وتقل نوعية القماش ، ولان العمامة المملوكية مقسمة الى أقســام ، فلابد من معالجتهــــا كذلك ، اذن ، من اين البداية ؟ من اعلى المناصب ، من عمامة السلطان نفسه . .

العمامة السلطانية

لا نستطيع أن نتخيل سلطانا مملوكيا بدون عمامة ؛ انهم يطلون علينا جميعا من أيام التاريخ البعيدة وفوق رءوسهم عمائم متنوعة الاشكال والالوان ، لكن المهم ، اننا دائما فى مواجهة عمامة سلطانية فخمة ، صغرت أو كبرت ، ان العمامة باختصار هى شعار السلطنةالرسمى، وأول شىءيرتديه السلطان عند تنصيبه ، عمامة سوداء ، واللون هنا هو شعار الولاء للخلافة العباسية ، وعنــدما أرسل الخليفة العباسى ملابس التتويج الى الظاهر بيبرس كان أهم قطعة فيها هى العمــــامة السوداء المنسوجة بخيوط الذهب ، ونلاحظ ان السلطان كان يرتدى فى حفـــلات التتويج زى رجل دين ، وكان رجال الدين يرتدون أضخم العمائم حجما ولذلك حديث لاحق،وعندما يخرج السلطان فى موكب كان يرتدى عمامة صغيرة ،

أسمها « تخفيفة » ، ويهتم أبن أياس بوصف هـذه التخفيفة التى اشتق اسمها من فعل « خف » ، وكانت التخفيفة من الملابس الخاصة بالسـلطان ، أو الامراء وحدث أن قاضيا أرغم على حضور حفل ساهر عند احد الامراء ، ويذكر المؤرخون انه تجرد من ملابسه ، وهـذا التجرد يعنى انه خلع عمامته الكبيرة ، وارتدى تخفيفة، عمـامة صغيرة لا تليق بمكانته كرجل دين ، غير ان التخفيفة السلطانية كانت تنقسم الى قسمين ، تخفيفة صغرى ، وتخفيفة كبيرة كان السـلطان يرتديها فى المناسبات فقط ، أطلق عليها الناس اسم « الناعورة » ، ومن أوصاف ابن اياس لها نلاحظ تطابقها مع شـكل الساقية السورية المعروف بهذا الاسم ، حيث نجـدها مسننة كترس الآلة ، وعندما يلبس السلطان التخفيفة الكبيرة فانها مناسبة كبرى ، يفرد لها ابن أياس سطورا عديدة ، يقول صاحب بدائع الزهور . .

« وفى يوم الاثنين رابعه طلعت الامراء الى القلعة على العادة . فخرج لهم السلطان من الدعيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بهـا الاتراك ، وكانت التيجـان يلبسونها ملوك الفرس من الاكاسرة ، فصارت التخفيفة الـكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الاخبار ان العمائم تيجان العرب ، وكان السلطان له نحوا من أربعة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولاجلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج فمشى وجلس على المصطبة ،

فبأسوا له الامراء الأرض ، وهنـــوه بلبس التخفيفة الكبيرة .. » .

واعتاد السلطان الغورى لبس تخفيفة صغيرة ، بل انه يظهر بها فى أحد المواكب ، فى صفر من عام ٩٢٠ هـ، ويبدو انه كان هناك نوع مدور من التخافيف الصغيرة ، ويبدو الغورى باحداها عند عودته من الاسكندرية فى الخامس عشر من شهر ذى الحجـة عام ٩٢٠ هـ (٣١ يناير ١٥١٧) ، ولم يكن ذلك يثير الاستياء فى عصر الغورى ، بعكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، فى سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠١ ميلادية) حضر السـلطان محمد بن قايتباى صلاة الجمعة وهو يرتدى (تخفيفة صغيرة) فأثار استياء الامراء كلهم ، وكان السلطان يلبس العمامة الكبيرة فقط ، ولا يسمح لاحد غيره بارتدائها ، وفى لحظة نادرة كان السلطان يشعر بالرضا على أحد رجاله، عندئذ يهديه عمامة كبيرة ، يقول ابن اياس :

« وفيه أنعم السلطان على أركاس من طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف وجعل له مرتبا على الاخيرة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار وفى كل سنة ألفى أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الامير طراباى رأس نوبة النوب، وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطـوال فألبسها له . وقلع من عليه وألبسه له ، فحصل له فى ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان » (١) .

من ناحية أخرى كانت العمامة تتغير مع الفصول ، فعند بداية الصيف بين الحـادى عشر والســـادس

(١) ابن اياس . الجزء الرابع ص١٠٠ طبعة محمد مصطفى وكاله .

والعشرين من مايو يرتدى السلطان عمامة بيضاء اللون ، ومع بداية فصل الشتاء ، بين السادس والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر . كان يرتدي العمامة السوداء، وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التى يغير فيها جنود الشرطة والجيش أزياءهم الآن وكان تغيير السلطان لزيه ولعمامته من الاحداث الهامة التى يسجلها المؤرخون ، وهناك لوحة مشهورة تمثل السلطان الفورى وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التى يغير فيها موجودة فى متحف اللوفر الآن ، ويبدو الفورى فيها مرتديا العمامة الضخمة ، « الناعورة » بقرونها الطوال ، وتعتبر اللوحة أرشيفا حيا للعمائم ، كانت هناك عمامة اخرى تحتل مرتبة كبيرة فى الاهمية ، وهى عمامة الخليفة العباسى ، ولونها أسود . مدورة ولها طرف « عزبة » يتدلى خلف الظهر ، واسم هذا الجزء الرفوف، وطوله نصف ذراع ، وعرضه ثلث ذراع : تلك هى عمائم السلطنة والحكم والخلافة فماذا عن بقية العمائم ؟

الكلوتات والشرابيش

عمائم الامراء أقل حجما بالطبع ، لها اسم خاص ، مفرده « شربوش » وصفه المقريزى بأنه يشبه «التاج» ، يبدو مثلث الشكل ، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن يلف حوله قماش ، وعندما كان المملوك يرقى الى رتبة فارس ، كان يلبس العمامة من يدى السلطان ، ويبدو أن الشربوش كان منتشرا فى العصر الايوبى ، وعصر المماليك البحرية وانه أصبح أقل انتشارا فى عصر المماليك

الجراكسة ، وكان هنـــــاك سوق بأكمله اسمه سوق الشرابشيين حيث تصنع أغطية الرأس الخاصة بالامراء، ومكان هـذا السوق اليوم منطقة الغورية فى القاهرة ، وقد استعادت احدى مدارس دمشق الاسم ، يقول ابن بطوطة انه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشربشية ، كانت « الكلوتة » أخف من الشربوش ولكن تعادله فى الرتبة والقيمة ، اذ أنها كانت غطاء رأس الامراء أيضا ، ومع الزمن أصبحت رمزا للقادة والضباط الكبار ، وكان السلطان نفسه باعتباره قائدا أعلى للجيش يرتدى كلوتة صفراء ، وكانت الكلوتة بسيطة المظهر تشبه الى حـد كبير الطاقية فى عصرنا ، ولكن السلطان خليل بن قلاوون اصدر أوامره الى رجال عهـــــده بارتداء « الكلوتة » المطرزة .

يقول القلقشندى فى صبح الاعشى (١) :

« فأما ما به تغطية رءوسهم ، فقد تقدم أنهم كانوا فى الدولة الايوبية يلبسون كلوتات صفر بغير عمائم ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ، فلما كانت الدولة الأشرفية « خليل بن قلاوون » رحمه الله ، غير لونهـا من الصفرة الى الحمرة ، وأمر بالعمائم من فوقها ، وبقيت كذلك حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله فى أواخر دولته فحلق رأسه ، فحلق الجميع رءوسهم ، واســـتمروا على الحلق الى الآن ، وكانت عمامتهم صغيرة فزيد فى قدرها » .

لقد أصبح للكلوتة شأن كبير بعد عهد السلطان خليل قلاوون وحدث فى سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٢ ميلادية) ان

(١) جـ ٤ ص ٤٠ طبعة دار الكتب المصرية .

قبض على الأمير جيراى نائب السلطنة بالشام . فنزعت عمامته « الكلوتة » والقيت على الارض ، والبسوه عمامة صغيرة بدلا منها ، وكان هذا يعنى فقدانه لكل نفوذه ؛ ثم تطور حجم « الكلوتة » وأصبحت ضخمة ، بها عـدة انتفاخات ، ويبدو ان ثمنها كان مرتفعا ، أو أن هواية جمعها وجدت عند البعض ، اذ يحدثنا المقريزى عن الوزير عبد الله بن زنبور الذى وجدوا فى ثروته ستة آلاف عمامة من طراز الكلوتة ! ، حدث تطور آخر فى شـكل « الكلوتة » خـلال العصر الجركسي ، ولكنها استمرت بنفس الخطوط الخارجية حتى نهاية العصر المملوكى فى « ١٥١٧ » على أيدى العثمانيين ، ثمة عمـامة أخرى كانت تخص العسـكريين فقط واسمها « سراقوج » ويبدو ان أصله تترى ، وكان هناك نوع آخرمن العمامات « الطاقية » ، ولا تزال موجودة حتى اليوم فى الاحياء الشـعبية بمصر ، كانت فى العصر المملوكى مدورة ومسطحة ، وارتفاعها يبلغ سـدس ذراع تقريبا ، وفى عصر فرج بن برقوق ارتفعت الطاقية ، عنـدئذ حـدث تغيير بسيط فى الجزء الاعلى منها فصنع على هيئـة قبة صغيرة كثر فيها الحشو بمادة الورق ، وزين بفراء القندس ، ثم ضاقت الطاقية فى سنة ١٤٨١ عند القاعدة وصنعت من لونين مختلفين ، والطاقية بقيت الى يومنا هذا ولكن فى شـكلها البسيط الاول ، وكان هناك نوع آخر من العمامة ، اسمه « زمط » ويعترف دوزى فى المعجم بانه يجهل هذا اللباس ، لكن ماير فى كتـابه « الملابس المملوكية » (١) يوضح انه غطاء الرأس ، ويبدو

(١) الملابس المملوكيـة ـ ماير ـ ترجمة صالح الشيتى ـ القاهرة ١٩٧٢

انه كان عمامة للفقراء ، لكن فى فترة معينة صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين . ثم اصبح الزمط جزءا من الزى العسكرى الشركسى ، وعندما كان يصدر الامر بمعاقبة أحد الامراء كان يوضع على رأسه زمطا قديما .

رجال الدين

اضخم العمائم حجما كانت من نصيب رجال الدين ، وهى أهم جزء فى ملابسهم ، كما انهم لا يرتدون غيرها كغطاء للرأس ، ولا زالوا حتى اليوم ، وقد أطلق عليهم « المتعممون » نظرا لانهم من المستحيل ان يظهروا بدون عمائم ، وكانت عمامات رجال الدين تستند الى الطبقة التى ينتمى اليها صاحبها فى المركز الاجتماعى ، وفى القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدى رجال الدين عمائم كبيرة شاذة فى حجمها ، وكان لبعضها ذوائب طويلة (١) وكان رجال الدين الفقراء يرتدون عمائم أقل حجما ، وكان خطيب الجمعة يرتدى عمامة سوداء يوضع فوقها طرطور أسود ، وكان للاشراف ، أى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم ، وقد بدأ هذا التمييز فى عصر السلطان شعبان عندما أمرهم بتثبيت قطع قماش خضراء فى عمائمهم ، ثم تطور الامر عندما اصبحت العمامة كلها خضراء . ولا زال رجال الدين من الاشراف يرتدون العمامة الخضراء حتى اليوم ، خاصة فى ريف مصر ، وحتى سنة سبعمائة لم يكن للعمامة علاقة بالاديان الثلاثة ، ولكن الوضع تغير بعد ان

---

(١) الملابس المملوكية ـ ماير ـ ترجمة صالح الشيتى ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠

جاء الى مصر وزير مغربى فاجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه الامير ســـلار . وتحـدث معهم فى أمر اليهود والنصارى ، وهاله ما رآه من تمتعهم بالحقوق ، وقال انهم عندهم فى غاية الذل والهوان ، فأثر كلامه عند أهل الدولة ، ولا سيما الامير بيبرس الجاشنكير فأمر ان تغير عمائم النصارى واليهود ، فيلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفر ، ولم يستمر هذا الوضع كثيرا غير أن السلطان الصـــــالح صالح ابن الملك النـــــاصر أمر فى سنة ٧٥٥ بمنع اليهود والنصارى من عدة أمور وألزمهم بارتداء العمائم الزرقاء والصفراء . ويبدو ان العمائم التى كان يرتديها أفـراد الشعب كانت تستخدم لغرض آخر وهو استعمالها كمكان لحفظ النقود ، وهذا مستمر حتى الآن فى الريف ، عندما تفاجأ بأحد الفلاحين قد مد يده الى عمامته وأخرج من طياتها ورقة نقدية ، ولهذا السبب كثر خطف العمائم فى الطرقات أثناء الاضطرابات التى كان يتسبب فيهـا المماليك ، اذ انهم كانوا يخطفون أكياس نقود ، وليس مجرد عمائم ..

النساء

فى شهر محرم سنة ٦٦٢ هجرية ، صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمـــامة ، ومن الواضح ان ارتداء النساء للعمائم كان مثار جدل شديد بين الفقهاء ورجال الدين ، ولكن العمامة لم تكن زيا شائعا للنساء ، انما كن يرتدين قماش يطلق عليها اسم « العصابة » وهو

اسم لا زال يطلق حتى الآن على الطرح والمناديل الحريرية فى الاحيـــاء الشـــعبية المصرية ، لـكن عصـــب النســـاء فى العصر المملوكى كانت تحلى بالجواهر ، والزخارف الفنية ، وخلال النصف الثـانى من القرن الخامس عشر حل « الطرطور » محل العمائم ، وفى رجب سنة ٨٧٦ هـ ، أصدر السلطان قايتباى أمرا بوجب على كل امرأة أن تمتنع عن ارتداء « عصابة » أو « سراقوس » من الحرير ؛ وصـــدرت الاوامر لرجال المحتسب بأن يضربوا أى امرأة ترى فى الاسواق مرتدية هذه العصب؛ وسرى الخوف الى النساء فصرن يخـــرجن حاسرات الرءوس ، وداخل منـــازلهن كن يرتدين غطاء الرأس المحرم .

لقد ولى العصر الذهبى للعمـــامة مع انتهاء العصر المملوكى عام ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٧ م ، مع الغزو العثمانى ، وعندما جاء ادوارد لين فى بداية القرن التاسع عشر لم يكن تبقى الكثير من طبقات العمائم وأنواعها ، انه يصف لنا غطاء للرأس يكاد يكون هو الموجود حاليا والذى يرتديه رجال الدين المســلمين قلنسوة قطنية صغيرة مطابقة للرأس ، ثم طـــربوش أحمر من الجوخ ، ويلف بقطعة طويلة من الحرير ، اندثرت العمامة الزاهية اذن ، الناعورة ، والكلوتة ، والشربوش ، وأصبح لفظ العمامة يعبر الآن أحيانا عن السخرية ، خاصة عندما يقول الناس « أصله لبس العمة » أى خدع ، لانه مغفل ، أصبحت العمامة توحى بالغفلة والبله ، بعد ان كانت رمزا للسلطان وللغضب وللجاه ، ولطبقة الانسان ، ولديانته وسبحان مغير الاحوال !

الخيول المملوكية

القاهرة المملوكية .

نتجه الى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول فى سوق الخيل مدخلا طبيعيا الى عالم رحب ، وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطى ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، أنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة على ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها ، وأغلاها قيمة ، مطلوبة للسباق ، وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن ، والشام ، والعراق ومصر وبرقة . النوع الثانى ،تركى أو عجمى وكانت تسمى الهماليج ، أو الاكاديش ، مرغوبة لصبرها على السير الحثيث ، وسرعة المشى ، النوع الثالث مولد بين العربية والاعجمية، اذا كان الاب عجميا والام عربية قيل له هجين ، وهى وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الافرنجية فهى أفشل الانواع ، وأرخصها ثمنا هنا ، ولا يقبل عليها أحد .

الخيول العربية نفسها تنقسم الى عدة أنساب ،

الحجازى أشرفها ، والنجدى أيمنها ، والمصرى أفرهها ، والفربى أنسلها ، وعندما ترد الى السوق خيول مؤصلة فانها تعرض على السلطان ، كان السلاطين مهتمين جدا باقتناء أنفس الانواع ، وأنقى الانساب ، كان الناصر بن قلاوون شغوفا بجلب الخيــول العربية ، وبسببها بالغ فى اكرام العرب من آل مهنا وآل فضل المتخصصين فى احضارها له ، ولم يكن يبخل بأى ثمن ، حتى آتته العرب بأجود الانواع ، ولم تبن طائفــة الا قادت اليه عناق خيلها ، وأفرد لها دفاتر تسجل انساب الخيل ، كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس فى اصــــطبلاته ، أما السلطان برقوق ، الذى هدد تيمورلنك بخيوله البرقية العربية ــ فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس . كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة ، والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظــــام المملوكى على دعامتين ، الفارس ، والفرس ، ربما كان هذا سببا قويا فى أهمية سوق الخيل ، وقربه من قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، فى السوق نرى ألوانا عديدة ، غير ان الالوان الاساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها ، الاول : اللون الابيض ، وكان ســـــلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليهــــا ، الفرس البوز ، ويذكر ابن اياس فى بدائع الزهور ان السلطان الغورى عندما خلع على قرقد بيك العثمـــانى أهداه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش ، ولا يذكر خروج السلطان الغورى فى المواكب الا ممتطيــــا فرس بوز أبيض ، الثانى : هو الاسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليهــــا

«أدهم» ، والثالث : هو اللون الاحمر ، ويسمى الكميت ، واللون الرابع : هو الاصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية ، وأحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين فى كل يوم ، وجرى العرف أن يكون ركوب الادهم اى الاسود يوم السبت ، ويوم الاحد للأبيض ، والاثنين للأخضر ، والثلاثاء للكميت ، والاربعاء للابلقى وهو ما كان بياضه بين بين ، ويوم الخميس للاشقر ، ويوم الجمعة للمحجل ، ولهذه الالوان علاقة بالتفـــاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم على اللون العام للفرس ، وانما يتعلق الامر ببعض العلامات فى جسده ، فالفرة أى البياض الذى يكون فى وجه الفرس ، اذا اســـتدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فانها تدل على اليمن والبركة ، واذا اصاب البياض خـــدا دون الآخر ، فان الفرس يكون مكروها ، ويتشائم به ، كذلك ان غطت عينا دون الاخرى ، فيصبح من المتوقع ان تقتل مع صاحبها ، أما اذا غطت العينين فانها تقهر مع فارسها ، وان مالت الى اليمين تدل على الشؤم ، والى اليسار فانها تدل على المكاسب ، وان وصلت الى الانف فانها تدل على البركة والخير ، واذا كان هناك لون يخالف لون الفرس فى رجلين مختلفين فانه مكروه ، وفى سنة ٨٠٢ هـ ١٣٩٩ م ، كسر الامير تنم وسقط أسيرا ، واســـتفسر المؤرخ ابن تغـــرى بردى عن ســـبب وقوع الامير عن فرسه ، ثم أسره ، فقالوا كان فى فرسه شؤم ، وأشاروا الى هذه العلامة ، وقالوا ان أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى .

فى سوق الخيـــل نلاحظ ان المشترين والفاحصين

يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها ، والتفرس له قواعد ، فلابد ان ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصفر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، واذا نظر الانسان الى آثار قوائمه وقت جريه ، وقاس ما بينهما ، فاذا كانت ستة أذرع ، يكون فرسا سباقا ، واذا كانت المسافة أربعة أذرع أو ثلاثة فهو بطيء ، أما من أربعة أذرع الى خمسة فيكون متوسط الجرى ، كما يجب أن يكون صافيا عند الصهيل ، فهذا دليل صحة الرئتين ، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها ، وسجلتها كتب الفروسية .

اذا ما فرغنا من التجول فى سوق الخيل ، فاننا نصعد قليلا الى القلعة ، الى باب السلسلة ، هنا أكبر الاصطبلات فى البلاد ، اصطبل السلطان بما يحتويه ..

الاصطبل السلطانى

.. البناء مسقوف داخل القلعة ، جيد التهوية ، يضم عدة منشآت ، اولها المكان المخصص لابواء الخيول، الارض مفروشة برمل ناعم ، أو بأعواد من خشب ، وذلك حتى اذا راث الفرس أو بال فيردم ، ويأتى بغيره رملا يابسا ، أو أعواد أخرى نظيفة ، والتراب غير مستحب لان البول اذا اختلط به يحدث رائحة قذرة ، لان الرطوبة تلين الحوافر بخلاف الارض الصلبة ، سواس الاصطبل يمسحون أبدانها صباح كل يوم وينظفونها ،

كما انهم مسئولون عن تمريغ الفرس بعد المجهود الذى تبذله فى الجرى لتليين أعضـــائها ، من المبانى الملحقة بالاصطبل ، الركاب خانا ، أى المكان الذى تحفظ فيه معدات الركوب ، من سروج ، واللجم ، والكنابيش ، والمراكيب ، وأردية الخيول ، والمخالى ، كثير من هذه المعدات محلى بالذهب ، أو الفضة ، ويقول المقريزى انه رأى بعض الركاب مصنوع من الذهب الخالص ، المسئول عن هذا الجزء هو المهتار (كبير الغلمان) ومعه عدد من الرجال لمعاونته ، وكان الاصطبل يحتوى على ما يلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل ، يسمى الاصطبل وملحقاته بالاصطبلات الشريفـــة ، أما ما يخص الامراء فيطلق عليــه الاصطبلات السعيدة ، وينقسم الاصطبل السلطانى الى عدة أقسام :

- الاصطبل الخاص وبه الخيول الخاصة بالسلطان .
- اصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبـــة الاكرة ، أو الرياضة .
- اصطبل الجوق ، وبه خيـــــول المماليك التابعين للسلطان .
- اصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة .
- اصطبل الجشاء ، وبه الخيــول المهرمة التى حان أجلها .
- اصطبل البريد ، وبه خيل البريد .

ومن المبانى الملحقة ، الجامع السـلطانى بالاصطبل ، ولان المكان يأوى الخيول رمز القوة ، فقد كان السلاطين ينزلون اليه ، ويجلســـون فوق المقعـد المطل عليـه ، ويديرون أمور الحكم ، ويسبق نزولهم موكب الاصطبل

الذى يتكرر مرتين فى الاسبوع ، السبت ، والثلاثاء ؛ وبدأت هذه العادة منذ أيام السلطان برقوق ، وفى زمن السلطان تمربغا الظاهرى سار المنادى معلنا بأن كل مظلوم أوله شكوى عليه الوقوف بالاصطبل يوم السبت والثلاثاء للنظر فى شكواه . وكثيرا ما كانت تنفذ العقوبات الفورية فى الاصطبل ، يقول ابن أياس انه فى جمادى الاخرة سنة ٨٧٢ هـ ، تغير خاطر السلطان الظاهر ابن سعيد تمربغا على القاضى خروف فضربه بين يديه بالاصطبل ضربا مبرحا ، كما تمت مبايعة السلطان فى الاصطبل أحيانا ، فى سنة ٧٨٤ هـ ، حضر الخليفة المتوكل على الله ، وقضاة الاسلام الاربعة وعلماء العصر الى الاصطبل السلطانى ، وقلدوا برقوق أمور العباد والبلاد ، وفى سنة ٨٠١ تكرر نفس المشهد بالاصطبل عندما بويع فرج بن السلطان برقوق بالسلطنة ، وتقلد أمور المسلمين ، كذلك قايتباى العظيم بويع فى الاصطبل ، وكثيرا ما تم عرض المماليك فى الاصطبل ، كما جرت فيه مشاورات عديدة لتوزيع الثروات ، أو لحسم المنازعات ، وكانت اصطبلات الامراء تعكس كل منها مدى أهمية الامير وقوة مركزه ، ونفوذه ، بعدد ما تحتويه من خيول ، ومسجد السلطان حسن هذه التحفة المعمارية القائمة فى مواجهة القلعة بين مكان اصطبلين كانا يملكهما الامير يلبغا اليحياوى ، والامير الطنبغا الماردانى ، وكان نواب السلاطين بالشام يمتلكون اصطبلات ضخمة ، وكثيرا ما كان السلطان ينفق عليها ، كما حدث فى زمن السلطان بيبرس ، ومن تلاه من ملوك .

وظائف الاصطبل

المسئول الاول هنا هو أمير أخور كبير ، وأخور كلمة فارسية تعنى العلف أو العليق ، أى انه امير العلف ، ولا يتولى الوظيفة الا أمير مقدم الف ، أعلى رتبة بين المماليك ، ولا يتولاها الا أهل الثقة ، بل ان هذه الثقة وصلت الى حد ائتمانهم على حريم السلطان ، كما حدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون عندما ائتمن امير اخور على حريمه ، وأمره بخروجه معهن الى الحجاز ، كما انه زوج الامير يشبك أمير اخور ابنته ، كما كان السلاطين يسيرون فى جنازات أخوريتهم ، وفى ايام الفتن كان الاصطبل أول ما يتعرض للنهب ، وذلك لكسر شوكة صاحبه ، وتجريده من قوته ، حدث فى زمن السلطان المنصور بن بكر بن الناصر محمد ان تكتل الامراء ضده ، وما ان علم بذلك حتى أسرع الى الاصطبل وأمر ايدغمش أمير اخور بشد الخيل للحرب ، لكن الامير أخبره انه لم يبق فى الاصطبل غلام أو سائس ، عندئذ علم السلطان ان أمير آخور قد خذله ، وانه هزم ، كذلك عهد السلاطين الى امراء آخوريتهم بكثير من المهام السياسية والعسكرية ، وذلك لحنكتهم وقدرتهم ، ففى سنة ٨٠١ هـ ، توجه سودون الطيار الامير آخور الى الشام لكشف اخبار ابن عثمان ، وفى سنة ٩٢٠ هـ عين السلطان الغورى الامير قانى باى امير آخور قائدا للتجريدة التى توجهت الى حلب ، ومن قبل فى سنة ٨٠٣ هـ توجه أمير آخور الى تيمورلنك بكتاب السلطان .

وكانت الوظيفة ترشح صاحبها ليلي مناصب أعلى ، حتى السلطنة نفسها ، فالســـــلطان برقوق كان أمير آخور ، والسلطان يلباى أيضا ، ولكن أحيانا كان أمير أخور يرقى الى منصب أكبر ، ولكنه من الناحية العملية أقل نفوذا ، وحدث ذلك للأمير جقمق العلائى فى سنة ٨٣٧ هـ عندما رقى الى أمير مجلس ، وأشـــار عليـــه اصحابه بأن أمير أخور كانت أفضل له من ناحية المنفعة والنفوذ ، واذا كان لابد من التغيير فليختار أمير سلاح لتعوضه هذه الوظيفة عما فاته ، وظل يسعى حتى تحقق ذلك . يعاون أمير أخور فى ادارة الاصطبل السلطانى موظفون آخرون لهم درجات ومراتب ، منهم الراخور وهذه الكلمة مركبة من لفظين فارسيين معناهما ، كبير العلف ، وهم كبـــار المسئولين عن علف الدواب ، أما الغلمان وسواس الخيل والاسطوات فهم المتصدين لخدمة الخيول مباشرة ، يقومون بتنقية العليق ، ويطعمونهـا بأمانة ، لانه لا لسان لها يشكوه الا الله ، ولا تســجل كتب التاريخ حوادث اختلاس من العلف ، والله أعلم ! ، وكان السواس يعلقون أحرازا فى رقاب الخيول تشتمل على آيات من القرآن الكريم ، وقد عاب أحد مؤلفى كتب الفروسية عليهم ذلك ، لانها تتمرغ فى القذارة ، لا تخرج الخيول من الاصطبل الا مرتدية مايتفق ، فلكل لون زى من العبى والكنابيش ، الفرس الاسود له العباءة البيضاء ، والدوالى الابيض ، والاشهب له العباءة السوداءوالدوالى الاسود ، والاحمر له العباءة الحمراء ، والاشقر له اللون العسلى ، والاصفر له العباءة التى من نفس لونه ، أما اذا كان الفرس بوز اى أبيض ، فان لون العباءة يكون بنفسجيا ، واللون الاخير يطل علينا به جواد السلطان

الغورى فى مواكبه وخرجاته التى وصفها ابن اياس ، أيضا فان الوزن المحدد لكل فرس معدود ، وقد فضل العارفون بالجياد المائة وعشرين ، فلا تشمل وزن الفارس والسلاح ، والعدد ، حتى لا ترهق الفرس ، وهـذه الخيول مدربة عبر عناء طويل وصبر ، فالخيول ذات نفوس عزيزة أبية ، وليست كغيرها من البغـال او الحمير ، ان فرس السلطان دربت على أن تحمـل البراءة بالجلاجل ، وتعليق الاجراس ، وحمل الصولجان ، والخوض فى الماء ، وتخطى السواقى ، والقعود فى رفق ، وبقية الخيول مدربة على دخـول الازقة ، والاسواق ، والمرور بين الجماعات ، والنظر الى الاعلام ، والاشياء الضخمة العجيبة ، كالافيال ، والاسـود ، والزراف ، واذا خاف لا يضرب حتى لا ينفر ويجزع ، انما يؤخـذ برفق ، كما انها مدربة على الدوران برفق ، والقعود ، والانعطاف يمنة ويسرة ، وهناك قواعد دقيقة تنظم عملية اللجم ، وتحدد أنواعها ، كذلك السروج ، وعملية أنعال الفرس ، واحيانا كانت الامور المالية تنعكس على الناس ، لقد كان المماليك يبالغون فى كسوة خيولهم ، ومن هنا فرض بعض السـلاطين ضريبة خاصة بالعبى ، لـكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ألغاها سنة ٧١٠هـ ، كما كانت بعض الاضطرابات سببها أكل الخيول من تبن وشعير ، كان يصرف للملوك جراية من الخبز لطعامه ، وجراية من الشعير لاطعام خيوله ، فى سنة ٨٥٩ هـ ثار المماليك الجلبان واشاعوا الفـوضى وتوجهوا الى بولاق ونهبوا شون الامراء ليحصلوا على الشعير لخيولهم ، وفى سنة ٨٦١ هـ كانت أحد مطالب المماليك من السلطان أن يكون الشعير والتبن مغربلا ، وفى سنة ٩٢٠ هـ

انتقد المماليك السلطان الغوري لان العلق الخاص بالخيول مسوس لا تقبل عليه الجياد ونزل السلطان عند رغباتهم وأمر بصرف العليق المغـــربل لهم ، وفى الربيع كانت الخيول تخرج الى المراعى لتأكل البرسيم ، وكان هــذا يسبب بعض الخطورة أحيانا ، فى سنة ٧٥٥ هـ ، عندما هزم السلطان حسن من مملوكه يلبغا ، ألبس مماليكه فى القلعة ، لكنه لم يجد لهم خيلا ، لان الخيول كانت ترعى فى مراعى الربيع ، ولكن فى حالة المخاطر الخـارجية كانوا يقصرون الفترة الزمنية ، أو يستدعون الخيول من مراعيها ، وفى فصل الصيف اعتادت الخيول على الدريس ونظرا لاهميته عمد المـــاليك الى تخزينه ، وفى سنة ٩١١ هـ ، وعندما بدأ الشاه اسماعيل الصوفى يستعد لمهاجمة البلاد ، اكثر المماليك من تخزين الدريس وصاروا يمسكون الناس لنقله ، وسرى الارتباك بسبب ذلك ، وقال العامة : «اهرب ياتعيس ، والا يحملوك الدريس»، وفى سنة ٩٢٢ هـ عندما أشيع اقتراب ابن عثمان من بلبيس صدر أمر باحراق الشون المحتـوية على التبن والدريس والقمح والشعير ، حتى لا ينهبها عسكر ابن عثمان ، فتزداد خيولهم قوة . وكان المصروف على عليق الخيول مبالغ ضخمة ، السلطان بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به فى كل سنة ، ثمانمائة الف درهم ، وكانت خيوله تستهلك خمس عشر ألف عليقة فى اليوم الواحد ، أى ستمائة أردب ، والســـــلطان برقوق ، بلغ عليق خيوله فى الشهر الواحد أحد عشر الف أردب شعير وفول ، وكان الـذى يشرف على كل هذه الشئون هو أمير آخور كبير ...

القسوة

نتجه الآن الى احدى ساحات السباق ، ان الفروسيه ترتبط ارتباطا وثيقا بالرياضة ، وسباق الخيل أهم ألوان الرياضة ، واكثرها استعراضا للقوة ، كان السلطان بيبرس يأمر عساكره بالركوب الى الميدان الاسود تحت القلعة ويتراكضون فيه ، وجرت على ذلك عادة السلاطين من بعده الذين خصصوا ساحات متعددة للسباق . واعتاد العرب ان يسموا ساحة السباق بالحلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدى يسمى غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه وكانوا يجعلونها مائة غلوة . والغلوة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ، وقد تجعلها من مواضع معلومة الى مواضع معلومة وهذا ما طبقه المماليك ، ويذكر المقريزى انه رأى بميدان القبق عواميد من رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عامودين مسافة بعيدة ، وانه كان بين قبة الامام الشافعى وباب القرافة ميدان تتسابق فيه الامراء والاجناس ، وكان المماليك يتراهنون كالعرب ، وأسلوب السباق الذى نراه فى الساحة ، يتلخص فى وقوف الخيل فى الميدان . ثم تصف على المقوس ، أى الحبل الذى يمد فى صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط المنظوم، ثم ترفع المقوس كأسرع ما يكون ، فتنطلق عشرة ، عشرة ، دفعة واحدة ، والسابق يحتاج الى فارس ذكى ، عارف بأحوال الخيل، خفيف الجسم ، قليل اللحم ، فى عصر السلطان الناصر أهداه الامير العربى مهنا فرسا شهباء للسباق ، وطلب الا يركبها عند السباق الا بدوى قادها ، وجاءت هذه

الفرس فى مشهد طريف تحفظه لنا كتب المقريزى وابن تغردى بردى اد كان يركبها بدوى بدون سرج ، وقادها عبر السباق وهو يرتدى قميص وطاقيه فقط ، وسبقت كل الخيول .

هناك ساحات أخرى كان المماليك يلعبون فيهـــــا الكرة أو الجوكان ، وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو ، اهتم السلاطين بها وخصصوا لها الخيول ، والموظفين ، كان الواحد منهم يسمى الجوكندار ، اى الذى يحمل الجوكان ، وهى عصا مدهونة طولها نحوا من أربعـة اذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة محـدودبة تفيض عن نصف ذراع ، ويقسم ميدان اللعب بخطوط بيضـاء ، ويقف فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة ، ويحاول كل منهم جذب الكرة التى توضع فى وسط الميدان ، وكان المهزوم يقيم وليمة كبيرة ، واحيانا كان السلطان يتحمل نفقاتها تخفيفا عن المغلوب ، وقد حدث أن توفى الملك السعيد محمد بن الظـــاهر بيبرس عقب تعثره بفرسه أثناء لعبه بالكرة عام ٦٧٨ هـ .

الفرسان

كان تدريب الفارس يبدأ منـــذ أيام الصغر ، فى البداية يعلمونه القراءة والكتابة ويلقنونه آيات القرآن ، والفروض الدينية ، ويلقنونه الاخلاق المثـالية ، وفى المرحلة التالية يؤخذ المملوك بالشدة ، فيتعلم السباحة ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح والقذف بالاطواق . وركوب الخيل ، ويبدأ تعليمه الخيل بتعوده على الوثوب والنزول على تمثال الفرس من الطين والخشب ، فان

أتقنه جعل على التمثال سرج ، فان أتقنه ، ارتدى السلاح ووثب به ، ثم يبدأ الوثوب على فرس عارية من السرج ، ثابتة ، فاذا حذق ذلك تدرب علي ركوب فرس مسرجة ، وطرق أخذ الاعنة أو امســـاك الرمح ، فاذا اكتسب الخفة ، تمرن على السيوف شيئا فشيئا ، حتى يصل الى الركض بالفرس ، ثم يتمرن على النزول والركوب من الفرس أثناء ركضه ، أو القفز خلف فارس راكب ، ثم يتدرب على الالتفات والدوران ودخول البرجاس ، وعند بروز مواهب المملوك ، فانه يشترك فى مبارزة أو سباق ، وعند ثبوت شجاعته تكون مكافأته أن يعتق وترد اليه حريته ، ويوكل اليه أمر احدى الوظائف ويكتب له اقطاعها ، جزء من الارض يستغله كما يشاء ، ويمنح خيلا وقماشا ، ويترقى فى سلك الوظائف حتى يصل الى ما شاء له حظه ، وكثيرا ما جنح بعضهم الى مطالعة العلم ، ودراسة الادب ، أو كتابة الشعر ، وشجاعة الفرسان المماليك ليست فى حاجة للبرهنة عليها ، وأمامنا حروبهم خلال فترة دولة المماليك البحـــرية وايقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود أوروبا ، وهزيمتهم للتتار الذين أشاعوا الرعب فى العالم ، ومن أزهى مشـــاهد التاريخ وأكثرها اثارة للحنين ، والخيال ، وصف ابن أياس والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وغيرهم لركوب فرسان المماليك ، ونزولهم عن القلعـــة ممتطين خيولهم بينما تسمع تعقعات أسلحتهم ، وتبهر العيـــون الوان جيادهم ، وأرديتهم ، والكنابيش المطعمة بالذهب ، وتلك المباهاة بالقوة والفروسية .

الحرب

بعد الفارس سنوات من أجل لحظات أو أيام قليلة عندما تنشب الحرب ، كذلك الخيول ، وكما يتوزع المحاربون على أقسام الجيش المختلفة ، فان الجياد كذلك ، هناك خيول النوبة ، وتخص السلطان ، والقواد ، وهي مسرجة دائماً ، في الليل والنهار ، تقف في أقرب مكان من السلطان احتياطاً لكل مفاجأة .

وخيول الطلائع ، تخصص للاستكشاف ، ولابد ان تكون من أجود الانواع ، سليمة الحوافر ، لا تجمح .

وخيول السرايا ، تضم أنواع ممتازة ترسل للاغارات السريعة على العدو ، وسميت بالسرايا لانها تسري بالليل ، أما خيول الكمين ، فيجب أن تكون قليلة الشغب ، لا صهيل لها ، ولا حمحمة ، صابرة ، لا تضجر ، حسنة الاخلاق ، لا سعال بها ، ولا وهن ، ولابد أن تكون كلها ذكورا أو اناثا ، اذ أن اجتماع ذكر الخيل وانثاه ، ربما أثار الجلبة .

أما الخيل الطواشي ، فهي صعبة الانقياد ، التي لا تقع منها ، وتلك لها وظيفة في الحرب ، اذ تضرب بالسياط ، وتدفع بالضجيج صوب مخيم العدو لاشاعة الرعب فيه تمهيداً لهجوم الفرسان عليهم ، ويتردد تعبير جرائد الخيل كثيرا في كتاب ابن اياس بدائع الزهور ، وتلك تستخدم لاتباع المنهزمين ، ومطاردتهم .

الركوب

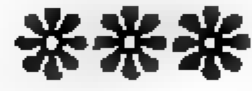
وفي أيام السلم ، يتم الركوب وفقا لتقاليد ونظم ،

اول المواكب ، موكب تقليد السلطان ، تقدم اليه فرس النـــوبة بسرج ذهب ، وكنبوش زركشي ، واذا هم بالركوب يقرأ الفاتحة ، وعند وضع رجله فى الركاب يقول : « بسم الله سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون » . ويخرج راكبا والامراء مشاة بين يديه الى ظاهر القاهرة ، حيث يلبس خلعة السلطنة ، ثم يدخل من باب الفتوح ، او باب النصر ، والوزير بين يديه راكبا فرســه حاملا عهــد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر فوق راسه .

وكان هناك موكب الركوب فى العيدين ، ومن شعاراته أن يكون فى عنق فرس الســلطان ، رقبة من حرير أصفر ، وكانت الغاشية تحمل بين يدى السلطان وهى غاشية سرج محلاة بالذهب ، يحملها الركبدار ، يرفعها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وأمام السلطان أيضا يركب الجفتاوات ، وهمــا اثنان من موظفى الاصطبل متقاربان فى السن ، عليهمــا قباءان أصفران ، وعلى رأسيهما قبعتان مزركشتان وتحتهما فرسان أشــهبان يشبهان فرس السلطان ، كأنمــا أعدتا لركوبه ، ومن المواكب الاخرى التى يركب فيها الســلطان موكب الاصطبل ، ومواكب الكرة ، وموكب كسر الخليج ووفاء النيل ، وموكب دوران الحمــل ، وموكب الصيد والاسفار .

وكان كبار الامراء يركبون الخيول النفيسة أما اتباعهم فيركبون البغال ، كذلك كان أصحاب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء يركبون البغال ، وان كان يسمح للمتعممين بركوب الخيل واقتنائها كمظهر من مظـاهر

احترامهم ، اما عامة الناس المسلمين ، فيركبون البغال، اما أهل الذمة من نصارى ويهود فكانوا يركبون الحمير .



نعود الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ولا تزال دلائل عديدة تكشف أهميتها ، فالسلاطين اوصوا مماليكهم بألا يقفوا فى أسواق العطارين ، والقماش ، والصاغة ، ولكن يجب أن يقفوا بسوق الخيل ، أو سوق السلاح ، أو سوق الكتب .

ولان سوق الخيل يتضمن العديد من معانى الجهاد ، ولان السلاطين يؤمنون ببركة الخيل ، فقد جرت عادتهم على الاحتفال بشفائهم هنا ، واذا مرض عزيز لديهم ، فانهم يأمرون ببيع أحد الخيول الثمينة بالسوق ، والتصدق بثمنه على الفقراء ، هكذا فعل ، السلطان برقوق ، والاشرف برسباى ، والسلطان خشقدم ، والمؤيد شيخ ، والسلطان الكامل .

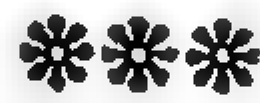
ولأن السوق قريبة من القلعة ، فكثيرا ما وقع فيها العديد من الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، فى سنة ٧٤٢ هـ ، تجمع أفراد من الشعب بسوق الخيل ، وطالبوا بذهابهم الى الملك الناصر والعودة به ، وفى سنة ٨٤١ هـ عندما مرض السلطان برسباى واصبح احتمال موته قريبا ، تجمع المماليك بسوق الخيل تحت القلعة ، وتوجد أسواق أخرى تكمل سوق الخيل ، منها سوق الهمازين ، لبيع المهاميز والتى صنع بعضها من الذهب أو الفضة ، وكان هذا نادرا ثم بطل مع مرور السنوات ، أما سوق اللجميين فتباع فيه آلات اللجم

مما يتخذ من الجـــلد ، وكان بعضها يصنع من الجلد البلغارى الاسود ، أما سوق الجوخيين فمخصص لبيع الجوخ المستورد من بلاد الفرنجة ، وكان يصنع منه ثياب السروج ..

ونفارق عالم الخيول ، وسوق الخيل ، وكل ما يتعلق بها ، بعد ان طواها الزمن ، وهان أمرها ، وأصبحت فى أحوال عملها تجر العربات الكارو المحملة بالاثقال ، وتسام العذاب ، وفى أحوال الحظ ، تستخدم كحلبة راكدة فى المواكب ، وبعض الاستقبالات الرسمية .

أسواق القاهرة العربية

للسوق العربية هندسة بناء خفية ، وتستر خلفها رؤية للحياة ، وللتجارة ، وللعلاقات بين البشر ، وفيها تتشابك المصائر ، وحتى زماننا هذا تحتفظ القاهرة بأسواق متكاملة لم تنل منها العمارة الحديثة ، أو زحف الخرسانة ، بل ان الفلسفة الخفية انتقلت الى الاسواق العصرية التى تغرق فى بحر من النيون الصناعى .



.. تتوحد الظلال ، والروائح ، ومنحنيات الطرق ، وملامح الانتظار ، والرغبة ، تماما كما تتشابه الملامح البشرية ، فى الاسواق العربية ، فى القاهرة ، الغورية ، والحمزاوى المثقل بالتوابل والعطور ، وخان الخليلى مجمع التحف وآيات الابداع الانسانى ، والتربيعة ، لا تنأى عن الخطوط والقسمات عندما ننتقل الى سوق الحميدية ، المتد ، الطويل كقطار يتحرك فى ثبات عبر محطات متوالية من الزمن لا تنال من معالمه ، وأرضيته المفروشة بظلال السقف المعلق ، كذلك سوق الشورجه فى بغداد ، والسوق الرئيسى فى البصرة ، والسوق

البديع المفروش بضوء خفى المصدر فى أربيل ، هذا ما أتيح لى أن آراه ، وان أعايشه ، أما ما لم أشاهده فى الرباط أو تونس او الجزائر أو عمان ، أو اليمن ، فلا يشى باختلاف كبير ، انما تؤكد اللوحات عناصر التشابه .

الارزاق على الله

يحدثنا المقريزى عن اسواق القاهرة .

« .. والقصبة هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثنى عشر الف حانوت .

هذا العدد الهائل من الحوانيت كان يبدأ فى زمن المقريزى بعد أن يلج الداخل من باب الفتوح ، القائم الآن ، فيما يلى ذلك الباب كان يوجد سوق اللحم ، والخضر ، كانت حوانيت القصابين تصطف متجاورة ، تبيع لحم الضأن والماعز ، وكان القصابون يلفون اللحم فى ورق الموز ، ومكان هذا السوق اليوم العديد من التجار الذين اختصوا ببيع الليمون والزيتون الاخضر ، ويعرف حاليا باسم سوق الليمون ، وهنا نلاحظ السمة الاولى للأسواق العربية ، انها التقسيم النوعى ، فكل سلعة تجدها فى مكان معين ، فرع بأكمله يتخصص فى بضاعة معينة ، وتتجاور الحوانيت ، كل منها يعرض نفس السلعة ، والتنافس قائم ، لكن تكمن وراءه ما يمكن أن نسميه فلسفة يومية مستمدة من الدين الاسلامى ، « الارزاق على الله » ، فلكل تاجر رزقه

وزبائنه ، ولا يزال هذا التقسيم قائما حتى يومنا هذا فنجد أسواقا متخصصة ، الحمزاوى الذى يعرض التوابل والعطارة ، والفحامين الذى تتجاور فيه متاجر الاحذية ، والتمبكشية (تجار الدخان والتمباك) ، والخرنفش (تجار الخيش والكهنة القديمة) وتحت الربع (الادوات المنزلية) والموسكى (الثياب والادوات المنزلية والدرب الجديد (الحقائب والمصنوعات الجلدية) وسوق الرويعى (ماكينات الخياطة ولوازم الحياكة) وسور الازبكية (الكتب القديمة) والصنادقية (الكتب الازهرية) ، والصاغة (الذهب والمجوهرات) والنحاسين (النحاس والالمنيوم) ، (وأدوات المقاهى من نرجيلات واكواب وفناجين) ، ودرب سعادة (الاخشاب) والخردة والمنسوجات الشعبية (وكالة البلح) . والتحف والهدايا (خان الخليلى) . بل ان السلع غير المشروعة تجد مناطق متخصصة فى بيعها مع ان الحكومة تحاربها وتطارد المتجرين فيها ، وهذا يبدو فى منطقة الباطنية التى تتركز فيها تجارة المخدرات ، واذا ما انتقلنا الى المدينة العصرية جدا ، أو وسط البلد كما يسمونه اليوم ، فنجد ان الحوانيت المتشابهة التى تتجاور ، عشرات المتاجر التى تبيع الاحذية فى شارع قصر النيل متجاورة ، أو الملابس الحديثة ، أو الالات العصرية ، ان وحدة المكان الذى تعرض فيه السلعة ، ظاهرة فريدة فى الاسواق العربية ، انه ليس انعكاسا لقانون تجارى خفى ، بقدر ما هو تجسيد لاسلوب فى الحياة ورؤية ، ان هذا يسهل على المشترى قضاء حاجته ، كما انه يشبه معرضا

مستمرا لسلعة بعينها ، يمكن للمشترى أن يقارن ، وان ينتقى ، وان يختار ، ثم يشترى ..

ونعود الى القاهرة التى وصفها المقريزى .

الاسواق القديمة

بعد سوق القصاصين يجىء سوق المرحلين ، ويختص بلوازم الجمال عند الرحيل ، كان يقصد من سائر انحاء مصر خصوصا فى مواسم الحج ، فلو اراد الانسان تجهيز مائة جمل فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه ، وقد بدا خراب هذا السوق فى زمن السلطان برقوق ، ولم يبق له أثر الآن ، ومكانه الآن شارع السيارج ، أما سوق حارة برجوان فكان يعرف فى أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش ، كان معمور الجانبين بعدة وافرة من باعة اللحم ، والزياتين ، والجبانين ، والخبازين ، والعطارين ، وقد خرب هذا السوق بعد سنة ٦٠١ هـ ، وهذا السوق الآن موضعه تجار أقمشة . واذا ما تقدمنا حتى مسجد الاقمر سنجد سوق الشماعين ، حيث تباع الشموع الضخمة التى تحمل فى المواكب ، وكانت حوانيته تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، ويجلس بها بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن زى خاص ، وكانت تعلق بهذا السوق الفوانيس فى المواسم فتصير رؤيته فى الليل من انزه الاشياء ، وكان به شمع يصل وزن الواحد منه الى قنطار كامل ، وشموع تحمل على عجلات ، وفى زماننا انتقلت دكاكين بيع الشموع الى الامام فنجد عددا منها يقع بالقرب من الفورية وشارع الازهر ، وتباع فيها الآن الشموع التى تحمل فى

حفلات الزفاف ، والشموع التى تضىء فوانيس رمضان ، وتباع أيضا قلل السبوع التى تضيئها الشموع عند الاحتفال بمرور اسبوع على ميلاد البنات ، و «الاباريق» اذا كان المولود ذكرا . على أية حال فقدت الشموع موقعها وتراجعت أمام الكهرباء .

وكان سوق الدجاجين يلى سوق الشماعين ، وفيه الدجاج والاوز ، والطيور المتنوعة ، وكان تباع فيه عصافير محبوسة يشتريها الاغنياء ليعتقوها ، وموقع هذا السوق اليوم مجموعة مبان متهالكة ، وموقع لبعض الباعة الذين يحولون الزيتون الاخضر الى أسود . أما عن أعتاق الطيور الحبيسة فعادة توارت : ويجهلها الزمن الحالى الذى كثر فيه اغتيال العصافير ، وذبح الاسراب المهاجرة بمجرد ان تلامس صدورها الساخنة بر الانسان ، وكان خط بين القصرين من أعمر مناطق القاهرة ، وفى أيام الدولة الايوبية صار هذا الموقع سوقا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحوم المتنوعة ، ثم صار متنزها تمر فيه أعيان الناس لرؤية ما تشتهى الانفس ، ثم أصبح هنا سوق السلاح ، وقد نقل فيما بعد الى موضع يقع بالقرب من القلعة ، ولا يزال الاسم عالقا بالمكان حتى اليوم ، وبجواره نجد الحرفيين يجلسون الى تخوت صغيرة وأمامهم أقفاص صغار من حديد مزخرف تحتوى على الخواتم والفصوص والاساور، ثم سوق الحلوى ، وسوق الهاميز ، ثم سوق السروجيين ، ثم تجار المنسوجات المستوردة من الصين وفارس والهند ، وبجوار الازهر سوق الشرابشيين ، ويباع فيه الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء ، والوزراء والقضاة

وغيرهم ، ومثل الكلوتات اليلبغاوية ، والكلوتات الزركشى، وسمى سوق الشرابشيين نســـــبة الى الشرابيش ، وأحدها شربوش ، وهو يشبه التاج كأنه شـــكل مثلث على الرأس بدون عمـــامة ، وقد بطل فى عصر الدولة الجركسية ، كما ان هذا السوق لا يوجد له أثر الآن ، وفوق بعض أجزائه تقع منشآت السلطان الغورى .

ثم سوق الحلاويين ، وكان يمتد الى سوق الشوائيين، وكان معدا لبيع منتجـــات الحلوى من تماثيل تسمى علاليق ، وأحدها علاقة ، وكان بعضها يزن من عشرة أرطال ، الى ربع رطل ، وربما كان هذا السوق أصل الاسم الذى أطلق فيما بعد على حارة السكرية التى تدور فيها أحداث ثلاثية أديبنا الكبير نجيب محفوظ .

وفى سوق مجاور تتصاعد أنغام موسيقية من آلات لا تزال تحت التجربة ، انها حوانيت صناعة العـــود والقيثارة ، وكانت هذه الحوانيت ملتقى أيضاً لمن يهوون الفن والموسيقى أو أرباب المجون والخلاعة بلغة عصرهم، ولا يزال حتى الآن بعض الحـــوانيت التى تصنع الآلات الموسيقية تقع بالقرب من هذا المـكان المجاور لشارع محمد على المعروف بأنه مقر الفرق الفنية التى تحيى الافراح .

بجوار باب النصر ، فى القرن الرابع عشر ، كان يوجد سوق العبيد الذى نقل فيما بعد الى خان الخليلى ، هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع ، كان البشر يعرضون عراة فيما عدا قطعا رقيقة من القماش تستر عوراتهم ، ويتقدم المشترون لفحص أعضاء الاجسام ، ونجد هـذا

المشـــــهد فى « ألف ليلة وليلة » ، حيث ينادى تاجر الرقيق ..

يا سـيد ، ليس كل ما اســـتدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة .

ولا كل ما احمر لحمة ، ولا كل سمراء تمرة .
ثم يبدأ المزاد على الآلام البشرية .

يذكر المقريزى ثمانية وثلاثين سوقا كانت موزعة على قصبة القاهرة ، بعض هذه الاسـواق زال واندثر بـكل ما حفل به من ضجيج ، ومرور بشر ، ونظرات متلاقية فى اناة ، واخرى فى حذر ، بكل ما مر به من رجال تتبعوا نساء جميلات ، أو بصاصين تعقبوا بشرا من هنا او هناك ، مثل سوق المرحلين ، والشماعين ، والدجاجين ، والقفيصات ، وباب الزهومة ، والخوخيين ، والحريريين ، الخلعيين ، وغيرهم .

وبعض الاسواق الاخرى انتقـل مع حركة الزمن فى المكان فابتعدا من موقعه ولم يعد يحمل الا الاسم ، كسوق السلاح ، وثمة أسواق أخرى لا تزال فى موقعها تقاوم عناصر البلى ، والعدم ، كسوق الصاغة ، وفى القاهرة الآن أسواق لا تزال محتفظة بالشكل القديم ، مثـل سوق الخيامية المسقوف من خشب ويكثر به صناع الخيام التى تنصب منها السرادقات ، وان كان عددهم قد تناقص الآن الى أقل من ثلاثين صانعا ، وبالطبع هنا خان الخليلى والحمزاوى ، والتربيعة .

كيف كانت تبدو هذه الاسواق فى العصور الخـوالى للرحالة أو الاجانب المقيمين والزائرين ؟

الحوانيت

هذه الاسواق كانت تتكون من الدكاكين المتجاورة ، يصفها المستشرق الانجليزى ادوارد لين :

« يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، أوحجرة صغيرة ارتفاعها ستة أقدام أو سبعة تقريبا ، وعرضها ثلاثة أقدام أو أربعة ، وقد يتألف الدكان من حجرتين تتقدم الواحدة الاخرى وتستعمل الاخيرة مخزنا ويقام أمام الدكان مصطبة بالحجر أو الآجر يستوى سطحها بأرضية الدكان، وترتفع المصطبة عادة حوالى قدمين ونصف أو ثلاثة أقدام ويكون عرضها كارتفاعها ، وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطى يعلو بعضها بعضا فيثنى اعلاها الى فوق ، ويطوى الآخران الى أسفل فوق المصطبة فتكون مقعدا مستويا يفرش بالحصر أو البسط أو بالوسائد أحيانا ، وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع السابق ذكرها أبوابا منثنية ويجلس التاجر غالبا على المصطبة ، ما لم يضطر الى الانسحاب قليلا داخل الدكان ليخلى المكان لمن يصعد اليه من حرفائه الذين يخلعون أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم ويقدم التاجر الشبك الى حرفائه الدائمين ، أو من يشترى بضاعة كثيرة ، الا اذا كان هؤلاء يحملون شبكهم ، ثم يرسل الى أقرب مقهى فى طلب القهوة التى تقدم فى فناجين صغيرة من الخزف الصينى داخل ظرف من النحاس الاحمر (١) » .

بعض الدكاكين فى الاسواق القديمة لا تزال على

(١) المصريون المحدثون ص ٢٢٧ ـ ٢٧٨ : ترجمة عدلى طاهر نور .

خالها ، لم يغير منها الزمن ، ربما كانت بعض العادات قد تغيرت ، فلم يعد ممكنا ان يترك التاجر دكانه مفتوحا فى وقت ذهابه للصلاة أو الغذاء لان الامان ليس هو الامان الذى كان فى عصر أدوارد لين ، ولا تزال الاسواق العربية فى بغداد والبصرة والموصل تحتفظ بهذه الدكاكين المفتوحة ، وعندما يمضى التاجر لقضاء حاجة يمد قطعة من القماش تعلن عدم وجوده ، مع الزمن ، وتوالى الايام، وانعدام الثقة ، وكثرة الخلق ، لم يعد مفتوحا ، انما حلت الفاترينة المغلقة التى يعرض فيها التاجر بضاعته والحاجز الخشبى بينه وبين الزمان .

غير ان الحياة الجماعية للسوق ربما لا تزال تحتفظ بخصائص قديمة ، فالتجار يرسلون وقت الغذاء الى مطاعم منتشرة فى الاسواق يحضرون منها غذاءهم ، كما يوجد عدد من المقاهى الكبيرة أو باعة الشاى يجولون بعد وقت الغذاء وعلى امتداد النهار ، أما باعة الحلوى فيجيئون أيضا فى الميعاد المناسب ، وفى وسط السوق يروح ويجىء الباعة المتجولون الذين لا يملكون دكاكين ثابتة لبضاعتهم ، وهؤلاء ينادون على بضاعتهم .

فيصيح بائع الترمس « مدد ، مدد يا أمبابى » ويعنى بهذا القول أما الاستعانة بالشيخ الامبابى وهو ولى مشهور، وأما الاشارة الى أن ترمس امبابة لذيذ الطعم ،ويصيح بائع الليمون « الله يهونها يا ليمون » وكثيرا ما ينادى على اللب ، « لب عبد اللاوى » يابطيخ ، « يا مسلى القلبان يا لب » ، أو « اللب المحمص » أما بائع الجميز فيقول « جميز يا عنب » ، ويستعمل بائع الورد نداءا فريدا « الورد كله شوك من عرق النبى فتح » .

وكانت الأسواق تخضع لمراقبة المحتسب ، وكان يجوس من حين الى آخر خلال المدينة يتقدمه عامل يحمل الميزان والصنج ، وخلفه الجلادون والخدم ، وهو يمر على الدكاكين والاسواق واحدا بعد الاخر يفحص الموازين والمكاييل ، ويستفسر عن ثمن المأكولات ، ويتأكد من نظافتها ، واذا اكتشف مخالفة ينزل العقاب بمرتكبها وتذكر كتب التاريخ عقوبات فريدة أنزلها المحتسب بالغشاشين ، كهذا الرجل الذى كان يبيع الكنافة ناقصة الوزن ، فأمر المحتسب بجلوسه عارى المؤخرة فوق صينية الكنافة الساخنة ، واحيانا كان المحتسب يقطع جزءا من الاذن او الانف ، وكان هناك فى بداية القرن التاسع عشر محتسب اسمه مصطفى الكاشف مشهورا بقسوته ، وفى مرة قابل رجلا مسنا يقود حمارا محملا بالبطيخ ، فأشار الى واحدة من أكبرها حجما وسأل عن ثمنها ، فأمسك العجوز بشحمة اذنه وقال : اقطعها يا سيدى ، فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، وكان الجواب واحدا ، فاغتاظ المحتسب ، لكنه لم يتمالك ان ضحك وقال ، هل أنت مجنون أم أصم ؟ فقال العجوز : لا ، لست مجنونا ولا أصما لكننى أعرف اننى ان قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول ، اقطع اذنه ، واذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول اقطع اذنه لذلك اختصرت الامر . ونجا الرجل لتهكمه . .

لكن هل كان ذلك يعنى ان العدالة مطلقة ؟ يقال انه كان يسعى بين أيدى بعض المحتسبين رجل يحمل ميزانا اكبر حجما من الميزان المستعمل ، ويقال ان قب الميزان كان انبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع

اذا عرف الذين رشوا سيده ان يرجح احدى الكفتين بسهولة .

صورة شاملة

واذا كان ادوارد لين قد قدم لنا صورة مفصلة للاسواق فى القرن التاسع عشر ، فان الرحالة أبو الحسن الوزان الفاسى ، المعروف باسم ليون الافريقى والذى زار مصر القرن السادس عشر يقدم لنا صورة شاملة :

« تمتلىء المدينة « القاهرة » بالصناع والتجار ، ويكثرون بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر ، وباب زويلة ، فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة ، ويوجد فى هذا الطريق عدد من المدارس التى تثير الاعجاب بسبب حجمها وزخرفتها ، ويضم أحد الاحياء ، وهو الذى يسمى بين القصرين محلات تبيع اللحم المطهو ، ويبلغ عددها ستين محلا ، مزودة بأطباق من الصفيح ، وفى محلات أخرى يباع ماء الزهر ، وماء الورد ، وهو يحفظ فى قنان من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية ، وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبا . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر ، ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى لا تنمو فى مصر ، مثل الكمثرى ، والسفرجل والرمان ويتخلل هذه الحوانيت محال أخرى تبيع المقليات من البيض والجبن ، وعلى مقربة منها منطقة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرفيعة ، وبعد توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان

الفورى ، وبعد المدرسة توجد «فنادق» المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت، ففى الفندق الأول ، تباع الاقمشة الاجنبية من أحسن الانواع مثل تلك التى تأتى من بعلبك ، وهى نسيج قطن رفيع ، والمنسوجات التى تأتى من الموصل ، وهى التى حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها علية القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وبعد ذلك تأتى الفنادق التى تباع فيها أجمل الاقمشة الايطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأؤكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى ايطاليا حيث صنعت » .

ويقول متعجبا عند حديثه عن تجار الروائح العطرية ان هذه المنتجات كانت متوافرة بحيث اذا أراد الزبون ان يشترى درهم مسك عرض عليه التاجر مائة رطل لينتقى ويختار ، وكثيرا ما كانت تلك الاسواق تشهد مناسبات غريبة ، فاذا ما حدث وانتج أحد الصناع عملا جميلا ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت بصحبة الموسيقيين فيما يشبه موكب النصر ، وقد شهد ليون الافريقى موكبا لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رأى أحد أعمال القوة العظيمة التى قام بها أحد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم ، فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد ، وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبع أيام متتابعة من الصباح الى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى ففاز بالرهان، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع

السقايين فى القـــاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء .

الوكالات

الوكالة وحدة تعتبر سوقا فى حد ذاتها ، ويمكن أن نعتبرها فندقا أيضا ، فالوكالة عبارة عن بناء كبير مربع الشكل في معظم الاحيان أو مستطيل ، يتكون من عدة طوابق ، الطابق الاسفل يتكون من مخازن متجـــاورة تستعمل كدكاكين لعرض البضاعة أيضا ، وفوق الحوانيت حجرات صغيرة تستخدم كمساكن للتجار الغرباء الذين قطعوا ساعات طويلة عبر بلاد متعددة لعرض بضاعتهم فى القاهرة ولعل أشـــهر وكالة بقيت حتى الآن هى وكالة الغورى التى أعيد ترميمها وتتبع وزارة الثقافة حاليا، ويقيم بها عدد من الفنانين الذين يستخدمون حجراتها كمراسم، كما توجد بها بعض الاقسام الفنية التى ترعى العـدد القليل المتبقى من الصناعة المنقرضة ، كصـناعة خشب الخرط ، وتعشيق الزجاج بالجبس ، والتطعيم ، وفى بداية القرن التاسع عشر كان يوجد فى مصر أكثـر من مائتى وكالة ، معظمها أزيل الآن ، ولكن هنا وكالات قديمة جاء ذكرها فى خطط المقريزى ، مثل وكالة الصـــابون المجاورة لبـــاب النصر ، والتى ذكرها تحت أسم خان قوصون ، ووكالة بازرعة بالجمالية ، ووكالة القطن ، وكل وكالة لها باب واحد يقفل ليلا ويحرسه بواب .

لقد ولت أسواق القاهرة القديمة والتى كانت تعكس فى تصميمها أسلوب حياتها قيما وعادات لم تعد موجودة

الآن ، واذا كانت الاصالة لا تزال تتشبث ببعض أركان المدينة القديمة ، فاننا نجد فيها بقايا عتيقة تحاول الثبات فى وجه رياح التغيير والنيون والبوتيكات ، وذلك الطوفان النابع من كل أرجاء الدنيا .

مسجد المؤيد

اذا ذهبت الى شارع الغورية ، مشيت فيه ، وقبل ان تقترب من نهايته ، ستطالعك مئذنتين رشيقتين ؛ تقومان في الفراغ ، لا تعلوان فوق مسجد ، انما فوق باب زويلة أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومحافظة القاهرة تتخذ من الباب والمئذنتين شعارا .

تبدو المئذنتان رشيقتان ، كأنهما حارسان غامضان على الماضي البعيد ، وكنوزه .. كأنهما ترقبان المارة من تحت البوابة ، والرجال والنساء ، والاطفال ، ترصدان ما جرى وما حدث خلال ما يقرب من خمسمائة وستين سنة عمر تواجدهما هنا .

هاتان المئذنتان تنتميان الى مسجد المؤيد شيخ المحمودي ، الذي يقع بجوار باب زويلة ، وربما تبدو المئذنتان والمسجد ، وما رآه من أحداث عندئذ ستدب الحياة في الحجارة ، ستنطق ذرات التراب ، وتقطر دما .. اذن لنبدأ الرحيل ، مع تاريخ واحد من أجمل المساجد ..

« حدث في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، ان وقعت فتنة كبيرة في القاهرة بين المماليك ، وكانت

الفتن كثيرة الحدوث وقتئذ ، تعودها الناس ، فلا يخلو شهر من تمرد بعض المماليك فى القلعة ، ونزولهم الى الاسواق يخطفون ما بها من أطعمة وبضائع وثياب ، وعمائم للناس ، وأحيانا كانوا يخطفون النساء والغلمان ، ليفعلوا بهم الفاحشة ، كل هذا لاثارة الاضطراب والذعر .

ولكن فتنة الامير منطاش كانت من الفتن الكبيرة فى عصر السلطان الناصر برقوق ، وقد ذكرها مؤرخو العصر كعلامة بارزة أمثال المقريزى ، وابن اياس ، وابن تغرى بردى ، وابن حجر .

المهم ان الامير منطاش قبض خلال هذه الفتنة على العديد من المماليك التابعين للسلطان الظاهر برقوق ، وكان بين هؤلاء المماليك واحد يقال له شيخ المحمودى .

كان شيخ المحمودى وقتئذ رجلا ناضجا ، جاء الى مصر وعمره اثنا عشر عاما ، وعرضه تاجر الرقيق على الامراء فلم يشتروه لان التاجر طلب ثمنا غاليا فيه ، ولانه جميل الصورة ، هادىء الطباع ، اشتراه الخواجا محمود شاه البزدداري تاجر المماليك ، ولان التاجر تعامل مع تاجر ، فكان الثمن الذى دفعه الخواجا محمود يسيرا ، ثم قدمه هدية الى الامير برقوق قبل أن يتسلطن ، وبرغم هذا استمر ينسب الى الخواجا (المحمودى) ، اذ أن المماليك كانوا ينسبون لاسيادهم .

نتابع المملوك شيخ المحمودى ، فنراه يتدرج فى التعليم ، القراءة والفقه والفروسية ، واللعب بالرمح ، ورمى النشاب ، والضرب بالسيف والمصارعة ، واتقن هذا

كله ، حتى أصبح أميرا على عشرة مماليك ، وعنــــدما وقعت فتنة منطاش أمسكه وقيده فى الحديد ، وأرسله الى واحد من أبشع سجون مصر وقتئذ ..

سجن شمائل

لنقف قليلا تحت بوابة زويلة ، يمتد سور الجامع المرتفع بحذاء البوابة ، فى اتجاه باب الخلق ، حتى ليبدو وكأنه جزء من سور القاهرة القديم ، بينما يمتد ضلعه الشرقى مطلا على شارع الغورية ، حيث بوابة المسجد .

هنا ، فوق هذه الارض التى يقوم فيها المسجد ، كانت توجد بعض مبان عتيقة ، أهمها سجن قديم ، اسمه « خزانة شمائل » .

الى هذا السجن الفظيع دفع بالامير شيخ المحمودى ، وضعوه فى احدى الحفر القذرة ، قيدوا يديه وساقيه وعنقه بسلاسل حديدية مثبتة فى الحائط ، وكان الظلام كثيفا ، والروائح كريهة ، وربمــا تأمل شيخ فى حالة المماليك وقتئذ ، لا يأمن واحد منهم على نفسه ، مهما علا قدره ، ومهما تولى من المناصب ، فى لحظة ، فى اغماضة عين ، ربما تقطع رقبته ، أو يلقى فى السجون .

ربما فكر فى أمور من هذه ، لكن تفكيره لم يستمر طويلا ، والسبب يذكره لنا المقريزى ..

« فى السجن قاسى الامير شيخ المحمودى من البق والبراغيث شدائد ، فنذر لله تعالى ان تيسر له ملك مصر ان يجعل مكان هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ، ومدرسة لاهل العلم » .

ولم يمض الكثير ، حتى فشلت فتنة الامير منطاش (أو مؤامرة بلغة عصرنا) ، وخرج الامير شيخ محمودى، تقلب فى مناصب عديدة ، كما قاسى محنـــا وشدائد استغرقت من عمره وقتا ، ولكنه بالتأكيد لم ينس نذره الذى تعهد به ، وهو ان يجعل مكان السجن الرهيب مسجدا .

السلطنة

محدثنا الآن ، هو المؤرخ المصري الفنـــان العظيم ، الشيخ أبو البركات محمـــد أحمـــد ابن اياس الحنفى المصرى ، لنستمع اليه ، الى ما يجرى فى عام ٨١٥ هجرية (١٤١٢ ميلادية) .

« فى يوم الاثنين ، اول شـــعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، تولى الامير شيخ المحمودى الملك بالمقعد الذى بباب السلسلة ، فـكان أول من بايعه من العلماء جلال الدين البلقيني ثم قدمت اليه خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء مطرزة ، وعمامة سوداء وتلقب بالملك المؤيد » .

وفى بداية عهده ، وقعت عدة اضطرابات ، اذ أن مصر شهدت وقتئذ طاعونا جارفا ، من أشد الطواعين التى رأتها مصر حتى هذا التاريخ كان الناس يتساقطون فى الطرقات ، حتى ان الواحد قبل خروجه من بيته كان يكتب اسمه على ذراعه ، ليعـــرفه الناس اذا مات فى الطريق ، حتى الطيور فى السماء ، والحيوانات أدركهـــا الطاعون ، ولم يكن الطـــاعون غريبا عن الناس فى هـــذا العصر ، كان اجدادنا يقاسون منه كل عام تقريبا ، حتى

صارت له مواعيد فى الظهور ، ووقت معين يبلغ فيه حدة لا حدة بعدها .

وعندما اشتد أمر هذا الطاعون ، خرج السلطان المؤيد شيخ الى الصحراء خارج القاهرة ، وصلى عارى الرأس فوق الرمال ، وانحنى باكيا ، متضرعا الى الله كى يزيل الغمة والوباء عن الناس ، وقدم قربانا ..

مشهد رهيب ، وصفه لنا ابن اياس ، يرسم لنا صورة مؤثرة للعجز الانسانى فى مواجهة الكوارث التى يحار فى فهم أسبابها وعلاجها أيضا صورة لسلوك الراعى المسئول عن رعيته هذا السلطان المملوكى الذى يخرج الى الصحراء ، ويمرغ نفسه فى التراب ، ليزيل الله الآلام عن شعبه .. وتسجل كتب التاريخ العديدة من الاعمال التى تتسم بالرحمة والتى قام بها المؤيد شيخ .

المسجد

بعد ثلاث سنوات من تولى المؤيد سلطنة مصر ، شرع فى بناء مسجده الكبير ، فبدأ بهدم سجن شمائل ، وبعض المبانى المجاورة له ، وهنا يجب رصد ملحوظة هامة ، وهى أقدام كل حاكم مصرى على تشييد بناء معمارى ضخم ينسب اليه ، لا يقتصر الامر على سلاطين المماليك الذين شيد كل منهم مسجدا ، يتراوح فى حجمه وفخامته تبعا لطبيعة حكم السلطان ، من حيث استقراره فى الحكم مدة طويلة ، وحالة البلاد وشخصيته ، الا يذكرنا هذا بفراعنة مصر العظام ، عندما كان الفرعون يقدم على تشييد بناء معمارى ضخم ، يقهر به الفناء

ويضمن الخلود ، سواء كان البناء هرما مدرجا ، أو هرما اكبر ، أو معبدا ضخما ، أو بهو أعمدة فى معبد أو لوحات فنية دقيقة تنقش فى الصخر أو مسلات تقتطع من بطن الجبل ، خاصة اذا لاحظنا ان الاهرامات فى حقيقتها مقابر ضخمة ، أبنية حجرية شـــيدها الانسان المصرى ليقهر الفناء بالمادة .

والمساجد التى اقامها

والمساجد التى أقامها سلاطين المماليك وامراؤهم تضم مقابرهم أيضا ، وعندما تدخل من الباب الرئيسى لمسجد المؤيد ، تطالعنا تربته الرخامية قبل وصولنا الى الايوان الرئيسى للجامع ، وبجواره تربة ابنه ابراهيم وفى الجهة القبلية غرفة أخرى للدفن ، بها زوجة السلطان وابنته ، وكأن الداخل الى المسجد انما يجسد الموت ، وبدخوله الايوان تبدو له الحياة رحبة ، فسيحة ، مشبعة بالضوء والخضرة ، وكأنه الفرج بعد الضيق ، أو الحياة بعـد الموت .

وفوق مدفن السلطان المؤيد تقوم قبة حجرية شاهقة العلو ، تنتصب الجدران فى شموخ رهيب ، غامض ، كأن السلطان المؤيد يغالب الفناء ، يوجد لنفسه موقعا فى عصور تلت عصره ، تلاشى قبل أن يلحق بها .

هنا ، تحت هذه القبة الشاهقة ، حيث المادة ، حيث الروح والجســـــد ، كل ما ينطق به الاعجـــــاز المعمارى ، هنا تبدو قدرة مصر على فرض مضـامينها الروحية ، حتى على الاجانب الذين يحكموها ، انضموا

الى جانب المصرى فى صراعه الابدى القديم ضد الفناء ، ومحاولته ان يضمن الخلود .

ولان الحاكم قدراته أكبر ، امكانياته أوسع . فقد لجأ الى كافة ما يمكنه لتحقيق ما يهدف اليه ، وهذا ما فعله السلطان المؤيد شيخ .

المسجد الحرام

يقول ابن اياس :

« فلما بنى السلطان هذا الجامع حصل للناس بسببه غاية الضرر .. » .

صورة غريبة يقدمهـــا لنا ابن اياس ، اذ كان المؤيد يقصد بناء بيت من بيوت الله ، تشييد مسجد فلماذا يحدث الضرر بالنسبة للناس ، لقد كان الاسلوب المملوكى فى الحكم المتسم بالتعسف والظلم ، يتسرب الى اعمال الخير أيضا .

كان بناء المسجد يحتاج الى كمية كبيرة من الرخام ، لهذا صار والى القاهرة يهاجم بيوت الناس ويخلع منها الرخام غصـــبا ، وهنـا لنـدع ابن اياس مرة أخرى يتحدث ...

« وصار المؤيد يكبس الحارات التى بها بيوت المباشرين ، وأعيان الناس بسبب الرخام وكان التاج والى القاهرة يهجم على الناس فى بيوتها ، ومعه المرخمون (عمـــال الرخام) فيقلع رخام الناس طوعا أو كرها ، وأخرب دورا كثيرة ، وجعل باب السلطان حسن الذى خلعه ، وجعله على باب جامعه ، وأخذ التنور الكبير النحـاس

« النجفة » منها أيضـــــا ، ودفع فى البــاب والتنور خمسمائة دينار .

فكان ما قيل فى المعنى :

بنى جامعـــــــا لله من غير جله
فجاء بحمـــــــــد الله غير موفق
كمطعمة الايتـــام من كـــد فرجهـا
فليتك لا تزنى ولا تتصـــــدق »

سيدى ابراهيم

فى ربيع الآخر ، عام ٨٢٣ هجرية ..

طلع أحد الموظفين الكبار الى السلطان ، وأخبره ان الامراء يرغبون فى اقامة أبنه ابراهيم ســلطانا بدلا منه ، بعد ان حقق انتصــارات كبيرة على بعض المتمردين فى الشام واقترح على مؤيد شيخ ان يتخلص من ابنه ، وفعلا قام السلطان بدس السم له فى الحلوى ، وكان السم من النوع البطىء ، فبدأ المرض يحل بابن السلطان، وعندما أشتد به ندم مؤيد شيخ على ما فعله ، ولكن السهم نفذ ، اذ اشتد النزع بابراهيم ، ومات فى ليلته الخامسة عشر من جمادى الآخرة ، فى نفس السنة .

يقول ابن اياس :

« أخرجت جنازته من القلعة ، ومشت قدامه الامراء ، وأرباب الدولة ، من القلعة الى الجامع الذى انشـــــأه والده ، ودفن داخل القبة التى به ، وقام الخطيب فوق المنبر ، وخطب خطبة بليغة ، ثم روى الحديث الشريف

عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لما مات ولده ابراهيم عليه السلام فقال :

« ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا مايرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزنون » ، فلما سمع السلطان ذلك ، وضع منديله على وجهه وبكى ..

بكى السلطان مؤيد الشيخ ..
وبكى الناس على ابراهيم ابنه ..

رقد ابراهيم فى تربته ، تحت القبة التى لابد ان تجتازها قبل دخول الجامع ، وفى نفس السنة مات السلطان ، ودفن الى جوار ابنه .. والآن نقف امام مدفنيهما ، مدفن السلطان المحاط بسور خشبى ، ومدفن ابراهيم الاصغر منه حجما ؛ قتل الاب ابنه حتى لا يلى الحكم بعده ، وجمعتهما هذه الرقدة الابدية .. والآن ... لندخل الجامع ..

الايوان الكبير

.. يفاجئنا الاتساع الرحب ، والفضاء الوديع الذى يملأ فراغ المسجد من الداخل .. نحن الآن تحت الايوان الشرقى ، تقوم حولنا أعمدة الرخام الجميلة التى تحمل سقفا مزدحما بأبدع النقوش الاسلامية .. كان للجامع أربعة ايوانات تحيط بالصحن كلها تخربت ، امتدت اليها يد الفناء ، ولم يبق الا هذا الايوان الشرقى ، الايوان تغمره الزخارف من الارض حتى السقف ، الجدران محلاة بالخزف ، والكتابة تغطى السقف .

نقف أمام المحراب ، الرخام يكسوه تماما قطع صغيرة

متمددة الألوان وبجوار المحراب منبر خشبى طعم بالعاج والصدف ، الايوان لا يبهر بمجرد عظمة المعمارة فيه ، العمارة هنا لا تحدث أثرا فى النفس ، انه الرهبـــة ، الخشوع ، العمارة هنا تجبرك على قبول دعوة للتأمل ؛ من خارج الشبابيك تأتى أصوات الفـورية ، كأنها تمر بعدة مرشـــحات عازلة قبل أن تصــل الى أذنيك ؛ وعندما تسمعها هنا ، عنـدئذ تنتمى هذه الاصوات الى العصر الذى شيد فيه المسجد ، يساعد على هذا ان هذه الاصوات بالتأكيد لم تتغير كثيرا عما كان الامر عليه وقت بناء المسجد ، فالعربات والمركبات الآلية لا تمر من شارع الفورية الا نادرا ..

نخرج من الايوان الشرقى ، ليس الى الخارج ، ولكن الى وسط المسجد ، حيث تطالعنا حديقة ، خضرتهـــا غريبة ، وتلقى الحـديقة هنـــا ظلالا مهيبة على طبيعة المكان ، تجعل للرهبة بعدا آخر ..

السـكر

وفى صحن المســجد ، نرى فسقية من الرخام بنيت لتكون ميضأة ، نقترب منها ونحن نذكر حديث مؤرخنـا العظيم ابن اياس بعد انتهاء عمارة مسجد المؤيد :

« ثم ان السلطان نزل الى هناك وأقام الى بعد العصر وامر السلطان ان تملأ الفسقية التى فى صحن الجـامع سكرا ، فملئت ، ووقف الامراء يفرقون السكر على الناس بالطاسات » .

نذكر هنا ونحن نرى احد الرجال يتعرى ، ويجلس

القرفصاء ليتبول في الميضأة ، وآخر يغسل تحت احدى « الحنفيات » طبقا به بقايا أطعمة ، واذا مددنا النظر فسنلمح بالارضية بقايا ونفايا قذرة .

أحقا ملئت هذه الفسقية يوما ما بالسكر وشرب منها الناس ؟

مسجد الحاكم بأمر الله

« ... الآن ، يوجد فى القاهرة القديمة مسجد كبير ، فسيح ، بطلت منه شعائر الصلاة منذ قرون ، وصلنا من العصر الفاطمى ، وكما لاقى صاحبه ظلمـــا فادحا من المؤرخين ، فانه يعانى الآن وحدة وهوانا لا مثيل له ، فأعمدته متهدمة ومئذنتاه النادرتان تسكنهما الوطاويط ، وفوق قسم منه أقيم بناء قبيح لمدرســـة ابتدائية ، مدرسة السلحدار الابتدائية ، وفوق قسم آخر مخزن ، غير ان المسجد الفسيح يحتفظ بهيبة غامضة تتسق مع سيرة صاحبه التى يلفها نفس الغموض والهيبـــة ، ان أطلاله القديمة تضم بين ثناياها أسرار هذا العهد البعيد المثير .

قبل الموت

سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) بدأ الخليفـــة العزيز بالله الفاطمى فى انشاء مسجد خارج أسوار القاهرة ، لكنه لم يتم فى عهد هذا الخليفة ، توفى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ، وكان عمر الحاكم وقتئذ أحد عشر عاما ، يقول المؤرخ ابن خلكان ان الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصنيعه المؤرخ « المسبحى » الذى روى عنه ...

« استدعاني والدى قبل موته ، وعليه الخرق والضماد . فاستدناني ، اليه ، وقبلني ، وضمني اليه وقال : واغمي عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عينـــاه ثم قال : امض يا سيدى والعب فآنا فى عافية ، قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب انى ان نقل الله سبحانه وتعالى العزيز اليه ، فبادر الى برجوان وانا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقـال برجـوان « انزل ، ويحك ، الله فينا وفيك » فنزلت ، فوضع العمـــامة بالجوهر على راسى وقبل لى الارض وقال « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .. ولان الحاكم بأمر الله كان صغير السن ، فقد طمعت القوى السياسيه الموجودة وقتئذ فى السيطرة عليه ، وكان الصراع محتدما بين طائفتى المشارقة ، والمغاربة ، وفى وسط هذا الواقع المضطرب كان هناك خصى أبيض اسمه (برجوان) أحد الخدم البيض الذين جلبوا من أوروبا ليعملوا فى القصور الاســلامية ، تدرج (برجوان) حتى وصل الى منصب استاذ ، ثم عمل على ازاحة منافسيه ، وكان سياسيا موهوبا فبدأ يستميل اليه العواطف المتنازعة ، وفعـلا تمت له السيطرة على مقـــاليد الامور أصبح يدير دفة الامور فى الدولة ، وتجاهل الخليفة صغير السن ، لم يقم له اى اعتبار ، ثم بدأ يغرق فى الملذات ، غرق فى الملاهى ، والمتع ، ولانه كان مهيمنا على كل شيء فقـد أصبحت الفوضى تعم كل شيء ، ويبدو ان اغراء الحكم ، والاغراق فى الملاهى ، قد حجبا عن عينى « برجوان » ملامح شخصية الحاكم بأمر الله ، هذا الفتى الطويل ، المتسع العينين ، صاحب النظرات النفاذة ، الذى يميل دائما الى التأمل ، فى هذه الفترة كان الحاكم قد تجاوز

مرحلة الصـــبا ، بدأ يدخل مرحلة شبابه ، ولأنه خارق الذكاء ، جاد فى تناوله للأمور ، لم يغب عنه أمر مايحدث، لكنه كتم ما يراه ،لم يفصح لاحد ، ولم يشك ، قرر أن يعمل فى صمت ، أن يتخلص من هذا الداهيـــة الذى يسيطر على الامور ، ويقودها نحو خراب شامل ، اذن لابد أن يتخلص من برجوان . غير ان الدافع لديه لم يكن سياسيا محضا ، أو بهدف ســـيطرته على مقاليد الدولة ، لقد كانت أهـــدافه أعم وأشمل ، وهذا يبدو بوضوح فى الخطوات العملية التى بدأ فى تنفيذها بعد تمكنه من السلطة فى تلك الفترة كان عقله يضج بالمثل ، كان يحلم باقامة عالم خال من المظالم ، خال من المجاعات، من الاوبئة ، عالم تتحقق فيه العدالة ، عالم يذوب فيه المحكوم فى الحاكم ، ان الواقع حوله يضج بكل مايستنفر روحه الطموحة الى عالم مثالى يقوم فوق أرض الواقع ، وهو ليس حاكما عاديا ، انه خليفة ، وامام المؤمنين ، ومرتبة الامامة عند الفاطميين تجعل الخليفة من الناحية التأويلية فى مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر ، لان الائمةهم حجج الله على خلقه وهم الداعون الى توحيد الله تعالى وتنزيهه .

خطة التخلص

لا شك اذن ان الامام او الخليفة الفاطمى يتمتع بموقع استثنائى بالنسبة لبقية البشر ، اذن ليحاول من خلال موقعه هذا وما ينفرد به من سلطات وهيبة وحصانة ان يقيم عالمه المثالى . لكن تبقى عدة عقبات ، منها ضرورة

سيطرته على جهاز الحكم حوله ، ثم الوسيلة الى خلق هذا العالم المثالى ؟

لكن كيف وهو بلا حول أو قوة ؟

بتأن شديد وضع خطة محكمة للتخلص من «برجوان» . استدعى أحد رجاله المخلصين ، زيدان صاحب المظلمة ، اى من يحمل المظلمة فوق جواد الخليفة فى المواكب ، التقى به في البستان الكافورى المطل على النيل ، وكان البستان متصـــلا بالقصر عن طريق سرداب يمتد تحت الارض ، فى ذلك البستان رتب كل شىء .. وفى يوم آخر ذهب الى البستان ومعه برجوان فى هذه المرة ، لقد اعتاد برجوان مصاحبته اثناء تفقده لبعض المنشآت الجديدة ، طافا بين الاشجار ، تأملا الخضرة ، تحدثا ، فجأة .. ظهر زيدان ، تقدم مقبلا يد برجوان ، فى نفس الوقت يتحسس ملابسه خوفا من ان يكون مرتديا درعا حديديا ، تأكد ان برجوان لا يلبس شيئا ، بسرعة . طرحه أرضا ، قتل برجوان . وبسرعة بدأ الحاكم يتحرك بذكاء.

« وبكر الناس الى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسن بن جوهر القائد وحده الى القصر وأذن للناس ، فدخلوا الى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرس أشقر ، فوقف فى صحن القصر قائما ، وزيدان يمينه وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه ، فقال لهم بنفسه من غير واسطة : ان برجوان عبدى استخدمته فنصح فأحسنت اليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته ، وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم .

ثم أصدر سجلا الى سائر أهالى مصر ، تلى بعد صلاة الجمعة يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٢٩٠ (٦ ابريل سنة ١٠٠٠ م) . تلى السجل من فوق منبر المسجد ، مسجد الحاكم بأمر الله الذى كان فى بداية عمره الطويل يقوم خارج أسوار القاهرة ، فى سقفه تتلألأ مئات القناديل ، ومن مئذنتيه اللتين شيدتا على نمط منار الاسكندرية الذى كان سليما لم يتهدم بعد يدوى صوت اثنين وخمسين مؤذنا فى أوقات الصلاة .

من فوق المنبر نصح الناس بالعودة الى أعمالهم ، وقال انه منذ الآن سيباشر كل شيء بنفسه ، وان بابه مفتوح أمام الناس كلهم ، لقد بدأ الحاكم خطواته العملية نحو تحقيق العالم الذى يطمح اليه ، فى الشهور الخمسة التالية لمقتل برجوان تخلص من الاتباع الاقوياء الذين كانوا يمثلون ضغطا عليه ، أصبح قابضا على مقاليد الامور بيد من حديد ، لنر اذن ما سيفعله ، ما الذى قام به من أجل خلق عالم حلو ، رائع ، بلا أوجاع ، وهنا يجب أن نلاحظ عدة اعتبارات ، منها طموح الحاكم بأمر الله ، وظروف عصره ، وسبقه للواقع المحيط به ، ثم الوسائل التى اتبعها والتى كانت تبدو حينا متسقة مع زمنه ، وفى أحيان أخرى تبدو غير مفهومة لانها تسبقه .

نحو عالم مثالى

ــ ١ ــ

.. يخرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره ، يتجه الى المسجد الذى لا زالت بعض الاعمال التكميلية تجرى فيه،

ان موكبه يلفت النظر ، لا تحيطه أى مظـــاهر للابهة والفخامة التى تعود أهل القـــاهرة رؤيتها عند خروج الخلفاء الفاطميين انه يمشى بدون حرس ، ووراءه غـلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسـيف والورق فى كيس معلق فى كتفه وهو يمشى وراءه ، يكتب ما يتقدم به الناس من شكاوى ، كان الحاكم يقف أمام الدكاكين ، والبيوت ، يتحدث مع الناس ، وخلال ذلك يحل بعض المشاكل ، ينصف بعض من ظلموا ، وكانت الناس تجرؤ على الاقتراب منه ، والوقوف بين يديه .

– ٢ –

يأمر بتعطيل المطابخ الضخمة ، والكف عن الانفاق على الاطعمة الفاخرة .

يبدأ الناس فى الانتباه الى هذه الشـــخصية غير العادية .

– ٣ –

.. الحاكم بأمر الله يستدعى أحد القضاة . لقـد سمع عنه أمرا عجيبا ، انه يلبس طرطورا ركب فيه قرنين من قرون البقر ، يضعه الى جواره لاخافة الناس ، ويسأله الحاكم :

« ما هذا الامر الذى ابتدعته ؟ »

ويقول القاضى :

« يا أمير المؤمنين ، اشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من الناس ، وان كنت معذورا فيهم ، والا .. فعاقبنى بما تختار .. » .

ويذهب الحاكم بأمر الله الى مجلس القاضي ، ويشاهد ما يقاسيه في سبيل اخذ الحق لمستحقيه ، فاقره على ما يفعله ، وكاد أن يلبس القرنين لينطح بهمـــا أحد المذنبين .

ان الحاكم بأمر الله يتابع جميع قضاته ، كان مهموما بتحقيق العدالة . ورمى بثقله لتحقيق هذا الهدف ، وكأنه يود لو انصف هو جميع المظلومين .

— ٤ —

ها هو يجلس في وقت معين يعرفه الناس عند أحد أبواب القصر ، يجيء المتظلم ، يقف صائحا ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يأمر عندئذ باحضاره ، يصغي الى شكواه ، يأمر بتحقيق عاجل .

ملامح شخصية

— ١ —

القامة مديدة ، كمـــا تصفها لنا مصادر التاريخ ، العينان واسعتان ، براقتان مشعتان ، أقـوى القلوب لا تجرؤ على الصمود طويلا أمامهمـــا ، الصوت جهوري عميق ، يميل الى التأمل ، كان يحب أن يمشي بمفرده ، يصعد الى جبل المقطم ، وبالقرب من حلوان يقـوم بناء شيده خصيصا ليرصد منه النجوم والكواكب ، وربما كان في نفس الوضع الذي يقوم فيه الآن مرصـــــد حلوان المشهور ، انه ملم بعلم النجوم ، في هذا الوضع يحتجب أياما كثيرة عن أهل مملكته ، لا يحضر مجالس الجدل ،

له سعى فى اظهـــــار كلمته ، فى عهده خطب له فى خراسان .

انه يحب العلماء ، ويقربهم ، وما كان يؤرقه فى ذلك العصر حدوث المجاعات ، بمجرد انخفاض ماء النيل عن معدله عند الوفاء تختفى الغلال ، تقل مساحة الارض المزروعة فيقاسى الناس شدائد عظيمة ، انه مهموم بوضع حد للمجاعات ، حدثوه عن شخص من العراق اسمه : أبو على الحسن بن الهيثم ، قالوا له انه نابغ فى فن الهندسة ، وانه قال ، لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص ، فأرسل اليه الحاكم أموالا ، ودعاه الى مصر ، فلما وصل خرج اليه بنفسه وأكرمه وسيره مع جماعة من الصناع ، وصلوا حتى أسوان ، لكن ابن الهيثم يبدو انه لم يستطع تحقيق ما فكر فيه ، لم تساعده امكانيات عصره على تحقيق مشروعه ، هل فكر ابن الهيثم فى اقامة سد عال يعترض مجرى النهر وينظم توزيع مياه النهر ؟ ربما ، خاصة وان الخزانات والسدود لم تكن غريبة على مصر ، انها معروفة منذ أيام الفراعنة ، لكن يبدو أن ابن الهيثم أراد تحقيق عمل ضخم لم تســـاعده الامكانيات المتاحة على اتمامه ، ولم يضايقه الحاكم بأمر الله ، انما أبقاه فى مصر مكرما ، انه يتخذ فى نفس الوقت اجراءات عديدة لتخفيف الواقع الاقتصـــادى على رعاياه ، يلغى العـــديد من الضرائب التى فرضت منذ عهـــد الولاة العباسيين ، وعندما تقع المجاعة يبذل جهـــدا خارقا لتثبيت أسعار العملات المتداولة ، ثم يقيم سعرا لكل شىء بنفسه ، وفى احدى المرات التى اختفى فيهـــا

القمح ، ركب حماره متوجها الى المسجد ، وقبل تحركه خطوة قال (أنا ماض الى الجامع . فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطأه حمارى مكشوفا من الغلة لاضربن رقبة كل من يقال لى ان عنده شيئا منها ولاسرقن داره .. وانهبن ماله) .

فى عودته كانت الغلال تملأ الاسواق .

كان المنصور ابو على الحـــاكم بأمر الله ، عادلا ، متسامحا ، عالما ، صبورا ، ولكن التاريخ الذى يكتبه السادة لم يحتفظ له بصورته الحقيقية ، تماما كما فعل مع على بن محمد صاحب الزنج ، وكل من انحاز الى جانب العدالة والناس ، كانت اجراءات الحاكم بأمر الله من أجل تحقيق عالم مثالى تهدد مصالح السادة . وهذا ما أدى الى قتله ، ولكن مسيرته ظلت تؤرقهم على مر العصور ، فقلبوا وشوهوا وسخروا .

من هنا ارى انه لا حقيقة فى التاريخ ، الواقعة تفسر من أكثر من زاوية ، الحقيقة نسبية ، سيرة الشخص لا تصل للعصور التالية كما هى ، يخضعها كل مؤرخ لتصور خاص ، تتدخل فى تقديره المصلحة والعقيدة ، وسيرة الحاكم مثال حى على ذلك .

لكن ما هى الاجراءآت التى اتخذها الحاكم بأمر الله وسخر منها التاريخ ؟ لنلق نظرة على كل منها ، والظروف التى أدت اليه .

لماذا الاوامر ؟

« يمنع الحاكم بأمر الله أكل الملوخية والجرجير ،

والقرع ، والمتوكلية ، وأم الخلول ، والترمس العفن ، كما يأمر بقتل الخنازير ، ويمنع عجين الدقيق بالرجل » .

من الواضح أن سبب منع معظم هذه الاطعمة صحى بحت ، فكثير منها كان يتسبب عنها أضرار صحية بالغة، خاصة اذا راعينا الحالة الصحية وقتئذ وتفشى الاوبئة ، ويقول بعض المؤرخين أن منع الملوخيــة والمتوكلية كان بسبب حب معاوية لهما ، ومعاوية خصم آل البيت ، وخصم الفاطميين .

أمر « ٢ »

« تمنع زراعة الكروم »

اراد الحــاكم بأمر الله تحريم شرب الخمر ، وكانت منتشرة جدا فى ذلك الوقت بسبب حالة الرخاء الاقتصادى التى حدثت بعد الفتح الفاطمى لمصر ، كمــا أن الدين الدين الاسلامى ينهى عن الخمر .

أمر « ٣ »

« يمنع الحاكم بأمر الله صناعة النعال الحريمى ، ومنع النساء من الخـــروج ليلا ، ومنعهن من كشف وجوههن وراء الجنــائز والخروج الى حلقات الرقص خارج المدينة » .

استمر منع النساء من سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) حتى خلافة الظاهر عام ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) أى انهن قضين سبع سنوات محبوسات ، وكان الدافع لاتخـاذ هـذه الاجراءات أخلاقيا ، ومحاربة الفساد من أجل الحفاظ على التقاليد الدينية ، من ناحية أخرى اتخذ الحاكم بأمر الله عدة اجراءات أخرى ، منها انشاء دار لاموال اليتامى، لا يدفع من مال اليتيم الا اذا حضر أربعــة من ثقات

القضاة ، وأمر بقتل الكلاب ، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالازقة والشوارع شيء ، وطرحت بالصحراء وشاطىء النيل ، وأمر بكنس الازقة والشوارع وأبواب الدور فى كل مكان ، وتلك اجراءات صحية ، وفى ربيع الاول سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أمر باضاءة القناديل فى الليل بسائر الحوارى والازقة بالقاهرة ، وهنا نجد بعض المؤرخين يفسرون هذا الاجراء الذى يستهدف الحفاظ على الامن بأن الحاكم امر بقلب النهار الى ليل ، والليل الى نهار ، لقد اثرت الرواية التاريخية المفرضة فى وجدان الشعب ، فنجد بعض الروايات المتوارثة فى القاهرة القديمة تقول أن الحاكم بأمر الله قلب الليل الى نهار ، وانه ركب بعد شروق الشمس (أى غروبها طبقا للنظام الجديد) ليرى هل يلتزم الناس بأوامره ، والنوم نهارا (باعتباره ليلا) وفعلا .. وجد الطرقات خالية ، والدكاكين مغلقة ، لكن اسكافيا عجوزا كان لا يزال يعمل ، وفى الضوء النهارى أشعل مصباحا صغيرا ، اقترب منه الحاكم متسائلا عن السبب فى مخالفته الاوامر ، فرفع الرجل اليه عينين ضعيفتين وقال :

- أصلى سهران بعض الوقت !!

استخدام الشدة

فى أواخر عصر الحاكم ، ظهر بمصر عدد من الدعاة ، بدأوا ينشرون تعاليم غريبة . مؤداها اعتبار المنصور أبو على الحاكم بأمر الله فوق مستوى البشر ، وكان

أحدهم وهو محمد بن اسماعيل الذى لقب بالدرزى يؤمن بالتجسيم والحلول ، فروح آدم تجسدت عليا رضى الله عنه ، وهذه انتقلت الى الحاكم بأمر الله ومن قبله أبيه وجده ، دعا الناس الى عبادة الحاكم ، واستطاع الدرزى نشر دعوته بين عدد من الاتباع بلغ عددهم حوالى ستة عشر ألفا ، لقد طرد هؤلاء من مصر ، واستقروا بالشام حيث يعيشون الى يومنا هذا فى انتظار عودة الحاكم بأمر الله ، وهم الدروز .. وبالتأكيد ، لم يصلنا نص واحد ينسب الى الحاكم انه ادعى الالوهيـــة ، وتلك مسألة شائكة ، تدخلت فيهـــا عوامل عديدة ، اذ أن الدعاة أصحاب هذه الفكرة معظمهم من أصل فارسى ، حيث الايمان قوى بتناسخ الارواح والحلول ، الى جانب فكرة المهدى المنتظر ، ونزول المسيح فى آخر الزمان ، ربمـا وجد هؤلاء فيما يقوم به الحاكم وفى شخصيته المثالية أرضا خصبة لافكارهم ، غير ان الحاكم انزعج من هذه الدعوة ، حتى إنه استخدم الشدة وقتـل دعاته الذين غالوا فى آرائهم ولم يدفعوا عنه ما قيل عنه ، وفى مرحلة معينة أحس بفداحة الخطر الذى تمثله هذه الدعوة على جهوده من أجل العدل والطمأنينة بين البشر ، فاعتزل الدنيا كلها ، كان يجلس فى مكان مظلم لا يدخل عليه أحد ، أو يخرج هائما على وجهه فى الصـحراء ، أو يصعد الى جبل المقطم يستغيث بالله ، ويناجى ربه ، وهنا نرى الحاكم زاهدا فى الدنيا ، لا يحلق شعره ، أظافره طويلة ، لا يغير رداءه الا كل مدة ، وبرغم ذهوله عن الدنيا ، وضيقه بما يجرى ، لم تفتر عزيمته فى

محاربة الذين يحاولون تشويه مسيرته ، وظل يحارب حملة هذه الدعوة حتى يوم خروجه الاخير الى المقطم ..

المشهد الاخير

اليوم ، ثلاثاء ، ١٣ فبراير سـنة ١٠٢١ م سنة ٤١١ هـ ، الليلة يخرج الحاكم بأمر الله من باب القصر الشرقى الكبير ، ركب حماره ، متوجهـا الى خارج القـاهرة ، المدينة هادئة ، وثمة غموض فى الجو ، ويبدو ان أم الحاكم أحست بما سيقع ، تعلقت به قبل خروجه ، رجته بحرارة أن يبقى ، ألحت عليه ، لكنه أصر على الخروج .

أمام باب القصر ، وقف جماعة ينتظرونه كل ليلة ، يصاحبونه فى سيره ، واذ يقترب من الجبل يعودون ، يستمر بمفرده ، أثناء مشيه ربما اعترضه بعض الرعايا ، يقدمون له الشكاوى ، يقف الواحد منهم على يمينه ، يشرح له متاعبه ، يصغى الحـاكم ، ان ذاكرته قوية تستوعب ما يسمعه ، اذ يعود الى القصر يعمل على حل هذه المشاكل ويطلب من الاهالى انتظاره فى الليلة التالية بنفس الموضع حتى يخبرهم بما اتخذ من قرارات .

الليلة ظلامها كثيف ، النجوم كثيرة فى السماء ، عند بداية الجبل عاد مرافقوه ، وأوغل الحاكم فى الدروب المهجورة .

يقال انه نظر طويلا الى السماء ، ثم صاح « ظهرت يا مشئوم » ..

ومنذ هذه اللحظة لم تقع عليه عين بشر حتى الآن ، لم يعثر له على جثة ، وازداد الموقف غموضا .

.. وعنـــدما نقف الآن في صحن المسجد الفسيح المتهدم ، تهيمن علينـــا مسيرة الحاكم بأمر الله ، كأنه يرقبنا من مكان خفى ، لقد صلى هنا ، ومشى هنا ، ومن امام هـذا المسجد سار الى الجبل قبـل غيبته ، والى المسجد يجيء بعض الناس من الهند بين فترة وأخرى ، من بقايا الفاطميين هناك ، يحجون الى مسجد الخليفة الفاطمي ، ان الاعمدة تقاوم جاهدة البلى ، نلمح الاعياء فوق جدرانه ، والخراب حول مئذنتيه ، يجول بالذهن خاطر ، هل يعود الحاكم يوما ليعمر هذه الاطلال .. وليسأل نفسه ، كيف تحول هذا المسجد الفخم الى تلك الاطلال ..

ما جرى للمسجد

عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) :

بدر الجمالي أمير الجيوش والوزير الفـاطمي يجدد اسوار القاهرة ، أصبح مسجد الحاكم داخل الاسوار ، التصق الجدار الشرقي منه . بالسور فى المنطقة التى تقع بين باب الفتوح وباب النصر .

عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) :

يقع زلزال خطير بالقاهرة ، يخرب المئذنتين ، ينتدب السلطان الناصر محمد ، « الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير » فنزل الى المسجد ، وكشف بنفسه ، وأمر

بردم ما تهدم منه ، واعادة ما سقط من البدنات ، فأعيدت وفى كل بدنة منهـا طاق وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا ، وبالمسجد نقش كتابى جاء فيه « وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة » .

عام ٨٦٠ هـ (١٣٥٨ م) :

يجدد المسجد فى عهـد الملك الناصر حسن ، ويبيض مئذنته أحد الباعة ويعرف بابن كرسون .

عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) :

يقوم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف بتجديد أربع بوائك من مؤخرة المسجد ويجعلها بيتا للصلاة .

ثم يستخدم المسجد لاغراض مختلفة ، اتخذ مقرا لحامية أثناء الحملة الفرنسية ، ثم مقرا لبعض الشوام الذين أقاموا فيه مغازل ومصانع لصناعة الزجاج اليدوى ونسيج الحرير ، وفى عام ١٨٨٠ استخدم متحفا للآثار العربية ، ثم أقيمت فوق جانب منه مدرسة السلحدار الاعدادية ..

والآن لنلقى نظرة من أعلى ..

المئذنتان

ربما يمثل كل حجر فيهما حدثا تجمـد من العصر البعيد ، تدركنا رهبة اذ ندخل المئذنة الشمالية من باب صغير فوق سور القـاهرة القديم ، السلم حلزونى

متسع ، فـــوق درجاته نقوش فاطمية تآكلت ، تدور السلالم حول جسم اسطوانى ضخم من الحجر . تفجع الاذن بأصوات غريبة تلوث ضوء النهار ، تنال من رهبة المكان ، انهـــا الوطاويط ، لا تخرج فى النهار ؛ وفى السماء تنتقل أسرابها الى أشجار النبق القديمة فى فناء الجامع . وتطير الى الشرفة الرئيسية ببيت السحيمى الاثرى القريب .

اعلى المئذنتين ..

تشعر بالعلو الشاهق ، تبدو المئذنة البحرية ، القاعدة المربعة ، يعلوها بناء مربع آخر يميل ميلا خفيفا ، يذكرنا هذا بوصف الرحالة عبد اللطيف البغـــدادى لمنارة الاسكندرية عام (١٢٠٠ م) ، لا شك ان المنارة كانت تشكل منبع الوحى الذى استوحاه المهندسون المصريون عند بناء المئذنتين ، انهما اقـدم مئذنتين قائمتين على حالهما القديمة فى العمارة الاسلامية فى مصر ، نلاحظ فوقهما بنائين غريبين عن الطراز الاصلى للمئذنتين ، انها الاضافات التى قام بها الامير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣ هـ بعد أن هدمها الزلزال ، لكن ما بناه يبدو نشازا ، لم يراع الطراز الاصلى للبناء ، أكمله ببناء من زمنه هو ، الآن تعانى المئذنتان اهمـالا وهوانا ، والوطاويط تلوث احشاءهما ، والكتابة الكوفية الجميلة التى تحيط بهمـا مهددة بالتآكل والضياع ، من أعلى تبدو أطلال المسجد ، تبعث على الرثاء ، وكأن الحاكم يرقبنا ، ويرقب نظرات الاسى فى عيوننا على ما تبقى منه ، لقد جاهد طويلا ليمحو

الظلم ، وسعى فى الارض ليقيم العدالة ، ثم غاب فى غموض غريب ، وحملت الرواية التاريخية مسئولية دماءه لاخته ست الملك التى قيل انها قتلته . غير انه لم يتبق منه كحقيقة مادية ملموسة ، ومن جهوده كلها الا .. هذه الاطلال ..

مآذن القاهرة

تتعدد وجوه القاهرة بتعدد المراحل التى عاشتها تلك المدينة منـذ عصورها الاولى . وحيثما ذهبت تستطيع ان ترى للقاهرة وجها مختلف الملامح والقسمات ، وربما عالما له شخصيته المميزة . وهذه نظرة الى القاهرة من خلال مآذنها العديدة والعريقة .

* تنفرد مدينة القاهرة بوجـود مجموعة كبيرة من المآذن . تمت الى عصور مختلفة ، فى كل منهــــا خصائص العصر الذى بنيت فيه ، وملامحه ، قـد تبدو المآذن مجموعة من المبانى النحيلة الرشيقة التى تشهق لتسد الفراغ اذا نظرنا اليها بمعزل عن الظروف ، لـكن عندما نتوغل الى الزمن الذى بنيت فيه سنجد أن الحياة قد دبت فى الحجارة الرمادية الصماء ، وسنجد أمامنا « أرشيفا » حيا ، للعمارة الاسلامية والمئذنة لم تولد مع المسجد ، بل أنشئت فى فترة متأخرة قليـلا كضرورة تقتضيها الحاجة ، يؤكد البخـارى ان المسلمين عنـدما هاجروا الى المدينة كانوا يجتمعون « فيتحينون للصلاة ، ليس ينادى لها ، فتكلموا يوما فى هذا ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقـوس النصارى ، وقال بعضهم

بل بوقا مثل قرن أليهود ، فقال عمر أولا تبعثون رجلا منكم ينادى بالصلاة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا بلال قم فنادي للصلاة .. » وكانت المساجد الاولى تخلو من المآذن ، كمسجد الكوفة (١٧ هـ — ٦٣٨ م) ، والمسجد الجامع بالبصرة (١٦ هـ — ٦٣٧ م) وكان مسجد عمرو بن العاص خاليا من أى مئذنة ، وكان الناقوس مستخدما فيه لدعوة الناس الى الصلاة حتى سنة (٥٣ هـ — ٦٧٣ م) وفى البداية أطلقت كلمة (صومعة) أو (منارة) على المآذن ، وكانت كلمة صومعة تطلق فى الاصل على صوامع الرهبان المسيحيين ، وهى بناء مربع يعلو عن الارض وعندما زار الرحالة ابن جبير دمشق وصف ثلاث صوامع بالمسجد الاموى ، « كالبرج المشيد » ، وما تزال كلمة صومعة مستعملة فى شمال أفريقيا حتى وقتنا هذا ، وربما كان ذلك لان شكل المآذن لا يزال محتفظا هناك بصورته المربعة الاولى . اما لفظ « منارة » فهو يعنى المكان الذى ينبعث منه النور أو الضوء ، وهذا يعنى ان المئذنة كانت تستخدم فى وقت ما لاغراض أخرى غير الآذان ، كارسال الاشارات الى السفن ، أو ارشاد التائهين فى الصحراء ، أما كلمة مئذنة فمشتقة من لفظ (الآذان) .

اقدم المآذن

تقول كتب التاريخ ان أحمد بن طولون كان رجلا جادا، لا يضيع جزءا من وقته فى العبث أو اللهو ، وفى احد

الايام ، كان يجلس مع بعض رجال دولته ، وكان الحديث حول المسجد الجديد الذى أزمع بناءه فى مدينته الجديدة التى اختطها « القطائع » ساد صمت ، أطرق ابن طولون، وراح يلف ورقـــة حول اصبعه ، انتبه فجأة الى انهم ضبطوه فى لحظة عبث . أراد أن يبرهن لهم انه كان منصرفا الى عمل نافع يتدبره ، فثبت الورقة على وضعها حول اصبعه ، وقال بسرعة ..

« اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط .. » .

ربما تبدو هذه القصة مقنعة لتفسير هـــذا الشكل الغريب لمئذنة ابن طولون ، اقدم مآذن القاهرة ، لكن لو عرفنا ان ابن طولون قضى أول حياته فى مدينة سامراء العراقية ، قبل أن يفد الى مصر . وإذا لاحظنا مئذنة جامع سامراء القائمة فى الزيادة الشمالية للمســـجد (تماما كمئذنة ابن طولون) التى لا تتصل بسائر مبنى المسجد ، تبدو كأنها منفصلة عنه ، ولا ترتبط به الا بواسطة قنطرة محمولة على عقدين متجاورين . وكلتـــا المئذنتين تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها ســـاق اسطوانية يلف حولها من الخارج سلم دائرى عرضه حوالى ٩٠ سنتيمترا له سور دائرى أيضا ، هناك اذن تشابه بين مئذنة ابن طولون ومئذنة جامع سامراء ، وقد زرت كلا المئذنتين ، ولا شك ان كلا منهما توحى بالاخرى ، خاصة عند صعود السلم الدائرى ، والوصول الى قمة اى منهما . الفرق ان سلم ملوية سامراء غير مسور اما سلم مئذنة ابن طولون فيحف به سور منخفض . ولا شك ان مئذنة ســـامراء كانت ماثلة فى ذهن ابن طولون .

والمئذنة التى نراها اليوم بنيت فى زمنين مختلفين . نصفها الاسفل المربع ، والجزء الاسطوانى من البناء الاصلى . أما الجزء العلوى المكون من طابقين فقد اضافهما السلطان لاجين عام (١٢٩٦ م) . ويقال انه فعل ذلك نتيجة لنذر قطعه على نفسه عندما كان مطاردا، واختبأ فى المسجد قبل اعتلائه كرسى السلطنة وكانت المئذنة وقتئذ مهدمة . تطل برثاء على المسجد الفسيح الساكن ، والذى عبر كل الاعاصير والتقلبات ووصل الى زماننا سالما ..

الحاكم

بالقرب من نهاية شارع المعز لدين الله ، قبل وصولنا الى بوابة الفتوح ، احد ابواب القاهرة القديمة السبع يمتلىء الجو برائحة سوق الليمون والزيتون الاخضر ويسد الطريق امامنا سور القاهرة القديم . تبدو سلالم الحصن الذى كان يطوق القاهرة ، كذلك أماكن وقوف الجند ، ومزاغل المراقبة ، فى الفراغ تعلو مئذنتا الحاكم بأمر الله ، وتحتهما يمتد أكبر مسجد فى مصر ، وأكثر المساجد اهمالا ورثاثة . فوق جزء من فنائه يستقر بناء كالنشاز يضم مدرسة السلحدار الاعدادية . ثم اطلال وخرائب . وبرغم مظهر الاهمال فان المكان يعبق برائحة تاريخ قوى لم يول بعد ، تاريخ الحاكم بأمر الله ، تلك الشخصية الفذة التى أثارت جدلا لم يهدأ بعد ، ترتفع جدران المئذنتين من الارض ، كل منهما تبدأ بقاعدة

مربعة ضخمة تميل جدرانها ميلا خفيفـــا مما يذكرنا بالاهرامات المربعات ما هما الا معطفان من الحجر ، كل منهما يحيط احدى المئذنتين الاصليتين . يرتفع المعطف الغربى ٢٤ مترا فوق أرض الشارع . ويتكون من جزئين أولهما يبلغ ارتفاعه ١١ مترا . والطابق الثانى يرتفع ١٤ مترا ، أما المعطف الشمالى فيزداد ارتفاع الطابق الاول فيه مترين . وهكذا يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا . الا يذكرنا شكل المعطفين الحجـــريين بذلك الوصف الذى دونه عبد اللطيف البغدادى لمنارة الاسكندرية ، تلك الجدران المائلة . ربما تأثر المهندس الذى أشرف على بنائهما بشكل المنـــارة التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولم يهدمهـــا الزلزال بعد ، ربمـــا كان قد تأثر بشكل الاهرامات المصرية ، هنا نرصـد التميز الذى بدأ فى بناء المآذن المصرية والذى سيستمر تطوره حتى تكتمل كافة عناصره فى عصر السلطنة المملوكية . ندخل الى المئذنة الشمالية من باب صفير يعلو سور القاهرة القديم الذى بناه بدر الجمالى وأخفى أحد أضلاع هذه المئذنة .

المئذنة من الداخل تتكون من قاعدة مربعـــة وجسم اسطوانى ، وعندما ندخل الى المئذنة من فوق السور فاننا نصبح محاذين للجزء الاســـطوانى ، سلم المئذنة يدور حوله ، فوق الجدران الخارجية للمئذنة نرى زخارف، ونوافذ تحيط بها اطارات زخرفية تتكون من وحدات هندسية مجـــردة ، ووحدات زخرفية أساسها ورق النبات ، وفوق السلالم التى تصعد بنا الى أعلى نلمح زخارف ورقية ، مما يوحى لنا بمدى الجهد الذي بذله

المنمنمون والمزخرفون فى تزيين المسجد ، أثناء صعودنا تفجع آذاننا بأصوات نحيلة ، حادة منبعثة من داخل المئذنة ، انها الوطاويط ، تعشعش فى الداخل ، تنهش جوف المئذنة ، وتلوث بأصواتها السكون النهارى الجليل الذى توحى به سيرة الحاكم صاحب المكان ويقال انها ضخمة الحجم الواحد منها فى زنة الارنب ، نصل الى سطح المئذنة ، نصبح بجوار الجزء العلوى ، انه يتنافر مع بقية البناء ، لا يمت اليه بأية صلة معمارية ، ولا عجب فقد بنى فى فترة متأخرة ، بالتحديد فى زمن بيبرس الجاشنكير أحد أمراء المماليك .

حدث فى سنة ١٣٠٣ زلزال عنيف هدم منارة الاسكندرية ، وهدم الجزء العلوى من مئذنتى الحاكم بأمر الله ، وقام الامير بيبرس الجاشنكير باضافة هذين الجزئين ، ينتصب القسم العلوى هنا من أربعة طوابق مثمنة . تحيط بالثلاثة العليا منها صفوف من المقرنصات . وتعلوها قبة المئذنة على شكل مبخرة ، انه نفس شكل المئذنة التي تعلو مسجد بيبرس الجاشنكير والذى يقع فى مواجهة حارة الدرب الاصفر بالجمالية ، ويعرف هنا باسم زاوية بيبرس حيث كان يقيم الصوفية والفقراء يرددون الأذكار والاشعار ، فى الزمن النائى البعيد ، لكن البناء الاصلى ، فوق مسجد بيبرس يبدو متسقا ، اما هنا فوق مئذنتى الحاكم فانه غريب عن البناء الاصلى ، لانه من عصر مختلف ، واذا تجاور زمنان مختلفان تنافرا ، واختلفا . يبلغ ارتفاع هذا القسم سبعة عشر مترا ، اى أن البناء يرتفع عن سطح الارض ٤٦ مترا .

وفوق جبل المقطم ، بالقرب من مركز السماء تقوم مئذنة الجيوشي (٤٧٢ هـ ـ ١٠٨٥ م) فى الشتاء تبدو من خلال الضباب معلقة فى فراغ الكون ، وقد اختفى الجبل الذى تقوم اليه فى بحر من اللبن الهائش ، تبدو المئذنة وكأنها دعاء تجمد فى طريقه الى أعلى ، أو ابتهال غامض خفى ، أو رغبة من المعبود فى الوصول الى الخالق، انها ثانى المآذن التى وصلتنا من العصر الفاطمي ، لقد اختفت مئذنة جامع الاقمـــر ، وكان قد بناها الوزير البطائحي فى سنة ١١٢٥ ، أما المئذنة الوحيـــدة التى وصلتنا من القرن الثانى عشر ، فهى مئذنة مسجد أبى الغضنفر ، وتصور مئذنة الجيوشي مرحلة من تطـور المئـــذنة المصرية . فى أعلاها تلمح عنصرا هاما من المقرنصات فى صورتهـا الاولى . والافريز الادنى يشتمل على صف من العقود ، وتلك هى المرة الاولى التى تبدو فيها هذه الظاهرة فى عمائر القاهرة . انها أقدم مئذنة فى ذلك الطراز المعـــروف باسم المبخرة ، وهو طراز استمر مستخدما حتى الربع الثـــانى من القرن الرابع عشر .

هكذا تتضح معالم المآذن المصرية الاولى . برج مربع ينتهى بشرفة وفوقه طابق آخر مربع ، كما يبدو فى مئذنة الجيوشي . لقد اختفى هذا الطابق فيما بعد ، واستبدل بطابق مثمن فى مئذنة ابى الغضنفر ، فتحت فيه تجاويف مضلعة الرءوس . وارتفعت فوقه رقبـة مثمنة الاضلاع تعلوها خوذة مضلعة ، وتلك التى عرفت باسم المبخرة ..

الباب الاخضر

بجوار الباب الاخضر لمسجد سيدنا وامامنا الحسين عليه السلام فى القاهرة شق ضيق فى هذا الجدار القديم المتبقى من البناء الاصلى .

تقول الاسطورة « ان رأس الحسين طارت من كربلاء الى هذا الموضع لمدة أربعين يوما تسبح بحمد الله ، وعندما استقرت هنا رست بجوار سيدة عجوز ، اخفت الرأس ، جاء جند يزيد اليها عندئذ اخذت رأس ابنها وقدمتها اليهم فداء لرأس الحسين . والحى المجاور للمسجد يعرف حتى الآن باسم حى ام الغلام ، أما المكان الذى استقرت فيه الراس فلا يروح العطر منه أبدا .. فوق هذا الشق تقوم مئذنة المشهد التى شرع فى بنائها فى عصر صلاح الدين الايوبى (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) ويبدو ان الذى أنفق على تشييدها رجل صالح يدعى أبو القاسم بن يحيى ، اذ يوجد نقش على قاعدة المئذنة نصه :

« بسم الله ، أوصى بانشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد الحسين تقربا الى الله ورفعا لمنار الاسلام الحاج الى بيت الله أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور تقبل الله منه ، وكان المباشر لعمارتها ولده لصلبه الاصغر الذى أنفق عليها من ماله بغية عمارتها خارجا عما أوصى به والده المذكور وكان فراغها فى شهر شوال سنة أربع وستمائة .. » .

وما تبقى من المئذنة قاعدتها الايوبية . اما جزؤها

العلوى ، فقد تهدم ، واستبدل به بناء عثمانى فى عصر الاحتلال التركى المتـــأخر ، ويتميز الجزء الاصلى من المئذنة بجوفاته المقرنصة الثلاثة الى تشـــغلها ثلاث حشوات مطولة تزخر بحشـــــد من الزخارف النباتية المحفورة فى الجص ، من الطابع الاندلسى الذى نراه فى قصر الجعفرية بسرقسطة وفى المسجد الجامع بتلمسان. ويعلو كل حشوة طاقة معقودة مقرنصة . وتشـــــغل الفراغين والواقعين بينهما قوقعتان مقرنصتان .

واذا ما انتقلنا الى شارع بين القصرين ، وفى منطقة الصاغة ، حيث سوق الذهب والفضة ، اذا رفعنا البصر سنجد مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب . انهـــا المئذنة الوحيدة التى تبقت سليمة من العصر الايوبى . انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل فى ٦٤٢ هـ (١٢٤١ م) ، فى أعلى الباب بأسفل المئذنة لوحة تشير الى الشروع فى بناء المدرسة نصها :

« بسملة . أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الاعظم الملك الصالح نجم الدين بن محمد بن ابى بكر ايوب فى سنة احدى وأربعين وستمائة » .

فى تلك المئذنة نجد ان الجزء المثمن أصبح مستقلا وبارزا بعد أن كان مندمجا فى مئذنة الجيـــــوشى فى مجموع البناء ، وأصبحت المبخرة اكثر وضوحا ، وخلال نصف قرن تلا سقوط الدولة الايوبية ساد نظام المباخر فى المآذن المصرية وهو طراز مصرى خالص لم يتكرر فى اى بلد آخر .

ونلاحظ ان شخصية المئذنة المصرية لم تتبلور ، ولم

تتضح الا فى العصور التى نعمت فيها مصر بالإستقلال ، الدولة الفاطمية ، ثم الايوبية ، والسلطنة المملوكية . ومن مآذن العصر المملوكى الاول مئذنة المنصور قلاوون ، قبل أن نصل الى بابهـــا الصغير نعبر ردهة طويلة ، عالية السقف ، تذكرنا ببهو المعابد الفرعونية ، الهواء رطب ، الى اليسار تقوم قبة قلاوون الرائعة ، التى استـــوحى فى تصميمها قبة مسجد الصخرة ، والتى يرقد تحتهـــا الناصر والمنصور قلاوون ، نصل الى الباب الصغير الذى يسلمنا الى سلم دائرى من الحجارة ، يستدير حول جسم اســـــطوانى يمثل لب المئذنة ، يدور السلم ، تتخلل الجدران فتحات دائرية قصيرة نلمح منها سمك جدران المئذنة الذى يبلغ حوالى المتر ، نرى المدينة القديمة ، القريبة والمبانى الحديثة الشاهقة عند الافق .

نصل الى القاعدة المربعة ، حيث ينتابنا الاحساس بالعلو الشاهق اذ يرتفع جسم المئذنة النحيل ما يقرب من ارتفاع عمارة حديثة مكونة من اثنى عشر طابقا ، واذ نستند الى الحاجز الخشبى للشرفة نستطيع أن نلمح افريز المقرنصات الذى يحيط بقمة القاعدة المربعـــة ، والذى يرى الباحثون فى زخارفه تأثيرات اندلسية ، تلك الزخارف تشبه زخارف مسجد اشبيلية ، قد يبدو هذا أكثر وضوحا فى الطابق الثانى من المئذنة ، وفى الطابق الاخير حيث نجد شبكة من المعينات الزخرفية ، ربما يرجع هذا الى زيادة الصلات بين مصر والاندلس ، خاصة بعد ظهور مصر كأقوى دولة اسلامية اذ قضت على الخطر المغولى فى عين جالوت (٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م)

وبروزها بوصفها القوة الرئيسية فى التصدى للخطر الصليبى فى الشام .

من فوق الطابق الثانى للمئذنة ، وبنظرة خاطفة نجمع فترة طويلة من الزمن ، أمامنا تعلو مئذنة مسجد السلطان برقوق ، بقامتها الرشيقة وطوابقها الثلاثة المثمنة وطبقتها الوسطى المزينة بالرخام على هيئة دوائر متقاطعة ، وهذه الزخرفة الرخامية تعد الاولى من نوعها فى المآذن المصرية .

يفصل مئذنة قلاوون عن مئذنة برقوق فراغ ليس بكبير اذا قسناه بالامتار ، لكنه من عمر الزمن يبلغ مائة وعشرا من السنين ، وسط الفراغ ، نلمح مئذنة صغيرة اقل ارتفاعا ، انها مئذنة الناصر محمد بن قلاوون التى تعلو مدرسته . والتى تعلو قاعدتها زخارف جصية رائعة . هذه الزخارف بها تأثيرات أندلسية أيضا . فى هذه الساحة تنتصب مآذن قلاوون وبرقوق ، كل منها تعبر عن عصر بأكمله ، ولكنها فى مجموعها تشكل متحفا متكاملا حيا لفن العمارة الاسلامية .

وبمرور الزمن يصبح التطور فى المآذن المصرية أكثر وضوحا . لقد تضاءلت القاعدة المربعة حتى أصبحت مجرد سند لجسم المئذنة وبرز الجزء المثمن ، كما نجد فى مئذنتى الماردانى وأقبغا (٧٤٠ هـ ـ ١٣٤٠ م) . ومئذنتى شيخون (٧٥٠ هـ ـ ١٣٤٩ م) وربما يرجع هذا الى فيض من التأثيرات السورية التى طرأت على المآذن المصرية بواسطة صناع الشام المهاجرين . نلاحظ أيضا اختفاء المبخرة ، لقد حلت مكانها دائرة صغيرة من

الحجر « جوسق » مسحوبة الى اعلى . وكانت قمة هذه المآذن من الناحية الجمالية والفنية ، مئذنة السلطان الاشرف أبي النصر قايتباى (٨٧٧ هـ ـ ٨٨٩ هـ) وقد استمر هذا الطراز متبعا بقية العصر المملوكى ، وان كنا نلمح بعض الاضطراب فى التطور . ويبدو هذا واضحا فى مئذنة السلطان الفورى حيث تتعدد الرءوس فنجـد أربع بدلا من واحدة ، واذ نقف فى منتصف المسافة بين الفورى والجامع الازهر نلمح التشابه بين مئذنة الفورى والاخرى التي بناها بجامع الازهر والتى يعلوها راسان بدلا من أربع ، لابد ان المهندس شخص واحد ، أراد أن يحدث شكلا من الابتـكار ، فاستحدث أربع رءوس للمئذنة بدلا من راس واحدة ، ولكنه تطور مفاجىء ، لا ينم عن أصالة ، أو تجديد يستند الى أصول ثابتة .

مع الغزو العثمانى لمصر تتعرض المآذن المصرية لمحنة ، لقد بدأ الاحتلال التركى ومع الاحتلال يجىء الغـــازى محاولا فرض طرزه واساوبه ، وتبدو روح المقاومة فى البناء نفسه ، ينعكس الصراع حتى على الحجر .

القلم الرصاص

فى فراغ القاهرة تنتصب مآذن نحيلة ، تنطلق الى اعلى كالحراب ، تذكرنا بالمآذن السلجوقية ، او مآذن استانبول ، نراها فوق مسجد محمد على بالقلعة والذى بنى فى القرن التاسع عشر ، انه الطراز المعمـــارى للغازى ، مآذن تركية مسحوبة ، خالية من الزخارف ،

متجهمة ، خالية . لا توحى بالسلام والدعة والابتهال والمناجاة الصامتة ، تلك المعانى التى تتجسد فى المآذن المصرية الاصلية ، حتى التى تبدو فيها تأثيرات سورية أو أندلسية ، لا أدرى لماذا تذكرنى المآذن العثمانية بالحراب .

لكن يبدو الصراع الذى كان قائما بين الروح المصرية والمحتل العثمانى فى نماذج أخرى ، فى مسجد المحمودية الذى انشأه محمود باشا والى مصر العثمانى (٩٧٣ هـ ـ ١٥٦٠ م) لقد تأثر المهندس بجامع السلطان حسن وجعل المئذنة بارزة عن المسجد ، أيضا شكل قاعدتها ، نرى هذا أكثر فى مئذنتى جامع البردينى (١٦١٦ م) اذ تبدو المئذنة المصرية واضحة تماما ، كما كانت زمن المماليك الجراكسة . هنا نرى انعكاس الظروف بسرعة على العمارة ، فى زمن محمد بك أبو الذهب (١٧٠٣ م) زميل على بك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وفى مئذنته المواجهة لمآذن جامع الازهر يبدو الطراز هنا مختلفا تماما عن مآذن العصر التركى ، اذ أنها تنتمى الى الطراز السورى المربع ، وتنتهى قمتها بخمس رءوس ضخمة ، والأهالى فى منطقة الازهر يقولون ان ثمة كنزا خبيئا فى هذه الرءوس ، ربما حاول المهندس أن يستوحى مآذن الغورى ذات الرءوس المتعددة ، لكن تستوقفنا ملحوظة غريبة فى تلك المئذنة ، انها تشبه برج الكنيسة فى قامتها المستطيلة ، وفى التجاويف العلوية المفتوحة ، والتى تذكرنا بمكان الناقوس فى الابراج الكنسية ، ولكن يبدو هذا التأثير مستوحى من

المآذن السورية التى تأثرت بأبراج الكنائس عند نشأتها ،
وخلال القرن التاسع عشر ساد نظام المآذن العثمانية ، ولكننا نلاحظ فى المساجد الحديثة محاكاة لمآذن العصور الوسطى المملوكية ، وليس هذا لان تلك العصور شهدت قمة التطور للمئذنة المصرية ، ولكن لان مآذن هذا العصر تعد متكاملة العناصر من الناحية الفنية ، والجمالية . وأرقى ما وصلت اليه المآذن المصرية .

بيوت القاهرة القديمة

قاهرة القرون الوسطى ، الشـــــــوارع ضيقة غير مرصوفة ، متعرجة ، مبلطة بالحجارة المضلعة ، تصادفنا مساحات هائلة الاتساع ، غير منظمة الشكل ، تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب فى بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما ، المنازل متقاربة حتى ان الاسطح تكاد تتلاصق ، جانبا الزقاق الضيق يتكونان من جدران هذه المنازل ، تمتد الحصر من سطح الى سطح ، صحيح ان الشارع الضيق يسبب بعض المشقة لكن هنا برودة منعشة تجىء من تيار الهواء البارد الذى يمر بين البيوت القريبة من بعضها ، ان طبيعة الجو الحار فى القاهرة حددت مدى اتساع الحوارى وطريقة بناء بيوتها كمـــا سنرى بعـــد قليل ، البيوت مجموعة من الجدران الخالية من النوافذ ، بين الحين والحين يمر حمار يركبه واحد من الاهالى ـ الحمار وسيلة المواصلات الوحيدة الرئيسية ـ عندئذ يضطر الواقفون الى الصاق ظهورهم الى الحائط ، بينما تلقى الجدران ظلالا رمادية تزيد البرودة .

فى نهاية الزقاق جامع صغير ، لعله ضريح أحـــد

الاولياء ، طليت جدرانه بمختلف الالوان من أصفر وأحمر وأزرق مما يضفى بعض البهجة على الحارة الصغيرة .
فى جدران المنازل الخارجية لا تلمح الا المشربيات التى تتشـــابه كثيرا ، ان المشربيات التى تطل على الطريق ليست فى جمال المشربيات التى تطل على الفناء الداخلى. فالسكان عادة يحتفظـــون بالمشربيات الجميلة للنوافذ الداخلية للمنزل والتى تطل على الفناء أو الحديقة ، وهذا ما نجده واضـحا الآن فى قصر المسافرخانه وبيت السحيمى ، ومنزل زينب خاتون ، واسم « المشربية » مشتق من الفعل « يشرب » ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الاعمدة الخشبية الرفيعة المتشابكة ، لان القلل كانت توضع عليها لتبريد الماء وفى اغلب الاحيان نجد رفـا صغيرا يبرز الى الخارج توضع عليه أوانى الفخار لتبرد بفعل الهواء وفي قصر المسافرخانة نجد طريقة اخـرى لتبريد الماء ، فوق احد أقسام البيت عدة رفوف رخامية تتخللها فجوات توضع فيها الاوانى لتبرد فى الهواء ، ويطلق على هـذه الرفـوف المثبتة فى تجـويف واسع بالجدار اسم « مزيرة » .

والمشربية لا تسمح للجيران أن ينظروا ما وراءها ، غير انها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء اليه ، فالمشربية مكان رطب للانسان تماما كما هو لاوانى الماء ، كما أن الجالس فيها يمكنه رؤية المارة فى الطريق من حيث لا يرونه ، مع هذا توجد نوافذ صغيرة مناسبة فى المشربية يمكن دفعها الى أعلى فى مجار صغيرة محفورة فى الخشب اذا رغب أصحابها فى

ذلك وكثيرا ما كانت نساء القاهرة الجميلات يتظرن من هذه النوافذ الصغيرة ليشترين شيئا من أى بائع جوال وليستعرضن جمالهن فى نفس الوقت ..

ها نحن أمام باب من أبواب هذه البيوت ..

الباب مقوس من أعلى ، مزخرف ببعض النقوش العربية ، وربما آية من القرآن الكريم : نطرق الباب بمقبض نحاسي على هيئة كف آدمى ، قد تضطر الى الانتظار طويلا حتى يسمعك من يدخل الدار ، يصادفنا ممر ينعطف فجأة بعد خطوتين ، يحول دون مشاهدة الفناء الداخلى ، فى نهاية الممر نجد أنفسنا أمام حديقة جميلة تتوسطها نافورة مرصعة بالرخام الملون ، فى أقصى الفناء نلمح بئرا للمياه ، الهدوء مستكن وناعس فى الهواء حتى لتظن انه لا أثر للحياة هنا ، الابواب مغلقة ، غرف النساء معزولة فوق ، ينظرن الى الفناء من خلال هذه المشربيات الدقيقة الجميلة ، يزداد احساسك بالبعد عن ضجة الطريق وصخبه ، فعلا ، ما ابرع المهندس الذى بنى هذا البيت ، هنا لا يمكن لجارك أن يراك ، لا يمكن للضيف ان يرى الحريم ، يمكن عن طريق المشربيات ، وملاقف الهواء السماح لاكبر كمية هواء بالدخول ، وكمية ضوء قليلة .

لو دخلنا الغرف السفلية ، وتمكنا من دخول الحرملك، نلاحظ أن الجو الحار لم يكن العامل الوحيد الذى أثر فى البناء وشكله ، انها ظروف المجتمع المصرى ايضا ، وضع المرأة الاجتماعى ، جو العلاقات السائدة بين الامراء وبعضهم ، وبين كبار رجال الدولة .

هذا كله ينعكس على البيت القاهرى القديم .

قصر المسافرخانة « حارة درب الطبلاوى بالجمالية » .

بيت السحيمى « الدرب الاصفر بالجمالية » .

بيت مصطفى جعفر « شارع المعز لدين الله وناحية الدرب الاصفر » .

قاعة محب الدين « بيت القاضى بالجمالية » .

قاعة الامير بشتاك « شارع المعز لدين الله » .

منزل جمال الدين الذهبى « حارة خوش قدم بالغورية » .

منزل السنارى « السيدة زينب » .

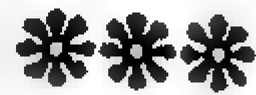
هذه بعض البيوت القاهرية القديمة التى بقيت حتى زماننا هذا ، مجموعة لا يوجد مثيلها فى أى عاصمة فى أى بلد أو مدينة بالعالم قاطبة ، والى جانب انها تضم تراثا معماريا وفنيا وثقافيا خطيرا ، فانها تقدم لنا صورة صادقة للحياة فى المجتمع المصرى .

اننا نجد تنوعا واختلافا فى نوعية وطرز هذه البيوت ، صحيح انها تبدو متشابهة ظاهريا لكنها تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، ها هى الفخامة والاتساع فى قصر المسافرخانة (شيد عام ١٧٧٩ م — ١١٩٣ هـ) فيه أجنحة متعددة ومنشآت مختلفة ، وبرغم هذه الضخامة فان ما نراه اليوم ليس الا جزءا متبقى من السراى الاصلى ، والتى بنيت على مرحلتين ، الاولى عام ١١٩٣ هـ وبناها محمود محرم أحد كبار التجار المصريين ، أما المرحلة الثانية فانشأها ابنه عام ١٧٨٩ م .. اننا نجد الرقة والجمال التواضع الرفيع وجو الأسرة المصرية فى

بيت السحيمى ، الذى بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ ــ ١٦٤٨ م ، وعندما انتقلت ملكية المنزل فى ســـنة ١٧٩٧ م ــ ١٢١١ هـ الى الشيخ اسماعيل شلبى انشأ الجزء البحرى الحـــالى من البيت ويضم القاعة الكبيرة ، والقاعة الارضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشانى ، اما البساطة وقلة الزخرفة مما يوحى بآثار من بخل تاجر حريص فنجده فى منزل جمـــال الذهبى شهبندر تجار الغورية أيضا بيت مصطفى جعفر والسنارى .

ان كل بيت من هذه البيوت يتميز ببعض خصـــائص غير موجودة فى البيوت الاخرى ، تنفـرد المسافرخانة باغرب واطرف ما وصل الينا فى عمارة البيوت المصرية ، الجزء المخصص للثور الذى يدير الطاحونة،ان ضخامة البيت وعلوه ، حتمت أن توجد طاحونة ترفع الماء من أسفل ، وقد وضع المهندس المصرى هذه الطاحونة فى الطـابق الثانى ، ويصل اليها الثور المخصص لادارتها عن طريق سلم صنع خصيصا له ، بحيث يمكنه النزول او الطلوع بسهولة كافية ، توجد أيضا بالمسافرخانة أضخم مشربية وصلت الينا من البيوت المصرية القـديمة ، وهى التى تمثل واجهة المبنى القبلية المطلة على الفنـــاء الداخلى ، أيضا يوجد فيها حمامان ، حمام صيفى لا تستعمل فيه غير المياه الباردة ، وحمام شتوى يتم تسخين الماء فيه بطريقة معقـــدة بواســطة مواسير من نفس مواد البناء تحت الارض ، كانت تقوم بعمــــل السخان الكهربائى الحديث أما الهواء فتجده فى أقصى نقطة بالبيت ، عن

طريق « ملاقف الهواء » أى فتحات واسعة فى أعلى نقطة بالبيت تدفع الهواء الى أقصى نقطة فيه بحيث يغمر البيت جو شبيه جدا بالبرودة التى تحدثها أجهـــــزة تكييف الهواء ، يوجد أيضا عدد من الابواب السرية التى تبدو كأنها جزء من الجدار الخشبى وعندما تفتح تجد سلالم تؤدى الى الفناء أو الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، أو الى حجرة أصغر ، نحار فى سبب وجود هذه الابواب ربما كانت لسهولة حركة الحريم بعيدا عن الغرباء عندما كان البيت مملوكا لمحمود محرم ، أو لاسباب غامضة ربمـا كانت سياسية عندما تحـول البيت الى مكان للضيوف الكبار فى عهد محمـد على ، ومن هنــا جاء اسمه المسافرخانة .



فى بيت السحيمى لا نجد فيه هذه الغرف المعقــدة المتداخلة كما فى المسافرخانة ، انه بيت بسيط جميل ، فيه عذوبة وسماحة جو الاسرة المصرية ، تمضى غرفة كاللحن الهادىء العذب ، تتدرج فى انتظام ، كل منهـا تؤدى الى الاخرى عنــدما تقف فى الغرفة التى كانت مخصصة لقراءة القرآن الـكريم فى رمضان ، وللسهرات أوانى الماء الرخامية فى الاركان ، المقاعد العالية ، تملؤها بالخيال بهؤلاء الاجداد المشايخ تغمر روحنـا رائحـة هذه الايام البعيدة المطوية فى الزمن ، تطالعنا النوافذ الصغيرة المخصصة للحريم ، ينظرن منها دون أن يراهن أحد ، نشعر بجو الاسرة وعدم الحرية الذى كانت تعيش فيه جداتنا ، كانت حياة الحريم محصـورة فى هـذه

القاعة الجميلة المحاطة بالمشربيات فى بيت السحيمى .
او فى الغرف العلوية بمنزل جمال الدين الذهبى ، ان غرف الحريم دائما فى الطابق الثانى ، قريبة من الحمام، ودورة المياه دائما بضعها المهندس عالية عن الهواء حتى يضيع أى أثر للروائح الكريهة . والبيوت المصرية القديمة انفردت بدورات المياه الخاصة فى الوقت الذى لم تكن أوربا تعرفها ، لقد كان جنود الحملة الفرنسية يعجبون جدا اذ يرون المصريين يدخلون فى بيوتهم الى هذه المقاصير الفسيحة التى يقضون فيها حاجاتهم .

أن غرف الحريم هذه لا ينفذ اليها غير رب البيت ، وكلمة حريم تعنى محرم على الغريب محلل للسيد نفسه والدهاليز المؤدية الى الحريم لا تمضى فى مستوى واحد بل تهبط فجأة كدرجة السلم لتستمر من جديد ، فلو مشى فيها احد الغرباء فى الظلام وكان جاهلا بمواضع البيت لسقط ، عندئذ يكتشف أمره بسهولة ، لقد كانت حياة جداتنا مثيرة للكآبة والملل ، كانت تدور حول المأكل ، والملبس ، والنوم والجلوس على الديوان ساعات كثيرة ، والاستغراق فى الاحلام ، ومحاولة ارضاء الزوج ، وكسب محبته وقصرها على الواحدة منهن ، ويقول ستانلى لين بول فى كتابه عن القاهرة ، ان امرأة انكليزية سألت احدى القاهريات كيف تمضى وقتها ؟ فأجابت : « اننى أجلس على هذه الاريكة ، فاذا ما انتابنى الملل نهضت لاجلس على تلك » .

فى الفناء المتسع لقصر المسافرخانة ، هنا حيث

الهدوء ، أصوات العصافير المشعشة فى اعالى البيت تحيطنا علامات التجديد الذى تم أخيرا فى القصر لتحويله الى بيت للفنانين ، ان الفنان الشاب عز الدين نجيب هو المسئول حاليا عن النشاط الثقافى فى المسافرخانة ، وله خبرة عريضة فى قصور الثقافة الجماهيرية لكن الامر هنا يختلف ، ان الظروف التى تحيط بالمسافرخانة غير الظروف التى يعمل فيها أى جهاز للثقافة الجماهيرية ، ان المسافرخانة فى مكان يصعب الوصول اليه لمن كان غريبا عن الحى ، حتى أهالى الحى لايعرفها منهم غير قليلين ، وقديما كانت المسافرخانة بيتا مهجورا تحيطه الخرافات ، يقول انه من الضرورى جدا قبل تحويل المسافرخانة الى مركز ثقافى أن يتم ربط أهالى الجمالية بهذا الاثر العظيم ، لابد أن يعى أهالى الحى تاريخ هذه الآثار المهمة الموجودة بينهم ، هنا تدب الحرارة فى الحجارة الرمادية وتنطق بآلاف الاشياء .

فى مواجهة الحديقة ، نلمح عامودا رومانيا بديعا يحمل السقف الخشبى الرائع الذى لا يوجد مثيله . فوق السقف توجد القاعة الرئيسية بالدور العلوى ارضيتها مفروشة بالرخام الخردة وصدرها مكسو بالقيشانى ، وفى حجرات البيت نلتقى بالفنانين الذين يقيمون حاليا فيه ، عبد الوهاب مرسى الذى ينعكس الجو المحيط به فى أعماله انعكاسا واضحا ، وقد استطاع عبد الوهاب ان يعيد ملامح الحياة القديمة فى غرفته البديعة بفرشها بأثاث قديم ايضا : وسائد وحشايا تماثل ما كان موجودا فى الاصل .

كما نلتقى بالفنانين جمال محمود ، مصطفى الفقى ، احمد نبيل ، صبرى منصور ، محمد حسنين ، محمد مصطفى ، الدكتور رمزى مصطفى ، حسين سليمان .

والحقيقة انه قبل أن يتم تحسين البيت واصلاحه ، والاهتمام به من جانب مصلحة الفنـــون الجميلة ، كان البيت مهددا بالزوال ، وكانت ظروف الاقامة فيه تكاد تكون مستحيلة ، ومع هذا فقــــد عرف الطريق اليه الفنانون ، عبد الوهاب مرسي ، وأحمد نبيل ، ومصطفى الفقى ، وصبرى منصور .

وينوي الفنان عز الدين نجيب ، اقامة عدة معـــارض فنية بالقصر ، وتقديم مواد ثقافية يتم من خلالهـــــا تعريف الاهالى بتاريخه وتاريخ الجمالية ، والآثار التى تحويها ، ويوجد فى المنطقة عدد كبير من الشباب المثقف لابد من ربطه بالبيت ، وكثيرون منهم على اســـتعداد للتعاون مع الفنانين ، وعندهم الوعى الكامل بأصـــالة منطقتهم ، وقد بادر ثلاثة من الشباب الجامعى فى حارة درب الطبلاوى الى المساهمة فى نشـــاط القصر ، وهم أحمد حسنى ، وحسانى ، ومحمود شمس الدين،وينوون تركيز نشاطهم فى فترة الاجازة الصيفية ، يقول عزالدين نجيب ، سيتم تحويل البيت الى مركز ثقافى حى أيضا سيتم تنظيم زيارات للمثقفين لتعرفهم على البيت وعلى المنطقة ، وهذا يحدث فعلا الآن .

غير اننا نلاحظ ان كثير من المثقفين الذين يجيئون الى الحى ، يتجولون فيه بخلفية ملخصها ان كل ما يراه شيء غريب ، الناس تحف من القرون الوسطى ، يقف بعضهم،

يشير الى سلة او قلة او حزمة ثوم موضوعة على نافذة ويصيح ، يا سلام شايف القطة ، ان هذا يزيد الفجوة بين المثقفين وبين الاهالى . يقول عز الدين ، ان مثل هؤلاء ليس لديهم الاحساس بالاصالة المتمثلة فى تاريخ الحى الناتج عن جهلهم به ، يستحيل التعاون مع مثل هؤلاء ، اننا نجد صورة اخرى ، كثير من المثقفين الذين يدركون تاريخ مصر وعظمته واصالته بداوا يرتبطون بالحى عن طريق ترددهم على البيت وبقية الآثار ، ان جذورنا تمتد هنا وتتأصل فى هذه المنطقة العريقة ، والمرجو ان يتحول المسافرخانة الى مركز ثقافى يجمع الفنانين التشكيليين والادباء يستلهمون من خلاله تاريخ مصر ويعبرون عنه فى أعمالهم .

***

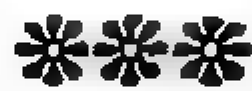
الحقيقة ان الجهد الكبير الذى قامت به وزارة الثقافة اثناء تولى الدكتور ثروت عكاشة امورها فى اصلاح المسافرخانة وبيت السحيمى وبقية البيوت الأثرية يستحق التقدير ، كان من الممكن ان تتلاشى هذه المبانى فى خلال سنوات قليلة ، وكاد يحدث هذا بالفعل بالنسبة للمسافرخانة التى انتزع منها خلال السنين الماضية الكثير من اخشابها الرائعة ، ويكفى انك لو تأملت بعض عشش الفراخ فوق أسطح بيوت درب المسمط ، ودرب الطبلاوى ، لوجدتها مصنوعة من اخشاب مشربيات توافق نفس الطراز المصنوع منه نوافذ المسافرخانة واننا نرجو أن تلقى بقية المبانى الاثرية ، نفس العناية ، ايضا حى الجمالية ككل ، فى مواجهة عمليات الهدم التى تقوم

بها بعض الجهات الاخرى تحت حجة التوسع والتجميل وبالذات فى حى الجمالية الذى تواجه شخصيته الاصيلة الآن خطرا فادحا بعمليات الهدم التى تزحف فيه كسرطان الدم . اننى أنصح السادة الاداريين الذين اصدروا قرارات ادارية لهدم بعض أجزاء الحى أن يعرفوا جيدا تاريخ مصر ، وان يقرأوا البحث الرائع الذى قدمه المستشرق الفرنسى جاك بيرك عن « حى الجمالية » وان يعرف الاجنبى عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا فهذه والله العظيم مصيبة .

البـاب الـدامى

« .. منـــذ عشرات السنين فقـد باب زويلة أهم وظائفه ، فلم يعد يمثل أحد مداخل القـــاهرة بعد أن اتسعت المدينة ، وامتدت مبانى الاهالى خارجها فيمـا تلى العصر الفاطمى من حقب ، ثم بطل تعـليق رءوس المتمردين عليه منذ أوائل القرن الماضى ، حتى متولى حسبة القاهرة الذى كان يتخذ مكانا مجاورا له لم يعد يجلس فى نفس المكان لان الوظيفـــة نفسها بطلت منذ القرن الماضى ، ولم تترك أثرا الا على السنة بعض الناس الذين نسبوا الباب الى المتولى ، فصـــار اسمه باب المتولى ، ما بقى لباب زويلة حتى يومنا هذا قيمة مستمدة من عمره الضارب فى الزمن لمدة ألف سنة ، وبقايا اعتقاد قديم لدى بعض نساء العامة أن من لا تحبل ، تستطيع ان تدق مسمارا وتعقد عليه بعض الخيوط ، عنـدئذ قد تتحقق أمنيتها ، وتنجب ولدا ، غير ان باب زويلة لا زال يحتفظ بعلامات من الوظيفة التى ظل يمـارسها لاطول فترة من الزمن ، انه المكان الذى كانت تعلق عليه الرءوس ، واذا دققت النظر فقد تلمح بقايا دماء جفت منذ قرون ، فى

هـذا الوضع علقت رءوس فلاحين فقراء ، واغراب ، وأعداء ، وسلاطين حكموا مصر .



مع الفتح الفاطمى لمصر جاءت قبائل مغربية عديدة ، احداها كانت تسمى «زويلة» ، عبد الله المهدى (٢٩٧ هـ ـ ٣٢٢ هـ ـ ٩٠٩ ـ ٩٣٣) . وعندما جاءت قبيلة زويلة احتلت جزءا كبيرا من القاهرة ، مكانه الآن حارة اليهود بشارع الموسكى ، اليها ينسب هذا الباب الذى كان أحد ثمانى أبواب اختطها جوهر الصقلى فى السور الذى أحاط به القاهرة ، ويبدو ان باب زويلة كان فى البداية مكونا من جزئين متجاورين ، وعندما جاء المعز لدين الله الى القاهرة مر من أحد القسمين ، فتفاءل الناس بذلك، واهملوا المرور من القسم الثانى الذى قيل عنه ان من مر منه لم تقض له حاجة ، واستمر الامر حتى سد ، وفى العصر الفـــاطمى كانت القاهرة مقصورة فقط على سكنى الخلفاء ، وكبـــار رجال الدولة ، وكان المواطن المصرى لا يستطيع اجتياز أبواب القـــاهرة الملكية الا بتصريح خاص ، عاشت أسوار القاهرة الذى بناها جوهر الصقلى ثمانين عاما ، كانت من الطوب اللبن ، ولم تعد صالحة للأغراض الدفاعية ، فما ان استوزر المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى حتى أنشأ سورا آخرا من الحجر ، بعد أن مد مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا الى شمال السور القـــديم ، وحوالى ثلاثين مترا الى الشرق ، ومثلها الى الجنوب ، ويقـــول المقريزى ان بدر الجمالى استعان بثلاثة أشقاء أصلهم من مدينة الرها

بشمال العراق فى بنــــاء هذا السور وبواباته ، وكان باب زويلة هو البوابة الرئيسية فى السور الجانبى ، وهو المتبقى حتى الآن ، الى جانب ثلاثة بوابات وصـــلن الى عصرنا من البوابات الاصـــلية : باب الفتـــوح : بوابة النصـــــــــر ، بوابة البرقية ، ويقـــــول المقريزى : « وقـد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن الشرق انه لم يشاهد فى مدينة من المـدائن عظمة باب زويلة ، ولا يرى مثل مئذنتيه اللتين عن جانبيه ، ومن تأمل الاسطر التى كتبت على أعلاه ، من خارجه فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر ، وتاريخ بنائه ، وقد كانت المئذنتان أكبر مما هما الآن بكثير ، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ المحمودى الذى بنى الجامع داخل باب زويلة ، وعمـل على البـدنتين منـارتين ، والمئذنتان قائمتان حتى الآن ، خلال العصر الفاطمى لم يستخدم باب زويلة مكانا لتعليق رءوس المتمردين ، لقـــد كان أحد أبواب المدينة المقدسة ، ولا تسجل المراجع التاريخية اى حادثة اعدام تمت عند الباب ، ويبدو ان طبيعـة العصر الفاطمى وما حفل به من استقرار كانت لا تتيح فرصا كثيرة لمظاهر الشنق العلنية ، صحيح ان ثمـــة اضطرابات عديدة وقعت ، وكثير من القتلى راحوا خلال المعـــارك بين الاطراف المتنازعة ، ولكن تعليق الرءوس بشكل علنى لم يسجله لنا التاريخ كما سيحدث خــلال العصور التالية ، واذا رحلنــا مع المؤرخ ابن اياس فى كتــابه : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فسنجده يسجل أول حادثة صلب علنية فى النصف من شعبان سنة ٦٦٥ هـ ، عنـــدما شن السلطان الظاهر بيبرس

البندقداري حملة لابطال الحشيش ، واضراب الخمارات، ومنع العاهرات ، فى تلك الاثنـــاء ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازرونى ، وكان سكرانا ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق الجرة والقدح فى عنقه ، وصلبوه على باب النصر ، لم يصلب على باب زويلة ، ويبدو ان الصلب كان يتم فى الاماكن الظاهرة للنـــاس بدون تخصيص مكان معين لذلك ، واحيانا كان يتم على باب القلعة نفسها كما حدث فى شهر ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ، عندما وقعت فتنة بين الامراء والسلطان ، وتم القبض على خمسة امراء هم الامير ارغون شـــاه ، والامير صرغتمشى ، والامير بيبغا الساقى ، والامير بشتاك الكريمى ، والامير أرغون العمرى الصرير ، تم اعدامهم ، وعلقت رءوسهم على باب القلعة ، ولكن يبدو ان مثل هذا الشرف لم يكن يحظى به الا الامراء ، وذوى المراتب العليا عند تمردهم ، ووقوعهم فى قبضة السلطان ، والقصد من تعليق رءوسهم على باب القلعة هو ارهاب الامراء الباقين ، ولا علاقة للشعب بالامر اذن .. لماذا تعلق الرءوس على باب النصر او باب زويلة ؟

الخنـــاقة

فى سنة ٦٩٤ هـ ، وفى يوم عاشر المحـــرم ، ركب جماعة من المماليك تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة ، وهجموا على اصطبلات الناس ، واخذوا خيولهم ، فلما طلع النهار ارسل الامير كتبغا قبض على من فعل ذلك

من المماليك ، وقطع أيديهم ، وطاف بهم القاهرة ، ثم صلبهم على باب زويلة ووسط منهم جماعة (أى قسم اجسادهم بالسيف الى نصفين ، نصف علوى وآخر سفلى) . تلك أول حادثة صلب يخبرنا بها ابن اياس فى كتابه ، تتم على باب زويلة ، ويبدو اننا لن نسمع منذ الآن فصاعدا الا عن مكان واحد تتم فيه هذه المهام ، وهو باب زويلة ، وهكذا أصبح من نصيب هذا الباب أن يكون مقرا للرءوس المقطوعة ، ليبث الذعر والخوف فى النفوس ، بينما نجد الباب المقابل له ، والذى يقع عند نهاية الطريق ، باب الفتوح ، يمثل الباب الرسمى للمدينة ، فعنده تبدأ مواكب السلطان اثناء عودته ، أو تنتهى اثناء خروجه ، وكان السفراء يقبلون الارض أمامه ثلاث مرات قبل دخول المدينة متوجهين الى القلعة ، مقر حكم السلطان .

فى سنة ٧٣٩ هـ ، ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، فاشتهر أمرها بين الناس ، فكانت تحتال على الاطفال والنساء ، وتخنقهم ، وتأخذ ما عليهم من الثياب ، فلما شاع أمرها ، وبلغ السلطان ، رسم لوالى القاهرة أن يقبض عليها ، فلا زالوا يتبعونها حتى قبضوا عليها ، وشنقوها على باب زويلة ، وفى مثل هذه المناسبة يتجمع الناس للفرجة ، ويبلغ الزحام أشده عند باب زويلة الذى يبدو ان اختياره لهذه المهمة تم نتيجة لكثافة حركة الناس عنده ، انه الباب المؤدى الى اشد مناطق القاهرة ازدحاما ، ثم انه يتوسط مجموعة من الأسواق المتتالية التى لا تخلو من الرواد ليلا أو نهارا

ومنه يخرج الناس متجهين الى مناطق القاهرة الجنوبية التى كانت عامرة بالناس ، كما ان اى متجه الى القلعة لابد أن يمر به ، سواء كان أميرا ، أو سفيرا اجنبيا ، كان الباب صرة القاهرة ، وعنده لم تتوقف الدماء عن التدفق ..

القتل ظلما

وكثيرا ما كانت تختفى المأساة وراء بعض الذين عرفت رءوسهم الطريق الى باب زويلة ، فى رجب سنة ٧٨٢ ، أرسل الاتابكى برقوق مرسوما الى خليل بن عرام نائب الاسكندرية ليقتل الامير المملوكى بركة الذى كان مسجونا ، وعندما انتشرت أخبار القتل ثار مماليك بركة على الاتابكى برقوق ، فأنكر برقوق انه أمر بقتله ، وارسل من أمر بالقبض على خليل بن عرام نائب الاسكندرية الذى راح يصيح ، والله ما قتلته آلا بمرسوم الاتابكى برقوق وقد سرق المرسوم منى ، بينى وبينكم الله ، لكن أمور السياسة لا تعرف الهزل ، ولا مجال كما يبدو للأخلاقيات فيها ، لقد أمر برقوق بقتله ، فدقت المسامير فى كفيه ، وأركبوه على جمل ، ونزلوا به من القلعة ، وهنا هجم عليه مماليك بركة وقطعوه ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا قلبه ، ثم علق ما بقى منه على باب زويلة ، يقول ابن اياس ان هذه الواقعة صارت مثلا عند المصريين ، « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ، ويورد ابن اياس شعرا مناسبا للواقعة :

مخالط السلطان فى محنــــة
يرتقب الاوقات فى عكســـه
ان شره أســخط خـــلافه
أو ساءه خاف على نفســه

ومن الملاحظ ان معظـــم الامراء الذين يتآمرون على السلطان كانوا يشنقون أو يعدمون بعيدا عن باب زويلة ، اما فى بيوتهم او القلعـــة ، أو يرســلون الى سجن الاسكندرية الذى كان بمثابة منفى أيضا للســــلاطين المخلوعين ، ولم يسجل التاريخ ان سلطانا قد قطعت راسه وعلقت على باب زويلة من الذين خلعـــوا من السلطنة ، باستثناء واحد فقط حدث فى احدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ ، عندما علق رأس الســلطان الشهيد طومان باى ، بعد قطعه على مرأى من الاهالى ، بواسطة الجنود العثمانيين الذين غزوا مصر ، وحولوها من سلطنة مستقلة الى ولاية تابعـــة ، وكان ذلك من عجائب الدهر ، لقد قاومهم طومان باى حتى الرمق الاخير ، ثم علقت رأسه فوق باب زويلة ، وأعيد تمثيل المشهد فى المقياس أيام السلطان المنتصر سليم العثمانى ، عندما صنع المخايل ديكورا يشبه باب زويلة ، وصور اعـدام السلطان طومان باى ، وانقطاع الحبل به مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل بمائتى دينار ، والبسه قفطان مخمل مذهب ، ودعاه الى استامبول ليتفرج ابنه على ذلك .

وكان باب زويلة يشـــهد تعليق رءوس بعض الامراء احيانا ، كما حدث فى شوال عام ٨١٨ هـ ، عندما علقت

رءوس بعض الامراء الصغار الذين تآمروا مع الامير قايتباى ضد السلطان المؤيد ، ويبدو ان باب زويلة كان قد صار ستارا للرعب ، فعند تعيين شخص اسمه صدر الدين العجمى فى منصب الحسبة فى محرم سنة ٨٢٣هـ، يذكر لنا المؤرخ ابن اياس ان الامير ططر ، أحد كبار رجال الدولة وقتئذ قال له ..

« لا تظلم أحدا من السوقة والا شنقتك على باب زويلة .. » .

وأحيانا كان الباب الدامى يشهد نهايات بعض الاحداث الغريبة ..

ثورة العبيد

فى شهر ذو القعدة سنة ٨٤٩ هـ ، قام جماعة من العبيد السود بتعدية النيل الى بر الجيزة ، واقاموا فى الخلاء ، ونصبوا خيما ، وعلقوا على احدى الخيام الكبيرة سنجقا ، وجعلوا لهم سلطانا ، ووزيرا ، ودوادارا، وجعل سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد ، ويطلب من العبيد من هو معاد لهم ، ويأمر باعدامه بين يديه ، ثم أصدر عدة قرارات بتعيين أمير كبير ، وصاحب حجاب ، وأرباب وظائف ، باختصار بدأ ينشىء نظاما موازيا لنظام السلطنة بما فى ذلك نائب الشام ، ونائب طلب ، ونواب لجميع البلاد ، يقول ابن اياس :

« فلما بلغ السلطان ذلك انحصر الى الغاية ، وصاروا العبيد يقطعون الطريق على الناس ، وينهبوا المقلوب ،

ويأخذوا خراج القطمين وضيافتهم ، فعين السلطان لهم تجريده ، فتوجهوا اليهم فى المراكب ، فتقاتلوا معهم وكسروا سلطانهم وشنقوهم ، وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون ، ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من عنده عبد كبير يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه » .

أمر السلطان باعدام قادة هذه الثورة ، ونفى ما بقى من العبيد الى بلاد العثمانيين ، وانهى وجود العبيد « الشناترة » من مصر ، وكثيرا ما كانت تعلق رءوس العربان فى صحارى مصر على البوابة ، وكان بعض الذين يلقون حتفهم على تلك البوابة قد ارتكبوا حوادث طفيفة للغاية ، ونلاحظ تكرر ذلك بعد الغزو العثمانى لمصر عام ٩٢٢ هـ ، اذ يشنق ملك الامراء خاير بك فلاحا فقيرا لأنه اقتلع عودين من خيار الشنبر (نبات طبى) ، وطوال الاحتلال العثمانى تتكرر حوادث الشنق ، والاعدام ، بجوار البوابة لاتفه الاسباب ، حتى يذكر لنا الجبرتى معلقا ، « مع ان الزيادة سارية فى المبيعات والمشتروات من غير انكار » ، لكنه الظلم الفادح ، ولا معقولية ماجرى خلال هذا العصر ، الى جانب ذلك فان بعض الذين سلكت حياتهم طرقا غير عادية ، كانوا أحيانا يلقون مصيرهم فوق هذه البوابة الدموية ..

الصعود والهبوط

فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ٩٠٩ هـ ، أمر السلطان الغورى ، بشنق على بن أبى الجود على باب زويلة ، فشنق ، وظل جثمانه معلقا لمدة

ثلاثة أيام ، كان على بن ابى الجود قد وصل الى اعلى مناصب الدولة ، تولى نظارة الاوقاف وعـدة مناصب أخرى هامة فى الدولة ، منهـــــا ديوان الوزارة ، والاستادارية ، وأصبح متصرفا فى أمر المملكة ، واظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، فخاف الناس منه ودخل فى قلوبهم الرعب الشديد منه ، وكان على هذا اصله من العامة ، وكان أبوه نجارا اسمه المعلم حسن ، ثم بدا يصنع الحلوى وسمى نفسه « أبو الجود » ،واتخذله مكانا أمام حمام شيخو ، واستمر حتى مات ، عندئذ حل مكانه ابنه على ، الذى كان يقلى الشبك بيده ، ثم بدات رحلة صعوده عندما التزم بتوريد مال معين على أحد المناطق الصغيرة ، وهجر بيع الحلوى ، ثم التحق بوظيفة صغيرة عند تغرى بردى الاستادار ، ثم انتقل للعمل مع الامير طومان باى ثم انتقل للعمل مع الامير الغورى قبل أن يتولى السلطنة ، فلما أصبح سلطانا اصبح مقربا منه ، وجاء على الناس بالظلم ، ويبدو ان البعض صار يدس له عند السلطان حتى وقع المحظور فى رمضان سنة ٩١٨ هـ ، عندما تغير خاطر السلطان عليه ، وتلك العبارة « تغير خاطر السلطان » يوردها ابن اياس ، وسائر المؤرخين عندما ينقلب مزاج السلطان على أمير مقرب ، أو صديق له ، فيتبدل حال الاخير عندئذ ، وينقلب ، لقد قبضوا على حاشية على ابن أبى الجود ، وأحاطوا على موجوده (اى على ثروته) ، وسلمه السلطان الى موظف جديد صاعد هو الزينى بركات بن موسى ، ليعاقبه ، ويظهر ما خفى من أمواله ، ثم قام السلطان بضربه بنفسه ،

ثم سلمه الى الوالى ليواصل تعذيبه ، ثم أمر باعدامه ، ثم .. استقر جثة هامدة فوق باب زويلة .

معتقدات

واحاط الناس باب زويلة بالعديد من المعتقدات ، فقد اعتقد الكثيرون انه مركزا لاقامة القطب المتولى ، ويقول ادوارد لين فى كتابه « المصريون المحدثون » ان بعض المشايخ أخبروه بوجود القطب المتولى الذى يراقب الاولياء جميعهم ، مثل النقباء والانجاب ، وكثيرا ما يظهر القطب، لكنه لا يعرف ، وهو يظهر دائما متواضعا ، رث الثياب، ولا يشتد فى مؤاخذة من يخـــالف الدين أو يناصره بالتقوى ، ومع انه يختفى دائما ، فان أماكن وجـــوده معروفة ، لكنه قليلا ما يظهر فيها ، والمعتقد ان القطب يكون فوق الكعبة ، وهو يصيح مرتين فى الليل قائلا : « يا أرحم الراحمين » . ويسمع المؤمنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة ، ان سطح الكعبةهوالمركزالرئيسى الذى ينطلق منه القطب ، لـكن بوابة زويلة هى مكانه المفضل فى القاهرة ، ومن هنا أصبح الناس يسمونها « بوابة المتولى » وحتى الآن يطلق عليها ذلك الاسم ، ويقرأ المارة الفاتحة عند مرورهم بها ، ويتصدق البعض على الشحاذين الجالسين هناك ، ويذكر الجبرتى فى حوادث شهر رمضان سنة ١١٢٣ هـ ، ان واعظا روميا جاء وجلس فى أحد المساجد ، وراح يهـاجم ما يفعله المصريون عند ضرائح الاولياء عن ايقاد شموع وقناديل ،

وتقبيل أعتـــابهم ، وقال ان ذلك كفر ، وهاجم وقوف الفقراء عند باب زويلة فى ليالى رمضان ، وتسبب فى فتنة كبيرة بالقاهرة ، ويصف ادوارد لين أحد الشحاذين الذين كانوا يجلسون عند الباب ، ويقول ان الناس كانت تعتقد انه من خدام القطب ، ويدق المصابون بالصداع مسمارا فى الباب لفك السحر ، أما المصـــابون بوجع الاسنان فيخلعون سنا ويولجونها فى أحد الشقوق ، أو يلصقونها به بأى حال آخر ، وكثيرا ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب ، آملين عبثا اختلاس النظر الى القطب ، فى لحظة من لحظات ظهوره النادرة ، ويصف ستانلى لين بول (١) معتقدات الناس فى القطب المختفى عند الباب ، ويقول ان له قدرة عجيبة فى التنقل من مكان الى آخر مختفيا عن الانظار ،والمؤمنون يسبحون أثناء مرورهم بالباب ، بينما يدفع الفضول غيرهم الى النظر خلف الباب لعلهم يرونه ، ويستنكر ستانلى لين بول ما يقوم به القاهريون من دق للمسامير ، والتماس العلاج عند البوابة ، ويبدو ان من كان يرتبط بالبوابة يصبح مقدسا ، فى أحداث سنة ١١١٥ هـ ، يذكر الجبرتى موت الشيخ المجذوب أحمد أبو شوشة خفير باب زويلة وكانت كراماته ظاهرة ، وكان يضع فى فمه مائة ابرة ، ولا تعوقه عن الاكل ، والشرب ، والكلام .

وتذكر مراجع تاريخية أخرى ان سبب تسمية البوابة بالمتولى كان لوجود متولى حسبة القاهرة على مقربة من المكان ، ولكنى أرجح السبب الاول الخاص باقامة القطب

(١) سيرة القاهرة ـ ستانلى لين بول ـ ص ٣٤ .

المتولى ، خاصة واننى سمعت الكثير من روايات أهالى المنطقة ومعتقداتهم فى البوابة حتى يومنا هذا .

لقد احتلت هذه البوابة موقعا فى الادب المصرى ، فثمة رواية كاملة تدور حولها ، كتبها محمد سعيد العريان ، وتجرى أحداثها خلال السنوات الاخيرة للسلطنة المملوكية ، المصرية ، قبل زوالها على أيدى العثمانيين ، وفى ألف ليلة وليلة نجد باب زويلة مسرحا لاحدى حوادث النشل ، وتدور « السكرية » أحد أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فى حارة تقع ملاصقة لبوابة زويلة .

وحتى الآن لا تزال البوابة العتيدة ، تقوم فى وسط البيوت التى تزاحمت حولها ، وكادت تخفى معالمها ، رمادية بأحجارها ، قانية بتاريخها ، يلفها غموض وابهام لكثرة ما نسج حولها من أساطير ، لكن أبرز ما يتعلق بها ، ان الآلاف لاقوا حتفهم هنا فوقها ، بعضهم من أفراد الشعب المصرى المغلوب على أمره . والآخرون ارتكبوا جرائم قد تكون صغيرة أو كبيرة ، وأمراء متمردون ، واسرى انتهت حياتهم فى ذلك المكان ، وسلطان واحد، شنق وهو يدافع عن آخر ما تبقى فى سلطنة مصر المستقلة ..

مجالس السلطان الغوري

.. نحن الآن فى القرن العاشر الهجرى .. السادس عشر الميلادى .

على مهل ينزل الليل فوق القاهرة أبواب الحارات اغلقت وتجمع خلفها السكان يتسامرون . بعض المقاهى لا تزال ساهرة مضاءة بنور القناديل أما شارع الصليبة وهو الشارع الرئيسى فى قاهرة ذلك الزمان. فالدكاكين لا تزال مفتوحة ، لم تغلق أبوابها بعد ، دكاكين المشبك والحلوى والاطعمة المختلفة ، والحرفيون الذين يستكملون أعمالهم التى لم يتسع لها النهار . بين الحين والحين يعبر الطريق مملوك يركب جوادا ، أو كوكبة من حرس السلطان الخاص . لا يتوقفون انما يتجهون الى ميدان الرميلة ، حيث يصعدون الى القلعة بينما يعلو صوت طبل وابواق نحاسية احد الامراء يدق الطبل أمام داره ، ويجب أن نعرف انه كلما علا صوت الطبل وكثر ، دل هذا على مكانة ومقدار الامير .

عموما .. واضح ان الجو وديع . مستقر لم تحدث اليوم فتن بين الامراء ، لم تقع مشاجرات ، فى الاسواق،

القاهرة آمنة ، انها احدى الليالى الهادئة التى تخللت حكم السلطان الغورى ، اذن ، لنمض عبر الطرقات الى ميدان الرميلة « القلعـــة حاليا » ، نصعد الى البلاط السلطانى ، فى الطريق الى القلعة نلمح القـــاهرة فى الغروب ، ان القاهرة تبدو فاتنة من فوق هذا المرتفع ، ومصدر الفتنة كثرة المآذن الرشيقة ، كل منها يتكون من ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات ، وتبدو المآذن وكأنها مضفورة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بهـــا أشجار النخيل الكبيرة التى تنمو فى حدائق المدينة ،وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق الرائع .

اننا الآن نتجه الى قلب قلعة السلطان التى تبلغ فى اتساعها مساحة مدينة (أورليان) نمر بساحة بها نحو خمسمائة مملوك فى تشكيل عسكرى ، ثيابهم طـويلة بيضاء ، قبعاتهم مستديرة خضراء وســـوداء ، ثم نمر بساحة أخرى بها نحو خمسين موسيقيا بآلات مختلفة ، ونسير فى عدد من الممرات ذات القبـــاب بين صفين من المماليك ، يواجه كل منهـــا الآخر حاملين فى أيديهم الرماح .

ندخل الآن الى قاعة « الدهيشة » ، حيث تقـــام السهرات السلطانية ، بريق الفضة والذهب يكاد يأخذ ابصارنا الارض كلها مغطاة بالسجاد الثمين ، هنا لابد ان ننحنى ، السلطان الغورى يجلس فوق مرتفع مغطى بالسجاد الحريرى ، وامامه على الارض سجادة لا تقـل مساحتها عن عشرين قدما مربعة ، ملابسه من الحـرير الاصفر ، وعلى رأسه عمامة مصنوعة من نسيج رفيع

من الهند ومشكلة على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الامام واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشـــمال الحاضرون الليلة كبار العلماء والادباء فى السلطنة ، الشيخ حسين جلبى ، والشيخ شمس الدين الســـماديسى ، والشيخ حسين بن محمد الحسينى ، وهو الذى ألف كتابا قيما بعد أن جمع فيه ما دار فى هذه السهرات .

قبل أن تبدأ الجلسة ، نطيل النظر الى الســلطان الاشرف قنصوه الغورى ، انه طويل القـــامة ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، لا يظهر الشيب بلحيته الا قليلا ، واضح من ثيابه انه يميل الى الابهة فى أصابعه خواتم الياقوت الاحمر ، والفيروز والزمرد، والماس ، نعرف انه مغرم بشم الرائحة الطيبة ، واضح هذا من تلك الرائحة الناعمة الجميلة التى تملأ المكان ، وهنا لندع ابن اياس ، المؤرخ المصرى العظيم ، وشاهد العصر ، يقدم لنا وصفا لمزايا السلطان الغورى .

يقول ابن اياس :

« كان الغورى رضى الخلق ، يملك نفسه عند الغضب، وكان له اعتقاد زائد فى الصـــالحين والفقراء ، وكان ماسك اللسان عن السب فى شدة غضبه ، وكان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم باللغـة التركية ، وكان قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه ، غير كثيف الطبع فى ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الاتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس » .

وبالتأكيد ، هذه صفات تدل على رقة الطبع ، وحب الحياة ، ويمكننا الاطمئنان جدا الى وصف مؤرخنا ابن اياس ، ويؤكد هذا ان جميع الحـــوادث فى تاريخ السلطان الغـورى تجسد وصف ابن اياس ، بالاضافة الى جرأة مؤلفنا التى كانت لا تدعه يجامل الســلطان فعندما كان يأتى عملا فيه ظلم للخلق من جانب الغورى، كان ابن اياس ينقده بجرأة تدعو للاعجاب ، ان السلطان الغورى الذى يتصدر الآن قاعة الدهيشة ، لا يدير ملك مصر وحدها ، انما الاقطار التى تتبعها ايضــا ، أى الشام ، وبلاد العـــرب ، وبعض الجزيرة الفراتية ، وبلاد العـــواصم وهى الجـــزء الجنـــوبى من آسيا الصغرى ، وفى عهده كانت الاساطيل المصرية التى وصلت الى سواحل الهند تتصدى للبرتغاليين الذين نجحوا فى الوصول الى المحيط الهندى عن الطـــريق الجديد الذى اكتشفه فاسكودى جاما عبر راس الرجاء الصالح ، وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الاساطيل والجنـــد فى الحين بعد الحين ، بالاضافة الى هــذا كان السلطان الغورى يواجه الدولة العثمانية الوليدة ، التى دابت على التحرش بحـــدود مصر .

كانت الفترة تنبىء بوقوع احداث جسام ، وبالتأكيد فان هذه الامور كلها تشغل بال السلطان الغورى ، تضج بها المكاتبات اليومية ، والرســائل الى الولاة ، وأمور الجيش ، لهذا لا بأس من عقد هذه السهرات ، لتخفيف الواقع الصلب ..

سهرات السلطان عديدة ، والمسائل التى تناقش فيها متنوعة ، لهذا آثرنا اعادة صياغة المسائل التى طرحت فى هذه السهرات ، فى ثلاث سهرات ، خصصنا لكل منها موضوعا شبه موحد ، ودليلنا ومرشدنا الى مضمونها هو الشريف حسين بن محمد الحسينى ، الذى واظب على حضور السهرات ، وتدوين ما طرح بها ؛ وسجل هذا فى كتاب أسماه «نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الاسرار القرآنية » ، والكتاب الثانى أسمه « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » .

لم يتبق الكثير على بدء السهرة الاولى ، والتى خصصناها للالغاز التى طرحت ..

السهرة الاولى :

والشيخ عبد الرازق ، هو الذى ام المصلين الليلة فى صلاة العشاء ، يبدأ المجلس بطرحه لغزا صيغ شعرا .. قال الشيخ عبد الرازق :

الا فأخبرونى أى شىء رأيتمو
من الطير فى أرقى الاعاجم والعرب
فيؤكل مطبوخا لذيذا وتارة
فيؤكل مشويا اذا اشتد فى اللهب
وليس له أيد ، وليس له فم
وليس له رجل وليس له ذنب
وليس له مخ وليس له دم
وليس له عظم وليس له زغب

وهنا قال السلطان : هو البيض ..

وقبل الاسترسال فى السهرة ، يحق لنا أن نبدى ملاحظة ، فكما سبق القول اعتمادنا الاول والاخير هنا على الكتابين السابق ذكرهما ، ولكن يبدو ان كلا المؤلفين وكلاهما شيخ جليل ، قد جاملا السلطان أكثر من اللازم، فالسلطان هو الذى يحل الالغاز كلها ، وهو الذى له القول الفصل فى المسائل الفقهية ، ورأيه هو النافذ . ولكن ماذا نملك ، لا نستطيع الا العودة لنسجل ما أعقب حل اللغز الخاص بالبيض ..

قال أحد شيوخ الحاضرين :

هناك حكاية مناسبة لهذا اللغز ، اذا اجتمع جماعة من الشعراء فى خدمة سيف الدولة وقصدوا ايذاء المتنبى ، فقالوا اننا نبيض فى هذا المجلس ، وكان مع كل واحد منهم بيضة مخفية ، فلما جاء دور المتنبى صاح صيحة الديك ، فقال السلطان : ما هذا ؟ قال : لابد لهذه الدجاجات من ديك . وهنا طرح اللغز الآتى :

وميت يقبر طعمه عند رأسه
اذا ذاق من ذاك الطعم تكلما
يقوم ويمشى ناطقا بفصاحة
ويأوى الى القبر الذى كان قيما

واطرق السلطان لحظة ثم قال : (هو القلم) . ثم تتابعت الالغاز :

خليلان ممنوعان من كل لذة
يبيتان طول الدهر مجتمعان
اذا أمسيا كانا على الناس حارسا
وعند طلوع الفجر يفترقان ؟؟

قال السلطان : هو الباب ..

اللغز الرابع :

وذى سفر لا يحب المقام
ولا يسأم السير فى كل حال
يبيد الليالى فى مره
وتضنيه فى مرهن الليالى

قال : هو القمر .

اللغز الخامس :

وآكلة بغير فم وبطن
لها الاشجار والحيوان قوت
اذا أطعمتها نعشت وعاشت
وان أسقيتها ماء تموت

قال : هو النار .

وهنا قال أحد مشايخ الحاضرين حكاية تناسب المقام: قيل لكسرى أنو شروان ، ان فى عسكر سلطان السودان والحبش أربعمائة الف رجل فقال أنو شروان لهم ، لا تخافوا لان النار القليلة تفنى الحطب الكثير ، وقيل أيضا للاسكندر .. ان فى عسكر دارا ملك الفرس ثلاثمائة ألف رجل ، فقال الاسكندر الاكبر بكثرة الغنم لا تخوفوا القصاب .

وهنا أصغى السلطان ليستمع الى اللغز السادس :

أتى بلغز ثلاثى يعجزنى
وظن ذلك بحرا لست أسلكه
وقال فسره شمس الدين قلت لا
مولاى لغزك ليس الشمس تدركه

قال : هو القمر .

وهنا دخل الشيخ ابن النحاس ، بعد أن حيا السلطان وجلس ، قال :

« كنت فى خدمة قاضي كاتب السر ، فقال لى : تعال الى تفرج على كسر النيل ، وأنا ما رضيت ، لان مولانا السلطان هو البحر الكبير ، وبحر النيل فى هذه الليلة وهذا البحر ، بحر مولانا السلطان لا نرى منه الا جبر الخواطر » .

وهنأ الحضور بعضهم فالليلة تم كسر السد المقام عند فم الخليج ، لقد أوفى النيل ، ثم القى اللغز السابع :

ما اسم شيء حسن شكله
تلقه عند الناس مخزونا
نراه معدودا فان زدته
واوا ونونا صار « موزونا »

قال : هو الموز .

اللغز الثامن :

لى جمع أصحاب أعشقهم واهواهم
ولا اشتهى قط انظرهم ولا أدراهم
ما طاب لى عيش فى الدنيا برؤياهم

قال السلطان : هو الاسنان .

السهرة الثانية

نحن الآن فى قاعة الاشرفية ، احدى القاعات الرائعة فى قلمة الجبل ، الحضور لم يتغيروا ، الخليفة والعلماء وكبار رجال السلطنة ، وأمام الصلاة كان الليلة الشيخ كمال الدين البرقوقى ، السلطان يتصدر القاعة،

مملوكان يقفان فوق رأسه ، يحملان رمحين من الذهب الخالص ، بين الحين والحين تهب نســـمات خفيفة : الليلة هواؤها عليل ، لا عجب ، فالوقت خريف ، وسهرة الليلة تعد بالكثير فما سيدور الآن ، يتنـــاول النوادر والحكايات والعظات والعبر .

بعد أن قرأ الشيخ البرقوقي البسطة ، قال :

« والله ما في الدنيا أحسن من الادب ، الادب جوهرة والعقل معدنها ، كان السلطان محمود يلعب الشطرنج مع صاحبه اياس ، كان يقول له : يا سيدى العب . يا أمير العب ، فقال اياس ، يا مولانا السلطان ما أنا مستحق لهذا التعظيم ، فقال له السلطان ، قصدى مداومة لسانى على الـــكلام المليح ، واجتناب الـكلام القبيح .

وهنـــا أبدى الحضور استحسانهم ، وقال الشيخ السماديسى ..

« حدث ان ملك الهند فقد ســـمعه وصار أصم ، فاشتد حزنه لما دخل عليـــه أهل مملكته لتعزيته فى سمعه ، قال حزنى ليس بسبب اصابتى ، بل بسبب انى ما أقدر على ســماع استغاثة المظلوم ، ولكن اذا ما ذهب سمعى لم يذهب بصرى ، لهذا أمرت ان يلبس كل مظلوم ثوبا أحمر حتى اذا رأيته عرفت انه مظلوم فأقربه منى وأنصفه ..

وهنا قال السلطان الغورى ..

« قال النبى صلى الله عليه وسلم ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .. فى هذه اللحظة وصل

الشيخ سعيد ، أحد ندماء السلطان ؛ وكان مشهورا بخفة دمه ، واطلاعه الواسع على النوادر ، والحكايات ؛ وبعد أن قبل الارض بين يدى السلطان جلس مسلما على أصحابه ، ثم قال ..

« سمعت الآن حكاية ظريفة أرى الا أحرمكم منها ..

نظروا اليه ضاحكين ، استمر الشيخ سعيد ..

« ركب أحد أثرياء الهند مع الوزراء فلما وصلوا الى زريبة البقر ، وجدوا البقر يصيح ، فسألوا الثرى وكان اسمه الخواجا محمود ، ما يقول البقر !!

فقال ، البقر يقول لى ، اخرج من بين الحمير وتعال عندنا ..

وضج المجلس بالضحك ، اهتز كرش السلطان الغورى ، وبعد أن هدأ قال ..

« ذكرنى هذا بحادثة جرت مع السلطان قلاوون ، اذ ادعت جماعة محبته حبا شديدا ، فقال لهم ، ان كنتم تحبوننى أرموا أرواحكم من القصر ، فقالوا ، باسم الله ، وجروا من أول سطوح القصر الى نهاية أطراف القصر ، ووقفوا قائلين : « يا مولانا السلطان محبتنا لك الى هذا الوضع ، فمن يزيد علينا قدما فالمحبة له .. » .

وعلت ضحكات المشايخ والامراء ، وصفق بعضهم طربا واستحسانا ، ومن بين الحضور علا صوت الشيخ السماديسى ..

« قرأت أن بعضهم سأل أفلاطون ، ما علة ملوحة البحر !!

فقال لهم : بينوا لى فائدة العلم بهذا حتى أبين لكم علته ..

وارتسمت على الوجوه ابتسامات خفيفة ، وهنا قال الشيخ سعيد ..

« تعرفون ابن عثمان طبعا . حدث إنه أمر ناصر الدين ـ وناصر الدين يماثل جحا عند العرب ـ ان يشوى له أوزا ، فشوى وأكل منه رجلا ، فسأل السلطان عن رجل الاوز ، فقال ما يكون للأوز غير رجل واحدة ، فسكت السلطان ، وبعد قليل ركب السلطان ومعه الشيخ ناصر الدين وبالصدفة قابلوا أوزا يقف على رجل واحدة ، فقال ناصر الدين للسلطان أنظر كل واحدة منها برجل واحدة ، فدق السلطان الطبل ، فمدوا ارجلهم ، قال السلطان للشيخ ناصر الدين ، لقد أكلت رجل الوز وكذبت ، بسرعة قال ناصر الدين ، يا مولانا انت لم تدق طبلك ساعتها حتى يمد الوز المشوى رجله الملتم ..

وهنا قال السلطان ضاحكا ..

« والله تذكرنى يا شيخ سعيد بقول احد الحكماء : الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام .. وعلا صوت الشيخ البرقوقى بنادرة ..

« قرر السلطان محمود بقاء اسمه الى يوم القيامة ، فقيل له ، ابن العمارات العالية ، فقال ، تخرب بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ، استقر رأيه على تأليف الكتب باسمه . فأمر شاعره الفردوسى بنظم ملحمة طويلة اسمها « الشاه نامه » ووعد الفردوسى بقطعة ذهب ازاء كل كل بيت ، فلما اتم الفردوسى الملحمة ، قال الوزير للسلطان محمود ، يكفيه قطعة فضة فى كل بيت ؛ وكان عدد الابيات ستين ألفا ، فأرسل السلطان ستين الف قطعة

فضة الى الفردوسى ، وكان لحظتها فى الحمام ، فأعطى صاحب الحمام عشرين الفا كأجرة له ، وشرب خمرا بعشرين الفا ، وأعطى الباقى بقشيشا لمن جاء بها ، فلما سمع السلطان بهذا ، أمر بقتله ، واختفى الفردوسى ، وأنشد يهجو السلطان ، وأضاف الهجاء الى ملحمة (الشاه نامه) ، وعندما أطلع السلطان على هجاء الفردوسى اغتاظ جدا وأمر بقتل الوزير الذى أشار اليه بابدال الذهب بالفضة ، وأرسل ستين الف قطعة ذهبية الى مدينة الفردوسى ، فلما وصلت الفلوس الى باب المدينة كان تابوت الفردوسى يخرج من الباب الآخر ، فعرضوا الذهب على ابنته لكنها رفضت ، فأمر السلطان بصرف الفلوس على العمارة لأجل روح الفردوسى .. » .

قال السلطان الفورى متمهلا :

أذكر هنا قول على بن أبى طالب رضى الله عنه ، شرف الشخص بالعلم والادب ، لا بالاصل والنسب ..

مصمص القوم شفاههم ، وسادت لحظة هدوء ، قطعها الشيخ سعيد بضحكة عالية ، قال بعدها ..

سمعت انه كان هناك رجل طويل الانف ، مدح نفسه عند جماعة بأنه رجل متحمل للمكاره ، قيل له لولا صبرك على المكاره لما قدرت أن تحمل هذا الانف ستين سنة ..

***

هنا زعق الامير يشبك زعقة هائلة ، صاح .. « احترم نفسك يا شيخ سعيد .. اكتسى وجه الشيخ لونا أصفر ، ولاحظ الحضور أن أنف الامير كبير حقا ، وابتسم بعضهم ابتسامات خفيفة ، حتى السلطان الفورى

نفسه ، نظر الشيخ مذعورا الى السلطان مستجيرا به ، اشار السلطان .. « اهدأ يا يشبك .. الشيخ سعيد لا يقصد ..

نظر الامير الى السلطان ، قال والغضب فى صوته ..

« والله لولا وجودك يا مولانا » ..

هنا علا صوت الشيخ برقوقى ..

« اهدأوا يا جماعة ، اذكر قول سيد العرب والعجم ، صلى الله عليه وسلم ، سيد الكلام العربية ، وسيد كلام العربية القرآن ، وسيد الجبال طور سيناء ،وسيد البلدان مكة ، وسيد السودان لقمان ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال ، وسيد القوم خادمهم ..

قال السلطان الغورى ، بصوت عميق ..

قرات فى أخبار السلطان محمود : انه خرج ليلا فى زى فقير ، فرأى عجوزا مهمومة فقال : ما سبب همك !؟ قالت يجىء جندى ويزنى ببنتى كل ليلة ، قال : ما لباسه وما زيه !؟ قالت كذا وكذا ، ومضى السلطان وجمع الاخبار حول حقيقة هذا الشخص ، وفى الليلة التالية خرج السلطان متخفيا أيضا ، لكنه يحمل سيفه ، جاء الى بيت العجوز ، قال يا عجوز اطفئى السراج ، وقتل الجندى الذى دخل قاصدا الاعتداء على ابنتها ، ثم قال السلطان ، هل عرفت من هو !؟ قالت لا .. لم أعرفه ، قال السلطان ، هذا ابنى ، وأنا السلطان محمود، وقد أمرتك باطفاء السراج حتى لا أنظر وجهه فأرحمه ..

أبدى الحاضرون استحسانا ، وقال الشيخ الدميرى ..

اصلاح الرعية احسن من كثرة الجنود والمملكة ..

وهنا انفض المجلس ، واذن السلطان الغورى للحضور بالانصراف ، على أن تكون السهرة التالية مخصصة للمسائل العلمية ، والفقهية ، وعلى الطريق النازل الى المدينة ، مشى العلماء والامراء الى اصطبل الخيول السلطانية ليركبوا الى بيوتهم ، بينما النسيم يهفو من ناحية النيل فوق المدينة النائمة فى دعة .

السهرة الثالثة :

بدأ السلطان الغورى بتوجيه السؤال الاول الى الحضور :

ـ ما الحكمة فى الكسوف والخسوف ؟

قال الشيخ كمال الدين :

ـ هما آيتان من آيات الله ، كما ورد فى السنة .

اجاب الشيخ السماديسى اجابة ثانية ، وكانت له معرفة بالعلوم ..

ـ سبب الخسوف حيلولة الارض بينه وبين الشمس ، والقمر مظلم ، فيبقى القمر بلونه الاصلى اسود .

قال الامير طقلق ، المسئول عن تشييد المبانى السلطانية :

ـ هذا مخالف لقوله تعالى (وهو الذى جعل الشمس ضياءا والقمر نورا) ..

وهنا سأل السلطان الغورى ..

ـ ما الفرق بين الضوء والنور ..

قال الشيخ السماديسى ..

ـ الضوء هو النور الغالب القاهر المحرق بخلاف النور ، فانه يطلق على غير المحسوس أيضا .. كنور القلب ، ونور الايمان ، بعكس الضياء ..

سكت السلطان الغورى لحظة ، أطال النظر الى سقف القاعة المنقوش بنقوش دقيقة ، أغصان متشابكة ، مطلية بالذهب ، مطعمة بالصدف والفيروز ، فوق القاعة والقلعة والمدينة تعلو السماء الليلية مرصعة بالنجوم .. سأل السلطان ..

ـ ما سبب خضرة لون السماء ؟

قال الامير يشبك :

ـ انما جعلها خضراء لتكون مناسبة للبصر ، لان الاطباء يأمرون بادمان النظر الى الخضرة ليكون فيه قوة للبصر ، وقيل خضرتها من جبال قاف ، لانها من زمرد أخضر ، وقيل من خضرة أشجار الجبل المذكور ..

بعد لحظات ، سأل الشيخ البرقوقى .. !

ـ قال أحد السلاطين القدماء ، معنى العيد فى اللغة هو السرور ، فسرور المسلمين لذهاب رمضان محير ، وهو الشهر الذى تغلق فيه أبواب جهنم ، وتفتح ابواب الجنة ؟؟ .

فالقياس الا يفرح المؤمن بذهاب مثل هذا الشهر ؟؟

وهنا أجاب السلطان الغورى ..

ـ فرح المؤمنون لأجل انهم أدوا هذه الفريضة آداء كاملا ووصلوا الى درجة الصائمين الكاملين ، بسبب انتهاء شهر رمضان ..

سأل الشيخ السماديسى :

ـ رجل مكره على سب النبى فالاولى له ان يرتد باللسان أو يصبر على الضرب حتى الموت !!

قال السلطان الغورى :

ـ الاولى الصبر ، لو وقعت أنا ، والعيـــاذ بالله ، مجبورا ، مكرها على سب النبى ، اختار الموت ولا اسب النبى ..

قال الامير يشبك :

ـ قال تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، ظاهر الآية يدل على ان المختار السب !!

قال السلطان ..

ـ المراد من الآية الكريمة الرخصة فى الجملة لا أن السب واجب عليه ، ولكن المفروض عدم السب نهائيا ، والصبر على الضرب كما ذكره النووى فى الروضة ..

قال الشيخ سعيد بصوت عال ..

ـ اذا دخل اربعون نفسا على مولانا السلطان ، الذى دخل أولا أخذ دينارا ، والذى دخل ثانيا أخذ دينارين .. والذى دخل ثالثا اخذ ثلاثة دنانير ، الى الشخص الاربعين فقد أخذ أربعين دينارا ، اذن كم يكون المجموع .. ؟

قال السلطان ..

ـ المجموع سبعمائة وثمانون ..

وعاد الشيخ سعيد يسأل ..

ـ اذا وقع من يد شخص لؤلؤة فابتلعتها نعامة ، فما الحكم فى .. ؟

قال السلطان الغورى :

ـ اذا كانت قيمة اللؤلؤة أكثر تذبح النعامة ، وان كانت قيمة النعامة أكثر من اللؤلؤة تترك .

وهنا سأل السلطان ..

– من بنى الاهرامات ؟

قال الامير يشبك ..

– ذكر الشيخ جلال الدين السيوطى ان الاهرامات بنيت قبل الطوفان ، لانها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس ، وقيل بناها شداد بن عاد ، وقيل سوريد بن صلهوق ، وكان ملكا لمصر ، وقد رأى حلما فى منامه ملخصه ان الارض انقلبت بأهلها وفنى كل شيء ، وعندما استيقظ جمع كهنته فتنبأوا بالطوفان ، فأمر عندئذ ببناء الاهرامات وملأها بجميع ما كتبه الحكماء فى العلوم ووضع فيها أصناف الاسلحة ، والادوية والعقاقير ، وعين لكل هرم حارسا حتى لا يقترب منها أحد قط ، وقيل ان الاهرام عليها كتابة معناها « أنا سوريد الملك بنيت الاهرام فى ست سنين ، فمن أتى بعدى وزعم انه مثلى فليهدمها فى ستين سنة ، والهدم أيسر من البناء .. » .

وعند هذا الحد من حديث الامير يشبك عن الاهرامات ، نفارق السهرة عائدين الى المدينة ، فالسهرات تطول ، ولكن الموضوعات لا تخرج عما أوضحناه سابقا ، وأثناء نزولنا الى القاهرة عائدين من قلعة الجبل يتردد فى أذهاننا حديث الامير يشبك ، بالطبع لم يكن التاريخ الفرعونى معروفا لاهالى العصر ، لكن كانت الآثار القائمة فى الوادى ، تحير الاهالى برموزها ورسومها ، من هنا صاغ الشعب تاريخا اسطوريا لمصر ، يمتزج فيه الخيال باللاوعى الجماعى للشعب المصرى والذى يختزن احداث التاريخ القديم ولكن فى صورة أسطورية لا علاقة لها بالواقع والتاريخ الحقيقى ..

لا تفارقنا هيئة السلطان الغورى ونحن نفارق عصره ، هذه الفترة التى تثير الخيال الانسانى ، بكل ما حوته من مواكب سـلطانية ورياضة المماليك وألعابهم فى الساحات ، واحتفالات الاهالى ، والمواسم ، ولهو الشعب وايقاع حياته اليومية ، وكدحه وكده من أجل صناعة الحضارة .

كانت فترة حكم السلطان الغورى آخر سنى هذا العصر الزاهى البراق ، عصر السلطة المملوكية ولنذكر فى نهاية هذه السهرات ، ان السلطان الغورى ، خرج مدافعا عن ملكه ، وعن مصر ، فى جيشه المملوكى ، متصديا للعثمانيين فى مرج دابق ، وانه حارب ، ولكن الخيانة هزمته ، فسقط شهيدا ، ولم يعثر على جثته ، ولم يدفن حتى الآن فى قبر ، هذه القبة الشهيرة التى تقـوم فى مدخل شارع الغورية ، والتى أنفق عليها وبناها ليدفن فيها ، ولكنه مات شهيدا غريبا فى سهول حلب . .

النشو

يفصلنا عن شرف الدين عبد الوهاب النشو سبعة قرون هجرية ، مات الرجل منذ زمن بعيد ، ولكنه لا زال يسعى بيننا هذا ما تقوله سيرته وأفعاله ، وما تقوله سيرة وافعال الكثيرين ممن يعيشون حولنا الآن .

والنشو لم يكن بطلا من أبطال التاريخ ، انما كان رجلا عاديا ، بدأ حياته بخدمة الامراء فى زمن السلطان الناصر ابن محمد بن قلاوون . كان مستخدما عند ابن هلال الدولة شاد الدواوين ، وكان يتردد عليه كثيرا ويبالغ فى خدمته ، واستخدمه ابن هلال الدولة فى الاشغال ، وأثناء ذلك تزوج ألامير أنوك ابن السلطان من ابنة الامير بكتمر الساقى ، وبدأ السلطان يفكر فى شخص بعينه لخدمة ابنه ، ولابد أنه فكر فى النشو ، كان النشو قد وقف بين يديه أكثر من مرة ، وتحدث اليه ، وعندما كان يتكلم الى السلطان كان يركز كل حواسه ، ومواهبه حرصا على أن يترك أثرا فى نفس السلطان ، فى صفر سنة أثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية ، التحق النشو بخدمة الامير انوك ، وكان هذا أول صعوده ..

أصبح النشو قريبا من السلطان بحكم موقعه الجديد ، وصار يتردد كثيراً على القلعة ، يخلو الى السلطان ، ويحادثه فى أمور الدولة ، ويبدى الحرص البالغ على أموال السلطان ، ومصالحه ، وسير العمل فى الدواوين ، وفى أثناء ابدائه والحرص ، كان يرمى عبارات هنا وهناك فى حديثه فى البدآية كان يلفظها بحذر ، ثم لاحظ أن أذنى السلطان مصغيتان اليه ، نزاد من الدس والوقيعة ، وكان مظهره يساعده ، أنه طويل القامة . مليح الوجه ، حلو التقاطيع ، برىء السمات ، أثر كلامه فى نفس السلطان حتى بات مقتنعا أن النشو بحرصه عليه يمكنه ان يحصل له مالا كثيرا ، فاصدر مرسوما بأن يتولى النشو نظارة الخاص ، أى يكون مسئولا عن أموال السلطان وممتلكاته ، وهذه وظيفة هامة جدا ، ولكن النشو لم يهدأ ، ولم يتوقف أخذ يتحدث الى السلطان عن أولاد موظف كبير اسمه التاج أسحق ، راح يحدثه عن الاموال التى جمعوها بالباطل ، وكرههم له ، وكان أحد هذين الولدين قد تولى وظيفته فى نفس اليوم الذى عين فيه النشو ناظرا للخاص ، وهو شرف الدين موسى ، لم يمض الا عشرون يوما فقط ، وعمل كلام النشو عمله فى السلطان ، فأصدر مرسوما بعزل شرف الدين موسى من نظر الجيش ، وامر بالقبض عليه ، وعلى شقيقه ، ومصادرة ثروتها ، وكان أسلوب السلطان الناصر قلاوون غريبا فى ضرب موظفيه ، لقد استدعى ابن هلال الدولة ، وأسر اليه أن يمضى ليحاصر بيوت أولاد التاج اسحق بمجرد دخول الامراء البلاط ، وبالفعل دخل الامراء ، وكبار

موظفى الدولة ـ وبينهم شرف الدين موسى ـ الى السلطان، عندئذ التفت السلطان الى القضاة وأخذ فى الثناء على شرف الدين ، وقال فى آخر كلامه :

« أنا رأيت هذا وعملته كاتبى » .

فى هذه اللحظة بالذات كان الجنود يحيطون بيته ، وبيت شقيقه ، وعندما خرج من البلاط ، واتجه الى مقر وظيفته ، كانت العيون تحيطه بالرهبة ، ألم يثن عليه السلطان علنا ، ولكنه ما أن جلس بديوان الجيش حتى بلغه ان الحوطة قد وقعت على بيته ، وأن رسل الديوان على باب الجيش ، وبلغ الخبر أيضا الى أخيه علم الدين ، وفى العصر صعد ابن هلال الدولة بأوراق الحوطة (كشوف جرد المحتويات) وهى تشتمل على أشياء كثيرة جدا ، منها على سبيل المثال ، اربعمائة سروال لزوجة علم الدين، أمر السلطان بتسليم الاخوين الى ابن هلال الدولة للتحقيق معهما ، والتوصل الى الثروات المخفية ، واحضرت آلات التعذيب ، من أسواط ، ومعاصير وسئل موسى عن صندوق ذكر انه أخذه من تركة أبيه ، فيه من الجواهر والذهب ما يبلغ مائة ألف دينار ، وكان النشو قد أفضى الى السلطان بوجود هذا الصندوق ، فأنكر ذلك ، وأقسم الايمان المغلظة ، فرق له ابن هلال الدولة ولم يعذبه ، وهنا استنكر النشو ذلك ، وأخذ على ابن هلال الدولة هذه الرقة ، مع أن الرجل هو أول من استخدمه ، وهو ولى نعمته ، واضطر ابن هلال الدولة الى التضييق على موسى ، لينتزع منه كل ما لديه ، ان النشو الآن لا يقيم وزنا لابن هلال الدولة ، انه يتحدث الى

السلطان راسا ، والكلام يخرج من فمه الى أذنى السلطان راسا ، كما أنه لم يكن يدع فرصة الا ويظهر فيهـــا اخلاصه وولاءه عند عودة السلطان من الحج ، تولى النشو الاشراف على مظاهر الاحتفال ، خرج الناس للقـــاء الناصر ، وغلقت الدكاكين والاسواق ، وجمع النشو من الامراء الابسطة ، والمنسوجات الحريرية الثمينة المشغولة بالذهب ، وبسطها فوق الارض امام القلعة ، وحتى مقعد السلطان ، وتمضى الايام ، ونفوذ النشو يقوى ، ويتزايد ، يقول المقريزى فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك :

« وفى هذا الشهر كثرت مصادرات النشو للناس ، فأقام من شهد على التاج اسحق انه تسلم من المسكين الترجمان صندوقا فيه ذهب وزمرد وجـــوهر مثمن ، فرسم لابن الحسنى بعقوبة موسى بن التاج اسحق حتى يحضر الصندوق ، وطلب النشو ولاة الاعمـال والزمهم بحمـل المـال ، وبعث أخاه لكشف الدواليب بالصـعيد وتتبع مواشى ابن التاج اسحق ، فقدم قنفلى والى البهنسا وقشتمر والى الغـــربية وفخر الدين أياس متولى المنوفية ، وعدة من المباشرين فتسلمهم ابن هلال الدولة ليستخلص منهم الاموال .

كان النشو اذا اضطهد شخصا فانه يتتبعه حتى يدمره تماما ، ويتتبع أى انسان يمت اليه .. هكذا فعل مع موسى بن التاج اسحق .

يستعين بالأشخاص ذوى السمعة السيئة والاشرار

بدأ النشو يعتمد على أقاربه ، وأرسل أخاه واسمه المخلص الى الصعيد في مهمة ، عاد منها ليقدم اليه تقريرا عن ثروات مباشرى الوجه القبلى ، وطلع النشو الى السلطان ، راح يغريه بهم جميعا ، ويتحدث عن اتلافهم مال السلطان ، وهنا صدر مرسوم بالحوطة على جميع مباشرى الوجه القبلى ، واعتقالهم ، وطلب النشو تجار القاهرة ومصر ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش ، بثلاثة أمثال قيمتها ، كان يبيع بضائع السلطان بأسعار مرتفعة جدا ، وهكذا يحصل له على أموال طائلة ، فى الوقت الذى بدأ هو بتكوين ثروته ولكن فى حذر شديد ، وكان السلطان الناصر يصدر أحيانا بعض المراسيم التى تتسم بالخير ، وهكذا أصدر مرسوما بمسامحة الامراء فى الاموال المدينين بها للديوان ، ولكن النشو لم ينفذ هذا المرسوم ، والزم مباشرى الامراء بتسديد هذه الاموال ، وركب الى السلطان ، وأوضح له قيمة الاموال التى يمكن أن تضيع نتيجة لهذهالمسامحة، وأن مال السلطان يضيع ويتبدد ، وأن الدواوين تسرق بحجة مسامحة الامراء ، وتأثر السلطان بما سمعه ، ومكن النشو من عمل ما يختاره ، والا يسامح أحدا بشىء مما عليه للديوان ، وشق ذلك على بعض الامراء ، فراجع الامير قوصون السلطان ، ولكنه لم يجبه الى شىء ، عندئذ كف الامراء عن السؤال ، وعظم النشو فى أعين الناس .

واستعان النشو بالاشخاص ذوى السمعة السيئة ، استدعى الشمس بن الازرق وكان ظلوما غشوما ، فكتب له أسماء أرباب الاموال من التجـــار ، وفرض عليهم قماشا بثلاثة أمثال قيمته . يقول المقريزى :

« وعمت مضرة النشو الناس جميعا ، وانتهى اليه عدة من الاشرار ، ونموا على الكافة من أهل الوجـه القبلى والوجه البحرى ، ودلوه على من عنده شيء من الجوارى المولدات لشغف السلطان بهن ، فحملت اليه عدة منهن بطلبهن من أربابهن ، وسعوا عنده بأرباب الاموال أيضا ، فدهى الناس منه بلاء عظيم » .

وبين الحين والآخر ، كان كبار رجال الدولة يفضون بشكواهم الى السلطان ، ولكنه كان ينهرهم ، ويبـدى الثقة بالنشو ، واذن له فى عمل ما يختاره ، وأن يتصرف فى أمور الدولة كما يشاء والا يبالى بأحد ، ووعده بتقوية يده ، وتمكينه ، ومنع من يعارضه ، بل ان السلطان استدعى اخوة النشو وأقاربه ، وعينهم عند كبــار الامراء ، فجعل المخلص أخ النشو مباشرا عنـد الامير سيف الدين الناق ، واستخدم أخاه رزق الله عنـد الامير ملكتمر الحجازى ، واستخدم صهره ولى الدولة عند الامير أرغون شاه ، وخلع عليهم .

انبسطت يده النشو ، واشتدت وطأته ، واسـتدار ليضرب أول شخص أحسن اليه ، وكان بداية صعوده التفت الى ابن هلال الدولة نفسه .

ابن هلال الدولة
يلزم بيته بتدبير من النشو

أخذ النشو فى التدبير على ابن هلال الدولة ، رتب عليه انه أخذ من مال السلطان جملة ، وانه اهمل فى المحافظة على أمور السلطان ، وانه بسببه ضاع مال كثير ، وانتدب لتحقيق ذلك ثلاثة ،أمين الدولة بن قرموط المستوفى ، والشمس بن الازرق ناظر الجهات ، وشخص ثالث اسمه لؤلؤ الحلبى ، وحدد يوم للمواجهة ، بالطبع رتب النشو كل كبيرة وصغيرة ، انعقد المجلس فى القلعة، وفى البداية برز قرموط ، وواجه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الامور ، وبرطل « رشا » بالاموال ، ولم يستمع السلطان الى الباقين ، بل أمر ابن هلال الدولة ان يلزم بيته ، وعين شخصا آخر بدلا منه فى وظيفته ، وأمر بدر الدين لؤلؤ الحلبى باستخلاص الاموال ، قبض على ابن هلال الدولة ، وصودرت أمواله ، وهكذا أجهز النشو على ولى نعمته ، والذى كان وجوده يذكره بأيام الزمن القديم عندما كان موظفا صغيرا فى خدمته .

ثم اختار النشو شخصا قاسيا ، غتيتا ، هو ايدكين الادكش لولاية القاهرة ، وبدأ نشاطه بمهاجمة البيوت ، ومصادرة الأموال ، وصار يتنكر فى الليل ويمشى فى أزقة القاهرة ، فاذا سمع صوت غناء أو شم رائحة خمر هاجم المكان واخذ من أهله أموالا طائلة طبقا لاحوالهم ، وكان النشو يوجهه ، وينفذ أغراضه من خلاله ، ولما تزايد أمر ايدكين ، طلع الامير قوصون وشكاه الى السلطان ، وهنا

تغير السلطان على قوصون وقال له :

« أنتم كلما وليت أحدا ينفعنى أردتم اخراجه ، ولو انه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت » .

وفى الحال أصدر مرسوما بأن يتولى ايدكين ولاية مصر ، الى جانب القاهرة ، ولم يجمع الولايتين أحد قبله؛ وعظم امر ايدكين ، فى أحد الايام خرج من القاهرة الى قرية النخيلة بالوجه البحرى ، وكانت متنزها للناس، هاجمها وقت الغروب فما قبض على أحد الا وسلبه ثيابه وتركه عاريا ، عرى البلدة كلها عن بكرة أبيها ، وجمع اموالا كثيرة .

غير ان ايدكين لم يستمر طويلا فى منصبه ، ففى أول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هجرية عزل ، ونفى الى الشام ، وكان السبب سعاية عدد من كبار الامراء ضده عند السلطان .

وفى نفس السنة لاحظ النشو أن مستوفى الدولة أمين الدين قرموط يكثر من الاجتماع بالسلطان ، فخاف عاقبة ذلك ، مع انه هو الذى قدمه الى السلطان ، وبدأ يتكلم فى حقه ، وقال انه جمع كثيرا من مال السلطان لنفسه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة معه ، وعوقب قرموط وضرب بالمقارع سعيا لاستخلاص اربعين الف دينار منه ، ولكنه صمد للضرب ، عندئذ قيل انه جلد ، وانه لن يعترف الا اذا ضرب ابنه امامه ، وجاءوا بولده وبدأوا بضربه فلما اشتد البلاء بقرموط ضرب نفسه بسكين فى حلقومه محاولا الانتحار ، ولكنهم انتزعوها منه ، واستمر تعذيبه،وتعذيب ابنه .

فى هذه الفترة قدم الامير تنكر . نائب الشام يوم الاربعاء الحادى عشر من رجب (٧٣٥ هـ) ؛ وسعى عند السلطان ليفرج عن ابن هلال الدولة ، وساعده الامير قوصون ؛ وبالفعل استجاب السلطان لهما ، وأفرج عن الرجل ، وكان النشو مسافرا الى الاسكندرية ، وعند عودته فوجىء بالخبر ، وشق عليه الافراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع الى السلطان ، وراح يتحدث عن ابن هلال الدولة وخطورته ، ومال السلطان اليه ، فأمر الوالى باحضاره الى القلعة ، وخرج الوالى الى ابن هلال الدولة ، سبه ولعنه ، وأبلغه عن السلطان انه متى اجتمع به احد شنقه ، فنزل وأقام بالقرافة منقطعا عن جميع الناس ، واستمرت سعاية النشو فى الناس ، اتهم والى دمياط بأنه خرب أساسا قديما فى البحر بين البرجين ، كانت عليه طلسمات تمنع ماء البحر المالح عن ماء النيل ، حتى تلفت الطلسمات وغلب البحر على النيل ، فتلفت بساتين كثيرة ، وان الوالى نال من ثمن هذه الحجارة أموالا طائلة ، واعتقل والي دمياط ، وعذب ، واستخرج منه وجمع أموالا كثيرة .

وقبض النشو على امرأة موسى بن التاج ، عاقبها وهى حامل عقوبة شديدة على احضار المال حتى طرحت مافى بطنها ولدا ذكرا .

كان النشو يستخدم شرار الخلق ، وكانت له نساء عجائز يتجسسن فى البيوت الكبيرة ، وحدث ان احدى هؤلاء النسوة أبلغته عن أولاد ابن الجيعان ، وانه يسعى فى نظر الجيش ، والآخر يسعى ليتولى نظر الخاص ،

عندئذ طلب النشو كاتب الاصطبل منهم ، وطلب منه أن يكتب حساب الاصطبل ، فامتنع ، ورد عليه بكلام خشن عندئذ سعى النشو عليه عند السلطان حتى قال له السلطان :

« لم لا تعمل حساب الاصطبل ، وتعطيه الناظر ؟ ـ يقصد النشو .

فقال :

« ياخوند : بدل ان تطلب حساب الصبى والمقاود، اطلب حساب الذهب الذى يدخل الى خزائنك » .

واغلظ فى حق النشو ، وعندما قابله ، قال له :

« ونعمة مولانا السلطان اظهر فى جهتك مائتى الف دينار » .

وهنا قامت قيامة النشو ، وانفض المجلس على ذلك ، فما زال النشو بأولاد ابن الجيعان حتى سلمهم الى لؤلؤ فعاقبهم حتى هلكوا ، وصودرت ثرواتهم ، ولم يكتف النشو بذلك ، بل قبض على أقاربهم ، وصادر أموال عدد من أصحابهم .

مملوك السلطان

فى هذه السنة ٧٣٥ هـ ، كثر شغف السلطان بمملوكه الطنبغا الماردينى شغفا زائدا ، الى درجة انه قرر ان ينشىء له مسجدا يحمل اسمه ، واختار موقعه خارج باب زويلة ، وكان لابد من ازالة عدد من البيوت بعد شرائها ، طلب السلطان النشو وكلفه بتحقيق ذلك ،

عندئذ استدعى النشو أصحاب البيوت ، وابتاعها منهم بنصف قيمتها ، وتم بناء المسجد والذى لا زال قائما حتى الآن .

وفى نفس هذه السنة جرت محاولة للتخلص من النشو عن طريق الوقيعة ، اذ كتبت رقعة الى السلطان تذكر ظلم النشو ، وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم ، وعشق صهره لغلام تركى ، استدعى السلطان النشو ، وبعد ان قرئت عليه القصة قال : أنا اعرف من كتبها ، وحلف على براءة أقاربه من هذا الشاب ، وبكى ثم انصرف .

وحاول عدد من الامراء أن ينبهوا السلطان الى ثروة النشو الطائلة ، لكنه لم يستجب اليهم ، ولم يصدقهم ، كان النشو يحرص دائما على أن يبدو أمام السلطان فى مظهر الفقير المعدم حتى تزداد ثقة السلطان به ، ولكى يؤمن السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفى الدولة المتصلين بالسلطان ، مبالغ صغيرة من المال بين الحين والآخر ليوهمهم انه لا يملك شيئا ، ارسل ذات يوم الى رئيس الاطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفا نزل عنده وليس لديه ما كرمه به ولكى تجوز حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء عنده ذات يوم ، وشكا فقره للسلطان ، وقد أمن رئيس الاطباء على هذه الدعوى بحكم ما وقع بينه وبين النشو من قبل وامعن النشو فى تصرفاته التى لحقت الخاصة والعامة على السواء ، فتدخل فى تجارة السلع الضرورية للحياة من لحم وفول واقمشة وكان يشترى منها باسم السلطان

كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية .

وهنا لندع المقريزى يحدثنا من خلال كتابه السلوك عن وقائع النشو .

رسالة تتضمن الوقيعة في النشو واقاربه

في يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الاول ٧٣٦ هـ عزل الامير سيف الدين بغا عن الدوادارية ، واستقر عوضه سيف الدين ، كاجاز الماردينى ، ثم اخرج بغا على امرة عشر بصفد ، في ليلة الجمعة سادس ربيع الاخر ، وسببه أن بعض تجار قيسارية جهاركس طرح عليه النشو ثيابا بضعفى قيمتها كما هى عادته ، فرفع قصته ، للسلطان على يد بغا ، واحضر بغا بين يديه فشكا حاله ، فاستدعى السلطان النشو بحضور التاجر وقال له : كم تشكو الناس منك : اسمع ما يقول هذا عنك من طرح القماش عليه بأغلى الاثمان ، فقال « ياخوند : هذا ما يشتكى من أمر القماش لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين الف دينار ، وقد هرب منى وانا اتطلبه ، وهذا المبلغ من ارث جارية تزوجها التاجر وهى من جوارى الشهيد الملك الاشرف خليل ، ماتت عنده وخلفت نحو مائة ألف دينار وما بين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر على السلطان شىء » .

ثم التفت النشو الى التاجر وقال له :

« بحياة رأس السلطان : ما كنت متزوجا بفلانة ؟ » .

يعنى الجارية المذكورة ، فقال « نعم » فأمره السلطان ان يسلمه لابن صابر المقدم حتى يستخلص منه المال ، فأخذه ابن صابر وشهره بالقاهرة وعاقبه بالقيسارية مرارا حتى أخذ منه مبلغ خمسين الف درهم ، ثم تحول النشو على بفا ، وراح يقول عنه انه مرتش ، وكان السلطان يكره الرشوة ، فأثر فيه كلام النشو ، فأخرجه، وسعى النشو أيضا بطقتمر الخازن حتى غير السلطان عليه .

.. وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشر رجب قبض على ابن هلال الدولة ، وعلى ناصر الدين محمد ابن المحسنى ، واخرجا الى الاسكندرية بسعاية النشو .

واشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق اليها وهى انه الزم أهل الصاغة ودار الضرب الا يبتاع منهم أحد ذهبا ، بل يحمل الذهب جميعه الى دار الضرب ، ليصك بصكة السلطان ، فجمع من ذلك مالا كثيرا للديوان ، ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب ، فأخذ ما كان منه للتجار والعامة ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان ، وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شىء منه فى الصاغة ولا فى غيرها ، ثم أن السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار ، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ما تحت يده من مال الأيتام ، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضا فى ذمته ، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم

لأيتام الدواداری تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال ، فأخذها منه وعوضه عنها بضائع ، ثم بعث النشو الى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن أبى بن عيسى الاخنائى المالكى في تمكينه من مال أولاد (الامير) أرغون النائب ، وهو ستة آلاف دينار ، وكانوا تحت حجرة فامتنع وقال « السلطان ما يحل له اخذ مال الايتام » . فرد عليه « السلطان انما يطلب المال الذى سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها ، فان الحساب يشهد عليه بما سرقه من الخزانة » . وقام فى فورة الى السلطان ، وما زال به حتى بعث الى القاضى يلزمه بحمل المال الذى سرقه أخوه من الخزانة ، ويقول له « انت ايش كنت من مملوكى ؟ » فلم يجد قاضى القضاة بدا من تمكين النشو من اخذ المال .

.. فى ذى القعدة من نفس السنة ، سقط طائر حمام بالميدان ، وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقيعة فى النشو وأقاربه ، والقـــدح فى السلطان بانه أخرب دولته ، فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ، وطلب النشو وأوقفه على الورقة وتنمر عليه لكثرة ما يشكى منه ، فقال : « ياخوند : الناس معذورون : وحق راسك لقد جاءنى خبر هذه الورقة ليلة كتبت : وهذه فعلة المعلم ابى شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت ، كتبها فى بيت الصفى كاتب الأمير قوصون ، وقد اجتمع هو وأقاربه » ، وأخذ النشو يعرف السلطان بما كان من أمر سعيد الدولة فى أيام بيبرس الجاشنكير وأغراه به حتى طلبه ، وسلمه الى الوالى علاء الدين على بن حسن المروانى ، فعاقبه

عقوبة مؤلمة ، وطلب السلطان الامير قوصون وعنفه على فعل الصفى كاتبه ، فطلبه قوصون وهدده ، فحلف بكل يمين على براءته مما رمى به ، فتتبع النشو عدة من الكتاب وجماعة من الباعة ، وقبض عليهم بسبب ابن شاكر ، ونوع العـــذاب عليهم بيد الوالى ، وخرب دورهم بالمحراث ، وقبض النشو على الموفق هبة الله ابن سعيد الدولة ، ثم أفرج عنه بعناية الامير اقبغا عبد الواحد . وعذب ابن الازرق ناظر الجهات .

ارباب الدواليب يتضررون من سطوة النشو

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

.. وفيها أجدبت زراعة الفول ، فألزم النشو سماسرة الغلال الا يباع الفول الا للسلطان فقط ، فتضرر أرباب الدواليب (المقصود بالدواليب جميع الآلات المستخدمة فى الزراعة والصناعة ، وهذه الآلات كانت تدور بالابقار ، والابقار تعتمد على أكل الفول) .

وفيها صـــادر النشو جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلى ، وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتى الف درهم وألفى أردت غلة ، فرافع بن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عنـد النشو ، فاقتضى رأيه مصـادرة ابن زعازع لـكثرة ماله ، وأوقع الحوطة على موجودة ، وكتب الى والى البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة ، فلف والى البهنسا على أصـــابعه الخروق وغمسها فى

القطران وأشعل فيها النيران ، ثم عراه ولوحه على النار، حتى أخذ منه ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ووجد له أربعمائة فرجية بفرو ، ومائة وعشرين جارية وستين عبداً ، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمائة ألف درهم ، واحتج النشو بمصادرته بأنه وجد كنزاً .

وفيها ارتفع سعر اللحم لقلة جلب الاغنام حتى بيع الرطل بدرهم وربع ، وسبب ذلك ان النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها ، فكتب الى نائب الشـــام ونائب حلب بجلب الاغنام ، ثم ان النشو استجد للسواقى التى بالقلعة أبقارا ، واحضر أبقارها التى ضعفت وعجزت مع الابقار التى ضعفت بالدواليب ، وطرحها على التجـــار والباعة بقياسر القـــاهرة ومصر وأسواقها حتى لم يبق صاحب حانوت الا وخصه منهـــا شيء على قدر حاله : فبلغ كل رطل منها درهمين وثلثا ورميت تلك الابقار على الطواحين والحمامات كل [illegible] بمائة درهم ولا تكاد تبلغ عشرين درهما فبلى الناس من ذلك بمشقة وخسارة كبيرة .

واتفق ان النشو اغرى الســــلطان بموسى بن التاج اسحق حتى رسم بعقوبته الى أن يموت ، فضرب زيادة على مائتين وخمسين شيبا (الشيب سير السوط أى الكرباج) ، حتى سقط كالميت ، ثم ضرب من الغد أشد من ذلك ، وحمل على انه قد مات ، فسر النشو بذلك سرورا زائدا ، وذهب ليرى موسى وهو ميت فوجد به حركة ، وفى أثناء ذلك طلب السلطان الامير لؤلؤ فأخبره بأن موسى قد بدا يئن ، وبعد ساعة يموت ، فرسم الا يضرب بعد ذلك ، فشق هذا على النشو .

وفيها قل فرو السنجاب من الاسواق ، وذلك لقلة جلبه ، فأمر النشو بأخذ ما على التجار من الفرجيات ذات الفرو ، فهوجمت حوانيت التجار والبيوت حتى أخذ ما على الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو دعاء التجار عليه فسعى عند السلطان عليهم ، ونسب اليهم أخذ الربا ، وقال ان عندهم كميات كبيرة من الاخشاب والحديد واستأذنه في بيعها عليهم ، فأذن له السلطان فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من أرباب الاموال ، ووزع عليهم من الف دينار كل واحد الى ثلاثة آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفا من الاصناف ، فبلغت الجملة خمسين الف دينار ، وضرب من تخلف منهم بالمقارع ، ويبدو ان أحد هؤلاء التجار كان علي معرفة بالست حدقة زوجة السلطان وأم ابنه أنوك ، فذهب اليها وشكا النشو ، وقال ان الخشب الذى فرضه عليه قيمته الحقيقية الفا درهم ، وطلب منه النشو ألف دينار ثمنا له ، عندئذ تحدثت السيدة حدقة الى السلطان فى ظلم النشو للناس فطلب السلطان النشو ، وأنكر عليه ذلك ، وتجهم له ، فانصرف النشو وهو فى حالة شديدة من الغيظ ، وبدأ يدير انتقاما من ذلك التاجر ، استدعى رجلا واتفق معه على الانتقام من التاجر ، ذهب الرجل الى التاجر وسأله فى قرض مبلغ من المال ، فأخذ التاجر يشكو مما به من الزامه بألفى دينار عن ثمن خشب طرحه عليه النشو ، فقال له الرجل : « ارنى الخشب فانى محتاج اليه » ، فلما رآه أعجبه واشتراه منه بفائدة ألف درهم فى الشهر ،

امتلأ التاجر فرحا ، وأشهد عليه بذلك ، ومضى الرجل ليأتى بثمن الخشب ، عاد الى النشو وأخبره بما تم ودفع اليه بنسخة المبايعة ، فقام من فوره الى السلطان واعلمه انه نزل ليرفع الخشب من حاصل التاجر فوجده قد باعه بفائدة ألف درهم فطلب السلطان التاجر وسأله عما رماه عليه النشو ، فاغتر البائس وأخذ يقول « ظلمنى وأعطانى خشبا بألفى دينار يساوى ألف درهم ، فقال له السلطان « وأين الخشب » قال « بعته بالدين » ، فقال النشو « قل الصحيح فان هذه معاقدتك بيعه » ، فلم يجد بدا من الاعتراف ، فحنق عليه السلطان وقال « ويلك ، تقيم الفاتة » تستغيث « وأنت تبيع بضاعتى بفائدة ؟ » ثم أمر النشو بضربه وأخذ الالف دينار منه مع مثلها ، وعظم النشو عند السلطان ، ثم عبر السلطان الى نسائه وسبهن وعرفهن ما جرى ، وقال :

« مسكين النشو ما وجدت له أحدا يحبه كونه ينصحنى ويحصل مالى » .

وفى نفس السنة شكا المماليك من تاجر كسوتهم ، فطلب السلطان النشو وألزمه بحمل كسوتهم من الغد ، ومعها مبلغ عشرين دينار فنزل النشو وألزم الطيبى ناظر المواريث بتحصيل خمسة آلاف دينار ، وبعث المقدمين الى الاسواق ففتحوا حوانيت التجار وأخذوا كسوة المماليك وحوائجهم واخفافهم ونعالهم وغير ذلك ، وأخذوا مركبا فيه عدة بضائع طرحوها على الناس بثلاثة أمثال قيمتها ، وأحيط بتركة نجم الدين محمد

الاســـعودى ، وقد مات وترك زوجة وابنة وابن .. وأخذت كلها ، وأخذت وديعة من تركته لاولاده أيتام تحت حجره ، مبلغـا نحو خمسين ألف درهم ، وأنفقت فى يومها على المماليك والخدام ، وفتحت قيسارية جهاركس، وأخذ منها مقاطع الشرب « قماش رفيع من الكتان » برسم الكسوة ، فارتجت المدينة بأهلها ، وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا ، فصارت مفتحة ، والاعوان تنهب لانفسها ما أرادت ، فلم ير يومئذ بالقاهرة ومصر الا باك أو صائح أو نائح ، فكانا يومين شنيعين ، وعول أرباب الحوانيت على رفع ما فيها وخلوها ، فعرف النشو السـلطان ذلك فنودى « من أغلق حانوته أخـذ ماله وشنق » ففتحوها ..

نعم ..

لم يبق فى مصر الا باك أو صائح أو نائح .

هكذا فى بساطة وقوة يلخص المقريزى ما وصل اليه حال الناس تحت سطوة النشو ، وتمضى السنوات حافلة بظلمه ، يمضى النشو الى الاقاليم فيصادر الاموال ، واذا أفرج عن انسان يشق هذا عليه ، ولا يهدأ له باله حتى يعيده مرة أخرى الى السجن ، وفى هذا الخضم تجرى محاولة لاغتيال النشو ، اذ حدث فى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان أن اعترضه فارس ، ضربه ، فأخطأ سيفه رأس النشو ، جرح كتفه فقط ، فغضب السلطان غضبا شديدا ، ولم يحضر السماط ، وأرسل الاطبـاء لمعالجة النشو ، وأغلظ على الامراء بالكلام ، وما زال يشتد ويحتد حتى عاد القصاد بسلامة النشو فسكن ما به .

وتجىء سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ولا يكف النشو ، ولا يهدأ ، يسعى فى الناس بالشر ، ولا ينجو من أذاه أمير أو طحان ، وعندما يبلغه أن الوعاظ يدعون عليه من فوق منابر الجوامع ، يسعى السلطان حتى يمنع الوعاظ بأجمعهم من الوعظ ، وتستمر الاحوال على ما هى عليه فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، يأخذ النشو مال الاقباط مع انه كان فى الاصل قبطيا ثم أسلم ، ويستولى على حلى النساء ، يقول المقريزى :

« وفيها كثرت مصادرة النشو للناس من أهل مصر والقاهرة والوجه البحرى والقبلى ، حتى خرج فى ذلك الحد » .

ولكن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية ..

النهـــاية

سنة أربعين وسبعمائة .

فى يوم الاثنين ثانى صفر قبض على النشو ، وعلى أخيه شرف الدين رزق الله ، وعلى أخيه المخلص ، ورفيقه مجد الدين ، وعلى صهره ولى الدولة .

كيف ؟

لنصغ الى المقريزى محدثنا عن هذا الزمن البعيد ..

« .. وسبب ذلك انه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار لطرح الاصناف عليهم بأغلى الاثمان ، وطلب السلطان منه يتزايد ، خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة ، الى التعرض الى الخاصة ورتب مع أصحابه ذلك .

وكانت عادته فى كل ليلة ان يجمع اخوته وصهره ومن يثق فيه للنظر فيما يحدثه من مظالم فيدله كل منهم على داهية ، ثم يفترقون وقد أبرم للناس بلاء يعذبهم الله به من الغد على يده ، فكان مما اقترحه أن رتب أوراقا تشتمل على فصول يتحصل فيها الف ألف دينار عينا ، وقرأها على السلطان ، ومنها التقاوى السلطانية المخلدة بالنواحي من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية قلاوون فى اقطاعات الامراء والاجناد وجملتها مائة ألف اردب ، سوى ما فى بلاد السلطان من التقــاوى ومنهــا الرزق الاحباسية على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك وهى مائة ألف فدان (وثلاثون الف فدان) .

ويمضى المقريزى فى سرد تفاصيل ما خططه النشو مع أقاربه للاضرار بكبار الامراء وكان ما تفتق عنه ذهنه، هو الزام متولى كل اقليم باستخراج التقاوى من أرضه وحملها الى خزائن السلطان ، ثم تباع من جديد الى الناس بمعرفة الخاصة السلطانية ، انزعج الامراء من هذا القرار ، وقال أحدهم للسلطان : « يا خوند والله ان النشو لضرك أكثر مما ينفعك » .

ويبدو ان السلطان أمعن الفكر ، وأحس أن النشو مكروه لدى الجميع ، ولم يكن اتخاذه القرار سهلا ، فكتب الى الامير تنكز نائب الشام يستشيره فى الامر ، ويخبره أن النشو أصبح مكروها من الجميع ، ولــكنه يخدم السلطان وينفعه ، وأجاب الامير تنكز مؤيدا ســوء سيرة النشو ، وختم خطابه قائلا : « ورأى السلطان فيه أعلى » .

وكثرت الاوراق التى كانت تلقى الى السلطان وتحوى ذما للنشو ، ومما قيل فى بعضها :

أيا ملـــكا أصبح فى نشـــوة
من نشـــوة الظـالم فى نشيه
أنشيته فلتنشئن ضغائنـــــا
سترى غباوتها بصحبة غيـــه
حكمته فحكمت أمرا فاســــدا
وتوحشت كل القـلوب لفحشه
سترى بوارقهـــا اذا ما أظلمت
وتحكمت أيدى الزمان ببطشـــه
ولتندمن ندامة كســـعيه
يوما اذا ذبح الخـروف بكبشه

وقرأ السلطان فى ورقة أخرى :

امعنت فى الظـــــلم واكثرته
وزدت يا نشـــو على العـــالم
ترى من الظـــالم فيكم لنـــــا
فلعنـــة الله على الظـــــــالم

وحدث ان مرض الامير يلبغا ، وكان السلطان يثق فيه ، فأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وخلال حديثهمـا قال يلبغا : « ياخوند : قد عظم احسانك لى ووجب على نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشـــو ، فالامراء جميعا يكرهونه ، ويكرهونك لحبك اياه ، وما من مملوك من مماليك الا يترقب غفلة منك ليقضى عليك انتقاما منك لانك تركت هذا الشخص يعبث بمصالح الناس » .

وبكى يلبغا ، وبكى النــاصر ، وقام من عنده مبلبل الخاطر ، ليصدر أمرا بالقبض على النشو .

يقول المقريزى :

« وطلب السلطان المقدم ابن صابر ، وأسر اليه أن يقف بجماعته على باب القلعة وباب القرافة ، ولا يدعو واحدا من حواشى النشــو وأقاربه واخوته أن ينزلوا ، وأن يقبضوا عليهم كلهم ، وأمر السلطان الامير بشتاك والامير برسبغا الحاجب أن يمضيا الى النشو ، ويقبضا عليه وعلى أقاربه فخرج بشتاك وجلس على باب الخزانة وطلب النشو من داخلها ، فظن النشو انه جاء لميعاده مع السلطان حتى يحتاطا على موجود أقبغا عبد الواحد، فساعة ما وقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه الى بيته من القلعة ، وبعث الى الامير ملكتمر الحجازى فأخذ أخاه رزق الله وأخذ أخاه المخلص وسائر أقاربه ، فطار الخبر الى القاهرة ومصر ، فخرج الناس كأنهم جراد منتشر » .

خرج الناس كالجراد المنتشر !!

لحظة مدببة فى مسار الزمن ، عندما ينتهى الكابوس العام ، فيسرى الاثر الى كل انسان ، البعيد ، الدانى ، الكبير ، الصغير ، لحظة الخلاص ، عندما يندفع الانسان الى خارج بيته ، يظن انه بمفرده ، واذا بالجميع فى الشارع ، هكذا خرج النــاس كالجراد المنتشر عنـدما سمعوا بخبر القبض على النشو وزمرته ، وفى القلعة جلس الســلطان ولا زال فى نفسه شك ، انه يقــول للأمراء :

« وكم تقولون النشو نهب أموال الناس ! الساعة ننظر المال الذى عنده » .

فى القاهرة يعم الفرح ، اغلقت الاسواق ، واتجه الجميع الى ميدان الرميلة تحت القلعة ، كما يتجهون الى ميدان التحرير فى العصر الحديث ، أو ميدان العتبة ، أو الى منشية البكرى (ليلة التاسع من يونيو ١٩٦٧ ، وليلة وفاة عبد الناصر) ، جاء الليل والناس لم تنصرف بل أوقدوا الشموع ، يرفعون على رءوسهم المصاحف ، وينشرون الاعلام ، وهم يضجون ويصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشو ، والامراء يشيرون اليهم ان يكثروا مما هم فيه ، وقضوا الليل كله على ذلك ، وفيه زاد النيل بعد توقفه ، فقال علاء الدين الشاعر :

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر
نادى البشير الى أن اسمع الفلكا
يا أهل مصر نجا موسى ونيلكم
طغا وفرعون وهو النشو قد هلكا

صباح الثلاثاء ، نودى فى القاهرة :

« بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » .

صباح الثلاثاء أيضا انتحر شقيق النشو ، واخرجوه فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر الاقباط خوفا عليه من العامة ، وتمت الحوطة على أموال النشو ، النشو الذى كان يتظاهر بالفقر والحاجة ، والذى كان السلطان يظن حتى آخر لحظة انه لا يمتلك شيئا ، فماذا وجدوا عند النشو ؟ ، فى بستان بجزيرة الفيل وجدوا أمه وامرأته وأخته وولديه ، ومعهم ستون جارية ، ومائتا جنيه

(كيس من جلد البعير) وعصير عنب ثم حمل الامراء ثروة النشو الى السلطان ووضعوها بين يديه : وضعوا خمسة عشر ألف دينار ذهب ، وألفين وخمسمائة حبة لؤلؤ قيمة كل حبة ما بين ألفي درهم الى ألف درهم ؛ وسبعين فصا بلخش قيمة كل فص ما بين خمسة آلاف درهم الى ألفين ، وقطعتين زمرد فاخر رطل ونيف وستين حبلا من لؤلؤ كبار زنة ذلك أربعمائة مثقال ، ومائة وسبعين خاتم ذهب وفضة بفصوص مثمنة ، وكف مريم مرصع بجوهر ، وصليب ذهب مرصع ، وعدة قطع زركش سوى حواصل لم تفتح ، فخجل السلطان لما رأى ذلك ، واستمر الامراء ينزلون كل يوم لاخراج حواصل النشو ، فوجد له من الاواني الصيني والبلور والتحف السنية الشيء الكثير ، ثم وجدت عنده مائتى برميل مملوئين بالملوحة « سمك مملح » وثمانين بالجبن ، وأحمالا كثيرة من بضائع الشام ولحما كثيرا من لحم الخنزير ، وأربعة آلاف جرة خمر ، سوى ما نهب ، ووجد له أربعمائة بدلة قماش جدد ، وثمانون بدلة مستعملة ، وزراكش ومفرجات (عباءات) ، وستون قفطانا نسائيا ؛ ومناديل زركش عدة كثيرة ، ووجد له عدة صناديق بها قماش سكندرى كان قد صنع لحساب ملكة المغرب ولكنه اختلسه وكثير من قماش الامراء الذين ماتوا أو قبض عليهم ، ووجد له مملوك تركى كان النشو قد خصاه هو واثنين معه ماتا ، ثم وجدوا لاخوة النشو ذخائر نفيسة ، منها لصهره ولي الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش ، وستة وثلاثون مرملة (ظرف كان يوضع فيه

الرمل الذى يستخدمه الكتاب لتجفيف الكتابة) مكللة بالجواهر الرائعة واحدى عشر عنبرية مكللة باللؤلؤ كبار، وعشرون طراز زركش ، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم وزمرد ، وكوافى زركش ، وقدر الجميع بأربعة وعشرون ألف دينار .

وفى نهاية هذه السنة ٧٤٠ هجرية ، مات النشو ، واندثر أمره مات النشو عام ٧٤٠ هجرية بالتحديد يوم الاربعاء ثاني ربيع الآخر .

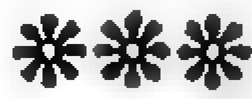
لكن بعد انقضاء سبعة قرون على اختفائه ، هل يمكن القول انه اختفى من حياتنا ؟ ..

السلطان الطفل

« .. فلما كان يوم الاحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة احدى وتسعمائة ، توفى الملك الاشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، دفن فى اليوم التالى ، رحل بعد أن حكم مصر والديار الشامية تسع وعشرين سنة وأربعة اشهر وواحد وعشرين يوما ، كان سلطانا عظيما ، شهما ، وقورا ، وافر العقل ، سديد الرأى ، يتروى فى الامور قبل وقوعها ، شجاعا ، فارسا قديرا ، وكان عصره من العصور الزاهية .

بعد وفاته صار السؤال المطروح من بعده يلى الحكم ؟ كان هناك عدد من المماليك يتربص بكرسى السلطنة ، مثل الامير قنصوه خمسمائة ، وكرتباى الاحمر ، ولما كان انقضاض أحدهم على السـلطة سيفجر الصراعات والحروب ، فقد جرت العادة فى مثل هذه الاحوال على تولية أحد أبناء السلطان حتى لو كان طفلا رضيعا . وبمضى الايام تتم الغلبة لمن هو أقوى . هكذا وقع الاتفاق على سلطنة ابن السلطان . بايعه الامراء من غير موافقة والده الذى كان يلفظ انفاسه الاخيرة ، وتلقب بالناصر ،

كان عمره أربعة عشر عاما وأشهر ، يقول ابن اياس : « ولو كان قايتباى واعيا لما مكن الامراء بأن يسلطنوا ولده ، ولا كان ذلك قصده » . ويبدو ان الاب كان يعرف ابنه جيدا ، المهم أحضرت شعائر الملك ، وهى الجبة السوداء ، وقد فصلت على قده ، ولفت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج المذهب والكنبوش ، وتقدم الامير قنصوه ، وحمل القبة والطير على رأسه ، ومشى السلطان حتى جلس على سرير الملك ، وهكذا تولى أمر مصر والديار الشامية ، حدث عمره أربعة عشر عاما ، دون البلوغ ..



.. تأسف الناس على موت قايتباى ، وخرجوا الى جنازته ، حتى ان ابن اياس يقول « وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك » ، ولم يستبشر الناس خيرا بالسلطان الجديد ، ويبدو ان ظاهرة الحاكم القوى الذى يعقبه سلسلة من الحكام الضعاف تتكرر فى التاريخ المصرى ، نجدها فى العصر الفرعونى ، رمسيس الثانى مثلا يموت ، ويخلفه اثنى عشرة من الرعامسة ، لا يتوقف عندهم أحد ، خوفو الذى شيد الهرم الاكبر ، ثم خفرع الاقل حجما حتى فى هرمه ، ثم منقرع ، ثم ملوك آخرين غير معروفين ، وفى تاريخنا الحديث بدأت الاسرة العلوية بمحمد على باشا الكبير ، وانتهت فى القرن التاسع عشر بالخديوى توفيق الخائن ، والجبان ، الذى نكب مصر بالاحتلال الانجليزى .

هكذا جاء الناصر ابن الرابعة عشر مخلفا لابيه قايتباى

العظيم ، كان جميل الهيئة ، مليح الشكل ، ولكنه هذا النوع من الجمال الذى يخفى فى طياته القبح الداخلى. والشر ، والقسوة الزائدة ، لم يشعر بحــزن كبير على والده ، انما راح يمعن النظر فرحا فى الســلطة التى أصبحت فجأة بين يديه ، الامراء الكبار يقبلون له الارض بين يديه ، الخليفة يمشى منكس الرأس ، الكل يسعى اليه ويطلب وده ، لا شىء يحول دون تحقيق رغباته ، فى نفس الوقت عظم أمر الاتابكى قنصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ، ولا صلاة الجمعة ، وفى بداية عام اثنتين وتسعمائة شعر السلطان ان الكل يتربص به ، فأحضر المصحف العثمانى، وحلف عليه سائر الامراء والعساكر ، ولم يطلع قنصوه خمسمائة ولم يحلف فى بداية الامر على الولاء للسلطان، ولكنه طلع بعد أيام وحلف ايمانا غير صادقة ، ويبدو ان السلطان الغلام شعر ببعض الاطمئنان بعد القسم ، لم يكن شىء يحول دون تحقيق شـــــهواته ، بدأ طيشانه يظهر ، فى أحد الايام قبض على امرأة ، وضربها بين يديه بالمقارع ، وأمر باشهارها على حمار وفى عنقها زنجير حديد ، وهذا شىء لم يحدث قط من قبل ، ان تضرب امرأة بين يدى سلطان ، بل انه ضربها بنفسه ، وبدا متلذذا بالضرب ، مستمتعا به ، ثم بدأ فى النزول من القلعة ومصــــاحبة الاوباش ، واللعب معهم ، وتدخين الحشيش ، واتيان الرذائل ، واضطر الامراء الى احاطته بأربعة من الحاشية لمنعه من النزول واللعب مع أولاد العوام ، وصار الامير تانى بك الجمالى يبات عنده كل

ليلة فى القلعة ليمنعه من ذلك ، ولكن رغبات السلطان كانت أقوى ، وشهواته أعنف ، وطيشه أعظم ، ولم يكن يهتم بمظاهر السلطنة ، فى ربيع الاول (٩٠٢ هـ) أقام السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وكان أول احتفال عام يقيمه ، ويحضره ، جلس بين الامراء ، وفجأة اعتراه النعاس ، واضطر الامراء الى رش الماء على وجهه حتى يفيق ، فى هذه الفترة بدأت الاطمـــــاع تتحرك ، فى جمادى الاول تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وفى مثل هذه الحال تغلق الاسواق ، تقفر الطرقات ، ويقبع الناس خلف جدران بيوتهم ينتظرون نتيجة الصراع ، وللمرة الثانية يحضر السلطان المصحف العثمانى ويحلف الامراء والجند عليه ، ولم تمض عدة أيام حتى تحرك الامير قنصوه ، ركب بعساكره ، وملك باب السلسلة ، ثم جلس وأرسل يستدعى أمير المؤمنين الخليفة المتوكل ، والقضاة الاربعة ، وسائر الجند ، فلما تكامل المجلس تشاوروا فى خلع السلطان الناصر وسلطنة قنصوه ، وبالفعل ، قرروا خلع السلطان ، تشاوروا فى ذلك ، وكتبوا محضرا ، وشهد فيه الكثيرون ، وبويع الامير قنصوه بالسلطنة ، وتلقب بالاشرف أبى النصر ، وقبل له الامراء الارض والعسكر قاطبـة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الاصوات بالدعاء ، ولم يتبق له الا أن يركب فرس النوبة ، ويلبس الجبة السوداء ، والعمامة السلطانية ، وتحمل على رأسه القبة والطير ، والاهم من ذلك كله صعوده الى قلعة الجبل ، وجلوسه على سرير الملك ، والاســـــتيلاء على القلعة فى العصر

المملوكى كان هو الفيصل فى الصراع ، كان سقوطها يعنى استلام السلطة بشـــكل كامل ، ويعكس ذلك مركزية السلطة الشـــــديدة فى مصر ، ولكن وقعت عجائب ، وغرائب ، كما يقال :

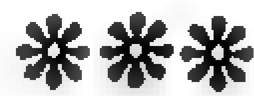
ستقضى لنا الايام غير التى غدت
ويحدث من بعـــد الامور أمور

***

كل الامور مهيأة .

ارسل السلطان الجديد بعض الامراء الى القلعة للقبض على الملك الناصر ، ولكن جماعة من مماليك أبيه تعصبوا له ، وتصدوا للأمراء ، وكان على رأسهم خال السلطان الناصر ، ودار القتال فى القلعة ، واستمر حتى يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة ، فى هذا اليوم أصاب قنصوه سهم سقط مغشيا عليه ، فحمله الغـلمان على اكتافهم ، وبقى لباسه بدكته ظاهرا للناس ، ورأسه مكشوفة ، وهكذا فقد السلطان الجديد هيبته ،واختفى فى القاهرة ، فلما انكسر نزل مماليك السلطان الغلام ، ونهبوا الامراء والخليفـــة ، وخطفوا عمائم القضـــاة ونوابهم وفى اليوم التالى طلع الخليفة والقضــــاة الى القلعة ، لتهنئة السلطان الغلام بانتصاره ، وبايع الخليفة السلطان الغلام مرة ثانية بعد أن كان قد خلع منهـا ، أنعم السلطان على خاله الذى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه، وبعد عدة أيام ظهر الامير قنصوه مرة أخرى ، ولكن لم يتحمس الجند للوقوف معه ، فاضطر للهرب مرة أخرى،

خارج القاهرة ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل ، غير ان تمرد قنصوه جعل السلطان الغلام مهددا باستمرار ، حتى ان بعض المماليك اقترحوا تغيير لقب السلطان ، ولقبـــوه بالملك الأشرف على لقب أبيه ، واحتج بعض الامراء ، كيف يكون ذلك وقد خرجت المناشير الى كل البلاد باللقب الاول ، ولكن المماليك صمموا ، وعند ذلك نودى فى القاهرة ان الســـلطان تغير لقبه ، الى الملك الاشرف ، فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطبـــاء فريقين بعضهم يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الملك الاشرف ، وقع الاضطراب فى كل شىء ، وهجم المنسر على سوق باب اللوق وسوق تحت الربع ، وقطع العربان الطرق فى الريف ، وبرغم اضطراب الاحوال ، فان السلطان الغلام لم يتعظ ولم يثب الى رشده ، بعد انتهاء الفتنة اندفع فى سلوكياته أكثر قوة ، واشد .



اختار السلطان الغلام عددا من اللصوص ، والاوباش ، فصاحبهم ، ولازمهم وصنعوا له مركبا صغيرة ، جعـل فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلى ، وكان ينزل بنفسه فى المركب ، ويبيع كما يبيع البـــاعة فى بركة الرطلى زمن فيضـان النيل ، وكان يقلد أصـوات البـاعة ، ويبدو مسرورا بتمثيله دور البائع ، ثم يظهر لمن يلعب معهم فجاة القسوة ، يذكرهم بأنه السلطان ، واذ يرى رعبهم منه يضحك ، يضحك مسرورا ، وفجاة أمر بالقبض على سبعة من أهل الفساد الذين كانوا يلعبون معه ، أدخلهم

الى الحوش فى وسط القلعة ، أمر بقيدهم ، ثم استدعى المشاعلى (المكلف باعدام الناس) ، وطلب منه أن يعلمه كيف يوسطهم ، فراح المشاعلى يعلمه ذلك أمام رفاقه فى اللعب ، وهو يختلس النظر بين الحين والحين الى وجوههم مستمتعا برعبهم ، ثم تقـــدم منهم ، أمسك بالسيف ، وبدأ بأن قطع أيديهم ، ثم قطع آذانهم ، ثم قطع السنتهم بيده ، وكلما علت صرخاتهم ، كلما ازداد قسوة ، وازداد متعة ، وبعد أن وسطهم جميعا ، دخل الى قاعة الملك ليدير أمور الدولة ، لقــــد رأى الذعر الانسانى ، واشبع عينيه فرأى الدماء ، انه يريد ان يرى ذعر الحيوانات ، أمر باحضار عدد منها وقطعها بيده ، ثم أمر باحضار عـدد من الحيـات السـامة ، فقطعت بحضوره ، وبعد انتهاء تقطيعها أهدى من قاموا بهذه العملية الخلع والهدايا .

العيـــــد

الامور تضطرب ، يجيء الصيف ويشتد الحر ، يعز وجود السقايين ، يتكالب الناس على الجمال التى تنقل المياه من النيل حتى انهم تخانقوا بالعصى ، يتزايد اذى المماليك ، ينزلون الى الاســـواق ويعترضون المارة ، يخطفون العمائم ، وخطف العمائم من الامور الشائعة ، فى هذا الزمان لأن الناس اعتادوا وضع نقودهم فى لفات القماش التى تحيط بالعمـــامة ، الا من مفتقر تماما ، والسلطان كلما تقدم به السن لا يعقل ولا تدركه حكمة ،

فى يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٢ هـ، يأمر السلطان بأن تدق الكوسات فى القلعة ، يقول لمن حوله « أنا أعمل العيد فى الغد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم يروا » ، فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وراح يشرح له ان العيد لا يكون شرعا الا اذا رؤى الهلال ، وشق الامرعلىالسلطان، غضب ، كيف لا ينفذ ما ارتآه ، كيف لا تتحقق رغباته حتى وان بدت مخالفة للشرع ، للدين ، أليست خيوط السلطة كلها فى يده ، هم بعزل القاضى فى ذلك اليوم ، فى اليوم التالى كان الخميس ولم يظهر الهلال ، فجاء العيد يوم الجمعة ، وكان السلطان يخشى فى أعماقه مجيء العيد يوم الجمعة ، بسبب اعتقاد ساد فى مصر خلال العصور الوسطى ، وحتى الآن بين الطبقات الشعبية ، وهو انه اذا جاء العيد يوم الجمعة ، وأقيمت الصلاة فيه مرتين كان ذلك ايذانا بزوال الحاكم عن قريب ، جاء العيد يوم جمعة ، ولم يخرج السلطان الى الصلاة ، ولم يطلع الاتابكى تمراز الى القلعة ، ولا بقية الامراء المقدمين ، ولم يكن السلطان فى موقعه ، انما كان فى قاعة البحرة يقضى العيد مع الاوباش واللصوص .

يقول ابن اياس :

« وكان الناصر فى تلك الايام فى غاية الطيشان .. »

وينتهى عام ٩٠٢ هـ ، ويعلق ابن اياس :

« وقد خرجت هذه السنة على ما شرح فيها من الفتن والافكار ، والفساد ، وخراب البلاد ، ووقع فيها

الفلاء وتشحطت الفلال ، وقتل فيها من الامراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقـــدمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل هذه السنة الى أواخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع ، وقتل من الجند والعرب نحو من ألف انسان فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .. » .

سـلطان فى الرابعة عشر ، مراهق ، شاذ ، ما من شىء يحول دون رغباته الحسية ، ينزل بين الحين والحين الى تربة أبيه مع أصحابه اللصوص ، وفى الليل يأتى بما لم يسمع بمثله ، يقول ابن اياس :

« وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوىء لا ينبغى شرحها » .

وفى هذه الايام يجىء الطاعون ، ومات من الاطفـال والمماليك والعبيد والجوارى عدد كبير ، واستمر المماليك فى أذاهم للسـلطان استخفوا به ، وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الاسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والامراء ، حتى قيل ان بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصـادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها فرس ذلك المملوك ، فسقط الى الارض ، فخـرج خلفه وهاش على الحمالين الذين يحملون الميت ، فهربوا بعد أن ألقوا الميت على الارض ، فلما هربوا راح يضرب الميت حتى شفى غليله !

كل تفاصيل الحياة تصبح قبيحة ، اذا كان الحاكم قبيحا ، عرفنا ذلك جيدا فى مصر ، طوال تاريخهـا البعيد ، والقريب ، أما السلطان الفلام فلاه ، لا يعبأ ، غارق فى طيشه ، ينزل الى بولاق فى مولد سـيدى

اسماعيل الامبابى ، رحمة الله عليه ، يعبر النيل فى قارب ، ومعـــه بعض أولاد عمـــه ، اوقد حراقة نفط هائلة « صواريخ » وبات هذه الليلة فى المركب ، ثم تكرر منه ذلك فى عدة ليالى اخرى ، ثم صار يركب بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وأمامه فانوسين وأربعة مشاعل ، وعدد من العبيد السود ، واذ يرى أى انسان فى الطريق يناديه ، ثم يسأله بصوت هادىء ، ويتحاور معه ، وفجأة يأمر بامساكه ، ثم ينزل من فـوق جواده ويقطع اذنيه وأنفه بيده ، أو يقتله ، وهكذا قتل من النـاس عـــدد لا يحصى فى مدة بسيطة ، وكان اذا مر بدكان ولم ير عليه قنديلا يسمر الدكان ، وهو واقف بنفسه عليها حتى تسمر ، كان السلطان أثناء مشيه فى الاسواق ينظر الى البيوت ، فاذا لمح امرأة جميلة هجـــم عليـــه اقتحمه واغتصب المرأة أمام زوجها،وأخيها ، فى احدى الليالى دخل حارة الروم ، هجم على دار ابراهيم مســـــتوفى ديوان الخواص ليلا وقبض على ولده أبى البقا واراد قتله ، فالقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار ، كان السلطان الطفل ـ الذى أصبح مراهقا بشعا ـ قد بلغه ان زوجة أبى البقا جميلة ، فهجم عليه بسببها ، فأخفوها منه ، فجرى منه ذلك ، مرة أخرى سمع عن امرأة جميلة ، فاقتحم طاقة بيتها ، واغتصبها ، وضرب زوجهـــــا بالمقارع وسط بيته ، وقطع دائرة فرجها بيده ، ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء ، فى يوم آخر أمسك بجارية جميلة ، اغلق عليها الباب ، ربطها ، وفى قسوة بشعة راح يسلخ جلدها ، راحت أمه تتشفع لها ، ولكنه

لم يستجب لطرقاتها فوق الباب ، واستمر حتى سلخ الجارية تماما ، وحشا جلدها ثيابا ، وخرج يظهــــر لمن بالباب قدرته على السلخ ، راح يصيح :

« ان الجلادين لا يستطيعون ان يفعلوا مثلما فعلت » .

ونتوقف عن سرد فظاعاته مع النسـاء .

ويمضي عام آخر من سنوات العذاب التي عرفتها مصر ، ولندع شيخنا ابن اياس يعلق :

« وقد خرجت هذه السنة على النـاس وهم فى أمر مريب ، وقد وقع بها الغلاء والفناء ، والمصادرات للناس ، وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، وأذى المماليك فى حق الرعية ، وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب وما كفى هذا كله ، حتى فشى فى الناس داء يقال له الحب الفرنجى (الزهرى) أعاذنا الله منه ، وقد أعيى الاطباء أمره ولم يظهر هذا بمصر قط سوى فى أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى ، انتهى ذلك .

ولكن أيام السلطان المجنون لم تنته بعد ...

فى غمار الاستمتاع بالسلطة وسكرتها ، تبدو الاوضاع مستقرة هادئة ، ويخيل للحاكم انه سيقضى بقية عمره يحكم ويفسق ، ولن يردعه رادع ، وفى مصر كانت تمر فترات يبدو فيها الواقع آسنا ، كريها ، وما من حركة ايجابية تواجه البغى ، وفجأة يتفجر الواقع عن مفاجأة لا تخطر على بال ، ربما يتحرك شخص واحد ، يفتدى أمته بنفسه ، فيجهز على الطاغية ، وهكذا يتبدل الواقع الى الافضل ، وقد يهب الشعب كله الذى ظن القريب والبعيد انه مات ، وانه لن يتحرك .

جاءت سنة ٩٠٤ هـ ، والاحوال سيئة للغاية ، والمماليك طالبين الشر مع السلطان ، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول ، نزل السلطان من القلعة وتوجه الى بر الجيزة ، لم يصحبه أحد من الامراء ، حتى ولا خاله ، نصب هناك خيمة وارسل احضر أبو الخير لاعب خيال الظل المشهور ، وجوق مغانى ، وأقام ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش ، وأثناء عودته مر على الطالبية، وكان الامير طومان باى الدوادار هناك ، خرج الامير وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن والمعلقة فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن ، فبينما هو يأكل والامير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك نحو من خمسين مملوكا ، وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به ، وعاجلوه بالحسام قبل الكلام .

وقتل أشر قتلة ، مثلوا به كما مثل بالمئات .

وهنا لنصغى الى شيخنا ابن اياس :

« .. وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور ، وحروب قائمة ، وما كان الاشرف قايتباى قصده أن يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك » .

ويسدل الستار على فترة حالكة من تاريخ مصر الطويل .

خاير بك

« .. فى ذلك اليوم البعيد المتوارى الآن فى أعماق التاريخ ، شرع السلطان الغورى يصيح محاولا لم شمل عساكره بعد أن دارت الدوائر وصارت الكفة راجحة الى جانب السلطان سليم العثمانى ، « يا أغوات ، هذا وقت الشدة ، هذا وقت المروءة ، قاتلوا وعلى رضاكم » .

ولكن لم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله شيئا بعد شيء ، وفوق الغبار الذى غطى سهل « مرج دابق » خيم شبح الخيانة الكئيب المقزز ، لقد عرف على الفور ان بعض أمراء المماليك كانوا على صلة بالسلطان سليم ، ومنهم خاير بك نائب حلب الذى كان يقود الميسرة لقد كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وظهرت خيانته مبكرة ، كان أول من هرب من القادة ، والحقيقة ان خيانته بدأت قبل موقعة مرج دابق بكثير ، كان على صلة بالعثمانيين ، يراسلهم بأحوال مصر ، ويكشف أسرارها ، ولا يحدد لنا ابن اياس التاريخ الذى بدأ فيه تجنيده للعمل الى جانب العثمانيين وهذا طبيعى فتاريخ الجواسيس والخونة يلفه الغموض دائما ، ولكن

يبدو ان « تجنيد » خاير بك للعمل الى جانب العثمانيين قد تم عندما تولى نيابة حلب ، وتلك منطقة تقع عند حدود السلطنة المملوكية وتحاذى السلطنة العثمانية ، ويبدو ان خاير بك لم يمر بمرحلة معاناة طويلة فى رحلة خيانته ، اذ اننا نلاحظ ما يمكن أن نسميه الشعور باللاانتماء الى الوطن عند كثير من المماليك الذين انتزعوا من أوطان بعيدة وجيء بهم الى مصر ، ويبدو هذا اللاانتماء واضحا فى سلوك السلطان الغورى عند نزوله من القلعة وخروجه على رأس الجيش المصرى لصد العثمانيين اذ اخذ كل ما يملكه من أموال وتحف وجواهر وسلاح نادر فوق عشرات البغال ، كان المال هو الوطن الحقيقى ، لا ننكر ان العديد من أمراء المماليك ارتبطوا بمصر ، واعتبروها وطنهم ، وبعضهم استشهد من أجلها ، وفيما بعد كان العثمانيون يطلقون عليهم « الامراء المصرية » ، لكن ظاهرة اللاانتماء كانت واضحة ايضا فى البعض ، وتتجسد فى هؤلاء الامراء الخونة الذين خامروا على سلطانهم ، وتسببوا فى ضياع السلطنة المصرية التى كانت تحمى البحرين والحرمين ، وتحويل مصر التى تباهى بملكها الملوك الى مجرد ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وكان خاير بك أشهر خونة ذلك الزمان .

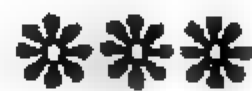
***

كان خاير بك جركسيا اباظى الجنس (١) . وكان ابوه اسمه ملباى الجركسى ، قدمه مع اخوته الاربعة الى السلطان قايتباى ، وهكذا اصبحوا من مماليكه ، اقام

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٤٨٣ – ٢٠٤ الجزء الخامس

خاير بك بالقلعة ثم أخرج له السلطان خيلا وقماشا وعمار من جملة المماليك الجمدارية ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة فى سنة احدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر بن الاشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبلخاناه فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى . وأرسله فى مهمة الى الخوندكار أبى يزيد بن عثمان السلطان العثمانى عام ثلاثة وتسعمائة « ومن المحتمل ان يكون قد بدأ صلاته السرية بالعثمانيين خلال هذه الزيارة » . استمر خاير بك فى الترقى حتى أصبح حاجب الحجاب فى بداية سلطنة الغورى ، ثم عين سنة عشر وتسعمائة نائبا ، وحتى هزيمة السلطان الغورى فى مرج دابق لا نسمع اخبارا عن خاير بك ، ولا تطالعنا مواقف بارزة له ، ولا نجد اسمه فى بدائع الزهور الا عند ذكر ارباب الوظائف بالدولة ، ولكن خاير بك يطفو على سطح التاريخ من قاع الخيانة ، لقد مرت حياته حتى مرج دابق بمرحلة ، وتبدأ المرحلة الثانية بانضمامه الى السلطان سليم حتى دخوله القاهرة . أما المرحلة الثالثة فتبدأ منذ تعيينه نائبا للسلطنة العثمانية بمصر وتنتهى بموته ..



انضم خاير بك اثر الهزيمة مباشرة الى السلطان سليم العثمانى ، يقول ابن اياس :

« وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن وهو خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان هو ، وهرب من ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه الى

حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة امرائه ، ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة وقصص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك ، كون انه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك ، فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هولاكو ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين الى هولاكو ، ثم أقلب عليه وقتله ، وصلبه ، وقال له ، انت ما كان فى وجهك خير لاستاذك يكون فى وجهك خير لى .. وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك » .

يتضح من سطور ابن اياس احتقاره لخاير بك ، والحقيقة ان الخائن كان يدخل مرحلة جديدة فى حياته، لقد رفض مماليكه ان يتبعوه ، ومضى هو الى صفوف السلطان العثمانى مع خونة آخرين امثال الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى ، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الانسان الذى باع نفسه والسلطان الذى اشتراه ، انه بيع من نوع خاص، فبيع البشر كان أمرا عاديا فى ذلك الزمان ، ولكن هذا البيع الارادى له اسم واحد على مر العصور كلها ، مهما اختلف الزمان ، انه الخيانة بعينها ، وهنا لا ينظر السلطان العثمانى باحترام الى الخائن ، انما يحتقره ويحذر جانبه ، ويسميه خاين بك ، وينتشر الاسم ليصبح

على السنة الناس كلهم في مصر ، وربما كانت حكايات الناس المتداولة نسبت ألى السلطان سليم تسميته لخاير بخاين بك ، ولكن لا شك أن تصرفات السلطان تجاه خاير بك تكشف مدى احتقاره له ، وهنا يجد الخائن نفسه مضطرا الى ابداء ولاء زائد تجاه السلطان الذى باع نفسه له ، بعد ان انضم خاير بك ألى العثمانيين يحدثنا « ابن زنبل الرمال » في كتابه « وقعة السلطان الفورى مع السلطان سليم » عن علاقة خاير بك بالسلطان العثمانى ، وكيف انه أشار عليه بذبح الكثير من المماليك الذين وقعوا في آلاسر ، ويقول ابن زنبل الرمال ..

« وكان السلطان سليم ليس له اقدام على قتل النفس » (١) .

ان الخائن يصبح مبالغا في العداء لقومه ، يود ابادتهم كلهم وكأنه يريد اطفاء آلعيون التى تتطلع اليه باحتقار ، ويلح الخائن على السلطان سليم في ضرورة التوجه الى مصر ، يقول ابن زنبل الرمال ..

« فقال له السلطان سليم ، واني لى بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنوا عليهم طومان باى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولابد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين في بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا ، فقال خاير بك : ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة وانقطعت قلوبهم ، لا سيما والخلف واقع بينهم ، فانهم جميعا

(١) ابن زنبل الرمال ص ٤٢

مختلفون ، وكل من الامراء والاعيان قصده هلاك الآخر ، فحيثما كان ذلك فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر الله لك » .

ويذكر ابن زنبل ان السلطان سليم وبخ خاير بك كثيرا كلما واجه موقفا صعبا ، بل انه فى بعض الاحيان هم بضرب عنقه ،خاصة بعد دخول القاهرة ، وهروب طومان باى وتجميعه للمصريين والعربان وتنظيمة المقاومة ضد الغزو العثمانى ، وعندما كان العثمانيون يمسكون بامراء المماليك الهاربين ، كان خاير بك يستحث السلطان سليم فى قطع رقاب الذين كانوا يوما زملاءه ومن بنى جنسه ، وعندما يؤسر كرتباى الوالى يناقشه السلطان سليم ويعجب به ويقرر الابقاء على حياته ، لكن خاير بك يقول له « يا مولاى ، ان ابقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد جميع عساكرك » ان اى نموذج ايجابى يصبح مصدر ازعاج شديد للخائن ويسعى بكل قوة للقضاء عليه ، ويتكرر نفس الموقف عند أسر طومان باى السلطان المملوكى الشجاع ، ان سليم العثمانى يعجب به ، ولكن خاير بك يحرضه بكل الوسائل على قتله ، حتى يتم شنقه على باب زويلة ، ان الخائن يبتذل كل ما تبقى من انسانيته شيئا فشيئا فى سبيل ارضاء سيده الجديد، وقبل أن يغادر السلطان سليم مصر يقرر تعيين خاير بك نائبا له بمصر ، ويلقب خاير بك بملك الامراء ، ولكن أى امراء ، فقد صعد الى القلعة التى كانت مقرا لحكم السلاطين .

فى يوم الاحد السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٣٣ هـ ، طلع الخائن الى القلعة ، وبعد يومين فقط ثار عليه جماعة من جنود الانكشارية العثمانيين .

« وقالوا له : رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة ، فقال لهم : حتى أرسل أطالع أستاذكم بذلك (١) .

ان الخائن يجد نفسه فى حاجة الى الرجوع فى كل كبيرة وصغيرة الى سيده ، كل يوم يمر عليه في السلطة يتزايد احتقار العثمانيين له ، فقد طالبوه مرة اخرى بأن يرتب لهم ارزاقا من اللحم كما كان السلطان يرتب للمماليك من قبل .

« واغلظوا عليه فى القول ، فقال لهم : أنا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ارسلوا قولوا لاستاذكم يفرق عليكم الاقطاعات ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق ، فلما سمعوا ذلك سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله » (٢) .

ان الخائن يواجه حقيقة نفسه فيقول لجنود سيده « أنا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ؟ » . ولكنه يحاول التشبه بالسلاطين فيعقد مجلسا لقراءة صحيح البخارى وفى نهايته يوزع الخلع والهدايا على العلماء ، ولكن الحفل هزيل ، أن ابن اياس يعلق على ذلك قائلا :

« وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل فى ختم السلاطين الماضية فى مثل هذا اليوم » (٣) .

---

(١) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٠ .
(٢) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٣ .
(٣) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٥ .

ومرة اخرى يقول ابن اياس معلقـــــا عندما خطف العثمانيون الاكل الذى كان محمولا الى الخائن عندما خرج للنزهة :

« ولم يكن لخاير بك عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له فى سائر الاحوال » (١) .

كان الخائن يحاول التشبه بأسياده القدامى ، سلاطين المماليك .

ولكن الخيانة تخفض قيمة اى فعـل ، بالاضافة إلى الظروف ، عندما يحتفل بالمولد النبوى فى الحادى عشر من ربيع الاول سنة ٩٣٤ هـ . ويقول ابن اياس :

« فصنع له ملك الامراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس ، فقيل حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لـــكل جوقة من هؤلاء باشرفين فضجوا من ذلك ، وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى مولد السلاطين لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الامراء أشرفين . فرسم لكل جوقة بأربعة أشرفية لا غير ، وقيل ان ملك الامراء أخلع على الوعاظ فى ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعـد ذلك واعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية على لمح البصر وبات غالب الننتهاء ، بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجلى ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الاسمطة الحافلة والشقق الحرير التى كانت تدخل على جوق القراء ، والوعاظ ، ولا سيما

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢١٦

ما كان يعمل فى موالد السلطان الغورى ، فكان يصرف على سماط المولد فوق الالف دينار . وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم بقى يسمح الزمان بمثلها ابدا ، القضاة الاربعة ومن الامراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم الف ، غير بقية الامراء والعسكر .

باستمرار يحاول خلق الهيبة لنفسه ، ويتشبه بسلوك السلاطين ، فينزل من القلعة فى مواكب يحاول أن يضفى عليها الابهة ، ولكنها كانت تفتقر الى ذلك ماديا ومعنويا، فالفخامة ولت ، وفى وصف ابن اياس لمواكب الخائن ونزوله نلمح فتورا ، بل واحتقارا ، ولا يذكر ابن اياس ان الناس قابلت الخائن بالترحيب او التهليل كما كان يحدث أيام السلاطين المماليك ، لقد كان الشعب المصرى يحتقر الخائن احتقارا كبيرا ، فلا يذكر أسمه الا بخاين بك .

كان احتقار الشعب له نتيجة عدة عوامل ، أولهما الخيانة الفادحة التى راحت ضحيتها مصر ، أما العامل الثانى فعجزه عن رد حقوق الناس اليهم ، لا تقرأ انه رد بضاعة مسروقة الى صاحبها ، أو أنصف مظلوما ، بل ان الخائن كان يمارس الظلم بوضاعة ، لقد أحتكر التجارة فى خيار الشنبر ، وحدث ان ذخل أحد الفلاحين الى حقل وقطع بعض العيدان من خيار الشنبر ووضعهم فى قفة ، فقبض عليه الخولى وأتى به الى الوالى ، فعرضه الوالى على الخائن خاين بك ، وهنا يأمر بشنق الرجل .

« وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار الشنبر

ما يسووا اربعة أنصاف ، فتأسف عليه الناس كيف راح ظلما على شيء ما يستحق هذا كله وكان له أولاد وأم وزوجة ، وكان ملك الامراء خاير بك يبات يسكر بطول الليل ويصبح في خبال السكر يحكم بما يقتضيه عقله . ولم يظهر العدل في محاكماته قط منذ ولي عهد مصر » (١) .

ثم يطالعنا ابن اياس بحادثة أخرى :

« وفي يوم السبت سادس عشر رسم ملك الامراء بشنق شخص عجمي فشنق على باب زويلة ، وكان هذا التاجر في سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له جرم ، فطمع ملك الامراء في ماله ، وزعم انه جاسوس من عند شاه اسماعيل الصوفي حضر ليكشف عن أخبار مصر واحوالها ويطالع الصوفي بذلك فشنقه ظلما واحتاط على جميع امواله » (٢) .

من ناحية أخرى كان الخائن يبالغ في اظهار مشاعره وردود فعله تجاه ما يلحق العثمانيين من أذى .

« ومن الحوادث في يوم وفاء النيل ان شخصا من العثمانية غرق في البحر ، وتنكد ملك الامراء في ذلك » (٣) .

وفي خان الخليلي كان أحد العثمانية يسير عندما قبض على أحد العوام وزعم انه سرق من جيبه مبلغا تافها لا يتجاوز القرشين ، فلما قبض عليه :

« طلع به الى ملك الامراء ، فلما أوقفه بين يديه وقص

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢٥٤
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢٦٢
(٣) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢٦٩

عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى ، وانه قبض على يده وهى فى جيبه واخذ من جيبه وهو ماش أربعة انصاف ، فلما سمع ملك الامراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة انصاف وقد راح ظلما ، وقد تقدم لملك الامراء انه شنق شخصا على عيدان خيار شنبر سرقها من جنينة فى زقاق الكحل ، فشنقه ظلما وراح ظلما على عيدان خيار شنبر وكان ملك الامراء يصبح زهو مخمور فيحكم بين الناس بالعسف والظلم ما لا يسوغ الشرع فى محاكماته وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى افعاله كلها » (١) .

كما ان كثيرا من افعال الخائن كانت تافهة تلقى استهزاء المصريين وسخريتهم ..

« وفى ذلك اليوم المذكور ، احضر ملك الامراء خاير بك فى الحوش كباشا يتناطحون قدامه ، وكان قبل ذلك نادى خاير بك فى القاهرة : كل من كان عنده كبش نطاح يطلع به الى القلعة يناطح بين يدى ملك الامراء فاستخف الناس عقل خاير بك على ذلك .. » (٢) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٩٢٥ هـ .

« أشيع ان ملك الامراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ضربا مبرحا حتى كادت أن

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢٧٤
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٢٢٧

تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القيل والقال » (١) .

وفى ذى القعدة سنة ٩٢٦ هـ يورد ابن اياس حادثة طريفة تعكس ما وصل آليه الحال ..

« وفيه اشيع ان صبيانا صـــغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء وآخر والى القاهرة ، ونادرا ان أحدا لا يخرج من بعد العشاء، فقام أحد الصغار وخطف عمامة آخر يعبث عليه فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الامراء فرسم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه فدقوا له عصا فى الارض ، واقعدوه عليه غصبا ومنهم من قال ان الصبى مات من وقته ومنهم من يقول انه لم يمت ، فلما جرى ذلك تهاربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل فى هذه الايام حتى عند الصغار .. » (٢) .

ولكن النهاية لم تكن سهلة ، وتلك ظاهرة نلاحظها فى اشهر خونة ذلك الزمان ، فجان بردى الغزالى الامير المملوكى الذى خان طومان باى واعطاه السلطان العثمانى نيابة الشام ، نجده يتمرد بعـــد فترة قليلة من توليه منصبه الجديد ، ويدفعه طمعه الى الاستقلال بالشـــام وتقطع راسه فى نهاية حركته ، اما خاير بك فقد كان مخلصا فى خيانته فلم يفكر فى الاستقلال بمصر أبدا ، بل انه قطع راس احد المواطنين كان قد جرؤ وردد اشاعة تقول بنية الخائن فى الاستقلال بمصر ، اما الخائن الثالث

---

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٣٠٢
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٣٥٩

شيخ العرب حسن ابن مرعى فقد قطعت رأسه أيضا في عهد الخائن ، وقيل ان المماليك الجراكسة شربوا من دمه وقطعوا لحمه جزلا بالسيوف ، وكان ابن مرعى قد خان طومانباى وسلمه الى العثمانيين بعد ان اختبأ عنده .

لقد بدأ مرض الخائن فى ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ ، ولزم الفراش على الفور ، تزايد به المرض ، انقطع عن المحاكمات ، قيل انه وقع فريسة لثلاثة أمراض جاءته مجتمعة وكما يصفها ابن اياس . « منها فرخة محمرة طلعت له في مشعره ، وانحدار انصب له فى أعضائه ، وهو من أنواع الفالج وكتم البول ، وحار الاطباء فى علاجه » .

وعندما تزايد المرض ، يلجأ الخائن الى ما يظن انه سيهدىء نفسه : فنجده يتصدق على جميع أطفال الكتاتيب بالقاهرة ، لكل صغير منهم بنصف فضة ،كانوا يقولون لهم ، اقرأوا الفاتحة وادعوا لملك الامراء بالعافية، حتى فى تلمسه أسباب الراحة النفسية يلجأ الى المال ليشترى به الدعاء ، لا عجب ، فان لكل شىء ثمنا عند الخائن .

فى يوم الخميس الحادى عشر من الشهر أشيع بين الناس انه عجز عن القيام ، شل تماما ، فلما تزايد به الامر ، اعتق جميع جواريه ومماليكه ، وأفرج عمن كان سجنهم ظلما ، انه يدفع ثمنا أغلى ليشترى الراحة .

« ثم انه دفع للقاضى بركات بن موسى ألف دينار فضة، ورسم باخراج عشرة آلاف أردب قمح من الشونة ،

ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك على المجاورين بالأزهر، والمزارات والزوايا التى بالقرافتين قاطبة .

ويعلق ابن اياس على ذلك قائلا :

« ولم يروا الناس فى أيام ملك الامراء خاير بك أحسن من هذه الايام ، فانه جاد على النـــاس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك كله شيء ، ويأبى الله الا ما أراد .. » .

وعندما قوى عليــه النزع ، راح يهذى قــائلا : اين المال ؟ اين المال ؟ اين الملك ؟ . وصار يصعق حتى خاف منه من كان حوله .

« وقد فتنته الدنيا كما فتنت من قبله ، فكان كما يقال فى المعنى ..

« قد نادت الدنيـــا على نفسها
لو كان فى العــالم من يسمع
كم واثق بالعمر خيبتــــــه
وجامع بددت ما يجمــــــع »

فى يوم الاحد الرابع عشر من ذى القعدة قبضت روح الخائن ، ويعــدد ابن اياس مساوئه التى لا تحصى ، ويقول انه كان جبارا ، عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته على مصر ما لا يحصى من الخلايق ،واخترع طريقة جديدة فى القتل عن طريق ادخال الخازوق فى الاضلاع وكان يسميها « شك الباذنجان » ، وأتلف نقود الديار المصرية ، وعزل القضاء الاربعة ، وزادت كراهيته لرجال العلم والفقهاء ، أما أعظم مساوئه ، فانه كان سببا فى خراب مصر ، لقــد حسن لسليم شاه أخذ مصر ،

وضمن له أخـــذها ، وعرفه كيف يصنع . كان كثير الحيل . والخداع والمكر . لا يعرف له حال .

دفن الخائن فى تربته التى بناها قرب باب الوزير على طريق القلعة ، يقول ابن زنبل الرمال :

« يمر عليهـــا الباشات والصناجق والاغوات عند ذهابهم وايابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه كان سببا فى هلاك الوف مؤلفـــة من الجراكسة والاروام والعرب وغيرهم .. » .

وبين الناس وعامة شعب مصر كانت الاقاويل تتردد عن الخائن حتى بعد موته ، يقول ابن زنبل الرمال :

« وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصيح حتى ضجت الناس من ذلك » .

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا حال الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئا لمن أعرض عنها وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله فيالها من دنيا .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٩٥ ـ ١٩٨٣

الترقيم الدولى : ٥ ـ ٠٤٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

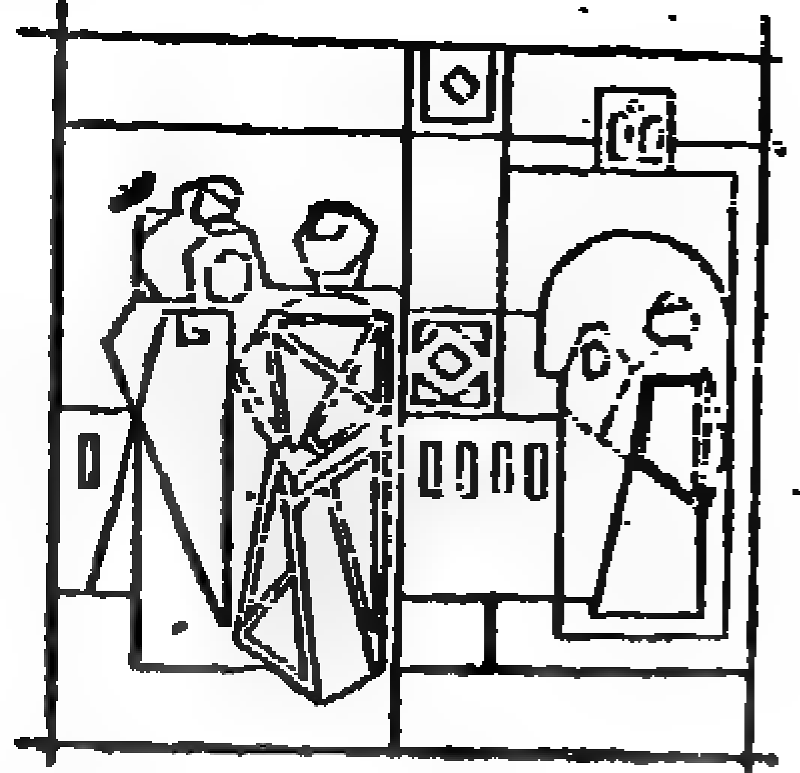
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : R. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠ مليما :

سوريا ٧٠٠ ق . س ، لبنان ٧٠٠ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ١٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، السودان ٧٠٠ مليم ، تونس ١٠٠٠ مليم ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، أسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، الصومال ٥٠ بنى ، أديس أبابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٣٫٥ فرنكات ، أثينا ٨٠ دراخمه ، فينا ٣٥ شلن ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٢٥٠ كروزيرو ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠سنت ، هولندا ٤ فلورين ، نيويورك ٢٥٠ سنتا .



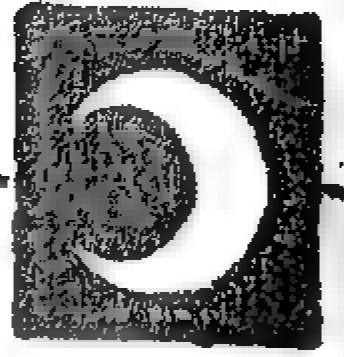
هذا الكتاب

كتاب فريد فى مضمونه ، رحلة فى تاريخ القاهرة ، فى زمنها ومكانها ، رحلة تستعيد التاريخ ولا تعيده ، من خلالها تتجسد رؤية فنية تقف عند ناصيتى الواقع والفن ، تتناول الآثار المدينة ، وشخصياتها وعادات شعبها القاهرى ، وليالى زمنها المملوكى • مقاهيها القديمة التى اندثرت والتى لا تزال تصارع الفناء ، أسواقها العتيقة ، بيوتها الاثرية التى أفلتت من البلى ووصلت الى زماننا ، دروبها ، حواريها ، معاناة أهلها فى عصور الظلم والقهر ، أزياء القاهريين فى الزمن المملوكى ، الحاكم بأمر الله وما تبقى منه ، خاين بك الذى سلم مصر كلها للعثمانيين ، وغيرهما •• من سلاطين ، ومشايخ ، وصناع وأهل السبيل ••

يقوم بهذه الرحلة الروائى المعروف جمال الغيطانى ، وهو عاشق للقاهرة القديمة التى عاش فيها جل عمره ، عرف ماضيها من خلال معايشة يومية ، واحساس مرهف بالتاريخ ، ورؤية فنان حقيقى لمرور الدهر بالبشر والمبانى والامصار • فى الكتاب تناول جديد لموضوعات قاهرية شتى • يجمع بين الدقة التاريخية ، والحقيقة المجردة ، وسرد الروائى المتمكن ، والرؤية الفريدة لما انقضى وكان ، رؤية الفنان التى تمسك بما يتوارى فى كتب المؤرخين ، وترى ما لا يراه غيرها وتستشعر نبض الزمن الداخلى الذى لا تدركه الا روح حساسة ، انه محاولة لصون بعض ملامح الدهر القاهرى •

٣٥ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

دنيا الصحافة

محسن محمد

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

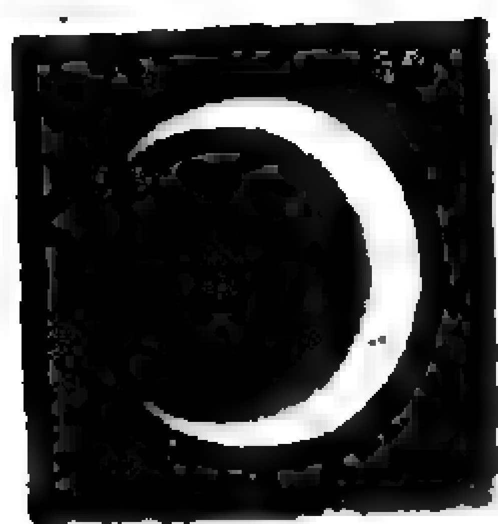
العدد ٣٩٤ – ذو الحجة ١٤٠٣ – أكتوبر ١٩٨٣

No. 394 October 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى • وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشــــــة
الفنانة سميحة حسنين

محسن محمد

دنيا الصحافة

دار الهلال

صحفي.. يحطم الصخور

اعتزل الصحفى العجوز العمل وترك صحيفته لابنه يديرها وهو ، بعد ، فى سن الخامسة والعشرين .

ولم تكن للابن خبرة أبيه ، أو تجاربه ، فأراد ان يفرض رأيه على أحد الصحفيين الكبار فى الصحيفة اليومية ، ولكن الصحفى عارض ، واعترض واصر على وجهة نظره .

وكان على المالك الشـــاب أن يتراجع ، أو يطرد الصحفى ..

.. ولأنه شاب فقد فصل الصحفى الكبير من عمله ..

وعندما عرف مدير الجريدة ذلك أسرع الى الشـــاب يقول :

ـ هذا الكاتب لا يمكن الاستغناء عنه .. أبدا .

قال الشاب :

ـ لا أعتقد ذلك فلا توجد صحيفة تعتمد على رجل واحد ..

رد المدير :

ـ ومن قال انها تعتمد على ذلك الكاتب .. هناك

١٢ كاتبا ومحررا ومندوبا لا نستطيع اصدار الصحيفة، بدونهم ، أبدا .

قال الشاب :

ـ أريد قائمة بأسمائهم .

اسرع المدير يكتب أمام الصحفى أسماء الرجال .. وأمسك المالك الشاب القائمة ثم وقع بامضائه على قرار يقول :

« يفصلون جميعا » .

فقد أراد المالك الشاب أن يقول للجميع أن صوته وحده ، ورأيه وحده ، يسود الصحيفة ويقرر مصيرها .

أما المالك الشاب فهو « جيمس جوردون بنيت » .

واما الصحيفة فهى « نيويورك هيرالد » التى تصدر فى نيويورك .. طبعا !

والى هذا المالك .. والى هذه الصحيفة التى تهتم بالأخبار المثيرة والفضائح ، والتى اكتسبت أسوأ سمعة فى صحافة أمريكا كلها .. جاء شاب يسعى .

وكان تاريخ القادم يعادل تاريخ الصحيفة ويماثلها فى ماضيه .

***

طفل غير شرعى .

ولد فى ويلز بانجلترا .

وتنكرت له أمه فعهدت به الى بعض أقاربها .

عمل فى مصنع ، وفى سن الخامسة عشر فر الى مدينة ليفربول ليعمل خادما على سفينة نقلته الى أمريكا حيث تنتظره مفاجآت أضخم .

تبناه رجل وأعطـاه اسمه ، ولـكن هذا الأب مات فجأة ، فعاد الشاب الى الضياع مرة أخرى .

اشترك ـ جنديا ـ فى الحرب الاهلية الامريكية .. وانتقل بحارا الى السفن التجارية وعاد للبحرية الامريكية ثم تركها ليشتغل بالصحافة أثناء التوسع فى الغرب الامريكى .

وسافر مغامرا الى تركيا وزار أمه مرتين فى ويلز ولكنها تنكرت له .

وأخيرا قرر أن يشتغل بالصحافة ويتفرغ لهـــا .. واختـــار ـ وعمره ٢٥ سنة ـ صحيفة نيويورك هيرالد ميدانا لنشاطه الجديد .

وقدم نفسه الى « جيمس جوردون بنيت » المالك الشاب .

اما الصحفى فهو « هنرى مورتون ستانلى » .. وهو الاسم الذى اختاره له أبوه بالتبنى .

ولم يطلب أن يعمل فى أمريكا ، أو فى مكان ميلاده فى انجلترا ، أو تركيـــا التى زارها بل اختـــار الحبشة ..

قال لصاحب الجريدة :

ـ لن تدفعوا لى شيئا . سأسافر على نفقتى.. عندى ٣٠٠٠ دولار جمعتها من أعمالى السابقة .. ولكن ادفعوا لى ثمن ما ينشر .

.. وبالمناسبة كان الجنيه المصرى يعادل ٥ دولارات فى ذلك الحين !

ووافق صاحب الصحيفة فالصفقة بالنسبة اليه ليست خاسرة ..

.. وكانت الحبشة فى منتصف عام ١٨٦٧ عالما آخر .. لا يهم أمريكا فى قليل أو كثير ولـــكن ما دامت الصحيفة غير ملتزمة الا بنشر ما يعجبها ودفع الثمن الذى تراه فان الصفقة تعتبر مجزية !

***

استطاعت بريطانيا اخماد ثورة الهند بـ ١٥٠٠ رجل .

ودخلت حرب القرم فعاني الجيش البريطانى خسائر ادت الى اســـتقالة الوزارة وتعيين بالمرستون رئيســا للوزارة ...

وجاء دور الحبشة لتتحدى انجلترا التى وجهت اليها قوة تتألف من ٥٢٠ ضابطا و ١٣٫٦٠٠ جنديا و ١٦ الفا من القوات المعاونة و ١٦ الف « بغل » و ٤٧٠٠ جمل و ٢٥٠٠ جواد و ٢٢ الف رأس من الماشية لطعام هذا الجيش .. وأخيرا أضخم الاساطيل .

***

استطاع « تيودور » عام ١٨٥٥ أن ينتصر على أعدائه فى الحبشة ووحدها وظل ١٢ عاما عليها كامبراطور .

وجاءت الارساليات تبشر بالمسيحية .

وتبادل الامبراطور والملكة فيكتوريا الرسائل والعلاقات الدبلوماسية وبعثت اليه الملكة بمسدسين هدية .

وفى عام ١٨٦٢ انصرف الامبراطور الى الخمر والنساء والاستبداد وقتل كل أعدائه حتى من كانوا بين افراد أسرته .. وأرسل الى الملكة فيكتوريا فى فبراير ١٨٦٣ يطلب منها استقبال مبعوثه الخاص .

وقال للملكة انه يريد معـــاونتها لأنه يستعد لقتـــال

الأتراك .. وكانت بريطانيا تؤيد الامبراطورية العثمانية وتخشى عليها من التمزق .

وتلقى اللورد راسل — وزير الخارجية — رسالة الامبراطور فأهملها ٦ شهور كاملة .

وضاق الامبراطور من تجاهل انجلترا لمبعوثه فألقى بالقنصل البريطانى فى السجن .

وبعد ٣ شهور جاء الرد البريطانى غامضا ، مبهما ، ليس فيه شيء واضح عن نية الملكة فى استقبال مبعوث الامبراطور .

وعلى ذلك ألقى الامبراطور فى السجن بالقنصل البريطانى وعشرين من أفراد الارساليات من الجنسين وكذلك أطفالهم .

ولم يكتف تيودور بذلك بل أمر بقيد كل المساجين بالسلاسل .

ولم تستطع الجهود الدبلوماسية البطيئة أن تحقق معجزة فقررت بريطانيا اعلان الحرب على الحبشة .

وجاء « ستانلى » الى القاهرة فى أواخر يناير ١٨٦٨ ليرافق الحملة البريطانية .

رفض الإنجليز الاعتراف بصحفى أمريكى مجهول يمثل صحيفة سيئة السمعة ، وتوزيعها كبير .

ولكن مراسل الصحيفة فى لندن استطاع اقناع وزارة الخارجية البريطانية لتسمح « لستانلى » بمرافقة القوات الغازية .

وقبل أن يستقل الباخرة من السويس ذهب الى مدير مكتب البرق والبريد وقدم له رشوة ضخمة وعقد معه اتفاقا بأن تكون برقياته أول ما يرسل من السويس وان

تسبق كل برقيات الصحفيين الآخرين .. فقد تعلم ستانلى خلال مغامراته أن مثل هذا الامر لا يمكن أن يترك للبيروقراطية أو الحظ .

ولم تكن خطوط البرق قد اتصلت بين الحبشة ولندن .. والسويس وحدها نقطة الاتصال . ومنها تنطلق كل البرقيات الى لندن .. ثم الى نيويورك .

وأما الدرس الثانى الذى أتقنه « ستانلى » فهو ان يسافر خفيفا فهذا شأن المراسلين الحربيين .

ذهل الضباط الانجليز عندما رأوا « ستانلى » يهبط من الباخرة وحده غرب الحبشة .

ذهل بدوره من الضباط الذين يضعون القفازات فى أيديهم ويضعون الاوشحة على وجوههم خوفا من الحر والذباب .. فوصفهم ــ بعد ذلك ــ بأن الانوثة تغلب عليهم .

قالوا له :

ــ لابد لك من ٦ خيول لمتابعة القوات ، واربعة من الخدم لك وللخيول .

رفض ..

وتابع المعارك القصيرة التى انتهت بانتصار الانجليز وانتحار تيودور وتحرير الاسرى .. ولم تفقد انجلترا سوى ٤٠ من رجالها قتل الحر والمرض معظمهم ، ولم يقتلهم المدافعون ..

وهكذا سقطت مدينة « مجدالا » التى يتحصن فيها الامبراطور .

ولم ينتظر « ستانلى » ..

اسرع الى شاطىء البحر الاحمر يقفز بجواد من الجبل الى الماء ويلحق بأول باخرة الى السويس .

ولكن الكوليرا انتشرت فى مصر ..

وضعت الباخرة فى الحجر الصحى خمسة أيام .

ومرة أخرى لم ينتظر ستانلى بل « هرب » أول برقياته الى مكتب البريد مع رسالة شخصية الى مديره يذكره فيها بوعوده القديمة .

وصلت البرقية الى لندن ومنها الى نيويورك تحمل نبأ سقوط « مجدالا » وانتحار تيودور .

وبعد الافراج عن الباخرة تتابعت برقيات ستانلى .

ويتدخل الحظ ، غالبا ، ليناصر كل صحفى مجتهد ومثابر فيتعطل - بعد ذلك - الخط بين الاسكندرية ومالطة وتنتقل رسائل الصحفيين الآخرين ، وتقارير قائد الحملة البريطانى ، من الاسكندرية الى مالطة بالباخرة .

وفى نفس الوقت تنتقل الأنباء التى نشرتها « نيويورك هيرالد » من نيويورك الى لندن قبل أن تعرف وزارة الحرب البريطانية ان قواتها انتصرت وأن « مجدالا » سقطت .

وتسارع الحكومة البريطانية الى النفى ..

وتسخر كل الصحف البريطانية من ستانلى وال « هيرالد » .

ولكن البرقيات الرسمية تصل فى موعدها المتأخر وتضطر الحكومة البريطانية الى أن تعلن أن كل ما نشرته الصحيفة الامريكية .. صحيح .

ويكتب « ستانلى » الذى بقى فى الاسكندرية مذكراته يوم ٢٨ يونيو ١٨٦٨ قائلا :

« أصبحت الآن محررا دائما فى الصحيفة ، وآمل أن يكون السبق الصحفى الثانى الذى أحصل عليه معادلا للأول » .

ولكن السبق الثانى كان أعظم !

***

من مدريد حيث تابع أنباء الحرب الاهلية الاسبانية استدعى « ستانلى » الى باريس لمقابلة « بنيت » عام ١٨٦٩ .

وكان اللقاء سريعا وحاسما ..

قال « بنيت » :

ـ ابحث عن « لفنجستون » .

ولم يكن العالم قد سمع عن لفنجستون خلال الـ ٣ سنوات السابقة .

كان الطبيب قد سافر عام ١٨٦٦ الى قلب افريقيا لاكتشاف بحيراتها الوسطى ومنابع النيل .

وكان القنصل البريطانى فى جزيرة زنزبار قد ارسل البعثات عن الطبيب ولكن البعثات لم تصل وقالت أنباء كثيرة ان « لفنجستون » قد مات لأن احدا من الاوروبيين لم يره خلال ٣ سنوات .

وتلقى ستانلى أغرب تعليمات من « بنيت » ..

لم يطلب منه أن يتوجه مباشرة الى مصر أو افريقيا .. بل قال له :

ـ احضر فى مصر احتفالات افتتاح قناة السويس . وقم برحلة فى النيل واكتب ما يغرى الامريكيين ، وتوجه

الى سوريا وفلسطين وتركيا والقرم وبحر قزوين والخليج الفارسي وأخيرا الهند .

وقال أيضا :

ـ اذا لم يكن العالم قد سمع عن « لفنجستون » حتى ذلك الحين فابحث عنه أن كان حيا .. وان مات نريد الدليل .

وهكذا وصل « ستانلى » الى جزيرة زنزبار فى ٦ يناير ١٨٧١ .

وفى ٢١ مارس هبط الى الساحل الافريقى ليبدأ رحلة البحث في مناطق مضطربة .. فيها قبائل تتقاتل ، وأمراض تفتك بالبشر ، وطرق مملوءة بالغابات والوحوش .

وكان مساعدو ومعاونو ستانلى يمثلون نموذجا غريبا من الافارقة ..

البعض يلتحق بالرحلة للحصول على العربون .

وآخرون فرارا من مصير لجرائم ارتكبوها .. حتى ان أحدهم كان قد قتل سبعة .

والبعض طلبا لبعض السلاح والطعام ثم الهرب بعد ذلك .

وعلى أية حال فان « ستانلى » استطاع خلال ٨ شهور أن يصل الى مدينة أوجيجى حيث التقى بلفنجستون ـ يوم ١٠ نوفمبر ١٨٧١ ـ وقال له عبارته الشهيرة :

« أحسبك الدكتور لفنجستون » .

أو :

« الدكتور لفنجستون فيما أظن » .

ويحرص « ستانلى » على أن يسمع تفاصيل الـ ٣ سنوات التى عاشها الطبيب المبشر فى قلب أفريقيا .

ويكتب وصفا تفصيليا للبيئة التى يعيش فيهـــا ، وملابسه ، وحذاءه الممزق ، وكتفه الذى نهشه أسد وملامحه وكل شيء عنه .

ويحصل من « لفنجستون » على رسالة الى صاحب الصحيفة .. وكذلك يوميات الرحالة .

ويمضيان فى رحلة الى بحيرة تنجانيقا ، ويقطعان ٣٠٠ ميل معا فى قلب افريقيا .

طلب « ستانلى » من « لفنجستون » أن يعود معه الى زنزبار ..

وكان هذا العرض انسانيا فان عودة الطبيب تعنى أن يفقد « ستانلى » السبق الصحفى الذى ناله ، ويعود الفضل كله للطبيب .

ومن حسن حظ « ستانلى » ان « لفنجستون » أصر على البقاء فى أفريقيا ومات فيها بعد عام كما ماتت فيها زوجته قبل ذلك .

.. افترق الرجلان بعد أن ترك ستانلى جانبا من المؤن لزميله ثم أسرع عائدا الى زنزبار فقطع المسافة فى ٥٤ يوما وأبرق فى مايو ١٨٧٢ الى الصـــحيفة يصف قصة عثوره على « لفنجستون » فيثير العالم بأكبر سبق صحفى خلال قرن كامل .. أو السبق الذى لم يحصل عليه أحد قبل ذلك .. وحتى الآن !

والغريب فى الامر ان ستانلى الذى التقى بالرحالة فى نوفمبر ١٨٧١ لم ينشر النبأ الا فى مايو ١٨٧٢ أى بعد ٦ شهور كاملة ومع ذلك فان أحدا غيره لم يسبقه فان سمة ذلك العصر .. البطء الرهيب فى الحصول على الاخبار .. وفى نشرها أيضا !

عاد « ستانلى » الى باريس ومنها الى لندن .

وهناك ، مثل أى صحفي ناجح ، وجد حقدا من زملائه أضيفت اليه أحقاد الرحالة الانجليز لأن ستانلى كان قد تجنس بالجنسية الامريكية وأصبحت الكرامة الوطنية فى خطر .. فان الذى اكتشف « لفنجستون » لا ينتمى الى بلاد الانجليز .

قالت الصحف البريطانية ، وكذلك الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية أن رسائل لفنجستون للهيرالد مزورة .. وأن الخط ليس خط الرحالة ، والاسلوب ليس أسلوبه وكذب ابن لفجنستون ذلك وقال :

ـ هذه يوميات أبى .

وقالوا انه لم يذهب الى يوجيجى ، ولم يلتـــــق « بلفنجستون » بل انه التقى فى الغابات بمبعوث من الرحالة كان يحمل الوثائق فأخذها منه وأسرع الى زنزبار يكذب ويدعى .

وانتشرت الأغانى الساخرة عن « ستانلى » .

وكان كل انجليزى يقول لصاحبه :

ـ مستر فلان .. كما اعتقد .

وآمن ستانلى ان أعداءه لم يستطيعوا اثبات انه كاذب ولذلك فانهم عازمون على تأكيد انه أحمق .

واستغلت كلمات اللقاء الشهيرة فى الاعلانات .

ورد « ستانلى » قائلا :

ـ ماذا أفعل . كنت مضطرا ، امام الجميع ، أن اتحدث بكبرياء .

ولكن الهجوم استمر على « ستانلى » .

الجمعية الجغرافية الملكية رفضت دعوته لمناقشته فيما

جاء به من أخبار عن منابع النيل ، أو يوميات الرحالة
وقال سكرتير الجمعية :
ـ هذا الفتى لم يقم بعمل جغرافى .
وتمادى رئيس الجمعية فقال :
ـ لا أرى ما يدعو للاجتماع « بستانلى » فان ما بعث به « لفنجستون » لا يهم الجغرافيين .
ونشر جيران « ستانلى » فى ويلز قصة حياته وانه ابن غير شرعى ووضعوا ماضيه كله أمام الناس ..
واضطر « ستانلى » لأن يرد ..
قال :
فى أول الأمر أثرتم الشك فى صدق روايتى .
واتهمتمونى بتزوير الخطابات التى جئت بها .
وأثرتم الشبهات حولى .
وأخيرا اتهمت بالاثارة .
والحقيقة انكم بعد أن دفنتم « لفنجستون » فى زوايا النسيان تكرهون أن يقال لكم انه على قيد الحياة .
ولكن الناس استقبلوا « ستانلى » بطريقة أخرى ..
فى تلك الايام لم تكن الصحف تنشر صورا على الاطلاق ولذلك وضعت صور ستانلى فى نوافذ المحلات .
ورسمت صورته فى متحف الشمع .
وأهدته الملكة علبة « نشوق » .
واضطر رئيس الجمعية الجغرافية الملكية الى دعوة ستانلى ليلقى محاضرة عن رحلته استمع اليها ، فى مقدمة الصفوف ، امبراطور فرنســا المخلوع نابليون الثالث وزوجته أوجينى التى حضرت افتتــاح قنــاة السويس عام ١٨٦٩ .

وبعد المحاضرة استمرت أيضا المرارة .

وقف أحد أعضاء الجمعية يقول :

ـ لم نأت هنا لنسمع قصصا مثيرة بل جئنا لنناقش حقائق جادة .

رد « ستانلى » فى الصحف فوصف كبير منتقديه قائلا :

« انه جغرافى يقيم فى انجلترا » .

.. يقصد أنه لا يرحل ، ولا يكتشف .

وفى المأدبة التى أقامتها له الجمعية الطبية الملكية البريطانية ضحك الاعضاء لأنه كان يتكلم ويشير بيديه .

... والانجليز « المهذبون » لا يحركون أيديهم أثناء الحديث ولكن « ستانلى » كان قد تعلم ذلك أثناء حديثه مع الأفارقة .

ورأى ستانلى أن يرد بقسوة ..

توقف أثناء الحديث والقى جنيها ذهبيا على المائدة ، وكأنه ثمن طعامه ، ثم انحنى لرئيس الجمعية وانصرف .

وقال للجميع بعد ذلك ..

« رحلت الى افريقيا لاكتشف لفنجستون ، لا لأكتشف نفسى » .

وأرسلت الملكة فيكتوريا تدعوه للقائها فاضطر رئيس الجمعية الجغرافية للذهاب اليه وصحبه للاجتماع ..

وخضعت الجمعية الجغرافية فى نهاية الامر فأهدته ميداليتها .

ونشر كتابه الشهير « كيف عثرت على لفنجستون » وكتب فى المقدمة انه يهديه الى « بنيت » صاحب الجريدة الشاب .

بل انه اطلق اسم « بنيت » على مجموعة من الجزر الصغيرة في بحيرة تنجانيقا .

ولم يكن في استطاعة ستانلي أن يفعل أكثر من ذلك لصاحب الصحيفة الذي أصبح شديد الغيرة من نجاح صحفي يعمل لديه .

قال « بنيت » للصحفيين يعزى نفسه :

– اذا كان ستانلي قد اكتشف لفنجستون فقد اكتشفت ستانلي .

***

عنـــدما كلف « بنيت » « ســـــتانلي » بالبحث عن « افنجستون » قال له :

– ستمول رحلتك كلها .

وكان مرتب « ستانلي » بعد انتصـــــاره في الحبشة ٤٠٠ جنيه سنويا .

قال ستانلي :

– كيف ؟

أجاب بنيت :

– انفق ألف دولار .. وعندما تنتهي انفق الفا أخرى .. وهكذا .

وذهب ستانلي الى زنزبار فوقع ايصالات بـ ٨٠٠٠ دولار قبل أن يرحل الى قلب القارة .

وكان القنصل الامريكي هناك هو الذي تعهد بأن تقـوم الصحيفة بسداد كل الديون .

ولكن ستانلي غاب ٨ شهور في رحلته .

وخلال تلك الفترة أعلن « بنيت » انه لن يسدد دولارا واحدا من ديون « ستانلي » .. أو ديون الصحيفة .

ولكن النجاح والشهرة والسبق الذى حصلت عليه « الهيرالد » أرغم « بنيت » على السداد .

ونجحت صحيفة واحدة فى لندن فى ذلك الحين وهى « الديلى تلجراف » فقد وقفت مع « ستانلى » ضد باقى الصحف وضد الجمعية الجغرافية أيضا .

وكان مندوب هذه الصحيفة فى باريس واسمه « لى ساج » قد استقبل « ستانلى » عند قدومه من افريقيا وأجرى حديثا معه عن انطباعاته وما رآه .. وقصته مع « لفنجستون » .

وزاد توزيع « الديلى تلجراف » ..

وخاف « بنيت » على السبق الصحفى الذى نالته جريدته فابرق الى « ستانلى » فى باريس يقول :
« أصمت » .

ولكن « لى ساج » .. أصبح رئيسا لتحرير « الديلى تلجراف » !

***

وصل « ستانلى » الى نيويورك فى نوفمبر ١٨٧٣ .
استقبلوه فى عرض البحر بلافتات التهنئة بعد غياب ٥ سنوات .

وقابله « بنيت » — يوم ٢٠ نوفمبر — ١٠ دقائق .. نفس مدة لقاء الصحفى بالملكة فيكتوريا .

ولكن الحقد الصحفى سريع العدوى ، وسريع الانتقال .

الصحف المنافسة فى نيويورك كتبت تصف ستانلى تحت مانشيت عريض :
« منافس . مخادع . كاذب . قاتل » .

فقد قتل عددا من الافريقيين أثناء اشتراكه فى القتال خلال رحلته وانضمامه لقبائل وملوك ضد قبائل وملوك آخرين .

وجد ستانلى ردا ..

عرض على زواره قبعة لفجستون وقال :

ـ يتهموننى بتزييف القصص فهل زيفت أيضا قبعة الطبيب .

ودعاه الكاتب الساخر مارك توين لالقاء محاضرات فى امريكا وقال له :

ـ ستكسب من هذه المحاضرات ٥٠ الف دولار سنويا .

ولكن ستانلى لم يكن خطيبا موفقا بل موهبته في قلمه .

وبقى فى أمريكا يتقاضى ٤٠٠ جنيه فى السنة من نوفمبر حتى ابريل عندما استدعاه « بنيت » ليطلب منه العودة ، كما كان ، مراسلا للصحيفة فى مدريد مع رفع مرتبه الى الف جنيه سنويا .

وبهذا العرض أصبح « ستانلى » صحفيا عاديا ، لم يغامر ، ولم يكتشف ، ولم يتعرض للموت ولم يضف الى تاريخه ، وعلم الجغرافيا أى جديد .

ومع ذلك سافر الى اسبانيا ثم رافق حملة السير « جارنيت وولزلى » ضد قبائل « الاشانتى » .

وولزلزى هو القائد البريطانى الذى حارب عرابى بعد ذلك واحتل مصر .

وكان تعليق ستانلى على القائد انه حقق انتصاره الاكبر على الصحفيين فقد عرقل ، بكل الطرق ، عملهم ، وأداءهم لواجبهم !

لم يستطع ان يحتفظ بقلبه بعيدا عن افريقيا ذهب الى صحيفة « الديلي تلجراف » يعرض عليها أن تمول رحلة يقوم بها بالاشتراك مع « الهيرالد » لاكتشاف نهر الكونغو، فوافقت على أن تدفع ٦٠٠٠ جنيه .

وقد أراد باشتراك « التلجراف » أن يرغم « بنيت » على المساهمة . وعندما بعث اليه بالعقد رفض « بنيت » أن يوقع عليه وأبرق بعد ٢٠ ساعة بكلمة واحدة :

« موافق » ..

وهكذا بدأ رحلته الجديدة في ١١ نوفمبر ١٨٧٤ من مدينة زنزبار ليكتشف نهر الكونغو ويصل الى مصبه بعد ٣ سنوات في ١٢ أغسطس ١٨٧٧ .. على ساحل المحيط الاطلسي مخترقا القارة من شرقها الى الغرب بعد أن خاض ٢٦ معركة .

وخلال الـ ٣ سنوات مات كل رفاقه البيض ومن ٣٥٠ افريقيا عاش ١٠٦ فقط .

وضاعت أول برقية كتبها للصحف ــ الف كلمة ــ لان الرسول لم يسلم الرسالة في زنزبار .

***

وحتى ذلك الوقت كان ستانلي صحفيا رحالة يكتشف ..

كان يكتب الرسائل ولا يعلم هل تصل الى الصحف ، أو لا تصل .

ليس عنده جهاز لاسلكي ، ولا مكتب للبريد أو البرق ولا تصله الرسائل من أحد ٣ سنوات كاملة وعليه أن ينجح أو يموت . يحقق حلمه أو يدفن في الغابات وقد لا يدفن .

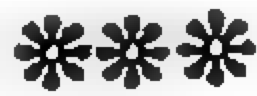
وفكر فى الانتحار ..
ومرض أكثر من مرة ..
وقاتل .. وقتل واتهم بالوحشية ..
ولكنه عاش فى عزلة ، أو فى سجن الغابات لا يعرف ما يقوله الناس عنه ، قطعت صلته بالعالم الخارجى ، ولا يصله رد فعل أعماله ..

لا يقرأ الصحف ولا يستمع الى اذاعة ، ولا يرى نفسه على شاشة التليفزيون ٣ سنوات كاملة ، ففى القرن الماضى كان هذا كله أبعد من أحلام المخترعين وآمال كل الصحفيين .

وما أنفق عليه ينفق على صحفى واحد فى رحلة واحدة .. هذه الايام .

وما لقيه من مغامرات ينوء به جيل كامل من الصحفيين .

وفوق هذا كله فانهم لم يتركوا له اعترافا بنجاح يشجعه ، ويدفعه للمزيد .
وكان لابد أن يتحول عن الصحافة ..



بعث اليه « ليوبولد » ملك بلجيكا ليكون مبعوثا خاصا له ينشىء دولة فى الكونغو .. يقيم المحطات ويمد الطرق ، ويسير السفن ، ويعد المستوطنات .
وتكلف الملك فى أول الامر ١٢ الف جنيه سنويا مقابل هذه العمليات ارتفعت بعد ذلك الى ستين الفا .
واستغرقت هذه المهمة ٥ سنوات كاملة من عام ١٨٧٩ حتى عام ١٨٨٤ — فى زمن ، كان فيه التنافس

ضخما ، للاستيلاء على افريقيا بواسطة القوى الاوربية عن طريق بعض المغامرين .

وانتهى الصراع فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ الـذى حضرته ١٤ دولة بعد أن فرضت المانيا الحمـــاية على توجولاند والكاميرون فى غرب افريقيا .

واعترف المؤتمر بسيادة ملك بلجيـــكا ليوبولد على الكونغو ومساحتها ٩٠٠ الف ميل مربع نالت فرنســا ٢٧٥ ألف ميل والبرتغال ٣٥١ ألف فى قلب افريقيا .

وكانت البداية رحلة صحفية مثيرة لاكتشاف المجهول قام بها صحفى أطلقوا عليه اسم « محطم الصخور » !

مجلة .. للغاضبين

ليست اكبر الصحف البريطانية توزيعا ولا أكثرها ثراء .. وعدد محرريها ومراسليها لا يتجاوز العشرة .. ومع ذلك احب كلما زرت لندن أن أتجه اليهــا لانها الجريدة الوحيدة التى تسير على مبدأ (خالف تعرف) .. وهى تخالف .. ولكنها فى معظم الاحيان على حق !

ان توزيعها يبلغ ٣٢ الف نسخة تقريبا .. وايراداتها من الاعلانات مائة الف جنيه شهريا وهذه الارقام تعتبر تافهة جدا بالقيــاس الى الخمسة الملايين نسخة التى توزعها جريدة أسبوعية مثل « نيوز أوف ذى ورلد » .. وبالقياس الى ايرادات الصحف من الاعلانات والتى يتراوح سعر الصفحة الواحدة فيهــا بين خمسة وعشرة آلاف جنيه .

ومع ذلك فان هذه المجلة الصغيرة ، محــــدودة الانتشار ، أثرت فى السياسة البريطانية منذ صــدر العدد الاول منها فى فبراير عام ١٩٠٣ .. ولا تزال هذه الجريدة تفرض رأيها على الساسة البريطانيين .

وقصة هذه المجلة واسمها «نيوستيتسمان آند نيشنان» ومعناها السياسى الجديد والأمة هى قصة اليسار فى بريطانيا .

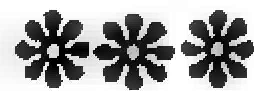
وقصة اليسار فى بريطانيا تختلف عن قصته فى روسيا .

فى القرن الماضى كان المثقفون اليساريون فى روسيا يطأون أرضا بكرا وهم يحدثون الفلاحين الروس عن الاشتراكية .. ويستشهدون (أى اليساريين) فى سبيل عقيدتهم .

أما المثقفون اليساريون فى الغرب فلم يجدوا أرضا عذراء يحرثونها ولا حلفاء لهم يشاركونهم أمانيهم .

وفى الشرق .. أى فى روسيا فان المثقفين انضموا للعمال ليخططوا لهم . ولكن فى وسط وغرب اوربا ، فان العمال كانوا قد اسسوا ، وبسرعة ، منظماتهم ، وأحزابهم ، ونقاباتهم .. وكان لهم - ايضا - قادتهم .. وهم رجال بيروقراطيون عزيمتهم حديدية ، ورءوسهم خشبية لا تلين .

وعلى هذا الاساس كان هناك فارق ضخم بين اليسار المثقف فى شرق ، وفى غرب اوربا .



واليسار فى بريطانيا بدأ بالجمعية الفابية فى عام ١٨٨٢ - عام الاحتلال البريطانى لمصر - أسسها بعض أبناء الطبقة المتوسطة بقيادة ادوارد بيس .. ألهمهم فكرتها كتاب ألفه « هنرى جورج » اسمه .. « التقدم والفقر » .. وغاية الجمعية النهائية اعادة بناء المجتمع على أساس أخلاقى .

وكان ممكنا أن يستمر عمل الجمعية محصورا فى نطاق الخير لولا أن « برنارد شو » حضر أحد اجتماعاتها ثم كتب يحدد هدف الجمعية ويحدد غايتها .

● ان نظامنا الزراعى الحالى يعنى تقسيم المجتمع الى طبقتين متصـــارعتين الاولى لها شهية مفتوحة ، ولا تجد عشاءها ، والثانية لديها عشاء متوافر ، وشهية مغلقة .

● ان تأميم الارض بشكل عام ضرورة .

● ليس من حق الحكومة الحاضرة أن تسمى نفسها الدولة ، والا كان من حق دخان المصنع أن يسمى نفسه طقس بلادنا .

● من الافضل لنا ان نواجه حربا أهلية بين الطبقتين المتصارعتين من أن نعيش قرنا آخر من العذاب ..

وفى يناير ١٨٨٥ أحضر شو معـــه الى مقر اجتماع الجمعية الفابية رجلا آخر اسمه « سيدنى ويب » .

وبعد سنوات كتب « برنارد شو » يقول انه رأى فى « ويب » الرجل الذى تحتاج اليه الجمعية .

وكانت نظرية شو صحيحة ففى الاجتماع الثالث الذى حضره « ويب » انتخب عضوا فى الجمعية ثم اشتهرت الجمعية الفابية بعد ذلك باسم « سيدنى » و « بياتريس ويب » ونسى النـــاس مؤسس الجمعيـــة « ادوارد بيس » .

***

ولم يكن معقولا ان تقوم هذه الجمعية دون أن يكون لها لسانها الناطق وفعلا أصدرت مجلة اسمها « الحملة الصليبية » ماتت فى مهدها .

وأصدرت الجمعية بعد ذلك مجلة « النيوستيتسمان » وقبل صدورها همس الكاتب الاديب والمفكر البريطـانى « هـ . ج . ويلز » فى أذن « بياتريس » قائلا : « ان

مجلة مستقلة ، لا ترتبط بأحد ، عندها فرصة الحياة . اما اذا تحيزت فستموت » .

واذا اجتمع « شو » و « سيدنى » و «بياتريس ويب» معا لاصدار مجلة فمعنى ذلك ان هذه المجلة يجب أن تكون اشتراكية تنطق باسم الجمعية التى قامت تدعو للخير ثم منحها الاشتراكيون الثلاثة فكرة يسارية وخطا يساريا .

ومن اليوم الاول قالت المجلة .. « ان الحريةالسياسية شيء تهتم به اذا كان لديك ما يكفى من طعام تأكله .. وملابس تغطيك ، وسقف يحميك ، ونوع من الطمأنينة يظلك .. ان الذين لديهم هذا كله قلة يتمتعون بمستوى عال من المعيشة .. أما الاغلبية فلا تجد ما يكفيها ولذلك ستقوم بثورة للحصول على الخبز » .

***

ولكي نعرف أهمية هذه المجلة ، فى تلك الفترة ، يجب أن نذكر انه كان فى بريطانيا فى ذلك الوقت حزبان الاحرار والمحافظون .. وكان الحزبان على استعداد لاصدار تشريعات تخفف آلام الناس ، وذلك ، بين الحين والآخر .. أما أن تتحمل الدولة مسئولية بعض الجوانب الاقتصادية في حياة الناس لاسباب اجتماعية .. فان هذه الفكرة كانت تبدو مستحيلة وسخيفة ومرعبة للحزبين . ورأى الحزبان فى تدخل الدولة بين صاحب العمل والعمال شذوذا ولم يخطر ببال الاحرار والمحافظين على الاطلاق ضرورة التخطيط الاقتصادى لانقاذ الملايين من الفقر .

ونشأت بعد ذلك فكرة نقل ملكية الصناعة والاشراف

عليها الى النقابات العمالية .. أما تدخل الدولة فلم يقل به أحد حينذاك الا جريدة السياسى الجديد .

***

وقصة انشاء الجريدة تعتبر قصــــة كفاح من نوع نادر .

كان يجب لتنجح الجريدة أن توزع ٣٠٠٠ نسخة على الاقل ، وروّى أن مقالات « برنارد شو » يمكن أن تجلب ألف مشترك ، ومقالات « ويب » ٥٠٠ ومقالات المحرر الادبى « سكوير » توزع مائة نسخة ومعنى ذلك أن المجلة ستموت .

ورغم ذلك كله صدرت المجلة برأسمال قدره خمسة آلاف جنيه تبرع « برنارد شو » بألف منهـــا وكذلك « ويب » و « بياتريس » وجمعت باقى الاكتتابات من مساهمين صغار أعضاء فى الجمعية الفابية .

واختير صحفى اسمه « شارب » رئيسا للتحـــرير بمرتب ٥٠٠ جنيه سنويا ومنح ٥٠ جنيها ليسافر لاوربا ليجمع مراسلين ، وعين محـــرر أدبى بـ ٣٠٠ جنيه . ومحرر للمسرح يحصل على قرش عن كل خمس كلمات . وخمسين قرشا كلما دخل المسرح !

ولم يزد توزيع العدد الاول على ٢٣٠٠ نسخة وبعد عام انخفض التوزيع الى ١٦٠٠ نسخة .. ولكن ألفا من هؤلاء ظلوا يجـددون اشتراكهم فى الجريدة ٢١ عاما متتالية .

ولم يهتم المؤسسون بالاعـلانات فلم تزد فى السنة الاولى على ٧٥٠ جنيها .

***

والذى يقرأ العدد الاول يجد افتتاحية المجلة تقول :

« سنسعى لنواجه المسائل الاجتماعية والسياسية بطريقة علمية أى بنفس الروح والطريقة التى يحلل بها الكيمائى والبيولوجى العينات فى أنابيب الاختبار .

وكان « شو » مديراً وشريكا ومساهما فى رأس المال ويريد أن يوقع مقالاته باسمه .

رفض رئيس التحرير وقال « يجب ان نعطى المجلة كيانا متكاملا وشخصية صحفية متجانسة . ولكى تنجح المجلة يجب أن تكون المقالات بغير توقيع لتنجح المجلة .. لا ليشتهر كتابها » .

وبعد مدة تطرف « شو » فى مقالاته ورأى رئيس التحرير أنه لابد أن يوقع « شو » بامضائه على كل مقال .. وكان « شو » .. الذى رفض هذه المرة !

***

قامت الحرب .. وكتب « برنارد شو » مقالا يهاجم فيه دخول بريطانيا الحرب وأبدى عدم ثقته فى حلفاء بريطانيا يعنى الاتحاد السوفييتى .

وثارت الازمة بعنف بين رئيس التحرير والكاتب الفيلسوف .. ولو ان شو تخلى عن التأييد المالى للمجلة لتوقفت عن الصدور .

حاول رئيس التحرير اقناع « شو » ببيع حصته للكاتب « ارنولد بنيت » فرفض « شو » قائلا :

ـ اذا كانت المجلة ستفلس فلماذا آخذ أموال «بنيت» واذا كانت ستزدهر فلماذا أخسر حصة فى مشروع ناجح .

وأرسل « شارب » رئيس التحرير كتابا الى « بياتريس ويب » وقال فيه :

ان « شو » لم يظهر أى عطف ، أو فهم ، لمتاعب المهنة التى يقوم بها رئيس التحـــرير ولم يسع أبدا لحفظ التجانس فى الجريدة . ورفض كل تســـوية واستمر ينقدنى بعنف .

كنت أنظر للعمل الصحفى على انه تعـــاونى . وان سياسة المجلة يقررها اتفاق عام مشترك .. وفى حالة قيام خلاف بينى وبين « شو » يسود رأيى فى المسائل السياسية .. وتسود آراؤكم أنتم فى المسائل الاخرى .

وأنا لا أريدها ان تكون لسانا شخصيا لى وانما هدفى أن تعبر عن السياسة الفابية .

ان مقالات « برنارد شو » بعيدة عن أهداف الجمعية ولا تسير فى نفس خط الجريدة .. وتثير المتاعب ومع ذلك فانها تلقى اهتمـــاما أكبر من الناس لانهـــا أكثر اثارة » .

وأيد « سيدنى ويب » رئيس التحرير فقال «شو» : « سآخذ حلولى وسياستى بعيدا ان « شارب » رجل السهر والقهوة الثقيلة والعمل الصحفى » .

وأصر رئيس التحرير على نشر مقالات « شو » بتوقيعه فاستقال « شو » !

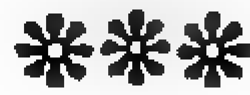
واستمرت المجلة تؤدى دورها الخالد الذى يمكن أن نسميه « الوجودية السياسية » .. وذلك قبل أن ينطق سارتر بتلك الكلمة .. فقد كانت متحررة وتركب المد الاشتراكى ولا تتبع الاحزاب .

ولم تكن المجلة بلا أخطاء .

فعندما قامت الثورة السوفييتية « البلشفية » وقفت المجلة منها موقفا باردا أو موقفا سيئا للغاية . قالت ان

روسيا ستحارب بجيش مهلهل وأن اللينينية لا تحقق تأثيرا طيبا على الجيوش .

ولكن الجريدة أوفدت أحد محرريها الى الاتحاد السوفييتى وعند عودته ينصف الثورة البلشفية ويقول رأيت المستقبل .



وخلال ٦٠ عاما عاشت « السياسى الجديد » تضم اليها مجلة « الامة » وتحمل المجلة الجديدة اسمى الجريدتين معا .. « نيوستيتسمان أند نيشان » .

والصحف والمجلات فى تلك الايام كانت تصدر لتحمل فكرا ورأيا .. وظلت الجريدة خمسة أعوام تخسر ٥٠٠ جنيه سنويا .. ولكنها تستمر وكتابها الكبار مثل « شو » و « أرنولد بنيت » يعملون بغير أجر .. وكان ربح الجريدة لاول مرة جنيها ونصف فى العام .

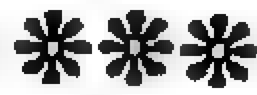
ويوم فاز حزب العمال لاول مرة فى الانتخابات وتولى الحكم ، دخل « سيدنى ويب » مجلس العموم نائبا عن حزب العمال . ولكنه استقال من المجلة حتى لا يظن الناس ان « السياسى الجديد » هى جريدة حزب العمال .

واحتفظت المجلة باستقلالها ، ولكن وجود الحزب القى ظلاله على الجريدة . كانت المجلة حليفة للحزب وهو فى المعارضة .. وعندما يتولى الحكم تختلف معه ولكنها تؤيده .. فهى معه وهى أيضا تنقده لانه لا يوفر الحلول الاشتراكية وكانت مع الحزب لانها رأت فيه الامل الوحيد لقيام حكومة اشتراكية .

ولكن المجلة ظلت تتدهور وتنحدر فأصبح توزيعها ــ عام ١٩٣١ ــ لا يتجاوز عشرة آلاف نسخة أسبوعيا .

وخسر أصحاب المجلة نحو مائة ألف جنيه ، وكان متوقعا ان يظلوا طول حياتهم يسددون الديون .

ورشح البعض كينجلسى مارتن ليكون رئيســـــا للتحرير .

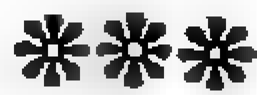


كينجسلى مارتن ابن قسيس بريطاني عمره ٣٣ سنة .. كان ابوه من المفكرين الاحرار الذين عارضوا حرب البوير ولذلك نشأ مارتن وهو يعرف انه سيظل طــول حياته من القلة .. القلة التى على حق .. ولــكنها تخسر دائما فى أية معركة ضد المؤسسات القائمة .

وجاءت الحرب الاولى وتطوع فى الاسعاف ونقل الى فرنسا .. وهناك شهد كيف يموت الناس بعد الألم .. وبعد العذاب فكان طول حياته داعية للسلام .

وتعلم فى انجلترا بعد حصــوله على منحة دراسية واستكمل دراسته فى أمريكا وتتلمذ على العالم الاشتراكى هارولد لاسكي واشتغل مســـاعدا له حتى أختير ليكتب المقالات الافتتاحية فى جريدة « المانشستر جارديان » .. ولم ينجح فى عمله ولذلك قالوا له قبل أن ينتهى العقد بستة شهور .

ــ حاول أن تبحث عن عمل فان عقدك لن يجدد .



ومن هنا رشح للمجلة الاشتراكية .

اجتمع مجلس ادارة المجلة ووجه اليه الدعوة لتناول طعام الفداء .

سأله أحد الحاضرين .

ــ من أنت .. آراؤك .. والمبادىء التى تسير عليها .

ــ أظن .. أستطيع أن أقول انى اشتراكى .

قالوا له :

ــ نأمل ذلك .

وافقوا على تعيينه فان المجلة أسسها الذين أنشأوا الحركة الفابية فى انجلترا .. التى مهدت للسياسة الاشتراكية التى سار عليها حزب العمال .

كان عليه أن يختار من مجموع محررى المجلتين أسرة تحرير المجلة الجديدة ، كان عليه أن يكون حاسما وقاطعا وبتارا ليختار أفضل العناصر الجديدة .. وقد فعل .

اكتشف ان المجلة فى حاجة الى الغضب .. فى حاجة الى الصراحة والاندفاع .

استعان بهارولد لاسكى وطاغور وكبلنج ونصف الذين حصلوا على جوائز نوبل ليكتبوا فى المجلة .

ويعتبر كينجسلى مارتن نقطة التحول فى حياة « نيوستيتسمان » .

قيل له من اليوم الاول ان أحد الذين اختارهم لا يعرف مواعيد الطبع ويتأخر فى تسليم مقاله الى المطبعة فلم يهتم كثيرا بهذا العذر وكان يقصد بيت الكاتب ويجلس أمامه وهو يكتب مقاله فانه يعرف « دلال » بعض الكتاب .. وكان كرئيس تحرير « يفهم الصنعة » بقدر ذلك « الدلال » ويحمل العبء ولا يؤخر مواعيد الطباعة بل ينتقل الى الكاتب يرجوه بطريقة عملية .

وخلال ثلاثين عاما تولى خلالها رئاسة التحرير .. بدأت عام ١٩٣١ كان دائما يتكلم مع زملائه فى رقة .. لم يزأر أبدا كالاسد .. مع ان بداخله أسدا على استعداد دائم للزئير .

ولم يحجر على رأى كاتب .. ولم يمنع نشر مقال يخالف رأيه .

***

كانت لرئيس التحرير سياسة واضحة يطالب بها الحكومة ويطالب بها الشعب وتتعدد ضرباته القاضية فى كل اتجاه حتى أن المجلة استمرت ـ خلال مدة اسابيع ـ تحمل على الموسيقى التى تقدمها الاذاعة البريطانية .. وتقول :

ـ الاذاعة تقدم موسيقيين بريطانيين من الدرجة الثالثة لاسباب وطنية ،وتقدم موسيقيين عالميين من الدرجة الثالثة لاسباب وطنية أيضا حتى لا يجد المستمع أن الموسيقيين الاجانب أفضل من البريطانيين !

وظل خلال ١٥٠٠ مقال تقريبا .. وخلال ١٥٠٠ عدد من اعداد الصحيفة يتصرف كالفنان .. لا كالصحفى ..

والفنان ينقل صراعه الشخصى .. او الصراع النفسى الذى يحياه الى العمل الفنى الذى يقدمه .. والصحفى يحرص ـ الى حد ما ـ على أن يبقى هذا الصراع بعيدا عن دائرة العمل .. ولكن مارتن حرص على أن يجمع فى كل عدد بين شخصية الفنان والصحفى ويمزج بينهما فلا يخل بالحقيقة .. وبذلك أصبحت المجلة جزءا منه .

***

حدث يوما ان كتب أحد المحررين مقالا هاجم فيه أول

مسرحية لبريخت تعرض فى لندن فضاق بالنقد وقال للمحرر :

ـ هل هذا معقول ان الشاعر والكاتب المسرحى الماركسى الكبير يكتب عنه بهذه الطريقة .. ويقال انه ممل .

أجاب الصحفى :

ـ وهل رايت مسرحيته ؟

ـ لا ..

وصمت رئيس التحرير ، والتزم الصحفى الصمت أيضا .

ولكن مارتن أدرك الحقيقة .. قال للكاتب .

ـ آسف .. استمر .. اذا كنت ترى ان بريخت ممل .. فاكتب ذلك .

***

وكان القسم الادبى فى هذه المجلة مدعاة سرور القراء ونقد مجلس الادارة .

فى ذلك القسم كانت هناك كل الاقلام .. وكل الكتاب حتى قيل يوما أن الناس يبدأون بقراءة القسم الادبى قبل القسم السياسى .. وكان مارتن يرد قائلا :

ـ لقد أصبحتم مدمنين لقراءة المجلة .

وطلب اليه مجلس الادارة مزيدا من التدخل فى القسم الادبى فكان جوابه :

ـ ان الناقد الفنى والادبى يجب أن تكون له نافذة أوسع على الحياة .

وكان مستوى النقد الادبى والفنى عاليا فى المجلة فجاب قراء يكرهون سياستها .

وبعض رؤساء تحرير الصحف والمجـــلات يهتمون بالقسم السياسي من الجريدة أو المجلة .. أما « مارتن » فكان يهتم بكل أقسام المجلة وسمح لهذه الاقسام كلهـا بأن تنمو .. معا .

وكان يحسن الاستماع كما يجيد الحديث . لم يقل لزملائه .

ــ أنت مخطيء .. أو انت على خطأ .. بل كانت له عبارة تقليدية .

ــ يا صديقى .. ان المسألة ليست بهذا الشكل . أو ..

ــ انى أعرف ماذا تعنى .. ولكنى أعتقد .. ثم يشرح رأيه المعارض تماما ..

كان كل عدد من المجلة بالنسبة اليه عملا أخلاقيا .. أو حملة أخلاقية .

كل معركة يمضى اليها بروح عالية ..

وأخذ متاعب العـالم كله مسألة شخصية ، بالنسبة اليه ، يحاول حلها .. ويعيش فيها ويهتم بكل مظاهر الحياة حوله .

وقيل انه حزم نفســـه حزمة واحدة وضعها فى الصحيفة ..

وكان مثل كل رؤساء التحرير الكبار يعيش لصحيفته .. يأكل ويشرب وينام معها ، وأى ألم يسهل احتماله من أجلهـــا .. وليس معنى ذلك أن يعيش فى دار الصحيفة كل الوقت ..وانما يأخذ معه كل مشاكل المجلة واهتماماتها حيث يأكل .. وحيث ينام !

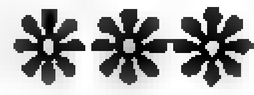
***

ومنذ اليوم الاول ..

أصبحت مجلة « السياسى الجديد والامة » تعكس آراء رئيس التحرير فتغضب معه .. وتضرب معه .. وتثير الجدل وتجذب اليها رأيا عاما كبيرا ربما لا يجب المجلة ولكنه مضطر لقراءتها .

واصبحت قراءة المجلة اجبارية على مستوى الوزراء فى معظم العواصم الاوربية وفى المستويات العليا من العالم .

وفتح أبواب التفكير امام الشباب .. ونجح فى جلب قراء مخلصين من بينهم .



ولم يوقع مقالاته باسمه .. وانما اختار توقيعا مستعارا هو « الناقد » .

وجعل عنوان مقاله « المفكرة » أو « اليوميات » وفيها يتكلم عن صراع المذاهب والآراء السياسية ، والمشاكل الدولية ، ويتحدث أيضا عن الزراعة والحدائق والقطط والناس والشطرنج ومشاكل الجنس .

وجمع فى هذه المقالات بين الرقة والغضب .. بين التسامح والقتال واستهدف منذ اليوم الاول خطة معينة حددها ورسمها .

وكان يسمع لكل آراء الناس قبل ان يكتب مقاله .. وقبل أن يتأثر بآخر الذين يلتقى بهم ولكن تفسيره لذلك بسيط :

— انى لا أكتفى بوجهات النظر السبع لكل سؤال ولكل موضوع . واحب أن أعرف أخطار وأخطاء اى موضوع قبل أن أكتب ..

وعندما يخطىء .

وشأن كل صحفى ـ كان يخطىء ـ ولكنه كان مستعدا دائما للاعتراف بالخطأ والرجوع عنه .. فى مقال لاحق .

***

وكان سوته حماسيا .. أو متحمسا وهو يكتب .

فى كل مقال يغوص فى أعماق الناس .. يفتح ضمائرهم أو يستصرخ ضمائرهم .. أو يضع هذا الضمير على مائدة العمليات الجراحية ليفحصه .. ويفحصوه .. بأمانة كاملة .

اما اسلوبه فكانت له الشخصية المتميزة بحيث عرفه الناس وتابعوه .. خلال تلك السنوات الطويلة رغم أنه بلا توقيع صريح .

وتعلم منه الكثيرون هذا الاسلوب .

***

تسلم رئاسة التحرير عام ١٩٣١ .. وحزب العمال فى الحكم ينادى بالاشتراكية « ومارتن » لا يعرف شيئا اسمه الامبريالية الاشتراكية أو الاشتراكية الاستعمارية. ولذلك وقف مع غاندى ونهرو يؤيد استقلال الهند ويدعو لاستقلال المستعمرات البريطانية فى آسيا وأفريقيا .

ويقول ان من حق هذه الشعوب أن تحكم بلادها .

وكان أغاخان يقول انه يجب أن تمر عدة قرون قبل أن تصبح الهند مستعدة للحكم الذاتى .

ولقد وقف اصحاب المجلة موقف المعارض لرئيس التحرير عندما أيد استقلال الهند والمستعمرات ولكنه لم يعبأ باعتراضهم واستمر يدافع عن فكرته . ومن هنا نشأت بينه وبين المثقفين الهنود صداقة وثيقة .

ويثير النقاش بين المثقفين الاشتراكيين ويرسم لحزب العمال فى الثلاثينات السياسية الاشتراكية ويذكرهم عندما يلاحظ نسيانهم لها .

ونادى بأن يصبح الشعراء والمثقفون والفلاسفة والمدرسون جنودا ينضمون للطبقة العاملة ويساعدون العمال اليدويين على طرد البورجوازيين من مركز النفوذ .

وايد اشراف الدولة ، بقدر ما ، على الصحف .. وطالب بنزع السلاح وتحريم الاسلحة الذرية وأيد تيتو وهوشى منه .. وهاجم التدخل الامريكى فى جنوب آسيا . فى فيتنام وكان من أوائل الذين دعوا لقيام صداقة أوثق بين انجلترا والسوفييت وصداقة أقل مع امريكا .

يوم تولى رئاسة التحرير كانت الازمة الاقتصادية الدولية تجتاح العالم . وأصيب كثير من المثقفين والسياسيين بشلل فى التفكير .

وفى تلك الظروف العصيبة كان يجب على حكومة العمال ، التى تتولى الحكم ، أن تطبق نوعا من الاشتراكية ولكنها عينت لجنة لبحث وسائل انقاذ الجنيه الاسترلينى بضغط النفقات .

يومها دعا الحكومة الى ضغط نفقات التسليح لمنع التضخم ووجهة نظره فى هذا الشأن ان صناعة الاسلحة لا تطرح سلعا استهلاكية فى السوق يقبل عليها الناس ولذلك فان هذه الصناعة هى الاولى بالحذف أو الاولى بضغط المصروفات والنفقات .

ودعا الى مضاعفة الضرائب المباشرة .

وتخصيص ١٠٪ من الدخل كضريبة .. وعارض

الاتجاه الى تشكيل حكومة ائتلافية وكتب يقول مخاطبا زعماء حزب العمال :

ـ أنتم تخونون المبادىء .

وردد كلمات الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز فقال :

أنتم تأخذون من الفقراء لتعطوا الاغنياء .

او ..

ـ تزيدون الاغنياء غنى .. وتضاعفون محنة الفقراء وتجعلون الحياة أكثر سهولة على الاغنياء .

وعارض تخفيض الاجور .

وعارض تخفيض الخدمات الاجتماعية لتصبح الارباح اكبر .. وقال :

ـ هذه سياسة قاتلة .. ولا يمكن ان نسميها أبدا مساواة فى التضحية .

ولم يفزع عندما تعطل عشرون مليونا فى أوربا وأمريكا بل كتب يقول :

« هذه ساعة الظلام الاخيرة قبل حلول فجر الاشتراكية .

وكان المسئولون فى بريطانيا يرون ان تلك الازمة الاقتصادية كارثة طبيعية كالزلازل يجب قبولها ولكن ارتفع صوت المجلة يقول « الاقتصاد كالآلة يمكن التحكم فيها » .

وقالت « الذين يطالبون بالاقتصاد الحر يرفضون استخدام عقولهم فهم يسمحون بموت الملايين ليبقى الاقتصاد الحر والامتيازات الطبقية » .

ارتفعت الاصوات في انجلترا تقول :

اذا لم نستطع زيادة الضرائب فيجب أن نخفض المصروفات . ان اعانة البطالة يجب أن تنخفض .

ويبدو واضحا في تلك الاثناء ان النية متجهة للأخذ بهذا الرأى ولكن الجريدة تقول :

« اذا كان لابد من خفض المصروفات فلماذا تفرض ذلك كعقوبة على الفقراء .. ارفعوا الضرائب المباشرة وحققوا مبدأ المساواة في التضحية » .

ولم يتأرجح ابدا في اتجاهاته حسب آراء القراء على نحو ما تفعل بعض الصحف .

وفي الهند بقرات مقدسة لا تذبح .

وكانت في انجلترا بقرات كثيرة مقدسة لا يمكن ذبحها خلال نصف قرن . وكان « هـ . ج . ويلز » « شبه مقدس » .

ولكن هارولد لاسكى يهاجمه وينتقده ويقول عن كتبه ان افكارها مشوشة ومتناقضة .

***

رجل كهذا .. كانت له أخطاء كثيرة .

أيد ستالين ودافع عنه .

ثم اكتشف « مارتن » ، قبل غيره ، مذابح ستالين .

واثناء الحرب العالمية الثانية تودد الغرب الى ستالين فاطلق اسم « العم جو » بينما « مارتن » وحده يهاجم ستالين !

وهاجمت المجلة عصبة الأمم قبل ان يكتشف العالم ضعفها وعجزها وقالت « لا يوجد في هذه العصبة من يحلم بوضع مصلحة الانسانية فوق مصلحة طبقته الحاكمة » .

وطالبت بفرض عقوبات اقتصادية على ايطاليا عندما حاربت الحبشة كما طالبت قبل ذلك بفرض عقوبات اقتصادية على اليابان عندما حاربت منشوريا .

وكانت تلك العقوبات هى الوسيلة الوحيدة لتدعيم « عصبة الامم » .

وكانت انجلترا تؤيد ميخائيلو فيتشى ولكن « السياسي الجديد » أيدت « تيتو » وتنبأت بثورته الشيوعية وساندته .. وكانت مقالاتها تقرأ بشغف فى جيش التحرير اليوغوسلافى .

وتنبأ أحد محررى الجريدة بأن اليابان ستدخل الحرب ضد أمريكا وانجلترا .. بعد تحليل دقيق لسياسة اليابان خلال ٣٠ عاما . وقال المحرر ان سياسة اليابان باستمرار هى محاولة طرد الغرب من آسيا .

وقبل أن تقوم الحرب تنبأت الجريدة بأن تشرشل هو الرجل الذى سيقود بريطانيا فى المعركة وحصلت من « تشرشل » على حديث قال فيه ان الديمقراطية ستستمر أثناء الحرب .

وقد عارض مارتن تشرشل دائما .

ومع ذلك .. عندما أوشكت الحرب ان تقوم دعا حزب العمال الى تأييد تشرشل بلا تردد باعتباره الامل الوحيد فى تحقيق السلام .

وتلقف حزب العمال هذا الراى .. واستطاع العمال ان يفرضوا تشرشل على حزب المحافظين .

***

كانت المجلة مدينة دائما قبل أن يتولى رئاسة

تحريرها مارتن .. والاسباب كثيرة لعدم الرواج من بينها رئيس التحرير السابق الذى وقف فى قاعة المحكمة فى احدى قضايا القذف يقول :

ـ اننا لا نتوقع عدلامن محكمة يرأسها القاضى فلان .

واتهم رئيس التحرير باحتقار المحكمة .. والزمت المجلة بتعويضات وغرامات ضخمة .

وجاء « مارتن » ليرفع توزيع المجلة باستمرار .. وعندما تركها بعد ٣٠ عاما .. كان رقم التوزيع قد ارتفع عشرة اضعاف من ١٠ آلاف الى ١٠٠ ألف نسخة كل أسبوع .

وتحول المشروع الفاشل .. الى جريدة ناجحة رابحة .

وقال يسخر من نفسه ..

ـ كان اهتمامى بالنجاح كبيرا حتى انى نسيت المبادىء .. وتجاهلت الرسالة !!

***

وفي انجلترا يرتفع توزيع الصحف الاسبوعية الى خمسة وسبعة ملايين نسخة أسبوعيا ومجلة « نيوستيتسمان » ١٠٠ الف ومع ذلك فان تأثير هذه المجلة الصغيرة ونفوذها كان أقوى وأكبر .

السياسيون يقرأونها .. وكل مقالاتها تثير جدلا بين المثقفين لان رئيس التحرير يستهدف مستوى عاليا من الفكر والسياسة لا يستطيع الذين يملكون مقادير الامور الارتفاع اليه .

كان دائما يأمل فى الافضل والاحسن ويتوقع الاسوأ .

وكان معظم زعماء حزب العمال من أصدقائه ومع ذلك يحمل عليهم لانه يعارض الخضوع للتسويات التى تفرضها واقعية الحياة .

انه لا يقوم بنفسه كصحفى بتنفيذ اية عملية سياسية ومع ذلك يدعو الذين فى يدهم الامور الى أن يفكروا أولا .

***

ولا يمكن أن يقال ان هذه المجلة ـ وهى من نوع خاص ـ أثرت تأثيرا مباشرا فى سياسية الحكومات ولكنها ـ من غير شك ـ أثرت فى المناخ السياسى فى تفكير الجيل الجديد الذى تولى بعد ذلك مسئولية الحكم فى بريطانيا وفى دول كثيرة من العالم .

وقد التقى بساسة بلاده .. وبستالين وغيره من زعماء الاتحاد السوفييتى وعمل مع « برنارد شو » وغيره من الادباء الكبار .. وكان تأثيره الاكبر على المثقفين ..

وهدفه الاول والاخير المثل العليا ..

يرفض دائما فكرة الاختيار بين أخف الضررين .. بل يريد المثالية وكان من المستحيل أن يرتفع السياسيون وكثير من المثقفين الى مستوى مايطلب أو يريد .

***

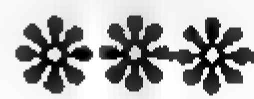
ولم يسع للقوة ابدا ولذلك حرص على أن يتجنب خوض المعارك الانتخابية رغم ان حزب العمال عرض عليه اكثر من مرة دخول المعركة الانتخابية عن الحزب وكان من رايه انه يريد النفوذ لا القوة .

وفى شهور الحرب العالمية الثانية .. وبسبب حالته الصحية .. ولانه راى أهوال الحرب الاولى كان يتوقع

هزيمة بريطانيا ويريد ان يموت قبل أن يتعذب على يد الالمان فاحتفظ فى جيبه ببعض السم .. ونصح أصدقاءه بأن يفعلوا ذلك .. وظل متشائما فترة حتى أدرك سخف ما يفكر فيه فاستعاد روحه المرحة .. ونشاطه وبقى يكتب دون أن يهتز بالحرائق أو القنابل التى تتساقط على لندن كل يوم .

وكانت له بعد اعتزال رئاسة التحرير آمال بينها أن يعيش لوردا ويختار فى مجلس اللوردات .

وبعد أن يتولى هارولد ويلسون رئاسة الوزارة اعتقد الناس أنه سيهديه اللقب ولكن ويلسون اكتفى بأن يقدم اليه لقب « سير » فرفضه مارتن وقال .. انى أكبر من اى لقب .. انى لا أبنى شهرتى على لقب .. بل اعتبره اهانة .



والحقيقة انه بنى شهرته على أساس أكبر من الالقاب .. بناها خلال ثلاثين عاما من العمل الصحفى المتصل يخوض كل أسبوع معركة مع نفسه .. ومع رجال السياسة ، والقراء ، ليصدر كل عدد وكأنه قطعة من نفسه .. واستطاع أن يؤلف ١٢ كتابا بينها كتابان هامان الاول عن الملكية هاجم فيه النظام الملكى .. وربما كان ذلك من أسباب عدم منحه لقب لورد .. والثانى « الصحافة التى يريدها الشعب » وفيه يحلق فى آفاق صحفية .. مثالية عليا سعى اليها أسبوعا بعد أسبوع فى كل سطر .. وفى كل مقال .. لا تجذبه الشهرة السريعة ولا شهرة النشر .. ولا يرغب فى أن يرى اسمه مطبوعا بحروف كبيرة .

كانت كلمة « ناقد » فى آخر كل مقـــال تعبيرا عن غايته فى الحياة .. ينقد بأسلوب رقيق ولامع .. متزن ومتحمس .. ينبض بالغضب وينطق بالصدق.. ويعارض بلاده ولا يخونها أبدا لانه يستهدف مثلا رائعا حتى وهو يطالب باستقلال المستعمرات مثل الهند .. فهو حريص على الصداقة بين بريطانيا والهنـد ، وبين بريطـــانيا والمستعمرات ، وهو يعـلم ان الاســــتعمار لن يدوم والصداقة باقية .

***

وظل أسلوبه فى الكتابة والعمل مثاليا يرى الجانب الطيب فى الناس ويرى انهم سيلتزمون الصـــواب اذا عرفوا الحقيقة .. والحقيقة تحررهم .

ورغم ان هذه المثالية ليست واقعية فان الصحفى العظيم لا ينبغى أن يكون واقعيـــا والا أصبح كرجل السياسة الذى يفاضل بين الممكن والمتيسر وافضـــل الحلول العملية .. ان على الصحفى الدعوة للحق والايمان بالثورة الاجتماعية .

ولقد بلغ ايمانه بذلك حدا دعاه لان يقول لصديق له أثناء الحرب الثانية .

ـ انى أتمنى أن تظل هذه الحرب فترة أطول لانهـا تساعد على خلق الثورة الاجتماعية .

فقالت زوجته :

ـ لو كان لدينا أولاد .. ما همست بذلك أبدا .

ولم يتسامح فى الصدق مرة .. ولا يعنى هذا ان كل ما نطق به هو الصدق بل ما يراه صدقا فحسب .

ولقد استطاع خلال ثلاثين عاما أن يحول مجلة يسارية من مجلة فاشلة الى مجلة يسارية تحس وأنت تقرأ كل عدد منها أن الكاتب على وجهه ابتسامة وفي يده أغنية ويترنم بأنشودة الحياة .. حاسته الصحفية قوية ويذكر الناس في مجتمع رأسمالي .. بالاشتراكية .. لا اشتراكية حزب بالذات هو حزب العمال وانما اشتراكية التخطيط وليست عبادة الدولة .. يعلم ولا يعظ غايته تحرير الناس ووحدة العالم بشرط أن تنبع هذه الوحدة اختياريا .. ويعالج المشاكل السياسية والاجتماعية بوعى .. ويغضب .. بعاطفة .. ويفن .

ترك « كينجسلى مارتن » رئاسة التحرير بعد أن تولاها ثلاثين عاما .

تركها باختياره لواحد من تلاميذه وهو «جون فريمان» الذى استعان به حزب العمال ليكون سفيرا لبريطانيا فى الهند ثم سفيرا فى واشنطن .

***

وكانت المجلة فى أول عهدها تعظ .. فأصبحت ، فى عهد مارتن ، تعلم .

آمنت بأن مركز القوة فى كل دولة لم يعد داخل البرلمان وانما خارجه ولذلك حرصت على أن تكتب للقلة المثقفة وتسبق حزب العمال .. ولا تحارب معارك قديمة ربحتها أو خسرتها ، وانما تقدم كل يوم للجيل الجديد التزاما عاطفيا وسياسيا جديدا .

وقيل فى وقت من الاوقات ان مثل هذه الجريدة هى التى منعت اليساريين البريطانيين من الاتجاه الى الشيوعية كما حدث فى ايطاليا وفى فرنسا .

وقد حدد مارتن لليسار هدفا واضحا جنبه الانزلاق الى الشيوعية .

دعا « أبا بانت » سفير الهند فى القاهرة كينجسلى مارتن لقضـاء أسبوعين فى ضيافته .. وجاءت معـه زوجته « دوروثى وودمأن » .

ومارتن مريض قديم ..

فى شبابه أعفوه من الخدمة العسكرية أثناء الحـرب العالمية الأولى لانه مريض ولذلك تطوع فى الاسعاف .. ولكن الامراض تجمعت عليه فجأة .. ولم ينجح الطب .. ومات فى القاهرة فى فبراير ١٩٦٩ . وقالت زوجته وسط دموع الحزن ان زوجها أوصى قبل وفاته بألا يقام له قبر وأن يعطى جثمانه هدية للبلد الذى يموت فيه لتجرى على الجثمان أبحاث طبية .. او ينتفع به طبيا .. ولذلك تركت جثمانه لمستشفى قصر العينى .

ولكن الجنازة الحقيقية لمارتن كانت فى الصفحات الاولى من صحافة الشرق والغرب على السواء ..

ومن الهنـــد اتصلت رئيسة الوزراء أنديرا غاندى بسفيرها فى القاهرة لتقدم العزاء .

وفى معظم الدول التى كانت يوما مستعمرات بريطانية أو خاضعة للحكم البريطانى .. خرجت الصحف تنعى الرجل الذى وقف قلمه للدفاع عن استقلال الشـعوب .. ضد بلاده .. ضد انجلترا .

فان مارتن كان نموذجا فريدا للصحفى العظيم .

***

ـ وتعاقب على المنصب ، بعد ذلك ، كثيرون ...

ولم تستطع المجلة ، نتيجة لعدم الاستقرار ونقص

الوضـوح فى الرؤية السياسية أن تسـتعيد مجـدها القديم .

تولى رئاسة تحريرها عام ٧٢ ريتشارد كروسمان الوزير العمالى السابق لمدة عامين .

وطلب اليه الاستقالة فرفض ونشر مجلس ادارة المجلة فى الصحف انه استقال فرد ببيان آخر يقول :

« لقد طردونى » !

وفى عام ٧٨ اختاروا الصحفى الاسترالى بروس بيج رئيسا للتحرير .

وكان يعمل فى جريدة « صانداى تايمس » الاسبوعية ثم اختلف مع رئيس تحريرها فاستقال وعين رئيسا للتحرير « نيوستيتسمان » وبقى فى منصبه ٤ سنوات ثم عزلوه بلا مقدمات لانه لم يرفع توزيع المجلة وان منع هبوطها .

وقد تقرر عزله فى نوفمبر عام ١٩٨١ .

وبدأت المفاوضات فورا لاختيار رئيس تحرير جديد .

أصر المحررون على أن يكون لهم رأى وأصر مجلس الادارة

وأخيرا اتفق على تشكيل لجنة تضم ممثلين لمجلس اداره من المحررين وعمال الطباعة تقوم بهذه المهمة .

وطلبت اللجنة أن يقدم الراغبون فى المنصب طلبا يتم قبل ٣١ مارس ١٩٨٢ .

وتقدم خمسة لهذا الغرض بينهم الصحفى والاذاعى .

وحتى يمكن الاتفاق أختير كاتب يسارى هو هيوج ستيفنسون الذى عمل محررا فى صحيفة التايمس ثم أصبح كاتبا للافتتاحيات فى جريدة « الجارديان » .

وقد فاز ستيفنسون بأغلبية ٧ أصوات ضد ثلاثة .

وأصبح عليـه أن يعيـد مجد مجلة اليسار فى بريطانيا ..

ففى الوقت الذى زاد عدد القراء بصفة عامة انخفض توزيع المجلة الى ٣٢ ألف نسخة .

وارتفعت خسارتها السنوية عن الرقم المعتـــــاد فى السنوات الاخيرة وهو ٧٠ ألف جنيه الى ١٣٠ ألفا .

وقررت المجلة بيع مبناها والانتقال الى مخزن دجاج قديم !!!

قضيـــة قـــذف

كان « راسبوتين » فلاحا من سيبيريا .. ولم يكن في يوم من الايام راهبا .. ولكنه ادعى ذلك واستطاع الوصول الى قيصر روسيا وزوجته واقنعهما بأن له قوة روحية خارقة وأنه يملك القـــدرة على شفاء ولدهمـــا المريض .

وازداد نفوذ راسبوتين على القيصرة حتى ان رجال الأسرة المالكة آمنوا بأنه لا خلاص لروسيا الا بقتل هذا الراهب المزيف .

وفى ديسمبر عام ١٩١٦ أثناء الحرب العالمية الاولى دعا الامير « يوسوبوف » « راسبوتين » لتناول العشاء وقدم له طعاما مسموما ثم قـــام الأمير مـــع خمسة من أصدقائه باطلاق الرصاص على راسبوتين .

وانصرف الجميع ولمـــا عاد « يوسوبوف » وجد أن « راسبوتين » لا يزال حيا بل حاول قتل الامير الذى أطلق عليه ٤ رصاصات أخرى ثم ألقى جثته فى النهر .

أمر القيصر بابعاد الامير الى سيبيريا ومنها انتقل الى باريس مع أسرته ليقيم فى فرنسا .

وبعد ١٠ سنوات نشر الامير « يوسوبوف » مذكراته التي روى فيها كيف خطط لقتل « راسبوتين » .

اختارت شركة مترو فيلمـــا اسمه « راسبوتين : الراهب المجنون » .

وفى هذا الفيلم يظهر أمير ــ ليس « يوسوبوف » ــ يلعب دورا هاما فى اغتيال الراهب المزيف .

وفى الفيلم أيضا تظهــر ناتاشا زوجة الامير كمعجبة « براسبوتين » .

وتقول الاميرة ــ فى الفيلم ــ لزوجها وهى تتحدث عن راسبوتين :

ــ ظننته جاء من الســـماء ولــكنه مجرد رجل .. ولا استحق أن أكون زوجتك .

ومن خلال المشاهد يبدو أن « راسبوتين » اما انه « اغتصب » ناتاشا أو أغراها !!

عرض الفيلم فى انجلترا فأقام الامير دعوى ضد شركة « مترو جولدوين ماير » منتجة الفيلم يطالب فيهـــا بالتعويض للقذف فى حقه .

وقال الامير ان العالم كله يعرف انه الرجل الذى قتل « راسبوتين » .

والفيلم يقول ان زوجة الامير خائنة .

وفى ظل هذا الاتهام يبدو ان الامير قتل زوجتـــه لسبب شخصى .

ولكن الشركة قالت ان شخصية الامير خيالية .. وان الذين شاهدوا الفيلم ، حتى من أسرة الاميرة لا يجدون صلة بينها وبين البطلة .

استدعت المحكمة الاميرة وسألتها :

ـ هل تريدين مالا أم تبتغين نفى تهمة الخيانة عنك ؟
اجابت :
ـ لا أريد مالا .
سئلت :
ـ وهل ستقيمين دعاوى ضد الـ ۲۲۰ دارا للسينما عرض فيها الفيلم ؟
اجابت بالايجاب ..
تداول المحلفون ساعتين ثم صدر الحكم بمنح الاميرة تعويضا قدره ٢٥ الف جنيه وذلك فى فبراير عام ١٩٣٤ .. وهو يعادل ١٥٠ الف جنيه بأسعار هذه الايام .
وأيدت المحكمة الاستئنافية هذا الحكم ..
وحصلت الاميرة على ربع مليون جنيه تعويضا فى القضايا التى اقامتها فى دول أخرى عرض فيها الفيلم .

***

لمع المثال الشاب خلال عامين ..
استدعاه رجال الكنيسة وأعضاء مجلس اللوردات والشعراء والفنانين .. وحتى الملكة ليصنع تماثيل لهم .
ونجح فى صنع تمثال للشاعر « بايرون » لا يزال حتى الآن قرب حديقة هايد بارك فى لندن .
وضاق زميل للمثال فنشر فى احدى المجلات انه شخصيا الذى قام بصنع معظم التماثيل وأن الفنان نسبها لنفسه .
ولم يجد المثال « بيلت » مفرا من اقامة دعوى قذف ضد زميله وجاء أستاذ المثال يشهد وكان هدفه هدم « بيلت » .

وكان الحل الوحيد هو احضار ٤٠ من تماثيل «بيلت» للمحكمة .. امتلأت بهم القاعة .

وجاء أصحاب هذه التماثيل يشـــهدون بأنهم رأوا « بيلت » وهو يصنع هذه التماثيل .. أمامهم !

ولم يجد « بيلت » مفرا من أن يعلن أمام المحكمة أنه مستعد ليصنع تمثالا سبق له عمله حتى يطمئن القضاء الى أن « بيلت » وحده يصنع التماثيل وترك للمحكمة أن تحدد الشخصية .. فاختارت تمثالا قديما أقامه لاحد مساعديه ليصنع مثله .

وخصصت غرفة فى دار المحكمة ليقوم فيها الفنـــان بعمله ، ولم يسمح بدخول الحجرة الا للمحلفين وبعد ٣ أسابيع وضع التمثال الجـديد فى قاعة المحـكمة ورفع الستار عنه بين تصفيق الحاضرين .

وجاء النقاد ومثالون آخرون ليقول بعضهم ان التمثال الجديد لا يختلف عن التمثال القـديم .. والبعض قال بعكس ذلك .

وأخيرا قضت المحكمة بحق « بيلت » فى التعويض عما وجه اليه من قذف وقدرت المحكمة ذلك بـ ٥٠٠٠ جنيه .

وايدت ٣ محاكم استئنافية هذا الحكم .

ومما يذكر أن أحداث هذه القضية وقعت عام ١٨٨٢ وقد استغرق نظرها أكثر من عامين وكان عدد الشهود ٨٢ لصالح « بيلت » و ٦١ لصالح زميله ..

أما المحلفون فلم يحصلوا الا على جنيه واحد مقابل حضورهم كل الجلسات طبقا لما هو محدد لهم من أجر فى ذلك الزمان !

تعتبر معركة « جوتلاند » البحرية أكبر المعارك فى تاريخ الحرب العالمية الاولى ، وقد تحقق فيها انتصار ضخم لبريطانيا ضد ألمانيا .

جرت المعركة مساء يوم ٣١ مايو عام ١٩١٦ وأذاعت الحكومة البريطانية البلاغ العسكرى مساء ٢ يونيو .

كتب البلاغ بطريقة غريبة ..

قال ان « خمس سفن حربية بريطانية اغرقت وتعطلت سفينة وفقدت خمس سفن أخرى و .. » .

وقال البلاغ بعد ذلك أن « خسائر العدو خطيرة جدا وهى ... » .

وأفاض البلاغ فى وصف خسارة العدو .

ولكن البيان كان صدمة للشعب البريطانى لذلك رأى « لويد جورج » رئيس الوزراء ان يخفف وقع الصدمة على الناس فطلب من « ونستون تشرشل » أن ينشر تقييما للموقف العسكرى .

وكان تشرشل فى أوائل فترة الحرب وزيرا للبحرية ولكنه ترك منصبه .

كتب « تشرشل » مقالا وصف فيه المعركة بأنهـــا خطوة نهائية حاسمة نحو تحقيق النصر النهائى .

وانتهت الحرب عام ١٩١٨ بانتصار بريطانيا وأمريكا وحلفائهما على المانيا .

وبعد ٣ ســنوات أى فى عام ١٩٢١ ــ كان اللورد « الفريد دوجلاس » يرأس تحرير مجلة صغيرة فنشر مقالا اتهم فيه « تشرشل » بأنه كاتب أول بلاغ عسكرى عن معركة « جوتلاند » وأن الصياغة كان لها هدف مالى وهى أن تهبط أسعار الاسهم البريطـــانية فى بورصة نيويورك فيشترى صديق « تشرشل » السير « ارنست

كاسل » هذه الاسهم بسعر منخفض ثم يبيعها بعد ذلك بسعر عال عندما تعرف الاخبار الحقيقية .

وقال اللورد « دوجلاس » انه كان من نتيجة هذه المؤامرة أن ربح السيد « كاسل » بين ٤٠ و ٥٠ مليون جنيه وأنه أعطى « تشرشل » عدة ألوف من الجنيهات ثمنا لكتابة البيان .

.. وكان « تشرشل » عام ١٩٢١ وزيرا فاستشار النائب العام الذى نصحه قائلا :

ـ لا تهتم .

ولذلك أعاد اللورد « دوجلاس » نشر اتهامه لتشرشل مرة أخرى واصدر كتيبا صغيرا قال فيه :

« لو كان « تشرشل » قد نشر ضدى ربع أو خمس ما كتبته كنت آتى به الى المحكمة واضع أنفه فى التراب».

اضطرت النيابة العامة الى تقديم اللورد « الفريد » الى القضاء بتهمة القذف وذلك فى ديسمبر ١٩٢٣ .

وجاء الوزير اللورد « بلفور » يشهد بأنه الذى كتب بخط يده مسودة البلاغ العسكرى .

وكان السير « كاسل » قد مات ، فجاء سكرتيره يشهد بأن « كاسل » قدم لتشرشل هدية زواج عام ١٩٠٨ وأنه سبق أن استثمر أتعاب « تشرشل » عن تأليف الكتب وأنه خلال معركة «جوتلاند» قبلها وبعدها بشهور، لم يشتر أو يبع أسهما بريطانية .

لم يستغرق المحلفون سوى ٨ دقائق قرروا بعدها أن اللورد « دوجلاس » مذنب وحبسوه ستة شهور وغرامة مائة جنيه ونصحوه بحسن السلوك مع كل رعايا صاحب الجلالة ملك بريطانيا !

ففى اوربا وامريكا لا تعتبر قضايا القــذف جريمة يستحق عنها العقاب بل يستحق عنها التعويض المالى فحسب فهى قضية مدنية وليست جنائية .

وفى انجلترا وحدها تتحول قضية القذف الى قضية تعرف تهمتها باسم « احتقار المحكمة » ويقيمها النائب العام وحده .

ففى هذه الحالة يعتبر الامر جريمة ضد المجتمع .

والنائب العام البريطانى ، عادة ، لا يتحرك ايمانا منه بحرية الصحافة الا فى أحوال نادرة .. نادرة !

***

هارولد « لاسكى » كاتب سياسى شهير تولى رئاسة اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطانى .

بعد الحرب العالمية الثانية خطب « لاسكى » داعيــا لانتخاب حزب العمال فقال :

« لم يحدث فى التاريخ أن تخلت طبقة حاكمة عن امتيازاتها بطريقة سلمية ودستورية » .

وقال ان « الثورة فى بريطانيا ربما تحدث دون عنف ، ولكن اذا لم يستطع حزب العمال تحقيق برنامجــه بموافقة اجماع الشعب فان عليه استعمال العنف حتى ولو كان ذلك يعنى الثورة » .

كان ذلك عام ١٩٤٥ وسط حملة انتخـــابات عامة يخوضها تشرشل الذى انتصر فى الحرب بينما يقف ضده كليمنت اتلى وحزب العمال .

وخاف لاسكى ان تؤدى هذه الكلمات التى نشرتها احدى الصحف الى فشل حزب فى الانتخابات فأقام دعوى قذف ضد الصحيفة .

ولكن الشهود الذين حضروا الحفل الانتخابى أكدوا

أن « لاسكي » أدلى بهذه الكلمات ولذلك رفض المحلفون قضية لاسكي بعد مداولات استغرقت أربعين دقيقة .

وعجز لاسكي عن دفع مصروفات القضية التى بلغت ١٣ ألف جنيه فجمعها الناس فى تبرعات .

وفاز حزب العمال وهزم تشرشل .

***

قالت صحيفة «الديلى ميل» البريطانية أن «سافالاس» الذى يقوم بدور « كوجاك » فى الحلقات التليفزيونية لا يستطيع أن يكون نجما لان حياته الليلية تجعله ينسى سطورا من النص المكتوب عند تمثيله الافلام السينمائية .

وقالت الصحيفة « كوجاك » لا يمكن أن يكون ممثلا محترفا لانه يشرب الخمر كثيرا وقد جعله التصفيق يفقد اتزانه .

وهو مصاب بانفصام الشخصية مثل دكتور « جيكل » ومستر « هايد » وقد ألغت شركة يونيفرسال انتاج فيلم كانت بطولته ستسند الى « سافالاس » .

وصرح احد المسئولين فى الشركة بأنها « ليست مستعدة للمقامرة بأموالها على فنان غير مسئول » .

أقام كوجاك دعوى قذف وتعويض ضد الصحيفة قال فيها أن الهدف من المقال الاضرار به كما أن مستقبله الفنى يتأثر بما نشر فقضت له المحكمة بتعويض ٣٤ الف جنيه .

***

ونشرت صحيفة بريطانية عام ١٩٣١ صورة لاعب جولف وقد برزت من جيبه قطعة شيكولاته عليها اسم الشركة فأقام دعوى تعويض لاستغلال اسمه تجاريا بينما هو لاعب هاو غير محترف .

وقد قضت له المحكمة بالتعويض .

وكتب أحد الصحفيين البريطانيين عام ١٩٤٠ عن رجل اتهم بتعدد الزوجات وذكر اســـــمه .. وأما وظيفته فجرسون فى أحد البارات .

ولكن رجلا آخر يحمل نفس الاسم ويعيش فى بلد آخر قال انه المقصود رغم ان الصحيفة ذكرت اسم بلد الاول .

ولكن القضاء حكم للرجل بالتعويض .

***

وفى رواية « بيت السكر » التى نشرت عام ١٩٥٦ ذكر المؤلف اسما خياليا للبطلة فأقامت ممثلة مغمورة تحمل نفس الاسم دعوى قالت فيها ان الرواية تسىء اليها وتعتبر قذفا فى حقها فقضى لها بتعويض مائتى جنيه .

وقدمت احدى الصحف خبرا فيه اساءة لعميل سابق لادارة المباحث الجنائية يقضى اجازته على شاطىء ميامى .

ولكن هذا العميل اتهم الصحيفة بالقذف وأقام دعوى ضدها ..

دافعت الصحيفة بأنها لم تذكر اسمه وأن هناك عملاء كثيرين سابقين لتلك الادارة .. على شاطىء ميامى .

ولكن المحكمة طالعت الخبر وجاء الشهود يقولون ان ذلك الرجل بالذات يشير الى نفسه فى كل مناسبة بأنه عميل سابق .

وعلى هذا الاســـاس قضت المحـكمة بتعويض تدفعه الصحيفة يبلغ ٥٨٫٥٠٠ دولار .

وهو على فراش الموت قال لاصدقائه ان صـــديقته وضعت له السم فى الطعام .

ومات الرجل فنشرت احدى الصحف كلماته الاخيرة دون ذكر اسم الفتاة ولكنها فى دعوى التعويض قالت انها الصديقة الاخيرة للرجل والكل يعرف ذلك ومن ثم ترى أن هناك جريمة قذف .

قبلت المحكمة هذا المنطق وقضت بالتعويض .

***

كان فريق كرة القدم لولاية أوكلاهوما يفوز باستمرار فنشرت صحيفة ان الفريق يتعاطى أدوية وموادا منشطة قبل المباريات فأقام أحد أعضاء الفريق دعوى يطـالب فيها بالتعويض عن القذف .

قالت الصحيفة انها لم تذكر اسماء ولكن اللاعب قال ان التعميم يؤذيه وما دامت الصحيفة قد اتهمت الفريق كله فقد اتهمته أيضا .

قضت المحكمة للاعب بتعويض ٧٥ ألف دولار .

ولما رأى زملاؤه ذلك أقاموا دعاوى أخـرى قبلهـــا القضاء .

***

قبض على فتاة بتهمة السكر والعـربدة وأدينت امام القضاء فنشرت احدى الصحف اسم الفتاة .

وتبين ان ممثلة شهيرة سابقة تحمل نفس الاسم مع اختلاف فى حرف واحد فأقامت هذه الممثلة دعوى قذف وقالت أنه كان يجب على الصحيفة أن تبين أن الممثلة

ليست المذنبة خاصة وأن المتهمة ممثلة أيضا .

فوافقت المحكمة على حق الممثلة فى التعويض .

***

وقدمت صحيفة « مورننج جورنال » فتاة مجتمع مشهورة وقالت أنها تحاول صيد زوج .

فاعتبرت المحكمة ان هذا قذف وقضت للفتاة بتعويض ٣٠٠٠ دولار .

***

ونشرت احدى الصحف صورة جنرال من المكسيك ومعه خطيبته فأقامت زوجته دعوى تعويض عن القذف وقالت ان الجيران سيظنون أنها ليست زوجته .

وقالت انها انفصلت عنه ولكن الطلاق لم يتم فقضى لها بالتعويض وقدره ٥٠٠ جنيه .

واقامت زوجة ملاكم دعوى تعويض عام ١٩٤٠ لان صحيفة « الاكسبريس » ذكرت ان زوجته تجلس فى كل مباراة تراقب زوجها .

ووصفت الصحيفة الزوجة بأنها مجعدة الشعر .

وقالت الزوجة انه يبدو مما نشر انها ليست زوجته لان شعرها غير مجعد فقضى لها بتعويض ٦٥٠ جنيها .

***

ونشر كاتب أمريكى عام ١٩١٧ نقدا لمسرحية « يقظة الربيع » فقال ان ذلك أسوأ عرض رآه على المسرح فى حياته .

فأقام بطل الرواية دعوى قذف ولكن المحكمة رفضتها وقالت :

« بما أنه لا يوجد قصد سيىء فمن حق الناقد أن يسخر بلا حدود ما دام نقده أمينا عادلا » .

وقالت أيضا « ان من حق الناقد السخرية لانها أكبر سلاح مؤثر » .

***

ونعت صحيفة « نيويورك تايمس » رجلا ، ذكرت اسمه .

أقام الرجل دعوى على الصحيفة يتهمها فيه بالقذف فى حقه ويطالب بتعويض لان نبأ وفاته أزعجه وأدى لاحساس بالالم عند أسرته .

ولكن القضاء الامريكى رفض الدعوى على أساس انه ليس هناك قذف .

وقالت المحكمة :

« ان الموت ليس من صنع المدعى بالحق المدنى وانما هو قدره . وهو خبر غير سار قد يؤذى المدعى ، وقد يضايقه ، وقد يؤثر فى مشاعره ، وهذا الخبر نكتة سخيفة ولكن ذلك كله ليس مبررا للتعويض .

***

ونشرت احدى الصحف نبأ آخر عن وفاة رجل وقالت ان جثمانه يوجد فى عنوان كذا ، ونشرت العنوان .

أقام الرجل دعوى قذف لان العنوان المذكور هو مكان بار يملكه .

ومرة أخرى قال القضاء الامريكى انه لا يجوز التعويض .

***

وحدث فى ٤ يناير عام ١٩٥٨ أن نشر فى الصفحة الاولى

ان رجال الشرطة هاجموا ليلا ناصية شارعين فى مدينة نيويورك وقبضوا على عشرة من المشتبه فيهم وأودعوا سيارة الشرطة ولكن المتهمين دخلوا السيارة من مؤخرتها وهربوا من مقدمتها واستغلوا الظلام فأحدثوا اضطرابا بين الشرطة وسرقوا عصيهم وهرب أربعة من المتهمين .

وذكرت « نيويورك تايمس » أسماء قائد الحملة وبعض رجاله فأقاموا دعوى تعويض عن القذف وقضت المحكمة بتعويض ٦١٢٥ دولارا لاحد رجال الشرطة و ٦٠٢٠ لآخر . وقالت المحكمة ان الصحيفة عمدت الى الترفيه عن القراء على حساب رجال الشرطة وان الخبر لا يستحق النشر فى الصفحة الاولى من جريدة محترمة مثل « نيويورك تايمس » .

وقد اعتبرت صحافة أمريكا ان هذا الحكم يمثل تدخلا خطيرا من القضاء فى حرية الصحافة وأنه من الخطر على هذه الحرية أن يبحث القضاء أهمية أى خبر وصلاحيته للنشر فى أى من صفحات الجريدة .

***

نشرت « نيويورك تايمس » أيضا فى ٢٩ مايو عام ٦٠ اعلانا من لجنة الدفاع عن الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج تطلب تبرعات .

وقال الاعلان ان أنصار مارتن لوثر كنج قد ضربوا وأهينوا واعتدى عليهم كما تم اعتقالهم فى ولاية الاباما .

وحصلت الصحيفة على ٤٨٠٠ ثمنا للاعلان .

وباعت الصحيفة ٣٩٤ نسخة فقط فى ولاية الاباما فى ذلك اليوم .

ولكن مدير الشرطة طالب بتعويض قدره نصف مليون دولار ، وطلب المحافظ وآخرون من المسئولين تعويضات مجموعها ٣ ملايين دولار .

وقالوا ان الصحيفة لم تنشر أسماءهم ولم تكتب كلمة عن رجال الشرطة ولكن المفهوم ان الاعتقال والقبض ومطاردة المتظاهرين يقوم بها رجال الشرطة ولذلك فان من حقهم التعويض الضخم .

قضت محكمة « الاباما » بالتعويض وأيدت ذلك المحكمة الاستئنائية ولكن الصحيفة طعنت فى الحكم أمام المحكمة العليا الاتحادية فى واشنطن .

قالت الصحيفة انها ليست مسئولة عما يرد فى اى اعلان .

وقد أخذت المحكمة العليا بوجهة نظر الصحيفة ورفضت الدعوى وقالت « ان من حق الصحيفة القذف فى اى اعلان . ومن حقها الحماية حتى فى الاخبار الكاذبة وعندما تنشر عن اتهام البعض بالجرائم » .

وقالت المحكمة « ان الشرط الوحيد للحصول على التعويض هو سوء النية عند النشر » .

ولكن « نيويورك تايمس » دفعت نصف مليون دولار مصروفات الدعوى الطويلة فان نفقات التقاضى مرتفعة للغاية فى اوربا وأمريكا .

يموت بحثا عن صورة

وصل ستة من حراس السفارة الامريكية الى الفندق الذى يقيم فيه الصحفيون فى مدينة « سان سلفادور » عاصمة جمهورية السلفادور فى أمريكا الوسطى .

أخذ الحراس يحتسون الخمر ، ويتبادلون النكات ويتجاذبون الحديث مع الصحفيين الذين تباعدوا عنهم ليتركوهم للشراب .

وفجأة أمسك أحدهم بجهاز « الووكى توكى » ووضعه على أذنه فبدا وكأنه رسالة هامة .. ثم أسرع يهمس الى زميل له بكلمات لم يسمعها أحد .

اقتربت رءوس الرجال الستة ، ثم بدأوا يخرجون أجهزة « الووكى توكى » من جيوبهم ويتناوبون الهمس والاستماع اليها .

وتغير المشهد .

وقف أول الحراس وفى يده « الووكى توكى » ثم امسك بالكأس وألقاها على الارض وهو يلعن بكلمات غير مفهومة .

وجاء دور الثانى ليحطم الكأس فتتطاير شظاها ويسمع

صوتها بعض الصحفيين وأخذ الحارس يلعن كل من فى السلفادور .

والثالث .. حتى الاخير .

ثم أسرع الحراس جميعا .. وفى أيديهم المسدسات وحولهم الشظايا المتناثرة وكلماتهم تتابع « الووكى توكى » يقفزون الى السيارات ويستقلونها مسرعين .

أحس الصحفيون ان شيئا غير عادي يجرى فى المدينة يتصل بالسفارة الامريكية ذاتها فأخذوا يجرون الى سياراتهم ، وعربات التاكسى ، وما توفر لهم من موتوسيكلات وغيرها ، حتي وصلوا وراء الحراس ، الى مبنى السفارة الامريكية وهو أشبه بالقلعة تحيط به حراسة قوية من جنود الدولة .. وجنود أمريكا .

اختفى الحراس داخل السفارة بينما وقف الصحفيون خارجها يحاولون اختراق الحراسة ، ويتبادلون المجاملات حينا ، والشتائم كثيرا مع الموظفين والحراس الآخرين محاولين دخول السفارة والوصول الى سر الحراس الستة .

واستمر الصحفيون عند الباب المغلق يكاد جنون الفضول يودى بعقولهم حتى عاد أحد الحراس الستة وقال للصحفيين وهو يبتسم :

ــ هيه .. ضحكنا عليكم !

قال الصحفيون فى دهشة :

ــ ماذا تعنى ؟

قال الحارس :

ــ أردنا التسلية ورأيناكم تحومون حولنا فقلنا لنعبث

بصحفيين يريدون خبرا .. وأنتم تجرون وراء المسئولين .. فأردنا أن تلهثوا ، يوما ، خلفنا !

وابتعد الحارس داخل السفارة وهو يضحك والصحفيون لا يصدقون حرفا مما يقول معتقدين أن الرجل يكذب ..

طال انتظار الصحفيين وظهر غضبهم فى أحاديثهم مع باقى الحراس الذين أبلغوا المسئولين بالسفارة .. فجاء المستشار الصحفى ليؤكد للصحفيين تلك الحقيقة ويعتذر اليهم عن « المقلب » السخيف !

عاد الصحفيون الى الفندق يتألمون .

وأسرع بعضهم يروى القصة في برقيات الى صحف أوربا وأمريكا .

وظلت تدوى فى آذان الجميع كلمة المستشار الصحفى الامريكى وهو يقول لهم :

ـ أن أى انسان في السلفادور يستطيع أن يعبث بكم ويجعلكم تتبعونه الى أى مكان .. بل ، أيضا ، الى قبوركم .

وكان الصحفيون يعرفون ان المستشار يقول الحق فان ٩ صحفيين قتلوا فى السلفادور خلال عامين من الحرب الاهلية .

وكان الموت ينتظرهم جميعا على عتبة فندق « كامينو ريال » حيث يقيم ٢٠٠ صحفى جاءوا من أوربا والولايات المتحدة وامريكا الجنوبية يغطون أحداث أغرب الحروب الاهلية فى هذا العصر .

السلفادور أصغر دولة في أمريكا الوسطى ، هزمتها اسبانيا عام ١٥٢٦ وظلت تحتلهـا نحـو ٣٠٠ عام حتى استقلت عام ١٨٣٩ ، وعدد السكان ٥ ملايين نصفهم من الاميين ويمثل البن نصف الصادرات .

ويحكم البلاد ـ منذ عامين ـ مجلس ثورة من ٥ أعضاء اثنان من العسكريين وثلاثة من المدنيين اختاروا من بينهم جوزيه نابليون دوراتي رئيسا للجمهورية .

وهـذا المجلس يتبعـه جيش مؤلف من ٢٢ ألف جندي .

وهناك ضابط سابق فصـل من الجيش يرأس فرقا للموت تقتل الثوار ، وكل من تشك في انتمائه للشيوعيين أو من تظنه من رجال العصابات .

وهناك رجال العصـابات ينتمون لـ ٥ جبهات أو جماعات عددهم ٥٠٠٠ يهـددون قوات الجيش وفرق الموت أيضا .

ورجال العصابات يتلقون المعونة من كوبا .

وأمريكا تخشى زحف الشيوعية الى السـلفادور ، وتخاف من انتصار العصابات ، ولذلك أمدت الحكومة بمعونة اقتصادية تبلغ نحو ٢٠٠ مليون دولار وأرسلت ٥٥ مستشارا عسكريا لتدريب الجيش .

وفي الولايات المتحدة انقسم الرأى بالنسبة لمساعدة السلفادور .

فريق يخشى أن تتورط الولايات المتحدة في السلفادور فتتكرر تجربة فيتنام . وهؤلاء يقولون ان المسـاعدات الامريكية كانت ١٠ ملايين دولار ظلت ترتفع حتى وصلت

الى رقم ٢٠٠ مليون دولار والمستشارون العسكريون كانوا ٢٠ فارتفع الرقم الى ٥٥ .

وفريق آخر يطالب بوقف زحف الشيوعية الى أمريكا الوسطى .

وفى ظل هذا الموقف المعقد جاء ٢٠٠ صحفى الى السلفادور يتابعون أخبارها ليروا هل ستتكرر تجربة فيتنام ، أو تجربة كوبا ، فى أمريكا الوسطى .

***

فى العاصمة « سان سلفادور » يوجد فندق واحد به اجهزة للتليكس وهو « كامينو ريال » .

وفى هذا الفندق يقيم كل الصحفيين .

والحكومة تريد جذب الصحفيين اليها ، وكذلك فرق الموت والثوار أيضا .

ولكن الصحفيين لا يستطيعون مغادرة الفندق ليلا فالثوار على بعد ٣٠ ميلا من العاصمة وهم يحتمون بالغابات .

ولا يستطيع الصحفى ، أن يتحرك وحده ، خوفا من رصاصة غادرة فان الثوار يقتلون الصحفيين ويتهمون الحكومة ..

والحكومة بدورها تقتل الصحفيين وتتهم الثوار .

وكل طرف يريد أن يبين لواشنطن أولا ، وللعالم بعد ذلك ، ان الطرف الآخر هو القاتل وأنه لا يستحق مساعدة من أى نوع .

باختصار كل طرف يريد أن يربح معركة الدعاية أولا، ويستميل الصحفيين أو يقتلهم .

وكل طرف يقسم الصحفيين قسمين : معه أو ضده .

وهناك ضابطان للجيش يتبعان الحكومة ويدليان بتصريحات للصحفيين عن المعارك .

ولكن الصحفي عندما يسأل أحد الضابطين ، أو كليهما ، سؤالا فان الجواب فى أغلب الاحوال :

— لا أعرف .

وراديو الثوار يذيع من الغابات مرتين فى اليوم ، فيذكر أنباء المعارك . ولذلك ينتقل الصحفيون الى هذه الاماكن بحثا عن الحرب .. والقتال والخسائر فى الارواح فان ٣٢ ألفا قتلوا خلال العامين الماضيين .

***

والحياة تبدأ فى فندق « كامينو ريال » فى السابعة صباحا .

يرتدى الصحفي قميصا أزرق أو أسود عليه كلمات بالاسبانية تقول :

« صحفى .. لا تطلق النار » .

وعلى السيارات ، وعلى عربات التليفزيون كلمات « صحافة » ، « وتليفزيون » بخط عريض مضافا اليها بالاسبانية أيضا :

« صحافة .. لا تطلق النار » .

ويسمع كل صحفى فى المصعد ، وفى قاعة الطعام ، وفى البهو ، وفى البار ، اشاعات كثيرة عن الاماكن التى وقعت ، أو ستدور ، فيها المعارك .

ويتلقى كل صحفى مكالمات مجهولة تطلب منه الانتقال الى هذه البلدة ، أو تلك ، حيث سيكون القتال .

ويتعاون الصحفيون فيما بينهم لتغطية هذه الانباء

الصحيحة أو الكاذبة ، فيستقلون معاعربات الميكروباس ، ولو كانوا في مكان آخر ، أو ظروف أخرى ، ما تبادلوا كلمة واحدة .. ولكنه اليأس الذى يجمعهم .

ويخرج الصحفيون جماعات وراء الاشاعات ، أو الى المدن المجاورة ، كل يوم ، لعلهم يظفرون بقصة تصلح للصحف .

ومشكلة الصحفيين ، رغم صعوبتها ، تبدو سهلة بالقياس الى مشكلة التليفزيون .

ان الصحفيين يجتمعون معا فى المســاء يتبادلون الاخبار .. ولكن مصور التليفزيون يجب أن يكون فى مكان « الموقعة » والا ما استطاع تصوير القتال .

وعندما يختفى فريق صحفى من الفندق فان الآخرين يسرعون ، بحثا عنه ، ويتبعونه الى اى مكان ، حتى لا يظفر الفريق الاول بالقصة المثيرة .

ولذلك فان الصحفيين المقيمين فى « كامينو ريال » يتابعون بعضهم البعض ويتعقبون زملاءهم و« يتجسسون » عليهم .

والحظ يلعب الدور الرئيسى فى هـذا الســباق الصحفى .

سعيد الحظ من يجد معركة أمامه فان التليفـزيون الامريكى لا يقدم الا صور القتال ولذلك يدفع للصحفى « بدل سفر » أو « بدل قتال » أو « بدل موت » .. ؟ دولار كل يوم !

والصحفى الحقيقى لا يبحث عن المال .. بل ان هــذه الدولارات هي التى تمكنه من تأجير السيارات ، ورشوة

الدليل ، واجتذاب الفلاحين الذين يعرفون أين يوجد الثوار .

والصحفيون لا يتبعون الثوار فحسب .. انهم يقفون عند التقاء الطرق فى الريف ، ليرصدوا أية دورية للجيش ، فيسيرون وراءها ، اعتقادا منهم انها لابد تتجه الى مكان الثوار .

وعندما يعجز الصحفيون عن الوصول الى المعارك فانهم يتجهون الى المقابر ..

هناك يجدون أرملة تبكى أو طفلا يندب أباه أو ... فيلتقطون الصور ويجرون الاحاديث ويعرفون أين جرت المعركة ويصورون مكانها .

ولكن التليفزيون لا يستطيع أن يقدم كل يوم صورا للمقابر . فان التجديد والابتكار مطلوبان يوميا .

ويذيع راديو الثوار ، بصفة دائمة ، أنباء المذابح الجماعية التى ترتكبها قوات الحكومة فينتقل الصحفيون الى المناطق فيكتشفون أن أغلب القصص وهمية ..

ومع ذلك فان الصحافة لا تستطيع الا أن تجرى وراء الحقيقة والاشاعة .

والحكومة تعقد مؤتمراتها الصحفية فى الفندق ولكن الصحافة لا تهتم بهذه المؤتمرات اذ تراها مجرد دعاية .

فى أحد المؤتمرات تكلم المتحدث باسم الحكومة باللغة الاسبانية فقال له صحفى أمريكى :

– تكلم بالانجليزية .. فان دافع الضريبة الامريكى هو الذى يعطيك مرتبك .

وامتنع المتحدث الرسمى مرة أخرى عن اصطحاب الصحفيين الى مكان معركة فقال صحفى امريكى :

ـ من حق دافع الضرائب الامريكى أن يرى كل شىء .

وثمن هـذه « الوقاحة » رصـاصة قاتلة فى أغلب الاحيان لا بطريق العمد ولكن لان الرصاص هو أسلوب الحياة فى السلفادور .

وأصبح الصحفى مقاتلا رغم أنفه .

انه يهبط تحت سيارته عندما يسمع رصاص فان كلمة صحافة لا تعنى الحماية .

والصحفى يستعين دواما بمترجم يعـرف الاسبانية والانجليزية ليكون وسيطا بينه وبين رجال الحكومة أو الثوار .

ولا توجد صحافة تعانى العذاب مثل الـ ٢٠٠ صحفى الذين يعيشون هذه الايام فى السلفادور .

***

حدث أن أذاعت الحكومة بيانا قالت فيه أنها أسرت جنديا كوبيا مع الثوار .

أسرع فريق صحفى الى المكان المحدد ليثبتوا تدخل كوبا ، ولكن السـيارة توقفت وسط الاراضى المغمورة بالماء .

واضطر الصحفيون الى دفع ٨٠ دولارا لفلاح جاء ومعه ثوران لرفع السيارة من الطين .

ووصل الصحفيون الى نقطـة الحراسة فقال لهم الجندى :

ـ الضابط نائم .

قالوا :

ـ والكوبى .

قال الجندى :

ــ قتل .

قالوا :

ــ وأين دفن ؟

قال الجندى :

ــ سلوا الضابط .

وانتظر الصحفيون فى العراء حتى الفجر عنـــــدما استيقظ الضابط ليقول لهم أنه لا يعرف شيئا .. ولكن مرشدا من اهالى المنطقة أخذ الصحفيين الى نقطة بعيدة حيث وجدوا رجلا فى فمه سيجار كوبى فلما اقتربوا قال لهم بالاسبانية :

ــ هل معكم كبريت ؟

وأدرك الصحفيون انهم وقعوا ضحية دعابة كلفت كلا منهم مبلغا لا بأس به حصل عليه المرشـــد للارشاد عن الكوبى المزعوم !!

***

ووجدت قوات الحكومة أسم صحفى هولنـدى مع أحد رجال العصابات القتلى فاستدعت الصحفى لتسأله فنفى صلته برجال العصابات . وقال انه يوسط الكثيرين لعله يلتقى بأحد الثوار فانه وثلاثة من زملائه الهولنديين يقومون بتصوير فيلم تسجيلى لحساب احدى محطـات التليفزيون الهولندية .

استمر التحقيق مع الصحفى الهولندى ٥ ساعات ثم اطلق سراحه .

وفى اليوم التالى نشرت الصـــحف المحلية صـــورة الصحفى أثناء التحقيق معه .

وفى اليوم الثالث اذاعت فرق الموت قائمة بأسماء ٣٥ صحفيا كان من بينهم أسم الصحفى الهولندى فقال له زملاؤه :

ـ حاذر .. اهرب وزملاءك .

وفى اليوم الرابع جاء صحفى المانى ليقود الصحفيين الهولنديين الاربعة الى مكان المعركة .

وكان مع الصحفى الالمانى طفل من أهالى السلفادور .

لاحظ السائق أن دورية من الجيش تتبع ســيارته فاسرع يضللها ونجح فى ذلك حتى وصل الى تقاطع طريق بعيد عن العاصمة فأشار الصبى الى الســائق بالوقوف .

قال الصحفى الالمانى للهولنديين :

ـ هذا المكان لا يعجبنى .. ساعود .

قال الصحفيون الهولنديون :

ـ لقد صورنا الجزء الاول من الفيلم عن الحياة فى العاصمة . ونريد تصوير الجزء الثانى عن الحياة فى الريف وسط الحرب الاهلية .

وعاد الصحفى الالمانى .. وبقى الهولنديون يتقدمون داخل الغابات .

***

بعد ٢٤ ساعة اذاعت حكومة الســلفادور بيانا فى فندق « كامينو » قالت فيه ان الصحفيين الهولنـديين الاربعة قتلوا أثناء معركة دامت ٤٠ دقيقة وقعت بين

قوات الجيش ورجال العصابات .

أحس الـ ٢٠٠ صحفى بشبح الموت داخل الفندق . ولكنهم انتقلوا الى مكان المعركة التى قتلت زملاءهم .

ولم يكن هناك سباق بين الصحفيين هذه المرة .

ولم تكن هناك محاولة للفوز بخبر أو قصة .

كان كل صحفى ينعى نفسه .

وكانوا يحاولون الوصول الى سر الجريمة فان قتل صحفى ، ليس صاحب راى ، بل هو مراقب محـايد للأحداث ، يسجلها بالـكلمة والصورة ، يعتبر جريمة .

قال بعض الفلاحين :

ــ رأينا الصحفيين يخترقون الغابة وبعد دقائق سمعنا رصاصات متفرقة .

قال الصحفيون :

ــ اذن الجريمة .. حقيقية .

ونشر الصحفيون ان قوات الحكومة قتلت اربعة منهم لارهاب الجميع .

ولم يقل البيان الحكومى ان الثوار هم الذين قتلوا الصحفيين . بل ذكر ان الصحفيين وصلوا الى منطقة للعصابات كان الجيش يراقبها . وقد وقع الصحفيون بين الطرفين المتحاربين .

ولكن الصحفيين الآخرين قالوا :

ــ بل وقع الصحفيون فى كمين دبره رجال الجيش .

واضطرت الحكومة الى تشريح جثث الصحفيين لتثبت انه لا توجـد آثار احتراق للجلد حـول مكان اختراق

الرصاص .. فان « الحروق » تدل على ان الرصاص أطلق من منطقة قريبة .

وقال بيان الطبيب الشرعى « أن الصحفى الاول وجد رصاصة فى قلبه ، والثانى فى عينه والثالث فى رأسه .. الخ » .

رد الصحفيون قائلين :

ـ وهل يقتل الصحفى الا فى قلبه وعينه وراسه !

وبكى الصحفيون زملاءهم فان آخر ضحية للصحافة فى السلفادور قتل قبل عام ولذلك كان وقع المفاجأة عنيفا على الصحفيين جميعا .

لقد ظنوا أنهم نجوا من الموت ولكن ها هو يعوض فترة السماح التى استمرت ١٢ شهرا كاملا .

***

جاء رئيس الجمهورية « دوراتى » الى فندق «كامينو» ليطمئن باقى الصحفيين .

أيد بيان الحكومة عن طريقة مصرع الصحفيين ، وقال أنهم كانوا يتحركون فى منطقة يسيطر عليها الثوار وتحت حمايتهم .

ووعد بأن يلزم قوات الحكومة بحماية الصحفيين الاجانب . وأنه سيجرى تحقيقا آخر وسيشترك الصحفيون فى هذا التحقيق .

وقال للصحفيين :

ـ لقد سبق تحذير هؤلاء الصحفيين بالذات . من خطر الذهاب الى مناطق تسيطر عليها العصابات .

قال :

ـ اذا أردتم الذهاب الى حيث لا نستطيع حمايتكم فكيف يمكننا ذلك .. ولماذا تذهبون ؟!

قالوا :

ـ انه نداء الواجب ، والتزام الصحفى ، وضغط الصحف ومحطات التليفزيون علينا لنكون حيث لا ينبغى أن نكون اذا أردنا حماية أرواحنا .. ولكننا نريد أن نقدم للقراء والمشاهدين ما نعتقد انه حق لهم .

***

احتج اتحاد الصحفيين الهولنديين على المأساة وقامت المظاهرات فى العاصمة وعدة مدن أخرى .

واتحدت أحزاب هولندا فى ابداء الاسف والرثاء لمصرع صحفيين فى أرض بعيدة لا تهم هولندا فى كثير أو قليل .

ولم تتحد الجبهات المتصارعة فى السلفادور فى حماية الصحفيين لان كلا يريد القاء تبعة الجريمة على الآخر .

ولهولندا قنصل فى السلفادور ولذلك أوفدت الحكومة سفيرها فى المكسيك الى سان سلفادور ليجرى تحقيقا .

وتحول الصحفيون الى الطبيب الذى قام بتشريح جثث زملائهم يسألونه عن حروق حول الرصاص ، وفى قلب كل صحفى كان هناك أكثر من حريق .

وعرض التليفزيون الهولندى الجزء الاول من الفيلم التسجيلى الذى صوره الصحفيون الاربعة وهم اثنان من المندوبين ومصور ومهندس للصوت .

واحست هولندا وأوروبا التى عرض فيها الفيلم

أيضا بالثمن الفادح الذى دفعه الصحفيون من أجل فيلم تسجيلى .

ولم يعرف ، وربما لن يعرف أبدا ، اسم قاتل ، أو قتلة ، الصحفيين .

هل قتلوا مصادفة فى معركة ؟

هل قتلهم رجال العصابات ليبينوا فساد الحكم فى السلفادور ؟

وهل قتلتهم السلطات غضبا من الصحفيين الاجانب انتقاما لسعيهم الحثيث للحصول على الجانب الآخر من الصورة والرأى الآخر فى بلاد السلفادور ؟

ومهما يكن القـــاتل ، أو القتلة فان الجريمة حققت هدفها .

تدفق مزيد من الصحفيين على الســلفادور بدعوى متابعة أخبار الانتخابات التى تجرى لاختيار ستين فى البرلمان الجديد .

وربما يكون السر فى وصول الصحفبين انهم يريدون ان يثبتوا لانفسهم ، وللعالم ، أن الصحفى لا يعبأ بالخطر وأنه ينتقل حيث يحلق الموت فوق رأسه ويلاحقه من كل مكان .. ومن كل الخصوم .

وفى كل الاحوال نجح القتلة ..

أصبحت السلفادور موضـــوعا رئيسيا فى صحافة العالم .

كل الصحف كتبت عن السلفادور .

البعض اهتم بالحرب الاهلية لانها تؤثر فى سعر البن وقدح القهوة فان الثورة والعصابات أحرقت مزارع البن وهبطت بالانتاج الى حده الادنى فزاد الفقر .

والبعض أهتم بتجربة فيتنام المتكررة والصراع بين اليمين واليسار فى أمريكا الوسطى .

والبعض يعنيهم من القصة جانبها الصحفى ليكتبوا عن الزملاء الذين قدموا حياتهم ، دفعة واحدة ، ثمنا لخبر وصورة .. والبعض يدفعون حياتهم قطرة قطرةِ ، وكل ساعة وكل يوم ، بحثا عن خبر أو عن صورة ، أو عن مادة ينشرونها تثير القارىء وتجذب اهتمامه ، وتدفعه لمزيد من التفكير !

حرب الايام الستة
فى شـــارع الصحافة

فى المطار .. سألوه :

ـ لماذا تسافر الآن بالذات ، الى نيويورك ؟

اجاب :

ـ سأقيم حفل عشاء فى بيتى الليلة بمناسبة عيد ميلادى الـ ٥١ .

انتقل الصحفيون يسألون زميلهم الصحفى :

ـ وهل صحيح ان « هارولد ايفانز » رئيس تحـرير صحيفة « التايمس » استقال من منصبه .

أجاب :

ـ هذا السؤال لا يوجه لى . اسألوه .. هو !

قالوا :

ـ ولكنك مالك « التايمس » .

تخلص من الجواب لأنه يريد اللحاق بالطائرة ..

وأدرك الصحفيون فى مطار لندن صحة الاشاعة ما دام مالك الصحيفة « روبرت ميردوك » لم يسارع الى نفيها .

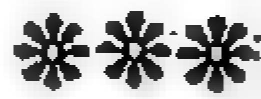
***

اشترى « ميردوك » صحيفة « التايمس » وزميلتها الاسبوعية « الصانداى تايمس » فى فبراير عام ١٩٨١ .

واشترطت الحكومة البريطـانية ، لاتمام الصفقة ، تعيين ٦ مديرين مستقلين من الشخصيات العامة يتولون اختيار رئيسى التحرير لضمان اسـتقلال الصحيفتين وحتى لا يوجههما « ميردوك » لصالح أعماله المالية .

وعلى الفور اختير « هارولد ايفانز » رئيس تحـرير « الصانداى تايمس » رئيسا لتحرير « التايمس » .

وايد المديرون الستة والعاملون فى الصحيفة هـذا الاختيار فان شهرة ايفانز كصحفى ليست محل شك .. أبدا ..



ابوه سائق قطار و « ايفانز » اشتغل بالصحافة وعمره ١٦ سنة وخدم فى السلاح الجوى والتحق بالجامعة ثم عاد للصحافة فى الاقاليم .

واختير مديرا لصحيفة « الصـانداى تايمس » الاسبوعية ثم رئيسا لتحريرها عام ٦٧ وظل يشغل هذا المنصب ١٤ سنة متصلة استطاع خلالها أن يرفع توزيع الصحيفة الى مليون ونصف مليون نسخة اسبوعيا وأن يرفع سعرها أيضا .

خصص الصفحة الاخيرة لبرامج التليفزيون .

وخالف التقاليد المتبعة فى صحافة بريطانيا التى تنشر الرياضة فى الصفحة الاخيرة فجعلها فى صفحة داخلية .

ووجد أن رئيس القسم الرياضى جامد العقلية لا يعرف الفن الصحفى الحديث رغم أنه أمضى فى عمله ١٧ سنة فعين له مساعدين استطاعوا ان يحققوا هدف « ايفانز » .

وكانت أفكار « ايفانز » واضحة .

ان الذين يدخلون الميدان الرياضى كل عام ، لاعبين

ومتفرجين ، يريدون عمقا أكثر فى الموضوعات ، ويريدون معرفة أكثر بالشخصيات الرياضية . ولا تستطع الصحيفة أن تكتب عن كل الاحداث الرياضية فى عدد واحد ، ولكن ما تكتبه عن أى موضوع يجب أن يكون شاملا .

ونجحت صفحات الرياضة ومنهـا بدأت الحملات الصحفية .

فى كل مناسبة ، وفى كل خبر ، لا يرسل مندوبا واحدا بل يبعث بفريق متكامل من المحررين يغطون كل التفاصيل .

وفى حرب عام ٦٧ نشر ١١ صفحة فى عدد واحد .

وقام بحملة ، الهدف منها ، اكتشاف مرض السرطان مبكرا .

وحملة اخرى لصالح الاطفال الذين يولدون مشوهين نتيجة تناول الامهات أدوية معينة .

واشترى مذكرات كبار الشخصيات العامة ، والمجرمين ، والجواسيس أيضا .. فان هذه المذكرات تصبح محل تحليل وتعليق فى الصحف .. وفى البيوت .

وعندما استقال « جورج براون » ، فجاة ، من منصب وزير الخارجية .. كان « ايفانز » فى مكتبه يتفق معه على شراء مذكراته .

ويوم قرر رياضى عجوز فى الخامسة والستين أن يسافر وحده بقارب صغير من انجلترا الى استراليا تعاقد ايفانز على شراء يوميات الرحلة ، وكاد احد المحررين أن يموت وهو يلتقط ، من الجو صورة للرياضى العجوز قرب راس الرجاء الصالح وقاربه شبه محطم تتقاذفه الامواج .

وكلف نقاد الصحيفة أن يكتبوا تعليقا ونقدا لـ ١٢٠٠ كتاب كل عام .

وعهد اليهم بتأليف كتب فى الموضوعات الحيوية التى تنشرها الصحيفة على ان تتحمل الصحيفة كل النفقات وينال الصحفى ٤٠٪ من دخل الكتاب .

وادخل فى الصحيفة قسما للسيارات تديره سيدة ، وقسما للطفل يعلمه الالعاب الرياضية ، وثالثا للمرأة ، ورابعا للرحلات ، وخامسا لحماية المستهلكين .

واختار أفضل المراسلين ..

فى مآدب العشـــــاء التى يقيمها فى بيته « هنرى براندون » مراسل الصحيفة فى واشنطن ، بين الضيوف ، وزير الخارجية الامريكى ومدير المخـــــابرات ومعظم السياسيين الذين يديرون سياسة الولايات المتحدة .

وكان يكتب بعض القصص بنفسه .

ويطوف أقسام الصحيفة يوجه ، ويلهم ، ويعاون .. ويسمع شكاوى الصحفيين ومشاكلهم العائلية ويحضر حفلات زواج الشبان منهم .

وعندما سمع باستقالة « مايكل راندال » رئيس تحرير صحيفة « الديلى ميل » قال :

ــ هذا الصحفى لا يمكن أن يعتزل العمل .

وعرض عليه منصب مدير التحرير للأقسام الاخبارية فى صحيفة « الصانداى تايمس » .

ووافق « راندال » لانه أدرك أنه سيعمل مع صحفى كبير .

ومع الحماس الصحفى كان لابد أن يخطىء « ايفانز » .

كتب احد محرريه كلمات يعلق بها على صورة نشرتها

الصحيفة فاعتبرت النيابة هذه الكلمات جريمة وقدمته الى المحاكمة .

ولقد حدث أن حوكم رئيس تحرير نفس الصحيفة عام ١٩٢٠ وقضى بحبسه ٣ شهور كما حوكم رئيس تحرير « الديلى ميرور » عام ١٩٤٩ وحبس ٣ شهور أيضا .

ولكن القاضى لم يأمر بحبس ايفانز بل غرمه ٥٠٠ جنيه فقط .. دفعتها الصحيفة .

وقال القاضى :

ـ ان هناك نظاما فى كل الصحف لمراجعة ما ينشر لمنع ما قد يكون قذفا ، أو يكون ، مايسمى ـ فى بريطانيا ـ تهمة احتقار المحكمة .

ولكن اى نظام قد يحدث فيه خلل نتيجة للعامل الانسانى كما حدث فى القضية .

وقالت المحكمة :

ـ ان رئيس التحرير يجب ان يتحمل المسئولية كاملة . ولكن يشترط لذلك أن يكون على علم بالخطأ الذى وقع ، وأن يقره .

وما دام لا يعرف فانه لا يعتبر مسئولا ولا يوجد ما يدعو لسجنه لان أحدا لا يتوقع ان يقرأ رئيس التحرير كل كلمة تنشر فى الصحيفة .

ورفع « ايفانز » شعارا يقول :

« الصحيفة كائن حى . يجب ان يتغير ويتبدل ، تنتشر أو تموت » .

وقال :

« الكلمة المطبوعة يجب ان تناقش وتسجل الحقيقة »

وقال :

« ان الصحف تمر بدورات . وكل دورة تستمر زمنا

معينا ولا تدوم الى الابد . ويجب أن تنجح الصحيفة خلال دورتى » .

وبالفعل نجح ، ونجحت الصحيفة خلال الـ ١٤ سنة .. فقد مات العالم القديم الذى كان يحيط بصحيفة « الصانداى تايمس » ونشأ عالم جديد يواجه المطالب المتغيرة للصحيفة .. وللقراء .

***

واختار « ميردوك » « ايفانز » رئيسا لتحرير « التايمس » فى فبراير ١٩٨١ .

وبدأ « ايفانز » عملية التغيير من الداخل .

شجع ٥٤ من قدامى الصحفيين على الاستقالة ومنحهم تعويضات عن مدة خدمتهم بلغت ٤٠٠ الف جنيه . واصبح عدد المسئولين الكبار فى الصحيفة ١٣ منهم ٥ عينهم « ايفانز » .

ولكنه عين بدلا منهم ٥٨ منحهم مرتبات أكبر .. وبذلك زاد متوسط الاجر السنوى فى الصحيفة من ١٤٫٧٢٥ جنيها الى ١٥٫٧٥٠ جنيها .

ورفع توزيع « التايمس » بنسبة ٥٠٪ كان ٢٨١ الفا فارتفع الى ٢٩٧ الفا .

وبدأت الصحيفة تأخذ موقفا متحررا يخرج بها عن جمودها التقليدى ..

انها لا تكتفى بالاتجاه المحافظ بل تكتب عن الحزب « الاشتراكى الديمقراطى » الجديد فى بريطانيا .

وهى تفسح المجال لكل الاراء .

واصبحت « التايمس » صحيفة حية يطالعها جانب من الشباب ..

ولم يوافق المحررون القدامى على هذا الاتجاه فانهم يرون ان « التايمس » يجب أن تعكس وجهة نظر الحكومة البريطانية وحدها .. ويجب أن تعبر عن آراء بريطانيا العظمى .. فان هؤلاء المحـــــررين يعيشون بعقلية الامبراطورية البريطانية وعقلية « التايمس » عندما كانت اختصاصاتها أن تقيم الثورات والانقلابات والحروب .

***

اعتادت محطة تليفزيون « جرانادا » البريطانية أن تقدم ، فى بداية كل عام ، أشهر صحفى فى بريطانيا خلال العام السابق وذلك فى برنامجها الشهير « أقوال الصحف » . وتطلق عليه « صحفى السنة » .

وفى يناير ٨٢ اختارت « هارولد ايفانز » أو « هارى » كما يسميه زملاؤه فانه منذ اختياره رئيسا للتحـرير لاول مرة عام ٦٧ رفض أن يقال له السيد « هارولد » أو السيد « هارى » !

ولكن فى فبراير وقع خلاف بين «ايفانز» ونائب رئيس تحرير التايمس « شارل دوجلاس هيوم » الذى قـرر الاستقالة .. ولكن « ميردوك » طلب اليه البقاء .

وكان « هيوم » يطمع فى رئاسة التحرير عندما أختير « ايفانز » بدلا منه ..

وكمظهر للتحدى أعلن « شارل هيوم » ذلك فترددت الاشاعات بأن خلافا نشأ بين صاحب الصحيفة «ميردوك» ورئيس التحرير « ايفانز » ولكن « ميردوك » سارع الى

نفيها . وأصدر بيانا نشر فى الصفحة الاولى من التايمس ـ يوم ١١ فبراير ـ قال فيه :

« هذه اشاعات خاطئة ، خبيثة وكاذبة ، وتخدم أغراضا خاصة . وان مزايا « ايفانز » وصفاته معترف بها فى العالم كله » .

وهدأت الاشاعات شهرا كاملا .. ثم انفجرت يوم ١١ مارس .

واتصل مندوبو الصحف الاخرى بايفانز يسألونه فرفض أن يرد ـ تليفونيا ـ على أحد .

ولكن فى مطار لندن قال « ميردوك » :

ـ سلوا « ايفانز » .

فأكد بذلك صحة الاشاعة لانه لم يسارع الى نفيها كما فعل قبل شهر .

ومنذ نشر النبأ فى صحف لندن صباح يوم ١٢ مارس اصبحت « التايمس » خبرا يتقدم الاخبار الآخرى فى كل صحف بريطانيا وتنشره بالعناوين الضخمة « المانشيتات » .

***

فى اليوم التالى ـ ١٣ مارس ـ ألقى « ميردوك » ، من نيويورك ، بقنبلة :

قال :

« طلبت يوم ٩ مارس من « ايفانز » ـ ٥٣ سنة ـ أن يستقيل من رئاسة تحرير صحيفة « التايمس » وعرضت على شارل دوجلاس هيوم منصب رئيس التحرير » .

واصبح على « ايفانز » أن يرد :
وكان أمامه ٣ خيارات :
ـ الاستقالة .
ـ الاستمرار وتحدى « ميردوك » .
ـ جمع مجلس المديرين الستة لاتخاذ قرار معه أو ضده .
ولكن « ايفانز » اكتفى بأن يعلن أنه مستمر فى عمله كرئيس للتحرير .
أما « هيوم » فقال :
عرض على المنصب وقبلته وسأشغله عند خلوه !
وتتابعت قذائف وقنابل « ميردوك » من نيويورك ومن ادارة شركاته فى لندن .
قال :
ـ « ايفانز » وافق على الاستقالة ولكنه يتفاوض الآن فى شروط التسوية المالية لانه تعاقد على رئاسة التحرير ٧ سنوات وقد امضى منها عاما واحدا .
***
وبدات الصحف تتكلم عن اعظم كرسى لرئاسة التحرير فى العالم .
وانقسمت الصحف بين مؤيد « لايفانز » ومؤيد « لميردوك » حسب استقلال كل رئيس للتحرير ، ونفوذه داخل صحيفته .
وبعض رؤساء التحرير كانوا يؤيدون زميلهم المهدد بالفصل .
والبعض ايد صاحب الصحيفة فقد طلب منهم ذلك .
قالت « الديلى اكسبريس » المحافظة :

ـ لا يستطيع رئيس التحرير أن يبقى متى فقد ثقة صاحب الصحيفة .

ـ من حق رئيس التحرير أن يحرر الصحيفة بالطريقة التى يراها . ولكن ليس من حقه أن يستمر فى منصبه .

ـ ان « التايمس » اعتادت أن تعكس وجهة نظر الحكومة ، ولكنها تتجنب ذلك الآن . ولا تقدم بديلا واضحا .

ـ « التايمس » يجب أن تتكلم لغة بريطانية واحدة ازاء الاجانب .

ـ اذا أراد صاحب الصحيفة أن يحولها الى اليمين فمن حقه ذلك ـ ان ما يتهم به « ايفانز » هو زيادة ميزانية تحرير الصحيفة وعين كثيرين وهو يرد على ذلك بأنه لا توجد ميزانية ثانية للصحيفة كما ان الادارة لم ترفض طلبا قدمه بتعيين محرر واحد أو أكثر ولم ترفض ما يريده من نفقات .

ـ العلاقة بين « ايفانز » و « ميردوك » أصبحت صعبة ولا يمكن اصلاحها .

ـ دون تخفيض ميزانية الصحيفة بعنف فانها ستفلس . ولن تكون هناك صحيفة صغيرة أو كبيرة .

وقالت الاكسبريس ساخرة من « ايفانز » :

« لو أنه مات قبل ١٢ شهرا لاعتبر أشهر صحفى فى بريطانيا لانه نجح فى « الصانداى تايمس » .

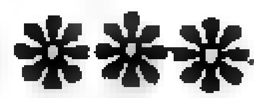
أما « الجارديان » اليسارية نوعا ما فقالت :

ـ من الواضح أن « ايفانز » لن يبقى طويلا فى منصبه .

ـ مهما ادى رئيس التحرير عمله بجدية فان أحدا لن يستطيع انقاذه من صاحب الصحيفة .

ـ الى أى حد يستطيع رئيس التحرير أن يبقى فى منصبه اذا أغضب صاحب الجريدة .

ـ ما ضمانات حرية الصحافة فى انجلترا واستقلال رؤساء التحرير الآن .



وقالت « الاوبزرفر » اليمينية :

ـ خسرت « التايمس » ١٥ مليون جنيه خلال السنة الماضية . و « ميردوك » مستعد لاحتمال الخسارة اذا ظلت الصحيفة قوة سياسية . ومستعد أن يتقبل الصحيفة اذا ربحت ماليا ولكن أن تفقد الصحيفة نفسها كقوة سياسية ومالية أيضا فهذا ما لا يتحمله .

ـ ما جرى فى الايام الماضية يمثل حلقة من مسلسلة « دالاس » وقد سبق نشر اعلان عن « التايمس » فى محطات المترو وفيه يظهر قيصر وهو يطعن من الخلف .. اشارة الى أن « ايفانز » يطعن من الخلف من محرريه .

ـ لم يستطع « ايفانز » تعبئة المحررين وراءه حول مبدأ استقلال الصحفى والدفاع عن حق رئيس التحرير فى ادارة الصحيفة وحده .

ـ حصل بعض الكتاب الذين عينهم « ايفانز » على مرتب ٣٠ الف جنيه سنويا مما أغضب الآخرين .

ـ الصحيفة أفضل فى عهد « ايفانز » ولكنه ليس ساحرا . انه يحتاج الى وقت والى صبر والى فرصة اكبر مما منحها له « ميردوك » .

ان الصحف مثل ناقلات البترول العملاقة صعب ان تغير اتجاهها فجأة .

***

ونشرت « التايمس » نفسها نبأ الخلاف فى الصفحة الاولى بقلم اثنين من المحررين وعرضت وجهتى النظر كاملتين مع « ميردوك » وضده ، ومع « ايفانز » وضده ولكنها كانت تميل ناحية « ايفانز » لانه كان لا يزال برأس تحريرها وهو الموعز بالنشر بطبيعة الحال .

واكدت « التايمس » نفسها ان صاحب الجريدة طلب من رئيس تحريرها .. الرحيل !

ونشرت « التايمس » افتتاحية عن ميزانية بريطانيا ومشاكل البلاد الاقتصادية والاجتماعية وكان المقال يشير الى مشاكل رئيس التحرير نفسه .

***

قدامى الصحفيين فى جريدة « التايمس » انتقدوا « ايفانز » ..

اعترفوا بأنه صحفى عظيم ولكنهم قالوا انه ادخل تغييرات فى الصحيفة بحيث لا يستطيع احد أن يتعرف عليها .

وقالوا أن « ايفانز » قام بتجميل وجه « التايمس » وأصبحت تبدو أجمل ولكن « التايمس » شىء آخر غير مجرد وجه جميل .

وقالوا ان رأى « التايمس » يتغير كل يوم بينما يجب أن تكون ثابتة على رأى .

وقالوا ان عددا منهم استقال احتجاجا على التغيير الذى طرأ على الصحيفة منذ جاء « ايفانز » .

والصحفيون الشبان ، وكذلك الصحفيون الذين جاء بهم ايفانز من « الصانداى تايمس » قالوا ان المشكلة تتركز فى أمر واحد مدى استقلال رئيس التحرير وهل ينبغى أن يخضع لهوى صاحب الصحيفة .. وأين حرية الصحافة .

وكان أعنف هجوم وجه الى « ميردوك » من نائب رئيس التحرير لشئون التحقيقات الصحفية « انتونى هولدن » الذى عينه « ايفانز » :

قال « هولدن » :

« ان « ميردوك » يريد من الصحيفة أن تتجه الى اليمين . وقد عارض بعض ما نشرته الصحيفة من أخبار وآراء بالنسبة لبولندا والسلفادور وأمريكا والتفرقة العنصرية داخل بريطانيا واضراب عمال السكك الحديدية .

ان « ميردوك » يتدخل فى سياسة الصحيفة وتحريرها .

وهو يريد من « التايمس » أن تؤيد « ريجان » فى أمريكا ، و « تاتشر » فى بريطانيا .

وقيل « لايفانز » اجمع المحررين والق فيهم خطابا تشرح فيه الموقف .

وكتب « ايفانز » الخطاب وفى آخر لحظة عدل عن الخطة كلها .

وقالت « الصانداى تايمس » التى ظل « ايفانز » يرأس تحريرها ١٤ سنة .

انخفض عدد مؤيدى « ايفانز » وقد وافق على الرحيل

وغالبية العـــــاملين فى الصحيفة أيدوا خليفته « شارل دوجلاس هيوم » .

ـ اهتمام الصحفيين فى الجريدة يتركز فى صفحة الرأى فقد هبط مســــتواها تدريجيا وبذلك اصبحت الصحيفة لا تستحق الانقاذ .

وقالت « الصانداى تايمس » أيضا :

ـ أن المحررين يقولون انهم ورئيس التحـــرير كانوا يعانون ضغوطا مستمرة من صـــــاحب الصحيفة فى الشهور الاخيرة . وقد نفى « ميردوك » ذلك .

* ما دار فى الصحيفة خلال الايام الماضية يستحق أن يكون مسلسلا يعرضه التليفزيون من ١٣ حلقة ليقرر المشاهدون من المخطىء ومن المصيب .

* ستبحث لجنـــــة برلمانية الامر لتقرر مدى حق الصحف وبالذات الاجانب فى ادارة صحفهم .

* ان معنويات الصحفيين تنخفض بشدة .

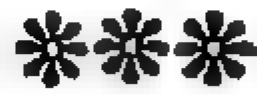
قال الصحفيون « لميردوك » : من حق « ايفانز » أن يستقيل طواعية .

* ان مجلس المديرين لا يعارض عزل « ايفانز » ولكنه يعارض طريقة العزل .

* أن « شارل هيوم » ينفى أنه اشـــــترك فى تدبير مؤامرة لعزل « ايفانز » وهو ليس مسئولا عن اتخــــاذ استقالته وسيلة لذلك .

* قـــد يرى مجلس المـــديرين ان الحل الامثل هو اختيار رجل ثالث غير « ايفانز » أو « هيوم » ليراس تحرير الصحيفة .

وهكذا فان « الصانداى تايمس » أمسكت بالعصا من وسطها ولم تؤيد « ايفـــانز » تأييدا كاملا خـوفا من « ميردوك » أن يطرد يوما ما رئيس التحرير الجـــديد للصانداى تايمس وحاولت أن تكون موضوعية بنسبة كبيرة وأن غلبها الميل لصاحب الجريدتين .



أصبح واضحا أن « ايفانز » سيضطر الى الاستقالة فان المديرين لم يجتمعوا من تلقـــــاء أنفسهم بل ان تصريحاتهم للصحف أجمعت على ان الحل ســـيكون طبيعيا .

ولكن المعركة تحولت لتصبح اتهامات قذرة متبادلة .

أحد محررى « التايمس » الكبار أذاع فى الراديو حديثا قال فيه :

« هناك مذكرتان بعث بهما « ايفانز » الى « ميردوك » يومى ٢١ ، ٢٤ فبراير يقول فى احداهما :

— اعطنى رايك فى أفضل الوسائل لمناقشة ميزانية بريطانيا .

وفى المذكرة الثانية يقول :

« هذه سلسلة مقالات ستنشر فى الصحيفة قل لى رايك فيها » .

وقال الصحفى الكبير :

— « ان رئيس التحرير المستقل لا يطلب من صاحب الجريدة رايه فى مثل هذه الامور .

انه لا يدافع عن اســـتقلال الصحيفة بل يريد رأى صاحبها أولا .. ويبحث عن توجيهه وارشاده فى قرارات

خاصة بالتحرير وحده . هل هذا هو الرجل الذى يجب أن يبقى فى الصحيفة ويدافع عن استقلالها ويصونه » .

ووزع الصحفى حديثه على الصحف البريطانية التى نشرته .

وقال أنصار « ايفانز » :

« هيوم وحده الذى يعلم بهذه المذكرات والهدف منها معرفة رأى صاحب الجريدة فى شئون تترتب عليها التزامات مالية .

وكان واضحا أن الدفاع عن « ايفانز » ضعيف وأن الرجل حرص على ارضاء « ميردوك » والانصياع لرغباته ولكن « ميردوك » كان يريد الانحناء التام .

استمرت المعركة ستة أيام من ٩ مارس الى ١٥ مارس.

وحرص « ميردوك » على ان يذكر ان محامى «ايفانز» يتفاوضون على التسوية المالية لانهاء العقد والتعويض فقد أصبح الموقف مليئا بالمرارة داخل الصحيفة مشبعا بالاتهامات المتبادلة القذرة .

وقيل ان مرتب ايفانز ٥٠ أو ٥٣ أو ٥٥ ألف جنيه سنويا وأنه يريد تعويضا قدره البعض بربع مليون جنيه وقدره آخرون بنصف المليون .

وقيل ان الضرائب فى بريطانيا سترتفع ابتداء من ٥ ابريل ولذلك فان من مصلحة « ايفانز » أن يتفق فورا .

اذا حصل على تعويض ربع مليون فانه سيتقاضى منها الآن ١٨٢ ألفا وبعد ٥ ابريل سيتقاضى ١٢٦ ألفا والباقى يذهب للضرائب الجديدة .

واذا حصل على نصف المليون سيخصه منها الآن ٣٥٧ الفا وبعد ٥ ابريل لن ينال سوى ٢٢٦ الفا .

واكتفى « ايفانز » بأن يقول نحن الآن فى الحلقة ١١ من مسلسل « بورجيا » وسننتظر الحلقة ١٢ .

ولكن فى ١٥ مارس أى بعد حرب الايام الستة استدعى « ايفانز » محرريه وكاميرات التليفزيون ووقف أمامها يتلو استقالته ويقبل سكرتيرته ويقول للمحررين وللصحيفة « وداعا » .

وفى اليوم التالى اجتمع مجلس المديرين ليعين « شارل دوجلاس هيوم » رئيسا للتحرير .. وهو ابن شقيق رئيس الوزراء السابق وقريب للأميرة ديانا زوجة ولى عهد بريطانيا .

ونشرت الصحف ساخرة أن « ميردوك » طلب من السيدة « مرجريت تاتشر » أن يبحث « لايفانز » عن وظيفة مناسبة وقدمت الصحف اقتراحا بأن يكون رئيسا لهيئة السكك الحديدية لان والده كان سائق قطار !

وفى واشنطن أعلن رئيس تحرير « واشنطن بوست » انه عرض على « ايفانز » أن يعمل معه .

ولم تتحرك صحيفة بريطانية واحدة دفاعا عن «ايفانز» أو استقلال « التايمس » وأصبح واضحا أن الصحيفة ستسير على هوى « ميردوك » الذى حرص على أن تكون المركة علنية حتى يعرف الجميع أنه السيد الوحيد فى الصحيفة وانها ستعبر عن رأيه .

وفى نفس الوقت حرص « ايفانز » أيضا على أن

تـــكون المعركة علنية حتى يعرف الجميع أن التـــايمس المستقلة قد ماتت وانه آخر رؤساء تحريرها العظام !

***

والغريب فى الامر أن ميردوك طرد قبل ذلك رئيس تحرير « نيوز أوف ذى ورلد » الاسبوعية بعد شرائهـــا بفترة قصيرة .

استدعى الرجل وطلب منه الاستقالة واعطاه تعويضا قدره ١٠٠ ألف جنيه . وترك الرجل مهنـــة الصحافة كلها .

ولكن الامر تم فى ٣ دقائق ولم تعرفه لندن الا بعـــد وقوعه .

و « نيوز أوف ذى ورلد » صحيفة فضائح ولذلك فان الصحافة لم تبك لخروج رئيس تحـــريرها .. أما بالنسبة للتايمس فالوضع مختلف تمـــاما خاصة وأن المساومات استمرت ٦ أيام كاملة .

***

ولقد شاءت الظروف أن يتكرر طـــرد رئيس تحرير « التايمس » مرتين فليس « ميردوك » أول من طرد رئيس تحرير « التايمس » .. بل هناك سابقة أخرى وقعت عام ١٩١٩ .

والفرق بين الحادثين ان الاولى تمت فى سرية مطلقة .. ولم تنشر الصحف البريطانية كلمة واحدة عنها .. تعففت الصحف فلم تنشر غسيلها القذر امام القراء .

ومن ناحية اخرى فان رئيس التحرير المستقيل فى المرة الاولى ابى ان يسىء الى صحيفته أو يشهر بها أو

يفضح صـــــاحب الصحيفة .. أو ينتقم منه فيشوه الصحيفة التى أحبها .

أما صاحب الصحيفـة فقـد خاف أو مسه الخجل فمنعه من أن يقول انه طرد رئيس تحرير «التايمس» .

وكان صاحب الصحيفة أو مالكها فى الحالة الاولى بريطانيا .. أما « ميردوك » فانه استرالى .

وأوجه الشبه فى الحـالتين أن المالك مليونير .. وصحفى أيضا .

***

كان اللورد نورثكليف قد اشترى صحيفة «التايمس» من أصحابها عام ١٩٠٨ .

وفى عام ١٩١٢ طلب الى رئيس التحرير « باكل » الاستقالة ...

و « للتايمس » فى ذلك الحين شهرة خاصة وهى أن رئيس تحريرها يبقى سنوات فى منصبه .

« توماس بارنس » أمضى فى منصبه ٢٤ سنة .

و « ديلين » ظل رئيسا للتحرير ٣٦ عاما .

أما « باكل » فانه عمل رئيسا للتحرير ٢٨ سنة .

واختار « نورثكليف » « جوفرى دوسون » رئيســا للتحرير .

وبعد ٦ سنوات ونصف السنة أصبحت العلاقة متوترة للغاية بين « نورثكليف » و « جوفرى دوسون » وذلك عام ١٩١٩ .

رأى دوسون أنه لا يستطيع أن يعمـــل فى صحيفة لا يسمع فيها الا صوت مالكها .

وأما « نورثكليف » فقد اراد من رئيس التحرير ان ينفذ أوامره حرفيا .

وكان اللورد صاحب طموح سياسى يريد أن يكون مندوبا لبلاده في مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس بعد اعلان الهدنة وتوقف القتال الذى استمر ٤ سنوات فى الحرب العالمية الاولى .

بعث « لويد جورج » رئيس الوزراء ببيان الى الصحيفة فأمر « نورثكليف » بنشره فى صفحة داخلية بينما أبرزت « التايمس » تصريحات وخطب القاها اللورد « نورثكليف » .

وفى ذلك الحين كانت « التايمس » تنشر الاعلانات المبوبة فى الصفحة الاولى .

وأراد « نورثكليف » مهاجمة « لويد جورج » حتى لا ينجح فى الانتخابات فلما نجح اتهم « دوسون » بانه لم يهاجم رئيس الوزراء كما ينبغى .. وكما يستحق .

وعندما الف لويد جورج الوزارة واصبح شقيق « نورثكليف » وكيلا للخارجية اصر اللورد على ضرورة الهجوم على التشكيل الوزارى ووصفه بالضعف فرفض « دوسون » .

ويحاول الرجلان عدة مرات تسوية خلافاتهما ولكن « نورثكليف » يبعث ببرقيات ورسائل متلاحقة الى رئيس تحرير « التايمس » ينتقد فيها سياسته .

ويطلب أن تكتب « التايمس » افتتاحيتها عن خطبة لصاحبها فيعتذر « دوسون » .

ويصر اللورد على أن تهاجم الصحيفة رئيس الوزراء ولكن « دوسون » لا يستجيب .

ويكون رئيس التحرير ضيفا دائما فى الحفلات الاجتماعية التى يحضرها رئيس الوزراء فيسمع بذلك اللورد فيغضب لانه يرى أن سياسة الصحيفة وتحريرها لا يجب أن يتم من خلال الحفلات ومآدب العشاء .

ويزداد غيظ اللورد لانه عرف ان « دوسون » ينتقده علنا فى أحاديثه التليفونية وكان اللورد يستعمل عمال التليفون جواسيس له حتى أن كبار المحررين كانوا يمتنعون عن الحديث فى سويتش الصحيفة العمومى .

ولم يكن « نورثكليف » يخفى انه يفعل ذلك بل — فى لحظات صفوة — كان يقول للمحررين ما تحدثوا به فى التليفون .

***

ويلتقى اللورد ورئيس تحريره .

انفجر اللورد غاضبا وقال :

ـ انى مصمم على تسيير الامور بطريقتى .

أجاب دوسون :

ـ لا فائدة من الحديث بهذه الطريقة ولا أريد أن أبقى فى « التايمس » اذا لم أكن مطلوبا .

انت تقول اسما ورمزا وشفاهة انك تؤيد رئيس الوزارة والحقيقة أنك تحرجه وتدمره بهذه الطريقة ولا أستطيع أن أدير صحيفتى مثل باقى صحفك .

ويتجمد الموقف حينا ولكن اللورد فى لحظة غضب يكتب لرئيس التحرير :

« اذا لم يعجبك سلوكى فأرجوك أن تتخذ طريقا من اثنين :

حاول أن تلتقى بى وجها لوجه .

أو :

اترك منصبك » .

رد « دوسون » :

« انى راغب فى الاستقالة عندما يرغب أصحاب الصحيفة . واذا كان على ان انقاد لميولى ورغباتى لاستقلت منذ زمن » .

لجأ اللورد لطريقة ماكرة ليتخلص من عقدة الذنب ..

قال :

« لا أريد انهاء علاقة سارة اثر مناقشات حادة وكان من العدل أن تبلغنى من قبل انك تريد الاستقالة » .

ويبعث « دوسون » باستقالة رسمية ولكنه يبقى فى منصبه حتى تم اختيار رئيس القسم الخارجى « ويكهام ستيد » رئيسا للتحرير وحتى يتسلم منصبه .

وبعد ذلك يبعث « دوسون » للصحف بنص استقالته ويطلب من الصحف عدم التعليق عليها .

وعندما يتم هذا كله يبدأ الرجلان فى مناقشة التسوية المالية .

***

وتمر السنوات .

ويموت « نورثكليف » .

وتتغير ملكية التايمس .

وبعد ٤ سنوات من ترك المنصب يعود « دوسون » لرئاسة التحرير عام ١٩٢٣ فيكتب لصاحب الجريدة شروطه قائلا :

« من حقى كرئيس للتحرير أن أرفض نشر الاعلانات التى لا أراها مناسبة .

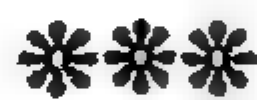
وان اختار الصحفيين كما أريد » .

ويوافق المالك الجديد اللورد « استور » .

ويبقى « دوسون » فى منصبه ١٨ سنة و ٩ شهور حتى عام ١٩٤١ اى أنه أمضى فترتين رئيسا للتحرير مجموعهما ٢٥ سنة أو أكثر قليلا .

وخلال تلك المدة يحافظ على التقاليد الصحفية كما يراها والامبراطورية البريطانية كما يتمناها ويكون قلمه عاملا أساسيا فى اعتزال ادوار الثامن أو دوق وندسور العرش عام ١٩٣٦ ليتزوج السيدة المطلقة ـ مرتين ـ التى أحبها .

ويموت « دوسون » بعد استقالته الثانية ب ٣ سنوات .



والسؤال الآن ..

هل سيعود هارولد ايفانز بعد شهور أو سنين .

والجواب : لا اظن .

فان « التايمس » بتقاليدها القديمة لن تعود !

جريدة .. للبيع !

اول واكثر الصحف انتشارا فى الولايات المتحدة كلها اذ توزع يوميا ٥ر١ مليون نسخة .

وفى أيام الاحاد يرتفع الرقم الى مليونى نسخة .

ومجموع ايرادها السنوى يصل الى ٣٥٠ مليون دولار من الاعلانات والتوزيع فهى الصحيفة الثالثة من حيث الايراد .

ومبناها ثمنه ـ الآن ـ نحو ٢٠٠ مليون دولار .

وعدد العاملين فيها ٣٨٠٠ بينهم ١٥٠٠ صحفى .

وقد نالت هذه الصحيفة ٥ جوائز بولتزر وهى ارفع الجوائز الصحفية الامريكية كما نالت عدة جوائز اخرى بوصفها متفوقة فى الاخبــــار والصور والكاريكاتير المسلسل .

هذه ـ باختصار ـ الارقام التى تعبر عن صـــحيفة « ديلى نيوز » التى تصدر فى مدينة نيويورك .

ورغم هذه الحقائق فانهم يفكرون فى بيعها منذ ٤ سنوات وعرضت رسميا للبيع منــذ ١٨ ديسمبر عام ١٩٨١ .

وقد تقـــدم البعض لشراء المبنى الذى أقيـــم عام ١٩٣٠ ..

ولكن الصحيفة نفسها لم تجد مشتريا حتى الآن .. لان بالصحيفة ١١ نقابة للعمال ترفض الاستغناء عن أحد العاملين بينما يجب فصل ٤٠ فى المائة منهم حتى يمكن الموازنة بين الايرادات والمصروفات فان الصحيفة خسرت فى العام الماضى ١٢ر٦ مليون دولار .

وينتظر أن تبلغ الخسارة هذا العام بين ٢٥ و ٥٠ مليونا .

ونقابات العمال تعارض الاستغناء عن أحد من العمال لان هناك اتفاقا بين ناشرى الـ ٣ صحف اليومية فى نيويورك يقضي بأن الاستغناء عن عامل فى احدى الصحف يتبعه ـ تلقائيا ـ الاستغناء عن عامل مماثل فى كل من الصحيفتين الاخريين .

وقد دفعت الصحيفة ٦ ملايين دولار تعويضا لنقابات العمال مقابل الاستغناء عن ٢٣٥ من الـ ٤٠٠٠ موظف وعامل الذين يشتغلون بالصحيفة .

ومن ناحية أخرى فان تجديد المطـــابع يحتاج الى ٦٠ مليونا .. وقد رفضت الشركة مالكة الجريدة الموافقة على انفاق هذا المبلغ .

واغلاق الصحيفة ليس عملية سهلة فان مكافآت ترك الخدمة للعاملين بين ٤٠ و ٦٠ مليون دولار . والشركة مالكة الصحيفة ملزمة بدفع جزء من هذه المكافآت قبل الاغلاق .

ومن هنا أصبحت مشكلة الصحيفة معقـدة للغـاية

والحل الوحيد العثور على مشتر يملك المال .. ويملك القدرة على التفاوض ، أو ارغام ، العمال على الاستغناء عن ٤٠ ٪ منهم .

والدول العربية تتكلم كل يوم عن أجهزة الاعـــلام الغربية ، وعدم وقوفهـــا وراء الحـــق العربى بينمـــا اكبر الصحف الصباحية توزيعـــا فى أمريكا تطلب مشتريا ..

وفى أغسطس ١٩٨١ أغلقت صحيفة «واشنطن ستار» المسائية دون أن تجد مشترين .

***

ولقد حاولت « ديلى نيوز » أن تتغلب على مشاكلها الاقتصادية منذ أكثر من عام .

أصدرت طبعة مسائية عرفت باسم « هذه الليلة » وكانت تريد أن توزع ٣٠٠ الف كل يوم ، ولكن خلال عام انخفض التوزيع الى ٨٠ الف نسخة .

وخسرت الصحيفة خلال عام حوالى ٢٠ مليون دولار فاضطرت الى اغلاق الطبعـــة المسائية والاســـتغناء عن ٦٣٠ صحفيا .

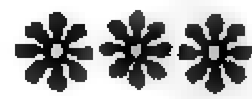
الآن لا تستطيع دار النشر الاســـتمرار فى الخسارة بسبب صـــــدور جريدة « ديلى نيوز » الصباحية التى كانوا يطلقون عليها « صخرة جبل طارق » باعتبار انها قوية لا تموت !

ويقع المركز الرئيسى لدار النشر فى مدينة شيكاغو ، وهى الدار رقم ٤ فى مجمـــــوع ما توزعه من صحف وايراداتها تبلغ ٣٣٥ مليون دولار سنويا .

وقد اشترى هذه الدار فريقا للعبة « البيسى بول » بمبلغ ٢١ مليون دولار .

أما رئيس مجلس ادارة هذه الدار فمرتبه السنوى ٤٠٤ آلاف دولار .. واذا أحيل الى المعاش يتقاضي ١٥٠ الف دولار سنويا مضافا اليها ٧٥ الفا للقيام بوظيفة مستشار .

واذا مات تتقاضي زوجته ٥٠ ألف دولار سنويا حتى آخر عمرها !



ويوم صدرت « ديلى نيوز » صباح السبت ٢٦ يونيو ١٩١٩ كانت تصدر فى نيويورك ٨ صحف صباحية و ١٠ صحف مسائية .

وبعد ٤٢ عاما انخفض عدد هذه الصحف الى ٤ صباحية و ٣ مسائية .

الآن تصدر فى نيويورك « نيويورك تايمس » صباحية و « نيويورك بوست » مسائية وهناك صحيفة « وول ستريت جورنال » التى تصدر من نيويورك وتطبع أيضا فى عدة مدن أمريكية فى نفس الوقت .. وهذه الجريدة تهتم بالاقتصاد فهى صحيفة لرجال المال والاعمال تحصل بسهولة على الاعلانات .

أما جريدة « بوست » المسائية فقد خسرت أيضا ١٢ مليون دولار فى العام الماضى .

ولا تبقى سوى صحيفة « نيويورك تايمس » التى تتمتع بمركز مالى قوى ولذلك ينتظر أن تستمر وحدها فى نيويورك .

ومحنة الصحافة الامريكية ، وهى محنة الصحافة فى العالم الغـــربى كله ، تتركز فى انتشار التليفزيون واجتذابه للمعلنين كما أن القراء تركوا المدن المزدحمـة وانطلقوا يعيشون فى الضواحى .

ونتيجة لذلك انتقلت المحلات التجارية الى الضواحى أيضا ، وبذلك أصبحت الصحف الـكبرى عاجزة عن الوصول الى القراء .. والى المعلنين أيضا .

***

وفى أمريكا يجرون احصاءات على قراء الصحف .

وقد ثبت من الاستفتاء والاحصاء ان ٣٦ ٪ من قراء جريدة « ديلى نيوز » يملكون البيوت التى يعيشون فيها و ١٧ ٪ منهم يحصلون على دخل ســنوى يزيد على ١٥ الف دولار و ١٦ ٪ من هـؤلاء القـــراء حاصلون على شهادات جامعية .

ورغم هذا كله فان هؤلاء القراء عاجزون عن انقاذ هذه الجريدة .

***

ولقد صدرت « ديلى نيوز » فىظروف غريبة .

كان ناشرا صحيفة « شيكاغو تريبيون » يحاربان فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الاولى فشاهدا أعداد جريدة « ديلى ميرور » التى صدرت فى لندن عام ١٩٠٣ فى نصف حجم الصحف اليومية أى فى حجـم مجلة آخر ساعة .

ورأى الناشران تقليد هذه الصحيفة فأصدرا « ديلى نيـوز » فى نيويورك ولـكنهما خسرا فى السنة الاولى ١٫٠٣٢٫٠٠٠ جنيه .

واجتمع مجلس الادارة ليبحث نتائج التجربة الجديدة .. وقرر أعضاء المجلس اغلاق الصحيفة ثم قاما بأخذ الاصوات على القرار .

ولولا صوت واحد لاغلقت الصحيفة فعلا ..

وبعد ٥ سنوات كانت أول الصحف توزيعـــا فى الولايات المتحدة .. ولا تزال أكبرها توزيعا حتى الآن .

***

تفرغ أحد الناشرين ــ جوزيف باترسون ــ « للديلى نيوز » وانتقل من شـــيكاغو ليعيش مع جريدته فى نيويورك .

لم يكن يصدر أمرا لمحرر على الاطلاق ..

كان من عادته أن يقول لاى صحفى :

ــ ما رأيك فى كذا ؟

وبعض الصحفيين كانوا يفهمون أن هـذا أمر وعليهم الطاعة .. والبعض لا يفهم ولا يعرف .

قال للناقد السينمائى :

ــ الافلام المعروضة فى دور السينما جيدة .. الا تعتقد ذلك ؟

قال الناقد :

ــ أبدا .. انها سيئة للغاية واحب أن أذكر القراء بمدى سوء هذه الافلام .. كل يوم .

ولم يدرك النـــاقد معنى كلمتى « ألا تعتقـــد » و « الا تظن » .

وفى اليوم التالى كان الناقد السينمائى ينقـل الى القسم الرياضى وهو لا يعرف شيئا عن الرياضة الا أن جسمه قوى فعرض على جاك دمبسى بطل العالم فى الملاكمة أن يلاعبه ٣ جولات .. فوافق دمبسى .

وذهب الناقد الى المباراة وصعد الحلبة ولكن مدرب بطل العالم خشى أن يكون الناقد ملاكما قويا فيهزم بطل العالم فى مباراة غير معلنـــة وتكون فضيحة ، فأنزل الصحفى من الحلبة بالقوة ..

وبهذه الطريقة أصبح الناقد السينمائى .. ناقـدا رياضيا « محترما » فى كل الاوساط الرياضية !

ولم يكن باترسون يستدعى محررا الى مكتبه ... أبدا .

كان يذهب لاى صحفى ليبلغه ما يريد .. ولم يكن يزار او يصرخ فى صحفى أبدا ..

ذهب يزور شقيقته مســـاء ـ وهى أيضا صاحبة صحيفة ـ فوجدها تصرخ فى التليفون .

وأدرك أن المتحدث مدير التحرير ..

قال لها :

ـ لم تفعلين ذلك ؟

أجابت :

ـ أريده أن يعرف انه على خطأ .. الا تفعل ذلك .

قال :

ـ أبدا .. كان عليك الانتظار الى الصباح التالى ليكون اكثر آسفا على الخطأ ..

اى انه كان سيطرده .

ولم يكن باترسون يهتم بملابسه أبدا .

منعه يوما حارس الباب من الدخول فقال له :

ـ أنا باترسون .

أجابه الحارس ساخرا :

ـ قل ذلك لحارس آخر .

فاضطر صاحب الجريدة الى الوقـوف بالباب حتى يجىء محرر ليتعرف عليه فيسمح له بالدخول .

وعرضت صحيفة « نيويورك تايمس » المنافسة على احد كبار محررى « ديلى نيوز » عملا أفضل ومرتبا أكبر فاعتذر الصحفى وأبلغ رئيسه ، فى العمل ، مطالبـا بعلاوة .

عرف باترسون فقال :

ــ اطردوا الصحفى .

قيل له :

ــ وهل هذا جزاؤه .. أن يكون وفيا لك فيطرد ؟!

أجاب باترسون :

ــ ان وفاءه الاول ينبغى ان يكون لنفسه .. ومن ليس وفيا لنفسه لن يكون صادقا مع صحيفته ..

واضطر الصحفى الى العمل بالصحيفة المنافسة !

***

أيد باترسون انتخـاب فرانكلين روزفلت محافظ نيويورك رئيسا لامريكا عام ١٩٣٢ .

وبعد فوزه قالت الصحيفة أنها ستؤيده على طـول الخط عاما كاملا .. وستؤيده فترة اطول اذا استدعت الظروف ذلك .

وقالت ان هذه ليست تضحية سريعة .

وقالت ان مهام رئيس التحرير ان يقول الحق لـكل انسان ابتداء من الرئيس الى أصغر مواطن ، وأن حق تقديم النصيحة يعتبر حقا مقدسا لرؤساء التحرير .

واختلف الرجلان بعد عام واحد فان باترسون كان يؤمن بسياسة العزلة ، ويرى ان تبتعد الولايات المتحدة عن الشئون والحروب الخارجية .

وعندما اراد روزفلت الترشيح مرة أخرى للرئاسة اشادت الصحيفة بالرؤساء الامريكيين ، الذين أخذوا مكانهم فى التاريخ ، لانهم رفضوا أن يبقوا رؤساء فترة طويلة .

وقالت لن نجدد الوعد لانتخاب روزفلت .

ومع ذلك أيدته فى اعادة الانتخاب عام ١٩٣٦ .

وظلت العلاقة وثيقة بين الناشر وروزفلت حتى ان الرئيس الامريكى بعث بالقلم الذى وقع به قانون تدعيم البحرية الامريكية هدية الى الناشر الذى كان يطالب بتدعيم هذه البحرية .

ودعت الصحيفة قراءها للتبرع بانشاء حمام سباحة فى البيت الابيض باعتبار ان هذه هى الرياضة الوحيدة التى يستطيع ان يمارسها روزفلت المصاب بشلل الاطفال .

وعندما غزا هتلر بولندا فى أول سبتمبر عام ١٩٣٩ وقامت الحرب العالمية الثانية أيدت الصحيفة الاستعداد العسكرى لامريكا ولكنها طالبت بعدم دخول الحرب .

ويوم أعلن روزفلت قانون الاعارة والتأجير لمساعدة بريطانيا قالت الصحيفة : « اننا نعطى بريطانيا شيكا على بياض . وسيأخذنا للحرب دون استشارة الكونجرس . ويجب أن يطلق على هذا القانون .. القانون الذى يجعل روزفلت ديكتاتورا بدلا من قانون الاعارة والتأجير » .

وعندما أمر روزفلت البحرية الامريكية باطلاق النار على السفن الالمانية بعد هجوم غواصة ألمانية على سفينة أمريكية قالت « روزفلت محا الكونجرس وسيمحو حرية الصحافة » .

ومع ذلك أيدت الصحيفة روزفلت عند اعادة انتخابه للمرة الثالثة عام ١٩٤٠ ثم قالت بعد ذلك ان « الرئيس الامريكى خدعنا عندما صوتنا له للمرة الثالثة » .

وأراد روزفلت تجديد انتخابه للمرة الرابعة فقالت الصحيفة لا تجديد ـ هذه المرة ـ لقيصر .

واختلف باترسون مع روزفلت الى الابد .

نشرت الصحيفة ان السفن الحربية الامريكية تنقل موادا بمقتضى قانون الاعارة والتأجير الى بريطانيا ، فقال أحد أعضاء الكونجرس :

ـ هذا كذب متعمد .

فرد باترسون بمقال :

« انت كاذب يا عضو الكونجرس هولاند » .

وكان هذا هو المقال الوحيد الذى وقعه باسمه ناشر الصحيفة طول حياته .

وقال المقال :

« نحن نعرف من أوحى لك بهذه الاكذوبة .. « من فوق » !

وكان باترسون هو الذى يحدد موضوع افتتاحيات الصحيفة .. ولكن لا يكتبها ..

يعقد اجتماعات فى الحادية عشرة صباحا لمن يكتبونها ويحدد لهم موضوعاتها لمدة أسبوع متقدما .. فقيل أن

يد الكاتب هى التى تكتب ولـكن العقـل عقل صاحب الصحيفة .

وقد حدث وقت الصـــداقة مع روزفلت ان رغب الرئيس الامريكى فى نشر صفحة مجانية اعلانا عن مشروع جديد لروزفلت فقال باترسون :

ــ لا .. الصحيفة تعيش على الاعلانات ، ولا يمكن منحها مجانا لانسـان حتى ولو كان روزفلت .

***

دفعت الصحيفة ٤٠ ألف دولار للاعلان عنها ، قبل صدورها .

ويعتبر هذا المبلغ ضخما عام ١٩١٩ .

وباع العدد الاول ١١٥ر٨٨٠ نسخة .

وبعد شهر هبط الى ٢٧ر١٢٠ نسخة .

وبعد شهرين انخفض الى ٢٦ر٦٣٥ نسخة .

فكان باترسون يقف في الســـــادسة صباحا أمام اكشاك باعة الصحف ، وعند محطات الاوتوبيس ليرى من الـذى يشترى « ديلى نيوز » وكيف يلبس ، ونوع السجاير التى يدخنها .. وأية صحيفة يطالعها ، وهل يقرأ الافتتاحيات أم لا ؟

كما يتابع من يشترى الصحف المنافسة .

ويركب عربات الاتوبيس لهذا الغرض .

ولكن باترسون لم ييأس بدأ يبحث عن سر الفشل ويعالجه .. ويطلب الى كل قارىء أن يوافيـه بأسـماء ٥ قراء ليبعث اليهم بالصحيفة مجـــانا لفترة ليعتادوا قراءتها .

راى ان الصحف الاخرى لا تهتم بالصور فاهتم بها .. وتابع نشر صورتين يوميا للجرائم والمجرمين .

عندما أعدمت أول سيدة فى سجن « سنج سنج » على الكرسى الكهربائى أخفى أحد المصورين عدسة خارج حذائه . وفتشه الحراس قبل الدخول ولكنهم لم يفطنوا الى مكان الكاميرا فالتقط الصورة .

وقد وجهوا الى الصحيفة اتهاما « بقلة ذوق » واهدار حرية الموت والاعتداء على الحرية الشخصية فى لحظة الموت ولكن ذلك ساعد الجريدة على زيادة الانتشار .

وطلبت الصحيفة الى القراء أن يساهموا معهـــا فى التقاط الصور الاخبارية وكانت تدفع ثمنـــا للصورة الواحدة بين دولار واحد و ١٥٠٠ دولار .
واشترت الصحيفة طائرة خاصة ، ثم عدة طائرات ، لنقل المحررين بسرعة الى مواقع الاحداث لتصويرها .

وطلبوا من القراء الاتصال بالصحيفة لابلاغها بالاحداث لتصويرها فور وقوعها وكانوا يدفعـون مكافآت للقراء الذين يفعلون ذلك حتى ولو كانت الصحيفة تعلم بالاخبار وذلك بقصد تشجيع القراء ماليا ونفسيا ، عندما يطالعون جريدتهم فى الصباح التالى ، ويعـرفون أنهـم الذين أبلغوها بالانباء .

اتصل بهم يوما قارىء يقول أن جنديا أوقف المرور فى أهم شوارع نيويورك لتعبره قطة تحمل قطيطا .. فأسرع المصور ليجد ان القطة قد انهت مهمتها فنقل بنفســـه القطيط الى رصيف آخر فأسرعت الام وراء رضيعها تنقله . وأوقف الجنـــدى المرور مرة أخرى والتقطت الصورة !

وسمعوا بتحول أول رجل الى فتاة فى الدانيمارك فطاروا اليه يلتقطون الصور والمذكرات وآراء الاطباء .

وعرفوا ان ولى عهد انجلترا ـ دون وندسور ـ سيطير الى كندا فى زيارة فأوفدوا اليها أجمل محررة .

رآها ولى العهد فدعاها للرقص .. وفتنت الفتاة بولى العهد ولم تتذكر صحيفتها فأرسلت فى ساعة متأخرة من الليل برقية الى الصحيفة تقول :

ـ معذرة .. نسيت نفسى فقد دعانى الامير للرقص.

والتقطت الصحيفة هذه البرقية وحولتها الى قصة نشرتها في الطبعة الاخيرة مما أحزن الفتاة التى كانت ترى أن رقصها أمر خاص لا يعنى القراء أو الصحيفة !

وبعد عام ارتفع التوزيع فأصبحت الصحيفة رقم ٦ في نيويورك من ١٨ صحيفة تصدر فى المدينة .

وتتابع اغلاق الصحف .

بعد عامين سقطت أول صحيفة منافسة وذلك عام ٢١ .

وبعد سنتين سقطت صحيفة أخرى .

وبعد ٥ سنوات اختفت صحيفة ثالثة واصبحت « ديلى نيوز » أول الصحف انتشارا فى نيويورك وفى الولايات المتحدة كلها .

وبعد ٢٢ عاما قضى على الصحيفة الرابعة .

وهكذا ...

***

وأصدرت ملحقا يوميا خاصا عن أحد أحياء نيويورك .. الفقيرة .

وقبل صدوره أرسلت باحثة ترى ماذا يأكل الناس ، وكيف ينفقون ، فوجدت أن معظم السكان ولدوا فى دول أخرى ثم هاجروا الى أمريكا .

وعندما يتعلمون اللغة الانجليزية فان أول ما يفعلونه هو شراء الصحف ليظهروا كمواطنين أمريكيين .

وفى هذا الحى الفقير ٤٠ بنكا .

وانتهت الباحثة الى نتيجة هامة ، وهى أن سكان الحى عاديون ، ولكنهم يشترون وينفقون أكثر من سكان أى حى آخر فى المدينة ، فهم يكسبون كثيرا ولكن مصروفاتهم الضرورية أقل لانهم يقيمون فى عشش .

وقالت الباحثة :

« الاطفال فى هذا الحى ينمون بسرعة .

يريدون أحذية وأدوات وملابس سباحة .

وهم يذهبون للمدارس والجامعات ويتعلمون الكتابة على الآلة الكاتبة .

وهم يشترون سجاير مثل غيرهم .. ويشترون كل شىء » .

وقالت الباحثة :

« الإعلانات التى توجه لهؤلاء السكان مفيدة لاصحاب المحلات التجارية » .

ونشرت الجريدة نتيجة هذا البحث فى مجلة « حبر المطابع » التى يطالعها رجال الشركات وأصحاب المحلات التجارية .

وخفضت الصحيفة سعر الاعلانات فى هذا الملحق الذى لا يوزع الا فى هذا الحى .

.. وكانت النتيجة تدفق الاعلانات على الجريدة لانها

أقنعت أصحاب الاموال بأنهم لا يقدمون للصحيفة منحة بل يحصلون مقابل أموالهم على فائدة .. ضخمة .

واهتمت الصحيفة بالرسوم الكاريكاتورية .. والمسلسلات التى تقدم بالكاريكاتير ..

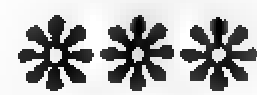
وعندما كان الرسام يموت ، يعهدون الى آخر باستكمال المسلسلة والحلقات لان الشخصية التى تنشر أهم عند القراء من الرسام نفسه .. فقد لا يعرف القراء العاديون .. اسمه .

قدموا مرة شخصية رجل يعيش رغم الرصاص ورغم حبسه أحيانا فى ثلاجة فأعجب به القراء .

وفى احد الايام قيل ان الرجل رزق بطفل .. فتدفقت عليه هدايا القراء الذين ظنوا انه شخصية حقيقية .

ومرض يوما فجاءته أدوية . ووقع فى ورطة قضائية فتطوع محامون للدفاع عنه !!

ووجهت الرسوم المسلسلة للدعاية للطيران والخدمة العامة ولم نفعل نحن ذلك — فى مصر — بالنسبة لتنظيم النسل سواء فى رسوم الكاريكاتير أو القصص التى يكتبها الادباء الكبار .



واهتموا برسائل القراء وأطلقوا عليها « صوت القراء » أو « صوت الشعب » .

وكانوا يدفعون عن كل رسالة تنشر من دولار الى عشرة دولارات .

نشروا الاقوال المأثورة للقراء ، واللحظات الحرجة التى واجهتهم ، وما يحتاجون اليه ، وأغرب مدير عملت معه ، والصديق المثالى ، وكيف تمت الخطوبة ..

وساعدوا القراء على اختيار أسماء لاطفالهم .. وافضل سبل الرجيم !

وتلقوا في أسبوع مئات الكلاب ردا على رسالة قارىء قال انه في حاجة الى حيوان اليف يؤنس وحدته .

***

ومن اليوم الاول اهتموا بالمسابقات .

أعلنوا عن مسابقة لاختيار ملكة جمال جوائزها ١٣٫٥٠٠ دولار منها عشرة آلاف دولار للفائزة الاولى .

وقدموا مسابقة لرسوم يختار القارىء عنوانها ...

وقدموا مسابقات للانزلاق على الجليد ، وأخرى عن هواة الملاكمة أسفرت عن اختيار روكى مارشيانو وفلويد باترسون وجولويس وغيرهم ممن أصبحوا أبطالا للعالم .

ونشروا مسابقات في السباحة للسيدات ، وفى الجولف للرجال ، وأجمل طفل ، وأجمل ممثلة ، وأحسن ممثل ..

وخلال ٢٠ عاما قدموا ١١٤ مسابقة .

كما أقاموا حفلات للغناء والرقص في الحدائق العامة خصص دخلها للجمعيات والاعمال الخيرية .

***

اهتمت الصحيفة بتقديم الخدمات للقراء .

افتتحت في الدور الارضى قسما للسفر وآخرا للفنادق وثالثا للمصايف وآخرا للتجنيد .. الخ .

وكل هذه الاقسام تقدم كتيبات للقراء مجانا ، أو بأسعار اسمية ، وتنشر عن هذا كله في الصحيفة .

واهتمت بالاخبار المحلية لانها ترى أن القصة المحلية التى تقع فى مدينة نيويورك تجذب القراء ، أكثر من القصة التى تقع فى اية مدينة امريكية اخرى ، أو أى مكان من العالم .

***

ولم تتردد فى القيام بكل الحيل ، وكل المحاولات ، للحصول على القصص الانسانية .

فى عام ٣٢ عرفوا ان الممثلة السينمائية العالمية جريتا جاربو قررت العودة الى بلادها بعد أن رفضت تجديد عقدها مع شركة « مترو جولدوير ماير » فكلفوا صحفية بأن تستقل نفس الباخرة كسائحة ، وعلموها طريقة لارسال البرقيات بنوع من الشفرة حتى لا يفطن بحارة السفينة أو الركاب ، أو جريتا جاربو الى وجود الصحفية فى الباخرة .

ارسلت الصحفية برقية لصحيفتها فى اليوم الاول .

وفى اليوم الثانى قال لها عامل اللاسلكى :

ـ كنت أعمل فى البحرية السويدية وقد فهمت انك صحفية وعرفت كيف أحل الشفرة .

قالت الصحفية متوسلة :

ـ أرجوك لا تذع سرى . .

ولكن جريتا جاربو سمعت الاذاعات ، وادركت ان صحفيا ، أو صحفية ، معها فى نفس الباخرة فاعتزلت فى قمرتها طوال الرحلة بينما البحارة والـ ٣٣ راكبا يحاولون عبثا مساعدة الصحفية !

وارسلت مصورا وراء أنجريد برجمان وهى تصور فيلمها الاول مع المخرج الايطالى روبرت روسيلينى .

وزعم المصور أنه يريد العمل بشركة للاعلانات ، وقد اختار هذا الفيلم لاظهار قدرته .

وصدقته انجريد برجمان فتحدثت معه لتذكر بداية غرامها بالمخرج الايطالى .

***

وتميزت الصحيفة بالجرأة .

جرت محاولة لاغتيال الرئيس الامريكى امام قصر الضيافة « بلير هاوس » فكتبت تقول :

« جرت ٥ محاولات لاغتيال الرؤساء الامريكيين ..

وقد تدخل القدر لصالح الرؤساء الاعضاء فى الحزب الجمهورى فقتل ثلاثة منهم وفشلت المحاولتان لاغتيال رئيسين من الحزب الديمقراطى » .

وكانت الصحيفة تشير بذلك الى أن مؤامرات الاغتيال نشأت بين الديمقراطيين .. أو كأنها تتمنى موت الرؤساء الاعضاء فى الحزب الديمقراطى .. اسوة بالجمهوريين .

وهى الصحيفة التى أبرزت اسماء محرريها .

كانت أخبار الجرائم توقع باسم « محقق » .

واخبار الاقتصاد توقع باسم « تاجر » .

ولكنها نشرت أسماء المحررين وان اكتفت ـ فى البداية ـ بلقب الصحفى فقط .

ثم نشرت الاسم كاملا بعد ذلك .

وعندما قتل مجرم اسمه « ابن سام » ٤٤ فتاة فى نيويورك وقبض عليه اقتحم اثنان من مندوبى الصحيفة

شقته ـ المغلقة بأمر النيابة ـ للحصـــــول على صور ومعلومات .

واشتروا رســـــائل صديقته السابقة حتى قيل ان الصحيفة أصبحت جزءا من الخبر لا مجرد متـــــابعة ومراقبة له ، وأنها عبثت بحقوق المتهم الذى لم تثبت ادانته بعد .

ولكن توزيع الصحيفة ارتفع ٣٥٠ ألف نسخة فى تلك الايام .

***

ويقال ان « ديلى نيوز » هى السبب فى تحول مدينة نيويورك من مدينة للصحف المســـــائية الى الصحف الصباحية . فقد اهتمت الجريدة بالمرأة فى طهى الطعام، والاتيكيت ، والتجميل ، ورعاية الاطفال ، والموضـــة ، والديكور ، والصحة العامة ، فكانت المرأة تقرأ الصحيفة قبل خروجها لعملها ولذلك لا تحتاج لصحيفة مسائية .

ولكن الحقيقة ان التليفزيون ببرامجه المسلية ونشراته الاخبارية المسائية هو السبب الاساسى .

***

وانشأت الصحيفة فوق مبناها قسما للارصاد الجوية ولـكنها رفضت أن تنشر تنبؤات هـــذا القسم وقدمت تنبؤات هيئة الارصاد الجوية الحكومية .

ولما سئلت الصحيفة عن السبب قالت أن النـــــاس يعتمدون على هذه التنبؤات فى السفر وشحن البضائع، واقلاع السفن والزراعة وغيرها .

ويستطيع النــــــاس مقاضاة صحيفة على نبوءاتهـــا

الخاطئة ، ولا يستطيعون مقاضاة الحكومة ، اذا اخطأت هيئة الارصاد الرسمية !

***

مات باترسون عام ١٩٤٦ .

نعته الصحيفة فى كلمات قصيرة جدا فى افتتاحيتها قالت :

« مات جوزيف باترسون رئيس تحرير هذه الصحيفة والرجل الذى أنشـــأها فى ٢٦ يونيـو عام ١٩١٩ . وستجدون قصة وفاته فى صفحة الاخبار .

وسيبذل الذين تركهم ، أقصى جهودهم ، ليجعلوا صفحة الافتتاحيات ، والصحيفة ، كما أرادها أن تكون .. وهو ما كان يبغيه فى الحياة » .

***

بدأ البحث عن خليفته ليشرف على « ديلى نيوز » . وكان الورثة ثلاثة .

الابن : وهو ضابط سابق فى الجيش يعمل محررا صغيرا فى الصحيفة .

والارملة : وهى تعمل أيضا محررة لشئون المرأة ، وتتولى اختيار القصص المسلسلة للصحيفة .

والابنة : وهى أقرب لابيها تشاركه هـواية الطيران والصيد وتقـدم عرضا للـكتب فى صحيفة أبيهـا حتى أصدرت ، مع زوجها ، صحيفة أخرى .

ولكن الابنة اختلفت مع أبيها بشأن سياسة الصحيفة.

ولكن الاب جعـل البت فى شـــئون الصحيفة من

اختصاص مجلس الادارة الذى يضم أسرته وآخرين أيضا .

أما الثروة وقدرها ٩٫٥ مليون دولار فقد وزعها على اسرته وسكرتيرته أيضا .

وكانت مهمة السكرتيرة أن تكتب خطابا يوميا لوالدة باترسون يوقعه دون أن يطالعه .

وفى هذا الخطاب يعبر لأمه عن حبه الشديد لها !

ومشكلة الصحيفة التى يصدرها فرد أنها تصبح من صنعه وحده .. هو موجهها وفيها يضع جهده وعقله وقلبه .. وبعد وفاة مؤسس الصحيفة يحـــار رئيس التحرير الجديد عندما يواجه مشكلة ..

فى كل لحظة يسأل نفسه :

ـ لو كان صاحب الجريدة حيا ما الذى يفعله فى هذه الحالة .

ومعظم الصحف التى أسسها أفراد ماتت بعد وفاتهم لان الصحفي يحب أن تكون الصحيفة تمثالا له .. وقليل من الصحفيين يتركون صحيفة فيها أجهزة منتظمة تعمل تلقائيا وليست فى حاجة دائما ، ومتجددة ، الى رأيه .

ولقد أنشأت محطـــة التليفزيون مثل صحف أمريكا الاخرى التى رأت أن تملك التليفزيون لانهـا لا تستطع منافسته .

وعاشت الصحيفة ٣٦ عاما بعد وفاة صاحبها ، ولكنها لم تستطع مواجهة مجتمع متغير ومن هنا واجهت المصير الذى لقيته صحف نيويورك الاخرى .. أن تجد مشتريا . أو تموت !

العمال يصدرون صحيفة

رات ادارة الصحيفة ان أحد مراسليها غير كفء ، وغير منتج أيضا ، فقررت الاستغناء عنه وأبلغته بذلك .

علم الصحفيون بذلك فاحتجوا وطالبوا ببقاء الصحفى فرفضت الادارة أول الامر ، ولكن الصحفيين هددوا بالاضراب ومنع اصدار الصحيفة .

اضطرت الادارة للخضوع ولكنها رأت ألا تتراجع علنا حتى لا تفقد هيبتها فعرضت حلا وسطا وهو أن تقدم للمحرر المفصول تعويضا قدره ٤٠٠٠ جنيه مقابل أن يعلن أنه طرد من عمله .

أخذ الصحفى هذا المبلغ ثم خرج لزملائه يقول :

ــ لقد سمح لى بتقديم استقالة ..

اى أنه استقال .. ولم يطرد !

اجتمع الصحفيون وقرروا التضامن مع زميلهم وقالوا :

ــ لن نسمع باستقالة هذا الصحفى .

وهددوا بالاضراب .

وجدت أدارة الصحيفة نفسها فى موقف حرج فأعطت للصحفيين مهلة حتى السابعة والنصف مساء للعودة للعمل .. فلما لم يعودوا أصدرت الادارة قرارا بفصلهم جميعا .

غادر الصحفيون مقر الجريدة وانتقلوا الى « البار » المجاور مقتنعين ان الادارة ستخضع لهم فى نهاية المطاف .

ولكن ١٢ من المعاونين عادوا لمقر الصحيفة وساعدوا على صدورها فأطلق عليهم الصحفيون « الدستة القذرة » نسبة الى الفيلم الشهير الذى يحمل ذلك الاسم .

وفى اليوم التالى حلت المشكلة باعادة الصحفيين الى العمل عدا زميلهم المفصول .

كان ذلك فى ١٨ مارس عام ١٩٧١ فى مقر صحيفة « سكوتيش ديلى نيوز » التى تصدر فى مدينة جلاسجو فى سكوتلندا شمال انجلترا .

وهى صحيفة أصدرها فى مايو عام ١٩٢٩ اللورد بيفر بروك الذى كان يفخر بأصله الكندى .

والغريب فى الامر ان اللورد تومسون الكندى ـ الذى أصبح بعد ذلك مالكا لصحيفة التايمس ـ بدأ امبراطوريته الصحفية فى اسكوتلندا أيضا عندما اشترى صحيفة « سكوتسمان » التى تصدر فى مدينة أدنبرة .

***

لم تكن هذه هى الازمة الاولى أو الاخيرة فى تاريخ صحيفة « سكوتيش ديلى اكسبريس » .

مساء يوم ٢٧ سبتمبر من نفس العام ـ ١٩٧١ ـ قدم رسام الكاريكاتير لوحته اليومية المعتادة .

فى الرسم يظهر الزعيم السوفييتى بريجنيف يرتدى ملابس الرهبان وهو ينزل من طائرة تشيكوسلوفاكية يقود موكبا من الشحنات العسكرية ؛ دبابات وعربات مدرعة وأسلحة .. فى مطار مدينة « بلفاست » عاصمة ايرلندا الشمالية .

وكتب على الطائرة انها تابعة للخطوط الجوية الايرلندية .

واوحت اللوحة بأن الجيش الجمهورى الايرلندى يعمل لمصلحة الشيوعيين وهم الذين يوجهونه .

وجاءت اللوحة فى وقت غير مناسب ، فقد انفجرت، فى ذلك الوقت ، المظاهرات فى مدينة جلاسجو تؤيد الجمهوريين الايرلنديين ، وجرى صدام فى الشوارع بين رجال الشرطة والمتظاهرين . واستطاع أحد المصورين ان يلتقط ، وينشر ، صورة لاحد المتظاهرين وهو يمزق ، بموس حلاقة ، ملابس شرطى .

وكان هناك خوف من أن تنتقل عدوى الاضطرابات من ايرلندا الى اسكوتلندا . وكان موقف الصحيفة ضد المتظاهرين وضد الايرلنديين فتلقت خلال الاسبوع الاخير ٦٩ مكالمة تهدد بنسف الصحيفة ووضع القنابل فى مبناها .

وجد رئيس نقابة الصحفيين الفرعية ، أحد العاملين بالجريدة ، أن الرسم سيثير مشاعر الناس وقد يؤدى الى هجوم على الصحيفة فاقترح ان ينشر مع الرسم

كلمة من الجريدة او من العاملين فيها ، تقول ان لوحة الكاريكاتير لا تعبر عن رأى الصحيفة .

رفض رئيس التحرير ..

وقدمت الادارة من لندن اقتراحا آخر وهو نشر تلك الكلمة فى اليوم التالى . ولكن نقابة الصحفيين الفرعية رفضت ذلك .

وهددت بمنع صدور الصحيفة .

واجتمع الصحفيون وقاموا بالتصويت على قـــرار بالاضراب فأيده ٢٩ وامتنع أحدهم عن التصويت .

وابلغ القرار لادارة الصحيفة فى جلاسجو ومركزها الرئيسي فى لندن بأنه لابد من نشر بيان مع الكاريكاتير من الصحفيين العاملين يقولون أنهم غير مسئولين عن النشر .

لم تذعن ادارة الصحيفة للتهديد فمنع الصحفيون صدور هذا العدد .

وفى اليوم التالى اجتمع الصـــحفيون فى مدينة جلاسجو فأبدوا أسفهم لموقف زملائهم المضربين . وقالوا انهم لا يقرون ابدا أن يعطى الصحفيون سلطة الرقابة على ما تنشره الصحيفة وأن يسلبوا هذه السلطة من مالك الصحيفة او رئيس تحريرها .

وصدر القرار الجديد بأغلبية ١١٩ ضد ١٧ .

ولكن الصحافة البريطانية كلهـا خافت على مستقبل الديمقراطية من ديـكتاتورية بعض الصـحفيين واطلقت عليهم أسم « مافيا منتصف الليل » أو « عصابات منتصف الليل » اشارة الى أنهم الذين يعملون فى الصحف بعد

منتصف الليل عندما يعود كبار المسئولين الى بيوتهم ولا تبقى الا هذه .. العصابات !

ونسى الذين وجهوا الاتهام ان الصحفيين انفسهم الذين أضربوا .. والصحفيون أنفسهم الذين انتقدوا هذا الاضراب وأسفوا لوقوعه .

***

ومرة أخرى ، لم تكن هذه هى الازمة الاخيرة .

خلال عام أضرب عمال الصحيفة ٥٦ مرة أى بمعدل مرة أو أكثر ، كل أسبوع .

وفى ٤٠ مرة هبط توزيع الصحيفة نتيجة تأخير أو توقف الطبع .

وخسرت الصحيفة مليون جنيه خلال عام واحد .. وبعد أن كان توزيعها ٦٦٠ ألفا نسخة يوميا أصبح ٥٧٠ ألفا .

وتأثرت صحف اللورد « بيفر بروك » فى جميع انحاء بريطانيا لاسباب كثيرة .. فقد ارتفعت نفقات اصدار الصحف خلال ٤ سنوات من ٤٩ مليون جنيه الى ٧٥ مليونا .

وهبط ثمن السهم فى هذه الصحف من ١٣٣ قرشا الى ٣٧ قرشا فحسب .

وتوقفت البنوك عن اقراض « بيفر بروك » واصبح مستقبل كل صحفه مهددا بالخطر .

ولم يكن بيفر بروك وحده يعانى .

ان صناعة الصحف فى انجلترا تأثرت خلال الـ ١٥ عاما السابقة فان التليفزيون جعل عدد القراء يهبط ،

كما انخفضت ايرادات الصحف من الاعلانات التى تحولت عن الورق الى الشاشة الصغيرة .

وفى تلك الفترة ماتت فى انجلترا ٣ صحف يومية هى « نيوز كرونيكل » و « ديلى هيرالد » و « ديلى سكتش ».

ولم يكن امام « بيفر بروك » الا اتخاذ اجراءات عنيفة للتوفير فعرض على كثيرين مكافآت مقابل الاستقالة . وأخيرا قرر يوم ١٨ مارس ١٩٧٤ اغلاق صحيفته المسائية فى جلاسجو .. ولكنه كان حريصا .. باع اسم هذه الصحيفة قبل اغلاقها لمنافسه بمبلغ ٢ر٧٥٠٫٠٠٠ جنيها !

وقرر نقل صحيفته الصباحية « سكوتيش ديلى اكسبريس » الى مدينة مانشستر لتصدر منها .

واعلن ان القرار ينفذ بعد ١٤ يوما .

وكان معنى ذلك أن يتعطل ١٨٠٠ عامل .

رأى العمال ان ينشروا فى آخر عدد من الصحيفة بيانا يقولون فيه :

« لا نريد أن نخيب أمل القراء . لن يكون هذا هو العدد الاخير من هذه الصحيفة . التى كانت كبيرة يوما ما . ستصدر صحيفة أخرى تعكس فكر القراء . وقد تم الاتصال بالحكومة والاتحادات العمالية ورجال الصناعة للحصول على تأييدهم .

ورد الفعل يعتبر مشجعا » .

رفضت الصحيفة نشر البيان ولكن العمال أصروا فوافقت الادارة ولكنها لم تطبع سوى ٣٠٠٠ نسخة فقط !

وهكذا صدر العدد الاخير من صحيفة « سكوتش ديلى اكسبريس » يوم ٢٨ مارس عام ١٩٧٤ .

ويوم صدوره أصيب الصحفيون بجنون ..

مصور صحفى مشى عاريا فى الصحيفة وفى الشوارع .. يبكى ! وكثيرون شربوا حتى الثمالة لينسوا !

***

راى ٥٠٠ من العمال أن يشكلوا فيما بينهم شركة ، او جمعية تعاونية لاصدار صحيفة جديدة بدلا من تلك التى أغلقت .

وقدم كل عامل بين ٥٠٠ و ٦٠٠ جنيه مساهمة فى هذه العملية . وهذا المبلغ هو مكافأة نهاية الخدمة التى حصل عليها كل عامل .

وأصبح لديهم نحو ربع مليون جنيه لا يكفى لاصدار الصحيفة .

عرضوا الامر على وزارة الصناعة فرفض مستشارو الوزارة منح أى قرض للعمال . ولكن وزير الصناعة العمالى « تونى بن » عارض رأى مستشاريه ووافق على منح العمال قرضا قدره ١ر٢٠٠ر٠٠٠ جنيه .

ولكن الوزير اشترط أن يجمع العمال مبلغا مناسبا حتى يوافق على القرض .

وبدأ العمال يكتبون للاتحادات العمالية فى دور النشر والطباعة وكل الاتحادات العمالية بصفة عامة . ولكن الجميع اعتذروا وتخلوا عنهم . ولم يساهم فى الصحيفة الا اتحاد عمال السكك الحديدية بمبلغ ٥٠٠ جنيه .

وقالت الاتحادات : أموالنا لاغراض معينة ليس من

بينها تشكيل شركات . وأعلن البعض انهم لن يساهموا الا اذا ساهمت الحكومة .. بل ان بعض الردود كانت معادية .

وهكذا أدرك العمال ان زملاءهم تخلوا عنهم وان الطبقة العاملة ليست متضامنة فى المشروع الجديد .

ولجأوا الى « بيفر بروك » الذى لم يجد مشتريا لمطابعه ومبانيه فأقرضهم وقدم ضمانات لتقرضهم البنوك .

ووافقت بعض البنوك على اقراضهم ما دامت الحكومة قد وعدت بمساعدتهم .

واضطر العمال الى طرح بعض أسهم الشركة الجديدة للجمهور مقابل ٢٥ جنيها للسهم الواحد .

وحدد العمال يوم ٢٨ مارس عام ١٩٧٥ للاجتماع النهائى فأما ان تقدم الشركة ، أو الجمعية التعاونية ، أو يعلنوا هزيمتهم .

وكان اليوم .. الجمعة .. عطلة دينية .. والبنوك لا تفتح الا يوم الثلاثاء التالى ومطلوب من العمال ٤٧٥ الف جنيه منها ..٢٠ ألف من مكافآت نهاية الخدمة بعد انسحاب عدد من العمال من المشروع و ١٦١ ألف جمعت من بيع الاسهم ومن جهات متعددة وبقى مبلغ ١١٤ ألف جنيه .

وعندما بدأ الاجتماع لم تكن الموافقة النهائية على قرض وزارة الصناعة قد وصلت .. ولكنها جاءت برقيا خلال الاجتماع .

ومع ذلك ظل المشروع يعانى العجز وقدره ١١٤ ألف جنيه .

وتدخل « ماكسويل » فى آخر لحظة .

و « ماكسويل » كان عضوا فى مجلس العموم خلال دورة برلمانية واحدة .

وفى أول خطـاب له فى المجلس أطال فتأخر خطاب هارولد ولسون رئيس الوزارة وبذلك لم تستطع الصحف المسائية نشره فغضب ولسون .

وسقط «ماكسويل» بعد ذلك مرتين فى الانتخابات .

وهو أساسا مهاجر من تشيكوسلوفاكيا غير اسـمه عدة مرات واصبح مليونيرا . ويريد صـحيفة تدافع عنه ، وعن سـمعته ، ومشروعاته ، ويريد أن يرتبط بالطبقة العاملة .

وفى اللحظة الاخيرة وأمام كل العمال قدم «ماكسويل» شيكا بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه مساهمة فى الشركة .

ووعد بدفع الـ ١٤ ألف جنيه .

وسرا اشترط ان تصدر الصحيفة عدة طبعات طول اليوم ولا تكتفى بأن تـكون صباحية وأن يـكون ناشرا للصحيفة وشريكا فى ادارتها .

ووافق العمال ، ولم يكن أمامهم الا أن يوافقـوا أو يهزموا ، ولكنهم بعد ١٠ أيام عدلوا عن اعطاء سلطة النشر لماكسويل !!!

اخذ الجميع يهتفون :

« أصبحت لنا صحيفة .. أصبحت لنا صحيفة » .

وظهر « ماكسويل » فى التليفزيون يكذب قائلا :

ــ لم افرض شروطا على العمال !

***

حدد يوم ٥ مايو ١٩٧٥ لصدور العدد الاول وقد

اطلقوا على صحيفتهم اسما جديدا هو « سكوتيش ديلى نيوز » .

وخلال تلك الفترة أجرى العمال تجارب على المطابع التى ظلت معطلة ١٤ شهرا ليكتشفوا نقصا كبيرا فيها .

وقيل لهم ان الصحيفة لا يمكن أن تصدر بحجم صغير — أى مثل مجلة آخر ساعة — بل تصدر بحجم الصحف العادية لان تحويل المطابع الى الحجم الصغير يتطلب ١١٦ الف جنيه .. وشهورا طويلة من الاعداد .

وبدأ العمال يجرون تجارب على الصحيفة الجديدة بعد أن اختاروا لها رئيسا للتحرير — مرتبه ١٥٠ جنيها كل اسبوع — ومحررين راتبهم ٦٥ جنيها أسبوعيا .

وكان الحماس يملأ قلوب الجميع باعتبار ان الصحيفة تمثل صرخة احتجاج عملية وفعالة ضد مجتمع لا يرى — فى بطالة العمال — رذيلة ، كما ان العاملين جميعا يرون أن اصدار صحيفة عملية تستحق المجازفة .

وصدر العدد الاول ..

ضغطت على زر المطبعة السيدة التى اشترت اول سهم فى الصحيفة .

قال رئيس التحرير وهو يقدم جريدته للقراء :

« ستكون صحيفة براقة وليست تافهة .

مسئولة لا مزهوة .

تقدم آخر الاخبار المحلية والقومية والعمالية بأسلوب جميل ، عنيف ، ولكن بلا اثارة .

صحيفة عندها حاسة التقدير والتنسيق .

صحيفة تهتم بالرياضة وبألعاب الاقليات ولكنها

لا تقتنع أبدا بأن أصبع قدم متورم للاعب كرة يستحق اهتمام وعطف الامة !

ستنظر للرياضة بحسم وباحترام للموهوب والبطل. ولن تنسى أبدا أن الرياضة تسلية وهى ليست أهم مافى الحياة .

صحيفة سياسية تعكس ، قدر الامكان مشاعر الناس فى اسكوتلندا .

فلسفتنا الى يسار الوسط .

وستكون منبرا مفتوحا للنقاش فى السياسات والآراء المعارضة .

ولن نجعل الملل يتسلل الى القراء بجدل عقيم ..

ان هواء الحرية المتجدد سينبعث من كل صفحات الجريدة . وسنقدم اهتمامات كل الاعمار من أطفال المدارس الى المحالين للمعاش . ولن يخجل انسان من عرض هذه الصحيفة على أسرته ، ولن يخفيها عنهم .

أما الشباب الذين يعتمد عليهم مستقبل هذا البلد فستوجه له عناية خاصة .

وهدفنا ان يجد كل قارىء هذه الجريدة مسلية ويستمر فى شرائها لانه يحبها ويثق فيها ، فهى صحيفة للشعب .. يحدث فيها نفسه .. أو يتحدث الى نفسه » .

***

أما العنوان الرئيسى فى الصحيفة ـ المانشيت ـ فهو « عظيم أن تعود الى الحياة » .

وهو يروى قصة انسانية مثيرة عن فتاة أصيبت فى حادث تصادم . وقيل انها ماتت . ولكن بعد وصولها

الى المستشفى فى مدينة جلاسجو عادت الى الحيـــاة وأصبحت عارضة للأزياء .

واحتفظوا بالفتاة طول الليل فى مبنى الصحيفة حتى لا تحصل الصحف المنافسة على القصة او تصور الفتاة.

وقالت الصحيفة « هذا ينطبق علينا ايضا ، فنحن عدنا للحياة » .

وفى كل الصفحات كانت هنـاك اشـارة الى وقوف العمال على أقدامهم مرة اخرى .

وأخذت الصحيفة فى عددها تهنىء نفسها وتنظر الى الوراء فى غضب عن معركة الـ ١٤ شهر التى خاضها العمال حتى استطاعوا ان يصدروا صحيفتهم .

ومن اليوم الاول هاجمت ملـكة انجلترا وامبراطور اليابان الذى كان يزمع زيارة لندن . وعارضت دخول بريطانيا السوق الاوربية المشتركة .

وفى اليوم التـــالى هاجموا رئيس صناعة الصلب وطالبوا باستقالته .

وهاجموا الشركات لان عمال البترول فى بحر الشمال يتعرضون للموت كما ان الحكومة لا تقدم للعمال المعلومات التى تضمن لهم الامن أو تحذرهم من المخاطر .

وفى الايام التالية ايدوا كل العمـال المضربين فى كل الشركات . فان الصحيفة ، كمـا أعلنت ، كانت الى يسار الوسط ولم تكن شيوعية بحال من الاحوال .

***

كان سـعر الصحيفة ٦ قروش بينما ثمن الصحف المنافسة ٥ قروش فحسب .

باع العدد الاول ٢٦٠ الف نسخة ونفذت كل اعداده .

ووصل التوزيع فى الاسبوع الاول الى ٣٣٠ الفا .

ولكن المشكلة كانت فى الاعلانات .

كان مقررا أن تمثل الاعلانات ٤٧ ٪ من مساحة الصحيفة .

وحدد سعر الصفحة ٧٠٠ جنيه .

ولكنها صدرت بعد أن وزعت الشركات ميزانياتها الاعلانية على الصحف ، كما أن الصيف هو فصل الكساد الاعلانى .

ومن ناحية أخرى فان الشركات الكبرى رفضت أن تعلن فى صحيفة تتجه الى يسار الوسط !

وقال مدير الاعلانات للعمال :

ـ الصحيفة تصدر للحصول على قراء .. وعلى معلنين أيضا . الصحيفة تباع للقراء وتباع أيضا للمعلنين .

وقالت هذه الشركات :

« نحن شديدو الحساسية للاضرابات فاذا أيدتموها ستموتون منذ البداية » .

وقالت الشركات :

ـ اننا نجتمع مع مديرى اعلانات الصحف الاخرى فى نفس النادى .. ونحن واياهم نتنفس الهواء الاجتماعى ذاته .. أما أنتم .. !

ولكن العمال كانوا يرون انه عندما يحدث تعارض بين المبدأ والعلاقات التجارية فان المبدأ ينتصر !

***

قبل صدور الصحيفة سئل ١٨٠ ألف قارىء :

ـ هل تتعهد بشراء الصحيفة ٣ شهور متصلة .
فقال ١٥٠ ألف قارىء ..
ـ نعم .

ولكن التوزيع بدأ ينخفض حتى وصل الى ٢٠٠ ألف نسخة فى الاسبوع التالى فان الصحيفة لم تستطع اختراق سوق الشباب .. رغم أنها كانت تصدر ٥ طبعات كل يوم .

ورئيس التحرير لم يكن حازما بدرجة كافية .. كانت الصحيفة مجرد أقسام كل منها يمثل فكرا مختلفا . وكان مطلوبا من رئيس التحرير أن يضع بصماته فى كل سطر ، أو فى كل عامود ، أو فى كل صفحة .. ولكن افتقاره للحسم أضيف اليه انه لم يكن صاحب رؤية بعيدة .

ولم تستطع الصحيفة أن تلتزم بخطها السياسى فى الاخبار بل التزمت بسياستها فى التعليقات والمقالات فحسب .

وكانت لجنة العمل التى تشرف على الصحيفة مؤلفة من ١٦ عاملا .. تجتمع ٥ مرات فى اليوم الواحد ، وقراراتها تتغير وتتبدل عقب كل اجتماع .

وتتدخل اللجنة فى تحديد سعر « الساندوتشات » فى الكانتين ، وهل تقدم دعما له أم لا .. وتتدخل أيضا فى كل شىء .

ولم يثق العمال الا بمن يرتدى ملابس العمال فان تاريخ العداء بين الادارة والعمال كان مريرا فى صحيفة اللورد بيفر بروك .

وكان العمال يفخرون بأنهم يملـكون صحيفة وانهم يستطيعون ادارتها وأنهم يـكتبون ما يريدون بالاسلوب الذى يرونه لائقا ، لا كما يرى مالك أية صحيفة ، وأيضا يقررون ماينشر حسب تفكيرهم لا كما يود الجمهور .

وقيل للعمال :

ـ أنتم تقررون السياسة العامة ولا تقررون طريقة ادارة العمل .

ولكنهم لم يحددوا ابدا الفرق بين السياسة والادارة.

وقال لهم مدير الاعلانات :

ـ اذا أردتم الحصـــــول على اعلانات من الشركات اكذبوا .. لا تذكروا أرقام التوزيع الحقيقية . كل مدير صحيفة يحسن طبخ أرقام الاعلانات كما يريد .

هذه أكاذيب بيضاء .. أو أكاذيب سوداء .. أو أى نوع من الاكاذيب .. قولوها لتنجحوا .

ولكن العمال لم يكونوا مدربين على التجارة . ولم يتحركوا بدافع سياسى أو تجـــارى بل لخلق نموذج يحتذى فى الاشراف على وسائل الانتاج هدفهم توفير فرص العمل لهم أولا وأخيرا !

***

نتيجة نقص الاعلانات وهبـــوط التوزيع أصبحت الجريدة تخسر نحو ٣٠ الف جنيه كل أسبوع ولم يبق لديها الا نصف مليون جنيه نقدا بعد ان أنفقت الباقى على الورق والسيارات والتليفونات والاجور والمحامين والرعاية .. الخ .

وقيل ان السبب فى هبوط التوزيع ان حجم الصحيفة

لا يشجع القراء على شرائهــا وهم يستقلون المواصلات صباحا ولذلك تباع الصحف المنافســـة ذات الحجم الصغير .. وانخفض التوزيع بالفعل الى ۷۰ ألف نسخة .. فانها كانت تفقد ۱۰ آلاف قارىء كل يوم .

وفي ظل هذه الظروف أنذرهم « ماكسويل » بأنه يجب أن يعود للاشراف على التوزيع والاعلان . ووعدهم بتقديم أموال تساعدهم على الاستمرار فترة أطول لان ما لديهم لم يكن يكفيهم الا لفترة قصيرة .

وافق العمال ولكن ماكسويل لم يقدم لهم سوى ٢٥ الف جنيه واشترط أن يطرد كل المديرين الذين عارضوا اشرافه فاستقالوا .

وعلى الفور قرر « ماكسويل » تخفيض سعر الصحيفة الى ٥ قروش ليزيد التوزيع ، في الوقت الذى رفعت فيه الصحف المنافسة سعرها ٦ قروش .

واستطاع ماكسويل أن يجعل حجم الصحيفة صغيرا على نفس المطابع خلال ساعات ولم يتكلف ذلك شيئا على الاطلاق ولكن العمال .. كانوا يجهلون !

وارتفع توزيع الصحيفة بين ١٥٠ و ١٨٠ ألف نسخة كل يوم .

***

ولم يصبر بيفر بروك على العمال . أنذرهم وطالبهم بسداد القروض بعد أن رأى ان مصير الصحيفة هــو الفشل كما توقعت احــدى جامعــات اسكوتلندا منــذ البداية .

ولم تخف الصحيفة هذا الانذار بل انها نشرته تحت

عنوان ضخم يقول :

« بيفر بروك يقوم بقـارة على أموالنا .. وهـذه فضيحة » .

ولكن النشر جاء بعكس ما هو مطلوب .

رفض كل التجار اقراض الصحيفة . ورفض أصحاب السيارات ومحطات البنزين والتاكسيات وكل الموردين شيكات الصحيفة وأصروا على سداد الفواتير .

ونشرت صحيفة « الصانداى اكسبريس » الاسبوعية مقالا اتهمت فيه « ماكسويل » بأنه ضرب أحلام العمال .

وبدأ الكل يطالبون بأموالهم ..

وكان الاستمرار مستحيلا .

عقد العمال اجتماعا عاما يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٥ أعلن فيه أنه تقرر تعيين « مصفى » للجريدة .

وتعاقب العمال يخطبون فطالبوا شعب اسكوتلندا ونقابات العمال بحل المشكلة دون جدوى .

ومر أحدهم « بطبق » يجمع فيه المال فجمع ٥٠٠ جنيه للصحيفة .. وذهبوا الى « ماكسويل » فأعطاهم ١٠٠ جنيه .

وخطبت محررة المرأة فقالت :

— لن نرغم على الخروج من المعركة وسط قوى الصحافة الرأسمالية ولدينا العزيمة . صحيفتنا ستستمر . أبرقوا للحكومة لتمد مهلة سداد القرض .

قولوا للجميع :

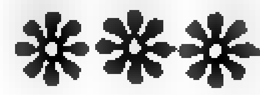
« أنقذوا جريدة سكوتيش ديلى نيوز » .

ووافقت الحكومة تحت الضغوط الى مد المهلة اسبوعا واحدا .

وفي ٦ نوفمبر أعلن رئيس العمال أنه مضطر لاغلاق الشركة .

وماتت الصحيفة التى كانت رمز احتجاج ضـــد « بيفر بروك » .. ولكنه كان احتجاجا تـكلف ثمنـا غاليا .

والجدير بالذكر أنها كانت تبيع عند اغلاقها ١٥٠ ألف نسخة وأنها كانت الصحيفة رقم ٣ فى اسكوتلندا وتسبق صحيفتين اخريين فى جلاســجو وصــحيفتين فى اسكوتلندا ..



كان تعليق مدير صحف بيفر بروك :

ـ العمال استطاعوا اصدار صحيفتهم بـ ٥٠٠ عامل فقط بينما كنا نصدر نفس الصحيفة بـ ١٨٠٠ عامل وهذا يدل على أننا تحملنا البطالة المقنعـة .. زمنـا طويلا .

وكان الهدف من التعليق القاء اللوم على العمال فى فشلهم مرتين :

الاولى فى اصدار صحيفة يملكها راسمالى .

والثانى : اصدار صحيفة يملكها العمال أنفسهم .

وكان خطؤهم أنهم لم يدربوا على الادارة .

وعادوا بعد ٦ شهور يقفون فى الطابور يبتغون تأمين البطالة .. من الحكومة !

صحيفة.. للجيب

أصدرت صحيفة « وول ستريت جورنال » الامريكية طبعة يومية لها فى أوربا وبذلك تكون أول صحيفة امريكية تصدر من نيويورك تطبع وتوزع فى ٣ قارات فى وقت واحد : أمريكا واوربا وآسيا .

وهذه الصحيفة هى اغلى الصحف الامريكية ، ثمنها ـ ٣٥ سنتا ـ أى ٢٥ قرشا تقريبا ـ فى ٥٦ صفحة .

تصدر ٥ أيام فى كل اسبوع اذ تعطل مع اغلاق الاسواق المالية لانها صحيفة اقتصادية فى المقام الاول .. فان اسمها يدل على ذلك لان « وول ستريت » هو الشارع الذى تقع فيه سوق الاوراق المالية فى نيويورك .

وهى الصحيفة الوحيدة التى توزع فى كل انحاء الولايات المتحدة فى وقت واحد .

انها تصدر فى نيويورك .. ومع ذلك اصدرت عام ١٩٢٩ طبعة فى سان فرانسسكو .. والآن توجد لها ١٣ مطبعة متفرقة فى الولايات المتحدة الامريكية المختلفة .

انها ترسل من نيويورك صورة لكل صفحة عن طريق

القمر الصناعي الذى يرتفع ٢٢٫٣٠٠ قدم فوق الكرة الارضية فتتلقاها محطات استقبال أرضية فى مناطق الطباعة المختلفة ، لتطبع وتوزع فى وقت واحد .

وتتم هذه العملية فى دقائق .. أما التكاليف فلا تتجاوز ٧ ٪ من تكاليف انشاء مطبعة فى كل منطقة وأجور عمالها .

ان عدد العاملين فى محطة الاستقبال ١٥ متفرغين واثنين لبعض الوقت ويدخل ضمن هؤلاء « جناينى » وسكرتيرة المدير .

ومعروف ان الصحف الامريكية كلها محلية .. أى لكل ولاية صحفها ، وبذلك تكون « وول ستريت جورنال » هى الصحيفة القومية الوحيدة فى الولايات المتحدة .

ومن ناحية أخرى فهى أكبر الصحف الامريكية انتشارا اذ يصل توزيعها الى مليونى نسخة كل يوم .

وفى عام ١٩٧٦ أخذت الجريدة تطبع فى نفس الوقت فى « هونج كونج » باسم طبعة « آسيا من وول ستريت جورنال » لتوزع فى الشرق الاقصى .

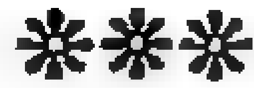
أما الطبعة الاوربية فتجمع موادها فى هولندا .. وتطبع فى بروكسل ، وتوزع فى كل عواصم أوربا والشرق الاوسط .

وتعطى اهتماما خاصا لانباء هذه الدول .

وقراء هذه الصحيفة تتروح اعمارهم بين ٣٥ و ٥٥ سنة ، والمشتركون فيها يبلغ دخلهم فى المتوسط ٥٢ الف دولار سنويا . فهم الذين يملكون القدرة على الشراء .. ولذلك تتدفق الاعلانات على هذه الصحيفة وسعر الاعلان فيها أعلى من باقى الصحف الامريكية لاسباب

كثيرة اهمها ان الصـــحيفة توزع فى كل الولايات .. ولذلك فان الصحيفة والشركة التى تصدرها تربحـان نحو ٤٠ مليون دولار سنويا .

وتبلغ قيمة أسهم شركة « داو جونز » فى السوق ٩٠٠ مليون دولار وهذا هو راسمال الشركة فى الوقت الحاضر .



بدأت فكرة هذه الصحيفة عام ١٨٨٠ .

اثنان من الصحفيين تركا عملهمـا وذهبا الى مدينة نيويورك .. الاول اسمه « شارلز داو » كان يغطى اسعار شركات المناجم يكتبها على أكمام قميصه ويسرع بها الى المكتب الذى يعمل به ويوزع الاسعار على الزبائن .

والثانى « ادوار جونز » الذى انضم الى زميله .

ثم استقال الاثنان ليؤلفا شركة عرفت باسمهما وهى شركة « داو جونز » التى أنشئت فى بدروم بلا نوافذ قرب بورصة نيويورك .

وصدر العدد الاول من « وول ستريت جورنال » فى ٨ يوليو ١٨٨٩ فى ٤ صفحات منها أسعار الاسهم وأخبار اقتصادية ورياضية .

وحمل العدد الاول مبـــاراة الملاكمة الشهيرة التى خاضها « سوليفان » للاحتفاظ بلقبه بعد ٧٥ جولة فى مباراة واحدة .. ففى تلك الايام كانت المبـاريات .. طويلة .. طويلة .

وفى نهاية القرن باع الصحفيان الشركة والصحيفة الى « كلارنس بارون » .

والى هذا الرجل يرجع الفضل الى تطـور الصحيفة وشهرتها .

كان صحفيا يملى الاخبار على جيش من السكرتارية فى وقت واحد .

... يملى أخباره ومقالاته عندما يستيقظ صباحا ثم من الحمام .. وهو يحلق ذقنه .. بل كان يملى مقالاته وهو يلعب البوكر .

وكان صديقا للملكة « مارى » ملكة رومانيا .

***

رأى « بارون » ان مهمة الصـحفى أن يفسر للقراء كل عمليات الاستثمار سواء تمت على موائد القمار فى لاس فيجاس ، أو فى آبار البترول فى البحرين .

ورأى ان واجبه تقديم أسعار الذهب فى زيورخ ، والماشية فى الارجنتين ، وأسعار الاراضى والمزارع فى أمريكا ، وتقلبات أسعار سوق الاوراق المالية ومضارباتها .. وما وراء هذا كله .

ورأى ان صحيفة اقتصـــادية لا ينبغى أن تتجاهل تفاعل المال والسياسة .. ولابد من أنبـــاء الجرائم ، والحروب ، والسـينما ، والمسرح ، والـكتب ولـكن الاقتصاد يسبق هذا كله .

وكانت الاخبـــار المالية مهملة فى الصحف وتنشر بطريقة غبية فقدمها بطريقة افضل .

***

ووجد أن مهمة محرر الصحيفة أن يربط الاحداث الدولية المتباعدة ويبين تأثيرها على سوق المال .

ان ما يجرى في بورصة باريس قد تـكون له علاقة

بجريمة قتل غامضة فى شارع ضيق باستانبول ، وبناد للقمار ، أو بصحفى يساوى ببيونس أيرس .

وهـذا كله قد يؤثر فى سوق الاوراق المالية فى نيويورك .

ومهمة المحرر أن يتنبأ بالتغييرات .. ارتفاعا ، أو هبوطا ، فى أسعار المواد الخام حتى يقدم خدمة للقارىء .

***

قبل قيام الحرب العالمية الاولى بدأ سباق التسلح بين الدول الكبرى فى أوربا .

وتأثر الاقتصاد الامريكى نتيجة الاقبال على المعادن ، التى يصنع منها السلاح ، فارتفعت الاسعار وزاد الرواج .

ورأى « بارون » أن يسافر الى أوربا لمراقبة الاحوال، على الطبيعة .

فى فينا وجد رجال البنوك يستمتعون بالربيع ... والصحفيين بالمقاهى يحتسون القهوة التركية ، ويتبادلون الاشاعات عن بلاط الامبراطور « فرانز جوزيف » .

وفى باريس وجد الناس منتشين بالسعادة .

ووجد أن تجار السلاح قد زادوا معروضاتهم فبدأ الطلب يقل ..

وفى كل مكان لم يحس بخطر الحرب فكتب فى صحيفته ينصح المساهمين فى شركات المعادن ببيع أسهمهم وشراء أسهم شركات البترول فى المكسيك وسومطرة وخليج الاطلسى .

وقال « بارون » أن أسعار أسهم المعادن ستنخفض حتما ..

وصح ما توقعه ..

بدأ سباق التسلح يخف .

وأخذت الاسعار تتهاوى ..

وفى الاسبوع الاخير من يوليو عام ١٩١٤ اغلقت بورصات فيينا ، وبروكسل ، وبودابست لمنع المزيد من الانهيار ..

وقبل نهاية الشهر كانت بورصات أوربا قد أغلقت .

وفي ٢١ يوليو تلقت بورصة نيويورك نبأ عاجلا بأن بورصة لندن أغلقت بينما ظلت مفتوحة حتى خلال حرب نابليون .

واصيب سوق الاوراق المالية فى نيويورك بالرعب فأخذت الاسعار فى الانهيار السريع المفاجىء .

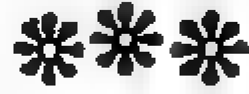
وحاول الخبراء وقف تدهور أسعار أسهم شركة الصلب الامريكية حتى لا تؤثر على باقي الشركات .. ولكن بغير نتيجة ، فان أوامر البيع كانت تتساقط على السماسرة كالمطر ..

وأغلقت البورصة فى موعدها العادى .وبدأت الاجتماعات بين المسئولين لبحث الموقف .

قال السماسرة ان المساهمين الاوروبيين فى الشركات الامريكية يملكون أسهما قيمتها ٢٫٥ بليون دولار وقد طلبوا بيعها .. واذا تم ذلك فان الانهيار الاقتصادى الكامل لامريكا .. محتوم .

وعلى ذلك تقرر اغلاق بورصة نيويورك لاول مرة منذ عام ١٨٧٣ .

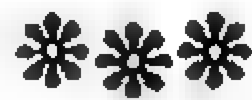
بقيت البورصة مغلقة ٩ شهور .. اى حتى أبريل عام ١٩١٥ ، فقـــد قامت الحرب واصبحت الولايات المتحدة اكبر مورد سلاح للحلفـاء .. وبذلك ارتفعت الاسعار .



ان هذه الصحيفة تدور حول مركز واحد : المال ..

وكل الفضائح الســـياسية وغيرها تبدأ وتنتهى — عادة — بالمال .

ولم يتردد « بارون » فى القاء الضوء على الفضائح المالية مهما كان الثمن .. وأيا ما تكون شخصية المتهم .. ومهما كلفه ذلك من جهد ومتاعب .. ومشاكل .



ولد شارلز « بونزى » فى ايطاليـا .. وهاجر الى امريكا وعمره ١٧ سنة اشتغل بكل الاعمال .. قـام بغسل الصحون .. ورقى جرسونا ، ثم عمل كاتبـا وأخيرا ، وبسبب خياله الخصب أصبح مليونيرا ..

قال لاصدقائه :

— اكتشفت وسيلة للاستثمار تجعلكم اغنياء .. درست نظام أذونات البريد فى أمريكا وأوربا . واستطيع ان اضمن لكم ربحا يصل الى ٥٠ ٪ على أموالكم خلال ٤٥ يوما .

صدقه بعض الاصدقاء فاستأجر مكتبا — من حجرة واحدة — فى مدينة بوسطن يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٩١٩ .

وفى اليوم الاول جمع ٢٥٠ دولارا من الزبائن ، الذين يريدون الثراء دون القيام بعمل .

وبعد ستة أسابيع ، رد لهم أموالهم مضافا اليها ١٢٥ دولار هى الارباح التى وعدهم بها .

انتشر النبأ وبدأ الناس يطرقون باب « بونزى » .. كلهم يحلمون بالثراء ، ليشتروا قصورا فى ايطاليا أو اليونان أو .. فان معظم الحالمين من المهاجرين ..

وكان « بونزى » يقدم للزبائن القهوة والحلوى .

وتدفق الناس حتى كونوا صفوفا طويلة .. وكان يجمع المدخرات مؤمنا بأنه سيضاعفها خلال ستة شهور .

وفى ربيع عام ١٩٢٠ كان « بونزى » قد جمع ربع مليون دولار كل يوم .. وملأت الاموال ادراج المكتب و ١٢ سلة مهملات وبلغ ارتفاعها سقف الحجرة .

واضطر لتعيين ١٦ كاتبا لتلقى الاموال . وفتح ٥ مكاتب فى ولايات أمريكا لقبول الاستثمارات .

وفى أقل من ٨ شهور ، جمع ١٠ ملايين دولار . وأصبح اسمه مشهورا فى أمريكا كلها . واشترى عقارات ضخمة فى بوسطن ، وشركة السمسرة التى عمل فيها ساعيا ، وسار من عمالقة سوق الاوراق المالية وصديقا لرجال السياسة .

وعندما يغادر السيارة أمام مكتبه الجديد يحيط به الايطاليون والايرلنديون واليهود يتوسلون اليه قائلين :

ـ خذ أموالنا .

وفى صيف ١٩٢٠ قرر « كلارنس بارون » صاحب جريدة « وول ستريت جورنال » القيام بتحريات لاثبات أن « بونزى » لص وأفاق ومزور .

والنصاب عادة يهرب من مندوبى الصحف ولكن

« بونزى » استقبل محررى « الجورنال » واشار الى حقائب مليئة بالمال وقال :

ــ هذه هى الارباح سأوزعها على أصحابها .

ولكن الصحيفة أخذت تبذر الشكوك حول «بونزى» وكتبت تقول انه من المستحيل تحقيق أرباح بهذا الحجم من أذونات بريد ثمن كل منها ٦ سنتات .

وجد « بونزى » انه ينبغى أن يرد فأقام دعوى ضد الصحيفة مطالبا بتعويض ٥ ملايين دولار من تهمة القذف ضده ..

أوفد « بارون » أحد مندوبى الصحيفة الى باريس ــ مقر اتحاد البريد الدولى ــ لمعرفة عدد أذونات البريد التى أصدرها الاتحاد خلال عام .

وجد الصحفى ان هذه الاذونات لا تتجاوز قيمتها مليون دولار خلال عام .. وبالتالى لا يستطيع « بونزى » أن يحقق من هذا المبلغ الارباح الضخمة التى يدعيها ..

قال « بونزى » ردا على الحملة الصحفية : « لا أجمع أرباحى من هذه الاذونات .. انها ستار فقط .. .. ولا أريد أن يعرف النـاس كيف أصـل الى هـذه المكاسب كلها .

وما دام الزبائن يحصلون على ارباحهم خلال ٤٥ يوما فليس لاحد أن يحاسبنى » .

خاف الناس على أموالهـم فاتجهـــوا الى مكاتب « بونزى » لاسترداد أموالهم فأعادها اليهم كاملة .

ولم يتوقف « بارون » وصحيفة « الجورنال » عن الهجوم على « بونزى » .

وبعثت الصحيفة بعض المراسلين الى مونتريال ومعهم

صور « بارون » يعرضونها على أولئك الذين عمل معهم في كندا قبل انتقاله الى أمريكا .

.. تعرف أحد رجال الشرطة على « بونزى » وقال انه كان يعمل فى بنك . وقد حكم عليه ٣ سنوات بتهمة التزوير ..

وجدت الحكومة الامريكية أنها لا تقدر على الاستمرار في الوقوف موقف المتفرج ازاء رجل يبدو من تصرفاته انه أفاق .

وخلال يومين من نشر قصـــة مونتريال ، قبض على « بونزى » ، وأودع السجن ، فتجمهر الناس وهاجموا السجن معتقدين ان الحـــاكم سيرد اليهم أموالهم .. وارادوا قتل « بونزى » لولا حماية الشرطة له .

وقد تبين إنه خدع ٤٠ الف مساهم استولى منهم على ١٥ مليون دولار ولم يجدوا معه عند القبض عليه سوى مليوني دولار .

ولم يستطع « بونزى » ان يحدد مدى الاموال التى سرقها لانه لم يكن يحتفظ بدفاتر بل كان يرد الاموال والارباح الى بعض المستثمرين القدامى بأموال المخدوعين الجدد ...

اضطر « بونزى » الى الاعتراف بجـــريمته فقضى بسجنه ٥ سنوات .

وكان يستطيع الهرب والافلات من السجن لانه لم يفكر فى الحصول على الجنسية الامريكية .

***

عاش « بارون » حتى بلغ الثالثة والسبعين ..

بقى أياما فى غيبوبة أثناء مرضه الاخير .. ولما أفاق منها التفت الى سكرتيرته قائلا بصوت هامس :

– ماهى آخر الاخبار على آلة التيكرز الآن .

.. ثم مات .

وكان ذلك عام ١٩٢٨ .

وقد تزوج من أرملة أم لابنتين فورثتا وزوجاهمـــــا الصحيفة وشركة « داو جونز » التى تتولى نشر أسعار الاسهم فى بورصة نيويورك حتى الآن .

وعندما أقبلت الازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣١ انخفض عدد المشتركين فى آلات التيكرز ، التى توزع اســـعار الاسهم ، فاضطرت الشركة الى توزيع نـكت وفكاهات على هذه الآلات .

أما الصحيفة فوجدت أن مستقبل الاوراق المالية غير مضمون فاهتمت بتوسيع نطاق عملها وزيادة جاذبيتها للقراء فتحولت الى جريدة اقتصادية واجتماعية أيضا .

ولم يتدخل الورثة بل تركـوا الصــــحيفة والشركة الخبراء المختصين يديرونها .

يوم هاجمت اليابان ميناء « بيرل هاربور » عام ١٩٤١ وأغرقت الاسطول الامريكى نشرت « الجورنال » فى الصباح التالى مقالا فى الصفحة الاولى قالت فيه :

« الحرب مع اليابان تعنى ثورة صناعية فى الولايات المتحدة » .

واكتفت الصحيفة بكتابة أخبار الغزو اليابانى للفيليبين وسقوط « سنغافورة » فى فقرات صغيرة فى الصفحة الاولى .

ولم تبرز أنباء القتال فى كل الجبهات بمـــا فى ذلك غزو الحلفـاء لاوربا . أنها رأت أن توجه اهتمامهـــا ،

واخبارها ، وتعليقاتها ، وافتتاحياتها للجبهة الداخلية .. ونقص المواد والرقابة على الاسعار والتوزيع بالبطاقات والقوى العاملة وكل ما يفيد القراء .

وجدت الصحيفة ان واجبها الاساسى خلال الحرب الا تعامل قراءها كمديرى شركات ورجال أعمال واموال بل عاملتهم على انهم مستهلكون ولذلك أبرزت ما يهمهم وأسرهم .

وفى الاسبوع الاول للحرب لفت الرقيب نظر رئيس التحرير الى انه نشر صورة ضخمة لتل من اطارات السيارات القديمة .

وقال الرقيب ان هذه دعوى للتخريب .

كما لفت الرقيب نظر رئيس التحرير أيضا الى مقال نشر يتضمن معلومات هامة قد تفيد العدو .

قال رئيس التحرير :

ـ ولكن كل المعلومات جاءت من دائرة المعارف البريطانية .

قال الرقيب الذى لا يراجع الصحيفة قبل النشر :

ـ المسئولون الالمان قد لا يقرأون دائرة المعارف ولكنهم يطالعون الصحف .

ولقد قامت اليابان بارسال بالونات تحمل القنابل الى الشاطىء الغربى لامريكا مستغلة فى ذلك التيارات الهوائية .

وسقطت بعض القنابل على أهداف ثانوية ولكن الصحيفة ، وغيرها ، امتنعت عن النشر ، فلم تعرف

اليابان مدى نجاح أو فشل التجربة فتوقفت عنها .

وخلال الحرب فرضت الصحف الامريكية على نفسها رقابة اختيارية . واستطاعت « الجورنال » أن تحصل على سبق عالمى وهو انتاج أول قنبلة ذرية فى أمريكا ، وفى العالم كله .

ولكن الصحيفة ـ بسبب الرقابة الاختيارية ـ امتنعت عن نشر النبأ .

وقد امتنعت السلطات الامريكية من تجنيد مديرى تحرير الصحف حرصا على استمرارها على العكس مما فعلته بريطانيا ـ ولكن هذه السلطات جندت المحررين ، فاضطرت الصحيفة الى أن تطلب من معاهد الصحافة اسماء الخريجات الأوائل واستعانت بهن خلال الحرب .

وسياسة الصحيفة تتركز فى الحرية الاقتصادية او الاقتصاد الحر .

وكانت « وول ستريت جورنال » أول صحيفة فى أمريكا تعارض اشتراك الولايات المتحدة فى حرب فيتنام ، وذلك عام ١٩٦٨ عندما كان ذلك الاتجاه غير مقبول من الامريكيين .

وتؤمن الصحيفة بأن قراءها ليسوا متبحرين فى علوم المال ولذلك تكتب ببساطة وبلا تعقيد ولا تنشر اصطلاحات فنية الا اذا شرحتها فى كل عدد .

وهى تختار المحررين الشبان عقب تخرجهم من الجامعة مباشرة ، قبل الاشتغال بالصحافة ، أو العمل بسوق المال .

انها تحرص فقط على أن يكون الصحفى الشاب ممن

يحسنون الكتابة ، أما الخبرة فيكتسبها من خلال عمله . .

فالصحيفة ترى ان « النصاب » يبدأ من القاع ، ويتعلم ، ولذلك فان الصحفى أيضا يستطيع ان يتعلم من الصحيفة ومن السوق .

وهى تقول للمحررين الجدد :

« احرصوا على أن تكون الجريدة جذابة للمائة الف قارىء الذين لم يشتروا الصحيفة ، أو لم ينتظموا فى قراءتها حتى الآن .

والسبيل لذلك أخبار بلا أخطاء ، وموضوعية كاملة ، وعدم تحريف للأنباء » .

وفى كل صباح يتناول رؤساء الاقسام القهوة فى مكتب رئيس التحرير . ويبدأون عملهم بنقد العدد الصادر ذلك الصباح . ويضعون أفكار الموضوعات والاخبار التى ينبغى على الجريدة متابعتها والاهتمام بها .

ومعظم الانباء التى تنشر فى الصفحة الاولى فى اليوم التالى ، هى عادة نتاج هذا الاجتماع الصباحى .

***

وقد عهد الى محرر واحد بكتابة كل اخبار الصفحة الاولى سنوات طوال .

قيل له :

ــ يجب أن تكون هذه الصفحة متميزة أو فريدة بين الصحف . ويجب أن يجدها القراء مسلية . مفيدة . يسهل فهمها .

وعليك ان تقدم لهم أخبارا لا يجدونها فى أى مكان آخر .

وقد تفوق هذا الصحفى واسمه وليم كيربى ـ واصبح بعد ذلك رئيسا لمجلس الادارة ١٢ سنة .

وقد بدأ حياته مندوبا .. أو مخبرا صحفيا تنبأ بالازمة الاقتصادية العالمية ـ التى وقعت فى الثلاثينات ـ فترك لأمه شيكا موقعا عليه برصيده الصغير فى البنك .. وقال لها :

ـ عندما اطلب اليك سحب الرصيد فقومى بذلك فورا ..

وفى احد الايام اتصل بها تليفونيا وقال لها :

ـ اذهبى الى البنك واسحبى الرصيد .

قالت الام :

ـ كله ؟

أجاب بالايجاب ..

واستمر فى عمله ثم عاد الى البيت فى المساء وسأله امه :

ـ أين الدولارات ؟

قالت الأم :

ـ فى مرآة المصعد وجدت انه لابد من ذهابى الى الكوافير . وبقيت هناك حتى فات الوقت وأغلقت البنوك .. لا تغضب سأذهب غدا .

قال بحسرة :

ـ فات الوقت .. لقد أغلق البنك الى الابد .

وبعد ست سـنوات تمت تصفية البنك واسـترد رصيده .

وقد التزم « كيربي » خلال الـ ١٢ عاما التى أمضاها رئيسا لمجلس الادارة بأن يخطر الصحيفة بمكان وجوده خلال الاجازة القصيرة التى يحصل عليهـا حتى يمكن الاتصال به فى أى وقت .

ومنطقة فى ذلك يقول بأنه ما دام القرار النهائى له ، وهو أعلى سلطة ، فيجب أن يكون تحت تصرف الصحيفة فى أى وقت ليصدر ذلك القرار .. عند الحاجة اليه .

وشعار الصحيفة التى تطبقه دواما هو :

« لا يوجد وقت مناسب للقيام بأى عمل .. ولذلك علينا انتهاز الفرص » .

***

فى مايو عام ١٩٥٤ نجح مندوب الصحيفة فى مدينة « ديترويت » مركز صناعة السيارات ، فى الحصول على صور موديلات عـدد من سيارات الشيفروليه التى ستنتجها شركة « جنرال موتورز » عام ١٩٥٥ قبل ازاحة الستار عنها رسميا .

تلقت الصحيفة هذه الصور ونشرتهـا فى صـفحتها الاولى مع وصف كامل لها .

و « جنرال موتورز » احدى الشركات العشر الكبرى فى أمريكا .. وغضبها يعنى زئير عـدد من الشركـات التى تنتج لها ، قطعا ، أجزاء من السيارات .. أو قطع الغيار .

وفوجئت الصحيفة بقرار من « جنرال موتورز » بالغاء

جميع اعلاناتها ، وتبع ذلك قرار مماثل من الشركات الاخرى المتعاونة ، أو المتضامنة ، معها .

وهكذا فقدت الصحيفة فى يوم واحد مبلغ ربع مليون دولار سنويا . وهو رقم كبير بمقاييس تلك الايام كما حجبت الشركة الاخبار عن الصحيفة .

ولم تستطع الجريدة المالية والاقتصادية ان تتجنب نشر أنباء صناعات السيارات ، وأخبار الشركة فاتفقت مع وكالة أنباء « اسوشيتد برس » على موافاتها بكل شيء .

وفى نفس الوقت حرصت على كتمان نبأ الخلاف ، او المعركة السرية بين الصحافة والشركة ، أو بين استغلال الاعلانات وحصيلتها للضغط على الصحف .

ولكن النبأ تسرب للصحف الاخرى التى نشرته فى منتصف يونيو .

ووجد مؤيدون للشركة ، ومناصرون للصحافة . واثيرت حرية الصحافة التى وجدت لها أنصارا .. وخصوما ولكن من رجال الصناعة !

وعندما أحست الصحيفة انها ربحت معركة الرأى العام ، وخسرت أموال الاعلانات ، فكرت فى عقد مؤتمر صلح ، أو مؤتمر سلام ، فدعا كيربى رئيس الشركة التى تصدر الصحيفة ، رئيس « جنرال موتوز » الى اجتماع فى مدينة ديترويت يوم ٧ يوليو .

فى هذا الاجتماع قالت الصحيفة بلسان ممثلها :

ـ نريد أن نكون أصدقاء للشركة .. وفى نفس الوقت ، نكره أن نخسر أموال الاعلانات .

ولكننا لن نسمح لاحد بأن يملى علينا ما ننشره ، وما لا ننشره .

قال كيربى :

ـ لو خضعنا لكم فان اثنين من كبار محررى الصحيفة يستقيلان احتجاجا على نفوذ المعلنين على الصحيفة .. وتعويض الاعلانات ممكن ولا يمكن ايجاد بديل لصحفى كبير .

وشرحت جنرال موتورز موقفها قالت :

ـ لا نريد أن نحد من حرية الصحافة ولكننا نحرص على حماية تصميماتنا .

وانتهى الامر الى اتفاق على تبادل الخطـــابات بين الطرفين لشرح وجهة نظرهما للجمهور .

وظلت صيغة الخطابات محل جدل بينهما خمسة أيام كاملة ثم نشرتها الصحيفة يوم ١٣ يوليو ... واستأنفت الشركة مد الصحيفة بالاعلانات .. ولـكن التوتر بين الطرفين ظل قائما حتى شهر سبتمبر عندما أقيمت مأدبة غداء فى نيويورك جمعت كبـــار المحررين ومديرى الشركة .

وانتهى « الحـــــادث » الى صيانة سرية موديلات السيارات .. ولكن الشركة ربحت كثيرا من الضجة اذ أصبح موديل الشـــيفروليه فى تلك السنة موضع اهتمام الجمهور كمـــا زاد توزيع الصحيفة الاقتصادية المتخصصة التى لا يقرؤها ، عادة ، سوى رجال المال .. والاعمال .

***

المثل الشائع يقول :

« الكلب لا يعض أذن أخيه » .

والمقصود بذلك ان أصحاب المهنة الواحدة لا يهاجم بعضهم بعضا .

ولكن الصحفيين ـ فى كل مكان ـ يتبادلون الهجوم .. ويعيشون على ذلك .

ولم تشذ « وول ستريت جورنال » عن هذه القاعدة، بل أنها تتمادى وتهاجم أصحاب الصحف أنفسهم .. وبعنف .. وفى الصفحة الاولى .

فى ١١ أغسطس عام ١٩٧٢ بدأت « وول ستريت جورنال » سلسلة مقالات ضد « شاندلر » صاحب جريدة « لوس انجلوس تايمز » وهى من أكبر الصحف الامريكية .

و « شاندلر » له صديق يدعى « بارك » .

درس الاثنان معا فى الجامعة وعندما تخرجا أصبح بارك مضحك الصحفى الكبير ..

وقد أسس « بارك » شركة للتنقيب عن البترول فى عام ٦٤ .

وطلب « بارك » من زميله ناشر جريدة « لوس انجلوس تايمز » أن يساعده فى البحث عن مستثمرين يساهمون فى الشركة .

ولان الناشر «شاندلر» له أصدقاء كبار فقد استطاع أن يجد هؤلاء المساهمين ، وبذلك جمع « بارك » ٣٠ مليون دولار من أموال المساهمين ورأى « شاندلر » أن يرد الجميل لصديقه الذى ساعده فى عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٦٨ فأعطاه ١٠٩ آلاف دولار نقدا كما قدم له ـ مجانا ـ أسهما قيمتها نحو ٣٠٠ ألف دولار .

وعرفت لجنة حكومية في سبتمبر عام ١٩٧١ أن الشركة خدعت المساهمين . وأنها لم تكتشف كميات

ضخمة من البترول .. فبدأت ــ اللجنة ــ التحقيق .

وأدرك المساهمون أنهم خدعوا فاجتمع مجلس الادارة وقرر طرد « بارك » من الشركة .. وأقام دعوى مدنية ضده يتهمه فيها بالتزوير والنصب .. الخ .

ولم تكتب الصحيفة (لوس انجلوس تايمز) كلمة عما يجرى فى هذه الشركة ، مع ان صاحب الجريدة يعرف كل الحقائق .

وعندما بدأ أحد محررى « الجورنال » فى يوليو ١٩٧٢ تحريات عن شركة « بارك » عرف « شاندلر » ان الصحيفة تزمع نشر فضيحته قام ــ سرا ــ برد ما أخذ من مبالغ وأسهم .

قالت « الجورنال » :

« ان معارف أغنياء لناشر من امريكا فقدوا الملايين وأن « شاندلر » فتح الابواب فى الدراسة للحصول على دعم مالى » .

وكتبت « الجورنال » كل ما تعرف .

ولم تستطع الصحف الامريكية الاخرى أن تبقى صامتة وهل تجد أمامها فضيحة كبرى .

التقطت القصة « نيويورك تايمز » .. وكل «الكلاب» الصحفية .

واضطر « شاندلر » لان يذكر فضيحته .. فى صحيفته .. ولكن من وجهة نظره .. ودفاعا عنه .

واستمرت اللجنة الحكومية تحقق فى الامر ، حتى اضطر شاندلر الى الاستقالة من كل مجالس ادارات البنوك .. واحتفظ برئاسة مجلس ادارة صحيفته .

ونجح « شـــــاندلر » عن طريق نفـوذه فى حفظ التحقيقات بالنسبة اليه .. ولكن ما نشرته «الجورنال» حطم ـ مؤقتا والى حد ما ـ سمعته .

***

ونال أحد محررى الصحيفة جائزة بوليتزر ـ أعلى الجوائز الصحفية الامريكية ـ عن مقالين ضـــد قرينة الرئيس الامريكى السابق « ليندون جونسون » .

وقد نشر المقالان و « ليندون جونسون » يجلس على كرسى الرئاسة فى البيت الابيض .

قال الصحفى ان قرينة « جونسون » ظلت تحتفظ بامتياز احدى محطات الاذاعة بعد تولى زوجها منصب لرئاسة .

وقيمة هذه المحطة ١٧٫٥٠٠ دولار ، ولكن لجنـــة المواصلات الاتحـــادية جاملت المحطة التى تملكها حرم الرئيس فأصبحت المحطة امبراطورية اذاعة كاملة .

***

وفى عام ١٩٦٧ نال اثنـــان من محررى الصحيفة جائزة « بوليتزر » أيضا .

نشر الصحفيان عدة مقالات ازاحا فيها الستار عن الصلة بين عصابات المافيا فى أمريكا وأصحاب كازينات القمار فى جزر الباهاما .

قال الصحفيان ان حكومة جزر الباهاما تتألف من رجال بيض يحكمون شعبا أسود .. وهؤلاء البيض لهم

روابط قوية مع عصابات المافيا عن طريق أحـد رجال المال فى « وول ستريت » .

وذكرت الصحيفة اسم المالى الامريكى الكبير ..

وكان نشر تلك الفضيحة مقدما ، أو مبررا للانقلاب ، الذى وقع فى جزر الباهاما وأدى الى انهاء حكم البيض وتولى السود الحكم .

وبذلك أصبحت « وول ستريت جورنال » اول صحيفة أجنبية تمهد لانقلاب فى غير بلدها !

***

وأمضى محرر فى « الجورنال » خمس سنوات يطالع الملفات ويجمع المعلومات حتى استطاع الوصول الى الطريقه التى حصلت بها الشركات الامريكية على امتياز التنقيب عن البترول فى ليبيا والدور الذى لعبته « شركة الين » الامريكية فى هذا المجال .. وما صاحب ذلك من انحراف وتزوير ورشوة .

***

ونجح محرر آخر فى كشف التلاعب فى صـندوق اتحاد عمال المناجم الامريكيين مما أدى الى تغيير كل قيادات الاتحاد .

طاف المحرر بوزارة العمل الامريكية وكل شركة تساهم فى الاتحاد .

ووجد الصحفى ان كل شركة تدفع ٤٠ سنتا عن كل طن من الفحم .

ومن الولايات عرف الصحفى انتاج كل شركة .

وبهذه الطريقة حدد المحرر الرقم الذى تساهم به

الشركات فى الاتحاد .. أى ايرادات الاتحاد وتبين له ان الارقام التى يعلنها تقل عن ايراداته الحقيقية .

***

وقد اشترت الصحيفة صحفا أخرى لانها وجدت أن ٩٤ ٪ من أرباحها تأتى من مصدر واحد وهو جريدة « وول ستريت جورنال » مما يعرضها فى أى وقت لهزة أو كارثة نتيجة المنافسة أو لعوامل اقتصادية طارئة .

***

وتصدر الصحيفة مجلة اسبوعية اقتصادية اسمها « بارون » .

وفى عام ١٩٧٩ أنشأت محطة تليفزيون فى احدى الولايات .. للمشتركين فقط .

وتعمل هذه المحطة ٢٤ ساعة كل يوم تقدم خلالها الاخبار السياسية والمالية والرياضية أيضا .. كما تقدم الاعلانات التجارية .

وعدد المشتركين ٢٤ الفا .

ويستطيع أن يتصل بالمحطة عن طريق الضغط على أزرار خاصة فيعرف معلومات معينة يريدها مثل أسعار الاسهم التى يمتلكها .

ولكن المحطة تقدم للمشتركين أيضا أخبارا عن الافلام المحلية والاوكازيونات فى المحلات التجارية ودليلا للمطاعم .

وتقدم المحطة ـ ٣ مرات يوميا ـ رسائل خاصة

للمشتركين مدة كل منها ١٥ ثانية تهنئهم فيها بأعياد ميلادهم وبعض الخدمات الخاصة .

***

وفى ابريل عام ١٩٨٢ قامت بأغرب حملاتها .

كتب مدير التحرير « لورانس أودونيل » مهاجما اللجنة التى تمنح جائزة « بوليتزر » .

قال انه أحد أعضاء هيئة التحكيم فى اختيار الجوائز لافضل التحقيقات الصحفية المحلية فى الولايات المتحدة .

وقد قررت اللجنة بالاجماع منح الجائزة لصحفى اسمه « كين ويلز » يعمل فى صحيفة « ميامى هيرالد » لانه كتب سلسلة من المقالات عن الجفاف فى جنوب فلوريدا .

ولكن اللجنة العامة لبوليتزر رفضت هذا الاقتراح واختارت محررا آخر فى صحيفة (كانساس سيتى تايمز) غطى أنباء انهيار فندق « حيات » فى المدينة .

وقال مدير تحرير « الجورنال » أن هذا القرار أصابنى بالجنون .

ولكن رئيس تحرير جريدة « ميامى هيرالد » غضب وقال ان جريدة « وول ستريت جورنال » عرضت على « كين ويلز » العمل فيها وهذا هو سر تزكيته للجائزة .

وقال رئيس التحرير :

« لا يجب أن تكون لجنة التحكيم لجنة لتجنيد الصحفيين .. ان هذا عمل لا اخلاقى » .

ولكن مدير تحرير « وول ستريت جورنال » رد على ذلك قائلا :

« سأعرض العمل على كل موهوب » .

***

وآخر ما قامت به الصحيفة عام ١٩٨٢ حملتها ضد التدخين بين الشباب بطريقة غير مباشرة .

نشرت تحقيقا صحفيا بين ١٥ وكالة توظيف، وتشغيل العاملين ، لمعرفة مدى كراهية مديرى الشركات للمدخنين .

قال التحقيق ان المديرين طلبوا من هذه الوكالات الا يرشحوا للعمل أحدا من المدخنين .

واذا بعثت الوكالة بمدخنين يدعون أنهم لا يدخنون فان الشركات ترفض أن تدفع للوكالات اجرا على عملها .

وبهذه الطريقة تحاول الصحيفة ، تشجيع الشباب على الامتناع عن التدخين للحصول على وظيفة وعلى عمل .

***

وهذه الصحيفة هى ضمير رجال الاعمال فى أمريكا ، وهذا أحد عوامل نجاحها .

عندما كانت اضرابات العمال تجتاح الشركات الامريكية كانت الصحيفة تكتب عن الشركات الناجحة التى لم يضرب عمالها ، وتقدمها للقراء ، وتبين الدوافع التى حدت بالعمال للانتظام فى العمل لتتبع الشركات الاخرى « دواء » النجاح .

وقد وضعت قاعدة هامة لاسعار الاعلانات .

فالمعلن يحصل على سعر أعلى اذا نشر اعلانه فى كل الطبعات ..

ويحصل على سعر أقل اذا نشر الاعلان فى طبعات محدودة .

وفعلت شركة « داو جونز » ذلك أيضا فهى تلزم الصحف الكبرى بدفع اشتراكات أكبر للحصول على أسعار الاسهم فى البورصة .

***

وأصبح يطلق عليها الآن : معجزة الصحافة فى القرن العشرين وأكثر الصحف ربحا وأقواها نفوذا واحتراما فى أمريكا .

***

وسر نجاح ورواج هذه الصحيفة يرجع الى انها تعتبر مثل جهاز الرادار لجيوب الامريكيين فهى تحذرهم من كارثة اقتصادية .. وتحرص على استقرار عملتهم .. الدولار .. وتحاول أن تبين لهم كيف يربحون .

وهى الجريدة الوحيدة فى العالم التى لا تنشر أبدا كلمة لا ..

فهى لا تقول لقرائها « لا تشتر » أو « لا تبيع » أو (لا تعمل) لانها تخشى ان يخطىء عامل جمع الكلمات فينسى كلمة « لا » وبذلك يكتب اشتر .. أو بع وبهذه الطريقة يخسر القارىء الوفا أو عشرات الالوف أو الملايين نتيجة خطأ مطبعى .

ولا تكتب الجريدة أبدا كلمة (غير مذنب) عند صدور حكم قضائى فقد تسقط أيضا كلمة (غير) وبذلك يصبح البرىء مذنبا .

انها تقول للقراء المتهم برىء .

وتقول للقراء امتنع عن الشراء .. او امتنع عن البيع .. خوفا على مصالح القراء .

***

قال رئيس مجلس ادارة الصحيفة انه فى غمرة النشوة بالنجاح قال يوما لزوجته وهما يتنزهان :

ـ انا افضل صحفى فى أمريكا .

قالت الزوجة وهى تتنهد :

ـ قاتل الله الغرور !

اجابها وهو يبتسم :

ـ اذا لم اقتنع بذلك فهل يمكن ان يقتنع به غيرى !!

ملك الشيكولاتة يقتل صحيفة!

الساعة الرابعة بعد الظهر ..

كان صحفى يجلس على آلته الكاتبة يعزف باصابعه على حروفها آخر قصة .. وآخر مقال .. وآخر خبر .

وأجراس التليفونات تدق ..

ـ محرر يتكلم من فيينا .. انه فى طريقه الى موسكو ، ولكنه توقف فى النمسا ليلتقط قصة تصلح للصحيفة .

ومحررة تتكلم من باريس .. حديثها عن المرأة .. عن الغد ..

ومحرر يتكلم من بعيد .. انها أول أجازة له منذ اشتغل بالصحافة وهو يريد أن يخرج لسانه .. لزملائه ليقول أنه سعيد بالاجازة .

وفى داخل المبنى يروح ويجىء شاب صغير .. هذا يومه الاول فى الصحافة . وهو كبير الامل فى المستقبل .. وكبير الثقة بنفسه ، وبالجريدة التى يعمل فيها .. وبالحياة .

آلات التيكر ـ التى تنقل أخبار وكالات الانباء من كل مكان من العالم ـ تدق فى كل لحظة لتحمل الاخبار

السعيدة والحزينة معا فى تتابع .. كالحياة .. بل هى الحياة ذاتها ..

وهذا صحفى عجوز سيترك العمل بعد أسبوع .

أمضى فى الجريدة صباه وشبابه .. بدأ من أول السلم وهو ينظر الى كل مكتب .. الى الجدران .. يستودعها شبابه .. وحياته .. انه حزين لانه سيغادر هذا المبنى .. أن الشقاء يزحف الى قلبه . لا يرى حياة له الا فى العمل الذى أخذ كل وقته وكل حيويته .. وكل قلبه .. ماذا سيفعل بعد أسبوع .. انه يريد للأيام السبعة أن تتمهل بل تتوقف .

ان الصحيفة فى هذا الوقت ليست خلية نحل فحسب .. انها ضجيج .. سباق مع الزمن ومع الاحداث .

وتدق أجراس التليفون لجميع المحررين فى وقت واحد .

هناك اجتماع فى مكتب رئيس التحرير .. الآن .

ـ ومن يحضر هذا الاجتماع ؟

ـ الكل ..

ويزحف الصحفيون الى مكتب رئيس التحرير ..

يجلس وسط حجرته يعلو وجهه الجمود .. اختفت ابتسامة الترحيب المعتادة .. وجهه يخفى كل انفعال .. بعض الصحفيين يجد مكانا يجلس فيه . والبعض لا يجد مكانا للوقوف ، ورئيس التحرير لا يعتذر كعادته .. أمامه أوراق يطالعها أو يعيد قراءتها .. وتنتقل عدوى الصمت من رئيس التحرير الى الجميع .

شهدت هذه الحجرة اجتماعات كثيرة سابقة .. اجتمع الصحفيون فى هذا المكان لمناقشة مستقبل بلادهم

.. ومستقبل العالم .. اعلان الحرب .. موت الملك .. انقسام فى الحزب الذى تؤيده الجريدة .. أزمة سياسية ولكنهم كانوا فى كل اجتماع يتكلمون ويناقشون .. كانت اجتماعات صاخبة مملوءة بالحياة والتفاؤل مهما كانت المناسبة حزينة . ولكن صوت رئيس التحرير يقطع الذكريات ليعلن :

« ابتداء من الغد ستتوقف صحيفتنا «النيوزكرونبكل» عن الصدور .

لن تصدر صحيفتنا غدا .. انها ستندمج فى جريدة « الديلى ميل » .

لم يتكلم أحد ..

كان رد الفعل فى العيون والقلوب .

الصمت الذى ساد منذ دقائق تحول الى اسى .. الى مرارة .. يأس وغضب تحول الى هزيمة ..

واستمر رئيس التحرير يتكلم .. على وتيرة وحيدة .

نجح فى اخفاء انفعاله .. انه يستكمل أبغض رسالة يمكن أن يكلف بها رئيس تحرير فى يوم من الايام .

قال :

« الصحيفة تخسر باستمرار .. اعلاناتها قلت . وتوزيعها أصبح نحو مليون وربع مليون نسخة . وهذا رقم ضعيف لان صحف لندن توزع أربعة أو خمسة ملايين نسخة كل يوم .

ثمن بيع الصحيفة سيذهب لتعويض المحررين .

وصاحب راس المال لن يأخذ قرشا واحدا .. كل الثمن للمحررين .. ولكن ماذا سيفعل الثمن وقدره نحو مليونى جنيه للمحررين .

كل صحفى سيحصل على مكافأة عن مدة خدمته تعادل مرتب أسبوع عن كل سنة من سنوات الخدمة .

ويشهق المحررون .. جرت العادة على أن تكون مكافأة ترك الخدمة فى شارع الصحافة مرتب شهر عن كل عام من أعوام العمل .. ولكن ماذا يفعل الصحفيون . ولا يوجد فى الجريدة نظام للتأمين أو نظام للمعاشات ؟

وانتهى كلام رئيس التحرير .. وأعطيت الصحيفة شهادة وفاة .. مات المريض دون أن ينطق بكلمة .. بحرف .

غادر الجميع الحجرة دون أن يسمعوا كلمة شكر واحدة على سنوات طويلة أمضوها فى العمل كرجال خطؤهم الوحيد .. الاخلاص .

وعاد الجميع الى أعمالهم ولكن الصورة تغيرت تماما ..

الآلات الكاتبة صمتت .. ماكينات « التيكر » لا تعزف حتى اللحن الحزين .. كل شىء صامت الا دقات القلوب .. ودقات الساعة .

الصحفى الذى سافر الى موسكو لن يصل الى موسكو أبدا .. والمحرر العسكرى الذى يكتب تحقيقا عن سر كثرة وفيات قائدى سيارات الجيش البريطانى فى ألمانيا لن يتكلم عن وفاة جندى فى ألمانيا وأمامه جنازة فى شارع الصحافة .. جنازة لن يشيعها أحد ، فالصحيفة لن تصدر فى اليوم التالى لتكتب نعيها .. والصحفى الذى تخصص فى نعى العظماء والكبراء لن يكتب أبدا نعى آماله .. ونعى صحيفته .

انها محنة فى شارع الصحافة .. فان ثلاثة آلاف من الصحفيين والموظفين .. سيتعطلون ـ بل تعطلوا فعلا ـ فجأة .. فى يوم واحد .. والاعمال الصحفية لا تنبت على أشجار شارع الصحافة .. والتعويضات لن تخفف الحزن ولن تمسح الدموع .. ان الصحفى الذى وصف سقوط كريت وسنغافورة وسبح فى بحر يحترق لينقذ نفسه وقصته .. ولم يبك أبدا .. أدمعت عيناه فى تلك اللحظة .

والصحفى الذى كتب عن المجاعات والفيضانات فى أوقات السلم . والصحفى الذى راى ما فعلته القنبلة الذرية فى هيروشيما ، دون أن ترطب عينه دمعة ، أغرورقت عيناه بتيار جارف من الدموع وهو يسمع مصرع صحيفته بعد ١١٤ عاما وتسعة شهور .

ماتت الصحيفة فى غير معركة .. ماتت دون أن تدخل حربا .. قبرت بغير انذار .

كان « يوم الاثنين الاسود » فى شارع « بوفرى » المتفرع من شارع الصحافة فى لندن .. هو يوم المذبحة .. يوم الكارثة لصحفيين عملوا أكثر من ربع قرن . وهم ـ كالصحفيين فى كل مكان ـ لا يحتفظون برصيد من الذهب فكل رصيدهم قلم وفكرة .

ان محررة صفحة المرأة لم تجد ما تفعله الا أن ترى كومة من رسائل القراء على مكتبها فتضع الرسائل فى حقيبتها لترد عليها بعد ذلك بالبريد فانها لم تجد عملا .
ولم يخترها أحد لتعمل فى صحيفة « الديلى ميل » التى عينت لديها بعض الاسماء اللامعة فى « نيوز كرونيكل » حتى تحتفظ ، أو تجذب ، قراء هذه الاسماء ..

ان الرجال الذين اخفوا عواطفهم خلال سنوات طويلة من الحياة الصحفية عجزوا عن اخفاء انفعالاتهم ذلك اليوم ..

تحول البعض الى بوفيه الصحيفة الذى أصبح ـ فجأة ـ بغير عمال . فقام أحدهم بصنع العجة التى لم يأكلها أحد ، لان كل طعام كالجيفة النتنة فى حلوق الكتاب والمحزونين .

والذين تحولوا الى البار المجاور ليحتسوا القدح المعتاد من الجعة رأوا من نافذة البار مشهدا لم ينسوه .. الى اليمين صحيفة « الديلى ميل » التى اشترت ، وانتصرت ، وتموج بالحياة .. والى يسار النافذة مبنى آخر يغلفه الحزن .. مبنى قاتما .

ولم تمس شفاه الصحفيين قطرة واحدة من الجعة .

وجاء سكرتير التحرير المسائى مبكرا عن موعده ليلتقى بالمسئول عن الصحيفة فعرف انه لن نكون هناك صحيفة غدا أو بعد غد .. ولن تدور المطبعة ولن ينطق بائع بكلمة « النيوز كرونيكل » كل صباح .

ويجمع سكرتير التحرير أوراقه ويخرج من سلسلة مفاتيحه مفتاح مكتبه ويضعه فى قفل المكتب ثم تدور عيناه فى فراغ حول المبنى .. حول المكان كله .. وهو لا يبصر شيئا . يسرع بمغادرة المكان تحيط به ذراعان تساعدانه على الوصول الى الباب .

وينظر صحفى آخر الى المبنى الصامت .. من يصدق ان الآلات التيكر يمكن أن تتوقف .. من يصدق ان الموت يمكن أن يزحف الى جريدة توزع مليون وربع مليون نسخة كل يوم ولها قراء مخلصون .

وينتشر نبأ الوفــاة ويزحف مصورو التليفزيون الى دار الصـــحيفة ليسجلوا الحـدث الضـــخم « وفـاة النيوز كرونيكل » ولينقلوا كلمات الضحايا .

ويذاع النبأ .. فى الاذاعة والتليفزيون وتدق أجراس التليفونات من جديد .. هذه قارئة تقول :

ـ لماذا لم تعلنوا النبأ منذ زمن .. ما الذى منعكم من ان تقولوا أنكم فى حاجة الى مال ؟

وقارىء آخر يقول :

ـ ماذا استطيع أن افعل لكم ؟

وعشرات التليفونات ومئـــات البرقيـــات ، ولـكن هذا كله لا يجدى بالنسبة للصحفيين الذين اصبحوا بلا جريدة يكتبون لها .. أنهم أضحوا جيشا بلا سلاح .. جيش تقاتل مقدمته بينما المؤخرة او القيادة استسلمت .. ان الجيش الذى انتصر فى كل معركة خاضها هزم فى المعركة الوحيدة التى كان يجب أن ينتصر فيها .. انها معركته هو .. معركتهم هم .

ولكن ..

ما الذى جعل من وفاة « النيوز كرونيكل » مأساة فى شارع الصحافة .. ومأساة عالمية ؟

السبب أنها جريدة مختلفـة عن معظم الصحف .. كانت جريدة حزب الاحرار فى لندن ولكن آراء محرريها تسبق وتتقدم آراء الحزب .

كانت جريدة كل خبر ، فيها ، وكل مقال ، له رسالة .. مهمة .. له هدف مقدس .

ولدت فى ٢١ يناير عام ١٨٤٦ وبعد ثلاثة اسابيع من صـــدورها تولى رئاسة تحريرها واحد من ألمع كتـــاب انجلترا هو شارلز ديكنز .. الذى كان يسرع بالصحيفه ـ عقب طبعها ـ الى زوجته لتكون أول قارئة لها .

وبعد صدور الصحيفة مباشرة دخلت أول معركة ..

حزب المحافظين يحكم انجلترا .. وأصدر المحافظون قانونا مشهورا أسمه « قانون القمح » وبمقتضاه فرضت ضريبة على استيراد القمح فحاربت « النيوزكرونيكل » قوانين القمح وأسقطتها بعد ثلاثة أيام وأسقطت معهـــا حكومة المحافظين .

وكانت هناك ضرائب على المعرفة . فالصحيفة ـ بعد صدورها ـ تختم أعدادها واحدا واحدا بمعرفة موظف مخصوص لتدفع الصحيفة ضريبة عن كل عدد فحاربت « النيوز كرونيكل » الضرائب على المعرفة .

وفى الوقت الذى كانت فيه صحف انجلترا تعـــارض « ابراهام لنكولن » وتعارض حركة تحرير العبيد فى أمريـكا كانت « النيوز كرونيكل » ـ وحـــدها تقف مع لنكولن ..

وارتفع توزيع هذه الصحيفة عام ١٨٧٠ من ٥٠ ألفا كل يوم الى ١٥٠ ألفا خلال أسبوع واحد لان الافكار التى تنادى بها صـــــــحيفة الاحرار تتحقق فى اليوم التالى ..

***

كانت الصحيفة من نوع لم تألفه بريطانيا .. صحيفة

رأى .. وصحيفة خبر .. وصحيفة تضع المبادىء قبل التجارة وقبل أرقام التوزيع .

عند العدوان الثلاثي على بورسعيد وقفت قبل اية صحيفة في انجلترا تهاجم ايدن وتحمل على العدوان ..

وأدى موقفها الى انخفاض توزيعها بمقدار السدس ولكنها لم تتراجع ، وتراجع ايدن .

وظلت الصحيفة محتفظة بمبادئها . ولكنها لم تستطع ان تنافس صحف لندن أو أن يصل توزيعها الى اربعة او خمسة ملايين فانخفضت اعلاناتها . واصبح من الضرورى اعتماد اموال ضخمة للنهوض بها .

ولكن صاحبها المليونير لورانس كادبورى صاحب اكبر مصانع الشيكولاتة فى بريطانيا ـ وقد بيعت الصحيفة لابيه بعد انقسام حزب الاحرار فى لندن وان احتفظت بسياستها المستقلة رغم ذلك ـ راى كادبورى الا يرصد الاعتمادات الكافية لانقاذ الصحيفة . وفكر فى بيعها على أن يذهب الثمن كله لتعويض المحررين ، أو لمنحهم المكافآت عن مدة خدمتهم .

وخلال تسعة عشر شهرا أخذ « مليونير الشيكولاتة » يتفاوض سرا مع جريدة « الديلى ميل » لتشترى الصحيفة .

وبطبيعة الحال لم يهتم « مليونير الشيكولاتة » ـ بتحسين الصحيفة أو بتجديدها أو بتقدمها فقد شغلته صفقة بيع عن عملية الانقاذ ، وان حرص خلال هذه الشهور الطويلة على اخفاء النبأ عن المحررين وعن الصحافة كلها .

ولكن النبأ تسرب الى الصحف واخطأ بعضها فى معرفة اسم المشترى .

وبقيت مصـــــانع الشيكولاتة بينما اغلقت صحيفة الاحرار !

ونشر فى الاسبوع الذى أغلقت فيه الصحيفة انهـا ستباع لجريدة الجارديان فاتصل احد محرريها أى محرر « النيوز كرونيكل » « بمليونير الشيكولاتة » بعد منتصف الليل ليقول له :

ـ أمامى الطبعة الاولى من جريدة منافسة وهى تقول اننا سنباع للجارديان .

ورد المليونير :

ـ لقد أخطأوا مرة اخرى .

وكان الخطأ الوحيـد فى اسم المشترى لا فى صفقة البيع !

ولكن أحد محررى « النيوز كرونيكل » استطاع ان يعرف موعد بيع الجريدة واسم المشترى .. وكان هذا آخر سبق صحفى .. لقد استطاع ان ينتصر على مالك الصحيفة نفسه !

وقصة هذا السبق الصحفى غريبة .

عرف المحرر ان احدى المطابع الصغيرة طبعت منشورا أصدرته ادارة « الديلى ميل » ووجهته لمتعهدى توزيع الصحف فى انجلترا كلها وفيه تقول لهم :

« ابتداء من الغـد سلموا لمشتركى ـ النيوزكرونيكل ـ « الديلى ميل » بدلا منها لان « النيوز كرونبكل » اندمجت فى « الديلى ميل » .

واستطاع المحرر ان يحصل على نسـخة من هـذا المنشور . وبقى مع رئيس قسم الاخبار أمام المطبعة حتى شاهد المنشورات تخـرج فى ظروف مقفلة مساء الاحد لتوضع فى صناديق البريد فتصل الى أصحابها صباح الاثنين . وتنفذ ابتداء من الثلاثاء .

وذهب رئيس قسم الاخبار الى رئيس التحرير ليريه المنشور ـ وكان رئيس التحرير يعلم المأساة قبل ذلك بخمسة أيام ـ فطلب من الصحفى أن يتكتم الامر لان انتشار النبأ معناه انهيار الجريدة من تلقـاء نفسها فى اليوم التالى ، وعدم اتمام صفقة البيع وبالتالى عدم اعطاء المحررين مكافآتهم .

وتكتم رئيس قسم الاخبار النبأ وبقى يعمل ـ وقلبه ـ تعتصره المأساة المقبلة ـ وعمل ، ليكون آخر عدد من الجريدة ، جديرا بها وبكفاحها ، ١١٤ عاما و ٩ شهور وكان صمت الصـحفى وعمله أروع ما حوته قصة الصحيفة أو قصاصاتها .

وأقول قصاصات ، لان قصاصات أى صحيفة ، هى فى الواقع تنبؤات قد تؤيدها أحداث التاريخ وقد تكذبها وتنبؤات « الكرونيكل » كانت حقائق فى معظم الاحيان .

انها الجريدة التى كتبت عام ١٩٢٢ : « ضعوا عيونكم على هتلر » .

وهى التى طالبت تشمبرلين بالا يستسلم للنازية وأن يحاربها .

وهى أول صحيفة اهتمت بالراديو فخصصت محررا لاخباره .

وهى التى تكلمت عن سيارات الفولكس واجن ـ الضفدعة ـ قبل أن تنتشر فى أوربا . وقالت ان محررها المسئول اختبر بنفسه هذه السيارة وتأكد من حسن صنعها وقوة احتمالها .

وعندما كانت صحف لندن تسرف فى توزيع الجوائز والهدايا على القراء ، بقيت الكرونيكل وحدها فى معزل عن سباق استرضاء القراء لانها تقدم للقارىء رسالة الحق . والقارىء مستعد أن يدفع الثمن لشراء هذه الرسالة .

ان كل جريدة عبارة عن الصحفيين الذين يعملون فيها ..

وكل صحفى فى « الكرونيكل » كان صاحب رسالة ومستعد للموت فى سبيلها .

أحد محرريها يموت فى طائرة الجنرال « ونجت » فى جنوب شرق آسيا فى الحرب العالمية الثانية .

ومحرر آخر تخترق جسده عجلات دبابة المانية .

... وثالث بقنبلة .

ورابع يتقدم جيوش الالمان .. كلما دخل الالمان بلدا سبقهم بالخروج منه ..

وفى بلجراد قال له أصدقاؤه :

ـ اسرع .. امامك دقائق لتهرب معنا ..

اجاب :

ـ ولكن يجب ان ابعث قصتى الى الصحيفة أولا .

وبقى يملى النبأ ، حتى اعتقلته قوات العاصفة ،

فمات فى معسكر للاعتقال ولم تنشر الصحيفة رثاءه فى صفحة ، بل فى سطور قليلة لان الصحيفة كانت تصدر أثناء الحرب فى ٤ صفحات فحسب ولا مكان ، فى هذه الصفحات ، لرثاء المحررين !

وعكست قصاصات الصحيفة تاريخهـا كله بل ان الاحتفاظ بهذه القصاصات كان عملا رائعا لامين المكتبة .

كان فى المخبأ عنـدما احس بقنبلة ـ أثنـاء الحـرب الثانية ـ على مبنى الصحيفة فغادر المبنى . وصعد الى الدور الرابع ليشاهد النيران تلتهم السـتائر وبعض الكتب . وتكاد تمتد الى الافـلام والصور والقصاصات فامسك بيديه الستائر المشتعلة والقاها من النافذة ايضا وتبعها ببعض الافلام فأنقذ باقى المكتبة وأحرق يديه !

كانت صحيفة من نوع غريب .. كل رجالها جنود حتى عمال التليفون .. محرر يتكلم من فيينا بالتليفون وحوله جنود المان يصوبون المسدسات على ظهره . ولكنه يملى الرسالة وعامل التليفون يلتقطها بلا تلعثم وبلا سؤال عما يتهدد المراسل من أخطار فقد كان المهم بالنسبة للكل .. الخبر وليس صاحب الخبر .. ومشكلته أو متاعبه .

***

هاجمت الصحيفة تشرشل فى وقت من الاوقات .

ولكن عندما اعتزل تشرشل رئاسة الوزارة فى انجلترا يوم ٥ ابريل ١٩٥٥ . كان عمال الطباعة مضربين فى لندن .. ورأى تشرشل الا يودع الناس بخطاب فى الراديو . فأعد رئيس التحرير الصفحة الاولى من الصحيفة وكلها عن تشرشل . ولم يكن هناك عامل طباعة واحد فقام المحررون بجمـع حـروف الطباعة واعداد « بروفة »

للصفحة الاولى . وارسلوا النسخة الوحيدة لتشرشل في بيته . وكان العنوان الكبير للصفحة « المانشيت » هو :

« اختفى بلا خطاب في الاذاعة . ولم يظهر في البرلمان . ولا توجد صحف تسجل الحادث »

وقيل ان تشرشل لم يتأثر في ذلك اليوم الا من تلك اللقطة الانسانية التى أهدتها له الصحيفة في يوم بلا صحف ، فكان القارىء الوحيد للصحيفة وللتحية التى وجهت اليه يوم اعتزاله رئاسة الوزارة .

***

ولكن هذا التاريخ الطويل كله لم يمنع اغلاق الصحيفة او قتلها في الوقت الذى كان محرروها ينتظرون معجزة .. يترقبون مهلة ٢٤ ساعة فقط ، تدخل خلالها الصحيفة الى المطبعة لتظهر في أكشاك الصحف يوما آخر ولكن المعجزة لم تتحقق أبدا .

والجدير بالذكر أن التنبؤات الجوية في آخر عدد للصحيفة تقول « يوم عاصف » ..

وتنبؤات محرر سباق قالت « هذا يوم المصير » اى يوم فوز جواد اسمه « المصير » .

والحقيقة أنه كان يوم المصير للصحيفة ولمحرريها جميعا .

سئل ملك الشيكولاتة كادبورى :

ـ ألم يكن ممكنا رصد أموال من أسرة كادبورى لانقاذ الصحيفة ؟

قال الرجل الذى تجاوز الثالثة والسبعين :

ـ كان لى ولدان أحدهما مات فى يوليو عام ١٩٥٠ فى مولان بفرنسا وهو يقـــود سيارة سباق والآخر لا يزال على قيد الحياة .

كنت أعد الاول ليتولى ادارة الصحيفة والثانى ليدير مصنع الشيكولاتة ومات الاول فماذا أفعل ؟

... لقد قضى موت الابن على صحيفة وعلى مئات من الصحفيين !

والغريب انه كان من الممكن انقاذ « النيوز كرونيكل » لو ان صحف لندن رفعت أسعارها لتستطيع « النيوز كرونيل » أن تغطى خسائرها . ولكن صحف لندن لم ترفع أسعارها الا بعد مصرع « الكرونيكل » .

ومن الغريب أيضا انه يوم ماتت « الكرونيكل » قالت بعض صحف لندن ان الديمقراطية فى بريطانيا ماتت يوم قتلت « الكرونيكل » .

ولـكن صحيفة « الميرور » قالت بعـــد يومين أن الديمقراطية لن تموت بموت أى صحيفة . ولكن سيكون أصعب على الديمقراطية أن تعيش بعد مقتل هذه الجريدة العظيمة !

وبعد ..

كنت أحب هذه الجريدة كانت دائما معنا فى كل معاركنا .. وكانت حبى الكبير فى لندن .

وذهبت أزور مبناها فى « بوفرى ستريت » فى لندن فى أول زيارة لى بعد مصرع هذه الجريدة فوجدت جريدة أخرى تشغل المبنى .

وذهبت أبحث عن أصدقائي من محرريها فوجدت صديقا قديما هو نورمان كلارك الذى كان يرأس القسم الخارجي وقد أصبح مســـاعدا لرئيس تحرير شركة « أ . ت . ن » وهى الشركة التى تعد أخبار التليفزيون للمحطة المستقلة .

قلت لنورمان كلارك :

ـ ما هى أخبار الكرونيكل ؟

قال وفى عينيه الدموع :

ـ لن أنسى أبدا يوم المذبحة أو يوم الاثنين الاسود .. الاثنين الحزين ١٧ أكتوبر ١٩٦٠ .. يوم حررت فيه شهادة وفاة الصحيفة .

قلت له :

ـ ولكن منصبك الآن أفضل .

قال :

ـ الصحفى يبقى على الدوام يحب المهنة التى عشقها .. ووهبها مستقبله وشبابه كله .

هل يقول الحقيقة .. وبلاده تحارب؟

هاجمت السيدة « مرجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا التليفزيون وبعض الصحف لانهم لم يقفوا مع الحكومة فى الحرب ضد الارجنتين بشأن «جزر فوكلاند» .. بل انتقدوا رئيسة الوزراء وقيادة الجيش .

وقالت رئيسة الوزراء فى مجلس العموم « ان هيئة الاذاعة والتليفزيون ــ ب . ب . سى ــ تخلت عن المحاربين وكثير من الناس مهتمون بأن قضية المقاتلين لم تعرض كما ينبغى .

وفى بعض الاحيان كانت بريطانيا والارجنتين تعاملان على قدم المساواة من بعض أجهزة الاعلام مما يسىء الى رجالنا ويثير فيهم آلاما كبرى » .

وتحدث بعض النواب المحافظين فقالوا « أن ما تفعله بعض أجهزة الاعلام يؤدى الى أن نفقد ثقة أصدقائنا » .

وفى الصباح التالى قالت افتتاحية صحيفة « الصان » التى يملكها المليونير الاسترالى روبرت ميردوك والذى يؤيد رئيسة الوزراء ــ تحت عنوان كبير :

« بيننا خونة » .

قال كاتب المقال :

« ان رئيسة الوزراء لم تتحدث عن الخيانة ولكننا نقولها :

ان حرية الرأى من تقاليدنا القديمة . ولكن هذه الحرية ترتبط بالمسئولية وما قاله بيتر سنو ـ المعلق التليفزيونى ـ عن معاركنا البحرية يعتبر خيانة .

اننا فى حرب . والمواطن البريطانى اما مع بلده ، او هو عدوها .

ان رسام الكاريكاتير فى جريدة « الميرور » يضعف الروح المعنوية للناس ولو فعل ذلك فى « بوينس ايرس » لأعدمه الجنرالات قبل ان يلتمس العفو والمغفرة .

ان قراء صحيفة « الميرور » يشترون صحيفة لا تؤمن ببلدها . ولا تخدم شعبها .

وهكذا انفجرت علنا الازمة بين « مرجريت تاتشر » والصحافة والتليفزيون .. فان رئيسة الوزراء تريد التأييد لان البلاد تحارب بينما ترى الصحف انها يجب أن تقول الحقيقة وان تعارض الحكومة ، وتعارض فكرة الحرب ذاتها اذا رأت ذلك .

ولقد عارضت صحيفتان يوميتان ـ منذ البداية ـ الحرب ضد الارجنتين بسبب جزر فوكلاند .

الاولى : جريدة « الجارديان » ـ المستقلة اليسارية ـ التى قالت أنه لا داعى للحرب من أجل هذه الجزر البعيده .

ونشرت الصحف كاريكاتيرا عن بحار من سفينة غارقة

تعلق بحطام قطعة من الخشب وقال الرسام : « ارتفع ثمن السيارة أخيرا » .. أى أن سيادة بريطانيا على الجزيرة تكلف أرواحا وضحايا .

وقالت الجارديان : « لم يحدث الآن شيء الا غرق السفن والشباب والمعارضة البرلمانية للحرب تتزايد . وأخذ الرأى العام الاوربى يتحول ضد انجلترا ومفتاح الموقف في يد الحكومة الامريكية التى تستطيع ، مع العالم ، منع الحماقة » .

أما جريدة « الديلى ميرور » المؤيدة لحزب العمال فقالت « الحرب التى ينبغى أن تدخلها السيدة تاتشر ليست ضد الارجنتين بل ضد البطالة لان عدد العاطلين أكثر من ثلاثة ملايين » .

وهاجمت الصحيفة اعلانات وزارة البحرية التى تطلب مجندين وقالت ان الاعلانات تدعو الشباب الى التطوع لمشاهدة العالم وتغريهم بأنهم سيحصلون على أجور عالية ونزهات بحرية وذكرت أمهات القتلى فى السفن البحرية البريطانية ـ التى أغرقتها صواريخ الارجنتين ان أبناءهن أردن المال والسفن لا الموت .

وانتقدت الصحيفة العسكريين الذين وضعوا السفن فى مرمى الصواريخ الارجنتينية وقالت « هناك أشياء أهم من عناوين الحرب الجيدة فى الصحف المؤيدة لرئيسة الوزراء » .

أما المعلق التليفزيونى « بيتر سنو » فقدم البلاغات العسكرية للطرفين المتحاربين مما أغضب رئيسة الوزراء فانتقدت موقف الصحف والتليفزيون فى مجلس العموم .

واضطر رئيس هيئة الاذاعة والتليفزيون لان يصرح بأن « هذه الحرب تختلف عن كل الحروب الماضية اذ يوجد للصحف البريطانية والاذاعة والتليفزيون مندوبون يعملون فى دولة العدو ـ الارجنتين ـ ولذلك نقدمهم . ونحن لا نريد أن نشترك فى حرب الكلمات . ولا نريد أن تكون الحقيقة هى الضحية الاولى فى هذه الحرب .

ومن حق الشعب فى ظل الديمقراطية ان يعرف كل شىء .

ان مسئوليتنا خطيرة وعندما ننقل اخبـــارا سيئة للناس فلماذا يكون الوسيط هو الملوم » .

وامتنعت صحيفة « الجارديان » عن نشر كلمة واحدة ضد بيان رئيسة الوزراء .

أما جريدة « الديلى ميرور » فطالبت بوقف اطـلاق النار وقالت « يجب أن يوزع مع كل عدد من صـــحيفة « صان » تحذير كذلك الذى يوضع فى علب السجاير يقول :

« قراءة هذه الصحيفة يمكن أن تضر بعقلك » .

استمرت الصحف البريطانية تكتب عن حرب فوكلاند .. بعضها يؤيد ، وبعضها يعارض .

وبقى الصحفيون خلف خطوط العدو ...

الصحفيون البريطـــانيون ـ بأعداد كبيرة ـ فى الارجنتين يجرون أحاديث مع المسئولين ويقدمون صورا وافلاما للارجنتين وهى تحارب بلادهم .

وتقبض الارجنتين على بعض الصحفيين الانجليز وتتهمهم بالحصول على الاسرار العسكرية .. اى أنهم يتجسسون .

وبقى اثنان من الصحفيين الارجنتينيين فى لندن يكتبون لصحف « بوينس ايريس » عاصمة « العدو » .

وظلت الاتهامات توجه للاذاعة والتليفزيون البريطانى : وكذلك لبعض الصحف لانهم يذيعون معلومات عسكرية تفيد الارجنتين .

بل ان الصحف لم تكتف بذلك كان محرروها العسكريون ينتقدون أخطاء بلادهم وخططها العسكرية .

وانتقد الجيش البريطانى - ايضا - ما تفعله الصحف والتليفزيون قائلين أن السبب فى هزيمة الولايات المتحدة فى حرب فيتنام يرجع الى الافلام التى يقدمها التليفزيون الامريكى كل ليلة عن فيتنام مما جعل الروح المعنوية لامريكا كلها .. تتدهور .

وكان رد الصحف والتليفزيون انهم فى مجتمع حر لابد أن تقدم فيه الحقائق مهما كانت مؤلمة .

ولم ينخفض توزيع هذه الصحف نتيجة الحملات المتبادلة . ولم يطرد المعلق التليفزيونى من عمله . ولم يعتقل أو يحاكم ، لان الدنيا تغيرت عما كانت عليه عندما وقفت الصحف البريطانية ضد حكوماتها المتعاقبة وهى تحارب .

وللصحف البريطانية تاريخ طويل فى معارضة الحكومة أثناء الحرب .

اشتعلت الحرب العالمية الاولى فى ٢٣ يوليو ١٩١٤ ، وأختير « كتشنر » المعتمد البريطانى فى مصر وزيرا للحربية أثناء وجوده فى أجازة بانجلترا .

واجه الجيش البريطانى هزائم كثيرة أثناء اشتراكه فى القتال فى فرنسا نتيجة نقص السلاح فان بعض المواد الاولية اللازمة لذلك كانت تجىء من الولايات المتحدة .

والرحلة بين نيويورك ولندن كانت تستغرق ـ قبل الحرب العالمية الاولى ـ ٢٠ يوما فأصبحت تستغرق شهرين كما أن الشحنات من ليفربول الى لندن تصل فى ٥ أسابيع .

ولم تكن مصانع السلاح مستعدة وكتشنر مقتر ولا يريد الانفاق على شراء السلاح . ولم تصدر بريطانيا الا فى ١٥ مارس عام ١٩١٥ القانون الذى يجيز للدولة الاستيلاء على المصانع الخاصة وتحويلها لانتاج السلاح .

وخلال فترة اقامته فى مصر والسودان أصبح كتشنر صامتا ، ديكتاتورا ، واكتسب طباع « أبو الهول » كما يقولون .

وفى ١٤ مايو ١٩١٥ نشرت صحيفة « التايمس » فى الصفحة الاولى مقالا تحت عنوان « الحاجة الى قذائف .. درس من فرنسا » .

وكانت قد بدأت معركة بين القوات البريطانية والالمانية فأطلق الانجليز كميات ضخمة من قذائف المدافع على الخطوط الالمانية وظنوا أن القنابل حطمت دفاع الالمان ولكن القنابل لم تحقق النتائج المطلوبة وبقيت

دفاعات الالمان قوية والقوات سليمة فى الخنادق .. ووجه الانجليز بمقاومة شرسة أدت الى قتل واصابة ١١٥٠٠ جندى وضابط بريطانى .

كان اللورد نورثكليف يملك صحيفتى « التايمس » و « الديلى ميل » أى فى يده نصف توزيع صحف لندن .

وفى ٢٠ مايو دخل اللورد مكتبه فى جريدة « الديلى ميل » وكتب افتتاحية عنوانها « فضيحة القنابل ، حماقة كتشنر » .

فى هذا المقال وجه الكاتب ـ لان المقال بغير توقيع ـ هجوما عنيفا لنقص القنابل .

وطالب المقال بخروج « كتشنر » من الوزارة .

وصف سكرتير « نورثكليف » صاحب الصحيفة بأنه كان شاحب اللون بعد كتابة المقال .

عرض « نورثكليف » مقاله على رئيس التحرير فقال له :

ـ ستسجن .

قال نورثكليف :

ـ لا يهمنى .

ـ سينخفض توزيع الصحيفة .

ـ هذا شىء يجب أن أفعله .

وعرض « نورثكليف » المقال على سكرتير التحرير فقال له :

ـ انك تحطم معبود الجماهير .. وستغضب الناس .

رد « نورثكليف » :

ـ هذا الرجل يخسر الحرب .

وحمل اللورد صورة من مقاله الى أمه فنصحته ببعض تعديلات فأجراها تليفونيا .

وصدرت الصحيفة فى اليوم التالى فأثار المقال ضجة عنيفة .

* منعت « الديلى ميل » من دخول أندية القوات المسلحة .

* وقام ٣٠٠٠ عضو فى بورصة لندن باحراق نسخ « الديلى ميل » وهتفوا بحيـــاة « كتشنر » وسقوط « نورثكليف » .

* وفى بورصة « ليفربول » مزقت الصحيفة وارسلت القطع الممزقة الى اللورد .

* وفى بورصة الفحم تكرر ذلك .

وذهب الصحفيون الامريـكيون الى « نورثـكليف » يسألونه فقال :

ـ اعلم أنهم قد يصادرون ممتلكاتى . وقد يرسلوننى الى « البرج » الذى يعدم فيه السجناء ولكنى كتبت الحقيقة .. ان أبناءنا لا يجدون القنابل .

ومدحت صحيفة « وستمنستر جازيت » ما قام به رجال البورصة .

وقال بعض الوزراء « الامة تجد الصحف الجـديرة بها ، والتى تستحقها !

ولكن مهما قامت الامبراطورية بأعمال سيئة فانها ليست الى الدرجة التي تستحق فيها نورثكليف » !

وكان توزيع الصحيفة ۱٫۳۸٦٫۰۰۰ نسخة كل يوم فاذا بها خلال أيام تفقد ۲۳۸ الف قاريء .

واضطر شقيق « نورثكليف » الى الاستقالة من المنصب الحكومي الذي يشغله .

ولم يستطع « اسكويث » رئيس الوزراء تعيين الشقيق الآخر للورد في منصب وزاري .

ولكن بعد ٤ أيام ـ في ۲٥ مايو ـ أعيد تشكيل الحكومة فأصبحت ائتلافية تضم وزراء من حزب المحافظين بعد أن كانت قاصرة على حزب الاحرار .

وأنشئت وزارة للذخيرة تولاها « لويد جورج » الذي أسندت اليه رئاسة الوزارة بعد ذلك .

وبقي « كتشنر » لانه كان معبود الجماهير حتى غرق في سفينة في ٦ يوليو عام ۱۹۱٦ .

والغريب في الامر أن « نورثكليف » هو الذي كان يطالب بتعيين كتشنر وزيرا للحربية !

وقيل ان سر الحملة يرجع الى الالم الذي احس به نورثكليف عندما سمع بوفاة ابن شقيقه الشاب في الحرب ، والى انه ذهب الى « كتشنر » وطلب منه أن يختص صحفه بالاخبار فهدده بالسجن وأنهى المقابلة

وأيا ما يكون السبب فان « الديلي ميل » أصبحت جريدة الجنود !

***

تولى « ونستون تشرشل » رئاسة الوزارة وزعامة حزب المحافظين يوم ۱۰ مايو ۱۹٤۰ اثناء الحرب

العالمية الثانية .. وهى وزارة ائتلافية تضم وزراء من حزبى المحافظين والعمال .

وكانت صحيفة « الديلى ميرور » وزميلتها الاسبوعية « صانداى بكتوريال » تطالبان بأن يتولى تشرشل رئاسة الوزارة ليستطيع أن يقود البلاد الى النصر .

وما ان تحقق ذلك حتى بدأت الصحيفتان تهاجمان تشرشل .

نشرت «البكتوريال» افتتاحية انتقدت فيها بقاء معظم الوزراء القدامى أعضاء الحكومة السابقة وقالت « لماذا احتفظ تشرشل بأفراد العصابة القديمة » .

وانتقدت « الميرور » وزير الاعلام « داف كوبر » الذى أرسل ابنه الى امريكا بينما مهمة الوزير اقناع الناس بأن انجلترا آمنة !

وهاجمت « البكتوريال » استمرار الوزراء الشيوخ قائلة « كسب نابليون أعظم انتصاراته ضد الايطاليين وعمره ٢٥ سنة وكان الاسكندر الاكبر قائدا كبيرا فى سن الـ ١٦ ومات وعمره ٢٣ عاما . « ولف » فاز فى المعركة التى أدت الى الاستيلاء على كندا وعمره ٣٢ عاما أيضا . أما ولنجتون فقد انتصر فى معركة ووترلو ضد « نابليون » وهو فى السادسة والاربعين » .

وبعد ٥ شهور من تولى تشرشل الوزارة وقع الخلاف النهائى ، أو الفراق ، بينه وبين الدار التى كان يكتب فى صحفها ، وبالذات « البكتوريال » أثناء الحرب العالمية .

فى ٣ اكتوبر ١٩٤٠ أجرى تشرشل تعديلا فى وزارته

ولكن « البكتوريال » لم تعجب بهذا التعديل فكتبت تقول : « التعديل لعبة حزينة ، بقى وزراء فاشلون لانهم من حزب المحافظين . وتم تجـاهل آخرين لم يدخـلوا الحكومة لانهم ليسوا بارزين فى حزب المحافظين . ان توازن القوى قائم .

اقرا يا مستر تشرشل كلماتك التى كتبتها بنفسك من قبل . انك تقول :

« فى الحرب كل شىء مختلف فلا مكان للتسويات .

الدولة لا تتحمل الانقسام والتردد والتمزق فى قيادتها التنفيذية » .

لقد استقر السلام فى مجلس الوزراء بصفة مؤقتة ولكن الثمن يدفعه الرجال الشجعان فى ساحة القتال .

يا مستر تشرشل لقد حذرت نفسك ! .

ويغضب تشرشل فيجمع مجلس الوزراء يوم ٧ اكتوبر عام ١٩٤٠ لمناقشة عدة مسائل بينها « المقالات الهدامة فى الصحف » .

ويقرر المجلس تأجيل نظر الموضوع لدراسته .

وفى ٨ أكتوبر وقف « تشرشل » فى مجلس العموم يهاجم الصحف « الشريرة » !

وفى اليوم التالى اجتمع مجلس الوزراء .

قال « هربرت موريسون » وزير الداخلية ان الاتصال باتحاد أصحاب الصحف يجب أن يـكون بصفة ودية لا للتهديد .

رد « تشرشل » بأن المقالات تهديد خطير للبلاد وأنه مصمم على ايقافها ويريد الحماية من وزارة الحرب .

قال « اتلي » الذى أصبح رئيسا للوزارة فيما بعد : يجب ان نفرق بين امرين هل هذه محاولة هدامة أم هى صحافة غير مسئولة .

وقال « موريسون » : لابد من تجنب مناقشة مثل هذا الموضوع فى مجلس العموم والا حدث انقسام فى صفوف الاحزاب .

وتحدث « بيفر بروك » ــ الوزير الصحفى ــ ضد الصحيفتين فقال انهما يسيئان للصحف بصفة عامة وأن اتحاد أصحاب الصحف يتمنى اتخاذ اجراء ضدهما . ويستطيع الاتحاد الاضرار بهما ماليا ومضاعفة تكاليف اصدار الصحف مثل عدم توزيعها فى قطارات الصحافة.

وأخيرا اتفق على أن يقوم وزيران بالاتصال باتحاد الصحف .

اجتمع اللورد « بيفر بروك » بثلاثة من أصحاب الصحف وابلغهما أن الرقابة على الصحف ــ حتى الآن ــ اختيارية وأن الحكومة ستضطر الى فرض رقابة اجبارية .

وقال ان سلوك الصحيفتين هدام ولا تعترض الحكومة على النقد ، ولكنها تعترض على النقد غير المسئول .

وأبلغت « الميرور » بالامر واتفق على ان يقوم سيسل كنج رئيس مجلس الادارة وبارثليميو رئيس تحرير الميرور بمقابلة « كليمنت اتلى » .

تم الاجتماع يوم ١٢ اكتوبر .

قال اتلى أنه يعبر عن رأى مجلس الوزراء كله فى ان ما تكتبه الصحيفتان يعرقل الجهود الحربية .

حاول رئيس التحرير المصالحة بينما أصر « سيسل كنج » على أن يطلب من اتلى تقديم أمثلة للمقالات الهدامة فقال اتلى انه لا يتذكر .

قال « سيسل كنج » :

ــ نحن الذين أبعدنا « تشمبرلين » رئيس الوزراء السابق من الحكم . نحن لا البرلمان ولا الاحزاب اننا اتخذنا أعنف موقف ضده وأتينا « بتشرشل » الى الحكم .

قال اتلى : هذه مبالغة .

قال كنج : أن « تشرشل » لم يعترض عندما ضربنا تشمبرلين « بالشلوت » ولكنه يعترض عندما نحاول اصابة تشرشل نفسه .

واستمرت المقابلة ٢٥ دقيقة بغير نتيجة .

واجتمع مجلس الوزراء يوم ١٦ اكتوبر فقال « اتلى » ان الصحفيين وعدا بمزيد من الحرص في المستقبل .

وفي ٤ نوفمبر عرضت على مجلس الوزراء مذكرة من وزير الداخلية خاصة بمتابعة أسهم الصحيفتين ومن يملكهما فتبين أنه لا يوجد فرد بالذات يملك حصة من الاسهم تمكنه من السيطرة على الصحيفتين .

وكان مجلس الوزراء قد طالب بتقصى الحقائق لعله يجد عنصرا معينا يؤثر في سياسة الصحيفة ..

ــ ونامت المشكلة .. شهرين .

ولكنها عادت الى الظهور في يناير ١٩٤١

كتب الصحفي « كاساندرا » مقالا في « الديلى

ميرون » عن التعديل الوزارى الذى يزمع تشرشل اجراءه ..

« لماذا يرقى « باتلر » وكيل الخارجية ليصبح وزيرا للتعليم .

هل يصبح الرسام أفضل عندما يتحول الى سمكرى.

هل تتحسن حرفة « السمكرة » نتيجة لذلك .

واشار الى المناصب الستة التى تقلب فيها ايدن ثم قال :

« ان كل مواهب بريطانيا فى هذا الفريق الوزارى ان كلا منهم يترك وظيفة ، ولكن الوظائف لا تتركهم فى النهاية .

كل منهم قام بعمل الآخر . الكل يعرف الكل . وشعارهم « احفظ العمل فى الاسرة « حك » ظهرى وانا احك ظهرك » .

ولكن هذه اللعبة تنتهى الى نهاية واحدة وهى عزف الموسيقى الجنائزية .. موسيقى جنازتنا .. نحن » .

وجد « تشرشل » ان الحل الوحيد فى المصالحة .

بعث يوم ٢٥ يناير عام ١٩٤١ رسالة شخصية الى « سيسل كنج » قال فيها :

« آسف اذ أرى الصحف التي كانت لى بها علاقة صداقة ، وتلقيت منها تأييدا كبيرا فى الماضى تتابع مثل هذا الخط . وقد كتبت اليك فى ظل علاقتنا القديمة » .

رد الكاتب « كاساندرا » على تشرشل فى رسالة

شخصية « خلال السنوات الاربع الماضية كنت أعتبر نفسى من فريق « تشرشل » وارى فى ذلك شرفا لى » .

واعتذر « كاساندرا » « لتشرشل » الذى استمر يكتب « لسيسل كنج » ..

قال تشرشل :

« هناك لؤم وخبث وكراهية فيما تكتبه الصحيفتان . هذه حكومة قومية .

ان الصحيفتين تهينان وزيرا بعد الآخر بدعوى صيانة المجهود الحربى .

وينبغى الاحتفاظ ببعض الكراهية للعدو .

ان اكبر مجموعة من القراء تمتلىء ـ نتيجة لذلك ـ بالمرارة وعندما تقع اية كارثة يتحول هؤلاء الى انهزاميين ويطالبون بالاستسلام للعدو .

انى أعلم ان ذلك ليس هدفك أو هدف كتاب الصحيفة .. ولكن هذه هى النتيجة حتى ولو كانت غايتك عكس ذلك تماما » .

وفى نفس الشهر ـ يناير ١٩٤١ ـ عطلت الحكومة صحيفة « الديلى وركر » الناطقة باسم الحزب الشيوعى البريطانى .

وهدأت الازمة مؤقتا ...

وفى مارس ١٩٤٢ وقع الزلزال ..

نشر « فيليب زيك » رسام الكاريكاتير لوحة فى جريدة « ديلى ميرور » تبين بحارا بريطانيا فى سفينة طوربيد غارقة وقد تعلق بالحطام .

وكتب تحت اللوحة « صدر بلاغ رسمى يقول : ارتفع سعر البترول بمقدار بنس واحد » .

وكان هدف « زيك » أن يقول للجمهور خففوا من استهلاك البترول لانه يكلف البحارة أرواحهم .

وبالفعل طلبت محطات البنزين صورة من هذه اللوحة لتقول للمستهلكين :

ـ لا تسرفوا فى استعمال البنزين .

وجد أعضاء المجلس ان المعنى الوحيد لما يقوله الرسام هو ان البحارة يموتون ليكسب الراسماليون .

وفى اجتماع المجلس تناوب الوزراء الحديث عن اللوحة فقال الوزراء متتابعين « هذا رسم خبيث . قاس . محزن . مرعب » .

وفى ٢٠ مارس ١٩٤٢ استدعى رئيس تحرير الديلى ميرور وزميل له لمقابلة « هربرت موريسون » وزير الداخلية الذى أبلغهما أن مجلس الوزراء قرر بالاجماع توجيه انذار للصحيفة . ويعقب هذا الانذار عند أول مخالفة ـ تعطيل الصحيفة .

وقال موريسون :

ـ ان رئيس التحرير غير الوطنى ، وحده ، الذى يسمح بنشر مثل هذا الرسم .

وقال :

ـ لن نحذركم مرة أخرى . بل سنعمل بسرعة مدهشة .

وفى نفس اليوم كرر « موريسون » هذا التحذير فى اجتماع علنى لمجلس العموم .

ثارت ضجة بين الاعضاء .. مؤيدين ومعارضين ضد انذار الصحف أو تعطيلها .

وتوقف الامر عند هذا الحد .. فلم تنذر الصحيفة بعد ذلك ، ولم تعطل .

وتغير الموقف العسكري بعد شهور فقد انتصرت بريطانيا في معركة العلمين ولم يعد التوتر يسود قلب تشرشل وعقول الوزراء .

ولم يعرف أبدا السر فى موقف الحكومة البريطانية ضد هذا الرسم الكاريكاتيرى .

قال البعض ان تشرشل يغضب من النقد .

وقال آخرون ان « تشرشل » كان يعلم فى ذلك الحين بأن بريطانيا على أبواب الهزيمة فقد وقع الانذار للصحيفة فى مارس ١٩٤١ ، وقبله بشهر وقع حادث ٤ فبراير فى مصر ، عندما فرضت حكومة على الملك فاروق تلك الفترة كانت الأعصاب البريطانية الرسمية مشدودة ...

أما الرسام « فيليب زيك » فانه كان يهوديا ولا ينتظر منه أن يكون مساندا للألمان بينما هتلر يضطهد اليهود .

وثبت من الاوراق والمستندات الالمانية التى ضبطت بعد الحرب ان المانيا قررت اعتقال كل مديرى الديلى ميرور اذا دخل الالمان لندن .

وفى عام ١٩٤٥ قام « زيك » برسم اللوحة التى اتخذها حزب العمال شعارا له والتى ساعدت على انتصار حزب العمال على المحافظين .

يومها قال « هربرت موريسون » معتذرا « لزيك » .
ـ ان أزمة الكاريكاتير كانت خطأ ..

والتقى « تشرشل » بأحد النواب قرب مجلس العموم وكان « زيك » يصاحب النائب الذى قدمه لرئيس وزراء بريطانيا السابق .

وعندما سمع تشرشل الاسم قال :

ـ مستر « زيك » .. اعتقد انى مدين لك باعتذار .. اعتبر أنه قدم اليك !

***

اعلن « جمال عبد الناصر » تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وقرر ايدن ـ سرا ـ اعلان الحرب ضد مصر .

واخذت الصحف البريطانية تنشر انباء تحـــركات القوات البريطانية فى البحر المتوسط وقبرص فأصدرت وزارة الدفاع أمرا بمنع نشر هذه التحركات وكان ذلك هو القرار الوحيد الذى يحظر النشر فى الحرب التى اشتهرت بعد ذلك بحرب السويس عام ١٩٥٦ .

ولم تفرض رقابة على الصحف ، ســـواء اختيـارية او اجبارية ، فى آخر حرب اشتركت فيها بريطانيا قبل فوكلاند .

وفى « حرب السـويس » كانت أول الصحف التى وقفت ضد ايدن وحكومته هى « المانشستر جارديان » التي تصدر فى مدينة مانشستر .

بعد يومين من تأميم مصر للقناة نشرت « الجارديان » :
« أن سحب عرض تمويل السد العالى جعل من المحتوم

على « جمال عبد الناصر » أن يرد بتحد . ان الديكتاتور يحيا بسمعته .. وحتى يجب أن يضرب بطريقة استعراضية .

ومن السخف سحب المرشدين من القناة بل يجب أن نبحث كيف نقلل من اعتمادنا على القناة .

وبعد ٥ أيام من تأميم القناة كتب « وادسورث » رئيس تحرير « الجارديان » افتتاحية بغير توقيع قال فيها :

« لا مبرر لاستعمال القوة الا اذا أغلق « جمال عبد الناصر » القناة . في هذه الحالة فقط نتدخل .

ان عبد الناصر لم يلغ معاهدة ١٨٨٨ التى تنص على حرية الملاحة في القناة وهذه المعاهدة ليس فيها نص عن ملكية القناة .

ومعاهدتا ١٩٣٦ و ١٩٥٤ لم تغيرا هذا الموقف .

ان ما فعله « عبد الناصر » ليس مبررا للعمل العسكرى الا اذا أغلق القناة واستولى على القواعد البريطانية هناك ، أو اعتدى على جيرانه .

واذا ارسلنا قواتنا الى السويس فان ذلك يدمر ما بقى يقال عن بريطانيا من انها حامية القانون الدولى . وسيحطم الامم المتحدة . ويثير غضب ثلاثة أخماس العالم ضدنا » .

وظلت الصحيفة تكتب مؤيدة مبدأ « المفاوضات أولا » وتقول انه لا مبرر للعمل العنيف ضد مصر ما دامت القناة مفتوحة ، كما ان القوة لن تبقيها كذلك .

وظلت « الجارديان » وحدها تعارض استخدام القوة بينما باقى الصحف اما مؤيدة لذلك أو محايدة أو مترددة .

اجتمع المسئولون فى صحيفة « الديلى ميرور » لبحث سياسة الجريدة بعد تأميم القناة فكان « سيسل كنج » مؤيدا القوة والحرب أما كادليب ـ الذى خلف بعد ذلك كنج فى رئاسة مجلس الادارة ـ فقد أيد القوة اذا اقرتها الامم المتحدة والكومنولث والولايات المتحدة .

وانتصر راى « كادليب » .

وفى ١٠ أغسطس بدات « الديلى ميرور » تنضم للجارديان فقالت تحت عنوان « أزمة السويس .. سياسة عاقلة لبريطانيا » : « حماقة ان تقدم بريطانيا وحدها على الحرب ضد الرأى العام العالمى . ويجب على بريطانيا الالتزام بالعمل الجماعى الدولى » .

وفى ١٤ أغسطس اندفعت « الميرور » ضد الحرب .

قالت تحت عنوان « رسالة لايدن . لا حرب ضد مصر » :

« اذا سمح ايدن لنفسه بأن يندفع فى أعمال حمقاء نتيجة كلماته الشجاعة فانه سيجد نفسه فى موقف لا يحل الا باستقالته كرئيس للوزارة » .

وفى اليوم التالى كان وزير الدفاع البريطانى يجتمع برئيس القسم الخارجى الاستير هيلدرنجتون فى صحيفة « الجارديان » ويبلغه أن بريطانيا لن تحارب .

وادرك « هيلدر نجتون » أن الوزراء مستاءون من موقف الصحيفة ضد الحرب . وخاصة وانها تعلن باستمرار أن « ايزنهاور » الرئيس الامريكى ووزير خارجيته « دالاس » لا يؤيدان بريطانيا .

واستمرت الصحيفتان « الميرور » و « الجارديان » تطالبان بعدم دخول الحرب .

قالت الميرور : « حرب ضد مصر معناها حرب ضد كل الدول العربية .. وهى عملية طويلة ومكلفة . ان العمل البوليسى فى السويس يتطلب الاستيلاء على مصر كلها وهذا يحتاج الى عدة فرق » .

وردت الجارديان على قعقعة السلاح ونشرت حديثا « لجيتسكيل » زعيم المعارضة يطالب فيه بعدم استخدام القوة .

قالت ان الذى تطالب بالحرب هى الصحف التي طالبت بالتسوية السلمية مع هتلر .

وقد اذاعت هيئة الاذاعة البريطانية هذا الحديث فطلب « ايدن » وضع قانون باشراف الحكومة على الـ « ب . ب . سى » .. ومنع تعليقات الافراد فى الاذاعة .

وضع مشروع القانون وادخلت تعديلات عليه . ولكن لم يصدر نتيجة تطور الاحداث .

وفى ١٠ سبتمبر كتب وادسورث آخر افتتاحية له فقد كان مريضا وعلى شفا الموت .

قال :

« لا عجيب ان الناس خارج بريطانيا يظنون ان الانجليز فقدوا عقولهم مادامت الصحف تطالب باستخدام القوة . نريد ان نتجنب حربا تنشأ بمبادرة منا .

هذه هى السياسة التى يجب ان تتبع بدلا من ان نطبق القانون الدولى بأيدينا » .

سيقال ان كل شيء نشأ عن اخطاء الصحف وان ايدن ضحية صحافة بلا قلب لم تحسن عمدا تفسير كلماته .

ولا يكفينا أن يتحقق الحرب او السلام بنـــاء على السياسة الشخصية لرئيس الوزراء » .

وفى ١١ سبتمبر نشرت « الميرور » عنوانا باللاتينية وهى اول مرة تفعل ذلك .

يقول العنوان : « اذا لم تكن هناك حصافة » .

وهو شعار أسرة ايدن فقد طالبت الصحيفة بالحصافة أى بالعقل لا الجنون .

ووضح من ذلك ان الصحيفتين تتنـــافسان ضـــد الحرب .

واستمرت « الجارديان » تنشر أخبار أزمة السويس فى الصفحة الاولى منذ ٢٦ يوليو عدا يوم واحد هو ٤ أكتوبر .

فى ٢٩ يوليـــــو هاجمت القوات الاسرائيلية مصر فوجهت بريطانيا وفرنسا أنذارا لمصر .

وفى ٣١ اكتوبر بدأت القوات البريطانية والفرنسية تضرب مطارات مصر .

وفى ٥ نوفمبر بدأ غزو بور سعيد .

كانت « الجـارديان » أول صحيفة تعارض الانذار البريطانى ..

وكان هيلدرنجتون ـ ٣٦ سنة ـ قـد تولى رئاســة تحريرها فكتب افتتاحية من الف كلمـة قال فيها ان الانذار عمل أحمق لا مبرر له . انه يصب البترول على النار . ولا احد يعرف أي انفجار سيعقب ذلك . والأمل فى ان يطفىء هذا الانذار النار لا يتجاوز واحـــد على

عشرين وسيقود بريطانيا لحرب مباشرة مع مصر وربما العالم العربى كله .

ما حقنا فى الهجوم على بلد آخر .

الانذار ، اذا نفذ ، اى تتدخل بريطانيا وفرنسا لفصل القوات المتحاربة المصرية ــ الاسرائيلية ، يعتبر عدوانا واضحا ولا يوجد فى ميثاق الامم المتحدة ما يبرر التدخل العسكرى ، والتصرف السليم الوحيد هو سحب قوات اسرائيل عن طريق الامم المتحدة » .

ونشرت الصحيفة يوم ٢ نوفمبر رسالة من الفيلسوف الكبير « برتراند راسل » يقول فيها « جريمة بريطانيا وفرنسا فى مصر تجعلنى اشعر بالخجل من بلادى . وأملى الوحيد ان تتدخل الولايات المتحدة لوقف القتال وانقاذنا من النتائج السيئة التى ترتبت على جنون الحكومة » .

ترددت « الديلى ميرور » يوما بعد الانذار البريطانى ولكنها اندفعت مؤيدة لمصر يوم ٢ نوفمبر .

وترددت صحف أخرى يومية وهى « الديلى هيرالد » ــ جريدة العمال ــ « والنيوز كرونيكل » ــ صحيفة حزب الاحرار ــ فلم تعلقا الا يوم ٤ نوفمبر .

وترددت « الديلى تلجراف » المؤيدة لايدن يوما ثم يوما ثم اندفعت مؤيدة .

أما « الديلى ميل » فقد بقيت حائرة . .

ففى تلك الايام الحاسمة كانت صحافة بريطانيا فى مفترق الطرق خاصة وان بلادها تقاتل .

وعلى اية حال فان صحف بريطانيا عندما قامت الحرب انقسمت تماما . .

وقفت مع مصر ٤ صحف يومية و ٤ صحف أسبوعية هى « بيبول » الناطقة باسم حزب العمال « وبكتوريال » الصادرة عن الديلى ميرور .

أما أبرز الصحف الاسبوعية التى وقفت مع مصر يوم ٤ نوفمبر فهى « الاوبزرفر » ومجلة « الاكونومست » .. والاثنتان محافظتان .

أما الصحف اليومية المؤيدة للحكومة فهى ٦ ، و ٤ صحف أسبوعية . باختصـــار كانت الصحف المؤيدة للحكومة أكثر . ولكنها لم تكن متقدمة كثيرا على الصحف المؤيدة لمصر أو بعبارة أدق التى تعارض الحرب كوسيلة لحل الازمة .

هاجمت « الميرور » ايدن يوم ٢ نوفمبر .

وفى ٤ نوفمبر قالت « الميرور » : بينما تقذف بريطانيا مصر بالقنابل فان روسيا انتهزت الفرصة لقتل الحرية فى بودابست .

ان ممارسة الضغط الاخلاقى على روسيا قد ضاع عندما تحدى ايدن الامم المتحدة .

ان اطلاق صـــفارات الانذار فى مصر أطلق صفارات الامان لروسيا لتغزو المجر » .

فان روسيا هاجمت المجر ونشرت « الجـــارديان » كاريكاتيرا لخروشوف وهو يقود دبابة بينما ايدن يستعد لقيادة قاذفة قنابل ويلوح لخروشوف بيده قائلا :

ـ وانا أيضا !

***

توقف القتال .

كتبت « الميرور » يوم ٧ نوفمبر بعنوان « العودة الى

العقل » : « نحمد الله على انه لن يكون هناك مزيدا من القتلى . ان هذه الحرب أضاعت القيـــــادة الروحية لبريطانيا » .

وفى يوم ٢٠ نوفمبر كتب « جيمس موريس » مراسل الجارديان من قبرص لان الرقابة فى تل أبيب منعت ارسال برقياته .

قال « ان الطيارين الفرنسيين قادوا الطائرات الفرنسية وهاجموا القوات المصرية فى سيناء وضربوها بقنـــــابل النابالم » .

وفضحت الصحيفة التواطؤ بين فرنســـا وبريطانيـا واسرائيل واستمرت تفضحه .

وفى اليوم التالى ٢١ نوفمبر ايدت « الموند » الفرنسية أنباء التواطؤ وتبعتها « فرانس أوبزرفاتير » الفرنسية أيضا وكذلك التاريخ كله ..

خسرت صـــحيفة « الديلى ميرور » ٧٠ الف قارىء نتيجة معارضتها ايدن فى حـرب الســويس . وخسرت الجارديان ٣٠ الف قــارىء فى مدينة مانشستر التى تصدر فيها ولكنها كسبت ٤٧ الف قارىء معظمهم فى لندن .

وكان نجاح الصحيفة فى لندن مقدمة لانتقالهـــا من « مانشستر الى لندن وأصبح اسمها « الجارديان » بدلا من مانشستر جارديان » .

واثبت هيذرنجتون بهـذا الموقف انه يصـلح رئيسا للتحرير !

الصحافة.. وغرام الملوك

لندن عام ١٩٣٦ .

قبل أن يموت « جورج الخامس » ملك انجلترا التفت الى الواقفين حول فراش الموت .. وسألهم :

ـ كيف حال الامبراطـــورية .. يعنى الامبراطورية البريطانية ـ التى كانت أيامها تحتل ربع أراضى العالم وتحكم ربع سكانه ..

ثم راح الملك فى غيبوبة .

وبعد ساعات أذيع بلاغ رسمى جاء فيه ان روح الملك تمضى نحو النهاية .

وفى منتصف ليلة ٢٠ ينـاير ١٩٣٦ أعلنت الاذاعـة البريطانية أن « جورج الخامس » مات فى سلام .

ولكن الامبراطورية البريطانية لم تكن أيامها فى سلام .

***

احتفل فى قصر سان جيمس بتنصيب ولى العهد ملكا لانجلترا تحت اسم « ادوارد الثامن » .

وكان عمره يومها ٤١ عاما .

وهو أول ملك أعزب يجلس على عرش انجلترا منـذ ١٧٦ عاما .

حضرت سيدة مجهولة حفل تنصيب الملك الجديد .

وكان عدد كبير من المسئولين يجهلون اسمها .

ولكن أشقاء الملك الثلاثة كانوا يعرفون حقيقة السيدة « واليس وارفورد سيمبسون » .. ويعلمون ـ عن يقين ـ أن أخاهم الملك مولع القلب بتلك السيدة الامريكية .. وان هذا الحب أفزع الملك الراحل الذى خاف أن تتحطم الامبراطورية بسبب هذا الحب الغريب .. وما يعترضه من عقبات .. والظروف التى أحاطت به .. من كل جانب .

***

« واليس » ابنة موظف أمريكى صغير .

تزوجت لاول مرة سنة ١٩١٦ من ضابط بحرى اسمه « ايرل دينيفيلد سبنسر » .. وكان سكيرا وهى مفلسة. قاست واليس كثيرا من زوجها ثمانية أعوام وانتهى الزواج ، الى الطلاق !

وخلال سنوات الزواج .. وعلى وجه التحديد فى سنة ١٩٢٠ التقت « واليس » « بادوارد الثامن » أيام كان وليا للعهد فى حفلة راقصة أقيمت فوق ظهر سفينة حربية .. ولكنهما لم يتبادلا كلمة .

وعندما التقى الملك « بواليس » بعد ذلك قال لها :

ـ أذكر وجهك .. أين رأيتك قبل اليوم .

وعبثا حاول أن يتذكر فان معظم النساء اللائى قابلهن ولى العهد فى تلك الحفلة .. على ظهر السفينة كن زوجات لكبار الضباط .

تركت « واليس » أمريكا بعد الطلاق .. وسافرت لانجلترا حيث التقت بزوجها الثانى وهو انجليزى اسمه

« ارنست سيمبسون » .. تعرفت به أثناء وجوده فى أمريكا .

ونشأت صداقة بين « واليس » وبعض الدبلوماسيين الامريكيين الذين قدموها بدورهم لبعض الانجليز .. وبينهم « ثلما فيرنيس » .. التى كانت صديقة شخصية لولى العهد .. واضطرت للسفر الى أمريكا فطلبت من صديقتها « واليس » أن تهتم ـ فى غيابها ـ بولى العهد !

***

جلس ادوارد الثامن على العرش .

وظل ستة شهور ـ هى فترة الحداد الرسمى على أبيه ـ يلتقى بأسرة « سيمبسون » فى حفلات خاصة .

وبعدها .. فى ٢٨ مارس ١٩٣٦ دعا سكرتيريه وزوجاتهم الى مأدبة عشاء .. ووجد السكرتيريون السيدة « واليس » تجلس على رأس المائدة .

وبعد شهرين دعا الملك رئيس وزرائه « ستانلى بولدوين » الى مأدبة عشاء .. ومرة أخرى كانت « واليس » تجلس على رأس المائدة .. ولاحظ رئيس الوزراء أن « سيمبسون » كان مدعوا وان صديقته السيدة رافراى كانت هناك .. وان الملك ظل طوال المأدبة يتحدث الى واليس بينما انفرد زوجها بالحديث مع مدام « رافراى » .. وقد تزوجها سيمبسون بعد ذلك !

ولم يقل « ستانلى بولدوين » رئيس الوزراء وزعيم حزب المحافظين شيئا عن « واليس » .. كل ما كتبه فى مذكراته يومها ان « واليس » سيدة لطيفة .

ولم يهتم رئيس الوزراء بمـا جرى أمامه فان زوج « واليس » كان معها .. وهو الذى يجب أن يهتم .. اذا أراد !

ولكن رئيس الوزراء ضاق بالامر عندما صدر بلاغ كبير الامناء فى اليوم التالى عن مأدبة العشاء . قـال البلاغ ان رئيس الوزراء حضر المأدبة مع قرينته وان السيد « سيمبسون » حضر المأدبة مع قرينته .

وكان البلاغ هـو أول بيان رسمى يـكاد ينطق بأن بأن صاحب الجلالة يحب !

اندفع الملك فى حبه .

وكان اندفاعه هذه المرة علنيا وواضحا .

دعا « واليس » الى رحلة غرام فى البحر المتوسط .. فى يخته الخاص .

وفى سالزبورج تلتقط عدة صور للملك وصـديقته نشرت احداها صحيفة « الديلى سكتش » البريطانية .. وتكون هى الصورة الأولى والاخيرة التى تنشرها صحافة لندن للعاشقين ..

ويعود الملك وصديقته الى لنـدن .. فتستقلبهما الصحافة فى فتور .

***

كانت صحف أمريكا أول من تكلم .. عن غرام صاحب الجلالة .

ان حب الملك الذى تجاوز الاربعين تحول ، فى صحافة امريكا ، الى فضيحة ، أو مجموعة فضائح .. أصبح مادة للاثارة ، للتوزيع ، للبيع .

أصبحت قصة « ادوارد وواليس » فى كل جـريدة ،

وصورهما على غلاف كل مجلة .

* قالت صحيفة « نيويورك صانداى نيوز » : ان الاسرة المالكة البريطانية تعـــانى الغيظ وتكتمه ، لان « ادوارد الثامن » يحب سيدة أمريكية اسمها مسز « واليس سمبســون » تزوجت مرتين وطلقت مرة !

* وقيل ان منزل مسز « سمبسون » أصبح من ممتلكات التاج البريطانى .. يطوف حوله رجال البوليس لمنع الناس من الاقتراب منه .

وحدث ان اعترض رجل على هذا المنع فقـــال له كونستابل البوليس :

ـ ابتعد والا صادفتك متاعب شديدة !

* وحتى الهــــدايا لم تسلم من التعليقـــات او المبالغات ..

قيل ان الملك اهدى صديقته قلادة ثمنها ١٢٥ الف دولار ، وان هدايا أخرى فى الطريق ستسلم الى السيدة قيمتها نحو مليون دولار .

وأكثر من ذلك قيل ان الملك قبل مغادرة فيينا أهدى مسز « سمبسون » كميات كبيرة من الجوارب الحريرية والملابس الداخلية .. وكل النمسا تعرف ذلك !

* وزاد الجنـــون الامريكى فبدأت الصحف تنشر الاخبار مشفوعة بالصور .

مسز « سمبسون » ترافق الملك عنـد زيارته لفيينا لاستشارة طبيب أذن .

مسز « سمبسون » ترافق الملك فى القطار الى لندن .. مسز « سمبسون » ترافق الملك فى كل مناسبة .

* بدات العنـاوين تتجه الى الاثارة « المرأة التى تحسـدها الامبراطورية البريطانية » و « المرأة التى يتكلم عنها العالم كله » .

* أخذت الصحف تنشر يوميا تفاصيل دقيقة عن تاريخ حياة مسز « سمبسون » .

ووضعت فى قطارات السكك الحـــديدية اعلانات صارخة تدعو الاهالى لشراء هذه الصحيفة أو تلك المجلة لمعرفة القصة الحقيقية للحب الملكى !

* ولم يكتف الامريكيون بهذا كله ، بل ان الصحف اخذت تبعث بمراسليهـــا الى كل انجليزى يقيم فى الولايات المتحدة أو يزورها زيارة عابرة ، رأيه فى قصة الحب .

اذا أراد الزائر ان يتخلص من الاجابة لحقته الاسئلة، فاذا امتنع عن الجـــواب نشر نبأ اجابته او امتناعه أو امتعاضه على حد سواء .

* هذه هى مجلة « نيويورك ومان » أى « المرأة فى نيويورك » ترى ٣ احتمالات للموقف :

ان يطلب « ايرنست سمبسون » الطلاق من زوجته لانها خانت عهد الزواج المقدس .

أو ..

يظل « سمبسون » راضيا عن الوضع الحالى لانه يريد أن يستمر مستمتعا بعطف صـاحب الجلالة « ادوارد الثامن » .

أو ..

يبقى « سمبسون » عاجزا لا يستطيع أن يفعل شيئا فالقانون فى بريطانيا يمنع القذف فى حق جلالة الملك ..

ولذلك فان قضية الطلاق لن ترفع ، وسيبقى الحال على ما هو عليه .

* ومجلة تايم تسميها « الملكة واليس » .

* تنشر صحف أمريكا صورة الملك وصديقته ، معا ، بملابس الاستحمام .

تملأ الاعلانات عن المجلات التى تنشر صور الغرام الملكى كل عربات السكك الحديدية ودور السينما فى أمريكا .

كل هذه الطبول التى تدق معلنة ان الملك يحب بينما السيدة « واليس ايرنست وارفيلد سمبسون » لا تزال زوجة شرعية رسمية للسيد « ارنست سمبسون » !!

اجتمع أثرومان رئيس تحرير جريدة « يوركاشير بوست » بزميله «جوفرى دوسون» رئيس تحرير جريدة « التايمس » وسأله :

ـ متى تبدأ صحف انجلترا الكتابة عن الملك وصديقته.

أجاب « دوسون » :

ـ سأقول لك فى الوقت المناسب .

وقال « دوسون » فى مذكراته :

« كان رئيس الوزراء لا يدرى ماذا يفعل بالنسبة للصحافة ، فهى عالم مجهول بالنسبة له ، ولذلك لم يستطع أن يقدم لها أية نصيحة .. وكان حائرا ..

هل يشرح الوضع فى الصحف . وهل ستكون أداة فى يده أم يضع ثقته فى مجلس العموم ؟ وكان واضحا ان رئيس الوزراء يثق دواما فى مجلس العموم » .

ولكن أصحاب المكتبات البريطانية التى تستورد صحف أمريكا ومجلاتها عمدوا الى « حذف » كل ما تنشره هذه المجلات عن الملك وصديقته خوفا من محاكمتهم بتهمة القذف .

ولعل الخوف من الاتهام بالقذف فى حق الملك ، أو صديقته ، هو احد العــــوامل التى دفعت الصحف البريطانية الى عدم الخوض فى هذا الموضوع .. وان لم يكن العامل الوحيد .

اجتمع « ماكنزى كنج » رئيس وزراء كندا بكل من « ستانلى بولدوين » و « جوفرى دوسون » رئيس تحرير « التايمس » .

قالا له : أخبر الملك بما تنشره الصحف الامريكية

وعدهما « ماكنزى كنج » بأنه سيتكلم وسيكون عنيفا قاسيا مع الشاب الصغير .. يعنى صاحب الجلالة .

وانتظر « بولدوين » و « دوسون » ـ فى قلق ـ عودة رئيس وزراء كندا من المقابلة الملكية .

وعاد « ماكنزى كنج » .. وكأن شيئا لم يكن .

قال انه وجد صاحب الجلالة انسانا آخر .. حديثه حالم ، وكلماته خيالية ، ينطق حرفا ثم يسرح ..

وقال « ماكنزى » : لم أستطع الا ان أقول له ان شعب كندا يحب صاحب الجلالة !

ولكن « جوفرى دوسون » رئيس تحرير « التايمس » ـ لم يستطع أن يتريث طويلا ..

تلقى فى ٢٥ اكتوبر ١٩٣٦ رسالة من قارىء مجهول انجليزى يقيم فى ولاية نيوجرسى بأمريكا قال فيها :

ان تصرفات الملك نفسه تمرق وحدة الامبراطورية . ويخالجنى شعور بأنه اذا استمر ادوارد الثامن جالسا على العرش ، فان الشعور سينمو فى البلاد بضرورة قيام الجمهورية .

ومن الصعب على رجل يقيم بعيدا عن مركز الحوادث أن يقترح علاجا ، ولكن لن يسعدنى شيئا أكثر من أن أسمع ان ادوارد الثامن قد اعتزل العرش ، وتركه لولى العهد قبل أن يتطور الامر ويصبح واجبا تغيير النظام نفسه بدلا من استبدال ملك بملك » !

ولم يتردد « جوفرى دوسون » .. بل حمل هذه الرسالة وقصاصات الصحف الامريكية التى أرفقت بها الى « الكسندر هاردنج » السكرتير الخاص للملك ، كما حمل نسخة منها الى « ستانلى بولدوين » رئيس الوزراء . وبقيت الرسالة فى درج السكرتير وهو يخشى ان يطلع الملك عليها فيتالم ..

وفى يوم ١٣ نوفمبر غادرت الرسالة درج « هاردنج » لتستقر بين يدى الملك مع خطاب جرىء من سكرتيره قال له فيه :

« ان صمت الصحف البريطانية ازاء صداقتكم لواليس سمبسون لن يستمر ..

ان رئيس الحكومة وكبار الوزراء يجتمعون اليوم لبحث الاجراءات التى يتحتم اتخـــاذها لمواجهة الموقف الذى تزداد خطورته .

ولا شك ان جلالتكم تعلمون ان استقالة الحكومة ـ وهو امر لا يمكن استبعاده ـ سيؤدى الى ايجاد شخص آخر قادر على تشكيل الوزارة والحصـــول على تأييد مجلس العموم . وعندى من الاسباب ما يجعلنى اعرف ان الشعور السائد بين اعضاء المجلس هو عدم تأييد اى رئيس حكومة جديد .

ولذلك فالحل البديل هو حل مجلس العموم واجراء انتخابات عامة جديدة ستدور كلها حول موضوع واحد هو « قلب جلالتكم وحب جلالتكم » !

واقترح السكرتير الخاص على صاحب الجلالة ان يأمر بترحيل السيدة « واليس » بعيداً .. بعيداً ..

ولم يرد الملك على خطاب سكرتيره .

ولم يستقل السكرتير بعد ان رفض الملك ان يبادله كلمة واحدة فى هذا الموضوع ـ نحو شهرين ـ حتى اعتزل العرش .

قال الملك ادوارد الثامن فى مذكراته التى نشرها بعد اعتزاله العرش تحت عنوان « قصة ملك » ..

حدد يوم ٢٧ اكتوبر لنظر قضية الطلاق .. وعلمت الصحف الامريكية بالنبأ فنشرته بالخط العريض ، بل وذهبت الى اكثر من هذا .. فقالت ان الملك سيتزوج « واليس سمبسون » بعد الحكم بطلاقها من زوجهـــا القديم .

أما الصحف البريطانية فكانت لا تقرن اسم «واليس» باسمى كما كانت تفعل الصحف الامريكية ولم يكن هـذا عن جهل من الصحفيين الانجليز عن علاقتي بها .. فقد كانوا يعرفون كل شيء .. وانما لان الصحافة البريطانية رغبت في الاحتفاظ بهيبة القصر الا تذيع .

ورأيت بعد أن أصبح الحكم بالطلاق على الابواب ان تظل الصحافة البريطانية محتفظة برزانتها ، وان تضبط أعصابها ، لتقف في وجه الصحف الامريكية التي تنشر يوميا أنباء هذا الغرام الملكى .

وقررت أن أتصل بالصحفيين البريطانيين اتصـالا مباشرا ، ورأيت ان أطلب العون من اثنين من كبـار أصدقائي الصحفيين هنـا لورد بيفر بروك صـاحب « الديلى اكسبريس » و « الصـنداى اكسبريس » و « الايفننج ستاندارد » .. وسير « ادموند هارمثورث صاحب « الديلى ميل » و « الايفننج نيوز » .

اتصل الملك تليفونيا بمنزل الصحفي اللورد «بيفربروك» في لندن فقيل له : اللورد في أمريكا .

ــ وكاد الملك أن يجن فانه كان يعتمد على اثنين من المحافظين أولهما اللورد « بيفر بروك » وهو من أصل كندى ..

وتشرشل ــ وكان أيامها عضوا في مجلس العموم ورفض « بولدوين » أن يعطيه منصبا وزاريا .

ووصل « بيفر بروك » الى نيويورك واستقبله مندوبو الصحف في الميناء يسألونه عن علاقة الملك « بواليس » فأجاب بانه لا يعرف شيئا وتهرب من الاسئلة .. وقال انه قادم في اجازة لشئون اخرى ..

واتصل الملك تليفونيا ـ من لندن ـ بكل مكان يحتمل أن يزوره « بيفر بروك » فى « نيويورك » حتى وجده فى جريدة « الديلى نيوز » الامريكية ، وهى الجريدة التى تفننت فى ابراز اخبار « واليس » ، والتى قالت أن فى عروقها تجرى دماء الهنــود الحمر الامريكيين ، والتى نشرت ان « واليس » ليست من عامة الناس لان أحـد أقاربها كان حاكما لولاية امريكية قبل ثلاثين عاما ..

قال رئيس مجلس ادارة جريدة « الديلى نيوز » للورد « بيفر بروك » .

ـ تليفون لك ..

قال بيفر بروك ..

ومن المتحدث ..

قال رئيس « الديلى نيوز » وهو يبتسم ..

ـ من صاحب الجلالة !

وسمع « بيفر بروك » الملك يتوسل اليه ويرجوه العودة فورا ..

والجدير بالذكر ان رئيس جريدة « الديلى نيوز » راعى التقاليد الصحفية فلم ينشر المكالمة أو يشر اليها ..

***

يوم عاد « بيفر بروك » الى لندن دعاه الملك للعشاء فى نفس اليوم ليسأله الرأى .. وكان جواب « بيفر بروك »:

ـ طاوعنى .. تراجع .. ان « بولدوين » سيبعث ببرقيات « مسممة » الى دول الدومنيون .. انت فى فخ ..

حاسب .. حاذر !

قال الملك فى مذكراته :

« جاء لورد بيفر بروك الى القصر فى ١٦ أكتوبر ..

شرحت له كل المشكلة بصراحة تامة ..

قلت له :

لا أفكر فى أن أطلب اليك أن تستغل نفوذك لوقف نشر انباء مثيرة عن الطلاق .. كل ما أرجوه هو أن تحاول أن تحمي واليس من نشر أى شيء عنها داخل بريطانيا .

قال لى لورد « بيفر بروك » سأحاول أن افعل ما تريد .

وبدون ابطاء بدأ « بيفر بروك » يقوم بعمله الخطير فى حى الصحافة .

والصحف البريطانية تثيرها كلمة الرقابة ولا يمكن أن تمتنع الصحف عن نشر نبأ من حق الشعب أن يعرفه .

ولكن « بيفر بروك » عقد ، بمساعدة «هارمثورث»،مع جميع رؤساء الصحف « اتفاق جنتلمان » ، مقتضاه ان يكتفوا بنشر انباء قضية الطلاق دون ان يعمدوا الى التهويل .

واحترمت جميع الصحف البريطانية وعدها ، فنشرت النبأ كطلاق أى انسان عادى من انسانة عادية .

ذهب رئيس الوزراء للقاء الملك .. وقال :

ـ اخلاص الناس ينتهى عند نقطة واحدة عندما تلوح الفضائح فوق القصر .

كاد الملك يقفز من فوق كرسيه .. ولكنه استجمع شتات نفسه وقال :

ــ آمل أن تتكلم بصراحة .

قال رئيس الوزراء متسائلا :

ــ فى أى موضوع ؟

ــ نعم فى أى موضوع .

قال رئيس الوزراء العجوز للملك .. فجأة :

ــ هل تسمح لى بكأس من الويسكى والصودا وهل تتفضل جلالتك باحتساء كأس معى ..

اعتذر الملك لأنه لا يشرب الويسكى فى مثل هذه الساعة !

... كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا بقليل .. ومن يحتسى الويسكى فى هذه الساعة المبكرة أما يكون مدمنا أو انه يحس بقلق بالغ .

ولم يكن رئيس الوزراء مدمنا ..

طلب الملك الويسكى لرئيس وزرائه الذى تجرع كأسه دفعة واحدة ثم قال للملك :

ــ هل أستطيع أن أتكلم بصراحة حتى ولو كان الموضوع خاصا بامرأة .

أومأ الملك براسه وهو يكاد ينفجر غيظا .

بدأ رئيس الوزراء يشرح للملك ما تقوله الصحف الامريكية عن طلاق « واليس سمبسون » وعلاقتها بالملك .

وقال ان أحكام الطلاق تنص ــ فى ذلك الوقت ــ على

أن يكون الحكم سارى المفعول بعد ستة شهور الا اذا تقدم معترض قانونى خلال تلك الفترة .. وهذه الشهور الستة ستكون حافلة بالاثارة والاشـــاعات والاقاويل ويخشى أن يصبح القصر الملكى محل الجدل والمناقشة والاشاعات الرخيصة .

واستمر رئيس الوزراء يعيد ويكرر ما قاله ثم همس للملك :

ــ هل من الضرورى أن يستمر نظر قضية الطلاق .

اختار الملك مصيره .

قال لرئيس الوزراء وقد ضاق بحديثه والحاحه :

ــ ليس من حق أى انسان أن يتدخل فى قضية خاصة بين اثنين من المواطنين .. يجب أن نحترم حرية الافراد وألا نتدخل فى القضاء .

كاد رئيس الوزراء أن يجن فان السيدة « واليس سمبسون » أقامت قضية الطلاق فى مدينة صغيرة اسمها « ابسويتش » حتى تكون بعيـــدة عن لندن ومراسلى الصحف ، من ناحية ، ولأن قاضى الطلاق فى «ابسويتش» ، من ناحية أخرى ، كان يعمل قبل ذلك مستشاراً قانونيا لاحدى قريبات صاحب الجلالة !

استمر الملك يتكلم ..

ــ الا ترى أنه من الخطأ أن نحاول التأثير فى السيدة « واليس سمبسون » لمجرد انها ــ بالصدفة ــ صديقة للملك .

اضطر رئيس الوزراء الى القـــول بأنه لا يطلب ردا سريعا وكل ما يرجوه ان يفكر الملك والسيدة « واليس سمبسون » فى الامر .

أصدر القاضي حكمه بالطـــلاق لان زوج الســـيدة « واليس » خان زوجته فى « أوتيل دى باريس » !

***

بعد الحكم أصبحت « واليس سمبسون » مثـــل الديناميت السياسى ..

فى اليوم التالى كانت الصحف الامريكية تكتب تحت عناوين مثيرة :

* « واليس » ستتزوج الملك .
* امريكية فى بلاط صاحب الجلالة .

وتمادت احدى الصحف الامريكية فقالت :

« ان واليس رسمت التاج الملكى على ملاءة سريرها »!

خلال نوفمبر التقى الملك « بستانلى بولدوين » مرتين استدعاه فى المرة الاولى ليقول له انه يريد الزواج من السيدة « واليس » .

أجاب رئيس الوزراء بأن الناس لن يؤيدوا زواج الملك من سيدة تزوجت مرتين وطلقت مرتين .

وقال رئيس الوزراء :

ـ ان زوجة الملك تصبح ملكة .. وهذا هو الثمن الذى يجب أن يدفعه الملك فان اختياره لزوجته ليس أمرا خاصا به وحـــده بل أن صوت الشعب يجب أن يكون مسموعا .

فهم الملك على الفور أن رئيس الوزراء لا يعارض فى أن تبقى « واليس » صديقة أو عشيقة للملك .. أما أن تكون زوجته فهذا مستحيل !

ومن الغريب ان بولدوين فى مستهل حياته رغب فى أن يكون من رجال الدين لولا أن أباه عارض ذلك بشدة وأصر على أن يكون ولده سياسيا محافظا مثله .

أشار الملك فى حديثه ، من بعيد ، الى أنه اما أن يتزوج او يرحل .

لم يعلق رئيس الوزراء كثيرا على الموضوع واكتفى بأنه سيعرض الامر على مجلس الوزراء .

أسرع الملك فى المساء الى أمه وشقيقته قائلا :

ـ أريد أن أتزوج حبيبتى .

ردت الأم :

ـ ان الطلاق مرة واحـــدة مصيبة اما الطلاق مرتين فكارثة .. وانت تريد أن تتزوج سيدة طلقت مرتين !!

***

دخلت الحرب بين الملك ورئيس وزرائه معركة جديدة .

اخذت الصحف الموالية « لبولدوين » تقـــذف الملك بقنابل الاعماق ..

انها لا تكتب عن الغرام الملكى أو عن طلبات الزواج العرفى أو غير العرفى التى يقدمها ادوارد الثامن لرئيس الوزراء .. ولكنها ـ اى الصحف ـ تحاول هز أعصاب الجالس على العرش وتوحى للناس ـ بالاشارة ـ انه لا يصلح لمنصبه .

وفى ٢٣ نوفمبر نشرت « الديلى ميل » مقالا بعنوان « تناقض » .. تحدثت عن نشاط الملك وقارنت بين عطفه على العمال العاطلين فى جنوب ويلز فى حين ان الحكومة لا تبدى اهتماما نحو هؤلاء العمال .

وكان هذا المقال دافعا لحملة شنتها التايمس على « ادوارد الثامن » فخلعته عن عرشه .

كتب « دوسون » فى اليوم التالى مقالا رد فيه على « الديلى ميل » وأشار الى أن عطف الملك على العاطلين يعتبر مخالفا للدستور ، لانه يوجد هوة بين الملك والوزارة .. فوزراء الملك هم مستشاروه . واذا استمر الخلاف فستنشأ أزمة دستورية خطيرة . ان الملك زار المنطقة لنفسه فقط وليقوم بتحقيق شخصى فحسب » .

وطلعت « التايمس » فى ٢٥ نوفمبر تحمل فى افتتاحيتها على الملك بشأن تعيين حاكم لاتحاد جنوب أفريقيا ، ومع ان المقال تضمن ترحيبا وتأييدا للحاكم الجديد .. الا ان الصحيفة انتهزت الفرصة لتقول « ان العرش وممثليه يجب أن يبقوا على الدوام فوق الفضائح الشخصية وبعيدا عن سخرية الرأى العام ولومه واستهزائه » .

ويفهم صاحب الجلالة ..

... يضيق بالمقال ، ولكنه لا ينطق بحرف والا فضح نفسه .

وترد الصحف الناطقة باسم الملك والمدافعة عنه والمؤيدة لقصة حبه .. والراغبة فى زواجه من حبيبة قلبه .

جريدة « الديلى ميرور » تنشر أسبوعيا بابا جديدا عنوانه ــ « مليكنا هذا الاسبوع » تقول انه تسجيل لاخبار الملك اسبوعيا .

وفى أول (باب) تكتب « الميرور » : « الحكومة لا تهتم بالمناطق المنكوبة بالبطالة ... الا ستين دقيقة ، فقد قطع

رئيس الوزراء عشاءه واجتمع بالملك ليبحث حالة الذين ليس لديهم عشاء على الاطلاق » .

ويفهم رئيس الوزراء .. ولكنه أيضا لا ينطق والا فضح المؤامرة الواسعة التى تحاك خيوطها ببراعة ضد الملك !

واذا كان اصحاب الصحف الكبرى قد فرضوا على انفسهم رقابة اختيارية فان الصحف الصغيرة لا تلتزم بذلك ..

... تكتب مجلة اسمها « الاسبوع » ان أمريكا مليئة بالاشاعات التى تقول ان صاحب الجلالة سيتزوج « واليس » .. وهذه الاشاعات كلها غير صحيحة .

ويعرف الملك ما تعنيه « الاسبوع » ويبعث رسولا خاصا الى صاحبها يعرض عليه أن ينشر القصة كلها ويعد الملك تسليم « الاسبوع » كل الاسرار ، وكل الوثائق ..

ويقرر صاحب المجلة اصدار عدد حافل يوزع باليد اذا صادر البوليس النسخ الموجودة مع الباعة .. ولكن الملك فى آخر لحظة يعدل عن قراره ويبعث للمجلة قائلا : « الموقف يتطور بسرعة .. والنشر غير مطلوب » !

كان الملك مترددا بين النشر والصمت .. كان يتصل فجأة بمجلة يسارية ناجحة هى « النيو ستيتسمان » يطلب اليها الوقوف معه من الناحية الدستورية ..وفجأة يقرر ان النشر سيثير غضب الوزارة وبالتالى تبدأ الحملة الصحفية فى بريطانيا ضد « واليس » ولذلك يعدل عن النشر .

واجتمع مجلس الوزراء يوم ٢٧ نوفمبر لبحث اقتراح

الملك بأن يتزوج مسز « سيمبسون » زواجا عرفيا مادام المجلس ووزراء الدومنيون يعارضون فى الزواج من سيدة مطلقة .

نشرت بعض الصحف ان المجلس سيبحث تطورات الموقف مع اسبانيا ، ولكن جريدة « المانشستر جارديان » اكدت فى اليوم التالى ان المجلس بحث مسائل داخلية لا خارجية .

ولم تنشر بالطبع ان المجلس رفض الموافقة على الزواج العرفى .

وتتفجر الازمة دفعة واحدة .

فجرها رجل لم يسمع فى حياته باسم « واليس » ولا يعرف شيئا عنها او عن غرامها بالملك .

***

ثارت مناقشات حامية بين الكنائس حول حفل تتويج الملك المقرر اقامته فى مايو ١٩٣٧ .

بعض رجال الدين يطالبون بتغيير الحفل وجعله مناسبة دينية خالصة .

وفى شمال انجلترا وقف الدكتور بلانت اسقف « بدفورد » يقول فى اجتماع كنسى يوم أول ديسمبر سنة ١٩٣٦ :

« ان التتويج معناه عودة الدولة للدين .. ونحن الآن احوج للدين من اى وقت آخر .

ولا يوجد مسيحى مخلص يحس بالراحة وهو يرى مسلك بعض حكام أوربا وابتعادهم عن الدين .

والتتويج عملية دينية ومناسبة دينية ولا يوجد انسان يتلقى البركة فى هذه المناسبة .. الا اذا كان عامر

القلب بالدين .. والملك فى حاجة الى رعاية الله ورحمته ليؤدى واجبه .

انى أطلب « البركة » للملك وأرجو منكم ان تطلبوها معى لصاحب الجلالة فسيحتاج اليها بشدة .

وآمل أن يكون الملك واعيا لحاجته للرحمة الالهية وللعطف الالهى .. وان كنا نتمنى لو أنه أظهر بعض ما يدل على وعيه وارادته » !!!

ولم يكن الاسقف قد سمع باسم مسز « سيمبسون » أو عرف شيئا عن علاقتها بالملك ، بل كان يقصد ــ كما عرف فيما بعد ــ ان الملك لا يهتم بشئون الكنيسة . ولا يذهب اليها بانتظام كما اعتاد آباؤه واجداده !

نشر خطاب الاسقف فى صحف انجلترا .

ولم تعلق صحف لندن على ما جاء فيه ، ولكن « التايمس » كتبت افتتاحية طويلة ، تكلمت فيها عن الاستقبال الرائع الذى لقيه ولى العهد « دوق يورك » ــ الذى ولى العرش بعد ذلك تحت أسم جورج السادس ــ عند زيارته لاسكوتلندا !

واتصل اللورد « بيفر بروك » بالملك وقال له ان الصحف الاقليمية ، التى تقودها « اليوركشير بوست » ــ التى تنطق بوحى رئيس الوزراء ــ تنتهز فرصة نشر أقوال الاسقف فى صحف الصباح لتنشر أنباء رغبة الملك فى الزواج واصطدامه بالحكومة لهذا السبب .

ولم يستطع الملك أن يفعل شيئا ..

كان خطاب الاسقف بمثابة عود الكبريت الذى ألقى فوق برميل البارود المشحون .

استمع آرثرمان رئيس تحرير جريدة « يوركشابر بوست » الى الخطاب وظن ان الحكومة اختارت الدكتور « بلانت » لاثارة الازمة وارغام الملك ، بهذه الطريقة ، على التنازل عن العرش .

كلف رئيس التحرير - فى اليوم التالى - احد محرريه واسمه « شارلس تيلور » ليكتب مقالا عنوانه « الملك والشعب » .. جاء فيه :

« لابد ان للأسقف سببا قويا جعله يدلى بهذه الملاحظة حول الملك .. ان كثيرين يعرفون ان اشاعات كثيرة نشرت فى أمريكا عن الملك . نشرت هذه الاشاعات ، فى أول الامر ، صحف الاثارة ثم كتبتها صحف أخرى لها شأنها ، مما يدل على ان هناك أساسا صحيحا لما نشر .

هناك فرصة امام الملك ليظهر ادراكه للمسئولية الخطيرة التى حملها بعد أبيه .

يوم الخميس ٣ ديسمبر تفجرت حملة الدعاية عن غرام الملك فى انجلترا كلها .. لاول مرة .. صدرت الطبعتان الاولى والثانية من « الديلى ميرور » .. دون أن يذكر فيها اسم « سيمبسون » ثم جاء « هارى جى بارثليميو » رئيس التحرير الى مقر الجريدة مرتديا « البيجاما » ليتخذ قرارا خطيرا .. وهو نشر صورة صديقة الملك فى الطبعة الثالثة .. وكانت « الميرور » أول صحيفة تقرر المضى فى النشر بغير تلميح وانما بكل جرأة ..

وقالت « النيوز كرونيكل » من حق الملك أن يتزوج . ولكن البرلمان هو الذى يختار الملكة ، وليس امام الملك اذا اختار زوجة لا يرضى عنها الرأى العام .. الا ان يتزوجها بصفته دوقا ، ولن يكون ولدها فى هذه الحالة وليا للعهد .

ونشرت « الايفننج ستاندارد » ان القانون الانجليزى لا يعرف الزواج العرفى .. وأضافت الصحيفة : « ان صاحب الجلالة هو الذى يعلم اذا كان فى استطاعته أن يقف فى وجه بولدوين ووزراء التاج اعتمادا على تأييد الرأى العام له » .

وقالت جريدة « ستار » : « يمكن التغلب على كل معارضة تقف فى طريق الزواج » .

ونشر « هارولد لاسكي » مقالا فى « الديلى هيرالد » تحت عنوان « التاج والوزارة » .. عرف فيه الملكية الدستورية فى انجلترا ، ونادى صراحة بأن الوزارة هى التى توجه الملك . وينبغى عليه أن يقبل نصحتها .. لانها مسئولة عن كل ما يفعله .. واذا عارض الملك الوزارة فاما أن يعتزل العرش أو يصبح دكتاتورا .

واقترحت « الصانداى اكسبريس » تغيير الوزارة لاصدار تشريع بالزواج العرفى ، ونادت « الصنداى ديسباتش » بأن العصابة القديمة من السياسيين خشيت وجود ملك قوى يسانده الشعب .. وسيعيش الحياة التى يحبها .

وهكذا انقسمت الصحف بين مؤيدة ومعارضة فى بحوث هادئة .. الا « التايمس » فانها استمرت تهاجم

الملك من البداية ولم تعدل عن رأيهـــا كما فعلت بعض الصحف الاخرى .

اتصل الملك برئيس الوزراء ، وقال له انه علم بأن « التايمس » سوف تنشر مقالا عنيفا تهاجم فيه مسز « سيمبسون » .. وامره بمنع النشر .

اجابه « بولدوين » بأن الصحافة حرة ، وليس لدى رئيس الوزراء سلطة أو رقابة على « التايمس » أو اية صحيفة أخرى ..

واتصل الملك برئيس الوزراء مرة اخرى وطلب اليه أن يطالع هو - أى بولدوين - مقال « التايمس » عنه ، للصداقة التى تجمع رئيس التحـرير برئيس الوزراء . ولكن بولدوين نام بعد ان تأخر وصول المقال اليه .. وعندما اتى به الرسول الى منزله لم يستطع أحد ايقاظه .

كتب « دوسون » بعنوان : « الملك والملكية » .. مشيرا الى شائعات الصحف الامريكية وقال فى جراة : « ان الزواج غير متكافىء مع العرش ، وان النظــــام الملكى أبقى من شخص الملك فقد حان الاوان ليذيع الملك بيانا .. والا تحطمت الملكية » .

وعارض الزواج ، ونادى : « العرش أو المرآة » .

وكانت هذه اول دعوة من نوعها يوجهها صحفى فى انجلترا .. الى ملك انجلترا .

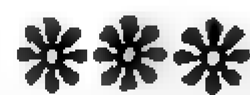
وفى اليوم التالى قال « دوسون » ان مجلس العموم يؤيد الوزارة .

وكتب فى افتتـــاحية « التايمس » تحت عنوان « الملك والامبراطورية » : « ان الحكومة اضطرت للتدخل

بسبب الفضيحة التى انتشرت فى الخارج عن علاقة الملك بصديقته » .

ودافعت « الديلى ميرور » عن الملك ، وكتبت تقول : « ان ٢٥ مليونا يريدون أن يعرفوا شروط الملك » ،وقالت: « ان الصحف الامريكية سممت الرأى العام العالمى ضد الملك ، واتهمت الحكومة بأنها التى وضعت صاحب الجلالة فى هذا الموقف الحرج » .

ودافع « بيفربروك » و « هارمثورث » و « برنارد شو » عن « ادوارد الثامن » دون جدوى فان «التايمس» عارضت بقوة الزواج العرفى ، وقالت : « سيعدل الدستور ليبيح للملك الزواج من امراة لا تستحق أن تكون ملكة » .



بدأت الاسهم تهبط فى بورصة انجلترا ..

وانخفضت مبيعات المحلات التجارية .. وكانت ، دواما ، تسجل رقما مرتفعا قبل أعياد الميلاد .

واصبحت الصحف لا تتكلم الا عن غرام الملك وزواجه .

وكانت عناوينها الرئيسية قبل ذلك عن الحرب الاهلية الاسبانية واعادة التسلح وعصبة الامم وحرب الحبشة .

وفى أمريكا قالت الصحف أن انجلترا شغلت بغزو الملك لقلب « واليس » بينما أنصار « هتلر » يغزون اسبانيا !

وجد بولدوين فى خطاب الاسقف هبة من السماء .

استدعى الملك رئيس وزرائه ليطلب منه حفظ الفضيحة فى أضيق نطاق ..

تم الموعد بطريقة سرية عن طريق عامل لاسلكى القصر وسكرتير رئيس الوزراء بدلا من الرسميات والاجراءات المعتادة .

سأل الملك رئيس وزرائه عن رأى حكومات الدومنيون فى فكرة الزواج العرفى .

فأجاب رئيس الوزراء :

ـ لا أحد يقر فكرة هذا الزواج ولا حل الا ان تترك فكرة الزواج او تعتزل العرش .

ورد الملك :

ـ لم أستبعد هذا الرد .

قال رئيس الوزراء :

ـ انك تخيب أمل الناس فيك .

قال الملك :

ـ ان « واليس » اجمل امراة فى العالم .

قال رئيس الوزراء :

ـ أرجو أن تراها كذلك دائما يا صاحب الجلالة ! .. ومهما حدث أتمنى لك السعادة .

روى « بولدوين » بعد ذلك ما حدث فى اجتماعه بالملك . قال :

ـ احسست بأن هذه السيدة تسيطر على الملك الذى ظل صاحب الجلالة يردد بمناسبة .. وبدون مناسبة .. .. انها اجمل امراة فى العالم !

ولم يقل بولدوين انه كان يصارع مسز « سيمبسون » لا الملك .. وأن الصراع بينه وبينها كان يدور حول أيهما يسيطر على الملك ؟

قرر الملك أن يعتزل العـــــرش فى هدوء ليتزوج « واليس » .

ولكن أصدقاءه نصحوه بأن يقاتل ويحارب ... قالوا له : خاطب الشعب أنه يحبك .

قرر الملك ان يذيع حديثـــــا فى الراديو يروى فيه القصة من الالف للياء .. وان يكون هذا الحديث بمثابة استفتاء على « واليس » .

اوفد ادوارد الثامن أحد مستشاريه الى « ريث » مدير الاذاعـــة ليقــول له ان الملك يريد اذاعة حــديث للشعب .

وكان مدير الاذاعة متدينا أكثر من بولدوين ، لا يذيع اغاني أو موسيقى راقصة يوم الاحد .. وكل الاحاديث فى ذلك اليوم دينية .. وهدد يوما أحد موظفيه بالفصل اذا جاء اسمه فى قضية طلاق .

.. وكان رد مدير الاذاعة على الملك هو :

ـ لا مانع من اذاعة الحديث بشرط موافقـــــــة « بولدوين » .. !!

عرض الملك فكرة الحديث الاذاعى على « بولدوين » فقال له :

ـ ان الملك لا يخاطب الشعب الا عن طريق وزرائه .. ويجب أن أعرض الامر على مجلس الوزراء .

.. اجتمع مجلس الوزراء ليقرر بالاجماع منع الملك من الحديث فى الراديو .. وأبلغ بولــدوين القرار .. للملك .. فكاد يجن بينما قال له رئيس الوزراء :

ـ أريد ان ترحل فى وقار بدلا من ان تترك الناس وراءك منقسمين !

كتب ادوارد الثامن فى مذكراته بعد ذلك يقول « وقف الناس حول القصر يحملون لافتـــــات تنادى بسقوط الاساقفة وتقول : حفظ الله الملك من مستر بولدوين ..

فكرت فى أن أخرج للشرفة وأخطب فى الجمـــوع القليلة التى تقف أمامى .. وكدت أخرج فعلا الى الشرفه لولا ان « واليس » أقنعتنى بالعدول » !!

وكان تشرشل قد أعد الحديث الذى سيلقيه الملك فى الاذاعة وكلماته تقول :

وجدت المرأة التى أحبها وأريد أن أتزوجها .. وهى لا تطلب أن تكون ملكة .. انها تكتفى بأى لقب مناسب !

واجتمع مجلس العموم ليبحث اقتراح عضو فى حزب العمال ، وهو نائب سبق له الطـــــلاق بتجديد الولاء للملك . ويطالب بعدم تهديد الملك أو استبداله بآخر الا بعد الرجوع للمجلس .

رفض بولدوين .. ووقف اللورد « اتلى » زعيـــم المعارضة يسأل رئيس الوزراء :

ـ هل هناك مشاكل دستورية تواجه الحكومة ؟

ويجيب بولدوين :

ـ ليس عندى أى بيان أقوله الآن .. لا توجد مشكلة فى الوقت الحاضر .. لا أستطيع ان أجيب .. سأتكلم فيما بعد .

ويقف تشرشل ليقول :

ـ هل يستطيع رئيس الوزراء أن يعطينى تأكيدا بأنه لن يتخذ اجراء لا يمكن العدول عنه الا بعد عرض الامـــر على المجلس .

وترتفع الاصوات من كل مكان تهاجم تشرشل :

ـ اقعد .. اجلس .. انزل .. لا تتكلم .

ويجلس تشرشل صامتا على مضض !

بينما يتوجه بولدوين لدوق يورك شقيق الملك ليقول له :

ـ كن مستعدا لتجلس على العرش اذا تنازل صاحب الجلالة .. اخوك !

ويشهد تشرشل اجتماعا عاما مساء نفس اليوم يقول فيه :

ـ سننشد الليلة « حفظ الله الملك » .. وسأنشده معكم بقوة اكبر !

وتكتب الصحف المؤيدة للملك بأن امبراطور النمسا ـ فرانسيس جوزيف سيتزوج عرفيـــــا من الســـيدة « شرات » .

وترد « التايمس » ان ملوك أوربا يتزوجون عرفيا لانهم ملزمون بالزواج من اسر معينة .. ولا يوجد هذا الالزام هنـا .

وجه اتلى زعيم المعارضة سؤالا لرئيس الوزراء عمـا نشرته الصحف عن الزواج العرفى فيقول بولدوين :

ـ ان السيدة التى يتزوجها الملك تصبح بمقتضى هذا الزواج ملكة تتمتع بكل الحقوق والامتيازات التى يخولها لها مركزها .. ولنمنع ذلك لابد من قانون يقر هذه الحالة الخاصة اى الزواج العرفى ـ ولست مستعدا .. لا أنا ولا رؤساء وزارات الدومنيون ولا المعـارضة ان نقدم للمجلس قانونا يسمح للملك بالزواج العرفى .

وتكتب إكبر محررة نسائية وهى الين ويلكنسون ـ وقد تولت الوزارة فيما بعد ـ مقالا فى جريدة « الديلى هيرالد » العمالية تقول فيه ان الزواج العرفى معناه ان تحمل هذه المرأة فى وحدتها شعورا واحساسا بأنها لا تصلح ملكة !!

وتقول الصحفية ان الزواج العرفى ضد كرامة المرأة وضد الاشتراكية .

ويجتمع أصدقاء الملك « بواليس » .

قالوا لها :

ـ ارحلى .. سافرى مؤقتا .. هذا هو الحل الوحيد .

وتسافر مع أحد مستشارى الملك الى فرنسا تحت اسم مستعار .. ولكن الناس يكتشفون شخصيتها .. وفى احدى مدن فرنسا يقول رجل فرنسى :

ـ الست .. هيه !!

وتتوقف « واليس » فى كل مدينة لتتصل بالملك تليفونيا .. تنصحه بالصبر وتهمس بأنها تحبه .

ويسمع الجرسونات ويذيعون ما سمعوه .. أو بعبارة أخرى يبيعون ما يتخيلون ان الملك قد قاله .. وتنشر الصحف وتبالغ ..

وفى غيابها ينهار الملك تماما . ويفقد قدرته على المقاومة . ويجتمع الصحفى اللورد بيفر بروك بتشرشل ويقول له :

ـ « الديك » لا يريد ان يحارب !

ويطلب الملك من « بولدوين » اصدار قانون خاص بأن

طلاق « واليس » أصبح نهائيا دون انتظار فترة الستة شهور التي ينص عليها القانون .. وذلك مع قانون آخر باعتزال الملك العرش برضاه وموافقته .

ويقول الملك اني بمجرد اعتزالي العرش سأصبح واحدا من الاسرة المالكة تسرى على قوانينهـــــا التى تقول بأن زواجي يجب أن يوافق عليه الملك .. ولا أريد الزام أخي بشيء .. وأخشى أن يتدخل أحد فيوقف سريان حكم الطلاق خلال الشهور الستة .

ويجمع بولدوين مجلس الوزراء ويقرر الجميع رفض اصدار القانون المطلوب .

ويصدم الملك .

***

من كان أبرقت مسز « سيمبسون » تقول أنها على استعداد للرحيل والانسحاب من هـــذا الموقف المؤلم وأصدرت بيانا نشرته جميع الصحف هذا نصه .

« حاولت خلال الاسابيع الماضية بكل ما أوتيت من قوة ، أن أبتعد عن كل شيء من شأنه أن يمس جلالة الملك ، أن يمس عرشه بأذى .. أني لا أزال كما أنا لم يغير الموقف الجديد شيئا من احســـــاسي نحو الملك والعرش ، اني على استعداد لان أقوم بأى عمل لحل هذه الازمة ولهذا فاني أعلن انسحابي من هذا الموقف الذى لم يؤد الا التعاسة والازمة » .

وتلقفت صحف الملك هذه البرقية واعتبرتها حلا . ونشرت ذلك بعناوين رئيسية توحي بأن كل شيء قـد انتهى وطلبت اعطاء صاحب الجلالة فرصة .

وهللت جريدة « الديلى ـ اكسبريس » التى يملكها اللورد بيفر بروك لبيان « واليس » فكتبت عنوانا عريضا يقول :

« نهاية الازمة » .

ولكن « « جوفرى دوسون » كتب مقالا ينضح سخرية يعلن فيه ان الموقف لم يتغير .. وان الحل يأتى من قلعة « بلفدير » حيث يقيم الملك ، لا من « كان » حيث تقيم صديقته !

واستمرت الحملة اسبوعا واحدا ، ظهر الملك من خلال سطور التايمس وأعمدتها كرجل عابث مستهتر ، سيؤدى وجوده الى تفكك عرى الامبراطورية .. مما اضطر الملك الى اعتزال العرش . لان رئيس الوزراء وجد صحفيا ـ هو صديقه وزميله فى النادى ـ يقف وراءه ضد رغبة الملك فى الزواج من المراة التى يحبها .

وصف ادوارد الثامن شعوره وهو يطالع التايمس فى هذه الايام السبعة فقال :

« حملت جريدة التايمس على شخصى فى لهجة تختلف كل الاختلاف عن ذلك الاسلوب المهذب الذى كانت تسلكه كلما تحدثت عن الملك الشاب ، بل تناست كل المديح الذى كالته لى » .

وقال :

« تحولت الصحافة المعتدلة فى يوم واحد الى صحف مندفعة تردد فى قسوة ما يوجهه رئيس الوزراء من الاتهامات الى الملك » .

واعترف « دوسون » فى مذكراته ـ وقد نشرت فى

كتاب وضعه صديقه « جون ايفلين رينش » .. « انه فى تلك الفترة اجتمع برئيس الوزراء أكثر مما اجتمع به اي صحفي آخر .. وان صحف انجلترا جميعها كانت فى انتظار اعلان اتجاه التايمس لتتبعها » ..

ووجد ستانلى بولدوين رئيس الوزراء ان البيان الذى أصدرته « واليس » من « كان » وأعلنت فيه استعدادها للانسحاب .. هـذا البيان لا يغير من حقيقـة الموقف شيئا وان أدوارد الثـامن يجب أن يعتزل لان انسحاب « واليس » وحدها لا يكفي . لقد هدمت سمعة الملك وانهارت كرامته وأصبح من المحتم عليه أن يرحل .. الى الابد ..

بدأ أنصار « بولدوين » يتخـذون خطوات سريعة وحاسمة ..

اجتمع جوفرى دوسون رئيس تحرير جريدة«التايمس» بأرنست سيمبسون « الزوج السابق للسيدة واليس » .

وبدأ مجلس العموم يبحث تعديل قانون الطلاق للنص على أنه يجوز الحكم بالطلاق اذا ارتكب أحد الزوجين خيانة مستمرة .. اما الخيانة لليلة واحـدة فلا تعتبر مبررا كافيا للطلاق !!

وفى نفس الوقت تقدم كاتب محام اسمه « فرانسيس ستيفنسون » الى القضاء ببلاغ قال فيه انه يعـارض ويعترض على الحكم بالطلاق الذى صدر لصالح السيدة « واليس » . ومعروف ان حكم الطلاق لا يسرى الا بعد ستة شهور .. اذا لم يتقدم معترض قانونى خلال تلك الفترة .. وها هو ذا معترض قد تقدم .

وانهارت أعصاب الملك وهو يسمع نبأ البلاغ بعد ان عرف ان الكاتب يعمل فى مكتب محام اعتاد « بولدوين » أن يعهد اليه ببعض شئونه القانونية الخاصة .

وأدرك ادوارد الثامن ان « واليس » لن تصبح فى يوم من الايام زوجته سواء ترك العرش أو ظل جالسا عليه .

واستمر بولدوين يضرب فى كل اتجاه ..

أوعز الى محامى « واليس » بالسفر الى « كان » لاستشارتها فى بلاغ الانسحاب .. وكلف بولدوين المحامى بأن يعرف هل « واليس » تزمع الانسحاب حقيقة أم انها مناورة جديدة .

أعد رئيس الوزراء طائرة خاصة يستقلها المحامى فى رحلته الى « كان » .

ولما كان المحامى مريضا ويخشى على قلبه فقد أوفد رئيس الوزراء معه طبيبا خاصا لعلاجه اذا استدعى الامر .. وكان الطبيب متخصصا فى « أمراض النساء والولادة » .. ولم يعرف حتى الآن ما اذا كان اختيار هذا الطبيب تم مصادفة أم ان « بولدوين » تعمد هذا الاختيار لاثارة ضجة جديدة وفضيحة جديدة لصديقة الملك ! ..

... وبالفعل قامت ضجة لم تخطر للملك على بال .

وصل الطبيب الى « كان » . وعرف الصحفيون أن القادم طبيب بريطانى لامراض النساء والولادة .. وجنح الخيال بعض الصحفيين فقالوا ان مرافق الطبيب ـ أى كاتب المحامى ـ لابد انه طبيب تخدير .. ومعنى ذلك

ان الاثنين قادمان لاجراء جـــراحة عاجلة للســيدة « واليس » .

باختصار .. كانت تلميحات الصحفيين قاسية وعنيفة ومؤلمة حطمت ما بقى من أعصاب الملك وهو يقرأ انه رأى ان يتخلص من « ثمرة » الغرام !!

اتصل ادوارد الثامن « بواليس » ليقول لها أنه مصمم على التنازل على العرش وان الاجراءات مستمرة .

وترك الملك سماعة التليفون لمحاميه الخـــاص ليؤكد « لواليس » النبأ ويطلب اليها انتظار صاحب الجلالة ..

ورغم هذا كله قصد « بولدوين » الى القصر ليقابل الملك ويقول له :

ـ ان الوزراء يرجون أن تعدل عن الزواج وكـذلك التنازل عن العرش .

وفهم الملك ان وزراء انجلترا عازمون على التمســك حتى النهاية بالتقاليد الشكلية وأنهم لا يعارضون بقـاء « واليس » صديقة وعشيقة .. فحسب .

وجد « بولدوين » أنه لم تبق فى الملك بادرة واحـدة تدل على روح القتال .. كان يدخن بافراط ســجائر أو « غليونا » ويضع رأسه بين ذراعيه . وينشر المنديل أمامه ليجفف به العرق الفـــزير المتساقط فى شهور ديسمبر أو فى عز البرد !!

نشأت بعد ذلك مشكلة وراثة العرش .

اقترح البعض ان تجلس الام على العرش بدلا من ابنها العاشق واقترح آخرون مجلس وصاية برئاسة الملكة الام حتى تبلغ « اليزابيث » الملكة الحـالية سن الرشد ..

واتفق فى النهاية على ان يحكم انجلترا « دوق يورك » شقيق الملك الذى اسرع الى أمه يبكى كالاطفال قائلا :

ـ أخى مصمم على التنازل لى ..

***

عرف ان الملك سيتنازل على العرش فأخذت صحافة امريكا تهاجم انجلترا وتعتبر ما جرى اهانة لمواطنة أمريكية وهى « واليس سيمبسون » .. بينما أصبح الامر سخرية فى انجلترا .. فقد شكت احدى الزوجات من ان زوجها اعتدى بالضرب وامام ضابط الشرطة تعهد الزوج بألا يتحدث مع زوجته عن « واليس سيمبسون » باعتبار ان المناقشة حول الموضوع هى سبب « العلقة » !

وفى صباح الخميس ١٠ ديسمبر ١٩٣٦ اجتمع مجلس العموم البريطانى لسماع وثيقة اعتزال الملك عن العرش .

بدات الجلسة بالطريقة الانجليزية المتادة وبالبرود الانجليزى التقليدى .

أجاب الوزراء على خمسين سؤالا برلمانيا فى مسائل تافهة لم يستمع اليها أحد ... قبل أن يبحثوا مشكلة الجالس على العرش والذى يريد اعتزال العرش .

ثم وقف ستانلى بولدوين بعد ذلك ليقول ان عنده رسالة بخط صاحب الجلالة سلمها لرئيس المجلس ، يعلن ادوارد الثامن انه لا يستطيع أن يقوم بواجبه ولذلك أعتزل العرش ليتولاه أخوه بدلا منه . وقد وقع على وثيقة التنازل أشقاء الملك الثلاثة ..

وروى رئيس الوزراء للمجلس قصة مقابلاته للملك والاحاديث التى دارت بينهما وأخذ ستانلى بولدين يؤكد أنه يحب صاحب الجلالة المستقيل .

وتكلم اتلى رئيس حزب العمال وسينكلير رئيس حزب الاحرار فأيدا رئيس الوزراء .

وارتفع صوتان فقط فى مجلس العموم دفاعا عن ادوارد الثامن .

وقال أحد الاعضاء :

ـ هذا عيب .

وكان أول قرار للملك الجديد هو منح لقب دوق وندسور .. للملك السابق .

وكان ادوارد الثامن قد طلب ان يعطى لقب الاخ الاكبر للملك .. ولكن رفض طلبه .. كما رفض الملك الجديد منح أى لقب للسيدة واليس .

وطلب دوق وندسور أن يذيع حديثا بالراديو على الشعب البريطانى بمناسبة اعتزاله العرش فوافق رئيس الوزراء وأصر ـ طبعا ـ على ان يعرف نص الحديث .

وقد رأى أن يقدم الدوق للشعب مدير الاذاعة البريطانية « ريث » .. الذى قدم الدوق للناس ثم أراد أن يغادر الحجرة فاصطدم بمنضدة .. وعلقت بعض الصحف على ذلك فى اليوم التالى فقالت أن « ريث » .. أغلق الباب وراءه باحتقاره حتى لا يستمع الى صوت الملك الذى أهمل واجباته ورسالته ..

وكان أهم ما جاء فى خطاب الدوق أنه رأى استحالة قيامه بواجبه دون أن تكون بجواره المرأة التى يحبها ..

والحقيقة ان الملك ـ بخطابه ـ استطاع أن يسترد كثيرا من عطف الناس ..

توقفت دور السينما والمسارح أثناء اذاعة الحديث ليتابع الناس خطاب الملك ..

وفى بعض الدور تلا مديرو السينما والمسارح على الناس ملخصا للخطاب .

وفى نيويورك قالت أكبر شركة للتليفون انه لم ترفع سماعة التليفون فان الناس شغلوا بسماع الخطاب عن أى شىء آخر .

وفى مدينة « كان » جلست واليس تستمع لنهاية ملك وحولها كل خدم القصر ..

وكان اللورد « بيفر بروك » (يشد) شعره لان الملك شكر فى خطاب الوداع ستانلى بولدوين وأشاد بجهوده !

اما جوفرى دوسون فقد أعلن ان خطاب الملك كان مؤثرا ولكنه كتب فى اليوم التالى يقول :

« انتهت الايام السوداء » .

وجاء مقال « دوسون » ليعلن :

نحن نؤيد رئيس الوزراء لانه بقى فى منصبه يتحمل ضغطا قويا خلال الشهرين الماضيين .

ان دوق يورك — الملك الجديد — سيترك حياته المنزلية الهادئة ليتحمل قسوة الموقف الطارىء وهو أن يلى العرش بدلا من أخيه الحى ، ولكن الامبراطورية كلها تدعو له .

وهكذا أنقذت الصحيفة الامة من الانقسام بعد رحيل الملك ، لانها جذبت عواطف الجمهور نحو الملك الجديد .. المسكين !! لا الملك الضليل ، الشريد .. الطريد .

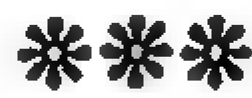
ولكن هل كان الشعب الانجليزى يعرف « دوسون » ويعلم أنه الرجل الذى عزل ملكا عن عرشه .

وهل كان هذا الصحفى يكتب ليجد من الجماهير تشجيعا واشادة بجهده كما يفعل الصحفيون فى كل مكان وفى كل زمان ..

يقول « دوسون » انه لم يوقع بامضائه خلال ربع قرن من عمله كرئيس لتحرير « التايمس » أى مقال بامضائه .

ولم يقل يوما كلمة « « أنا » اتباعا لسياسة الصحيفة وايمانا بمبدئها فى ان الكاتب المجهول كسب للشعب الذى يحصل على مناقشة حرة بعيدا عن الانانية التى يمكن فصلها عما يكتبه كاتب يذكر اسمه ..

ولذلك كانت نصيحة « دوسون » لكل صحفى هى .. « لا تهمك الشهرة ولا يعنيك أن تكون معروفا ، أو مجهولا . ولا تطالب بأن يعترف الناس بما حققت .. وانما المهم أن تحاول آداء الواجب وأن تفعل الحق .. وهذا وحده ينبغى أن يكون العامل المؤثر فى حياتك » .



غادر الملك دوق اندسور بلاده على ظهر اليخت «فيورى» ـ ومعناه الغضب ـ الى الابد ولم يعد مع واليس الى بريطانيا الا بعد وفاته ويومها ـ فقط ـ التقت الاسرة المالكة بزوجة الملك السابق .

ومرت السنوات وتكررت قصة الغرام فى قصر باكنجهام .

اما البطلة فى هذه المرة فهى الاميرة مرجريت ابنة الملك الذى جلس على العرش بدلا من أخيه دوق وندسور . وهى فى نفس الوقت شقيقة اليزابيت الثانية ملكة بريطانيا .

كانت أول صحيفة فى انجلترا نشرت قصـــة غرام الاميرة « البيبول » الاسبوعية .

قالت ان الكابتن الطيار بيتر تاونسند يعمل فى القصر وقد تزوج وطلق ، وله طفلان أعطيت له حضانتهما .

وكتبت « البيبول » تقول :

« حان الاوان ليعرف الرأى العام حقيقة الاشاعات التى ترويها صحف أوربا وامريكا عن غرام الاميرة بالطيار وانها تريد أن تتزوجه . ان هذه القصة كاذبة ولم يفكر احد فى هذا الزواج أو يسعى اليه ، وهو مستحيل .. وطالبت الجريدة باصدار بيان رسمى ينفى النبأ .

وكانت البيبول تكذب ان الاميرة أحبت الطيار وتحبه.

وكان يمـكن أن ينتهى الامر ببيان ســفير من قصر باكنجهام الملكى يعلن أن النبأ كاذب .

ولكن صحيفة « الديلى ميرور » وجـدت ان الامر لا يحتمل السكوت وانه يجب أن يعـــرف الناس كل ما يجرى ، حتى نبض القلوب وخفقاتها ، ولذلك أسرعت الصحيفة لتنشر أغرب واجرأ استفتاء من نوعه .

قالت تحت عناوين كبيرة :

« ... مطلوب رأيك ...

.. الـــكابتن بيتر تاونسند ٣٨ سنة يحب الاميرة مرجريت ٢٢ سنة . ويريد الزواج منها فهل توافق على هذا الزواج ؟ » .

تلقت الصحيفة بعد أربعة أيام ٧٠ الف خطاب من القراء منهم ٦٧٩٠٧ أيدوا الزواج وعارضه ٢٢٣٥ .

ولكن صحافة انجلترا هبت صارخة تحتج على هذا الاستفتاء ..

وكتب بعض رجال الدين يقولون .. : « اننا نحتج على التدخل فى شئون الاسرة المالكة » .

فقــد أحرجت « آلديلى ميرور » رجال الدين الذين لا يوافقون على زواج رجل مطلق .

وفتحت الجريدة بهذا العمل الباب على مصراعيه امام الاخبار المضللة .

واجتمع مجلس الصحافة البريطانى يوم ٢١ يوليــو ١٩٥٣ ليناقش الامر ويبحث هذا الاستفتاء باعتبار إنه ضد تقاليد الصحافة البريطانية .

انتقد المجلس تصرف « الميرور » .

والجدير بالذكر ان رئيس المجلس اللورد « استور » المسئول عن جريدة « التيمس » أنذر — في صحيفته الاميرة بعد عامين من اجتماع المجلس بأن تترك الطيــار أو تترك مكانها فى القصر باعتبـــــارها الوريثة الثالثة للعرش .

والجدير بالذكر أيضــــــا أن رئيس تحرير جريدة « اليوركشير بوست » وهو عضو فى المجلس ايضا وجه نفس الانذار للأميرة بعد ٢٤ شهرا .

أما العضو الثالث في مجلس الصحافة فكان يجب أن يكون المتهم لا القاضي لانه رئيس تحرير جريدة «البيبول» وهى أول جريدة نشرت نبأ غرام مرجريت .

... وظل حب الاميرة حديث الناس فترة ثم مل الناس الكلام عنه وقاطعت الصحف أخباره لان الاميرة بقيت خلال هذه الفترة مترددة .. تحزم أمرها يوما على الزواج ممن تحب .. وتتراجع ، يوما آخر ، تحت ضغط شقيقتها الملكة وزوجها ورجال الكنيسة .

ومضى عامان ارتفع خلالهما ترمومتر الحب .. وهبط حتى جاء وقت أصبح فيه محتما على الاميرة ان تختار بين قلبها وواجبها .. بين حبيبها ووراثة العرش حتى عادت من رحلتها فى البحر الكاريبى .

والتزمت الصحف البريطانية جميعا الصمت حتى بدأت جريدة « الصانداى بيكتوريال » احدى صحف مجموعة « الديلى ميرور » الجولة الثانية .

أعطت اشارة المرور الخضراء للصحف الاخرى عندما كتبت يوم ٦ مارس عام ١٩٥٥ تقول : « على الاميرة ان تختار » .

وطلبت « الميرور » من مراسلها فى بروكسيل ان يتحدث الى الكابتن « بيتر تاونسند » عن رأيه وموقفه .

قال الطيار للصحفى : « لا أريد أن أتكلم .. ان شخصا واحد هو الذى يستطيع أن يتكلم الان .. هو وحده صاحب الكلمة .. وهى الكلمة الاخيرة » .. ويعنى بذلك الاميرة .

وللمرة الثانية فى قصة هذا الغرام ، عادت الصحف البريطانية تحمل على « الميرور » فقالت صحيفة الكنائس البريطانية « ان كل ما نشرته « الميرور » لا يدل على أن الاميرة تريد هذا الزواج .. ان كل ما قيل مجرد احداس وتخمينات .

ولم تجر مناقشات بشأن هذا الزواج مع الكنيسة ونحن نرى بعد رحلة الاميرة الموفقة ان ما نشر لا يتفق مع الكرامة فى شىء » .

ردت « الميرور » فقالت لا يوجد سبب فى الارض ـ

او حتى فى السماء ـ يمنع الاميرة من ان تكون الوريثة الثالثة للعرش اذا تزوجت .

ولكن الصحف ظلت تحمل على « الميرور » وتهاجمها وتنتقد كتاباتها .. واقتصر دفاع « الميرور » بأنها لا تتحيز لزواج الاميرة من « تاونسند » ولا تعارض هذا الزواج . وانما كل موقف الجريدة يتلخص فى انها ترى أن الاميرة وحدها التى تختار وأن الحب الحقيقى هو الذى يجب أن ينتصر دون تدخل أحد .

وعلى هدى هذا الاتجاه قالت الجريدة تحت عنوان ضخم « تحركى يا مرجريت .. استقرى .. اتخذى قرارا لقد أصبحت فى الخامسة والعشرين » .

ووقفت باقى الصحف ضد الميرور وضد الحب فقالت « الديلى اسكتش » « القصة كلها من ألفها الى يائها كذب » ! ..

وقالت « النيوز كرونيكل » جريدة حزب الاحرار : « انحدرت الميرور الى أعماق بعيدة فى سوق الاخلاق على حساب فتاة لا تستطيع ـ بسبب مركزها ـ أن تدافع عن نفسها حتى لو أرادت ذلك » .

أما جريدة « اليوركشير بوست » فكتبت : « وافقت الملكة الام على لقاء بين الاميرة والعاشق » .

وصدر بعد ذلك بيان رسمى يقول ان ما جرى هو من شئون الاميرة الخاصة .

والغريب فى الامر انه بعد ذلك بشهور ، وعلى وجه التحديد فى شهر أكتوبر ، اتخذت الصحف المعارضة « للميرور » موقفا يشبه موقف « الميرور » نفسه فقالت

اليوركشير بوست « ان مسألة ولاية العرش بحثت وهي مسألة تهم الناس جميعا والاثنان المعنيان بالامر ـ الاميرة والطيار ـ يواجهان مشـــكلة خطيرة ويجب أن يدركا مسئوليتها أمام الامة .. وان الخطـوبة قد تتم بعـد فترة » .

وكتبت « الديلى تلجراف » : يلتقى الطيار والاميرة ستة أيام كل اسبوع . ومعنى ذلك ان الاتفاق تم بشأن عقد الخطبة .. والتكهنات كثيرة وعلى أية حال فـلا ينبغى التعليق على الشئون الخاصة بالاسرة المالكة » .

وبدأت الصحف تلح فى ضرورة اصدار بيان رسمى .. واعلان أمر الغرام الملكى بصورة رسمية فقالت صحف اللورد « بيفربروك » : لا يهم من الذى يقرر نهاية هذا الغرام ولكننا وصلنا فى قصة الحب هـذه الى مرحلة ستصبح بعدها أضحوكة العالم كله .

وهكذا .. بعد عامين رددت الصحف كلمات «الميرور» فكتبت مجلة « الايكونومست » الوقورة : « ان الاميرة فى آخر لحظات رحلتها العاطفية .. وفى هذه اللحظات ينبغى أن تقرر موقفها بصفة نهائية فاذا أرادت أن تتزوج الطيار المطلق فالضمير الديمقراطى يحتم عليها أن تفعل ذلك .. ولكن الامر سيكون مؤسفا ومؤلما » .

وانتهى الغـــرام الملكى ببيان ملكى من القصر يوم ٣١ أكتوبر يعلن ان الاميرة اختارت واجبها وداست قلبهـــا ومشت فى موكب وراثة العرش بدلا من أن تمضى فى موكب الغرام .

وكان واضحا ان الاميرة تعرضت لضغط هائل وانها

ظلت تقاوم التيارات الملكية والكنائسية خلال مدة تزيد عن عامين ثم رضخت فى النهاية .

وعندما أعلن قرار الاميرة وقفت صحيفة أخرى وقورة بجانب « الميرور » وهى مجلة «النيوستيتسمان» فقالت : « وظيفة الصحافة اطلاع الرأى العام على الحقائق ، والذين يريدون أن يحرموا الناس من حقهم الديمقراطى فى معرفة أخبار القلب الملكى مخطئون » .

وتزوجت مرجريت بعد ذلك .. أطاعت فى هذه المرة قلبها وتزوجت مصورا ينتمى الى أسرة الصحافة .. ونزل القصر الملكى على رأى الاميرة فالمصور رجل لم يسبق له الزواج .. أو الطلاق فرضيت عنه الكنيسة ثم رضى عنه القصر ومنحه لقبا .. ولم تسكت «الميرور» ولم تصمت أبدا بل هاجمت المصور لانه قبل اللقب وظلت سنوات تكتب اسمه العادى « تونى » وترفض أن تكتب انه السيد اللورد ؟! .. لان الصحيفة والمسئولين عنها كانوا يتمنون دائما أن تتزوج الاميرة واحدا من الشعب !!

وفرض الحب نفسه ، مرة ثالثة ، على الاميرة مرجريت أحبت رجلا ثالثا ، وطلبت الطلاق من المصور الصحفى .. وطلقت منه فعلا .. وبقيت بغير زواج تنشر الصحف بين الحين والحين تقلبات قلبها وأخبار غرامها باعتبارها أنباء عادية لا تهز العروش ..

أما دوق وندسور فقد بقى ٣٦ عاما حتى مات عام ٧٢ وهو يحب « واليس سيمبسون » !!

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٩١ ـ ٨٣
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٠٥٣ ـ ٣

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

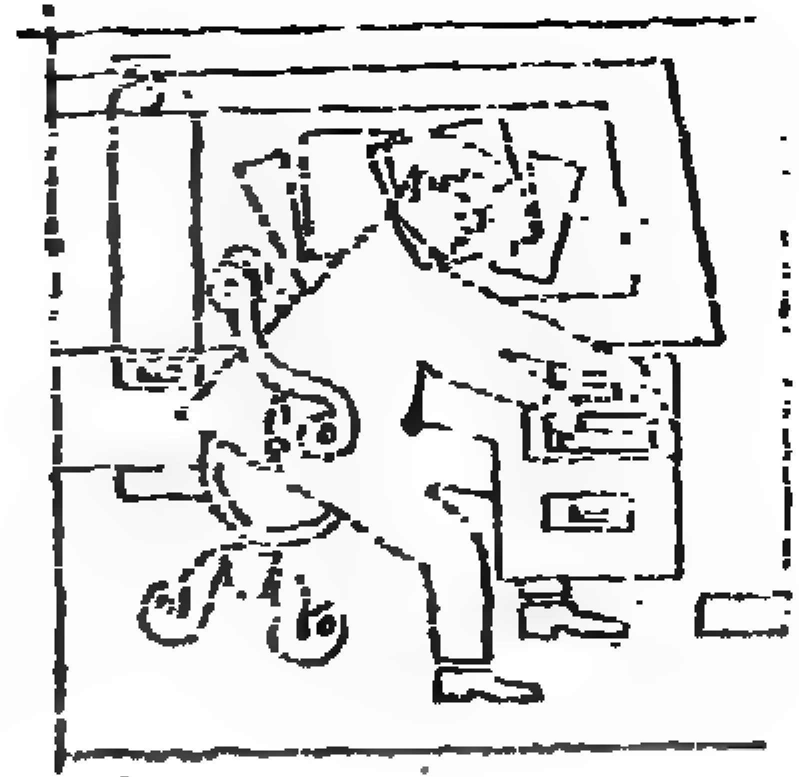
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : HE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٢٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريالات ، السودان ١٠٠٠ مليم ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتيما ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٢٥٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنس ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٨٠ بنى ، أديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات، أثينا ١٠٠ دراخمة، فينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ ركات ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥فلورينات .



هذا الكتاب

بدأ محسن محمد عمله الصحفى فى مدينة الإسكندرية التى شهدت ميلاد معظم الصحف الكبرى فى مصر خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين •

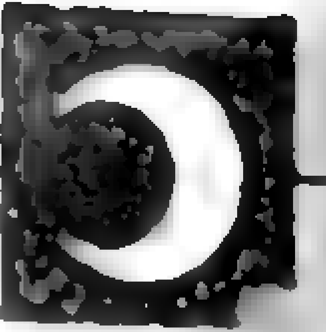
انتقل بعد ذلك الى القاهرة حيث تولى عدة مناصب كبرى فى الصحف اليومية والأسبوعية • وهو يشغل حاليا منصب رئيس تحرير جريدة الجمهورية ورئاس مجلس ادارة دار التحرير ، وله الى ذلك نشاط أدبى شمل مجالات فكرية متنوعة ، من أهمها كتاباته التاريخية المعززة بالوثائق النادرة ، وقد كان لكتبه فى التاريخ والصحافة صدى واسع عميق لدى القراء فى مصر والبلاد العربية •

وقد أصدر كتابين عن الصحافة ، الاول : « حكايات صحفية » عام ١٩٥٤ والثانى : « الصحافة قصص ومغامرات » عام ١٩٨٢ •

وهذا كتابه الثالث يجول فيه بين صحف العالم يقدم قصص النجاح والفشل ، والعمالقة والأقزام ، وأشهر المعارك الصحفية والسياسية التى لعبت فيها الصحافة الدور الأول والأخير •

ومحسن محمد وهو يقدم كتابه هذا الى قارئه ، يقدم اليه مادة أدبية وصحفية ، وزاد فكريا ، بأسلوب سهل جميل شائق ، ويضيف الى المكتبة العربية كتابا جديدا هى فى حاجة اليه •

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الجريمة والشباب

عبد المنعم الجداوى

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٥ - صفر ١٤٠٤ - نوفمبر ١٩٨٣

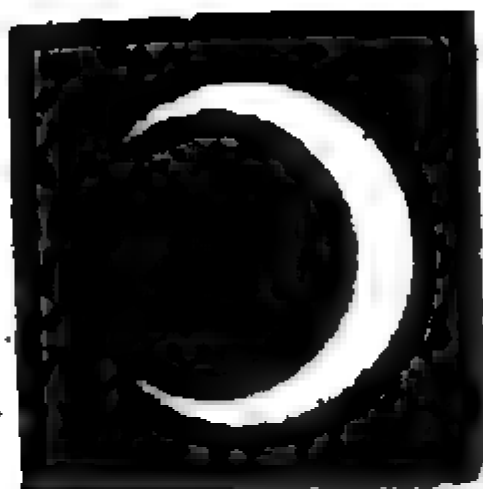
No. 395 November 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



دار الهلال الجميع

الغلاف بريشـــــــة
الفنانة ســــميحة حسنين

عبد المنعم الجداوي

الجريمة والشباب

دار الهلال

مقدمة

... لا يملك العالم الا أن ينقسم على نفسه .. أمام موجات العنف التى تجتاح أطرافه ، وقلبه ، وكأنه تحول الى انسان فقد آدميته .. تحت تأثير مهيج شرس .. عطل فيه قدرة العقل على اعتقال كل نزعاته الشريرة .. فانهال على جسده طعنا ، ولطما ، وتقطيعا .. كلما سال الدم من اعضائه .. هلل فرحا .. وهو يخور ، وينزف ، ويسقط على الارض .. يهذى من الالم وهو يموت .. !

وتموت معه كل اعضائه الشريرة والطيبة .. ولعل الاهتمام الجاد من العلماء والمصلحين ، والفقهاء والشراح الذين يعكفون على العلوم الانسانية .. يمثلون فزع الاعضاء الطيبة فى مجتمعنا .. مما قد تفعله بهم الاعضاء الشريرة .. التى تحت عشرات الاسباب اندفعت تمارس العنف كآلات جهنمية .. لا مشاعر ، ولا أحاسيس ، ولا انسانية .. !

والعنف عند فريق من هؤلاء العلماء .. ليس غريزة كامنة فى النفس .. تفجرها الاسباب الخارجية .. دون السيطرة عليها .. ! وانما هو فى رأيهم ردا هستيريا على ضغوط صادرة من مجتمع أحبط آمال الشباب ، وبعثر

امانيهم ، وسحقهم بلا رحمة .. فانفجروا دفاعا عن كل ما يعتقدون ان المجتمع أفقدهم اياه .. وفى يأس يعمى ابصارهم عن النتائج .. فهم لا يهتمون بها .. بقدر ما توجههم وتسيطر عليهم غريزة الانتقام .. !!

متى يصبح القتل مفخرة ..؟

ويرى « كونراد لورنتس » وهو عالم نمساوى « ان العنف كامن فى البشر منذ أن كان الانسان فى الغابة .. وان الحماس للعنف يبلغ مداه فى أوقات الاستعداد للحروب ، وحينما تتأهب الجماعات لثورات دامية .. حيث تصبح المارشات العسكرية ، والاناشيد ، وسيلة لابتزاز الكامن فى الاعماق من شروره وتتحول الطبول العالية الى أيدى تهز غريزة القتال من مكامنها : وتنميها ، وتوقظها بحقنها بكافة مشاعر الاستفزاز .. فاذا ما سيطرت بوحشيتها على صاحبها .. أصبح القتل مفخرة ، والوحشية تضاف الى اسم الانسان ، فترفع من قيمته ، وتزيده زهوا ، وينادى بعضهم البعض الوحش فلان .. الضبع فلان .. !

عندئذ يصبح العنف ممثلا رسميا على المستوى الجماعى .. فاذا ما أرجعناه الى عوامله الاولية ... وجدناه نابعا من العنف الفردى . المتكون من الهمجية ، والشراسة الكامنة فى الافراد .. التى يسطع لهيبها حينما تسقط الكوابت عن الجميع ، ويصبح القضاء على الآخرين عملا مقدسا تهون فى سبيله كل القيم .. !

وتفقد المثل العليا الاخرى معانيها ، وترى العيون ،

وتحس القلوب انه فى وسع الانسان ان يكون نبيلا كريما ، وهو يرتكب أحط الاعمال وحشية وأشدها ضراوة ..!

التوازن والردع والعدوانية ..

اما « أريك فورم » المحلل النفسى الامريكى ، وصاحب اشهر المدارس فى دراسات السلوك الانسانى ، والظواهر الاجتماعية .. يرى ان العنف غير مطبوع فى قاع الانسان ، وانما هو تشويه فى الطبع والشخصية البشرية .. يكتسب اكتسابا دون تدخل الغرائز ، وهو يصر على انه ظاهرة حضارية ، وليست طبيعية .. واثبت ذلك فى تجاربه التى قام بها .. حيث اكد ان وظائف الدماغ من شأنها أن تعمل كصمام أمان مهمته اقامة التوازن بين النزعات العدوانية والعوامل الرادعة لها ..والقضاء على ديناميكية العنف ، وعرقلة انطلاقه..وهو يرى ان العنف يتجمع ، ويحتشد ، ويتهيأ للتصدير الى الخارج .. كلما تعرض الانسان أو الحيوان لخطر داهم يهدد حياته .. او مصادرة هذه الحياة .. ! فاذا ما زال الخطر . تراجع العنف وتبخر .. وعليه فالعنف فى نظره لا يزيد عن اجراء وقائى .. يولد لدفع الخطر عن النفس التى يثيرها الذعر من الفناء .. !

ويرى « أريك فورم » أن المجتمعات البشرية ، هى المسئولة عن أفرادها الذين يولدون فيها ، ويعيشون على القيم الحضارية ، والمثل التى تعتنقها .. فاذا ماحدث انقلاب أو تغيير فى هذه القيم تطلب سلوكيات جديدة .. أستعصى اخضاع المجتمع كله لهذا التغيير ، وظلت القيم

القديمة .. كأنها تشوهات خلقية ويشب الصراع بين القديم القائم ، والجديد المطلوب .. ونستطيع أن نضيف ان كبار السن فى وسعهم أن يتقولبوا ، ويتكيفوا كما يطالبهم المجتمع الجديد .. نظرا لخبرتهم الطويلة ، وحنكتهم ، وحكمتهم فى تفادى الصدمات .. والدول النامية هى اكثر الدول عرضة لذلك .. الا أن الشباب ، وهم لم تدركهم حكمة الشيوخ بعد ــ فانهم ينساقون مع الغضب ، الذى لا يلبث ان يتحول الى عنف ــ ثم يذهبون وقودا لنيران أوقدها المجتمع .. !!

اهل الثقة او اهل الخبرة ..؟

ومجتمعنا فى الثلاثين سنة الاخيرة .. التى انضجت هــذا الجيل مادة الكتاب ، تعرض لاكثر من انقلاب سياسى ، وثقافى ، واجتماعى ، وبالتالى جاءت وجدانياته مشوهة .. مشوشة .. مفزعة الصورة كوجه حسناء شوهته مادة كاوية .. اتت على ملامحها فمسختها ، وابقت على العينين ذات النظرات النفاذة .. !

وانعكس كل هذا الصعود ، والهبوط ، والانتفاض ، والانكماش ، بعواصفه ، وزوابعه ، ومخاوفه على الذين عاشوها اطفالا كانوا أو بالغين .. فالابيض الناصع البياض اليوم .. يصبح غدا ، وبدون مقدمات أسود ، والذى لا يعترف . تفقأ عينه حتى لا يرى بالمرة ، وتفشى الكذب ، والنفاق ، وحاول قادة الثقافة ، واساتذة الجامعات ان يقفوا فى وجه القوة الغشوم المكتسحة ، فجرفهم تيار التطهير ، وخرست الالسنة ، وبرز شعار رهيب . جثم

كالسيف المسلط على الاعناق .. ينادى « أهل الثقة اولا قبل أهل الخبرة » .. وفرض هذا الشعار نفسه على كل المرافق ، ومناحي الحياة .. ودفعت البلاد الثمن بعد ذلك ، ولم يخص العذاب أهل الثقة فقط ، ولا أهل الخبرة فقط ، وانما سحق الجميع فى نكسة ١٩٦٧ .. بعد عشرات الانذارات التى لم تفلح فى بعث الامة التى تمزقت شيعا .. بعضها يسكت خوفا ، وبعضها يتربص طمعا ، وفريق ثالث اعتنق اللامبالاة .. وهو فى حالة رفض للفريقين .. !

واحترفنا جميعا وبلا استثناء صناعة النكت ، والفكاهات .. وراجت قصة « مدرسة القرود ، والقرداتى » الذى يذبح « الجدى » ليتعلم بقية القرود الرقص دون معارضة .. وبعدها أسطورة السلطان الذى يقع ضحية نصاب يستولى على ذهبه مقابل عباءة وهمية يصنعها له من الحرير .. لكنها تحتوى على سر يجعل أبناء الحلال فقط هم الذين يرونها أما أبناء الحرام فلا يرونها .. ويجيء النصاب بصندوق فارغ ويبدأ يحبك كذبته .. فيتصور أنه يمسك بعباءة وهمية يضعها على كتفى السلطان ، ويدور حوله من الامام ومن الخلف .. يضبط اطرافها على السلطان ، ويفاجأ السلطان بأنه أول أبناء الحرام .. فيحاول أن يتظاهر بأنه يراها ، ويلبسها، وتتبعه كل الحاشية ، وهكذا يتقاضى النصاب باقى الثمن ولا يجرؤ واحد على أن يقول الحقيقة .. حتى لا يتهم بأنه ابن حرام .. ! والاسطورة لها مغزاها العميق المحزن ..! وهو أن السلطة لا تعطى آذانها الا للنصابين ، ولا تجمع حولها الا كل منافق كذاب .. لا يرى الا بعينى السلطة ، ولا يسمع الا بآذانها .. !

وقد يكون للسلطة الحق فى الشعار الذى رفعته ، وقد يكون البعض على حق فيما رآه . فليس هذا مجال الفحص ، والتمحيص ، ولكننا نبحث خلال ذلك كله عن الشباب .. الذى راح يطحن بين نظام يناديه ، ويصور له قيادات يفرضها عليه ، ويطلب منه الطاعة لها .. ثم بين يوم وليلة يجد هذه القيادات مخلوعة ، وملطخة بالطين ، ومطلوب منه أن يلعنها ..!

وآباء لاذوا بالصمت ، واذا تكلموا همسوا بالنكت التى تساعدهم على مضغ آلامهم ، ولا شىء غير ذلك .. وتتسع الفجوة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويدير كل منهم احاسيسه للآخر .. واصبح الابناء أيتاما لآباء أحياء .. وانعدمت اللغة بينهم ، لم يعد يجمعهم لا هدف مشترك ، ولا وحدة فى الفكر ..! وسقطت الابوة .. تحت عشرات العوامل ، وعاش الجيل يتيما .. !!

انتصار الفقراء !

وحمل التعليم المجانى آلاف الظمأى الى الجامعات ، واقتحمت طلائع المحرومين الكليات التى كانت قاصرة على أبناء الاغنياء . فقد كانت شروطها القديمة تنص صراحة على أن يكون ولى أمر الطالب لا يقل ما يملكه عن كذا .. وذلك لان هذه الكليات تعطى لخريجيها سلطات واسعة، ورزقا فى أضيق الحدود .. ولكن الفقراء فى انتصارهم لم يفطنوا الى هذه المصيدة .. وفوجىء الابناء بأنهم طلبة فى الجامعات .. والتقوا هناك بما صدم احاسيسهم

ومشاعرهم .. فقد التقوا مع بقايا الاغنياء وجهـــــا لوجه ؛ واصطدموا بكل ما جعلهم يشعرون بالضياع ؛ وثاروا على حياة أهلهم التى أصبحت أضيق بكثير من أحلامهم . ورأوا طلبة مثلهم يركبون السيارات الفارهة.. وهم لا يجـــدون ثمن تذكرة الترام .. وصبر منهم من تماسك وانهار منهم من انهـــار .. والذى تخرج منهم احس أنه سقط فى ورطة .. فالوظيفة تتطلب مظهرا يليق بسلطاتها الواسعة ، ومرتبه لا يكفيه ، واهله الفقراء يتطلعون اليه ، وهو يتطلع الى العيش كما يعيش بقية زملائه .. فلا أقل من سيارة يملكها .. والوظيفة تحف بها الاغراءات الشديدة التى لا تقاوم ، واصحاب الحاجات يملكون ، ويعرضون ، ويلحون .. وكانت النتيجة محزنة .. فقد نشرت الصحف ان شـــبانا يشغلون مناصب حساسة فى القضاء أو الشرطة .. ضبطوا وهم يتقاضون رشوة أو شاركوا فى اختلاس ، ولو اننا راجعنا الصحف منذ بداية هذا القرن .. حتى الخمسينات فلن نجد مثل هذه الاحداث الفردية .. !

انقلاب الهرم .. !

حقيقة ان هذا لايدين الجيل كله ، ولا ينسحب على المحرومين الذين اقتحموا الجامعات جميعا .. ولكن يشير الى حقيقة أو ظاهرة ، تكونت نتيجة لظروف التغيير الذى لم تكن هناك فرصة لدراسة جوانبه ، وهى كالسموم التى لابد من تخلفها فى الجسم بعد العلاج بدواء شديد الاثر لابد منه .. وضاعف من الازمة ، واحكمها حول الجيل

الذى تعلم .. ان السوق خلت من الحرفيين .. الذين كانوا فى الاعم ، والاغلب من ابناء الطبقة المتوسطة .. بعد ذهابهم الى الجامعات .. فارتفعت أجورهم ، وانقلب الهرم . فأصبح أصغر عامل يتقاضى فى يوم او يومين ما يتقاضاه هذا الجامعى فى شهر .. وفى صورة كاريكاتير لخص أحد الرسامين الموقف .. فقد رسم ربة بيت هى مصر ، واولادها امامها فى كامل ملابسهم ، وهى تقول لهم وتشير الى حنفية تدفع منها المياه .. « كلكم مهندسين ، ومن يصلح لى الحنفية ؟ » وتمنى اى طبيب من الخريجين أو المهندسين او المحامين ان يكون له دخل « السباكين » لكن هيهات .. فقد فات الوقت .. !!

انتقلت النقود الى أيدى الفئة ـ محدودة المطالب ـ ضيقة الآمال ، فانطلقت تنفق انفاقا يثير اعصاب المحرومين ذوى الآمال والاحلام الواسعة .. ويدفع بهم الى الاستهانة بالعلم والشهادات ، ويجعلهم يعايشون النـــدم ، على ما أصابهم ، وهممت الجريمة داخل الذين فى ايديهم النقود ، بغية الاستزادة .. ولا وازع من خبرة او علم .. وتحفزت ايضا داخل الذين خلت ايديهم من النقود .. تحتمى تحت ستار العلم والمنصب .. مدفوعة بالحاجة الحادة ، والعوز الشرس ..!

سقوط الابوة .. !!

واستقبلت السجون انماطا جـديدة من المذنبين ـ جديدة فى كل شىء حتى الاسماء .. لم يعد المذنب .. اسمه « خليفة » أو « خلف » أو « عوكل » .. وانما

أسمه « شريف » ، و « مجدى » ، و « رأفت » وأسماء اخرى غاية فى الرقة .. !!

استطاعت الجريمة رغم أنف الجميع أن تطول بعض أبناء الجيل .. اجتمعت ضدهم كل العوامل ، وتحكمت فيهم ظروفهم ، وقد سقطت الابوة صريعة ، فى بئر المشغوليات أو السفر الطويل أو الخلاف بين الوالدين ؛ وأصبح الشبان بلا غطاء أبوى .. فقدوا الحنـــان ، والرعاية ، والعناية .. فاندفعوا الى الجريمة دون أن يجدوا من يحول بينهم وبينها سوى القانون ، وهـو شراك ، لا يرد من يسير نحوها .. لكنه يقبض على من يسقط فيها .. !!

وهكذا قدر لنا فى الربع الاخير من القرن العشرين .. ان تشهد الجريمة المرتكبة بأيدى جامعية .. ! وهنا مكمن الخطر الذى يضاعف الآثار .. فالنفوس التى عجز تعليمها الجامعي عن حمايتها من اغراء الجريمة .. من الصعب والشاق أن تثمر معها العقوبة .. !

وقد شـــهدنا « المحاسب » الذى يسقط فى جرائم تزييف النقود ، والاختام ، والمستندات ، والشهادات الرسمية ، والمحامى الذى يؤلف مع مدرس لغة انجليزية عصابة تزييف النقود ، وقاض يتسلم رشوة ، وضابط شرطة يهاجم المســـاكن ليلا ومهندس يبيع ما لديه من عهدة ، وآخر يتقاضى الاتاوات من المواطنين ، وطبيب يتاجر فى المخدرات ، ويبيع الادوية المسكنة لآلام مرضى السرطان ، ويشرك معه زوجته الطبيبة أيضا .. !

وانني اذ أسجل فى هذا الكتاب بعض الجرائم التى تعطى دلالات معينة . فلست ادين هؤلاء الضحايا الذين

استولت عليهم الجريمة وحدهم .. وانما أدين معهم كل الذين كانوا لهم فى مقـــام الآباء أو الاساتذة .. ادين الذين كان فى وسعهم أن يكونوا لهم المثـل ، والقدوة .. الا أنهم كانوا المثل السيىء ، والقدوة الرديئة .. أدينهم لانهم على الاقل لم يفلحوا فى تربيتهم .. التربية التى تحميهم من اغراء الجريمة .. ! وماذا نرجو من جيل لم يفقد القدوة فقط ، وانما فجع فى مثله ، وقيمه ، وضاعت منه القدوة والاسوة .. ؟!

واننى أرفض بشدة .. دفاع الآباء .. ان الأبناء لا يستمعون الى النصيحة ، ولا ينصاعون لها .. لانهـم يرفضون النصيحة بالاستقامة .. من أب يعقد صفقات الرشوة فى بيته .. !! انهم يريدون القدوة أولا .. ! وثانيا وثالثا .. !!

القاهرة يناير ١٩٨٣ - عبد المنعم الجداوى

هذا القاتل كان يريد أن يكون نفسه !

لو أن والدى استمع الى .. وتقبل وجهة نظرى لما تزوجت بابنة عمى .. ولو أنى لم اتزوجها لما ذهبت الى « الفيوم » فى العيد الماضى .. ولو انى لم اذهب اليهم لما شعرت بهم يجثمون فوق صدرى ، وينتشرون فى دمائى كالسرطان .. ولو أن أمها لم تكن زوجة عمى وهى ابنة عمى .. لتخلصت منها بالطلاق .. ولو كنت تخلصت منها بالطلاق ما وقع هذا وما أصبحت قاتلا ، واصبحت هى قتيلة .. !

كل شىء فى حياتى يسير وفق رغبات الآخرين .. لا شىء حتى الآن وقع فى حياتى بارادتى .. بعد أيام ابلغ الثلاثين .. طوال هذه السنوات ، وأنا أعيش ضد ارادتى .. حينما حصلت على الاعدادية .. كنت أتمنى ان أمضى فى التعليم حتى آخر مراحله .. لكن الامكانيات الاقتصادية وقفت دون ذلك .. واسرع والدى يقدم اوراقى الى مكتب مركز تدريب المصانع .. وكنت رافضا لهذا الطريق فلم أهتم الا بالبحث عن طريق مواصلة التعليم ، وكانت النتيجة انه لا رغبة أبى تحققت ولا رغبتى تحققت وبقيت فى البيت .

أحس والدى أننى غضبته .. فتجنبنى .. أ
وأحسست أنه يقف ضد رغبتى فكرهت أن أراه ..
وانتابتنى موجة من الكآبة .. قبعت معها فى عقر الدار..
لا انيس لى سوى الكتب والروايات ، والشعر ، وكانت من أحسن الايام التى قضيتها مع نفسى .. احلم باننى سأكون أديبا كبيرا .. أو شاعرا أو كاتبا ... تتهافت الصحف والمجلات على نشر ما اكتب ..! احلام مراهق تزخرفها دفقات الشباب فى عروقه ، وتزينها خيالات الارادة الرخوة فى أعماقه .. لكن كل ذلك تبخر .. حينما حل العام الجديد ، ودفع ابى بأوراقى كلها الى مركز تدريب المصانع فى « وادى حوف » ولم أجد مناصا من الانصياع .. كتمت رغبتى .. مشيت على ارادتى ..

وتوالت الايام .. وابديت ميلا متميزا نحو مادة الرسم الصناعى .. فقد كان يتفق وما يحتشد فى صدرى من أحلام .. ولكنى كنت أعيش فى النهاية ضد نفسى .. كل ما يحيط بى يحول دون أن أكون « أحمد » نفسه .. !

انتهت أيام مركز التدريب ، والتحقت بالمصانع كعامل، واصبحت صاحب مرتب .. وبدأت أمارس هواياتى بشكل أوسع .. الرسم تمكن منى بنفس القدر الذى أمارس به الموسيقى .. وكتابة الشعر ، وهكذا ملأت أوقات فراغى بأنشطة مختلفة .. وأصبحت معروفا فى طول المعادى وعرضها .. كل رفاقى الشباب .. يعرفوننى على اننى مجموعة من المواهب .. لا يتم فرح الا ويدعوننى اليه .. اعياد الميلاد .. الزواج .. افراح المناسبات .. « أحمد » نجم كل هذه الحفلات .. اقول

المنولوجات .. أغني .. أعزف موسيقى .. أملأ الليلة تهريجا ، وفرحا .

وكان بعضهم يحسدونني على حب كل الناس لي .. لا أحد يشيح عني بوجهه .. ولست أدرى لماذا بدأت أمي تفكر في زواجي .. كانت المأساة هي أننا « صعايدة » والزواج المبكر أحد اركان حياتنا .. والركن الثاني هو ان تكون الزوجة من الاقارب .. وبالضرورة التي لا مفر منها أن تكون الزوجة هي ابنة العم .. الا اذا كانت غير موجودة .. ولكن ابنة عمي هذه تعيش في « الفيوم » .. ولم يحدث ان رايتها الا منذ سنوات بعيدة .. منذ كنت في الاعدادية .. وبعدها اذكر أنني ذهبت مع رحلة .. وانا أعمل بالمصانع الى « الفيوم » . وهناك رأيتها ، رايت عمي وزوجته وأولاده .. ولم يكن فيها ما اعتقد انه يمكن أن يكون أساسا للزواج .. !

وقلت لأمي وأبي انه اذا كان لابد من الزواج . فلماذا ابنة عمي .. ؟ أذهلهما ردى .. ! اقاما الدنيا ، وأرعدا ، وابرقا .. وقررا أنه اذا لم يكن الزواج من ابنة عمي فلا زواج .. واذا حدث .. فلا أنا ابنهما ، ولا هما والداى .. وتهديد ، وانذار ، ولوم من كل من يعرفني ومن لا يعرفني .. ! وارغام في النهاية يجيء بنفس الطريقة الاولى .. لابد من الانصياع — لابد من الغاء «أحمد» نهائيا .. والداك عليهما أن يرسما خط حياتك في العمل، وفي الزواج .. ووافقت ، وأقصيت « انا » عن نفسي ، وذهبت معهما لخطبة ابنة عمي .. !

وتمت الخطبة ، وبدأنا نستعد لارساء قواعد بيت ..

يجب أن يقوم ويستمر .. وتكرر ذهابي ، وعودتي وحدى .. أواجه هناك حماتي وعمي ، دون والدى أو والدتي.. والمواجهة ليست سهلة في مثل هذه الامور .. أشعر وأنا بينهم .. انهم كثيرون ، وأنني وحدى .. يملون على ما يريدون ، وليس لى أن اقول . لا . نريد شقة بعيدة عن أمك وأخوتك .. « حاضر » .. نريد شبكة كذا وكذا .. حاضر .. ثم أعود .. فأجد نفسى منفذا لكل ما ارادوا .. وحاولت أمي ، وحاول أبي أن يعــــرقلا حصولي على شقة لاعيش معهما كما رسما من قبل ، فالبنت ابنتهما والابن ابنهما ـ لكن ذلك لم يحدث .. ودفعت في الشقة ما استطعته ، وما اقترضته ... وكان الزواج الذى دفعــاني اليه .. سببا فى انني انفصلت عنهما ، وعشت في بيت على مقــربة منهما .. ولكنى لم افصل نفسي عنهما نفسيا .. فقد ظللت دائب الاتصــال بهما ليلا أو نهارا .. لكن العجيب فى الامر .. أن ابنة عمي سابقا .. وزوجتي حاليا .. اخذت من أهلي موقفا ، ورفضت ان تتردد عليهم .. « غمزة » من أمها لتجعلهم لا يترددون ، وفعلا وقع هذا .. !!

ودارت الشهور . ووضعت بنتا .. وبدأت أشعر مع الابوة القادمة بالمسئولية الحقيقية .. التى شغلتنى عن كل الهوايات ، ولم يبق لى سوى الهوايات التى يمكن أن تعود على ببعض الدخل .. كعمل البراويز ، واللوحات سواء كانت آيات قرآنية أو صــــورا طبيعية ... وبعض المنولوجات القيها فى الافراح مع فرق الهواة ، وكان ذلك يعود على بمصروفاتى الخاصة .. أما المرتب فاستبقيه للبيت .. الى أن كان العيد الكبير الماضى .. ذهبنا بناء على دعوة ملحة من حماى وحماتى .. !

مرة أخرى يزداد شعورى بالوحـدة وبأنهم كثيرون ضدى .. كانوا يشوون اللحم ، واقتطع حماى من الكبدة قطعة وأعطاها لى .. مضغها هو وأكلها .. أنا لم أستطع ابتلاعها .. بصقتها بعد أن مضغتها وملأ نفسى بالتقزز .. فقد اعتاد هو على أكلهـا نيئة أما أنا فقد عجزت .. تبادلنا النظرات .. رمقنى وأنا أبصقها ورمانى باحتقار ، وازدراء شعرت به .. كأنه يقول هذا هو الفـرق بينى وبينك .. الصعيدى يجب أن يكون قادرا على أكل الكبدة نيئة .. !!

حتى حماى هو الآخر يريد أن يصنعنى كما يريد .. الا يكفى أبى وأمى .. هذا يريد منى أن يجعلنى حيوانا مفترسا يأكل اللحم النيىء .. رثيت لحالى ... ادركت أننى تهاونت ، وفرطت فى نفسى ، وقبلت أن أكون غير ما أريد .. فعدا على الجميع .. لو أنى رفضت عرض أبى وأمى .. ماصرت زوجا لابنة هـذا العم الغـريب الاطوار .. !!

ولكن هذا الكلام مضى أوانه .. كل ماعبرت به عن نفسى .. هو أننى كرهت اللحم كله .. ولم أقربه طوال وجودى عندهم ..

وعرض على عمى أن أشترى « تليفزيون » قديمـا عند ابنه .. بخمسين جنيها ، ولكن بعد أن انفردت بابن العم .. قال لى أنه لا يصلح لى وما كدت أعود الى « المعادى » حتى وجدت نفسى أشترى « تليفزيون » ، واوقع على عدد كبير من الكمبيالات بلا مبالاة ..!

ومنذ خمسة عشر يوما فوجئت بعمى وزوجته يزورانى

.. حضرا من « الفيوم » .. لم أكن أستيقظت من النوم .. اندفعا بعد دخولهما الى المطبخ .. كانا يحملان لحوما، وفراخا ، وأشياء أخرى ..

ذهبت الى العمل .. عدت منه بعد قليل .. كانت زوجتى مشغولة مع والدتها فى المطبخ .. جلست أمارس هواية عمل « البراويز » أرادت زوجتى أن تعطينى البنت ريثما تنتهى من العمل .. قلت لها اننى لا أتقن الجلوس بالاطفال .. تدخلت والدتها ، وقالت ان ابنها يحمل ابنته عن زوجته دائما .. وجعل ذلك زوجتى تتشبث بطلبها .. لكنى رفضت .. فافتعلت الغضب ، ومضيت فى هوايتى .. لكنى لم البث أن تركت المنزل ، وهبطت الى بيت أبى .. لعلى ذهبت أشـــكو ، ولكنى متى كنت أشكو .. ؟

او ذهبت أعتب .. لكن لم يحدث .. كانت شقيقتى الكبرى هناك منذ شهرين .. وقالت لى أنهـا سـوف تسافر غـــدا ، ولم تكن دخلت بيتى . فقلت لها اننى أدعوها على العشاء مع أمى ، وأبى واخوتى .. وعدت فأعلنت زوجتى بأننى دعوت أهلى على العشاء .. !

وبعد أن تنـاول عمى الغـداء .. قال لى انه ينوى السفر .. ولكن لابد له من قضاء بعض المصالح ، وعلى أن أرافقه حتى ينتهى منها ، ويسافر .. وهبطت معه ، واكتشفت ان الساعة أصبحت الثامنة مساء .. وهرولت الى « المعادى » لكن لم أصل قبل العاشرة ، واحسست بالخجل وأنا أدخل بيتى ..

ماذا حدث لى .. ؟ وكيف أصبحت عبدا لزوجتى ، وأهلها الى هذا الحد .. ؟ لابد من « فرملة » .. !

هالني أن يقع منى ذلك فى حق أختى الكبيرة .. التى تضع نفسها وزوجها فى خدمتى كلما زرت بلدنا «الاقصر» .. كان يجب الا أفقد نخوتى وشهامتى أمامها ، ومن اجل من .. ؟ من أجل حماى .. !!

كل ذلك مع تطاول زوجتى على ، وجرأتها الغريبة التى اكتسبتها من تحريض والدتها .. وأصبحت تسخر من هواياتى ، وتستخف عملى بهـــا ، وغرامى بالرسم ، ومحاولة تحطيم كل رغبة لى تغنينى عن الحديث معها.. حتى القراءة .. أصبحت ترى فيها عدوا لدودا لهـا لا أكاد أمسك بكتاب حتى تقول لى أننى أغيظها بالقراءة لانها جاهلة .. !

وسافرت والدتهــــا .. ولكنها بقيت بتعليماتهـــا وحماقاتها ، وسخافاتها ممثلة فى ابنتها .. الى أن كان ذلك الصباح المشئوم .. !

استيقظنا من النوم .. لم أكن مستغرقا فى النوم .. منذ زيارة والدها .. لم أنم ليلة دون كوابيس وأحلام مزعجة .. قليلا ما كنت أنام .. فى هذه الليلة بالذات .. كان نومى متقطعا .. تتخلله كوابيس غريبة ..

ذهبت الى دورة المياه .. عدت أرتدى ملابسى .. بكت البنت .. أعطتها البزازة فى لامبالاة .. طلبت منها ان تعد لى الشاى .. غابت فى المطبخ ذهبت اليها .. كانت تدور فيه بلا هدف .. سألتها لماذا لم تصنع الشاى .. ؟ اجابت أن علبة الشاى فارغة .. ! ثم فى برود غريب قالت لى : أنا عثرت على بقايا « سحلب » .. فهل تصنعه لى .. ؟

عندئذ انفجرت فيها .. أعلنتها برأيى فيها كزوجة ، وفى

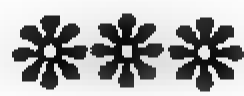
امها كحماة ، وفى والدها .. وفوجئت بهـــا ترد لى الصاع صاعين . امسكت سكين المطبخ وهجمت عليهـا اخرسها عن الكلام الذى تقذفه من فمهـا .. وهـويت بها .. انبثقت دماء غزيرة .. لكنها كانت تجرى امامى.. ولم ادر ماذا يصدر منى .. تعثرت وقعت .. فوقعت فوقها .. على صراخ الطفلة .. حدثت ضجة تهاوى كل شيء على كل شيء .. وجدت نفسى ممرغا فى الارض .. صبغت الدماء كل شيء فيها وفى .. بكاء الطفلة يزداد .. القتيلة ترسل شخيرا .. تتخبط .. وضعت «البزازة» فى فم الطفلة ، وهبطت من البيت .. ظللت اجرى .. اجرى .. لم يصادفنى احد اعرفه .. وقد يكون صادفنى .. لكننى لم انتبه الى احد الى ان دخلت قسم المعادى .. قلت للمامور محمد الجمال انا قاتل .. وسلمنى الى المقدم اسماعيل الشاعر ، وجاء العقيد نبيل العزبى مفتش مباحث المنطقة فذهبنا جميعا الى الشقة كأنهم غير مصدقين .. العميد عباس العاصى مدير مباحث القاهرة . والعقيد عبد الهادى مخيمر رئيس المباحث بعد ان استمعا الى قصتى .. قالا : انت قاتل بلا اسباب .. فما كان جوابى الا ان سكت .. اكل هذه الاسباب لا تكفى .. ؟

قولوا اننى رجل كان يريد ان يكون نفسه ففشل .. !

نهاية البحث عن إمرأة بيضاء

« خليل » انزلق شيئا فشيئا فى لجة اليأس ، والحيرة ، والهوان .. طوفان من الهموم ليس مبعثها الاغتراب فقط ، ولا الضياع فى عقر داره ، وانما همومه الحقيقية مبعثها احلام و « احلام » زوجته ، وأم ابنته التى تبلغ الخامسة ، والطفل الذى وفد حديثا منذ سبعة أشهر .. !

وقد يئس من حل مشكلته معها .. لم يقف على حافة اليأس ، وانما خاضه ، وانغرس فى وحله ، وفشل فى كل الحلول التى اقترحها عليها .. فهى لا تستمع اليه ، ولا تعيره اهتماما .. خلعته من نفسها نهائيا ، والقت به خارج حياتها .. وأصبح مغلوبا على أمره .. ليس لديه ما يواجه به هذا الاحساس بالعجز ، والغوص فى بركة اليأس .. !



أيكون ذلك هو العقاب الذى يستحقه لخروجه على تقاليد أهله .. ؟ أيكون ذلك تكفيرا عن الذنب الذى يرى كل فرد فى عشيرته أنه أقدم عليه .. ؟ بعد أن ضرب بكل نصائحهم عرض الحائط .. ؟ وهل فى محاولته

التحرر من قيود القبيلة ، وزواجه بمن خفق قلبه لها ذنب يستوجب العقاب من الله والناس .. ؟

« خليل » فى أعماقه ترقد تقاليد عمرها مئات السنين .. انحدر من أسرة « نوبية » مصرية .. جاءت الى « الاقصر » مع تعلية خزان أسوان الاولى .. وعاشت فى الوطن الجديد .. وانفرست فى الارض ، واستطاعت ان تواصل حياتها .. حريصة على تقاليدها .. تصنع حولها من الاقارب ، والاهالى مجتمعا شبه مغلق ، خاصا بها .. !

ولد عام ١٩٣٧ ، وجاء الى القاهرة عام ١٩٥٢ .. فى الخامسة عشرة من عمره .. لجأ الى أحد اقاربه ، وفى أيام وجد عملا ركن اليه ، وبدأ يعد لحياة طويلة فى القاهرة بين أبناء عشيرته .. !

بدأ بعد سنوات يشعر انه أصبح رجلا .. وانه فى حاجة الى زوجة .. لكن اى زوجة ؟ منذ الوهلة الاولى لم يفكر فى زوجة من لون جلدته .. لابد أن يتزوج بزوجة بيضاء .. حلم حياته منذ أن كان طفلا .. السمراوات كثيرات .. كل ما يحيط به لونه أسمر .. لابد أن يخترق الحصار السمراوى ، ويتزوج من بيضاء .. حسناء فارعة الطول .. قوية البنية .. حتى يشعر انه تزوج زواجا حقيقيا .. يعاشر فيه امراة .. السمراوات لا يشعر نحوهن ابدا بشىء .. كلهن يثرن فيه الشعور بأنه يجلس الى صديق من لونه .. لا أكثر ولا أقل .. ولكن أين هى البيضاء التى يرضى عنها أبناء عمومته ، واقاربه ؟ كلهم يرفضون مجرد اقتراحه ، ويهبون فيه ينصحونه بأن يكف عن ترديد هذه الاغنية ..

البيضاء « يا خليل » ليس لها الا أبيض .. «البيضاء» ان اعطت أخذت – واذا أخذت سحقت .. وأنت طيب لا قبل لك بامرأة بيضاء .. أخنق بيديك الشيطان فى صدرك ، وتعال الى ابنة عمك « صالح » سمراء من لونك .. ترى فيك أباها وأخاها .. وتحفظك اذا غبت عنها .. وتفرح اذا عدت اليها .. لا ترى فى الدنيا من هو مثلك أو أحسن منك .. تحبك اذا أكرمتها ، وتغفر لك اذا اهنتها .. ترى فيك القائد ، وعليها أن تتبعك وتسير خلفك .. !

البيضاء سوف ترى أنها متفضلة عليك .. دائما هى الممتنة .. تذكرك بفضلها عليك كل لحظة .. تريد منك ان تنسى الله وتذكرها .. عليك أن تنفذ ماتريده لك .. هى صاحبة الكلمة الاولى .. هى معك ما استطعت ان تغرقها اغداقا وانفاقا .. فلذا تراجعت ماليا أو صحيا أو أدبيا .. طردتك من حياتها .. وقد تطردك لا لسبب الا أنهـا ملت عيشتك ، وكرهت النظر الى خلقتك !

انهالوا عليه جميعا يعزفون على سمعه كل يوم هذه القصيدة .. حتى لا يزوغ منهم ، ويتزوج بيضاء .. لكنه لم يكن يستمع اليهم .. فهو يرى أنهم جميعا يتكلمون من منطلق عجزهم ، وحقدهم عليه اذا تزوج بيضاء .. ليحقق بذلك الحلم الذى فشلوا هم فى تحقيقه .. !

كان يعمل عند أحد الاطباء فى مستشفى خاص .. حينما جاءت أسرة من الفلاحين لكى تجرى للأم عملية جراحية .. الاسرة كانت مكونة من أب وفتـاتين ، وولدين ، احدى الفتاتين مخطوبة ، والثانية بكر .. كأن القدر كان يدخرها له .. كما تخيلها ، وطالما حلم بها ..

القوام الفاره .. والجسد الممتلىء المشدود .. الفتنة في ملامحها .. أنثى تستفز بأنوثتها كل رجولة حتى لو كانت حالة ضعف .. وبذل الاخلاص المخزون في صدره للأسرة .. وراح يعتني بالأم ، ويهمس في أذن الاب ، ويصب على الفتاة نظراته .. يستنهض بعض ما فى قلبها لعلها ترنو اليه .. عساها تقرأ مرة عبارة واحدة من المكنون في قلبه ، والمسطور فى عينيه .. أخيرا تفضلت ونزلت من عليائها .. فانتبهت اليه .. لفت نظرها الهمسات التي تدور كثيرا بينه وبين والدها .. !

شفيت الام ، وعادت الى قريتها فى « منيل شيحة »، وقالت « لخليل » نحن فى انتظارك .. ذهب « خليل » لم يأخذ معه أحدا من أهله .. انه يعرف أن ذلك ضد رغبتهم .. ذهب بنفسه الى هناك .. استقبل من الاسرة ، ومن الفتاة استقبالا ارضاه .. وكانت معه « دبلة الخطبة » ، و « الشبكة » واستمع الى زغرودة من شقيقتها ، وأمسك بيد خطيبته « أحلام » يدفع بالخاتم في اصبعها ولم يستطع أن يمنع نفسه من تقبيل .. تلك اليد البضة الفضة البيضاء التى تجرى الحمرة في انحائها .. كأنها قشدة بيضاء غطيت بالعسل الابيض .. ورفع فاه عن اليد ، ونظر في عينيها .. وذابت كل عظامه التي ترتبط ببعضها .. أن فى كل عين من عينيها أنثى تناديه .. بيضاء كسحابة .. حمراء كالشفق .. يوشك أن يرى الماء فى حلقها حين تشرب ..

« خليل » جاءتك الدنيا .. راكعة بين اياديك .. ها هى ذى امرأة بيضاء .. تضيء بالحسن لياليك .. حققت كل أمانيك ... كتبت اسمك بالجهد .. بالصبر .. بالحب .. فى قلب امرأة بيضاء لن يشمت فيك

اقاربك .. ! واحس انه يرقص وهو يجلس .. وقال لعروسه .. انا فرحان .. ! فهمست اليه « وانا فرحانة » .. !

واقبلت عاصفة من الخارج .. ! وصل الى اذنيه صراخ ، وصوت مرتفع ، وسباب وشتائم .. دخل شقيقها الاكبر .. كان قد رآه فى المستشفى .. يحمل عصاه ، وانهال على كل شيء تحطيما .. هدد وتوعد ، وصمم على أن يطفىء الشموع ... فهو لا يوافق على هذه الزيجة لان العريس ليس من الاهل ولا من الاقارب ، ولا يعرف له رجال والفتاة قد خطبها منه احد أصدقائه .. وما لم يفسد كل شيء .. فانه سوف يقتل الفتاة ؛ ويقتل نفسه ، ويحيل الليلة الى ماساة ..

وتدخل الاب ، وتدخلت الام ، وأمام كل ذلك ... انكمش « خليل » تضاءل .. تراجع .. خلع الاخ فى ثورته « الشبكة والدبلة » ، والقاهما فى وجه « خليل » ، وهربت الفتاة تختفى قبل ان يقتلها شقيقها فى ثورته .. وانسحب « خليل » .. وجراحه اضعاف فرحته .. كان على أبواب الجنة لكنه طرد منها .. مزقته ذئاب اليأس .. تنهشه من راسه حتى قدميه .. الالم المر المتمركز .. يملؤه حتى أذنيه .. قد ضاعت منه البيضاء .. قد ضاعت منه الى الابد .. وانهمك يداوى جراحه بالعمل .. كان من الصعب ان يواجه الذين يعرفون قصته فى العمل .. فبحث عن عمل آخر ، وانتقل الى مستشفى « الجمهورية » فى عابدين .. اختبأ هناك مع أحزانه .. لا عدو يشمت ، ولا صديق يشفق ..!

ورفض أن يتسقط الاخبار .. بعد ان عرف انها

تزوجت صديق شقيقها فى نفس الشهر وزفت اليه .. ولم يحاول أن يسعى للعثور على امرأة بيضاء أخرى .. أحس أنها تجربته الاولى والاخيـــرة .. لقد أحرقت الصدمة أرض أمانيه .. وهيهات أن تنبت على أرض يأسه أحلام جديدة .. !!

وتوالت الايام .. وجاءه من يهمس اليـــه ... أن « أحلام » طلقت .. وان عليه أن يذهب الى الاب ليعزيه فقد ماتت البنت الاخرى منتحرة .. بعد أن تزوجت .. أن الواجب يحتم عليه أن يذهب .. فالرجل الاب لم يفعل معه الا كل خير .. وتحت أكثر من عامل ، وأكثر من دافع ذهب « خليل » ليقدم للأب تعزيته ..!

وهناك وقعت عينه على « أحـــلام » ، واستيقظت الجروح التى كانت نائمة .. بدت فى الملابس السوداء أشد بياضا ، وأكثر تألقا .. فاقتربت منه تهمس فى أذنه .. « خليل » « أنا فى حاجة اليك » .. واهتزت أرض اليأس المحترقة .. واخضرت روابيها .. تنبت آمـــالا جديدة تقاوم جدب اليأس فى اصرار ، وتنمو متوكئة على ما كان .. ووجد « خليل » نفسه يهتف « وأنا فى حاجة اليك » .. !!

عاد والامل يتوثب داخله .. بعد أن كان قد فقده ، وراح يتعذب بالتعلق به من جديد .. كان قد ركن الى راحة اليأس .. وفى قمة صراعه مع نفسه.. فوجىء بها تزوره فى المستشفى الذى يعمل به .. مرحى يا «أحلام» .. هاهو قلبى ينفتـــح لك .. فليس فيـــه الاك .. قالت له أقدم ، وقابل أبى مرة أخرى .. فكل الظروف تغيرت .. لقد مهدت لكل شىء ..

وبر بموعده فذهب ، وليس معه ألا آماله ألتى تعاظمت .. ووجد كل شيء ممهدا .. كما قالت « أحلام » .. ارسل الاب فى طلب المأذون ، وكتب العقد .. وأراد ان يغادر البيت ريثما يجهز فأقسم الاب عليــه أن يصعد ليعرس بعروسه .. فهم لديهم كل شيء .. الغـــرفة جاهزة ، والاثاث جاهز .. وهو قد أسرهم بجميله ، وأعطاهم خمسمائة جنيه كانت معه كمهر ، وأصبحت « أحلام » زوجته .. !!

وهبط فى اليوم الثانى لكى يحصل على اجازة من عمله ، وفوجيء بأن الدنيا غير التى رآها بالامس .. كانت رياح الخماسين تتراجع امام الربيع القــادم .. والسحب في السماء تتلاقى ، وتتزاوج ، وتتهادى ، وتلتقي لترسل بين الحين والحين رذاذا رائعا .. ينعش الافئدة التي ظلت خاملة كامنة طول الشتاء .. وأحس انه أصبح خفيفا يكاد يطير من فوق الارض .. تبددت الهموم التى كانت تثقل خطواته .. يريد أن ينهى كل ما خرج من أجله .. ثم يعود سريعا .. حيث تنتظره « أحلام » المرأة البيضاء .. اخيرا حقق الحلم الذى كان يراوده .

وبعد شهور ظهرت علامات الحمل ، نعمة جديدة يجب أن يشكر الله عليها .. أين هؤلاء الذين كانوا يحذرونه من البشرة البيضاء .. ؟ انه فى سعادة يحسد نفسه عليها .. لقد لمس السماء بيديه .. وكل ليلة ينام فى أحضان زوجته البيضاء التى تحبه أضعاف حبه لها .. !!
وانتقل من المستشفى الى عمل جديد فى فندق محترم .. وزاد رزقه ، وارتفعت أرباحه ، ان المرأة البيضاء

تجلب الرزق أيضا .. ! لقد سجل انتصار حياته ، ولو مات هذه اللحظة لكان أسعد خلق الله .. فهو لا يريد من الدنيا أكثر من هذا .. !!

ووضعت « أحلام » بنتا ، وسعد « خليل » بالطفلة التي ستزيد من ارتباط « أحلام » به ، وقرر ان يصنع شيئا من أجل مستقبل الطفلة لابد ان يحصل على عمل في البلاد العربية يمكنه من أن يبنى بيتا يؤجر بعضه ، ويسكن بعضه .. وبدأ يجرى الاتصالات لتحقيق أهدافه .. بعد عامين من ولادة الطفلة استطاع أن يسافر الى « السعودية » .. بمرتب قدره خمسمائة جنيه شهريا، وكان يعيش في الفندق الذى يعمل فيه ، واسرع يرسل اليها كل ما يقع فى يده .. فلما اكتمل المبلغ خمسة آلاف جنيه .. أرسلت اليه تقول انها عملت بما يحقق حلمه .. فقد تبرع والدها لها بقطعة ارض ، وشرعت تبنيهـــا بالمبلغ فى قريتهم « منيل شيحة » القريبة من الجيزة .. وفى مدى سنوات ثلاثة كان مجموع ما أرسله لها اثنى عشر ألف جنيه ، وفى الشرائط المسجلة التى كانت ترسلهـــا له ، وفى الخطابات كانت تقحم اسم « سيد » .. انه هو الذى اشترى لها الاسمنت ،والطوب وهو الذى جاء بمقاول السباكة ، وهو الذى يعمل كل شيء .. انه جار مخلص شديد الاخلاص ، وذهبت الى « السعودية » لكى تؤدى « عمرة » وهناك حدثته عن « سيد » حديثا لا ينتهى .. مما جعله حينما قــرر العودة فى اجازة منذ شـــهر أن يبحث عن هدية تليق بخدمات « سيد » فاشترى له قطعة صوف ممتازة .. !

وعندما وصل ، ودخل البيت الجـــديد .. اقبل

« سيد » عليه يهنئه بسلامة الوصول .. التقت عيون الرجلين .. احس على الفور ان هذا « السيد » تحشرج به وجدانه لا يريد أن يهضمه .. من الجلسة الاولى .. لاحظ انه شغل مكانه في البيت .. المكان الذى كان يجب ان يكون له .. يتحدث الى « أحلام » يأمر .. ينهى .. يشير .. يقوم نحوها .. فيدخل عليها المطبخ . يهمس اليها بكلام ، وتسمع هى . اما هو فغير موجود .. ضاع « خليل » .. و « احلام » ازدادت جمالا .. امتلأت بعض الشيء .. انوثتها اصبحت اكثر جمالا ، واشــد وضوحا .. وهذا « سيد » فحل من فحول الريف يعمل خفيرا فى مجلس المدينة لكنها وظيفــة شرفية .. لا يمارسها .. انه متفرغ تماما « لاحلام » وهو صاحب ارض فى بلدتهم « الحوامدية » ، وهو مهاب مسموع الكلمة فى المنطقة .. له سطوة .. متزوج وله أولاد ..

كل ماكنت تخشاه يا « خليل » قد وقع .. بالشماتة الاقارب ، والاهل ولكن لابد من الدفاع عن النفس .. أن « سيد » قضي على وجوده تماما .. وهي عاونته فى ذلك .. لا يكفيه أن يستولى عليها فى البيت .. انه يجيء فى أى وقت فيطلب منها أن تخرج معــه وتطيعه دون أن تفكر فى القاء كلمة على « خليل » وقد تخرج معه فى الصباح فلا تعود الا فى الليل وتخرج فى الليل فلا تعود الا فى الصباح .. وهب يدافع عن نفسه .. فصاح فيها غاضبا .. انه لا يريد أن يدخل «سيد»، هذا بيته .. وكان الرد .. ردها هى .. أن « سيد » يدخل وقت ما يشاء ، واذا كان ذلك لا يعجبه فان الباب يتسع لخروج الجمل .. !! ثم تمهلت فى حديثها ،

وقالت أن « سيد » هذا يمكن ان يضعه فى قفة قتيلا ، ويلقى به فى النيل .. دون أن يبحث عنه أحد ، فلا داعى لان يموت قتيـــلا ، ويمكنه أن يذهب الى حال سبيله ، اذا كان « سيد » يضايقه ..!!

وقعت الواقعة . وجاءت النهاية سريعا .. بعد بناء البيت على أرض والدها ، وكل شىء كتبه باسمها ، والآن تريد أن يتركها ويمضى بعد عذاب وكفاح أكثر من عشر سنوات ، وذخيرة العمر التى ادخرها ليحمى مستقبله والعار هدية منها اليه فوق كل هذا .. !

لقد مرغت « احلام » احلامه فى التراب .. كان حلمه ان يستولى على امرأة بيضاء .. ولكن الحلم تحطم ، وسقط الذباب فى طبق العسل الذى يشتهيه .. وذهب الى والدها واخبره بما كان لكنه نهره وهدده اذن فهى مؤامرة .. لـــكى يترك كل شىء ، ويمضى .. باءت محاولته فى ان يكون مالكا لها وسيدا لامرأة بيضاء بالفشل .. بعد أن دفع ماضيه ، ومستقبله على مائدة المقامرة .

ليس أمامه الا أن يحقق حلمه ويتراجع .. ويتعامل مع هذه البيضاء من المنطلق الذى يتعامل به مع الحسناوات البيض وتوسل اليها أن تخفف من مضايقاتها له .. حتى يحين موعد سفره الى السعودية .. ! لكنها اشترطت عليه أن يكف من مضايقاته ولا يقحم نفسه بينها وبين « سيد » اذا أصر على البقاء حتى سفره .. !

الغريب ان فكرة الطلاق لم تراوده خلال ذلك الجحيم .. كان لا يريد أن يفقدها حقيقة فهو سعيد بهذه الملكية الوهمية التى يعيشها وهو يرى ان بقاء زمامها فى يده .. اروع ما ربحه من هذه المقامرة .. لا يريد أن يشمت فيه

الاقارب ، ولا أن يشعر بهزيمة رسمية أمام « سيد » هذا الذى ينتزع منه « أحلام » .. ويعزى نفسه بأنه يرفض الطلاق من أجل ابنته ، وولده .. ويغطى الحقيقة تحت كل هذه التراكمات .. الكاذبة .

لكن كل ذلك زادها غلوا فى كراهيته ، واحتقاره .. ونصحته بأن يطلقها اذا كان يريد لنفسه الخير .. لكنه رفض .. وفى يوم الحادث ، جاءت فى الرابعة مساء مع « سيد » وكانت معه طوال اليوم .. صعدت الى الشقة .. فتح « سيد » بالمفتاح الذى معه .. كانت تمسك ببطنها ، وكان « سيد » يحمــــل الطفل .. « خليل » كان فى غرفته فى الشقة .. لم تتحدث اليه ؛ ولم يتحدث معه « سيد » اضطر أن يذهب اليهما فى غرفة « احلام » كانت نائمة على السرير تتألم ، و « سيد » يغطيها بالملاءة .. ثم وجهت حديثها الى « سيد » تسأله متى سيعود فقال بعد العاشرة مساء .. ونصحها بأن تشرب شيئا دافئا .. وخرج « سيد » دون كلمة .. وبقى « خليل » ينظر فى بلاهة .. كان الطفل يبكى — فقالت له « خذ الطفــــل ، واعمل له رضعة » ونفذ ما أمرته به .. !!

بعد أن أرضع الطفل تركه نائما فى فراشه .. ودخل غرفتها .. كانت نائمة يقظة .. ســألها ان كانت تريد طعاما ، وعتب عليها .. لو أنها بقيت فى البيت اما كانت طبخت ووجدوا الآن ما يأكلونه .. ؟

فأجابته ثائرة بأنها لا تريد ان تأكل ولا أن تشرب ...

ثريد فقط أن يتركها ، ويمضى .. أن يطلقها .. واذا كان متعلقا بولديه فليأخذهما معه ..! انها لا تريده ولا تريد آثاره .. !! وتركها فى ثورتها ، وقال انه سوف يغسل وجهه ، ويخرج ليبحث عن شيء يصلح للعشاء .. !

ووضع فوق « البوتاجاز » وعاء به ماء ، ثم دخل غرفته فعاد « بالفوطة » ، كانت المياه « غلت » فوق البوتاجاز ، وفوجيء بها تدخل المطبخ فتركها وشأنها ، وحمل المياه بين يديه .. لحظتها شعر أنها تناولت شيئا من دولاب المطبخ ، وانه لابد ان ينظر خلفه .. فقد تكون فى حاجة الى معونته .. لكنه فوجيء قبل أن يكمل استدارته بأن يدها مرفوعة بسكين مسددة نحوه .. فاسرع يقذفها بالماء الساخن ، حركة سريعة تفتق عنها ذهنه لكى يعوقها .. وسقطت السكين من يدها ، وهى تحاول أن تزوغ من المياه الساخنة .. فانحنت لتلتقطها ، ولكنه كان أسرع منها .. فهجمت عليه تحاول انتزاعها .. فراح يطعنها لكى يوقف هجومها ولكنها استمرت فى الهجوم .. واستمر هو فى الطعن .. لحظات جنون ... فجرت المخزون فى أعماقهما .. هى ايقنت أنه قاتلها ، وهو أيقن انها قاتلته .. وتفجر الدم ، وعلا صراخها تستنجد بالجيران ، وسقطت بعد أن عجزت عن المقاومة .. فتركها وجرى الى غرفته .. فأغلق الباب عليه بالمفتاح .. كان يخشى أن يجيء أهلها فيقتلوه .. !

وحينما أحس أن الشقة امتلأت بالجيران وبالاقارب .. تسلل من نافذة غرفته الى الشارع ، واستتر بظلمة

الليل حتى وصل الى مركز الجيزة ليسلم نفسه .. للرائد عبد العاطى معاون مباحث المركز .. الذى اتصل بالعميد حلمى الفقى ، والعقيـــد ابراهيم راسخ مدير المباحث ، وجلس الجميع يستمعون الى قصة « خليل » الذى ذهب ضحية حلمه الذى كان يراوده طول عمره .. ان يمتلك يوما امراة بيضاء .. !! .

قاتل حياته جملة قصيرة

القاتل فى هذه الجريمة .. ما تجاوز الربيع من عمره .. حياته جملة قصيرة .. حزينة الحروف .. شقية الكلمات .. سبقت مولده اخطاء .. زرعته آلاما فى أرض الندم .. وكان الحرف الاخير فى حياته جريمة قتل ..

هل كان لابد من أن يصبح « وحيد » قاتلا .. ؟ وهل هنـــاك قوة خارجة عن ارادته كانت تدفعه فى حتميـــة لانعرفها لكى يقتل ضحيته « يوسف » ..؟ وان كـــل أيامه السابقة كانت تعده لهذه اللحظة التى وجد نفسه فيها .. يرفع يديه بكامل ارادته .. ليطبق على عنق القتيل الذى سقط مغمى عليه .. واعتقد « وحيد » انه مات . فانشغل فى عمل آخر .. كان هو دافعه الى زيارته غير ان القتيل استعاد وعيه ، ووقف يدافع عن نفسه مرة أخرى فاذا « بوحيد » يندفع نحوه . فى هذه المرة كان العنف مضاعفا .. كانت هداة الشر التى غشيته بعد الجولة زايلته .. وضاعفت مفاجأة يقظتـــه نزعات الشر وضخمتها .. احس « وحيد » ان وجود « يوسف » فى وعيه الكامل .. لن يمكنه من الاستيلاء على ما كان يريده .. فهجم على عنقه وراح يضغط ..

حتى تحشرج الهواء فى حلقـــه .. ولم تعد فى الجسد مقاومة ، وثقل العنق بالراس على يديه .. فترك الجسد كله يهوى الى الارض ، وأحدث الجسد صوتا مكتوما ، وهو يرتطم بالارض ، وراى خيوطا من الدماء تسيل من تحته عند الراس أيقن لحظتها انه لن يقوم مرة أخرى .. ومد يده يتحسسه .. ومـــلأه الذعر ... فالرجـل قد مات وكان يريده أن يغيب عن الوعى لا ان يموت .. وخيل له أنه لم يعد يسرى ولم يعد يسمع .. وأن الدنيا التى كانت منذ دقيقة .. لم تعد هى ..

مات « يوسف » الذى يقضى أيام المعاش فى غير هدوء .. وأصبح « وحيد » قاتلا .. كل ذلك حدث بين شخصيتين غريبتين . فالقاتل فى الثالثة والعشرين، والمقتول فى نحو الستين ـ كان يعمل مساعدا فى سـلاح الحدود . والقاتل حتى لحظة القبض عليه كان يعمــل فى صيانة أجهزة التكييف والثلاجات لاحد الفنــادق فكيف تلاقيا .. ؟ ليذهب احدهما الى القبر ، والآخر الى السجن .

فى عام ١٩٥٦ ، والعدوان الثلاثى يقع على مصر .. وضعت « وحيد » أمه فى نفس اليوم الذى اشتدت فيه الغارات على القاهرة . فحملته فى اليوم الثـانى ، وسافرت الى الريف .. كانت قلقة . مذعورة مضطربة تخشى على طفلها ، وعلى نفسها ، وأرضعته كل اضطرابها وكل خوفها . ثم توقف العدوان ، وعادت الى القاهرة .. لم يكن طفلها الاول ، ولكن كانت هناك أخت تكبره وجاء بعده طفل آخر ..

لكن « وحيد » منـذ أن وعى الأشـــياء حوله وجد المسئولية فى عنق والدته .. امه هى التى تقوم بكل

شيء فى البيت .. اما الاب فكان يراه زائرا غير مرغوب فى زيارته .. لم يـكن يدرك لمـــاذا أبوه دون بقية الآباء لا يزورهم الا لماما .. الآباء كلهم يعطفون على أبنائهم .. يأخذونهم الى نزهات .. يذهبون معهم الى المدارس احيانا .. هو الوحيد دون أبناء الحارة .. الذى لا يجد والده حينما يطلبه .. حتى فى المدرسة كانت امه هى ولية أمره .. وكان ذلكَ يجعل الاولاد يسخرون منه . وهذا جعل أيامه فى المدرسة محنة يتمنى فى كل يوم زوالها !

بعد أن دخل مدرسة روض الفرج الاعدادية انتهز فرصة زيارة والده لهم . وتجرأ فسأله .. لماذا يختفى كثيرا .. ونظـــر الاب اليه طويلا .. ثم قال له ان الجواب ليس عنده ، وانمـــا عند والدته . وســـمعت الام الحوار .. فالتفتت الى الاب ووصفته بأوصـــاف فظيعة ، وقالت عنه انه لا يستحق الدخـــول .. فكل الآباء يشقون ليسعد أولادهم .. الا هو فانه لا يهمه الا مزاجه ، وكل ما يكسبه ينفقه على الافيون هذا اذا كسب ، ولهذا فهى تطرده دائما .. لانه لا يجىء الا اذا كان فى حاجة الى نقود .. ذلك لانه « أفيونجى » ..

ومع أنه لم يكن يعـــرف مدلول هـــذه الكلمة الا انه فزع منها .. فقد كان والده دائما .. مصفر الوجه .. منهك القوى يجر ساقيه كانه عائد لتـــوه من مستشفى .. وكانت والدته تتغيب كثيرا عن البيت وينتهـــــز الاب الفرصة فيجىء وهى غائبة ، والويل له اذا وجدته .. فأحيانا كان يصعب عليه وهى تهم بضربه ..

ان العمل الذى كانت تعمل فيه والدته ظل سرا مغلقا

عليه ، وكانت تقول له ولشقيقته الا يذكر امام الجيران انها تعمل .. فقط كانت تخرج مع الصباح الباكر ، ولا تعود الا قبل الغروب بقليل .

وحصل على الاعدادية ، وانتقل الى المركز للتدريب المهنى .. ليتعلم فيه اصلاح الثلاجات ، واحتاج الى مبلغ جنيه ونصف كرسوم التحاقه ، وعاد من المركز ليجد والده فى البيت .. فذكر له حاجته الى المبلغ وقال له والده .. انه سوف يأخذه معه الآن الى قريب له .. يعود من عنده ومعهما المبلغ .. لان هذا القريب من الذين كان ينفق عليهم هو فى الماضى .. وركب معه القطار الى المطرية ، وكانت المرة الاولى التى يرى فيهما « وحيد » « يوسف » هذا . كان يعمل فى وظيفته ، وكانت معه زوجته ، بعد أن قدم لهما الشاى .. اعتذر عن تقديم المعونة المطلوبة ، وخرجا ليلا يتعثران فى الطريق الى محطة القطار ، وكانت ثمة أضواء تسقط وتذوب على وجه والده .. من مصابيح الطريق .. ولاحظ خلجات فيها سمات الهزيمة والمرارة .. تتعاقب على وجه والده ، وهو يقول له .. « ان هذا النذل يملك أضعاف هذا المبلغ .. لكنه نذل ناكر الجميل ! » .

عادا الى البيت فى وقت متأخر ، واستقبلتهما الام .. كانت قد عادت من عملها .. سلمته المبلغ الذى وضعه تحت وسادته .. واصرت على طرد الاب . الا انه توسط له لكى يبيت وفى الصباح مضى الاب ، واستعد «وحيد» لكى يذهب الى المدرسة . ومد يده تحت الوسادة فلم يجد المبلغ .. وصرخ يعلن والدته بالخبر .. فلطمت

خديها .. وقالت له : ان « الافيونجى » أخـذه ، وهذه نتيجة وساطتك له .

وطلبت منه أمه أن يتغيب اليوم .. وآخر اليوم سوف تعود له بالمبلغ .. سوف تطلب سلفة من الذين تعمل عندهم على مرتبها .. وفى هذا الظرف الدقيق .. تنبه الى شىء هام .. ان والدته تعمل فى مستشفى فكيف تقترض على مرتبها .. وقال لها فى خبث رغم المعاناة التى يعانيها .. ولكن هل سيقبلون يا أمى .. ؟ فأجابت انهم أهل خير ، وهى تعمل فى خدمتهم منذ عهـــــد طويل ، وصرخ . فقد نسيت الام حذرها ، ولم تتذكر الا على صوته :

— وماذا تعملين يا أمى ..!

— مربيه .. يا حبيبى .. !

وضمته الى صدرها وادرك لماذا كانت تقول له هو واخته الا يذكرا أمام الجيران انها تعمل !

صدمات ، ومفاجآت ارتبطت بمفتاح واحد تمنى لو انه ضاع منه الى الابد . لكنه دائما فى عقله ، وفى خيـاله مبلغ الرسوم بكراهية الاب بزيارته للرجل الكريه بالام التى تعمل فى البيوت وتكذب عليه .. !!

وانزوى داخل نفسه .. أحب الانطواء .. كره الناس . كان يشعر انهم جميعا يعرفون ان والده « أفيونجى » ، وان والدته هى التى تعـــــولهم ، وان قريبهم رفض أن يقرضهم وظل يتعذب من كابوس ، وخلال كراهيته لابيه .. بدأ يكره كل الآباء .. حتى تخرج فى مركز التدريب .

ولكن قبل أن ينتهى من هذا المركز .. طرق بابهم ذات

يوم أحد الجنــود .. قال لهم ان والدهم مات بأحـــد المستشفيات ..

ينهار البيت الذى يســـكنونه فى روض الفرج ويصبح عليهم أن يجدوا مسكنا ، وتنشط الوالدة ، ولكنها لا تجد سكنا الا فى المطـرية مرة ثانية . يلتقى بالرجل الـكريه ويسكنون على مقربة منه ، ويراه كل يوم تقريبا .. فهم يسهرون لمشاهدة التليفزيون فى منزله !

والرجل فى المعاش .. يريد أن يشغل وقته ، ولديه النقود والفتى لم يجد عملا بعد .. وتم الاتفاق بينهما .. الرجل يشترى العدة والخامات ، والفتى يعمـل بـكل جهده ، وصنع له ثلاجة كاملة .. كل ما اشتراه هـو الموتور فقط ، وفرح الرجـــل وراح يحصى ارباحـــه اذا ما استمر العمل على هذا المعدل .

لكن الفتى التحق بالعمل فى أحد الفنادق ولم يعد لديه من الوقت الا ساعات ما بعد الظهر ، وأيام العطلات ، وبدلا من انتاج الثلاجات اكتفى بالاصلاح ، ولكن الرجل كان عنيدا ، وكان يمنع عنه العدة .. فلا يسلمها له الا اذا دفع ايجارها مضاعفا ثم أحس انه بذلك يضـــاعف دخله ، ويجعله يستغنى عن العمل لحسابه هو .. فقـد كان يتفق مع أصحابه أصحاب الثلاجات على اصلاحها .. على أن يقوم الفتى بالاصلاح .

ولم يكن مع الفتى من النقود ما يكفى لشراء عدة تصبح ملكه .. بدلا من أن يتحكم فيه هذا الرجل الجشع .. ومنذ أسبوع اتفق على اصلاح ثلاجة ، وذهب الى «يوسف»

لكى يستأجر منه العدة .. كانت الساعة الثامنة مساء .. وجده وحده فى الشقة كما توقع .. حينما رآه فى سخرية انها تجارة لا زيارة ، وهو لن يؤجر له العدة .. فليوفر محاولاته .. شرح له الورطة التى يجتازها .. قال له انه فى حاجة ماسة هذه المرة الى العـــدة .. لانه اتفق مع صاحب الثلاجة على الاجر . ولكن الرجل أصر على أنه لن يعطيه ..

لكن الفتى قال انه سوف يأخذها بالقوة كانا يجلسان فوقفا .. وأراد أن يمرق الى المكان الذى فيه العدة .. فتصدى له الرجل بجسده .. ومنعـــه بيديه .. ونظر الفتى الى وجهه كان أصفر الجلد .. متغضن الوجه كان والده الذى سرق مبلغ الرسوم . كلهم يقفون فى وجه حياته .. يريدون اعاقته عن مواصلة الحياة .. الحقد الذى تفجر بكاء منذ سنوات حينما ضاعت رسوم الالتحاق تفجر هذه اللحظة شحنة غبية من الكراهية فى ذراعيه.. ورفع يديه يحيط بهما عنق الرجل .. ولم يكن فى الشقة سواهما .. فزوجة « يوسف » سافرت للعمل فى الكويت منذ شهور وأراد الرجل أن يتكلم لكنه عجز عن الكلام . ووقعت المأساة . انتقم من أبيه ومن أمه ، ومن أيامه ، ومن اهل والده ، ومن الجميع وهو يضغط ، وكأنه يقتل الناس جميعا ..

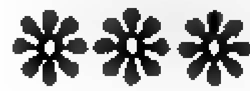
وبعدها أغلق الباب ، وترك المقتول ومضى وبدأت أجهزة البحث تعمل .. العقيد عباس العـــاصى رئيس المباحث والمفتش حازم شفيق ، والرائد صلاح هاشم ، والمقدم

عادل سليم ، والمقدم محمد امام ، ورئيس مباحث قسم النفس ماهر حسن ، وصلوا بعد سبعة أيام من العمل المضني الى القاتل « وحيد » وكان الدليل الذى قادهم .. بصمة ابهام وجدت على كوب شاى ..

وآثار قدم كانت فوق سرير المقتول : وكان « وحيد » قد اعتلاه ليبحث فوق الدولاب عن بقية أجزاء العدة التى يريد الاستيلاء عليها .

شادية الأحزان

ودفع الفتى ثمن الحب الذى لم يمارسه الا شهورا .. كل أيامه .. ماضيه وحاضره ، ومستقبله ــ واستشهد مبتسما .. عيناه على وجه فتاته وشفتاها على أذنيه .. تغنى له نشيدا كان يحب أن يسمعه منها .. ومات لتعيش الفتاة راهبة ألم . وشادية أحزان .



كل شىء أحس به ليلتها كان جديدا عليه .. لا يستطيع ان يحدد ماذا يعتريه .. آفاق تتفتح فى حناياه .. كل ما هو مظلم فى أعماقه .. تكتسحه أضواء عارمة متدفقة .. طمأنينة قلقة تتمطى داخله .. تجعله ساكنا هادرا فى نفس الوقت .. لم يعد يضيق بمعاناته مع المخرجين ومساعديهم .. أحب ساعات يومه بعد أن كان يخافها .. عادت الاحلام فى النجاح تملؤه بعد أن هجرته .. زحفت الآمال تحاصر خياله .. لتضعها معــــه فى موكب واحــد .. يزفان الى حياة سعيدة .. !

لم تكن المرة الاولى التى يلتقى فيها بفتاة زميلة له من « الكومبارس » .. فهن كثيرات فى ممرات التليفزيون .. لكن هذه الفتاة بالذات .. لايدرى كيف تمكنت من اختراقه

.. لقد اقتحمته بنظراتها الضارعة المتوسلة .. سكنت فى أعماقه حزنا مثيرا يستجدى الود ، ويستدر الرحمة.. ويحول أضعف الرجال الى فارس .. يستشهد راضيا فى سبيل صيانة عينيها من الدموع ، ولعل هذا هو الذى دفعه الى أن يشتبك مع مساعد المخرج الذى إغلظ لها الكلام .. فأبكاها ثم نهرها فى عجرفة مفتعلة .. وأمام ذلك فقد الحرص على العمل ، ونسى أن هذا المساعد هو الذى يثبت « الـــــكومبارس » فى أذونات الصرف أو يمحوهم ، وهو المتصرف فى أرزاقهم وأسرع يحول بينه وبينها ، وبذل جهدا لكى يهذب من اعتراضه على المعاملة القاسية .. الا أن المساعد هاله أن يجرؤ هذا «الكومبارس» على مثل هذا .. وكان لابد أن يتخذ موقفا حاسما .. فرد عليه ردا قاسيا ، وطلب منه أن يغادر البلاتوه خلفها .. ولم يجد الفتى بدا من أن يرد لمساعد المخرج الصاع صاعين .. ثم يمضى معها الى الخارج .. وهو يشـعر انه ربح أضعاف ما خسر .. !

بعد خطوات تقطر حزنا .. قالت له أنها تأسف لانه خسر يوما بسببها ، وهزته نبرة الألم فى صوتها .. فتوسل اليهـــا ألا تأسف لانه لا يريد أن تضيف الى احزانها حزنا جديدا يـكون هو السبب فيه .. فهو قد فعل ما فعل ، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه على حق ..

كانت هذه هى البداية .. ومع الايام غاصت فى حياته، وغاص فى حياتها .. عرف أنهـــا يتيمة .. كان لها أب لا تذكره .. فقدته قبل أن تعرف ما حولها .. تركها مع شقيقة لها تكبرها ، ووالدتهما دون معاش ، ولا سند فى الحياة .. كان واحدا من تجار « الشنطة » والتقى

بوالدتها فى دمشق ، وجاء بها الى القـاهرة واكتشفت الزوجة بعد موت الزوج الذى مرض طويلا .. أنه لم يترك لها سوى الحقيبة الفارغة .. واضطرت أن تقبل الزواج من أول رجل تقدم لها .. اكتشفت بعد ذلك أن الوحوش الضارية أرق منه ، وأرحم ، ورفض أن ينفق على تعليم الفتاتين مليما من كسبه ، واحترفت أمها خياطة الملابس حتى تتمكن من أن تجعلهما تحصلان على الاعـدادية .. والتحقت أختها بعمل فى أحد الفنادق السياحية وهوت هى العمل فى التليفزيون لعل الفرصة تواتيها لانها تشعر انها خلقت للتمثيل .. ورغم أن والدتها تلح عليها كثيرا لكى تقلع عن هذه الهواية ، وتساعدها فى عملها الا أنهـا ترفض باصرار .. هذا الى جانب العذاب الذى تلقاه من زوج والدتها .. فهو يريد أن يغمض عينيه ويفتحهـا فيجدها متزوجة .. فهو لا يؤمن ، ولا تدخل رأسه حكاية الفن هذه التى تحدثه عنهـا .. كلما فاتحها فى الزواج .. !

وبين أم لا تعرف سوى ارضاء هذا الزوج ، وبين زوج أم لا عقل ولا قلب له ، وبين العذاب اليومى الذى تلقاه من عجرفة مساعدى المخـرجين .. تمضى حياتها فى محاولات عديدة لكى تعيش على مقربة من الشاطىء الذى يمكن أن تحقق فيه حلمها فى أن تصبح ممثلة .

وعرفت هى أنه الابن الثالث ، والاصغر لاحد تجـار الحبوب ، وانه مثلها تماما .. عشق التمثيل ، وفشل فى المدارس الثانوية ، ولم يحصل الا على تأكيدات من كل المدارس التى تنقل فيها بأنه لن يحصل على التوجيهية .. حتى لو حدثت معجـزة .. وهو يحاول أن ينجح فى

التمثيل .. حتى لا يخيب ظن والدته التى راهنت والده على أنه سوف يتفوق على كل الذين نجحوا فى التوجيهية، ودخلوا الجـــامعة .. والجانب اللين فى حياته هو ان والدته مؤمنة بموهبته ، وهو يجربها فيها دائمـــا كلما احتاج الى نقود .. !

فى كل يوم يحس كأنه عرفهـــا الآن فقط .. نفس اللهفة ، ونفس الجدة ، ونفس التألق الحزين الذى ينساب من نظراتها .. وتجرأ ذات يوم وحكى لوالدته عنها ، وفى اليوم التالى أخذها ليقدمها لوالدته ، ولكن الام قالت له اذا كان يريد أن يتزوج .. فلابد أن يتوب عن الفن ، وجنون الفن ، ويستخير الله ، ويجلس مع والده يساعده فى تجارة الحبوب ، وبعدها يمكن أن تعرض عليه حكاية الزواج .. بشرط أن تنسى هى الاخرى حلمها فى أن تكون ممثلة .. وفزع الفتى من العـــرض أضعاف ما فزعت الفتاة .. !

وخيل لهما أنهما بطلا فيلم سينمائى .. تقف الدنيـا كلها فى وجه أحلامهما ، وليس لهما الا أن يقاوما ، ولابد ان ينتصرا ، ولابد أن يحتفلا فى النهـاية بزواجهما .. رفضت أحلامهمـــــا أن تستسلم للواقع المرير الـذى يحاصرهما .. وأخذته الفتاة الى والدتها ، ووافقت الام لكنها طلبت فرصة للحصول على موافقة زوجها .. !

وبذلت الام كل ما فى حوزتها كامرأة لتسوق الخبر الى زوجها ، وخلطت حديثها بالـدعاء له ورسمت ابتسامة كبيرة على شفتيها ، وشحنت صوتها بكل ما بقى لهـــا من أنوثة .. لكن كل ذلك لم يؤثر فى الرجل الذى هب

فيها صارخا يؤكد أنه اذا كانت الفتاة ستتزوج فلابد ان يكون الزوج هو « سليمان » .. فهو الجبار المرهوب الجانب ، والشاب الذى تتقى الحارة كلها شره ، وهو أيضا تقدم لطلبها منذ شهور ، وقبل أن ينتظر حتى تيأس من حكاية الفن هذه فيتزوجها .. وقد اعطاه وعدا بذلك .. وهدده اذا تزوجت من « محمود المليجى » أو « فريد شوقى » فسوف تكون فى ذلك النهاية لها ولامها ، وله ..!

وأسقط فى يد الام .. فهذا هو الامر الذى لم يخطر لها ببال .. وفوجئت الفتاة « بسليمان » هذا يعترض طريقها ، ويقول أنه شاهد معها شابا مرتين .. فاذا رآه مرة أخرى معها .. ليس هنا فقط ، وانما فى اى مكان .. فسوف تكون نهايته على يديه .. ويتبقى بعد ذلك حسابها هى .. وفوجئت به يتكلم كصاحب حق عليها ، وظنت أنه بحكم حمايته للحارة ، وأهل الحارة يتكلم فقط ، ولكنها صعقت عندما قالت لها والدتها الحقيقة ، وأنه تحدث مع زوج أمها فى الامر .. فلما سألتها لماذا وافق على أمر لا يملكه .. أجابتها بأن « سليمان » اذا أراد أمرا فانه لا ينتظر موافقة أحد .. وجن جنون الفتاة وأيقنت ان حبها مهدد بالضياع .

وعندما التقى بها فتاها فى اليوم التالى .. رأى الحزن فى عينيها مضاعفا ، والالم الذى ينضح به محياها تكلم بعد أن كان صامتا .. وانتهى عملهما معا ،وركب معها لكى يوصلها الى منزلها كالعادة ... لكنها وبكل حرصها عليه ، وحبها له .. روت له الجديد فى موضوعها .. وكيف أن « سليمان » ظهر على الشاشة ولا سبيل الى تفاديه الا بالهرب من وجهه الى الابد ..!

وشعر الفتى بأن أصابع من فولاذ تعتصر قلبه .. وأن كل شبابه يتحفز ليواجه الهول فى سبيل هواه .. فليس هو الذى يتراجع .. أن مجرد احساسه بأن حبه فى خطر .. يجعله يستميت فى الدفاع عنه .. وأصر على أن يذهب معها ، وحاولت أن تثنيه .. توسلت اليه .. بكت بدموعها لتحول بينه وبين تهوره .. لكنه رفض أن يتراجع .. زادته الدموع اصرارا على موقفه .. وفى حى المطرية ، وعلى ناصية حارة الكومى التى تسكنها .. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر فوجئت وفوجىء فتاها « بسليمان » .. يمسك به من كتفه ، ويضع المطواة على عنقه ، وهى حادة تلمع .. ولا ينقصها لكى تغوص الا أن يدفعها .. وقال له اخرج السلسلة التى ترتديها ، وقدم الساعة دون مناقشة ، وأهرب هذه المرة بجلدك .. فلن أذبحك اكراما لها ! لم يكن الموقف يحتمل مناقشة . لا سيما ، وقد رأى المارة يولون هاربين دون أن يحاول أحد التدخل .. فأسلم ساعته والسلسلة .. والذلة تخترق جسده صاعدة هابطة .. واستغل موهبته فى أن يبتلع الموقف ، ويرسم ابتسامة يرجوه فيها فقط أن يذهب معها الى البيت لكى يعود من هناك بأوراق .. حتى لا يحضر مرة أخرى ، ووافق «سليمان» ومنحه خمس دقائق .. ودخل الفتى « سيد » منزل الفتاة .. وأسرع يختطف سكينة يخبئها تحت ملابسه .. وعبثا حاولت مرة أخرى أن تثنيه .. لكنه قفز منها ، وهبط الى الشارع .. كان « سليمان » يجلس على المقهى ، وأشار له ليقترب منه .. لكى يؤكد له أنه لو جاء مرة أخرى فلن يعود .. واقترب منه « سيد » حتى

لم يعد بينهما سوى سنتيمترات .. وفجأة أخرج سكينة فى سرعة ، وطعن بها « سليمان » الذى زاغ من الطعنة بعنقه فاصطدمت برأسه الذى انبثق منه الدم .. فأسرع يهاجم الفتى بمطواه ليدفعهـــا فى صدره .. ثم يسحبها سريعا ليدفعها ، وسقط « سيد » فى نفس اللحظة التى وصلت فيها « ميرفت » لتنحنى عند رأسه .. يملأ عينيه منها قبل أن يغمضها الى الابد ، أما هى فركعت مذهولة تجمع أحلامها التى تحولت الى جثة تعوم فى بركة من الدماء .. ورفضت أن تتركه .. كانت تهمس فى أذنيه بكلماته التى قالها لها .. وكان يسمعها ليموت وصوتها فى أذنيه وصورتها فى عينيه .. !

واختفى « سليمان » . فر من المطرية كلها .. وفى مكتب العميد عبد الحميد منصور عقد الاجتماع الذى ضم العقيد عباس العاصى رئيس المباحث ، والمقدم حازم شفيق مفتش المطـــرية والزيتون ، والشرابية ، ورسمت خطة للقبض عليه قام بتنفيذها الرائدان عادل سليم ، وصلاح هاشم وقد وجدا القاتل مختفيا عند أحد أقاربه باحدى العزب التابعة لقسم المطرية ، والجرح الذى فى رأسه كان ما زال ينزف الدماء .. وقـد اعترف بالتفصيل أمام النيابة .. !!

الـــولـــد الـــرابـع

أعوام « الولد » وأيامه .. لا تقوى على حمل الصدمة .. مأساته فوق قدراته .. تتكسر أغصان حياته .. تتساقط منه أعماقه .. يرتعد كمريض الحمى يغوص فى اللحظة الحرجة .. يعود الى قمة وعيه .. تحوطه أشـــباح جريمته .. يحاول أن يهرب منها يتخلص .. يتملص يعترف يصرخ فى المحققين .. أنا لم أكن القاتل ..ويسقط فى هوة الندم .. تجتاحه عواصف هوجاء لا يمكن الا أن يبكى أمنيته الآن .. أن يسقط ميتا .. حتى لا يعـــانى ما يعانيه ، ويفلت من عقاب قادم لا شك فيه . لـكنه يمضغ ألمه ويبتلع غصته ، وهو يروى قصته ..!

فتحت عينى على الحياة فى رحابها . منذ أن وعيت، وهى جزء من أسرتنا .. أحيانا يجىء ترتيبها قبل أمى وأبى ، وأحيانا بعدهما تسكن معنا .. « شقتها » فى مواجهة شقتنا .. ولما كانت وحدها ، ونحن عشرة أشخاص فى الشقة .. من أجل ذلك كنت دون أخوتى ألجأ اليها .. اختارتنى أنيسا لوحدتها ، وأرضانى ذلك الاختيار وفى عينى أمى وأبى كان مثل ذلك الرضى وكان ترتيبى الرابع بين اخوتى ..

يشغل والدى وظيفـــة تافهة فى وزارة الزراعة .. لا يكفيه مرتبه ، ويعمـــد الى العمل بعد الظهر فى كل ما تتيحه له الظروف وما يمكن ان يضيف الى دخله درهما ينفقه على هذا العدد من الاولاد والبنات !

كانت تشفق على ، وأجد عندها دائما ، ما لا أجده فى بيتنا .. وهى سيدة غنية تزوج ابنها ثم ابنتها ، ورفضت أن تذهب مع أحد ، وظلت فى سكنها ، تتمتع بالدخل الكبير الذى يأتيها ، وتنفق على نفسها فى حدود المعقول ؛ وتدخر الباقى فى البنك وتشترى ببعضه ذهبا فى يدبها ، وعنقها .. !

بدأت أكبر مع الايام ، وفى شـــهادة الاعـــدادية .. تعرفت على « مكوجى » كنت أجلس عنده .. حانوته على ناصية الشارع تعلمت منه المهنة ، وكنت أعاونه .. ففشلت فى الاعدادية حاول أبى أن يجعلنى أكررها رفضت وصممت على العمل فى المهنة التى عشقتها .. تركنى أعمل أمام اصرارى .. !

خلال ذلك استأجر أبى شقة فى شارع الهرم أكبر من التى كنا فيها .. نقل الاسرة اليها ، وبقينا أنا وأخى الكبير فى « الشقة » القديمة .. أتمتع بحنان السيدة . وأعمل فى حانوت « المكوجى » وكان لابد أن أحصل على بطاقة شخصية .. فذهبت الى محل « تصوير » .. اذ لابد من صور للبطاقة .. وأعجبتنى عملية التصوير ، وعرضت نفسى على صاحب المحل فوافق على العمل عنده وتحولت من « مكوجى » الى « مصور » .. لست أدرى لماذا أنا هكذا .. ؟

لم يســـتطع أحـــد أن يقف فى طريقى .. وقد باركت

اتجاهي الاخير .. وكان تعليقها انني اعرف مستقبلى ، وحر فى سلوك اى الطرق اليه .. !

عملت فى التصوير ، وعانيت كثيرا طويلا لكى اصل الى اسرار ذلك الفن العجيب .. كنت كل يوم ارى جديدا .. وكلما تعلمت شيئا طالبت برفع أجرى .. حتى اصبح أجرى اليومى ١٥٠ قرشا على مدى سنوات اربع قررت بعدها الزواج من فتاة ربطتنى بها علاقة حب .. !

الزواج مسئولية ، ويحتاج الى امكانات مالية .. ليست في وسعي .. ان المبالغ التى احصل عليها من صاحب الاستديو .. بالكاد تكفيني ، وتكفى مصروفاتي التي زادت ـ تعلمت السجائر ومعيشتى وحدى مع شقيقى كانت تكلفنى كثيرا .. لا انكر أن « الحاجة » كانت تمدنى دائما بالفاكهة .. بالطعام الجيد .. لكن كان من العسير ان أطلب منها مساهمة فى زواجى .. لم استطع هضم مثل تلك الفكرة .. انها تحنو على .. لكنها ليست امي الحقيقية .. فتقدر مدى حاجتى الى الزواج او عدمه !

وتحت الحاح عشرات العوامل ، وتشابك الظروف . تقدمت الى أهل « نادية » ورحب بى والدها ، وأخوتها ، وقررنا أن نتقدم بالشبكة فى يوم قادم .. حددناه بعد خمسة عشر يوما .. وقيمة الشبكة ثلاثمائة جنيه « لا امتلك منها سوى ثلاثمائة قرش » ..!

فجأة وجدت نفسى بين فكر وقلق طاغ مدمر .. من اين لى بهذا المبلغ .. ؟ لماذا تورطت فى ذلك .. ؟ لعلى اردت ابداء حسن النية لأهلها ..؟ كنت اريد أن ارفع راسها بين اهلها .. ! لكن القيت بنفسى فى محيط من

الحيرة .. لماذا وضعت نفسي فى هـذا المـأزق .. ؟ وعجزت حتى عن العمل .. تحت تأثير هذه الضوضاء النفسية التى صنعتها لنفسي بيدى .. واضنانى السهر .. وأصبت بالامساك ، وامتنعت عن الطعام الا ماوجدته وأكرهت عليه .. وداخلني شعور بالعجز حينا ، وبالمرض احيانا .. حتى قواى العقلية .. كنت أحس أنها غادرتنى .. أو اعتراها الضعف .. تفكيرى لم يعد صافيا .. الامور فى ذهني .. تختلط ببعضها .. كأنها تسبح فى بخار .. أو كأننى انظر بعينى الى مرئيات عبر نافـذة قذرة الزجاج ..

اسقطت من حسابى اللجوء الى ابى تماما .. فهـو لا يملك ، ومن اين له .. ؟ هذا الى جانب انه دفع فى « الشقة » الجديدة كل ما ادخره طوال حياته .. اخواتى ايضا هم مثلى .. مرتباتهم على قـدر مصروفاتهم .. ووجدتنى فى النهاية أفكر فيها .. فى « الحاجة » .. !

شغلتنى همومى . فانزويت بضعة أيام عنهـــا .. الحقيقة هى انني أردت أن تغيب عن عينى هذه الايام .. شعورى بأنها تمتلك مالا هى ليست فى حاجة اليه . وانني لا أملك ما أنا فى حاجة اليه .. جعلها فى خيالى صورة غير مرغوبة .. ولم أكن أريد أن يتركز تفكيرى فيها .. فذلك ليس فى صالحى ، ولا صالحها .. وحينما كنت أغادر الشقة مساء .. لكى أذهب الى المقهى .. كنت على موعد مع صديق لى .. رأتنى فى الحارة من شرفتها .. نادت على .. صعدت اليها .. قالت لى أن فاكهة من البلد وصلتها ، وسوف تصنع لى « شايا » ، وقلت لها : اذن سوف أرى المسلسلة فى تليفزيونها الملون ،

وكنت أتابعها فى تليفزيون المقهى .. أبدت سرورها ، وطلبت منى أن أدخل المطبخ لعمل « الشاى » ريثما تنتهى هى من صلاة العشــــاء .. وجلست تصلى وهى فوق الأريكة « الكنبة » دون أن تغادر مكانها .. !

دخلت المطبخ ــ لم تــكن المرة الاولى ــ ووضعت « الشاى » فوق البوتاجاز وخرجت الى الصـــالة .. كانت مستغرقة فى الصلاة .. المسلسلة كان اســمها « أرزاق » بطلها نور الشريف ، وفيها يقتل شقيقه الصغير عجوزا ليستولى على مالها .. فى هذه الحلقـــة التى رأيتها معها حدث ذلك .. وركبتنى الفكرة .. حتى لم أستطع التخلص منها .. لاحظت شرودى بعد الحلقة .. سألتنى ما بى .. ؟ قلت لها اننى فى حاجة الى قرص مسكن لاننى ضحية صداع غريب .. أشارت لى على مكان القرص ..

ابتلعت القرص فى المطبخ .. وانا ابتلعه وقعت عينى على الحديدة الثقيلة التى تضعها خلف باب « الشــقة » ليلا .. ومضت الجريمة كاملة ــ امام بصرى فى أقل من ثانية .. شــاهدت نفسى .. أرفع العمود الحــديدى ، وأهوى به على رأسها من الخلف .. تسقط تموت فى لحظة .. احررها من غوايشها ، ومن السلسلة التى فى عنقها .. وأغادر « الشقة » فى هدوء .. !

توقف القرص فى حلقى .. توهجت السنة من اللهب فى داخلى .. صكت أذنى دقات طبــول لست ادرى مصدرها .. انشطرت لحظتها الى اثنين .. بعضى خرج والعمود الحديد فى يده .. مشى يتلصص .. يسترق الخطوات ــ كنت أرقبه من مكانى .. لكنه لم يسمعنى

.. ولم تسـمعنى هى .. هوى بالعمود .. اطلقت صرخة مكتومة .. لم أستطع أن أرى شيئا بعـد ذلك .. أغمى على .. !

أو لعلى خرجت من مكانى ، واندمجت فيه .. صرنا واحدا .. جردتها من مصوغاتها .. خرجت الى الشارع، وجثتها مكانها على الأريكة ، ويدها مدلاة بجانبها .. !

لم أبت فى « الشقة » الليلة .. ذهبت الى بيت أبى فى الهرم .. ومع ذلك فلم يغمض لى جفن .. كنت نادما .. لكنه ليس كندم الآخرين .. كنت مهروسا بين عشرات المشاعر .. كنت مذبوحا ، وكانت قطرات دمى .. تسيل داخل قلبى .. !

بقيت فى شارع الهـرم .. اخشى ان اجىء الى الحارة .. اكتشفت الجريمة .. هبت مباحث الجيزة .. نشط رجالها فى جمع التحريات .. فوجئت بالعقيدين محسن جبر ، وطـارق حكيم ، يلقيان القبض على .. أنكرت التهمة فى أول الامر .. ناقشنى مدير المباحث العميد حلمى الفقى ، ورئيس المباحث العقيد ابراهيم راسخ فى آخر مرة كنت فيها لدى « الحاجة » .. لم أجد مفرا من الاعتراف .. ! الاعتراف، بأننى شـهدت الجريمة . لكننى لم ارتكبها .. الذى ارتـكبها شخص آخر .. خرج منى ثم عاد الى .. انه داخلى .. !!

ويكف الولد عن الكلام ، وتحوطه أشباح جريمته .. يحاول ان يهرب منها .. يتخلص .. يتملص .. يصرخ فى المحققين .. انا لم اكن القـاتل .. انا لم اكن الفاعل .. !!

خـــارج المعتـقـل

هل هو الان يولد من جديد ..؟ ليته كان كذلك ..
فكل مشاكله قديمة .. وهى سوف تنفجر الآن واحـدة بعد الاخرى .. ان السجن الآن يلفظه ليلقى به ساعات فى مديرية الامن .. ثم يصبح حرا .. أسير حريته .. بعد ان كان حرا فى السجن .. وراء جدرانه خمسة أعوام ضاعت من عمره داخل أكثر من معتقل .. دون أن يعرف تهمته على وجه التحديد .. الى أن يئسوا منه تركوه الآن ..

كان يريد أن يفرح ، وأن ينتشى من الفرح .. لكنه لا يجد فى أعماقه فرحة يمارسها .. فحياته الحقيقية انتهت وأهيل عليهـــا التراب .. حينما اقتنصوه .. وأبعدوه اعتسافا عن الحياة .. عن النسيج الذى كان يتألف من وجوده .. استلوه كخيط غريب ، وحجزوه فى معتقلاتهم ، تركوا بقية النسيج يحيا ، ويعيش مع الايام بدونه .. زوجته « فتحية » ماذا تفعل الآن .. ؟

لقد مضى النسيج فى طريقه ، وتركه وحده خارج رقعة الحياة ..

لم يكن يملك أن يقول شيئا .. بعد شهور من الاعتقال جاءت تزوره .

قالت انها عادت الى بيت أمها .. لان أجرة الشقة تراكمت عليها .. كانت تعرف ان ذلك يشعل النار فى جسده .. لكنه لم يدخله المعتقل الا اصراره على التوبة، طأطأ رأسه .. وابنه الذى وضعته حديثا على يديها .. قالت انه كان فى بطنها ليلة ان اخذوه .. وهو لايستطيع أن ينكر ، ولا ان يصدق .. شعر انه يقف فى زورق .. الارض من تحته تهتز تروح وتجىء .. وتدور ولا تتوقف .. لكن الناس يرمونهم .. وهو لا يطمئن الى الام ... يعرف أنها صاحبة « دوسيه » .. لكن ليس أمامه الا أن يصبر ويقبل ، ويتظاهر بالمرض ... لانها مثله مغلولة .. مكبلة .. حتى وهى طليقة .

لكن الذين نقلوا اليه الشكوك .. اقرب الناس اليه .. والدته وشقيقته ، كلاهما لم يكن راضيا عن هـــذه الزيجة .. وقال له شقيقه يومها .. ان فتحية ابنة امرأة مشبوهة .. لكنه صاح فى شقيقه يومهـــا .. ان الله يحاسب كل انسان على عمله هو .. فلمـــاذا يحاسبها على أعمال والدتها .. وأصر على أن يتزوجها.. فهو رجل يخشى الله ويعرف الطريق اليه جيدا .. ولم يدخله المعتقل الا اصراره على التـوبة ، واطلاق لحيتـــه .. والآن هو ..

يوم أن زارته أمه بعد عام من الاعتقال .. قالت له بلهجة تأنيب .. مبروك جالك ولد .. فتحية وضعت ولدا .. وعلق شفتيه وابتسم .. وحزن هو ــ وبــكى داخل ضلوعه دون أن يرى أحد دموعه .. نثر الشكوك

فى أعماقه .. وراحت البـــذور تنمو وتكبر .. ولم يستطع ان يقول لفتحية كلمــة .. فقد كان مكبلا من الخارج والداخل .. وها هم اليوم أطلقـــوه .. هل يستطيع أحد أن يعيده الى مكانه فى نسيج الحيــاة ، كما كان .. ؟

لم يفطن من زحمة التفكير .. انه أصبح على باب الحارة .. أول من التقى به .. « حسونة المكوجى » .. صرخ هاتفا باســمه . ثم اندفع يحتضنه .. وتحلقت حوله الحارة برجالها ، ونسائها .. وهتفت امرأة من النافذة .. تنادى على « فتحية » :

ـ جوزك رجع يا فتحية .. بنت يا فتحية .. جوزك رجع ..

وشعر انهم حملوه حتى باب البيت الذى تسكنه حماته .. كانت « فتحية » تقف وهى تعانى من لحظة أغرقتها فيها المشاعر .. ووجد نفسه يقتحم لحظة اللقاء .. يسقط من نفسه ، وتسقط نفسه منه .. امتلأ البيت عاد يفرغ .. يفرغ .. حتى لم يعد الا هو وهى . كان ينظر فى عين « فتحية » .. كمفتش لا كمشتاق ، كان يريد أن يضع يده على الاثم .. حتى عندما تمددت بجواره فى الليل .. مسح جسدها بنظـراته ، ودفن أنفه فى صدرها .. لعله يشم رائحة الاثم .. وظنت انه يقبل عليها بكل حرمانه .. فأقبلت عليه ، وانتشى من الرغبة التى تستنهض بها رغبته وتضـــاعفها ، وهم بأن يلقى بنفسه فى فيضانها المتدفق .. لكنه عجز .. قيدته الشكوك .. حاصرته القيود التى كانت .. وظن أنهـــا

زالت .. اطلقوه لكن بعد أن خربوه ، ودمروا أعظم ما كان فيه .. أصابوا فيه القدرة على ممارسة الحياة ..

فزعت .. أحيطت .. أحست انها صفعت برغباتها الملقاة في وجهها .. لكنها خشت أن يبدو هـذا على ملامحها فيؤلمه .. فابتلعت أحاسيس الحنين وتركت مرارتها تعود الى عروقها ..

حاولت أن تحدثه عن أشياء كثيرة .. ألقت بنفسها في بحر الذكريات .. تقلب بصـوتها الرماد .. عساها تجد جمرة حب ما زالت مشتعلة .. لم تطفئها الشكوك ولا القيود .. لكنه كان يسمعها بعينيه .. انه يفحصها يريد أن يحللها تمنى لو ان هناك المعمل الذي يضعون فيه البشر .. فيقول هـذا خائن .. وذاك أمين .. ؟ وأدركت بمشاعر الانثى .. ان « ذكرها » مكدر الرغبة .. تفترش رجولته شكوك غير معلنة .. لم يـكن من مصلحتها ان تناقشها .. أوحت اليها أنوثتها أن تتجاهلها وأن تغمره بعطف انثوى يكتسح الشـكوك من نفسـه ويقتلعها ..

وحاولت ، خيل لها أنها أعادت اليه رغبته الصفاء . الا انها هي الاخرى أحست بدبيب الشكوك .. أفزعها أن يتسلل اليها العقم العاطفي ، وان تجد نفسها عاجزة عن احتوائه .. فقد برزت في كيانه العاطفي نتوءات .. جعلت احتواءه مستحيلا حولت الشكوك طعمه الى مرارة ..لا سبيل الى امتصاصها .. دون مناقشة .. وفجأة فتحت له الموضوع .. ورقـدت علاقتهمـا جثـة على المشرحة ــ وامسك هو بمبضع وامسكت هي بمبضع آخر .. يريدان استئصال الشكوك . ولم يفطن كلاهما الى ان

المريض الذى يحاولان انقاذه قد فارق الحياة ..

بعد أيام حدثت أمها بمخاوفها .. قالت انه يكتم فى اعماقه عملا ما .. سخرت الام من حديثها .. قالت لها انه طول عمره رجل بلا قرار ، وجاء الاعتقال فقضى على البقية الباقية منه .. انه انتهى من زمن هو الآن صورة فقط .. لم تكن الام تدرك ان هؤلاء الضعاف .. هم الذين يقدمون على الجريمة .. الرجل الضعيف دائما امام زوجته .. هو الذى يقتل .. لانه عاجز .. والقتل عجز لا قدرة .. القدرة فى مثل هذه المواقف .. هو ان يطلق وأن يقترن بزوجة جديدة ، وأن يبدأ حياة .. عليه فيها أن يحرث من جديد .. والعجزة لا يملكون كل هذه القدرات التى تجعلهم يقدمون على مثل هذه الاعمال .. لهذا ، وسترا لعجزهم يقتلون لانهم لا يملكون القدرة .. حتى على ترويض زوجة جديدة ..

والعجز الذى يرينه زوجاتهم .. هو الذى يغريهم بالاستهانة بهم .. مطمئنات الى العجز الذى أحيانا يصل الى حد البلاهة .. لكن .. لكن فجأة يستكملون ذلك العجز ، ويقتلون .. ثم يحاولون الانتحار بعده .. لكنهم يفشلون .. وان كانوا فى الواقع .. قد عبروا بقتل الزوجات عن الانتحار ..

وعليه فان « فتحية » كانت تنتظر الموت لكنها كانت تستبعده .. وتحاول أن تتحصن بالحب القديم ..تثيره داخل زوجها ..

فقد يكون محاميها لدى ضميره عندما يحاكمها ..

أما هو فكل يوم كان يدنيه من الجريمة .. فشل فى

أن يحطم الحاجز الذى يقوم بينه وبينها فى أعماله .. وأيقن انه ضاع بسبب خيانة « فتحية » ..

فى الليلة السابعة لخروجه من المعتقل .. أعدت له طعام العشاء .. لكنه لم يتناوله .. جلست تستثيره .. مالت عليه تقبله فى عنقه .. وتناول وجههـــا فراح يقبلها فى كل مكان فيه .. ثم توقف عند عنقها .. فقبض عليه بأصابعه العشرة .. ثم ظل يضغط ، ويضغط .. وظنت إنه يداعبها .. ثم أيقنت انه فقــد عقله .. ثم لم تعد تشعر .. أما هو فظل يضغط .. حتى سقطت عليه .. تركها تموت .. ثم أشعل سيجارة .. وذهب الى القسم فسلم نفسه ..

محبوب قتل أمه

لاذت الحارة بالصمت .. عراها الذهـــول .. رغم وجود المادة الشهية للثرثرة .. فقد قتل الولد «محبوب» والدته .. فماذا حدث « لمحبوب » .. ؟ لا احد يدرى بالضبط على وجه التحديد .. لكن المؤكد ان « الولد » فى لحظة سقط فيها عقله .. أمام واقع فوق ادراكه .. فلا هذا تراجع ، ولا ذلك ســـايره فى أزمته .. هـكذا ذهبت « فواكه » الى غير رجعة .. !

وعندما أقبلت الشرطة .. وخرجت « بالولد » كان عارى الرأس .. تمزقت ملابسه المهلهلة ، ولونت بالدماء التى قيل انها من دماء والدته .. ولكن المهم النظرة التى التى كان يرسلها « الولد » أشبه ما تكون بنظرة أبله .. تجمد وعيه عند لحظة .. يعجزه أن يجتازها : ويعجزه أن يبقى أسيرها ..

منذ أعوام بعيدة .. جاء الاسطى « سيد » النجــار بزوجته الصغيرة « فواكه » من الريف . بعد ان فشل فى زوجتين سابقتين .. لم تحققا له انجاب الولد .. كان الرجل قد تجاوز الاربعين ، ولم تكن الفلاحة الصغيرة قد وصلت الى السابعة عشرة .. وقبل ان يمضى العام

كانت قد وضعت له « محبوب » ، ويومها لم تكن الدنيا تسع الرجل من الفرحة .. ولم يقدر لها أن تنجب بعده .. رغم المحاولات المكثفة..عند الاطباء ، وكتاب الاحجبة وأخيرا استسلما وركزا عنايتهما فى تربية « محبوب » .. وخشى عليه الاب من متاعب مهنته .. فدفع به الى الكتاب وكان مناه أن يراه شيخا معمما ..!

ولم يكد « محبوب » يتجاوز العاشرة من عمره .. حتى سقط الاسطى النجار فريسة مرض طويل .. استهلك فيه كل ما كان يدخره .. ثم رحل عن الدنيا تاركا « فواكه » فى عز صباها ، و « محبوب » غلاما لم يتجاوز الثانية عشرة ..

ورفضت الارملة الحسناء أن تعود الى الريف .. فلم يكن لها من يعولها هناك ، وصممت على أن تعيش فى الحارة .. وان تكسب عيشها من العمل فى بيوت القادرين ، ودفعت بابنها الى حانوت يعمل صاحبه فى مهنة النجارة .. حتى ترى « محبوب » بعد سنوات نجارا يواصل صناعة والده ..

فى أول الامر فزع « محبوب » لتصوره انه سوف يترك الكتاب ويترك « سيدنا » ويذهب الى «ورشة» ، ويستبدل « بسيدنا » الاسطى .. لكن والدته قالت له انهما فى حاجة الى الاجر الذى سيدفعه له الاسطى أسبوعيا .. ولم يعد فى وسعها أن تدفع « لسيدنا » المعلوم كل يوم خميس .. وأعلن « سيدنا » انه متنازل عن « الخميس » .. لكن الحاجة كانت أقوى من الجميع، وذهب « محبوب » الى الورشة وقلبه الصغير يقطر دما .. فقد كانت آخر كلمات والده له .. أن يواظب على قراءة القران .

.. لكى يرحمه فى قبره من عذاب النار .. لكن « فواكه » فى كفاحها من أجل العيش لم تدرك ماذا يعتمل فى صدر الصفير ، ومن أين لها تدرك ، وهى تعمل فى قسيل القادرين من الصباح حتى بعد صلاة العصر .. ثم تعود مسرعة الى بيتها لتعد الطعام لها ، ولابنها الذى يعود منهكا من الورشة آخر اليوم .. !

خلال ذلك الصراع .. لم تنتبه الى شىء هام .. ان انوثتها تزداد اكتمالا ونضجا ، وان خروجها للعمل قد اكسب جسدها تناسقا ، وأضفى الاكل الشهى الذى كانت تتناوله فى بيوت الكبار .. عليها رواء لم يكن لها أيام المرحوم .. وان نشرات العيون تنهبها ، وقد تقدم اليها بعضهم يطلبها للزواج ولكنها رفضتهم ... لانهم جميعا كانوا أصحاب زوجات ، ولانها تريد أن تتفرغ لتربية « محبوب » الذى بدأ يتعلم المهنة .. لكنه لم يكن راضيا تماما عن هذا التغيير الذى أرادته له والدته ..

بين الحين والحين .. لا سيما فى الليالى التى كان يعود فيها منهكا من العمل ، ومن حمل الاخشاب ، ومن نشر الابواب والنوافذ .. كثيرا ما كان يقول لوالدته فى عتاب .. « الله يسامحك » .. اما كان يمكن أن أكون الآن قد ختمت المصحف .. ؟ وكانت « فواكه » تهون عليه الامر .. بأنه أوشك ان يصبح « أسطى » ، وأن أجره الاسبوعى قد وصل الى ما يقرب من جنيهين فى الاسبوع .. !

وذات يوم دخل « محبوب » الـ ارة محمولا على كتفى زميلين له ، وهو يتوكأ عليهما ، وأدخلاه المنزل حتى استقر فى الغرفة التى كانت خالية من والدته ، وذهبت

احدى الجارات فنادتها ، وجاءت الام وقد أفزعها الخبر .. فقد سقطت قطعة خشب ثقيلة على ساقه واحدثت بها كسرا ، ووضعت قدمه فى « الجبس » .. وفى المساء جاء الاسطى « حنفى » صاحب الورشة .. لكى يطمئن عليه ..

والذين يدعون العلم ببواطن الامور .. يقولون ان المأساة بدأت منذ هذه الليلة .. فالاسطى « حنفى » .. كان من أصحاب الورش الذين بدأوا من الصفر ، وظل فى صراع دائم من أجل الوصول الى الرغيف .. ثم واصل الصراع الى أن أصبح من تجار الموبيليات المعروفين ، واستغرق ذلك سنوات شبابه مع زوجته التى أعطته نصف دستة من الاولاد والبنات ..ثم تحولت الى شىء يجده فى البيت كلما ذهب اليه .. مخلوقا اليفا .. مريضا دائما .. لا تكف عن الشجار أحيانا ..

وفوجىء الاسطى « حنفى » بجمال « فواكه » .. لقد كان فى ذهنه أنه سوف يرى أرملة عجفاء .. عمشاء .. تجاوزت الخمسين فاذا به أمام وجه لم تخط السنوات فيه خطا .. على جبينها أو على وجنتيها .. يفيض بالبياض ، ويختنق بالحمرة ، ونظرة من عينين مكحولتين بلا كحل .. ينام فيهما الحرمان ، وجسد يعلن فيه كل عضو استقلاله .. رغم الحماية التى يسبغها عليه الثوب الواسع .

ودارت رأس الاسطى « حنفى » وهو يجلس بجوار السرير الحديدى العتيق .. لكى يضع يده على جبهة « محبوب » يتحسس حرارته ، وهو يهون الامر عليه .. وعيناه تنفذان الى كل موضع من جسم المرأة ..

جلست تعد له الشاى ، والرجل لا يرفع بصره عنها الى حد أربكها ..

وشرب الاسطى الشـــاى ، وقام يتأهب للخروج ، وقالت له « فواكه » فى رقة ونعومة تعلمتها من بيوت القادرين .. انها كانت تتمنى لو أنها استضافته على العشاء .. فضحك الاسطى « حنفى » وهو يقول .. ان هذا واجبه ، وسوف يحدث غدا .. لان الطبيب أوصى بأن يطعم « محبوب » أطعمة دسمة لكى تختصر أيام العلاج ، وحتى يلتئم الـكسر البسيط الـذى فى قدمه ..

وقبل أن يغادر الغرفة أخرج حافظة نقوده ، ودفع الى « محبوب » بورقة من ذات الخمسة جنيهات .. لكن « محبوب » رفض فهو لم يعمل سوى يوم واحــد من الجمعة الجديدة ، ولكن الاسطى « حنفى » أقسم بالايمان المغلظة .. ثم دس الورقة فى يد « فواكه » وبات ليلته يحسـد اصابعه .. وهى تأخذ بيديها الغضتين .

وتوالت الزيارات ، وتوطدت العلاقات .. ولم تعــد تخرج للغسيل فى بيوت القـــادرين .. فان ما يدفعه « حنفى » من أجر لـ « محبوب » أصبح يغطى المصروفات ويفيض .. وتحامل « محبوب » على نفسه وعاد الى العمل لكى يقطع على الاسطى « حنفى » الطـريق .. ولكن ..

لم يعد « حنفى » بقادر على الاستغناء على الذهاب الى بيت « فواكه » كل يوم فهو فى الظهر يتناول الغداء، وفى الليل يتناول العشاء ، وعلى « محبوب » أن يتسلم

مفاتيح الورشة .. فهو الذى يغلقها أخر الليل ، وهـو الذى يفتحها أول النهار ، وهو الذى يحاسب العمال ، وبدأ العمال يتغامزون .. ولكن « محبوب » لم يكن فى حاجة الى غمزاتهم .. كان واعيا بما يدور حوله بأكثر مما يلزم ..

ففى أعماقه ان أمه حالت بينه وبين حفظ القرآن ، وكانت وصية والده له ولها فلم تعمل بها .. وانها ألقت به فى محيط لا يفهمهم ولا يفهمـــــونه ، ولا يحبهم ولا يحبونه .. وانها ، وهذا هو الانكى والامر .. فتحت صدرها « لحنفى » وشجعته على الانفاق عليهما ، ببذخ ، وانها لكى تسد عليه الطريق .. حدثته فى أن تزوجه من ابنة الاسطى « حنفى » التى لم تتجاوز الرابعة عشرة ..

انه ليس غافلا عما يدور حوله .. بل انه يحس به احساسا مضاعفا يزيد من عذابه ، ويجعله يحول بعض الاوهام الى حقائق .. تسد عليه الطريق الى التفكير السليم .. وكثيرا ما امتلأت نفسه بالغضب وحصد فى صدره كل عوامل الثورة عليها .. لكى يحدثها فى ذلك ويلقى بين يديها بما يحسه .. لكنه كان يفقد شجاعته بمجرد أن يجلس اليها ..

وحاول أن يستجمع بعضه ، وان يقف داخل نفســـه منتصبا .. ليواجه « حنفى » وليقول له أنه لا داعى لأن يزوره فى البيت .. لـــكنه كان يرتجف كلما واجهه ، ويصرخ فيه « حنفى » أن يتكلم .. لكن لسانه يتحرك دون صوت .. وأخيرا ينهره « حنفى » طالبا منه أن يغرب عن وجهه هذه الساعة .. أو يأمره بأن يحمل اللحم

والخضر الى والدته ، ليعلنها بأن الاسطى « حنفى » قادم للغداء ..

أخيرا كانت جالسة صباح الاحد .. تتهيأ لاستقبال « حنفى » .. واستيقظ هو من النوم لكى يغتسل ويغير ملابسه .. وكانت تجلس وظهرها اليه تعد له الشاى .. وكانت فى كامل زينتها رغم ان حنفى « لن يصل قبل الظهر » .. ووقعت عينيه على المقص الكبير كان مطروحا بجواره .. مد يده .. تحسسه ـ أمسك به ، وعنقها مكشوف أمامه .. وتمطى الى آخر ذراعه .. ثم اعتدل فوقف .. ثم هوى به وسط عنقها تماما .. انهال به على بقية عنقها ، وصدرها وبطنها ..

استلقت تنزف من عدة مواضع .. وتطلق صرخات مجنونة توقفت فجأة .. وحينما أقبل الجيران .. كان يحتضنها ، وهو يصرخ ويبكى ..

وجاءت الشرطة .. ولف الحارة ذهول .. عقد السنة أهلها عن الكلام .. على غير العادة .. !!

الـرجـل الآخـر

كل شيء حول الجانى ، والمجنى عليها .. كان يصاغ باحكام .. ليس لها هناك اى خلط أو عشوائية .. فمنذ عام ١٩٦٩ ، والاحداث تتلاقى ، وتتلاحم .. حتى تجيء النهاية .. بعد العـديد من الاحداث الصغيرة ، التى شاركت فى صنعها المجنى عليها . بقدر لا يقل عن دور الجانى .. تجيء مفـزعة كالزلزال .. فاذا بالزوجين السـعيدين . عاشق قاتل . وقتيلة أصرت على رفض المعاشرة الزوجية .. !

عقب يوم كله « جرى » خلف لقمة العيش .. كانت حياته كلها « جريا » بل قفزا خلف لقمة العيش .. فى « الترموايات » ، و « الاتوبيسات » يبيع « الاقلام » ، و « بنس الشعر » ، و « حجارة الولاعات » .. جلس يشرب الشاى عند آخر خط العباسية .. لفتت نظره .. طريقة مشيتها .. اعجب بجمالها .. نظراتهـا التى تبعثرها على المعجبين .. ولم يملك الا ان يقول لهـا بعينيه .. أنا معجب .. وردت بعينيهـا أيضـا أنهـا مقـدرة هـذا الاعجـاب وتوقف كل شيء ... فاكتفى بذلك ..

لانواء العمل فى البيت يركب « مترو » مصر الجديدة بعد أيام .. فاذا بها جالسة .. غمز الكمسارى الا يحصل منها الاجرة .. تنبهت اليه .. شكرته انفتح باب الحديث .. هبطا معا .. جلسا فى حديقة عامة .. قالت له انها زوجة لقريب لها ، ولكنها على خلاف معه ولولا ابنتها منه ماتحملته .. وهى تعمل فى مساعدة شقيقتها عند احدى الاسر .. وتكرر اللقاء ، وقال لها ليتها تعجل فى طلب الطلاق .. لكنها قالت له ان زوجها لا يريد .. ولكن الهوى استبد بها وبه .. وفكرت فى طريقه ترغم زوجها على الطلاق .. اختفت عنده .. اخذها الى غرفته التى كانت فى « بولاق الدكرور » .. وأرسلت من مخبئها .. تملى شروطها ، وجعلت الطلاق ثمنا لظهورها .. واجتمع أهلها عليه فطلقها .. وتزوجت « باسماعيل » ..

الشكوك

واحس كلاهما بلذة الانتصار .. وحينما كانت تأوى الى أحضانه .. تنهمر دموعها .. تشكو فى حرارة من المعاناة القديمة ، وتتوسل اليه الا يتركها .. فقد بدأت أيامها يوم أن تزوجته .. اما زواجها ، وانجابها من قريبها كل ذلك كان اكراها لها على ممارسة حياة .. لم يسكنها عليها الا الامل فى الخلاص منها ..

ومضى العام ، وانجبت منه « طفلة » .. وفرح « اسماعيل » وضاعف من جولاته ليضيف الى كسبه جديدا .. لكن « عطيات » فاجاته « بانها عادت الى العمل عند احدى الاسر فى مصر الجديدة ، وغضب وأعلن غضبه

مهددا بأنه اذا لم تقلع عن العمل .. هنـــا
فورا .. وامتنعت عن العمل بعد شهر واحد .. استجابة لرغبته فى أن تكون تحت رقابته ، وتسقط حجتهـــا فى الخروج والعودة كما تشاء .. وصاحت فيه .. ان معنى ذلك أنك تشك فى اخلاصى لك .. ؟ وأسرع يقسم بـكل الايمان .. أنه لايشك ، ولكنه فقط يحبها ، ولا يريد أن يشعر أنها تتعب ، وتكد وتشقى وهو على قيد الحياة ..!

وحفزه ذلك الى التفـــكير فى الاسلوب الذى يعيش به .. « عطيات » يجب أن تحيا حياة أخرى .. ولمعت فى راسه فكرة .. لابد أن يسافر الى « السعودية » .. عشرات العمال يستعدون للسفر فى موسم « العمرة » .. وأسرع يبحث عن الطريق الذى يبدؤه لـكى يصل الى هدفه ، ولم يكن ذلك عسيرا ، وزف اليها بشرى الخروج من هذه الحياة الضيقة .. الى الانفتاح على العـوالم الاوسع .. وحينما شاهدت تذكرة الطائرة فى يده .. أطلقت « زغرودة » فقد جاءت الدنيا تخطب ود«اسماعيل» ووقف يودعها .. لم يطلب منها سوى أن تعمل على تنفيذ رغبته .. لا عمل فى البيوت على الاطلاق بعد شهر واحد يصلها مائة جنيه .. ان لم يكن قبل انقضاء الشهر .. انها من الآن سيدة زوجها فى « السعودية » يجب أن تـكون جديرة بهذا اللقب .. ومن العار أن تعمل فى أى بيت مهما كان الاجر ... كل شهر سوف يرسل لهـــا مائة جنيه ..

وكان صادقا فوفى بوعده ، وقبل أن يمضى الشـــهر وصلتها مائة جنيه .. لكن ذلك لم يمنعها من ان تستجيب

لاغراء العمل فى البيوت .. زوجهـــا ليس موجودا فى القاهرة ، وطفلتها يمكن أن تتركها عند والدتها .. والعمل فى البيوت كله مكسب .. فلماذا تتركه .. ؟ وعادت الى العمل ..؟ ووصل هو بعد خمسة أشهر .. عاد ومعه بعض ماكان يحلم به .. النقود والمسجل ، والتليفزيون ، وبعض الملابس .. وتذكرة عودة الى السعودية مرة أخرى .. وسألها اذا كانت محافظة على رغبته .. فأقسمت .. لكنه لسوء حظها التقى بكمسارى كان يعرفه فى « المترو » .. فقال له كان يرى « عطيات » كثيرا ولا يحصل منهـا الاجرة من أجله ولما سألها قالت انها ذهبت مـــرة أو مرتين لتسأل عن شقيقتها هناك .. وصدق لانه يريد أن يصدق ..!!

كاذبة فقط

وحينما كان يستعد للسفر عائدا الى السـعودية .. ركبه الهم ، وارتفعت عصبيته ، وظل أياما متوترا .. ثم عرض عليها أن تسافر معه .. حملقت فيه تسأله . لماذا ركبت رأسه فجأة هذه الفكرة .. ؟ لماذا لم يعرض عليها هذا منذ أن حضر .. ؟ لن توافق أو ترفض الا اذا عرفت السبب .. ؟

وزاغ بصره ، وضاعت منه شجاعته وتلعثم لسانه ، واشرك يديه فى الشرح ، ولكنه لم يستطع ان يقول لها انه خائف عليها ، وانه يشك فى حفظها لغيبته .. ولهذا السبب وحده . يريد أن يأخذها معه .. ولم يستطع ان يفصح ، وادركت هى ما حاول أن يخفيه .. فرفضت فكرة السفر معه ، وارجأت ذلك الى المستقبل ..

وأسرع يسافر ، ولكن أعماقه غير راضية ، كان يجب أن يصر على ان تصحبه .. لماذا تراجع .. ؟ وترك لهـا الحبل على الغارب .. لكن لماذا كل هذا العذاب .. ؟ هل يشك فيها .. ؟ وهـل راى أو سمع ما يؤيد هـذا الشك .. ؟

الواقع انه ليس فى الامر سوى انها كاذبة .. اقسمت انها لم تعمل طوال مدة غيـابه ، وعرف من أكثر من كمسارى انها كانت تعمل .. وعلى كل فالعمل فى ذاته ليس عيبا ، وانما العيب والعـار أيضـا ... فى المسائل الجانبية التى يمكن أن تواكب العمل .. فهو يتطلب الخروج ، والخـروج يولد الاحتكاك والاحتكاك يولد التعارف .. الم تكن زوجة حينما تعرف بها ، وكانت تعمل .. !!

أذن فهذا هو موطن الداء فى جوانحه .. ان القصـة التى كان بطلها يوما ما .. يمكن أن تجرى احداثها مرة اخرى .. وباسلوب قد يختلف أو يتفق .. لكن من المؤكد انه لن يكون البطل .. وانما سيكون الزوج الذى يرغم على الطلاق .. وهى الآن تعيش الظروف الحسنة التى تمكنها من املاء رأيهـا ، وتملك من « النقود » ما تـكيف به حياتها .. ؟

وحاصرته هذه الافكار تنهشه صباح مساء .. ورانت على أيامه فى غربته مظلة من التعاسة .. صبغت كل شىء فى حياته بالمرارة حتى الماء ... وفى كل خطاب يـكتبه اليها .. يحذرها من العمل ، ويرجوها الا تكثر من الخروج من المنزل ..

ولم يتمكن من العودة الا بعد عام كامل .. ووجدها وقد وضعت خلال العام ولدا .. وتوسل اليها أن تسافر معه هذه المرة ، وسافرت ، ورغم كل المغريات التى قدمها لها هناك .. الا أنها أصرت على العودة ، وعادت لتعيش هنا ، على أن يتردد هو بينها وبين السعودية .

ومضت خمس سنوات .. وهو يتعذب دون أن يفصح .. لكن السفر لم يشفه من دائه .. بظل فى شكوك ، وظنون تصل الى حد اليقـــين .. فاذا ما وصل الى القاهرة ، والتقى بها .. غرقت كلها فى بحر اللقاء ، وبقى الفترة التى يعيشها وهى غالبا بضعة اشهر .. فى عراك مستمر ، ونزاع متواصل .. لكنه لا يجرؤ على اتهامها بما يحسه .. حتى بعد أن قبض على دليل يدعم ظنـــونه السيئة فيها .. وكان « جهاز تسجيل » أعلنت انه سرق من الشقة التى اجروها فى شارع « جسر السويس » ، وذهب الى القسم وابلغ متهما أحد الجيران .. ثم ضبط هذا الجهاز عند مطلقها بعد شهور ، وعرف انها أهدته اليه .. وما كاد يلمح انه كذا ـ وكذا حتى هبت فيه صارخة ان يطلقها فورا .. اذا كان لديه ذرة من الشك فى انها تخونه ماديا أو معنويا .. وأسقط فى يده ..

كان ذلك أول هذا العام ، وحتى يقطع العرق ولا يكون هناك مجال للشكوك اتفقا على ان تسافر معه ، واشترى لها تذكرة ، وحصل على تأشيرة ، وحجز على طائرة تغادر القاهرة بعد أيام .. وبعـــد ان ذهبت معـــه الى المطار .. اختفت قبل قيام الطائرة بساعة واحدة ..

وسافر وحده الى « جدة » .. فلما أرسل يسألها عن السبب .. جاءه الخطاب الذى تقول له فيه .. اذا كنت رجلا طلقنى ..

وقعت الكارثة التى يحاول أن يتفاداها .. والذى يجعلها أشد ايلاما .. انها تريد الطلاق .. لكى تعود الى طليقها الذى لعب هو معه نفس الدور من عشر سنوات .. !!

واحس على بعد آلاف الاميال .. بمرارة كأس الهزيمة .. لن يكون ذلك أبدا .. ماذا نقص منى لكى ترفضنى .. بل على العكس يومها كنت فقيرا معدما ، واختارتنى .. واليوم ماذا زاد فيه لكى تعود اليه .. ؟

لن أتيح لها هذه الفرصة حتى لو كان الثمن هو حياتى .. لن اتركك « يا عطيات » .. لست مثله .. أقبل عن طيب خاطر .. أن ترفضنى انثاى لتذهب الى رجل آخر .. !!

وترك كل شىء خلفه فى السعودية ، وجاء هذا الشهر فوجدها فى بيت أمها .. حاول أن يعيدها فادعت انها غاضبة وانها لا تريد الحياة معه .. وانه يجب عليه أن يطلقها فورا .. لانها تريد العودة الى مطلقها ..

كان هذا الحوار على مشهد من بعض أقاربها ، واتجهت عيونهم اليه .. يستنفرون رجولته .. لماذا يتمسك بها .. كل شىء قسمة ونصيب .. طلقها ما دامت هى طلبت ذلك .. !!

كلهم كانوا لا يشعرون بما يعتمل فى كيانه .. فقد كان حبه لها حبا مرضيا .. حوله فى النهاية الى عاشق .. تشتعل فى صدره جذوة الحقد على المرأة التى ظن انه

امتلكها .. فاذا بهـــا هى التى ملكته .. ثم ركلته ..
وها هى الآن تريد بعد أن حصلت على جهده خـــلال
سنوات خمس فى السعودية .. ان تعود الى طليقها ..
وهان فى نظره كل شيء .. لن يتركها ؛ ولن يترك نفسه..
لا يريد أن يعيش يوما بدونها .. ولكن قبل أن يموت ..
يجب أن تموت هى .. ولمح بجواره « سكينا » .. فجأة
قبض عليها وهاجمها بغتة .. فذعر الذين من حولها ..
واتجه نحوها .. فاســـتدارت تولى هاربة .. ولكنه
ادركها .. انغرست « السكين » فى عنقها .. وانفجرت
الدماء .. وهرب هو الى الشرطة .. !!

رجـل مـــن زجـــاج

كل أخلاقه كانت هكذا .. كل نظراته الى نفسه .. كان يرى أعماقه كأنه ينظر الى ذاته من خلف زجاج لامع .. طالما تصور نفسه .. جسد انسان .. تالف .. سقطت كل دهنياته .. حتى صار جلدا وعظاما فقط . يقف فى صحراء واســـــعة يستغيث وقد رفع ذراعين نحيلتين تساقطت عضلاتهما . . يستغيث ممن ؟ ويستغيث بمن ..؟ هذا هو ما لا يدريه لكن هذه هى الصورة التى كان يرى نفسه عليها سواء فى اليقظة أو فى الحلم .. !!

حقائقه على مدى أيامه .. تمتزج بخيالاته المفرطة فى الخيال .. المتناهية فى الحلم .. لو لم يكن أهلا للوعظ ، والعلم لكان رساما بلا نظير .. فقد كان يرى نفســـــه الانسان الوحيد الذى يحيا على وجه الارض حياتين فى وقت واحد .. الحلم واليقظة .. !!

منذ لحظة اخترقته حالة فريدة .. ومضــة باهـــرة الضوء .. سطعت بين جوانحه كلحظـــة صدق ... أو قطرة ندى فى لحظة سحر تتدحرج على ســـاق زهرة لتختلط بجذورها بعد أن ذبلت أوراقها .. بددت الاضواء

المتفجرة ظلمات حناياه .. فرأى نفسه عاريا .. حتى من ورقة التوت .. وبدت له سوءات عمره !

هو على يقين من حجم الاثام التى يرتكبها موقن من الهوة التى تردى فيها لن يحمل زوجته ذنوبه .. فليس جرمهما على، قدم المساواة .. نعم هى تركته مع الاولاد الثلاثة الكبار وأخذت الطفل الرضيع .. بعد سنوات حافلة بالآلام ، والمعاناة ، والصبر على المواجع لكن فى آخر الامر أدركه ، وأدركها الملل ، كان حجم يأسها منه.. فى حجم يأسه منها ، وقد تراجع اصرارهما عن المضى فى الحياة الزوجية .. ذات يوم وجد نفسه مفلسا من كل رغبة فى معاشرتها اما هى ففضلت الاختناق فى بيت شقيقها على البقاء يوما واحدا فى بيت الزوجية .. ان تهمته الثابتة فى وجدانها .. هى انه مشطور الشخصية يبدو للناس كملاك حريص على كل المثل ، وخلف هذه الواجهة الناصعة البياض ، يتمرغ فى أوحال قذرة ويمارس أحط أنواع الآثام ، ولا يتورع أن تصل أخبار حماقاته اليها ، وهى أسيرة قيود الزوجية .. ترسف فى أغلال ابنتها الكبرى ، والولد الذى يليها .. ثم الطفل الصغير .. تأمل أن يثوب الى رشده يوما ما .. الا أن هذا الامل لا يريد ان يتحقق وقد عدا عليه اليأس ، وخنقته السيئات المتكررة الوقوع منه .. !!

وحتى يسيطر على نفسه .. حتى يستطيع أن يقيم موازنة بين ما هو ممكن ، وبين ما يجب ، وبين ما يمكن أن يكون .. امسك بقلم وراح يكتب على الورقة أمامه .

ماذا يجعلنى اندفع وراء المغامرات التى ترهق وجدانى وتثقل ضميرى وتجعلنى أفقد الانسجام بينى وبين نفسى

.. هل يقع ذلك دون وعى منى ؟ .. أم ان ذلك يحدث رغم أنفى كانتقام من زوجتى لانها خيبت أحلامى .. ؟ لكن ما ذنبها هى اننى وحدى الذى ارتكبت هذه الجريمة ضد ذاتى !

أذكر اننى حينما كنت فى طور المراهقـــة . أعجبت بسيدة متزوجة .. عشقتها فى خيالى كانت لها سمات معينة ، وأنف شامخ وجبين تلمقه خصلات شعر شرس وظلت هذه الصورة تعذب خيالى ، وأقيس من خلالهــا جمال كل امرأة أراها - حتى لقيت زوجتى - فخيل لى انها تحمل هذه الملامح .. تقدمت اليها .. تزوجتها قيل لى انها مطلقة .. فقبلت فى اللحظات الاخيرة أدركت اننى ضحية خيالاتى .. وان رغبتى زيفت على الحقائق وانه ليس فى المرأة التى تزوجتها أية سمات من المطلوبة لكن التراجع كان قد أصـــبح جريمة .. وأقدمت أبنى مستقبلى العاطفى والاجتماعى .. على ظنون لا أمل فى تحقيقها .. !

هل كنت ضحية عقلى الباطن ، وسيطرته فى لحظات الضعف على عقلى الواعى .. ؟

ممكن . لم يعد بيننا تفاهم ، وشرد الود ولم يعد فى بيتنا سوى رغبة ملولة فى دحرجة الانفجار من يوم الى يوم .. كنت أنشد لديها كل شىء ، ولم يكن لديها أى شىء .. فقد أعطت الرجل الذى طلقها كل شىء .. ثم عدا عليها فدمرها وجاءتنى خاوية الوفاض . فارغة الوعاء تريد عطفـــا وحنـانا ، وانا أبحث عنهما .. كنا كظمآنين يتسابقان الى كوب فارغ .. !

بدأ الصدام بيننا .. يعززه موقف والدها الاقتصـــادى

المتميز .. فرضوا على الاحتواء أحسست أنهم يقيدونني بقيود من حرير حتى السكن اختاروه لي في عمارة لوالدها بدأت الحلقة تزداد ضيقا .. أتخبط والطوق في عنقي .. لم يكن أمامي الا ان أبتكر وسـيلة للهرب .. تتناسب وامكاناتي شرعت في استكمال دراساتي العليا ..مستهدفا تحدى النطاق المضروب حولي والحصول في النهاية على اجازة علمية تبيح لي تبوأ المركز المتــاز ، وترفع من اقتصادياتي لأكون على قدم المساواة .. مع هؤلاء الذين يريدون أن يزجوا بي داخلهم .. لـكن حجمي اذا كبر فسوف لا يسـهل عليهم ابتلاعي ، وقـد انحشر في حلوقهم .. !!

وضع القلم وقرأ السطور التي كتبها فوجدها تفيض أنانية ، وتفيض « نرجسية » فهو لا يتكلم الا عن نفسه .. وهو يتمنى أن يتحدث عنهم .. هؤلاء الذين يشعر انهم كانوا يعملون ضده بشكل منظم .. !

تدفق الرزق عليه .. القت الدنيا بنفسها تحت قدميه .. اصبح قادرا على أن يتركها ، ويتركهم .. لو انه أدار ظهره لهـا ما أمسك به أحد .. لكن هنـاك بينه وبينها الاكباد التي تمشي على الارض .. وبين الرغبة في الخلاص منها ، والحفاظ على مصلحة الابناء كان لابد أن تتوزع أعماقه ، وتتوزع شخصيته .. فيختلط ظاهره بباطنه .. يمضي مع الرغبات المكبوتة رغم رفضه لها . محـاولا ان يسبغ عليها مشروعية يرضى بها نفسه قبل أن يرضى الناس .. فهو يؤكد لنفسه كل لحظة ان علاقاته مع الآخرين .. هي حصن الامان الوحيد لكي يظـل البيت متماسكا ،

وكانت هي ترى انها على يقين من أن مقاومتها سوف تنفد يوما ما وشيك الوقوع ما دام لا يريد أن يقلع عن حماقاته .. ابنته الكبرى تحاصره .. هي التي تضغط عليه ليعيد والدتها الى البيت . انه لا يدرى هل يقف مكانه ، ويجمد الموقف ؟! أم يخطو خطوة فيعيد زوجته .. ؟ أو يتزوج من غيرها ؟ وأين الخطـــأ وأين الصواب ؟ فى هذه الافتراضات .. والسؤال الاخير وضعه أمام حقـــائق كثيرة كان يتناساها .. !

فالطاقة النفسية والعصبية التى استنفدها : حصوله على مركزه العلمى .. قد استهلكه تماما جعله يشعر انه تجاوز السبعين رغم انه ما زال فى الثالثة والاربعين .. لـكنه يرى أن أى محاولة للزواج سوف تعذبه ، وتضيف الى آلامه الاما جديدة ذات شعب ..

أمام كل هذه المحاذير .. أحس انه مقضى عليـــه بالفشل فى أى محاولة يبذلها .. الا ان يعيد زوجته مهما كان الثمن الذى سيبذله من أعصابه .. ولما كان لا يريد تنفيذ هذه الرغبة .. لانه لا يستطيع ان يتصور عودته اليها أو عودتها اليه .. ليس امامه الا ان ينال من اللذات التى تعرض له .. كل ما يرضى حرمانه الكامن فى أعماقه .. وهو سعيد الآن لكن مايطمس سعادته فى القمة .. شعوره بأنه فى صراع دائم ويقينه أن تهافت النسوة سوف ينتهى من حوله قريبا ان عاجلا أو آجلا . بل سوف يصبح عليه أن يبذل الكثير لكى ينال القليل .. عكس مايحدث له الآن .. !!

انه يدرك دون ارشاد .. أى انزلاق سقطت فيه حياته

.. لكن ماذا يفعل ..؟ وكـــل الطـرق الى حل سليم لمشكلته .. مغلقة في وجهه .. يخشى اذا عادت زوجته.. فكأنه لف حبل المشنقة حول عنقه بيديه من جديد فليس فى أعماقه ذرة حب لها .. حقيقة يحمل لها أيادى بيضاء كثيرة .. وشفقة عظيمة لانها تعبت وهى تلد وترضع اولاده وبعض الجميل لانها سهرت بجوار سريره حينما مرض بالحمى .. لـــكن الحب الذى يجعله يتمسك بها . غير موجود فى حناياه على الاطلاق ، واهم من هذا كله .. هؤلاء الاولاد انهم اذا كانوا يسكتون اليوم على مايرونه ففى الغد لن يسكتوا .. سوف ينعكس عليهم بشكل او بآخر .. الولد الكبير . البنت التى بدات تصل الرابعـة عشرة . مسألة مخيفة أن يفكر فى هذا !

أشعل سيجارته .. ثم قام من مكانه .. كأنه ينحدر من قمة .. ارتدى ملابســـه على عجل اتجه الى بيت صهره فى استسلام كان يشعر انه لم يعد هناك اى حل سوى أن يعيدها الى البيت .. اقتنع بكل ذرة يقين فى مخه .. انه لن يسعد الاولاد الا هى .. اما هو فقد أصبح فوق أن يسعد أو يشقى .. !

صالح نفســـه على انه اخذ من الدنيا ما يريد المركز العلمى . الاجتمــــاعى . الاولاد . المللذات المباح منها والممنوع .. !

ذهب الى بيت شقيق زوجته .. فوجىء بأنهـا تضع لعودتها الشروط والبنود .. وتصر على أن تنفذ بعضها قبل أن تعود الى بيتها .. !

افزعه أن تقف منه هذا الموقف .. وهو الذى سـعى

اليها ، ومشى فوق كل كرامة كانت تقف فى طريقه .. أحس بكل التنازلات تعود اليه مرتدة تطالبه بالثأر لها ، ودون أن يشعر وجد يده تمتد الى مسدسه .. وأحست هى فهربت من أمامه .. الا انه تعقبها ، وأطلق عليهـــا الرصاص .. وأخطأتها الاولى ولكن الثانية استقرت فى كتفها ولم ينكر لكنه أيضا لم يعترف .. فقد كان يريدها أن تعود الى بيتها ..

المـــزيـف

اعتدت ان أجد المتهم يتظـــاهر بالشجاعة ويتصنع اللامبالاة .. حتى يوهم البعض بأنه على ثقة من براءته .. او خلو ذهنه من التهمة الموجهة اليه .. أما « حسونة » المتهم بالتزييف ، فقد حاول ان يلغى فى خاطرى .. انه يرتجف ، وانه يرتعش ، وانه يكاد يطير شعاعا من الفزع .. لا لأنه برىء ، ولكن لانه لم يكن يتوقع ان يسقط فى ايدى رجال مكافحة التزييف ، وعلى حد تعبيره كان شريكه قد سلبه ذاته طوال عامين كاملين استغله فيهمـا فى اعمال التزييف ، ولم يشـعر انه عاد الى نفسه أو عادت اليه .. الا وهو يرى رجال « المكتب » يقبضون عليه ..

وقد يكون صـــادقا فى ادعائه أو كاذبا .. فذلك ما ستكشف عنه التحقيقات التى تجريها النيابة .. اما الذى يعنينا هنا .. هو كيف بدأ « حسونة » حياته .. ؟ وما هى العوامل التى ساقته فى طريق التزييف .. ؟ وكيف واجه اللحظـة التى ادرك انه لا عودة الى الطريق السوى .. ؟

فى اول الامر .. سألنى ، وهو يتكلم كدبلوماسى لا كمتهم

. .اذا كنت من المحققين أم لا .. ؟ فقلت له انني لن أخدعه كانســـــان مثقف ، فأنا « صحفى » جئت لتأدية واجبى .. وأجاب بعد تردد .. كان يقرأ « المصور » ، ويتابع تحليلاتى للقتلة فقد كان يشعر باحساس غامض .. انه سوف يكون ضـــــيفا على هذه الصفحة لكنه لا يستطيع ان يقتل دجاجة .. الا هذا الشعور .. كان يدوى فى أعماقه لاسيما فى الايام الاخيرة ..

وأحسســت أنه يشــهر على ذكاءه ليجتذبنى الى صفه .. يصطادنى بنفس السلاح الذى كنت أنوى اصطياده به .. وبدأ يؤكد لى أن الصحف اليومية ظلمته حينما أطلقت عليه صفة الزعامة للعصـــابة .. فهو فى حقيقة الامر ضحية « مدرس الرياضيات » .. الذى أغراه وسهل له ، وبسط الأمور أمامه لاستغلال موهبته الخاصة فى التزييف . يريد أن يرسب فى ذهنى .. انه ليس ثابت الاعصاب ، ولا قوى الجنـــان .. حتى يوهمنى أنه ليس الزعيم أو المتهم الاول ..

ومرة أخرى قلت له .. انني أريده أن يحدثنى عن حياته كانســـــان .. كيف نشأ .. ؟ وأين تلقى علومه الاولى .. ؟ وماذا اكتنف سنوات مراهقته .. ؟ وكيف اكتشف موهبته ؟ .. ومتى كان حبه الاول ، وكيف كان حبه الاخير ..؟ وله مطلق الخيار فى أن يحدثنى عـن الجريمة أو لايحدثنى ..؟

وشاع الاطمئنان فى ملامحه الوسيمة .. لـكنه اسرع فى حرص حذر يقول .. انه يتمنى ان يعفى من الحديث عن الموهبة لان ذلك قد يؤكد ضده الجريمة .. وهو يريد أن يحيط نفسه بكل ضمانات الدفاع ، ويرجونى الا أكون

كبقية الزملاء فأتهمه بزعامة عصابة التزييف .. التى هو ضحيتها .. وليس زعيمها .. كنت كمن يروض ثورا هائجا ، وكلما خيل لى انه استسلم .. عاد يملأ الحلبة هياجا ، ويستحضر كل قوته ، ويشرع رأسه لكى يأخذنى على غرة .. ومع ذلك فهو يبتسم فى مرارة .. يرسل كلماته منمقة ، ويختار عباراته التى توشى بقراءاته العديدة وثقافته العالية .. فهو أديب ؛ وشاعر ، وقارىء ، مارس كتابة القصة القصيرة ، وكتب مسرحيتين كلتاهمـا من فصل واحد ..

واحدى المسرحيات باسم « المحاكمة » وفيها يناقش فلسفة الجريمة والعقاب ، وبطلها رجل ارتكب جريمة ما .. ثم عوقب عليها فى حياته بالسجن والغرامة .. فلما مات فوجىء بأن ملائكة الحساب .. اقبلوا يحاسبونه من جديد عليها .. ويستنكر هو ان يحاسب أو يعاقب مرتين على جريمة واحدة .. والملائكة يرفضون الاعتراف بعقاب مجتمع الدنيا ، ويصرون على عقابه على نفس الجريمة ، ولكنه يصر على موقفه من أنه سوف يظلم اذا عوقب مرتان على الجريمة الواحدة .. فى دار كان يظن أنها العـدالة المطلقة ..

هكذا لخص فكرة المسرحية التى يقول انه كتبها ، وهو فى السنة الاخيرة بالمدارس الثانوية .. وكنت طـوال الوقت مصغيا .. حتى لا أقطع استرســـاله ، وتداعى الخواطر عنده واستغل هو الصمت فراح يســـتعرض قراءاته ، وزعم انه حضر أكثر من ندوة للمرحوم العقاد من ندوات يوم الجمعة ..

وحتى أعيده الى صلب الحديث قلت له : هل فقدت احد الوالدين صغيرا .. ؟

نفى ذلك ، ويبدأ يقرر انه حتى وهو على أبواب الجامعة فى الاسكندرية الولد المدلل لوالديه .. دون اخوته الاربعة .. وأنه كان متفوقا فى الدراسة ، وأن والده ظل يشغل منصب مدير شركة من شركات القطاع العام حتى أحيل الى المعاش .. وقد حصل على ليسانس الحقوق من جامعة عين شمس عام ١٩٧٠ بعد ان رسب مرتين فى الكلية ، وفوجىء بالرسوب فى السنة الاخيرة .. وهو الذى كان طول دراسته متفوقا .. فتركت سنوات الرسوب آثارها فى نفسه .. وجعلته يقرر الا يعمل بالمحاماه ..

لكن لماذا تركت الاسكندرية وجئت الى القاهرة .. ؟

ـ لان والدى نقل من هناك الى القاهرة ، ولاحظت ان مكانتى اهتزت فى البيت بعد التخرج .. الكل يريد منى أن أعمل ، وان أعول نفسى .. كان يجب أن تسألنى عن اسباب رسوبى ؟

.. ذلك لانى كنت مستغرقا فى الرسم ، والشعر والموسيقى والكتابة .. لكن الموهبة التى أخذتنى هى الرسم .. لا يستغرق منى رسم الوجه فى لوحة اكثر من دقائق ..

أمام الاحباطات التى أصابتنى على التوالى ، وفى تتابع أحسست به يسحق أعماقى .. صممت الا أعمل فى مصر ، ورحت أبحث عن جهة فى وسعها أن تجيئنى بعقد يكفل لى العمل فى الخارج .. وقيل لى ان أحد أصحاب مكاتب السفريات فى وسعه أن يحقق لى رغبتى .. وكان هو « مدرس الرياضيات » هذا .. وحصل منى على اربعمائة جنيه فى مقابل العقد ، والسفر .. وطلب منى

« الباسبور » ، واصطدمت بأنه لابد من شهادة اعفاء من الجيش أو تأدية الخدمة .. واسقط فى يدى ..

وصمت .. فقلت له ثم ماذا .. ؟

قال : لقد اتفقنا على الا نتكلم فيما يتعلق بالجريمة .. لكن أرجو ان تصدقنى .. لقد كان « مدرس الرياضيات » والاثنان شريكاه .. أقدم منى فى العمل .. فهما يديران هذا المكتب الخاص بالسفريات قبل ان اعرفهم بسنوات .. استطاع أن يستولى على .. ان يصور لى الامر ببساطة .. وافزعنى تماما من « حسونة » الحقوقى الجامعى .. جعلنى اطوع له من أصابعه .. واغرقنى فى نهر من النقود .

يصمت .. يشير بيديه .. يفتح فمه ويغلقه .. فلا يخرج سوى الهواء ..

أنظر اليه .. اطالبه بأن يتكلم .. يقول بعد ان يشعل سيجارة ..

احببت كما يحب كل الشباب .. حب « على الطاير » كان ذلك وأنا فى الجامعة .. ولابد أن تنتهى تلك المغامرات بالفشل .. أو بالنجاح اذا أردت الدقة .. فالنجاح كل النجاح هو أن تنتهى تلك المغامرات الطفولية بلا شىء .. اثناء عملى مع صاحب مكتب السفريات .. كنت أحصل على الاقل .. كان يبيع الوثيقة الخاصة بالاعفاء من الجيش بخمسمائة جنيه .. لكنى لم أكن أحصل منه الا على ربع المبلغ .. وهكذا بقية الوثائق الاخرى .. بعد فترة وجدت نفسى اسيرا لرغباته .. حاوت الخروج عليه ، والتمرد على الجريمة .. طاردنى

حاصرني .. هددني .. عدت أنفذ ما يطلبه ، وأنا أحس بالصغار ، والاحتقار لذاتي .. وكنت تعويضا لذلك أنفق بسخاء ، وأبعثر ما أكسبه .. كأنني أنتقم من النقود التي كانت السبب .. !

بتأثير من الصراع اليومي الذي أعيش فيه .. والقلق الذي يسيطر علي ، والخطر الذي أدرك مداه كقانوني .. اضطربت كل عاداتي ، ونفذ القلق الى أعماقي .. فجعلني احمل في خاطري بصفة مستمرة احساس المسافر .. لا أستقر في مكان الا لاغادره .. السجائر كل يوم أشتري نوعا غير الآخر .. اسكن في شقق مفروشة ... تركت بيت أبي .. وجدت نفسي أهرب منه .. قد يكون ذلك حرصا مني على ألا يصيبهم الاذى حينما تحين النهاية .. كنت موقنا من أن هذه الوثائق سوف تكشف عن نفسها يوما ما ، وادخل السجن .. ومع ذلك وفي قمة هذا الخطر وجدت قلبي يخفق بحب انسانة .. !

هل تصدق انني فزعت .. فوجئت بحبها لي اكثر .. مما فاجاني قلبي بحبها .. كانت تعمل وقلت لها انني أعمل شريكا في مكتب السفريات وأن دخلي الشهري لا يقل عن خمسمائة جنيه .. الحقيقة انني كنت اقبل عليها خوفا من الوحدة .. كنت أخاف ان انفرد بنفسي فلا أجدها الم اقل لك ان صاحب مكتب السفريات انتزعني من نفسي ..!!

لم يوافق والدي على اختياري .. رايت ان من حق والدي ان يعلم فهو الذي سوف يصبح جد أولادي منها.. لكنه تعسف في استعمال هذا الحق .. رفض اختياري وحاول أن يفرض وجهة نظره علي .. لكنني تمسكت ..

قلت له انه ليس له حق الاعتراض .. فتلك مسألةخاصة بى وبحياتى ...

توقف عن الكلام .. فقلت :

ـ ماهى الاسباب التى بنى والدك عليها اعتراضه ..؟

« كان واضحا انه يريد ان يزوغ من الجواب » .

قال : هذا لا يهم .. فقد تزوجت . وأنجبت بنتا .. ولكن لا الزواج ولا الانجاب خلصنى من الصراعات التى تعذبنى .. تضاعف القلق وكنت أرجو ان يخف .. وبعد ان كنت أخاف على نفسى فقط .. اصبحت أخاف على اثنين معى .. لا يشاركاننى الخوف .. تصاعد عذابى الى حد رهيب .. لذلك تجدنى رغم كل عناصر المأساة التى تحيط بى الآن .. الا اننى اشعر ان المسافر الذى كان داخلى قد وصل الى محطته .. واننى استرجعت نفسى التى خبأها منى « مدرس الرياضيات » لحظة سقوطى فى أيدى رجال « العميد عبد الله السماحى » رئيس مكافحة التزييف ، ولحظة دخول القدم « جمال الجوهرى » على فى مسكنى الخاص بالعمل فى مدينةنصر .. استسلمت دون مقاومة .. كأننى كنت أنتظره .. شىء واحد أدهشنى هو كيف وصلوا الى .. ؟ اذ لم يكن أحد من الذين يعملون مع « صاحب مكتب السفريات » يعرف مكانى ..

« تحرك فى مقعده ، وأخرج سيجارة ، وهم باشعالها » ..

قال وهو يفتصب ابتسامة .. لقد قلت كل ما أستطيع ان اقوله فقط ..

العميد « عبد الله السماحي » .. قال لي ان «حسونة» واحد من اذكى ، واحرص الذين عملوا بالتزييف والتزوير .. والذين تنابوا على مراقبته عدة أيام .. قالوا انه كان لا يستقر في مكان أكثر من دقائق واذا ركب سيارة اجرة لابد أن يغادرها بعيدا عن هدفه .. حتى لا يعرف احد المساكن التى يأوى اليها .. وهو لم يترك وثيقة من وثائق الدولة الا وزيفها ابتداء من وثائق السفر الى شهادات الميلاد الى الشـــهادات الدراسية على كافة مستوياتها ، واختام الســــفارات والقنصليات .. انه عبقرى تزوير ولا يكتشف تزييفه الا بالفحص الدقيق ..

واضاف ان الاجهزة المسئولة في الجيش ضبطت ثلاث شهادات اعفاء من تزويره ، والبقية تأتي ...

زورق فوق الصخور

اصيخ بسمعى أسافر مع اللحن .. الذى يتهدج .. ينبض .. يتراءى كأننى أراه .. وجـــودى ضباب .. كدخان .. كعطـــــر له لون .. يملؤنى . يحيطنى .. يشعرنى بالدفء .. يصيبنى برجفة .. يتحكم فى أعضائى .. يهز اعماقى .. احس كأن عروقى هى التى تعزف .. ودمائى تجرى على ايقاعاته .. صـــــاعدة هابطة .. !

وعينى عليها وهى بين ذراعيه .. ترفع نحوه وجهها الذى يضج بالرغبة .. يفيض بالتوسل .. وهو يأكلها ببصره .. واللحن الملعون يصيح .. يعوى كالحرمان ، يحرض . يغرى . يدفع الى كل شىء .. يفقد الانسان مقاومته .. !

وأنا تعتصرنى موجات من الشك عملاق الحجم .. يخترق كيانى فيصرعنى .. استرجع أيامى معها .. فاذا بعدوانها على حاضرى .. الغى ماكان ، واوقف ما سيكون .. تأخذنى غياهب كأس الخمر .. الى كهوف الماضى .. كأنى أطوف بجبال الزمن التى تحد حياة الخلق منـذ

الوجود .. والماضي يغيب في الظلمة .. ينزلق .. يتلاشى .. يصبح أكفانا للذكريات !

الحب الذى قضى نحبه .. أبصره الآن طريحا تحت قدميها .. تدوسه بنعليها .. تفقأ عينيه بالرغبة الشريرة .. بالارادة الخاطئة التى تتحرك فى أعماقها .. وتنعكس على ملامحها .. طردى من رحابها بات رهن اشارة .. لو أنى أستطيع .. لو ثبت الآن ... فخطفت حياتها من بين جنبيها .. وتركتها بين يديه جثة هامدة .. !

لكنى عاجز كل العجز .. لا أملك تحويل الفعل الى عمل .. أتمنى فقط .. سلبتنى الخائنة قدرة التنفيذ .. صيرتنى عالة على أحلامي .. تتراكم في خاطرى حلما بعد حلم .. دون أن يتحول بعضها الى حقيقة .. لكنى الليلة .. قررت الخروج من شـباك الوهم .. سوف اتحرك .. أمشي على شوك الحقيقة .. لكى أرتاح نهائيا من عذاب الظنون .. !

ان لم أتخلص الليلة .. فلن أتخلص الى الابد .. سوف أظل أسيرا لهذه القيـود التى تشل كيانى ، ولا يشعر بوطأتها غيرى .. تأكل راحتى ، واستقرارى ، ورضائى .. كألم الاسنان .. كنت أبرئها دائما ، واتهم ظنونى .. فقد كان هواها يستغفر لها عندى .. يخبىء عن خاطرى حماقاتها .. يبدل كراهيتى أرصدة حب لها .. رصينة .. متينة .. لا تزعزعها الهفوات .. فكثير على أن أعترف بغفلتى بعد كل هذا .. أتكون حياتى ضاعت هدرا ؟ . أيكون ذكائى قد خاننى فى اختيار امرأتى .. ؟

سنوات خمس قضيتها في تخلف عاطفي .. عاجز عن ادراك الزيف الذي تعطيه لي ! .. وقاصر عن فهم حقيقة خديعتها لي ! أتصور في غباء .. زحف الرمال أمواج هوى .. أقيم زورقي في صحراء .. أجدف في لجج الوهم .. وأنا على قمة الصخور .. !!

أخذتني اليها أخذا .. لم أشعر به .. كأنني منجذب بخيوط خفية .. لم تكن الفكرة في وجداني .. لكنها استطاعت ان تفجرها .. دعتني الى زيارتها بالتليفون .. كانت « ثلاجتها » معطلة .. وطلعت على .. كأنني عشت أيامي قبلها لا أرى الشمس .. شقت الغلاف الذي كان يطويني .. احسست أنني أرى اول امرأة في حياتي .. هي وحدها التي جعلت أعماقي تضطرب . تموج .تفور. تثور .. ادرك انني أعيش دون امرأة ..رغم ان لي زوجة وطفلة .. اجتاحني البهاء الذي يصدر عنها .. بهاء أنوثة مثقفة .. خبيرة .. ذكية .. تأخذ بيد الرجولة .. كالأم تدرب طفــلا على المشي .. واحسست برجولتي داخلي . تهب . تثب . تريد أن تحبو .. في طموح لا يحد .. !

ونثرت بين يدي هموم عمرها .. فهي أرمـــلة في الربيع . دفعوا بها صغيرة .. الى براثن رجل ثري .. عجوز .. قتله عبير أنوثتها القوي النفاذ .. مات بعد ثلاثة أعوام ..

وترك الشمس تشرق كل يوم ، تجمع اشعتها كل ليلة .. يأكلهـــا ظلام الوحدة ، وجليد الاحلام المختلفة ؛ وشعرت بكياني يسيل عطفا عليهـا .. وبكت بين يدي بدموع ساخنة .. تصف بحرارة برودة لياليها ..والوحدة

القاتلة التى تعيش فيها .. وأفرغت أعمــاقى من كل ما يشغلها .. واحتويتها فيها .. دون أن أفكر لحظة .. فيما يجب وما لا يجب ..!

نسيت الزوج الذى كنته ، والاب الذى أحيــاه .. خيل لى اننى لم اخلق الا لها ..وان كل الماضي كان اعدادا للقائى بها .. وان ظروفهـــا كانت تدخرها لى .. وسلختنى من وجودى .. تستخلصنى لنفســها .. وسعدت بهذا الانسلاخ وساعدتها فيه .. واغلقت اذنى عن كل صوت الا همساتها ..

اسلمتها قيادى ، وانا اظن ـ مخدوعا ـ ان قيادها فى يدى .. ذابت « الورشة » فى لهيب الحب ..ودخلت معى فى مشروع .. صالة عرض لبيع السيارات .. لم تعد أصابعي تمسك بالمفاتيح .. اجلستنى وراء مكتب، وعلقت فوق راسى عناقيد من الاضواء ، واصرت على ان يكون خلفى جهاز تكييف .. بارد فى الصيف ، وحار فى الشتاء ، وبذلك انقطعت علاقتى الطبيعية بالحياة لم يعد الخير هو الخير ، ولا الشر هــو الشر ... فقد كانت هى جهاز التكييف الذى يزيف على المشــاعر ، والاحاسيس .. وكلما اوشكت أن أفيق .. اطلقت حولى اجهزتها بكامل قوتها .. حتى أعوم فى التزييف .. فلا أدرك مياه البحر من سراب التيه !

ان كل المشروعات التى تستخدمنى فيها باسمها .. وانا لست أكثر من عامل بالاجر .. هذا الاجر الذى كثيرا ما يكون شـــحنات عاطفية .. تسهم فى تطويعى .. للتنويم المغناطيسى الذى وقعت تحت تاثيره .. الا ان الصفعات المتوالية ....اضطرت يقينى الى ان يفيق !

سنوات خمس وهى حريصـــة على الا تنجب منى أطفالا .. وحجتها أنهـــا لا تريد أن تشغل عنى . ولا أشغل عنها .. لكن الاعمال التى تصدر منها فى الايام الاخيرة تؤكد غير ذلك .. ففى أثنـــاء مناقشتها فى المشروع الاخير الخاص « بمصنع الثلج » .. أحزننى أن أسمى لم يرد فى العقد .. وبررت ذلك بأن المساهمين جميعا هم اقاربها .. وانها دخلت بأرباح صالة العرض فقط .. ونبهتها الى ان هذه الارباح .. أنا صاحبها ، وقد ابتلع تأسيس الصـــالة ومعرض السيارات ثمن « ورشتى » ، وجهدى خلال هذه السنوات .. الا انهـا لم تفسر ذلك واكتفت بأننى مازلت شريكا فى المعرض !

وليس ذلك هو موضوع الالم الحقيقى .. ان هـذا اتفه من التفاهة فكل شىء يمكن مناقشته .. يمكن أن تصل فيه الى حل .. اما الذى لا يناقش فهو موضع الالم الذى لا يمكن الكشف عنه .. ذلك هو هذا الشاب الذى برز فجأة فى حياتها على انه أحد اقاربها .. لكنى الاحظ كثيرا أنه يأخذها منى شيئا فشيئا ، وينطلـــق بعيدا بهـــا رويدا رويدا ، وانا اقف مكانى .. ارقب المهزلة . متذرعا الكبرياء .

لكن الليلة لم أعد أستطيع .. وهاأنذا ارقب من مكانى .. ذلك الحوار الصامت الصاخب الذى يدور بين أعضاء جسدها ، وجسده ، وهو يضمها أثناء الرقص الا أننى مكتوف اليدين ، والخواطر والافكار .. لم أعد أدرى عدد الكئوس التى ألقيتها فى جوفى .. الذى وعيته .. ان الدنيا انطفأت .. سقط الوجود من حولى مغمى عليه ..

ولم يعد لوزني أى ثقل .. وتاهت الارض مـــن تحتى .. ورأيت ملابسي تأخذني وتهوى الى واد من الظلمة !

وحينما عدت من غفوتى .. استطعت ان أجد كل اعضائى كاملة فى ملابسي .. وأنني بـــكل ملابسي فى الفراش .. والغرفة تسبح فى الظلام والســكون .. واعتدلت فى اصرار .. تدفعنى رغبة فى التقيؤ لا قدرة لى على مقاومتها .. وأسرعت بالقدر الذى استطعته الى دورة الميـاه .. وبقيت فترة طويلة .. ثم وضعت رأسي تحت « الدش » الى أن تأكد لى وجودى كخط باهت على ورقة بيضاء .. !

وخطوت الى داخل الشقة الواســعة ، وناديت على الخادم .. فقد صفعنى الصمت المطبق واقبلت الشغالة .. فسألتها عنها .. فقالت انها هبطت مع بعض المدعوات توصلهن الى منازلهن ثم تعود ..

ومضيت الى غرفة النوم .. ولم اصمد طويلا .. فقد كنت متعبـا .. وغمرنى النوم .. وفتحت عينى على صوتها .. كانت تنادينى ، وقد أضاءت النور الصـغير فى الغرفة وارتدت ملابس النوم .. لكنى ولست أدرى لماذا رأيتها فى حلبة الرقص ، وهى تتعلق بعنقه ، وهو يضمها بعنف .. يكاد يدخلها فى ملابسه .. واعتدلت صارخا أطلب منها .. أن تبتعد عنه .. ونظرت خلفها فى ذعر .. وتساءلت بعينها .. لكنى وثبت عليها .. قبل أن تلتفت الى ، وأطبقت يدى على عنقها الجميل .. اصرخ فيها أن تبتعد عنه .. وأمسكت بيدى تحاول أن تتخلص .. لكنى تشبثت بعنقها ، ورنت الى نظرة فجرها الرعب .. وحاولت أن تقول شيئا .. لكنى لم أسمعه..

لانه لم يخرج من حلقها .. وتقلصت ملامحها .. وهبشت وجهي بأصابعها .. فترنحت وتركتها فسقطت على الارض .. فألقيت بنفسي فوقها .. وانقلبت على وجهها تخبيء عنقها مني .. لكني أمسكت بشـــعرها .. أجذبها منه وأصك برأسها الارض .. وهي تصرخ الى أن كفت عن الصراخ .. فدفعت يدي أواصل خنقها .. حتى همد جسدها تماما .

ضحايا الربيع

ليس فى حياتى مكانا للحب .. الذين لم يصلوا الى العشرين مثلى ، كلهم يتكلمون عن الحب .. يتحدثون عن علاقات قامت بينهم وبين فتيات .. فى الشارع .. أو فى الحارة . انا وحدى الذى اجلس اليهم أستمع .. دون أن أقول شيئا ..

حينما كنت صغيرا دفعت بى أمى الى ورشة لاصلاح السيارات .. كانت فى حاجة الى الاجر الاسبوعى الذى يعطيه لى صاحب الورشة على ضآلته .. وبقيت سنوات لم أتعلم فيها شيئا .. فلم يكن لى من عمل سوى القيام بخدمة « الاسطوات » .. وشراء ما يلزمهم : السجائر والطعام . لا شىء غير هذا .. فقد كنت صغيرا دون سن الذهاب الى المدرسة .. وعرض احد أصحاب محلات الحدادة على والدتى ان تنقلنى عنده فى مقابل اجر مضاعف .. فلم تتردد ، وهناك أحسست بوطأة العمل .. كان شيئا مرهقا لطفولتى أن اظل الساعات أمام النار ، وان أحمل الفحم على كتفى ، وان انقل الحديد الخام الذى يراد تشكيله الى « الكور » وان أقدم

المطرقة الى « الاسطى » ، وكنت لثقلها أعجز عن حملها .. !

بدأت أكبر ، وتكبر معي المتاعب .. ورأيت ان أصحاب الورش يأكلون العامل الضعيف . فبدأت أرفع صوتي ، واغلظ في القول ، واستعمل أحط الالفاظ ... وأحيانا أجعل يدي تتدخلان في الحوار ، وتضخمت العدوانية عندي وفجأة وجدت الجميع يعاملونني باحترام ، ولا يحاولون العدوان على حقوقي .. وشيئا فشيئا اصبحت معروفا بالعنف بين الجميع ، وامتد العنف الى كل نواحي حياتي ، والى كل المتعاملين معي .. حتى اخوتي في البيت ..!

وتركت العمل في ورش الحدادة الى العمل في « تسليح حديد العمارة » فالعمل في هذه المهنة الاخيرة أكسب ، وأسهل .. بالاضافة الى انه يتوقف على سرعة العامل وجهده ، فهو عمل بالانتاج ، وكنت أربح من ثلاثة الى خمسة جنيهات يوميا .. !

اصبحت معروفا في نطاق الحي . لم اكن أعطي لأمي سوى جنيه واحد يوميا للمصروف . أما الباقي ، فهو لمزاجي الخاص .. ولم يكن العمل متواصلا .. هناك أيام لا نعمل فيها .. لأسباب لا نملكها عدم وصول الحديد مثلا .. هذه الايام كنت أقضيها متسكعا على مقاهي الحي .. أمارس بين أهل الحي سيطرتي .. قوتي .. استعراض كسبي وتأكيد سطوتي على جميع الشباب الذين هم في مثل سني .. لا سيما التلاميذ الذين لا يكسبون ، وكانوا جميعا ينافقونني .. لانني « أرش » عليهم السجائر الافرنجي والشاي .. !!

ولد وحيد كان دائما يحاول التفوق على .. مجرد رؤياه كانت تجعلنى اشعر اننى أريد الدخول معه فى معركة .. كان يتحدانى أحيانا بصمته .. أحيانا بقدرته على الحديث .. كان يستولى على الحاضرين فيسمعونه .. ويتركوننى .. رغم ان سجائرى فى أفواههم .. ودائما أحس من الداخل أنه يفوقنى .. لكن فيما يتفوق على .. هذا ما كان يحيرنى ؟

مع انه لم يكن يكسب مثلى .. كان يعمل أيضا فى « مهنة المسلح للعمارات » لكنه لم يكن له الاجر الذى احصل عليه .. فجأة وبعد وقائع صغيرة طويلة .. وجدت نفسى كلما التقينا لابد من ان أقارن بينه وبينى .. .. « ماهر » هذا يحمل فى وجوده الشيء الذى يفجر فى أعماقى شيئا ضده .. يثيرنى ، يفزعنى الى حد جعلنى أشعر اننى فى حالة دفاع عن النفس .. لماذا ..؟ هذا مالا أدريه .. !؟

وكلما تقدمت الايام ازداد هذا الشعور بروزا .. كأننى كنت أحس بالمأساة التى سوف يسببها لى ، واسببها له .. الى ان جاءت الليلة الحزينة ليلة الربيع ذروة المأساة ومعانقة النشوة المجنونة دعونة العمر،والخمر .واللامبالاة!

ليلة « شم النسيم » ، وكل ما حولنا يدعو الى الابتهاج التقينا على موعد .. رهط من شبان الحى ، ومعنا « ماهر » هذا ، وآخرون غيره واخترنا مكانا يصبح فارغا فى العطلات ، ومفتاحه مع ابن كبير فراشيه وأخذنا عناصر البهجة من زجاجات ، واطعمة وغيرها ، وبدأنا السهرة منذ الحادية عشرة ، ودارت الكئوس وخلطنا دخان السجائر بما يزيد من تخديرنا ، ودارت الاحاديث ، ومع

الوعى الذى بدات أفقده .. بدأ شعورى بالكراهية لهـذا الانسان يتفاقم .. اذا أشار بيده وهو يتحدث خيل الى أنه سوف ينقض على واذا تحرك تخيلت أنه سـيهجم على .. حالة من العصبية ضدى ركبتنى كأن بيننا ثأرا قديما ..

كنا نتحدث عن انتصاراتنا الغرامية ، وقدرتنا على كسب القلوب ، « فهلوتنا » فى كسب النقود .. رويت قصة .. سخفها ، وكذبها حاول أن يجعلنى «مسخرة» الجلسة .. قلت له يا « ماهر » تجنب غضبى .. فأنا بى رغبة قديمة الى تلقينك درسا فى الادب .. هاج وماج ، وصورت له الخمر .. انه عنتر زمانه .. فأغلظ لى القول .. قذفنى بشىء كان فى يده « قشرة فول أخضر » .. هجمت عليه أحدهم قال لا تفسدوا ليلتنا بمعارككم .. اخرجوا اذا كنتما تريدان تكملة المعركة .. خرجت وأنا أدعوه أن يتبعنى .. اذا كان فى جسده قطرة من رجولة .. قفز من بين الجميع الذين حاولوا أن يعيدوه .. لحق بى .. تماسكنا .. تضاربنا .. أوسعنى لكما وضربا ، وأنا ألوح بالمطواة يمينا وشمالا .. لكنه يزوغ منها ..

بقينا أمام باب المدرسة التى كنت داخلهـا .. أخـيرا تمكنت من تصويب ضربة قوية بقدمى الى موضع حساس من جسده .. فصرخ ، وانحنى ووجـدت نفسى مطلق اليدين ، وهو قد شـغله الألم الذى أعجزه عن الحركة فغرزت المطواة فى جانبه الايسر الذى كان قريبا منى .. صرخ صرخة عالية .. انبثق الدم على يدى .. سـحبت المطواة .. سقط على الارض متكورا يتخبط فى جنون ، يؤكد انه لن يقوم ثانية .. والدم يهدر من جرحه .

في لحظات اصبحت ملابسه كلها حمراء .. على ضوء الكهرباء فى الشارع ايقنت ان المسألة تجاوزت كل تقدير كان فى عزمى .. لم يعد درسا أصبح الموضوع جريمة قتل .. انحنيت عليه .. ناديت على الاصدقاء خلعت قميصى .. حزمت به جرحه لعله يكف عن النزيف .. كان يموت . وكانت روحه تنسحب شيئا فشيئا .. :

بعض الاصدقاء آثر الهرب فورا .. بعضهم ظل بجوارى نحاول أن نوقف النزيف .. لكن صاح احدنا ، وكان اقربنا اليه بقول :

ـ رحت فى داهية يا علاء .. ماهر مات .. !!

لم اذهب الى سكن امى .. فمن المؤكد انهم سوف يتوجهون اليه راسا .. ذهبت الى بيت شقيقى الاكبر .. كانت الساعة تقترب من الثالثة .. لم احاول النوم ، فقد كان ذلك مستحيلا .. فالليلة من أولها تدور أمامى ، حتى لحظة موت « ماهر » ثم تبدأ من جديد هل هذا حدث حقا .. ام اننى نائم هنا منذ اول الليل ، وما حدث لم يكن أكثر من كابوس .. ؟

كنت أطعن نفسى بالسؤال تلو السؤال ، واهتز ، وانا نائم كل جسدى يرتعش .. ورغم كل ذلك .. الا ان راسى ثقل ، وتعطل كل شىء داخلى وخارجى ..وسقطت فى بئر مظلمة عميقة .. وحينما استيقظت وجدت عند راسى المقدم « عادل سليم » مفتش المباحث ، والمقدم « عبد العزيز حامد » رئيس وحدة مباحث «عين شمس» .. كيف وصلا الى هذا مالا اعرفه حتى الآن ..

العميد « عباس العاصى » مدير مباحث القاهرة .. يجيب على أكثر من علامة استفهام .. فقد بلغ العقيد

« حازم شفيق » ان الجثة لشاب دون العشرين وجدت بجوار سور مدرسة فى الزيتون مطعون بطعنة قاتلة وليس مع الجثة بطاقة أو ما يؤكد شخصيتها ..

يقول مدير المباحث .. ان الجثة دائمـــا تشير الى قاتلها .. لكنها فقط تحتاج الى رجل المباحث الذكى، وقد انتقلنا للمعاينة .. من ملابس القتيل الداخلية والخارجية عرفنا انه من العمال الذين يسكنون المنطقة .. القميص الذى كان حـول جرحه لم يكن قميصه لا مقاســـا ولا موضوعا .. لانه يرتدى قميصا ، وليس من المعقـول ان يرتدى قميصا ويمسك بآخر .. الذى حدث ، وأثار الاقدام الكثيرة التى حول الجثة تؤكد انه سقط فى معركة ، وان جهودا بذلت لانقاذه .. والليلة ليلة شم النسيم ، القتيل تفـوح منه رائحـة الخمر ... واذن فالجريمة وقعت بين مجموعة من الشباب غالبا من عمره، بعد اغراقهم فى الخمر وقـد تـكون فى الامر امرأة أو لا تكون .. !!

وتكون فريق بحث مستقل رابط فى مكتب العقيـد احمد عبد العال مأمور قسم عين شـمس وفى كل لحظة تصب المعلومات ، وتتجمع ..

« القتيل » تعرف عليه بعض اهل الحى .. على الفور جاء أهله .. قالوا كان مع من فى أول الليل .. جىء بصحبته .. قالوا الرواية .. ذهبت قوة من المقـــدم « سعيد العبار » والرائد « أحمد حلمى » رئيس وحدة الزيتون الى بيت أم القاتل .. وتوجهت القوة الثانية الى بيت شقيقه وهذه القوة هى التى عادت به .. فى

ست ساعات بعد البلاغ عن الجثة المجهولة كان القـــاتل يعترف بكل شيء .

الرقم القياسي هذا فى اكتشاف القـــاتل الذى كان مجهولا يرجع أولا الى الملم العقيد حازم شفيق بالمنطقة الماما يغنيه عن التحركات الطويلة الامد .. ثم فريق البحث اليقظ الذى قاده المقدم « عادل سليم » .. ثم المعاينة التى وضعت فكانت نقطة الانطلاق ، وقام بها العميـــد عباس العاصى مدير المباحث بالقاهرة ، والمتابعة اليقظة التى يوليها اللواء صلاح امين مدير امن القاهرة لجرائم القتل فى العاصمة .. !!

الاختــــراق

الملجأ الذى يأوى اليه .. اذا اقبل الليل ، وهو لابد مقبل ، الطعام الذى يجده اذا عضه الجوع ، وهو لابد ان يعضه ، الحب الذى يعب منه اذا احتاج الى حب ، وهو لابد محتاج .. كل ذلك كانت تمثله له .. !!

هى المأوى ، والطعام ، والحب ، والحيــاة بالنســبة له .. هو فى ثيابها وهى فى ثيابه سواء أراد أو لم يرد .. أحيانا يشــعر انه لا دخل لارادته فى ذلك .. ! العوامل التى تتحكم فيه عوامل أخرى .. آخرها ارادته .. لقد سقط بلا قيد أو شرط فى براثنها .. صعب أن يقرر الآن ، وهو تحت وطأة الغيبوبة اللذيذة يدفعهـــــا الى قلبها الدخان الازرق .. اذا كان يريدها .. ؟ يحبها أو لا يحبها .. ؟ يبقى معها أو يرحل عنها .. ؟ واذا رحل فالى أين ؟ ..

الاسئلة كثيرة ، والحيرة أكبر ، والاجـــوبة شبه منعدمة .. فهو أيضا يخاف ان يفقدها .. فهى الحبل السرى والعلنى الذى يربطه بالحياة .. انه يتطوح فوق هاوية سحيقة .. اذا ترك المرأة هوى الى القاع مقتولا ،

واذا ظل يتطوح أكل أعصابه القلق ، وقتله الجنون .. ولا حل بين الامرين !

وأطلق بصره يتعلق بالسقف .. يبحث عن حل .. فأبصر « عنكبوتا » نهما ينسج خيوطه حول « ذبابة » ، وهى تحاول فى يأس الخلاص .. كلما انتزعت نفسها فى محاولات مستميتة .. غاصت فى قيودها ، وأحكم حولها سجنها .. !

اخترق سمعه صوتهـــا ، وهى تأمر ، وتنهى .. فالاستعدادات تجرى على قدم وساق .. اعداد المائدة التى تعدها .. استقبالا لبعض أصدقائها ، ومعارفهـــا الذين دعتهم .. فهى لا تكف عن الحفلات تحيط نفسها بمجموعات لا تكن لهم اى احترام . بل تمقتهم جميعا من أعماقها .. لـكنها لا تستغنى عنهم .. أتراها تريد ان تختبىء خلفهم ؟ . تجعل منهم خيمة كبيرة .. تسترها عن عيون الآخرين ؟ . أم انها تفرض عليهم أن يشهدوا سعادتها .. وأن يقروا لها بانهـــا ، وهى على أبواب الخمسين ، من حقها أن تقتنص شابا مثله لم يخترق الثلاثين ؟ . فاذا ما اجتمعوا ، واكلوا ، وشربوا عرضته عليهم . كما يعرض تاجر الخيول ، حصانا اشتراه بثمن بخس من أصحابه الذين كانوا فى حاجة الى نقود !؟

« فسوسو هانم » كما تحب ان تنادى .. امرأة ضاعت صغيرة .. اشتراها تاجر محظـــوظ . فى صفقة غير متكافئة .. وجدت نفسها وهى فى العشرين .. بين أحضان هيكل من الجلد والعظم على أبواب الستين .. له مجموعة من الابناء والاحفاد .. لكنه مسموع الكلمة . لا يقف أحد فى سبيل رغبـــاته .. الكل يطيعونه ،

وينفذون ما يأمر به .. حتى لو كانوا يخالفونه الرأى .. ولم يكن أمامها الا أن تستسلم .. غارقة فى بحار النعمة .. فلا هى ولا والدها الذى كان من بين عماله .. كانا يحلمان بما حصلا عليه من عزة ، ورفعة ، ومجد .. الا أنها كانت تحس دائما ، وهى ترنو الى الشبان ، وتقارن فى أعماقها بينهم ، وبين هذا الذى اشتراها .. فتفطن الى أن قلبها يسكب دموعا فى صدرها .. وتعانى من الشعور بذنب عظيم .. كأنها اما قتلت طفلها الرضيع خنقا بأصابعها !!

وشيئا فشيئا نمت أنوثتهـا ، واكتملت خبرتها ، ونضجت كامرأة ، وضاق بها القفص الذى كان يحتويها .. وبينما هى توغل فى آلسن الخطرة . مات الرجل وترك لها طفلا .. !

وواجهت المرأة الشمس لاول مرة .. صدمها الضوء الباهر ، ففقدت القدرة على التمييز .. واندفعت بعد شهور من حصولها على حقها فى الميراث .. تتزوج من المحامى الذى ساعدها فى الحصول عليه ! .. لكنه كان هو الآخر فى الخمسين .. واستهلكته مشاغله القديمة والجديدة .. فلم يعمر أكثر من سنوات ، وهى فى محنتها المركبة .. عمرها يتسرب من يدها .. دون أن تملك ما تفعله .. لوقف النزيف .. !!

ثم التقت به .. كان كغريق قذفت به مياه النهر على الشاطىء .. مطرودا من الجامعة .. مقذوفا من معتقل .. ملفوظا من أهله ، الذين لم يصيبهم منه سوى كل سوء .. جاء الى صالونها الذى كانت تزعم أنه أدبى .. وما كان الا حلقة من حلقات الاعمال الهستيرية التى تقتل

بها الملل ، وتستعين به على السباحة فى نهر الفراغ .. قدموه لها على أنه أحد شعراء العصر الواعدين .. يقول كلاما كالسحر .. لكنه غير مقفى .. صورة من صاحبه .. مهووس .. ضائع .. مقطوع الصلة بالشعر الاصيل .. مهشم .. تعوم الكلمة فيه .. كزورق مفقود الشراع .. فوق امواج هائجة .. فى يوم عاصف !

وقعت عينها عليه ، وهو فى محنته .. يتوارى خلف الهـــراء الذى يســـميه شـــعرا .. فأدركت بذكاء المرأة الخبيرة أنه مبتغاها .. قوى البنية .. ضعيف الارادة.. بل بلا ارادة على الاطلاق .. سحقت تربيته الريفيـــة ارادته .. خضع لوالديه .. ثم خضع لمدرسيه .. حتى كلية الحقوق التي طرد منها ، اختارها له والده .. وجاء الجامعة والقاهرة .. فتعلق بطالب من بلدته .. اكبـــر منه .. أسلمه امره ، اعتنق المبادىء التى يعتنقها ، ولم يرفض له طلبا .. حتى وجد نفسه مقبوضا عليه معه .. دون أن تكون له ارادة فى كل ما حدث !

همست فى اذنه تدعوه الى الغداء وحده فى اليوم الثانى ، ولبى موعدها ، وهو يسبح فى حيرة ، وقلق .. لكنه قلق التفاؤل .. وفاجاته وهو على المائدة ، انهـــا جمعت الكثير عنه ، ولم يكن هو قد عرف عنها الا القليل .. واذا به يشـــعر انه عار أمامها الا من ملابســـه المتواضعة ! . ولم تجد عناء فى أن تطلق عليه رغبتها .. فقد قيدته ، راحت ترشقه تارة بالزهور ، وهو لا يدرك اذا كان حقا ما يقوله .. أم انه يعشق عندها المأوى ، ويحب فيهـــا الاستقرار ، ويذوب من هوس الاطعمـــة الدسمة ؟! ..

أصرت على ممارسة الدلال ، والاغراق فى التمتع ، وروضته حتى وضعته على حافة اليأس .. تختبرعشقه، وترسخ فى ذهنه ما تريد ، وتشهد الذين من حولها .. انها ما زالت معشوقة من الرجال .. مطلوبة من أصغرهم سنا ، وأكثرهم شبابا ، ورفع يديه يعلن استسلامه دون قيد أو شرط .!

ولكنه وهو فى قمة سعادته .. كان يحس بقيود تلتف حوله .. يســـمع صلصلتها ولا يراها .. وكلما حاول الافلات .. علت الصلصلة ، وزادت حركاته الهستيرية ، ووجد نفسه يكتب بشعره المهلهل قصيدة بعنوان « رقصة الاغلال » .. ! أتراه كان يعبر عن نفسه .. ! —

ورأت النيابة العامة فى هذه القصيدة بداية الاتفــاق الجنائى بينه وبين ضميره .. فقد كان يعلن انه سوف يتخلص من قيوده التى تكبله .. ويقتل « الغولة » التى تطعم عبد الله البحـــرى ، وتسمنه .. حتى تأكله فى النهاية .. !

فوجئت منطقة «حلوان» كلها «بنفيسة محمد شاهين» الشهيرة « بسوسو هانم » قتيلة فى « فيللتها » ، وقد مزقتها طعنات قاتل غادر .. واتجهت الشبهات الى زوجها الشاب الذى لم تكن على وفاق معه فى الايام الاخيرة !

ولكن السرقة التى وقعت فى غرفة نوم القتيلة .. ووجود القاتل فى قريته قبل وقوع الحادث بثلاثة أيام ، واستدعائه من هناك جعل رجال المباحث يصرفون النظر .. للبحث عن فاعل آخر .. الا أن سائق السيارة الذى شهد بأنه نقل « عباس الحلاوى » ليلا من قريته الى

« حلوان » ، ثم عاد به ، وقد زعم انه استعاد شيئا كان قد نساه فى « الفيللا » ؛ ولم يكن يظن أنه قتل ..

وضاقت على عنقــه القبضة .. فبدأ يعترف .. ان المرأة بدأت فى خطة طرده من حياتها .. أحس أنهــا وضعت عينها على ذكر آخر .. ورغم انه لم يكن يحبها كل الحب .. الا أنه شعر بأنها تجهز أخيرا على رجولته التى لم يبق له سواها .. تمنى لو أنه كان هو البادىء .. كان فعلا فى العام الاخير يتهيأ ليطلقها ، فقط كان يمهد لنفسه .. حتى لا يفاجأ بالفطـــام النفسى منها دفعــة واحدة .. واستطاع أن يجعل لنفسه مركزا اقتصاديا يغنيه عن الاستعانة بمالها .. لكن مبادرتها الى اقصائه ، وفصله من وظيفته كزوج .. أهاجت مشاعر الغيظ الذى ما لبث أن تحــول الى حقد يبحث عن انتقام بشع .. لن يمكنها من الاستسلام الى ذكر اخر .. وكأنهــا تلقى برجولته فى وجهه .. قال لوكيل النيابة « فقدت كل عقلى حينما طلبت منى الطلاق ، وذكرت لى اسم الرجل الذى سوف تتزوجه .. لكى ترفع من حقدى عليها » .. كانت هى بكل ما فيها تحرضنى على قتلها .. ولهــذا قتلتها .. !!

محاولة فاشلة للحياة

هل يمكن أن يتحول العجز عن « ... » بعد طول الكبت والمعاناة الى قدرة على « ... » ! وهل تتحول الطاقة السالبة الى موجبة تدفع صاحبها الى عمل من شأنه القضاء على أسباب العجز أو مصادره .. ؟ ان المتهم فى هذه الجريمة . يجيب على هذين السؤالين !

اسمى سمير على فضل « المظلوم » ! والمظلوم هذه ليست تكملة الاسم ، ولكنها صفة لواقع أليم .. فمنذ أن وعيت الحياة ، والظلم نصيبى من كل من يلقانى .. حتى الاولاد الصغار كانوا يتعلمون الظلم فى .. كل يوم يمر بى يضاعف من احساسى بالظلم ، ويكثفه .. فلما تكاثر ، وحاصرنى ، وأطبق على ، وخيل لى انه من حقى أن أدافع عن نفسى . فشلت محاولتى .. نسيت ان ظلم المجتمع لى أصبح عملا مشروعا .. يشكل خروجى عليه جريمة .. يحاسبنى عليها القانون .. !

« هات يا سمير .. حاضر .. روح يا سمير .. حاضر .. تعال يا سمير .. حاضر » طول عمرى ، وأنا مثال الطاعة ، والانصياع .. لم يحدث أن خرجت مرة .. أو ثرت مرة .. أو قلت لا .. حينما وعيت الحياة ،

وجدت أمي متزوجة من رجل غير أبى ، ولها منه عدة أولاد .. كان على أن أعمل فى « مسبك للمعادن » وأنا في السادسة من عمري .. أواصل الليل بالنهار، وأحمل على ظهرى ، وأسحب أحمالا من الحديد ينوء بهـــا أقوى الرجال .. كل ذلك مقـابل جنيهين فى الاسبوع لوالدتي .. لكى تعـــول أولادها ، كان ذلك فى أول الخمسينات .. فأنا من مواليد ١٩٤٢ ، ولم يكن فى ذلك الوقت من لا يغريه منظرى بأن يظلمنى الاسطوات . صاحب الورشة . الذين يتعاملون مع « المسبك » . « البقال » الذى أشترى منه . .

احساسى بالظلم زاد ، وترسب ، وأنا اجتاز طـور المراهقة .. لم يشأ صاحب « المسبك » أن يرفع أجرى عن أيام الطفولة .. ولم يعد الاجر يكفينى كل أسبوع .. تشجعت ، وقلت له أن الاجر لم يعد يكفينى .. فقال لى أن باب « المسبك » يتسع لخروج من يريد الخروج ..!

خرجت شبه مطرود ، لاننى طالبت برفع الاجر وذلك « ذنب » لا يكفره الا الطرد ، وظللت بضعة اسابيع ضحية لبطـــالة سيئة .. ثم التحقت بعمل فى ورشة لتصنيع البلاط .. وبدأت العمل على ماكينة الانتاج .. وكنت أكسب فى يوم العمل جنيها فى أوائل الخمسينات ، وكان الجنيه يومها له قيمته وكرامته .. وفى عام ١٩٦٧ كان عمرى ٢٥ عاما ، وبدأت والدتى تبحث لى عن زوجة ، ولما كان أجرى كله يضيع على أولادها . لذلك كنت أعيش فى حدود ضيقة ، ولم يكن لدى ما أقتصده ، ورأت أن تكون الزيجـــة فى حدود لا ترهق الميزانية الضئيلة .

فخطبت لى زوجة مطلقة من « درب شغلان » كانت قد طلقت لانها لا تنجب ، أخفو عنى هذه الحقيقة ، وزفونى اليها فى غرفة استأجرتها فى « سوق الليمون » . وبدأت معها حياة زوجية طيبة .. لم يكن يفسد علينا حياتنا سوى زيارات والدتها لنا .. ما من مرة تزورنا الا وتخلق لنا مشكلة ، وقبل انقضاء العام .. كانت أميا تطالبنى بطلاقها .. لكنى قلت لها ــ لزوجتى ــ هل أنت تريدين الطلاق .. ؟ قالت لا ، ولكن أمى هى ابقى لى من أى زوج .. !!

وحتى أخلص من المشكلة . سافرت الى « أسوان » كنت أرجو أن أعود بقدر من المال يساعدنى على مواجهة المشاكل . الا أن أمها انتهزت فرصة غيابى ، وأقامت دعوى طلاق بسبب غيابى ، وحصلت لها على الطلاق ، فلما عدت بعد عام واحد ، ومعى بعض النقود التى ادخرتها ، وجدت زوجتى طلقت منى ، وتزوجت بغيرى .. !

فى الشتاء الماضى ، كنت أتردد على والدتى قالت لى : أن جارة لها دلتها على ابنة حلال أهلها يسكنون خلف « سوق الخضار » .

ذهبت مع سيدة تدعى « أم على » .. فرحب بنا والد العروس بائع ألبان وتراه لاول مرة فتشعر أنه من المحترمين .. رأيت العروس التى هى « عواطف » .. أعترف لك أن جمالها « لطشنى » من أول نظرة لم تكن قد تجاوزت العشرين ، ومع ذلك قالوا لى أنها مطلقة .. تزوجت من ابن عمة لها ، وتراكمت المشاكل لصلة

القرابة ، وأضطر أن يطلقها ، ولكن مالى أنا ومال ابن عمتها .. أنها اجمل من أي عروس لم يسبق لهـــــا الزواج .. هذه الفـــاتنة . انجبت ابضا ابنة لكن الله اختارها ، وأصبحت خالية . .ومعنى ذلك أننى عثرت على زيجة رخيصة ، وجميلة ، وبنت ناس .. !!

« هات يا سمير .. حاضر .. روح يا سمير .. حاضر .. تعال يا سمير .. حاضر .. » .

وكان على أن أشترى لها « دولاب » ، و « سرير » ، و « كنبة » ، ولم أقل لا .. فقط سألت .. ما دامت كانت متزوجة فأين ذهب أثاثها القديم ؟ .. قالت لى والدتها .. انت لا تسأل .. نحن فقط الذين من حقنا السؤال .. انت فى الاربعين ، والبنت غير راضية عنك .. ونحن نحاول أن نرضيها .. « احمد ربك » ، ونفذ ما نقول لك عليه وبعد أيام كان كل شىء جاهزا ، وبقيت مشكلة الغرفة المأوى ، وقالت هى أن سيدة صاحبة منزل فى قلب حارتهم .. قبلت أن تعطينا غرفة حتى قبل « عيد رمضان » لان ابنتها سوف تتزوج ، وعلينا أن نجد غرفة قبل هذا الموعد .. !

جمعتنا الغرفة كانت الليلة الاولى الباب الذى وصلت منه الى طريق شقائى .. كنت متزوجا قبلها لكن الاولى لم تكن مثلها ، ولا أية امرأة لم تكن على قـــدر ظنى « كعو طف » .. عواطف كانت صغيرة ، وجميلة ، ولها خبرة وتجارب أضعاف أضعاف عمرها .. بعد شهر واحد أدركت كما تدرك أية امرأة أنها لن تحمل منى ، وانهالت

على تقريبا .. فى جرأة مفزعة كأن الحمل بيـدى ، وأنا منعتها منه برغبتى .. قالت وهى تؤنبنى .. « انها عدلت عن تناول « البرشام » منـــذ أن تزوجتنى فلماذا لم تحمل .. » لابد أن الامر من عندى .. ! وان على ان أذهب الى مستشفى لكى يقوم الطبيب بالتحليل لى ..؟ ونسيت وهى تأمرنى بهــذا أنها تعترف بأمر خطير .. « لقد كنت غير متزوجة يا عواطف ؟ » فلمــاذا كنت تتعاطين « برشام » منع الحمل .. ؟

قلت لها ذلك .. فقالت .. ان هذا الامر لا يعنيك ! اذا كنت رجلا فاذهب وحلل .. !

ووعدتها باننى سـوف أحلل ، وعدت اليها بعد أيام ، وكذبت عليها .. قلت لهــا أننى حللت فى « مستشفى أحمد ماهر » .. وقال لى الطبيب ان عظـامى مســتها رطوبة قاسية ، وكتب لى « بعض الحقن » الغالية الثمن .

عدت من الخارج ذات يوم . فوجدتها تجلس مع ابن « أم على » بجواره على الاريكة ، وقد التحم جسماهما ، وهى ترتدى ، قميص نوم .. ضم ثدييها ، وأبرزهما ، ودقق وسطها ، وكشف عن مفاتن ذراعيها ، وساقيها ، وعندما رأتنى أدخل الغرفة . حدثتنى وهى على ما هى عليه من وضع مثير .. وخجل « على » ابن « أم على » فقام يغادر الغرفة ، وهو يقول انه سوف يعود فى الغد ، وثار الدم فى عروقى ، واضطربت أعصابى . وأحسست بالغضب يرعش كل عضو فى جسدى .. فقلت لها .. من هذا .. ؟ ولماذا كنت تجلسين معه ، وأنت بهــذه الملابس شبه العارية ؟

بعد أيام جاء والدها ، وقال لى أنه بنى بيتـــا فى « امبابة » .. الطابق الاول منه ، ولم يركب له بعـد الابواب ، ولا النوافذ ، وليس امامى الا الانتقال الى هناك .. لكن « امبابة » هذه يسكنها طليقها « عربى » .. فلما اعترضت .. صاحت فى أن « عربى » هذا ابن عمتها اولا ، وانه رجل بكل معنى الكلمة .. فقد حملت منه منذ أول شهر .. اما أنا فعاجز عن اعطـائها الجنـين الذى تتمناه ، وقلت لها ان هذا لا يجب أن يتكرر منها ... ولان ذلك أمر الله .. فصاحت فى ثورة .. انه يجب أن اتركها وشانها . لان الله لا يرضى أن تعيش هى مع زوج عاجز .. !

أمام البيت مباشرة .. كان قدرى ينتظرنى .. شاب فى الثلاثين يبيع « موازين » ، وليس له من عمل سوى مغازلة « عواطف » والكلام معها .. وأعود فى الساعة الخامسة مساء .. فأجدها تجلس على الباب ، وهــو امامها ، وهى فى ثياب فاضحة ، وربطت منديلهـــا على جبهتها ، وفى فمها لبانة ، وهو يشرب المعسل أمامها ..

أنا أدرك جيدا أنها ارتبطت معه بعلاقة .. بدليل النور الذى أدخله لها من حانوته .. والنقود التى كان ينفقهـا عليها ، وفى كل يوم اجد معها نقودا لم اتركها .. فتقول انها تعثر على نقود فى الطـــريق ، وذات يوم وجدت جنيهين ملفوفين على بعضهما .. كيف يحدث ذلك ؟ .. واذا فتحت فمى تصيح .. طلقنى اذا كنت تشــك فى أخلاقى ! .. قلت لها « بتاع الموازين لا يجب أن تتحدثى معه » كان ردها .. انه انسان رجل .. وان ظفره يساوى

عشرة من أمثالى ، فهو تزوج ومنـذ أول شهر حملت زوجته ليس على وجه الارض من هوة خيبتى !!

أحسست انتى انتهيت كرجل ، وكانسان ، وكشىء له وجود فى حياة المراة التى يفترض فيها انها زوجتى ، ومع ذلك قلت لنفسى أن هذا قدرى ، وليس فى الامر جديد على .. ظلم مستمر ، ومتواصل .. الى ان كانت ليلة الثلاثاء .. عدت من العمل . كانت تجلس على الباب تتحدث معه كالعادة .. عندما راتنى دخلت ، وقلت لها ونحن فى البيت .. هل مازلت مصرة على الحديث معه ؟ فاجابت : لا يجب ان اتكلم فى هذا . لانها حرة فيما تفعله لكى تحصل على حمل كبقية السيدات .

ثم قالت تواصل حديثها .. انهـــــا الآن فى منزل والدها ، وان على ان اطلقها ، واحمل ملابسى ، واتوكل على الله .. لانها سوف تتزوج « عادل » الموازينى . وكل ما ترجوه منى الا أدخل « امبابة » فى الغد .. عند عودتى من العمل ســوف أجد من يحمل مـــلابسى ، وينتظرنى بها ..

كل ساعات هذه الليلة .. قضتها فى املاء شروطها .. يجب أن أطلق حتى تنتهى عدة طلاقها على باب « عيسى رمضان » فتتزوج من « عادل » ، واذا كنت احفظ الود والعشرة فيجب الا أؤجل طلاقها اكثر من هذا .. طول الليل وهى تذكرنى بالطلاق .

وفى الليل أدركنى التعب فنمت .. استيقظت صباحا فلم أجدها بجانبى .. هممت بفتح باب الغرفة . فاذا به

مغلق من الخارج .. طرقت الباب وناديت عليها .. جاءت ففتحت لي . قالت انها ذهبت الى دورة المياه .. نظرت الى الصالة .. كانت بطانية مفروشة على الارض ، وعليها آثار نيام غادروها حديثا .. وكان فى يدها مفتاح الباب الخارجى أيضا !! ومع ذلك تجاهلت كل ذلك ..

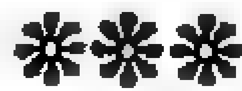
قلت لها « يا عواطف » .. هل فى البيت ما يصلح للافطار .. ؟ صاحت فى كأننى اشعلت فيها النار .. تطالب بالطلاق ، وانها تعتبر نفسها من الآن مطلقة ، وعلى أن احمل ملابسى معى فورا ، ولا داعى للانتظار حتى اخر النهار .. !

على « النمليــــــة » كانت الســـكين تلمـــع ، فتناولتها ، وهويت بها عليها فجرت تحاول الخروج .. ادركتها السكين فى ظهرها . سقطت على الارض سقطت فوقها خشيت أن تنقلب على فتقتلنى .. تمكنت من عنقها .. خنقتها حتى خرج لسانها .. بجانبى كانت لمبة الجاز .. سكبتها عليها واشعلت النار فى شعرها .. لكى اتأكد انها ماتت .. وكانت فعلا قد سكتت الى الابد .. !

بعدها خرجت الى العمــل ، ولكن فى الطريق عدلت طريقى ، ودخلت مديرية الامن التقيت بمــدير المبــاحث العقيد حلمى الفقى ، ورئيس المبــاحث العقيد ابراهيم راسخ .. قلت لهما القصـــة .. ارسلونى مرة اخرى للمعاينة مع العقيد محسن جبر ، والرائد فكرى النواوى ووكيل النيابة محمد العسكرى وقمت بتمثيل الموقف كله امامهم من جديد .. اننى مظلوم حاولت مرة أن ارفع الظلم .. كان فى وسعي أن أعيش كما يعيش الناس .. لكنى اردت أن أقول مرة واحدة .. لا .. !!

أحلام مهاجر

القاتل فى جريمة مقتل الايطالية .. شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة .. هو القاتل فى كل جريمة .. منذ اول جريمة قتل على الارض .. هو قاتل الامس ، واليوم والغد .. انسان معكوس العواطف .. ملتوى النزعات .. صرعته صدمة المدنية ، بهرته الاضواء الضخمة .. فكان قاتلا مع اختلاف الاسباب .. لكن النتيجة واحدة .. فى كل زمان ومكان .. انسان يقتل انسانا .. فى لحظة ضعف . مجنونة .. كانت تتربص به : فافترسته طرحت عنه آدميته .. بالخوف .. بالحقد والانتقام ! .. وتموت رغبته الجامحة فى القتل .. مع اخر انفاس الضحية فاذا به أول من يبكى ضحيته .. واذا به يطارد نفسه .. يود لو انفلت من جسده .. يستبشع ما ارتكبه .. يتمنى لو أنه لم يفعل . لكن الجريمة وقعت والضحية ذهبت .. ولابد من القصاص .



« ناصر » لم يتعد العشرين .. جاء من « ميت مسعود » .. احدى قرى « شبين الكوم » .. ريفى من

الراس الى القدم .. وصل الى القاهرة منذ اربعة اشهر .. وكانت مصيبته انه وجد عملا فى شارع عبد الخالق ثروت .. ! بعد أن بلغ العشرين ، وتزوج وهو لا يرى سوى الحقل ، والساقية ، والقرى المجاورة على احسن الحالات ، ومركز « شبين الكوم » .. بعد أن أصبح رجلا .. فجأة وبلا مقدمات .. يجد نفسه فى شارع عبد الخالق ثروت فى حدقة عين القاهرة !

فى القرية كان عمله الى جانب الفلاحة .. اصلاح الاحذية مع والده .. منذ أن ولد ولا عمل له الا الحانوت ، والحقل .. وحينما زوجه والده بزوجته « هانم » .. كان يأمل أن يربطه بالقرية اكثر ، ويزيد من احتمالات عوامل عدم هجرته .. لانه يعتقد تماما .. انها المكان الطبيعى له ، وأنه لو هاجر الى مدينة كبيرة فسوف يضيع .. وينتهى ، لانه لم يؤهل الا لحياة القرية .. ومن خلالها تنبع وتصب كل افكاره ..!

لكن « لهانم » شقيقة .. متزوجة من فلاح هاجر الى القاهرة ، ووجد عملا ، واستاجر غرفة واشترى اثاثا ، واشترى تليفزيونا ، واشترى قراريط من اخواته .. وبعد عام من الزواج .. انجبت « هانم » ولدا .. وبدات تصب فى ذهن « ناصر » انهم لابد أن يهاجروا الى القاهرة .. القرية ليس بها ما يحقق أحلامها .. والده يريد ان يربطه الى جانبه .. وهى لديها أحلام اكبر من القرية .. اكبر من الاكل والشرب .. اكبر من اصلاح الاحذية ، والعمل فى الحقول .. لماذا لا يكون لها كشقيقتها شقة فى القاهرة ، وفيها الاثاث والتليفزيون ، والاشياء

الاخرى التى لم تعرف أسماؤها بعد .. ! ويذهب ابنهما « محمد » الى المدرسة .. !! تصور يا « ناصر » أنت فى شـــــقة وابنك يذهب الى المدرسة .. ! وتصور يا « ناصر » ، وذهب يلح على زوج شقيقة زوجته .. لكى يجد له عملا بالقاهرة .. أى عمل .. !!

وتزف البشرى شقيقتها اليها ذات يوم .. هيــــــا « يا هانم » العمل موجود فى القاهرة ، وأنا عثرت لكم على غرفة فى عزبة عثمان بشبرا البلد .. تعالى أنت وزوجك وسوف يجد العمل .. واهتزت أعطاف « ناصر » وكاد يرقص فرحا .. فلم يكن قد رأى القاهرة حتى الان ... وفاتح والده .. لقد وجد العمل والسكن فى القاهرة ، وهو لا مستقبل له فى القرية لقد وسعت فى الماضى احلام والده، وأمه .. لكنها أضيق من أحلام زوجته وأحلامه ، وبكى الاب .. جرت دموعه على خديه .. فهو لم يتعود فراقه .. لكنه تحامل ، وتمتم وهو يودعه .. لم يعــــرف « ناصر » هل دعا له أم دعا عليه !؟؟

وحط رحاله فى أول الشتاء .. منذ أربعة أشهر فى القاهرة .. وركب الترام لاول مرة مع « نسيبه » من شبرا .. وحينما رأى العمارات الشاهقة .. دار رأسه، واختلط كل شىء فى ذهنه .. وأخذه « نسيبه » الى شارع عبد الخالق ثروت .. وكاد « ناصر » يفقد عقله.. السيارات .. العمـــــارات .. المحلات .. المعروضات النظيفة ، والســـيدات الجميلات .. لابد أنه يحلم .. سوف يعيش هنا .. يرى كل هذا بصفة مستمرة ..

كل يوم .. ان ذلك كثيرا جدا .. يكفيه فقط أن يعيش .. لا يريد أجورا .. كل شيء هنــــا لامع ، ونظيف ، وجميل ، ويبتسم .. !!

احد بوابى العمارات فى شارع عبد الخالق ثروت .. كان في حاجة الى شاب .. يعمل فى مساعدته .. سريع الحركة .. يستطيع أن يلبى طلبات السكان ، وأن يعتنى بالسلم ، وأن يقوم بتنظيف الشقق للسكان احيانا، ومن أجل ذلك .. ناشد نسيبب « ناصر » أن يأتيه به .. ! وحينما يعود الى الغرفة التى يسكنها مع « هانم » فى عزبة عثمان .. يهدهد ولده « محمد » ويحلم بالمستقبل الباهر الذى ينتظر الاسرة السعيد كلهــــا التى وجدت عيشا طيبا فى القاهرة .. !

ويوما بعد يوم بدأت أحلامه تكبر فى جوانحـــه .. بالامس دعته احدى الساكنات لينظف لها الشـــقة .. رأى عجبا .. رأى أثاثا لا يعـــرف اسمه .. رأى اطعمة كثيرة لا يعرف اسمها ايضـــــا .. رأى ملابس لا يعرف اسمها .. انه ما عرف شـــيئا طوال حياته فى القرية عشرون عاما ضاعت من عمره هبـــــاء .. انه الآن يتعلم أسماء الاشياء كطفل لم يتعلم الكلام بعد .. لكن هـــذا الطفل له جسم ثور .. ماذا لو أصبح هو و « هانم » وابنه في حياة كهذه .. ان ذلك ليس ببعيد على الله .. فقط لابد ان يفتح عينيه على آخرها ؛ وينظر حوله ، ويكسب كما يفعل الآخرون .. !

بعد أيام أخرى .. دعته ساكنة عجوز .. لكى ينظف لها مسكنها الواسع .. الانيق الذى تعيش فيه بمفردها .

وتنقل بين الغرف ، ونظف ، و « مسح ، وكنس » ، وأعطته السيدة طعاما ، وفاكهة عاد بها الى « هانم » .. لكنه كان قد فقد نصف عقله أنه يهذى معها طول الوقت بما رآه ..

أستمعت « هانم » اليه ، وردت عليه . . بأنه يحلم بشدة .. ولابد أن يعيش فى الواقع .. اذ من الجائز أن تفقده الاحلام عقله .. وتكون كارثة عليها فقط .. لانه ساعتها سيكون فى نعيم المجانين .. ! والقى عليها نظرة سخرية من عدم ايمانها بطموحه .. !

اعتاد الدخول عند العجوز ، وتنظيف مسكنها .. وكانت تجزل له العطاء .. تعبيرا عن تقديرها لاخلاصه فى العمل .. وفى آخر مرة .. كانت الساعة الثامنة صباحا .. حمل المقاعد ، والمناضد .. والسجاد الذى فى غرفة النوم .. ثم بدأ ينظفها ، وهى تشرف عليه .. وتساعده أحيانا .. ثم خرج الى الصالة .. كانت فى المطبخ تعد القهوة لنفسها .. على منضدة صغيرة فى الصالة .. كانت حافظة نقودها .. وقد تناثر حولها بضعة قروش .. جمعها بسرعة ، دفع بها الى جيبه .. كانت العجوز بالصدفة قادمة من المطبخ .. أبصرته يضع القروش فى جيبه .. ساءها ذلك وكانت تظن أنه أمين .. فاجأته فأمسكت بيده قبل أن يخرجها من جيبه .. فقد كل متطلبات الانضباط النفسى .. سوف يطرد من العمارة .. وتسوء سمعته ، ولن يجد عملا ، وقد يعود الى القرية .. واقسم لها انه لم يكن يسرق .. بل خشى أن تتناثر فجمعها .. يحفظها فى جيبه .. حتى تخرج

من المطبخ فيردها اليها .. لكنها استمرت فى غضبها .. هددته بأنها سوف تتصل بالبوليس ..

اقتربت من التليفون .. رفعت السماعة .. زحف نحوها يتوسل .. حاول منعها من الامساك بالتليفون .. اقسم لها مرة أخرى .. هددته بأنها سوف تصيح وتملأ العمارة صياحا .. على نفس المنضـــــدة كانت بضعة « مسامير » ، و « شاكوش » كانت المرأة تعمل على اصلاحها .. تناول « الشاكوش » .. التحم بها يمنعها من الامساك ، وطلب الشرطة ، وقبض على يدها بيده .. حتى لا تحرك السماعة .. و « بالشاكوش » الذى كان فى يده الاخرى .. « نقرها » بكل خوفه ؛ وكل اضطرابه، على ام رأسها .. !

ذهلت العجوز .. صدمت .. فزعت كل الفزع .. الشاب قوى .. تحول الى ثور هائج .. يده كالآلة .. اصبح مخيفا .. كل ما فيه يرتعد .. هوت الضربة على رأسها .. اظلمت الدنيا .. طار وعيها ؛ وترنحت .. تلوح بيديهـــا .. ثم هوت الى الارض .. وانبثق الدم غزيرا .. هكذا فى لحظة كانت ممددة .. تجـــرى من جانب فى رأسها الدماء .. وهو فى ذهول تام .. عاشه لحظة لا يدرى .. أن طالت ام قصرت ؟ .. بقى واقفا كأنه تمثال من الشمع .. الا انه شعر بالاختناق .. ظن انها ستقوم لكنها لم تقم .. هل ماتت .. ؟ أم لا .. ؟

وارهقه التفكير .. فان عقله المضطرب لم يعقل شيئا .. راح يتحرك نحو الحمام .. اغلق الباب عليه رغم انه لم يعد فى الشقة غيره .. ازال ضرورته .. لعله يجـد

الراحة بعدها .. أو يصل تفكيره الى شيء .. لكن لفت نظره « الليفة » فى الحوض فكر فى أن يدفع بها الى فم العجوز .. فاذا كانت حية .. تخلصت منها ، واذا كانت ميتة فسوف يتأكد .. !

خرج الى الصالة .. لم يجدها مكانها .. فوجيء ، دقق النظر .. كانت ملقاة لم تبرح مكانها .. ارتفعت دقات قلبه بعد أن كانت هدأت .. عاوده الذهول .. دفع « بالليفة » فى فمها .. تأكد أنها ماتت .. !

ازداد فزعا لموتها .. لان المسألة تعقدت .. لكن للحظة .. حمد الله .. لان أحد لن يقول عنه انه قتلها .. اما هو فلن يقول عن نفسه .. سوف يغادر الشقة .. يغلقها فى هدوء ويمضى .. لم يفكر فى رفع سماعة التليفون .. فهذا تفكير حضارى لا يعرفه .. وتهيأ لكى يغادر الشقة .. لكنه توقف .. لماذا لا يأخذ معه بعض الاشياء التى كان يحلم بها .. لا أحد يقف فى طريقه الآن .. التليفزيون .. المسجل ـ اشياء أخرى ـ ملابس ايضا ـ هيا يا « ناصر » وجرى الى الداخل فجاء بحقيبة ، وبدأ يضع فيها الاشياء وفتح الدولاب فوجد مائة جنيه .. اخذها ، وحمل الحقيبة .. وأغلق الباب ، ومضى .. لم يره « البواب » وفى الشارع استأجر تاكسيا .. ذهب به الى شبرا الخيمة .. استقبلته « هانم » .. مذهولة .. قال لها .. ان أحد العرب .. أعطاهم له .. بمناسبة سفره .. وأعطاه أيضا مائة .. جنيه .. أخيرا سوف تتحقق بعض الاحلام .. قال لها .. أرأيت ياهانم .. ؟؟ كل ماكنت أحلم به سوف يتحقق .. اشترى لنا « دبكا روميا » .. !!

وعاد الى العمل مع « البواب » .. لم ينقطع عن العمل فى اليوم الاول ، ولا فى اليوم الثانى .. وفى اليوم الثالث لم يذهب الى العمل .. حمل بعض الاشياء التى جاء بها الى قريته .. لعله يجد هناك من يشتريها .. فقد ايقن ان الخطر بعد عنه تماما ..

اتصلت صديقة لها بها تليفونيا .. لفت نظرها انهـــا لا ترد .. فى كل ساعات النهار .. جاءت تسأل .. فتحوا الباب .. اكتشفت الجريمة .

اللواء صلاح امين مدير امن القاهرة .. شهد المعاينة الاولى التى اجراها العميد عباس العـاصى مدير البحث الجنائى ، والعقيد عبد الهادى مخيمر .. ثم وضعت خطة البحث للوصول الى الجانى ونفذ الخطة ، وأشرف عليها العقيد محمد السيد ، والمقدم محمد ابراهيم .. وجىء بالقاتل « ناصر » من قريته ، وبدأ يعترف .. !!

عاشق الأحلام

رائحة الاصالة النفاذة ، ما زالت تفوح من « حارة الروم » الكائنة فى حى « الدرب الاحمر » العتيق،والتاريخ على أعتاب بيوتها .. فى المنازل التى يشد بعضها بعضا ، ويتكىء بعضها على بعض أحيانا .. والناس هنا يعشقون الله ، والحب ، سيدنا الحسين ، وعواطفهم حادة ، وألسنتهم أحد ، وقلوبهم بيضاء ، واصواتهم عالية .. ومع النبرات العالية .. يفقدون أحيانا حبهم ، واحباءهم .. فى هجمة لمواجهة عاتية من الانفعالات الحادة .. يعودون بعدها الى طبيعتهم الاولى .. يغفرون ، يستغفرون .. !

والولد « محمد ابراهيم » الذى لم يصل بعد الى العشرين .. الابن الاصغر لاسرة من آلاف الاسر التى تسكن الحارة .. والده يعمل فى مقهى بلدى ، وشقيقه الاكبر يعمل « فرانا » والثانى يساعده فى مخبز بمصر الجديدة ، وهو لم « يفلح » فى المدارس على حد تعبير والده .. فترك المدرسة بعد السنة السادسة الابتدائية ، والتحق يعمل بحيه .. هو صبى فى محل « فطاطرى » يقف على ناصية « حارة الروم » .. فى هذا الحانوت بدأ

يكبر .. وبدات عواطفـــه تتفتح فى عنف على مداعبات الفتيات المراهقات اللاتى يشترين منه الفطير فتيات لم تنضج أعوادهن بعد .. لكنهن يرتدين الملاءات لكى يعطين لانفسهن منظر الانوثة الناضجة التى يجب أن تستتر .. « والولد » يصل الى الثامنة عشرة ، ويدق قلبه ، ويرقص بين ضلوعه ، ويصفق كطفل صغير يستقبل أمه .. كلمـا جاءت الفتاة « شادية » .. اذا مرت فى الشارع من أمامه او وقفت تشترى منه .. أحس أنها أقرب اليه من اية فتاة أخرى .. فى ملامحها أكثر من شيء يشده اليها .. احيانا تبتسم ، واحيانا تبخل بالابتسام .. ولكنها فى الحالتين تعطيه سيلا من عينيها .. يسعده الا يحرم منه .. وهو فى حالة الغضب يسعده كالرضا تماما .. لا يشك فى انها تحفل به .. لا تهتم اهتماما خاصا به ، ولكنها ايضـا لا تلغيه من وجودها .. وذلك يكفيه .. فهو لا يطمع فى اكثر من ذلك .. لان والده حطم فى أعماقه كل طموح .. كان يراهن على أنه لن يصير رجلا يوما من الايام ، أنه لا خير فيه على الاطلاق .. طالما لا يريد أن يستمع الى كلامه ، ويعمل مع شقيقيه فى « الافران » .. وكان ينفر بطبيعته من عمل « الافران » .. ومن أجل هذا الضياع الذى كان يلقاه من والده .. راح يحلم بأن « شادية » تهتم به .. يستجدى الاهمية .. يتصورها .. يتخيلها حتى اذا لم تكن موجودة .. وعلى هذا الفرض الذى فرضه .. يحلم ، ويرسم القصور فى رياح أحلام المستقبل ..

منذ يومين فقط .. راقبها وهى تخطو أمام حانوت « الفطير » .. أحست بعينيه وهما يحيطانها ـ هكذا خيل

اليه ـ بعد ان تجاوزت الحانوت .. عادت وهي تغرس فيه عينيها .. عتاب .. أو عراك صامت .. لكنها طلبت منه .. أن يعد لها « فطيرة » ، ورحب بها ترحيبا .. أشعرها أنها ليست عنـــــده كالاخريات .. أحست أنه لا يتبعها بعينيه فقط : وانما بقلبه أيضا .. وحينما كانت تستوى « الفطيرة » على النار .. كان يشوى ملامحها بنار عينيه .. فلما ناولها له العامل الذى أمام «الفرن».. لفها هو بعناية ووضع لها السكر مضاعفا .. ثم قدمهـــا لها .. وأصرت على أن تدفع ثمنها .. لكنه قال أنها هدية منه .. تمنعت .. رفضت .. أصرت على أن تدفع .. توسل اليها ضارعا بعينيه .. الا تحطم أمله .. واحمر وجهها .. ارتبكت .. فردت ملاءتها وعادت تحبكها حول جسدها الرائع .. وأخذت « الفطيرة » ومضت .. وهى تتمتم .. وأحس أن قلبه فى داخله يضحك كطفل .. !

صنع من هذه الواقعة عالمه الوردى الذى يعيش فيه.. وجد نفسه .. فهو ليس تافها .. ضائعا .. كما يقول والده .. ها هو يكتشف ان فى الحارة من تهتم به من البنات .. بل أجمل بنات الحارة .. تفكر فيه ، وتريد أن يكون رجلها الذى تعيش فى كنفه .. وقال لها ذات مرة .. أن حانوت « الفطير » .. أضيق من أحلامه أصغر من آماله .. الاجر هنا ضعيف ، والحياة رتيبة .. بطيئة .. سوف يبحث عن عمل .. يتيح له كسبا أكثر وأعلن صاحب حانوت « الفطير » .. ووجد فى اليوم الثانى عملا على سيارة نقل مع أحد السائقين .. كان العمل الجديد شيئا مسليا ، ومتعبا .

كان الحلم فى قصته مع « شادية » اكبر من الواقع .. وكان يحب الاحلام .. ويرتاح اليها .. لانهـا تطاوعه ، ويخلقها على هواه .. ورأى رجلا يبيع الخاتم بخمسة قروش .. فاشترى واحدا ووضعه فى أصبعه ، واعتبر نفسه خطيبا « لشادية » وفعل كما يفعل الخاطبون ... لا يملأ بصره من أنثى ، ويتحدث كثيرا عن خطيبته ، ويؤكد لنفسه وللناس .. انه ليس فى الوجـــود من هى على مستوى خطيبته عقلا وجمالا ، وحكمة .. !

لكن هذا العمل جعله بعيدا عن الحارة .. وقد يقـــع لها فى الحارة مالا يعلمه .. فالشبان كلهم يحلمون بها .. كل على طريقته .. غير انها كانت تلقاه فى مكان عمله بشارع الازهر ، وتتحدث اليه طويلا ، ويتحدث اليها ، وقد يكون صيفا فيشربان « سطلين » من « الخروب » عند بائع « الخروب » أو شتاء فيشربان عصير القصب .. ويحلمان معا ببيت المستقبل .

وذات يوم فاجأه شاب من الحارة يعرفه جيدا .. كان يجلس سارحا فوق الطرود ينتظر السيارة .. عندما ضرب بيده على كتفه .. فالتفت ليجده .. رحب به فهو ابن حارته .. لكن الشاب كان الغضب .. يتطـاير من عينيه .. قال له .. ان عليه ان يترك « شادية » فهى له وهو لها من زمن بعيد .. ارتبك .. تلجلج .. تمالك أخيرا نفسه .. خرج من المفاجأة .. صاح فيه .. انه يكذب .. يلفق .. يدعى .. تماسكا .. تضاربا . أخرج الولد مطواة .. طعنه فى ذراعه وفر هاربا .. الطعنة لم تكن خطيرة .. ولكن معناها كان أخطر منها .. سألها

عن مدى صدق « الولد » في روايته .. فكذبته . أقسمت له أنه ليس فى روايته شيء من الحقيقة .

صدق ما حدثته به نفسه .. ابتعد عن الحارة ، ولم يعد يعرف ماذا يجرى هناك .. انه لا يذهب الا ليغير ملابسه ، وينام .. ليله ونهاره فوق السيارة النقل .. يجيء الى مكتب الازهر عقب كل سفر .. وهى تنقل اليه كل أخبار الحارة .. تقول له ما تريد ؛ وتتغاضى عن كل ما لا تريد .. انهم يحسدونه .. كل شبان الحارة لا شك يحسدونه .. لانه فاز بهـــا لقد غير أسلوب حياته من أجلها .. لولاها والتفكير فيهـا ما خرج من الحارة .. ما فكر فى أن يحترف هذه المهنة التى هدت قواه .. لكنه يرجو أن يتحول من « عتال » الى سائق فى القريب العاجل .. بعدها يصبح جديراً بأن يكون زوجا «لشادية» .. وفى كل مرة يخطر بباله البيت ، وخيـــل اليه أنه خطبها رسميا ، وأن أهلها وافقوا ..!

كانت الاحلام ترضيه ، وكان يسعده ان يعيش بها .. فهى طوع يديه ، وليس لهـــا قسوة الواقع .. سوف يتحول كل ذلك الى حقيقة خلال أيام أو شهور أو سنة واحدة على الاكثر .. وانتهت قصة « الولد » الذى طعنه بأن طلب للجيش ، ولم يعد فى الحارة من الحـاقدين أو الحاسدين من يؤرق حياته .. !

لكن الايام تمضي ، والانتظار يطول .. والنسيج الذى كان متماسكا يتمزق ، والاحلام عصية لا تريد أن تتحقق .. المبلغ الضخم لا يريد أن يأتى ، والجنيهات الضئيلة التى يكسبها من عمله تذهب .. بين مصروفاته وملابسه

.. وهى يطرق الخطاب بابها كل يوم .. ترغم على الا تلقاه ، وتخلف معه الوعد بعد الوعد .. ويعتب فى قسوة حتى يغضبها .. لكنه يسرع يسترضيها حتى لا تغضب ، وتسأله فى صراحة .. لماذا لا يدخل والده فى الامر .. قد يتمكن من مساعدته .. ويستحى أن يقول لها رأى والده فيه .. انه لن يجرؤ حتى على مجرد مفاتحته .. فضلا عن طلب مساعدته .. لكن ما ذنبها هى .. وماذا يقول للأهل الذين يلحون عليها فى أن تقبل عريسا .. ؟ وهل يمكن أن تنتظره حتى يشيب الغراب .. ؟ ما معنى هذه الجملة .. لقد قالتها له فى آخر لقاء .. هل تظل تنتظره حتى يشيب الغراب .. ؟ لابد أنها سمعتها من والدتها .. فهو لا يعرف معناها .. ولم ير الغراب الا فى الصور .. !

وبدأت نذر الشر تتجمع فى أفق علاقتهما .. حتى خيل له أن يخلع خاتم الخطبة الوهمى .. لكنه لم يستطع .. تراجع ، ورفض أن يتخلى عن الوهم .. لانه لا يملك الواقع .. واضطر أن يبحث هو عنها .. بعد أن كانت تبحث عنه .. ولكنها كانت تتهرب منه .. فاذا لم يكن من اللقاء مفر .. طالعته بوجه مكفهر .. تسأله أن يعفيها من ملاحقتها .. تطلب منه أن ينسى كل ما كان بينهما ..

أخيرا صفعته بالحقيقة .. وقف طويلا .. كان ذلك بجوار جامع الغورى .. واستند على الجدار .. ورمق الناس ، ولكنه لم يكن يراهم .. اختلطوا كلهم .. صاروا كتلة واحدة .. وأحس انه كعود الحطب المحترق .. لو أن انسانا صدمه لتبدد ، وتلاشى ، وطار فى الهواء !

ليس له الا أن ينتقم .. الانتقام هو الدواء الوحيد الذى يمكن أن يشفيه من الداء الذى أصابته به «شادية» .. وفى مسيرته اليائسة .. وجد نفســـه امام حانوت « البراويز » .. كان قد جاء معها بصورة ليا . وأعطاها للعامل لكى يصنع لها اطارا .. تقــدم اليه .. طلب منه الصورة .. أدعى أنها تريد تكبيرها .. قدميا له العامل .. أخذها وذهب الى المصورة وطلب منه ان يضع بجوارها صورته ، وينقلها فى صورة واحدة .. ونفذ المصور له ما يريد .. وأصبحت الصورة الجديدة تضم الاثنـــين معا .. كأنها أخذت لهما فى وقت واحد .. والتقى بشقيقتها فأعطاها نسخة من الصورة .. وقال لها ان عليها ان تبلغها .. انه اذا لم تعد الى هواه .. فسوف يفضحها فى كل مكان ..

وقف يتسكع فى الحارة أمام منزلها .. غابت شقيقتها بعض الوقت .. ثم عادت معها .. كان اللقاء عاصفا ..

« هو الحب بالعافية » .. جن جنونه .. تفجر كل ذلك .. تصاعد بركان يأسه حتى نهايته .. استل سكينا .. انهال بها عليها .. طعنها فى زراعها .. أحست أنه صدق لاول مرة .. نفذ مرة واحدة تهديده .. جرت .. أسرع خلفها .. دق الســـكين فى ظهرها .. غاصت بين كتفيها .. سقطت على الارض .. فانبطح يجهز عليها .. تحول كل شىء حوله الى جنون .. تراجع الناس ، وقفت شقيقتها تصرخ من بعيد .. رأى الدم يتفجر .. شاهد الموت وهو يغزوها .. لمس العدم وهو يطويها .. هرب والسكين فى يده ..

وتلقى العقيد ابراهيم راسخ البلاغ ، وعلى الفور انتقل الى « حارة الروم » العميد عباس العاصى رئيس مباحث القاهرة ، واللواء عبد الحميد منصور مدير المباحث ، وكلفا المقدم عبد المنعم رضوان بالبحث والقبض على الماشق الصغير .. الذى دلت التحريات انه اختفى عند شقيقته فى بولاق الدكرور ، وذهب الى هناك المقدم حمدى سرحان ، والرائد محسن شوقى وعادا به ليعترف أمام النيابة بالتفصيل .. !

رحـــلة الـعـــدم

الجزع يحفر ملامحه فى أعماقه من الداخل .. ويؤكد نفسه هلعا يقفز من عينيه .. يمتزج باليأس المقهور .. المقدم على هلاكه فى استسلام .. يزلزله الخـــوف من الموت .. ويجتاحه ليقينه من أنه لا نجاه .. فهو فى طريقه الى الموت ، أو لعله مات وما كل هذه الوســـاوس .. والهواجس سوى عذاب القبر .. !

الا أنه يتنفس .. أحيانا تطرف أجفانه .. تقلصت قوة بصره . أصبحت النظرة كسيحة تتساقط عند الجدران. شهور طالت واتصلت .. لا يبرح تلك الزنزانة .. جاء ليعدم .

سيدور المفتـــاح يوما .. فجأة فى اية لحظة .. وينتزعه اثنان نزعا .. وتخلوا غرفته منه .. كما أخليت غرف ملاصقة له .. يوم لن تغرب شمسه .. الا وقـد ورى فى قبره .. فهـــل تراه ســـيتألم . ؟ سيفزع من ظلمة قبره . ؟ لن يتألم الا لحظـــــة .. ويموت فيفقد احساسه .. فشرط الموت ان يفنى .. !

لحظة واحدة .. يموت فيصير من الوجود الى العدم.. وهى بشكل أو بآخر لن تطول سوى ثوان ..!

اما ماذا يحدث بعد ..؟ فلن يشغل نفسه بعد الآن .. فمشكلته هي أن يصمد حتي يجتاز الاعدام .. ثم ينتهى كل ما يفزعه .. !

أنه ليس نادما .. لكنه حزين .. لا لانه سيعدم .. لكن لان المجنى عليه الذى قتله .. كان يتمنى الا يقتله ، ولا تنتهى علاقته به على ذلك النحو .. فقد كان صديقه ، وتوام روحه .. على جدران الزنزانة .. التى تلتصق بجفونه الآن .. صورة لقائهما .. اللقاء الذى انتهى به الى هنا ، وأرسل الآخر الى العدم .. !

بعد ثلاث سنوات فى ايطاليا .. مارس خلالها كل انواع « الصعلكة » طاف بها من أقصاها الى أقصاها .. يحاول أن يرسم ، وان يدرس وأن يحصل على اجازته فى الرسم ، وحينما دخل المركب لكى يعود الى « القاهرة » .. فجأة يرى أمامه اسماعيل .. صديق العمر ، ورفيق الصبا .. من أول المرحلة الابتدائية .. حتى حصلا على التوجيهية من العباسية الثانوية .. ثم تفرقت بهما طرق الحياة ..

تعانقا ، وقال له اسماعيل أنه قادم من المانيا .. بعد أن درس هناك الهندسة المعمارية .. ثلاث سنوات كان فى أوروبا ، ولا يلتقى به .. واغرق فى الضحك وهو يقول . ان الله قد فعل بهما ذلك من اجل مستقبلهما .. ! فلو انهما التقيا عند وصولهما لما نجح احدهما أبدا ، فكلاهما حائز على البطولة فى الجدال ، والحوار واستثمار الكلمات ، وتنمية الموضوعات التى لا تنتهى بشىء ..

وفى حرارة اللقاء ، ولجة الكلام ، والحوار .. التى

سقطا فيها اكتشف هذه التحفـــة الانسانية النادرة التى تقف على مقربة من « اسماعيل » لابد أن تكون صديقته ؟ أو مسافرة تعرف عليها ..؟ وشد بصره جمالها الاوربى الاخاذ ، وأحس « اسماعيل » أنه جلياطا بما فيه الكفاية.. فهما يتكلمان العربية ، وهى لا تفهم منها شيئا .. فاستدار نحوها ، وقال فى عجلة كلاما قدمهما فيه الى بعضهما .. وحينما قال انها زوجته .. أحس هو أنه كان آثما فى النظرة الجائعة التى وجهها اليها .. وفى ذات الوقت سقطت قطعة متوهجة منه .. داخل أعماقه المظلمة .. كما تتساقط قطع الشمس ، وتضيع فى الكون .. اتراه اشتهاها فى هذه الثوانى .. ؟ أم ان جمالها الرائع آثاره كرسام .. ؟

ولم يتردد فى اطراء جمالها ، وهو يبتسم ، وأجابت هى فى زهو الجميلات أن مبالغته مبعثها انه يحول كل شىء الى جميل فى لوحاته .. ! وخلال ايام السفر على البـــاخرة لم يفترقوا كل ليلة الا آخر الليل .. وأحس « حسن » باحساس أنكره ألف مرة وحاول أن يهرب منه .. لكنه كان يلاحقه .. ان فى عينى مارتا الخضراوين حكاية قديمة له معها .. !

مجنون يا حسن وألف مجنـــــون ، ويتلفت خلفه ، وحواليه ، ويبصق من أعماقه على أعماقه القذرة .. التى تصل بتفكيرها الى هذا الحد .. الذى لا يريد حتى ان يتخيله .. ! فاسماعيل بالنسبة له ليس مجرد صديق ..؟ انه أكثر من شقيق .. فقد كان بينهما .. معا طوال أيام الامتحانات ، وأمه هى أم « اسماعيل » تماما ، وكذلك ام

اسماعيل بالنسبة له .. فكيف يسمح لخياله الجامح المجنون أن يتصور .. انه يخونه فى مارتا .. !

لكنها جميلة بشكل شاذ ، وهو رسام .. هل يعرف اسماعيل معنى كلمة رسام .. الجمال روحه ، وحياته ، ووجوده ، وفنـاؤه .. ليس بالضرورة أن تدور بينهما قصة حب ، وليس بالضرورة أن يقع بينه وبينها مايقع بين كل رجل يهيم بامرأة .. فهو فوق ذلك كله ـ هكذا قالت له نفسه ـ انه فنان .. كل مايطلبه أن يرى هذا الجمال، ويسجله فى لوحة .. يصب فى الوانها .. هذا الاعجاب الذى يحسه ، والانبهار الذى يتعذب به .. أمام صناعة البديع المبدع .. هذا الانف الذى يحسـد الهواء الذى يدخله ، والفم الذى يعجب للكلمة تخرج منه .. لو كان كلمة لتعلق بشفتيها يرفض الخـروج .. وهذا الشعر الذهبى المهذب الذى ينسدل فى أدب حول الوجه المستدير .. الطاغى فى جماله .. الديكتاتور فى نظراته .. الباطش فى لفتاته .. !

وأصر حسن على أن يرسمها فى لوحة ، ولم يرفض اسماعيل ، وما كان له أن يرفض .. والتحق باحـدى شركات المقاولات الكبرى وراح يمارس حياته فى القاهرة كمهندس ناجح ينتظـره مستقبل كبير .. وفى خضم مقاولاته استطاع أن يجد العمل الفنى الذى يسنده الى حسن ليكسب من وراءه الآلاف .. وازدادت العـلاقة توطيدا ، وكان من المقدمات التى استنها حسن أن يقضى يوم العطلة معهما .. سواء كان فى رحلة قصيرة الىالقناطر الخيرية أو الاهرام او فى سقارة .. ! لابد أن يكون على

مقربة من مارتا .. يطيل النظـــر الى عينيها ؛ يستمتع بكتلة الضوء التى يحيط بها الشعر الاصفر .. كأنه ينظر فى عين الشمس .. تحيط بها هالة الاشـعة .. وخــلال شهور كانت مارتا قد تعلمت العربية ؛ وأصبحت قادرة على التفاهم بها .. وكانت للكلمات التى تخطىء فيهـــا سحر .. يفوق أضعاف كلماتها السليمة .. !

وتصاعد الجنون .. بدأ يشعر أن الاحســـاس الذى يعتريه ليل نهار .. قد انتقل الى مارتا .. بدأت اللحظة التى كان يخافها تقترب .. كان يتمنى صباح مساء .. الا تلحقها عدوى الجنون الذى يكتمه بين ضلوعه منـذ أن رآها فى الباخرة .. !

لكن الطامة ها هى تقترب .. ان القصة التى كانت راقدة فى عينيها بدأت تبعث .. ذات يوم قالت له ، ولم يكن اسماعيل معهما .. أنها تشعر بأنه كان فى حياتها قبل اسماعيل .. قفز فى الهواء على طريقته .. ودب الارض بقدميه .. وقال لها أنه أحس بهذا الشعور من أول لحظة التقى بها فيها .. فقالت له ضاحكة .. ولكنك لم تذهب الى المانيا أبدا !؟

واحس بالخطر .. فحاول أن يهرب .. أو يتهرب .. لكن الحصـــار كان مضروبا داخله .. كان يحاصر نفسه بنفسه .. وأرغم ذاته على التوقف .. تراجع خشية على نفسه ، وخوفا على ما بينه وبين صديقه .. كان على ثقة أن ما يولد بينه وبين مارتا هو حب حرام .. لكى يعيش لابد أن يزهق الصداقة .. ! الجنـون يريد أن يقضى على العقل ، ومتى كان العقل يستطيع الصمود أمام الجنون ؟؟!

ومتى كان نور الحق بقادر على صد الظلمات التى تفسح الطريق أمام الباطل .. !

وقضى أكثر من عشرين يوما .. هاربا لا يدخل بيت اسماعيل .. يلقاه فى العمل ، ويتصل به تليفونيا ، ولكنه يعتذر .. مدعيا أن بعض الاعمال الخاصة الجانبية تستغرقه .. لانه ارتبط بعقود مع اصحابها .. واقتنع اسماعيل .. لكن التى لم تقتنع ، وفطنت الى معاناته هى مارتا .. وذات يوم فوجىء بها .. اقتحمت عليه وحدته .. ملأت المكان المفرق فى الصمت قهقهة ، وغناء ، ورقصا ، وقالت له ما كان يخفيه فى عروقه انك هارب ، ولكن مطلوب القبض عليك باسم الحب .. وقد اتاحت لها فرصة الايام التى قضتها هنا أن تفطن الى تقاليد الشرق .. انها سوف تطلب الطلاق من اسماعيل وبعد ذلك يتزوجان .. وقال لها حسن انه حتى ذلك لا يجوز فى حكم الصداقة التى تربطهما .. ولكنه ارتاح الى اقتراحها .. قاومه ، ولكنه كان يتمنى أن يحدث ..!

وحذرها من أن تعرض ذلك على اسماعيل .. اذ من الجائز أن يقتلها .. ثم يجىء ليقتله .. فقالت له .. انها سوف تطالب بالطلاق .. مدعية أنها تريد العودة الى بلادها ، وانها تصحح الخطأ الذى وقعت فيه بزواجها منه .. وعليه بعد ذلك أن يلحق بها ، ويتزوجها ، ويعيشا فى المانيا .. أو فى استراليا ..؟

وبدأت العلاقات تسوء بين « مارتا » و « اسماعيل » ، وجاء اسماعيل يبكى وهو يقول له .. ان يرجوه ان يتدخل . لعله يقنعها بأن تبقى فى القاهرة .. فليس فى

نيته ان يطلقها مهمـــا فعلت .. وهو على استعداد لان يرسلها في أجازة .. المدة التى تراها . لكن الطلاق يجب الا تفكر فيه .. وحينما طلبت منه أن تسافر رفض لانهـا قد لا تعود .. وأصبحا يعيشان كسجين وسجان ..

ولكن عذابهما ، وهما أصحاب المشكلة .. كان أهون من عذاب « حسن » وهو يشعر أنه كان السبب فى خنق أجمل علاقة كانت بين زوجين .. جمع أوراقه ، واستعد للسفر .. رأى أنه لابد أن ينتزع نفسه بعيدا .. فقـــد يهدأ كل شيء .. وقرر ان يهرب الى الخـــارج دون أن يودعهما .. وأنهى اجراءات السفر ، وحجز مــكانه على الطائرة .. لم يبق على مغادرته القاهرة سوى ساعات .. عجز .. ضعف .. قرر أن يراها .. ذهب الى منزلهما .. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة .. دق الجرس .. فتح له « اسماعيل » .. كان فى حالة نفسية سيئة .. سمع أنينها من الداخل .. كانت ملامحه ترسم لحظـــة جنون .. صرخ فيه .. لقد اعترفت لى بكل شيء .. لكنى لن أجعلكما تعيشـان بعـدى .. أسرع الى مكتبه يخـرج المسدس وخشى أن هرب هو .. قتلها وأضاع نفسه .. كان فى وسعه أن يفتح الباب ويخرج .. لكنه أسرع خلفه .. أدركه فى غرفة المكتب .. كان قد دس يده فى الدرج ، وأصابعه تبحث عنه .. أحاطه من الخلف بذراعيه .. .. قبضت أصابعه على المســـدس .. ضربه على يده لم يسقط منه .. استدار نحوه يحاول أن يتخلص من بين ذراعيه .. أقسم أن يقتلهما معا .. ثم يقتل نفسـه ..

ركز « حسن » كل قـوته فى ذراعيـه .. ليجعل اتجاه « اســــماعيل » الى الامام .. وهو يصرخ .. أن يترك المسدس .. أقبلت « مارتا » مسرعة .. واختفى العقل نهائيا .. زاحم الجو وجود رابع .. هو الموت .. كل منهم أحس أن الموت وصل .. لكنه سيأخذ من .. ؟ كان هذا هو السؤال .. اقتربت فى حذر .. هددها باطلاق الرصاص عليها .. أطلق فعلا .. ازداد العدم . وانتشر فى المكان .. لم تصبها .. ما زال « حسن » يطوقه من الخلف وهما يدوران فى غرفة المكتب .. لحظة ذعر لا تمر الا فى حياة الموعود بها .. لمح على المكتب فتاحة الخطابات .. خطفها بيده ، وما زالت يده اليسرى تحيط به .. استدار فى نفس اللحظة التى كان يغرس فى معصمه بكل قوته الفتاحة .. صرخ .. سقط المسدس من يده .. انبثق منها الدم .. أمسك بها يحاول منع الدم .. لكن الدم لم يمتنع كان واضحا جليا أنها مزقت الشرايين .. استلقى على الارض يخور .. أسرع يتصل بالاسعاف ، وبالشرطة ، وفشلا فى وقف النزيف ، وحينمـا وصلت الشرطة .. كان يهمس همسا .. قال أن « حسن » قتله بعد أن خانه مع « مارتا » .. ثم لفظ أنفاسه .. !

وانتهت الصور .. كانت آخر صورة « اسماعيل » وهو يموت .. علم بعدها أن « مارتا » سافرت .

وبعد قليل يدور المفتاح ، ويدخل اثنان .. ثم يجتاز مرحلة الالم .. يعبر فى مركبة الالم من الوجود الى العدم .. من كل شىء الى لا شىء .. ثم لا يدرى .. وهـذا ما يريده فلا كينونة ، ولا وجود ، ولا شىء ، ولا هو .. !!

نهاية حب

« نعمات » أو « عنايات » أو « نعمة » .. كل ذلك لا يهم هي أولا وأخيرا امرأة كتب على أن أحبها ، وكتب لها أن تذلني .. ثم تضع نهاية لحياتها .. تدفعني اليها دفعا .. كأنها دخلت في عروقي ، وسيطرت على .. تسخرني لاهدافها .. !

لا تسالني كيف حدثت الجريمة ..؟ فلا انا ولا غيري يمكنه أن يقول لك .. ولا حتى هي لو بعثت من رقدتها الابدية .. فقد تم ذلك في لحظة هي الجنون والعقل .. الظلمة والنور .. الحياة والموت .. الوعي واللاوعي ..!

اسمي أنا أيضا .. قل انه واحد من أبناء آدم .. كان يعيش على الخريطة البشرية عام ١٩٨١ .. لكن مولده كان قبل ذلك بكثير .. وهكذا تقول أوراق حياته الرسمية .. وهذا الشخص كان يعيش في منطقة تدعى « شبرا » ضاحية من ضواحي القاهرة .. وفي الستينات كان في شبابه المتوهج ، وكانت الفتاة تماثله في العمر أو تقل أو تزيد .. الشارع واحد ، وهي تقيم تجاه غرفته .. والحب في ذلك الوقت ، وبين هذه الشريحة من الاعمار

.. كالطعــــام لبقية البشر .. شيء ضروري وهام .. وبدونه يشعر الفتى أو الفتاة بالضياع .. !

والفتاة أكثر من جميلة ، وملابسها التي لا يشاركها احد في ارتدائها أو رسمها .. سوى زميلاتها في هذا المعهد الذي يتميز عن بقية المعاهد .. حتى بنوع دراسته .. تمشي في الشارع فتسري الرعدة في قلوب كل الشبان . وكلهم يدعون وصلا بها .. وبعضهم يزيف خطابات يدعى أنها وصلته منها ، ولـــكنى انا أضحك في داخلي من الجميع .. فلا احد تحبــه ويحبها الا أنا .. هــذا هو ما أفاخر به .. اذا كان لابد أن أكشف عن حبي .. حتى ارد الكذابين عن كذبهم وأطرد عن اسمها شبح العار .. !

لكن تخذلني التوجيهية ، واسعى جاهدا لكى ألتحق بمعهد من معاهد المساحة ، وتتوطد علاقتنــا ، ويزدهر حبنا ، وينمو جنبا الى جنب مع سنوات الدراسة .. وبين الحين والحين نعلن عن حبنا .. كلما سنحت فرصة من الفرص .. حتى لا يفكر أهلها في زواجها من غيري، وحتى لا يطوف بذهن أهلي اى فتاة تصلح لي غيرها . وما كدت اتخرج في معهـــدى ، والتحق بالوظيفة في المصلحة التي يتبعها المعهد .. حتى تقدمت الى أهلهــا طالبا يدها للزواج ، وكان امرا مفروغا منه .. !

الزواج جاء عقب فترة حب طويلة .. استنفدت منا كل طاقة كنا ندخرها .. سبحنا طويلا للوصول الى الشاطىء .. فلما وصلنـــا اليه .. عجزنا عن تسلق صخوره ، تشبثنا به لكن الامواج كانت تضربنا به تارة ، وتضربه بنا تارة أخرى .. وقفنا عند الشاطىء ، وبدأنا نمــارس

حياتنا فى صراع عنيف .. ضد الامواج التى تجرفنا ، وضد الصخور التى توشك أن تحطمنا .. صخور الحقيقة والواقع ، ومطالب الحياة .. !

وأنجبنا الطفل الاول ، واكتنفت ولادته أغرب ظروف يمكن أن تقابل زوجين ، وتغلبنا عليها بشكل أو بآخر . ثم جاء الطفل الثانى .. وتساقطت السنوات تترى ... هى ماضية فى وظيفتها كمدرسة للتربية البدنية فى مدارس الحكومة ، وأنا فى وظيفتى المتواضعة فى المصلحة الحكومية .. لكن وبعد عشر سنوات من الزواج .. تلوح فى الافق فرصة للالتحاق بإحدى شركات البناء ... لقد أصبح عملى من الاعمال النادرة .. التى تتهافت عليه شركات البناء .. ولوحت لى الشركة بعرض .. فيه أضعاف مرتبى ، واغراءات إخرى ووقفت حائرا بين الاستقالة ، والعمل الجديد .. لكن سحر الحكومة التى قضيت بها عشر سنوات .. كان يمسك بى .. الامر الذى يجب أن أعترف بفضلها على فيه .. هو أنها شجعتنى .. وقفت بجانبى .. حرضتنى على ترك الوظيفة الحكومية .. وجازفت وتركت الحكومة ، والتحقت بالشركة التى قفزت بمرتبى الى مبلغ لم أكن أحلم به ، ولا يتناوله فى الحكومة الا وكيل الوزارة ، وفى ذات الوقت .. يبنى والدها عمارة فى مصر الجديدة ، ويعطى لنا شقة منها ، وهكذا يواكب الارتقاء الاقتصادى لدينا .. ارتقاء اجتماعى .. فنترك « شبرا » وننتقل الى « مصر الجديدة » .. أثاث جديد ، ومركز جديد .. وسيارة خاصة لنا ،

وسيارة من العمل تنقلنى اليه ، وتعيدنى .. ظفرة ماكنا نحلم بها .

وتجىء الطفلة الثالثة ، ويضيق البيت بالكماليات ، وتنتهى متاعبنا تماما من الناحية المادية .. بل ويصبح لدينا فائض .. الا أن المتاعب التى تجد لا نجد لهــــا حلا ، والمال لا يحلها .. بقدر ما يعقدها .. الاستغراق فى المسائل المادية قديما .. كان يستهلك من وقتنــــا الكثير .. لذلك لم يكن لدينا الوقت الكافى للتفكير فى معارك جانبية .. أما وقد أصبح لدينا المال .. فالويل لنا .. السيارة التى كنت احلم بها أصبحت اس البلاء .. وقالت لى ذات يوم .. ان صديقة لها .. اكدت انهــا رأتنى فى السيارة مع زميلة لنا فى العمل .. تسكن مصر الجديدة .. فلم أنكر الواقعة ، قلت لها ماذا فى ذلك ..؟ ولم يـكن أدل على حسن نيتى من هــذا الاعتراف ، ومحاولتى شرح الامور لها لكنها لم تقبل ولم تفهم ، والمرأة يتفتح عقلها فى كل شىء .. الا فيما يتعلـــق بأمـــانة زوجها .. فهو دائمـــا مغلق لا يقبل المنطق ، ويرفض المعقول .. !

وكان الثمن ان تظل الســــيارة فى « الجراج » ، ولا أركبهــــا واذهب بها الى العمل ـ اكتفـاء بسيارة الشركة .. ! وقبلت شرطها رغم ما فيه من اجحاف .. !

لكن هل هدأت ثورتها ؟ كلا .. ظلت تتهمنى رغم ظهور براءتى ، وبقيت فى نظرها .. اخبث رجل فى العالم .. وانعكس ذلك على كل معاملاتها معى .. فلا يمضى يوم دون معارك .. تصل أخبارها الى أهلها .. الذين يقيمون معنا فى نفس العمارة ، مما دعا والدها

التاجر الكبير الى ان يصر على ان يأخذنى الى «دجال» فى بلدة تتبع محافظة « المنصورة » .. قال عنه .. انه يستطيع ان يعيد الصفاء بين الزوجين المتعـــاركين .. نتيجة « عمل » دس عليهما .. وحتى لا أغضب صهرى ذهبت معه ؛ ولكن « الدجال » لم يفدنا ، وظلت المعارك مستمرة بيننا .. ! وصحب هذه المعارك ظاهرة لم تكن موجودة .. تلك هى كثرة خروجها وتغيبها فى الخارج ، وابتكارها عشرات القصص .. اليوم ستلتقى بالمفتشة لان لديهما مرورا على بعض المدارس .. اليوم ستلتقى بعد الظهر بالمفتشة لنشاط رياضى اضـــافى .. اليوم مدعوة فى المنطقة كذا .. اليوم .. !

ذات يوم ، وأنا فى البيت وحدى .. لمعت فى راسى فكرة .. لماذا تصر على اتهامى بالخيانة لها ، والخروج مع أخريات .. ! ألا يمكن ان يكون ذلك مبادرة منهـــا لعرقلة أفكارى عن الاتجاه نحو ما ترتكبه هى .. ؟ والا فلماذا هذا الخروج المتكرر ، والمتعمد .. مع اصرارها على اتهامى .. فى أول الامر خنقت الفكرة .. فليس من السهل أن يتصور رجل .. مجرد التصور أن زوجته التى تزوجها بعد حب .. تخونه بعد خمسة عشر عاما .. بعد أن أصبحت أما لثلاثة أولاد .. هذا أقسى ما يمكن ان يعبر رأس رجل وهززت راسى بعنف لعل ما به من أفكار سيئة يسقط بعيدا .. لكن الفكرة عادت تلح على .. لماذا الخروج المتعمد المستمر .. ؟

والحت على فكرة ذات ليلة ، وهى فى الخـــارج .. فخرجت الى الشرفة وكانت قد قالت انها ستعود فى

التاسعة مساء .. ولمحت من على بعد سيارة تقف وهى تهبط منها .. ثم تدخل الشارع ، وتجيء الى البيت واهب أسألها عن سر السيارة التى أوصلتها ... فتنكر أنها كانت فى سيارة .. وتتهمنى بكل ما هو سيىء .. واسكت على مضض .. عندما سـألتنى عن واقعة السيارة .. اعترفت لها بكل شيء .. ذلك لاننى لم أكن افعل ما يوجب الكذب .. اما هى فلماذا تصر على الانكار؟ .. لابد انها تخفى شيئا ما ، وهذا الشيء هو السبب فى تعدد خروجها ، واصرارها عليه .. ! وهى لن تتكلم .. لن تفصح عن سرها .. على ان أحاول الوصول الى هذا السر .. !

وصدقنى أننى ليلتها امتلأت حزنا .. وغمرنى من الاسى ما جعل فؤادى ينزف دما .. فقد روعتنى نهاية حب .. كان مثار أحاديث الناس من سنوات .. وفشلت فى الوصول الى سبب واحد .. يدفعها الى ان تتعرف على رجل غيرى ...

فقد كنت أظن ، وما زلت اظن اننى قد وفرت لها .. كل ما يجب أن يوفره رجل عصرى لزوجتـه .. وفى مقدمة كل ذلك الحب .. الذى تنشده كل امراة فى كل مرحلة من مراحل حياتها .. ! فلماذا هذا ؟ وهل هو حقيقة أم وهم تنفثه ظنونى غير المتناسقة .. ؟!

ووجدت حقيبتها أمامى فعبثت بها .. كنت أبحث عن بعض الحقيقة وجدت ورقة صغيرة بهـا رقم تليفون ، واسم ، وعنوان .. واجهتها بها .. لمن هذه الورقة ؟ قالت في خبث المراة .. ناولنى اياها عنوان زميلة لي ،

وهذا اسم مالك بيتها .. كانت غلطتي .. فقد مزقتها .. ولكني أسرعت اكتب الاسم قبل ان انساه . والعنــوان في مفكرتي .. لانه استقر في يقيني أن صاحبه .. هو سبب خراب بيتي ، وانه السبب في خروجها المتكرر ..!

تفاقمت الخلافات بيننا من أجل هذا الخروج ، وتدخل والدها في الامر . وقلت لهــا انني على استعداد لدفع مرتبها لها .. اذا تركت العمل .. حتى تسقط حجتها في الخروج ، ولكن الاب تعهد بأنه هو الذي سوف يدفع لها المرتب اذا تقاعدت .. حرصا على الوفاق الزوجي بيننا .. لكنها أصرت على العمـــــل والخروج محتجة بعشرات الاسباب .. !

الى أن كان صباح اليوم الذي وقعت فيه الجريمة .. زعمت انها لن تذهب الى المدرسة لانها على موعــد مع المفتشة .. ولهذا فهي سوف تتأخر .. وخرج الاولاد الى مدارسهم ، وخرجت أنا وبقيت هي .. ثم طلبت من البواب أن يذهب ليجيء لها بالتموين من عند البقال .. وغادرت البيت . وألف شك في صدري .. يوخزه بآلاف الابر .. وحينما ركبت سيارة الشركة .. ومضت بي الى أن بلغت « ميدان روكسي » اعتذرت لرئيسي الذي كان معي ، وطلبت منه أن يعفيني من العمل اليوم لامر هام .. وهبطت في « روكسي » .. ثم ركبت سيارة أجرة هبطت منها قبل العمارة .. ثم رابطت واقفا .. حتى رأيتهــا تغادر البيت ثم تركب سيارة اجرة .. فأسرعت أركب سيارة أجرة .. وطلبت من السائق أن يتبعها .. وسارت بالسيارة مسافة كيلو متر .. ثم هبطت منها ، ومشت

الى سيارة كانت تنتظر الى جانب رصيف .. سيارة ملاكى .. يجلس فيها رجل .. فتحت الباب ، وجلست بجواره ، وغادرت أنا السيارة الاجرة .. جريت دون أن أحاسب السائق .. وفتحت الباب الذى أغلقته ، وأمسكت بها .. أجرها الى خارج السيارة .. !

على وجه التحديد .. لا أعرف ماذا وقع ارتبكت ، وقفز الفزع على ملامحها .. حاول الرجل أن يتدخل .. كان فى ذهنى ، وأنا أصرخ هاتوا البوليس .. هاتوا البوليس أن أثبت عليها تهمة الخيانة .. حتى لا « تبهدلنى » بمقتضى القانون الجديد .. الذى يعطيها حق بقاء البنت لديها الى أن تتزوج .. ويعطيها الشقة، ويعطيها الاثاث .. كل ذلك أكان أمام بصرى ، وأنا أحاول أن أمسك بها ، وامسك بالرجل .. !

لكن الرجل لكمنى فى وجهى .. حتى يفلت منى بها ، وينطلق بالسيارة .. وكانت معى سلسلة مفاتيحى ، وبها سلاح صغير لفتح أظرف الخطابات .. أخرجت السلاح .. كانت قريبة منى .. حاولت أن أصيب الرجل .. لكى أبعده عنى .. لكننى وجدت عنقها يميل ، والدماء تتدفق منه .. سقطت على الارض .. ألقيت بنفسى عليها .. أتفحص الجرح الذى ينثر الدماء لكنه لا يظهر .. انتهز الفرصة صاحب السيارة .. وركب سيارته ، وادار محركها .. قبل أن ينطلق .. أمسكت بالمؤخرة .. جرى بكل سرعته .. قفزت حتى أصبحت فوق الشبكة ، وشهدت شوارع مصر الجديدة نهاية المأساة .. الى ان دخل بى قسم الشرطة يستغيث زاعما انى أريد قتله .

امام « العقيد يسرى موسى » مأمور قسم النزهة .. تبين لى ان اسمه هو الاسم الذى كان فى الورقة التى وجدتها فى حقيبتها .

العميد عباس العاصى مدير البحث الجنائى استمع الى اقوالى ، مع العقيد عبد الهادى مخيمر ، وكلفا المقدم عبد المنعم رئيس وحدة البحث بجمع تحريات جديدة .. وكلها طابقت الاقوال التى أدليت بها .. !

الشىء الوحيد الذى لا أعرف كيف تم .. هو تلك اللحظة .. لحظة وقوع الجريمة .. لحظة الجنون والعقل ، والنور والظلمة ، والحياة والموت ، والوعى واللاوعى .. !!

الحرام

شيء كالظلام يقبع داخله الآن .. لكن له ثقل ، وحجم ومرارة .. شعور الطير الذي سقط يتخبط في شباك .. كل ماحوله الآن سبق أن أراه .. لكن اين هذا هو ما لا يدريه .. ؟

هذه الدقائق الشرسة .. اللحظات القلقة الجهنمية التي تهرسه .. هل كانت تعيش في خياله .. ترقد في وجدانه .. منذ أن بدأ السير في هذا الطريق .. ؟ كان يرى النهاية دون أن يتنبه اليها .. لو ان هذا حدث له من قبل .. لفقد النطق .. وتوقف قلبه عن النبض .. لكن مسيرته التي قطعها في طريق الشوك .. جعلته يواجه مصيره الذي كان بعيد الاحتمال .. لقد استوعب انفجار قنبلة سقوطه في أيدي الشرطة .. تمزق من الداخل .. لكنه بقي في الخارج .. يحاول ان يبدو متماسكا .. حتى لا ينهار فيموت .. وان كان تمنى أن يموت في أكثر من لحظة .. ؟

وفي اول الامر شعر بالرعب ، واقسم ان يقلع .. لكن المبالغ الكبيرة التي ملأت حقيبته .. تلك المجموعة الضخمة من الاوراق الملونة البنكنوتية التي لم يحدث له

ان راها طول عمره .. اصبحت ملكا له .. وعجز عن الرجوع .. فقد كانت حراب الشركاء من حوله .. تحيط به تمس جسده وتحذره من النــــكوص .. تدفعه الى الخوض فى الوحل .. ذات لحظة .. أحس انه فقد نهائيا حرية القدرة على التراجع .. !!

حينما تخرج عام ١٩٧١ فى كلية الطب .. كانت تحيط الامانى به كأنها « قوس قزح » .. لابد من تحقيق الحلم الخماسى ـ المكون من خمسة « عيون » هى العيادة ، والعربة ، والعروس ، والعـزبة ، والعلاوة .. ووجـد نفســه فى عام الامتياز لا يتقاضى سوى عشرين جنيها ، وراحت الاحلام تتساقط .. ولكنه جرى خلفها يجمعها من فوق أرض الواقع . جمدها فى صـدره الى أن تنتهى مدة الامتياز .

وبدأ يتحفز بعد الامتياز .. تناولته وزارة الصحة ، وقذفت به الى مستشفى الامراض العقليـــــة .. على مشارف القاهرة ، وفى أول الشهر وجد الصراف يعطيه ثلاثين جنيها وبضعة قروش .. قال له ان هذا هو كل مرتبه بما فيه بدل العيـــادة .. بعد خصم المستحق للحكومة ..

واحس ان شيئا غير منظور يخترقه .. يدوس بقدمين ضخمتين .. كل الامانى التى كان يحلق فى سمائها .. ويدفع به من حالق .. فيرتطم بأرض الواقع ويتمزق ..

زميله فلان استطاع ان يجد عقدا فى البلاد العربية ، وزميله فلان سافر الى « ليبيا » وفلان ، وفلان .. هو وحده الذى فشل فى الافلات من براثن وزارة الصحة

.. وبقى فى مصر .. وانتهت كل أحلامه .. لن يحقق ولا عين من « العيون » الخمسة .. والزميلة التى تنتظره .. شريكة حياة المستقبل الذى لن يجىء .. ماذا يقول لها وامتلأ حقدا وكراهية لذاته .. انه يرى نفسه فاشلا فى ممارسة الحياة .. الذين استطاعوا أن يتصرفوا على أساس مصلحتهم الذاتية فقط .. دون مراعاة حتى مشاعر الآخرين .. تمكنوا من ان يحققوا لانفسهم ما يريدون اما هو فسيظل هكذا الى الابد .. خائفا .. مترددا .. لا يعشق المخاطر .. ولذلك فسوف يواجه خطيبته بأنه يريد أن يفسخ الخطبة فلم يعد يصلح ، ولن يستطيع ان يحصل يوما ما على ما يتيح الحياة التى يتمناها لها معه ..

سبح فى هذا الاحساس المهين عدة أيام الى ان ألتقى بها يوم الجمعة .. كانت تعود من الوحدة الريفية التى تعمل بها الى القاهرة كل اسبوع .. لتلتقى به ، ولكى تؤكد لاهلها فى كل مرة انها لن تتزوج غير زميلها الذى اختارته ، وهى على ابواب البكالوريوس .. وأحست من أول لحظة انه فى براثن حالة كآبه .. كثيرا ما تصيب صغار الاطباء فى بداية عملهم فى المصحات العقلية .. من اجل ذلك حاولت ان تخرجه من كآبته ، وأن تشير الى هذه البديهية التى يعرفونها جيدا .. لكنه فاجأها بما كان يريد أن يفاجئها به .. فارتاعت للحظات .. ثم عادت تفحصه بعينين كان يتفادى نظراتهما .. لانه طالما اعترف بضعفه الشديد أمامهما .. وامتلأت باحساس ضاعف نهمها للحياة .. واستنفرت رغباتها الكامنة فى عنف ..

تحاول أن تلفح حرارتها وجهه لكى يخرج من جموده .. ان سخطه على نفســـــه مبعثه انه يبيع الشهر الطويل العريض من حياته .. بهذا المبلغ التافه الذى القـــاه الصراف فى وجهه .. وأرسلت صوتها ناعما يتسلل الى أعماقه كالسكين فى الزبد .. ان المثل التى يلتزم بها ، وجعلها تلتزم بها .. هى السبب .. انها تشعر انها مقيدة بالتعاليم التى يصدع بها رأسـها كلما جلست اليه .. انهما يستطيعان أن يتزوجا فى عام واحد .. هى فى موقعها من الوحدة الريفية .. فى وسعها ان تحول كل العمل بعد الظهر لحسابها ، وأن تقوم بالتوليد ، وختان البنات ، والاولاد ، وتذهب الى كل النجوع ، والـكفور المجاورة فى زيارات اذا دعيت .. انها الآن ترفض ان تقوم بكل ذلك .. ترفض شهادات التسنين الا اذا كانت مطابقة .. ترفض منح المتمارضين من موظفى الحكومة الاجازات رغم استعدادهم للدفع .. وأنت ..

رفع وجهه نحوها ، ظل يتابع فى أصغاء ، رماها بنظرة كان يرجو أن تشعر بها . القاها كأنه يضع حجرا أمام سيارة تنزلق .. لكن حديثهما لم يتوقف .. استدارت لتأخذ طريقا آخر .. وواصلت حديثها قائلة .. الست زميلا لمن يكسبون الآلاف فى البـلاد العربية ؟ يجب أن نحصل على ثمن بقائك فى مصر .. لن يدفعه لك أحد .. لابد أن تأخذه بيدك !

استطاعت أن تثير زوبعة فى خاطره .. كانت ترقد فى انتظار البواعث .. حرك رأسه كأنه يزوغ من رصاصة

مسددة اليه .. ورفع يديه يهز عنهما قيودا غير منظورة، وصاح فيها بصوت هين .. كفى .. كفى .. !

قامت المعاهدة بينهما .. كان التبرير جاهزا .. انهما فى حالة دفاع عن أحلامهما .. دفاع عن آمال .. ان لم تتحقق فقدا وجودهما .. وفى سبيل الدفاع عن النفس يبيح القانون كل شيء .. !!

وباسم الدفاع عن الذات .. استباحا كل ما كان محرما عليهما الاقتراب منه او التفكير فيه .. واطلقا الاعنة التى كانت تكبح رغباتهما .. فانطلقا ينهبان الناس ، والحكومة وجرت المئات ثم الآلاف فى أيديهما ، وتصاعدت درجة فخامة ملابسهما .. يستران بها التدمير الذى حدث داخليهما وقبل أن يمضى العام .. تزوجا ، وأصبح له سيارة ، ولها أخرى .

لم يعد يتحدث عن الذين سافروا .. أو يحسد الذين تعاقدوا فليس هناك من استطاع خلال سنوات سبع أن يحقق ما حققه هو وزوجته .. دون أن يغادرا مصر ..

اصبحت عيادته فى باب الشعرية ملتقى الكثيرين ، وأخرى فى مصر الجديدة .. واشترى « فيللا » ، وانجبت ثلاثة أولاد ، وزوجته مازالت فى الوحدة الريفية القريبة من القاهرة ، وهو مازال فى الموقع الذى يشغله فى المستشفى .. !

ذات يوم جلس اليها .. شكا من الآخرين الذين يتعامل معهم .. انهم عصابة ، وهو يخشى أن يتكشف الامر .. فلا يحمل الجريمة سواه .. فكل كميات « الكودايين »

ألتى يتسلمها بوصفه طبيبا فى مستشفى امراض عقلية .. تستوردها العصابة باسم هيئـــة طبية .. مستغلة أوراقها ، وأختامها .. ويتسلمها هو بصفته الطبيب من الجمارك .. ثم تعد العصابة التجار الذين يشترون منه وكلهم من تجار المخدرات الذين تحولوا الى الاتجار فى الحبوب المخدرة .. وقد شعر انهم يعاملونه فى الايام الاخيرة كتاجر مخدرات لا كطبيب .. لهذا فهو يرى أن يشق عصا الطاعة ، وأن يخرج على العصابة ، وأن يتوب الى الابد .

وهزها الخبر .. انزعجت لان ذلك معناه العودة إلى الفقر ونصحتــه بأن يعمل لصـــالحه ، واذا كان كيلو « الكودايين » يكلفه خمسة آلاف جنيه أو اقل .. فانه يباع بعشرة آلاف .. ويكفيه صفقة واحدة كل شهر ، وعليه أن يبحث عن وجوه جديدة لتشترى منه . انه فقط يتظاهر أمام العصـــابة .. بأن زوجته عرفت ، وجعلت امتناعه عن العمل مع العصـــابة مقابلا لاستمرارها فى الحياة الزوجية ، والا طلقت .

وعمل بنصيحتها .. واقتنعت العصـــابة او تظاهرت بأنها اقتنعت . وكف عن العمل معها .. وبدأ يعمـــل لحسابه من يناير عام ١٩٧٩! .. وأرهقه البحث عن تاجر يستطيع أن يدفع ، وان يحمل البضاعة دفعة واحـــدة وتعامل مع تاجر ، وآخر ، وثالث .. لكنه كان يبحث عن تاجر يشترى ثلاثة كيلو جرامات من « الكودايين » دفعة واحدة .. وقدم له السمسار طبيبا صاحب مصحة فى الاسكندرية .. كان فى مسيس الحاجة الى البضاعة ..

وتم اللقاء الاول فى كازينو بمصر الجديدة .. أما اللقاء الثانى فكان فى عيادته « بباب الشعرية » ، وهنــاك فتح تاجر الاسكندرية حقيبته ، وكشف عن الثلاثين الف جنيه المكدسة فى حزم كل منها ألف جنيه .. وأطلع بدوره أيضا على نوع البضـــاعة .. واطمأن طبيب القاهرة ، وأعطى الموعد الثالث للتسليم .

وأعلنت مديرية الامن حالة الطوارىء فى مكتب مدير مكافحة المخدرات العميد رياض هاشم .. فلم يكن التاجر طبيب الاسكندرية سوى المقدم حمدى الجزار . وبعــد دراسة خطة الضبط التى أعدها العميــد رياض هاشم والعقيد أحمد عثمان .. خرجت قوة المـكتب فى سرية تامة ، ودفعت بالمقدم حمدى الجزار .. الذى كان على موعد معه فى ارض النعام بجوار « الفيللا » التى يسكنها .. وبعد أن تم التسليم فوجىء الطبيب بالدنيــا تطبق عليه ، والسماء تنطبق على الارض .

وفى مديرية الامن اعترف أمام اللواء ثروت عطا الله مدير أمن القاهرة بالتفصيل .. وقال انه كان ينوى أن يتوب بعد هذه الصفقة .. لسبب بسيط .. هــو ان زوجته وقعت فى قضية « رشوة » ضحية لكمين أعدته لها الرقابة الادارية منذ يومين فقط ، ولما ذهب اليها والنيابة تحقق معها .. قالت له لابد أن يكفا عن الحرام .. ولكن كليهما الآن فى قضية ، وأولادهما بلا راع .. الا من الشغالة والطباخ .

خرجت زوجته بكفالة ، وخرج هو بكفالة قدرها مائتى

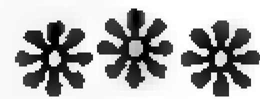
جنيه وكلاهما فى انتظار حكم المحكمة .. لكن الساعات المشحونة بالقلق ، والتى توالت عليه منذ سقوطه فى أيدي الشرطة .. حتى خروجه ، وما قد ينتظره من مصير مؤلم رهيب .. كل ذلك يحيط به يوشك أن يخنقه .. كأنه لم يخرج ، وكأن الظروف لم تذهب عنه .. !!

زحفوا إلى الدمار

أجراس الانذار تدق ، ولن تكف عن الصراخ .. !

لقد سبق أولادنا أفلام السينما والتليفزيون .. !

والآباء والامهات عليهم أن يفتحوا عيونهم على آخرها.. فالتيار جارف .. وهذه المجموعة من الشباب تنتمى لعائلات « مستورة » .. كلهم يسكنون مصر الجديدة ، ومنشية البكرى وحدائق القبة .. واربعة منهم طلاب جامعيون .. والفتاة التى شاركتهم طالبة فى المعهد العالى الصناعى نالزيتون ..



كل لقاءاتهم أو معظمها .. كانت تتم فى حديقة « الميرلاند » ـ أو « غرناطة » .. حتى مسرح جريمتهم لم يكن بعيدا عن هذا المكان .. « عملات » طيبة .. او كان يمكن أن تكون طيبة .. لكنها تسربت من اصابع المجتمع .. لتتدرج خلف بعضها لتهوى فى بالوعة .. ان كل ما نشر ، وما سوف ينشر عن هؤلاء « الجناة » .. هو بكاء عليهم ، وفى نفس الوقت دفاع ضد اتهامهم الذى يلصقونه بالمجتمع .. فقد أهملهم فسهل لهم السقوط ..

الاربعة ، والفتاة خامستهم ، فرقة مجهزة بالطاقات ، والفكر المدمر المشحون أمالا مجنونة ـ وأحلاما طائشة ـ في الزحف نحو السيارة ، والمال ، والملابس ، والسهر ، والحب ، بأقل مجهود ، وأرخص تكلفة

والذى لم تنشره الصحف ، ولم يطـــرح فى المؤتمر الصحفى الذى انعقد فى مكتب مدير الامن العام .. هو ان هؤلاء الجامعيين ، وحتى الموظف فيهم بالاذاعة .. كلهم « عراة » من الداخل .. ضربوا داخليا بمعرفة الاهل .. عن غير عمد .. وساهم المجتمع فى ذلك التخريب بنصيبه ، وتولت أحلامهم التى تفوق امكاناتهم الباقى .. واعتبروا الخروج على القانون .. محاولات شريفة فى سـبيل تحقيق آمالهم . فاذا فشـــلوا كان لهم شرف المحاولة واذا نجحوا حققوا أحلامهم ، وشقوا مستقبلهم .. كما سيشقون شوارع القــاهرة بسياراتهم .. هكذا كان يقول لهم موظف الاذاعة .

وهو يقول ذلك من واقع كله فشل ، وعدم قـدرته على ممارسة أى عمل جاد ، فقد طرد من وظيفته ، وطرد من بيت والدته الموظفة بالاذاعة أيضا .. ويريد أن يقود معه مجموعة من الخاسرين .. حتى لا يكون وحده وقد انبهر به الشبان .. ووقعت الفتاة فى حبه كزعيم .. يقول الحـــكم ، ويرسم الخطط ، ويخلق النقود من لا شيء ..

والفتاة اندفعت الى حبه .. تحت تأثير عوامل كثيرة .. فهى تحيا وحيـــدة فى مصر الجديدة .. كئيبة فى الصحراء .. تعيش مع والدتها التى احترفت التمريض ،

وتعمل ممرضة فى مؤسسة خيرية بمنشية البكرى .. وقد وهبت نفسها لتربيها مع شقيقة لها تكبرها .. تزوجت منذ عام ..

وقد انفصلت الام عن الاب الذى كان يعمل فى الحكومة .. كعامل فى احد القطاعات الصناعية .. بعد ثلاث سنوات زواج .. أنجبت خلالها « صباح » وشقيقتها .. استحالة الحياة بينهما بسبب والدته .. وحصلت منه على الطلاق .. الذى كان بناء على طلبها .. وتعهد أن يدفع لها كل شهر ثلاثة جنيهات .. زادت بعدها الى خمسة جنيهات .. فلما دخلت صباح الثانوية .. رفع النفقة الى عشرة جنيهات .

ظلت الممرضة فى مصر الجديدة .. اما هو فقد تزوج ، وانجب ستة أولاد وعاش فى الدرب الاحمر ـ واستقال من الحكومة ، واصبح صاحب ورشة تدر عليه يوميا أكثر من ثلاثين جنيها ، ورغم ذلك فهو لم يرفع النفقة التى ظلت عشرة جنيهات ، فلما تزوجت شقيقتها ، فاوضها فى تخفيضها .. فقالت له انها أصبحت طالبة جامعية ولم تعد تكفيها .. فأبى عليها .

قال لها وهى تؤدى امتحان التوجيهية .. انه سوف يشترى لها سيارة لو نجحت من أول مرة ، فلما نجحت قال لها .. لكنك لم تحصلى على مجموع ، ولم تدخلى كلية .. بل التحقت بمعهد اعداد الصناعيين ، واضيفت علامة جديدة .. تؤكد ان الوعود كاذبة ومنافقة .

ورغم كل ظروفها الصعبة .. بين الام ، والاب اجتازت

التوجيهية ودخلت معهد تدريب الصناعيين .. لكنها افاقت على حقيقة لا يريد أن يفهمها والدها .. هى ان هذا المعهد .. فيه دروس خصوصية مرتفعة الثمن .. ولم تجد بدا من أن تذهب لتطلب مبلغ أربعين جنيها لمدرس احدى المواد ، وقال لها الاب لابد ان توقع على أنها تسلمت نفقة أربعة أشهر مقدما .. حتى لا تطالبه بعد ذلك .. ولم تجد بدا من التوقيع ..

كانت خلال ذلك قد تعرفت على « حسام » موظف الاذاعة .. رأته عند سيدة كانت ابنتها صديقتها ، وزميلة لها .. كان هو يتردد كصديق لابن هذه السيدة .. كانت قمة ازمتها .. الدنيا برد وقد اضطرت الى شراء ملابس من « البوتيك » بمبلغ ستين جنيها .. ووالدها يرفض الاعتراف .. وبعد الاربعين جنيها أصر على موقفه .. قال لها « حسام » أثناء جلسة « رومانتيكية » فى غرناطة .. انت فى حاجة الى نقود .. أليس كذلك ..؟

أجابت : نعم .. لكن كيف عرفت .. ؟ قال أنه كزعيم يقرأ أفكار اتباعه .. وسوف يتولى حل أزمتها .. فقط يريد منها أن تؤدى له خدمة ..!!

البنت المزروعة وحدها فى الصحراء ، لم تعجب به فقط ، وانما أحبته أيضا .. أحبت فيه الامن الذى تفتقده .. الاحساس بمشاكلها .. فهمه لظروفها .. ألاب الذى لا تذهب اليه الا كما تذهب الى أضرحة الاولياء والمشايخ .. !!

أجابته بلهفة ماهى الخدمة .. ؟ قال .. انه يريد ان يتأكد اذا ما كان صديقه فى شقته أم لا .. ؟ الا أن

والدته الكبيرة السن دائما تخبئه عنه .. لذلك فمـــا عليها .. الا أن تصعد معه ثم تدق جرس الباب ـ تخرج السيدة العجوز .. تقول لها أنها تريد جرعة ماء لا أكثر ولا أقل .. هذه كل مهمتها .. !

وذهبت معه ـ كان وسط الركب .. دائمـــا فى حاشيته .. صمويل .. ويسرى .. صعدوا معها .. نفذت الخطة .. فلما فتحت السيدة الباب .. وذهبت لتعود لها بالماء .. هبطت هى ، ومضت دون أن تعرف ماذا حدث ..

بعد يومين التقى بها ، ودفع اليها بمبلغ مائة جنيه .. قال لها انه يمكنها أن تحل أزمتها .. كان ذلك منذ ثلاثة اشهر .. تقول انها صدقته .. ولم تربط بين الخدمة التى ادتها له وبين النقود التى أعطاها لها .. !

بعدها انهمكت فى المذاكرة للامتحانات .. فى الاسبوع الماضى .. التقت به فى الشارع فجأة .. قال لها .. أنه يبحث عنهـــا .. يريدها فى خدمة أخرى .. قالت له ما هى قال لها .. ألست فى حاجة الى نقود .. ؟ قالت نعم ..

هذه المرة زعم لها .. ان زوجة طيبة مدينة له بمبلغ .. لكن زوجها لا يعرف يريد منها أن تكشف له .. اذا كان الزوج فى الشقة أم خرج .. ؟

سوف يصعد معها صمويل « وعمرو » .. لان الرجل لا يعرفهما وتقول بعد أن تفتح لها السيدة .. انها تريد جرعة ماء ..

قالت له انها لا تستطيع تأدية المهمة اليوم .. حاول

اقناعها .. ترددت .. احست ان فى الامر بعض الاسرار التى لا تفهمها .. قبل التاجيل الى الغد .. كانت تأمل ان تهرب من المهمة .. ذهبت الى والدها .. كانت فى حاجة الى نقود .. قالت له .. انها فى حاجة الى نقود .. اجابها بأن الشهر لم ينته .. وعليها أن تعود اليه أول الشهر ..

ومضت الى مصر الجديدة .. بحثت عن « حسام » قالت له انها تحت امره .. أخذها الى ذلك المكان .. الذى يقع فى عمارة فى الزيتون صعدت نفذت الخطة .. ودخلت السيدة لتعود لها بالماء .. لكنها تلعثمت وهى تطلب الماء .

تعترف ان السيدة حينما نظرت فى عينيها .. لم تسترح لنظرتها لذلك دخلت لتعود بالماء ، وانسحبت هى .. وقفز داخل الشقة «صمويل» و «عمرو» و «حسام» وحينما كانت تهبط الدرج .. سمعت صرخة مكتومة ..

عند الباب رات « سعد » يجلس بجوار البواب يقرا الصحيفة و « يسرى » يتسكع عند ناصية الشارع .. مضت فى طريقها .. لحق بها « يسرى » قال لها ان « حسام » يطلب منها أن تنتظره فى « غرناطة » لكنها كانت مرتبكة .. وحاولت أن تذهب الى البيت .. فالصرخة مازالت فى أذنيها .. قالت ل « يسرى » أن السيدة صرخت .. قال لها انها تتخيل ذلك .. فلم يحدث ان فتحت فمها ..

جلست فى « غرناطة » مع « يسرى » بعد قليل .. اقبل الجميع .. رات فى أيديهم جهـــاز تسجيل ،

واخرجوا الذهب .. فقالت « لحسام » .. انه زعم ان السيدة سوف تعطيه نقودا .. ؟ أجاب بأنها لا تملك الآن نقودا سائلة لهذا أعطته الذهب .. وأعطاها «غويشتين» لتبيعهما ثم تأخـــذ مائة وخمسين جنيها ، وتعيد اليه الباقى .. ذهبت بما معها الى أحد الصـــاغة فى مصر الجديدة ـ باعتهما بمبلغ مائتين وعشرين جنيها .. ردت اليه النقود الزائدة وأخذت المائة والخمسين جنيها .. اشترت بعض الهدايا لشقيقتها ، وذهبت الى محلات عمر افندى فى مصر الجديدة .. لتشترى بعض الملابس .. هناك تعقبتها « نشالة » نشلت منها المـائة جنيه التى كانت تزمع شراء ملابس صيفية بها .. !!

حينما تحسست النقود ولم تجدها .. أدركت ان هذا نذير بالقبض عليها ، ولكن لم يـكن فى وسعها ان تفعل شيئا .. لذلك حينما فوجئت بالعقيد حازم شفيق ، والمقدم عادل سليم ، والرائد عبد العزيز حامد يزورونها فى البيت .. استسلمت ، واعترفت بالتفصيل .. !

وخرج المقدم حسين فريد ، وسعيد العبار ، والمقدم امام محمود الى منزل « عمرو » لكن « عمرو » كان قد حصل على نصيبه وهرب مع فتاة طالبة .. بعد آخر يوم فى امتحانها ليتزوجا فى الاسكندرية ..!

اما « حسام الدين » فقد تولى القبض عليه العقيد محمد عبد الغنى والعقيد فادى حبشى ، ورسم خطـة البحث ، واشرف عليها اللواء عبد الحميد منصور مدير المباحث ، والعميد عباس العاصى ، والعميد مصطفى منيب ، وقد تطلبت جهودا غير عادية لعدم وجود اية سوابق لاى من المتهمين .. !!

رحلة فى أعماق مزيف

قد يكون شاعرا ضاعت منه الكلمات .. أو رساما هربت منه ، واختلطت عليه الالوان .. أو موسيقيا هجرته القدرة على اخضاع الانغام .. تحسبه احد هؤلاء حينما تقع عينك عليه .. فهو مهذب الصوت والكلمات . رقيق الملامح .. ناعم النظرة .. مؤدب الوجود .. موسيقى الاسم (علوى) .. تهمته « التزوير » الشرس .. الموغل فى الاتقان والذى يتناول كل شىء .. كل الوثائق التى تخطر ببالك .. بكالوريوسات .. لسانسات .. وثائق المعافاة من التجنيد .. تصاريح سفر صادرة عن ادارة التنظيم والادارة .. شهادات انهاء الخدمة العسكرية .. صحف جنائية مختومة .. شهادات مؤقتة دالة على الحصول على المؤهل من كل كليات جامعات مصر .. مختومة وجاهزة لملء الاسماء .. اختام جميع السفارات ، والقنصليات العربية .. عندما تعلم هذا ، وتطالع الدقة العالية التى تم بها التزييف . وهى من اصابع « علوى » تتراجع خواطرك لكى تفحص شخصيته ذاتها .. هل هى فعلا كما تراها من خلال هذا الاطار الشاعرى .. أم انه يزيف حتى هذا الوجود .

و « علوى » رغم الهدوء الشامل الذى يبدو عليه .. الا انه صورة كاملة لتهمته .. فهـــو قلق من القاع والنخاع حتى ملابســـه .. وقد أحاطت به فى حيـاته ظروف قاسية .. زرعت فيه جرثومة القلق .. وحرمته من الانسجام النفسى وأسلمته الى طموح أحمق .. قاده فى النهاية الى ذلك المصير التعس .. فهو حينما القى القبض عليه العقيد عبد الله السماحى .. لم يكن التزوير فقط تهمته ، وانما هناك قضية حكم ضده فيها ، وهى تهمة اختلاس ستة عشر الفا من الجنيهات من الشركة التى كان يعمل بها .. ثم أفرج عنه بعد التحقيـــق وقدمت القضية الى محكمة الجنايات .. وصدر الحكم ضـــده بالسجن عشر سنوات واستطاع بأساليبه الخاصة أن يختفى عن العيون ثلاث سنوات فى القاهرة الى ان غمرت الوثائق التى يزيفها المواقع المختلفة .. فضجت بالشكوى ، وكان على مكتب مكافحة التزييف الذى يقوده اللواء عبدالمنعم الصيرفى أن يتحرك لحماية المجتمع من هذا الذى يطعنه فى الظلام .. بتزوير أقدس وثائقه .

واستطاع المكتب بواسطة عيونه ، وأساليبه أن يجىء به ، ومعه كل الادوات التى يستعملها .. وفى سكنه الذى اتخذه فى غرفة بأحد الفنادق .. وجدت مئات الوثائق الجاهزة المعدة للبيع .. ولم ينكر « علوى » ولم يكابر .. اعترف بكل شىء .. وكان السؤال الذى حير الجميع .. لماذا لم يحاول الخروج من مصر ، وهو لن يعدم الوسيلة .. وكان رده غريبا عميقا .. انه لا يطيق البعد عن

والدته .. ولا يريده . ويخشى أن ترك مصر ... ان ينساها ..

كان والده يشغل وظيفة ما فى بريد بور سعيد .. فى الاربعينات .. ولد هـو لكى يكون ترتيبه فى الاولاد الاصغر ، وهم ثلاثة .. كلهم أتموا التعليم الجامعى . الذى يسبقه مباشرة رسام يجيد رسم اللوحات الفنية، وقد يكون عشق الرسم منه ومارس الهواية سنوات فى ايام المراهقة ثم هجرها .

منذ أن وعى وهو يرى والدته على خلاف .. الشقاق لا يفارق البيت كأنه معلق فى سقفه .. والجميع لا يرونه كمـــا يراه « علوى » . فالذين سـبقوه حتى شـقيقتاه الكبيرتان .. قد يكونوا جميعا شهدوا فترات الانسجام الماضية التى تسود البيت .. يوم ان كان كلا الوالدين يحاول أن يمشى على خلافاته من أجل الاولاد كالساحر الهندى فوق المسامير .. أما الآن والـكأس قد طفح ونفد الصبر .. فلم يعـودا يطيقان .. وهكذا كان نصيبه أن ينام ويقوم على صراخ ومعارك ، وتهديد بالطلاق .

واجتاز فترة المراهقـة ، وحصل على التوجيهية .. وتزوجت شقيقته الكبرى .. ولكن الخلافات تفاقمت الى حد خنقت فيه الصـــبر .. الاب أنانى مســتغرق فى الشراب .. والام ترى أن أولاده أحق بمـــا يضيع فى الكأس .. وهو يتعلل بأن معاركهـــا معه لا يتحملها الا بالشراب .. والحلقة مفرغة .. وكان لابد من وقــوع الطلاق .. عادت الام بأولادها الى القاهرة .. استقرت مع أهلها .. واحتضنت أولادها .. تحصـــل من الاب

على نفقة .. والتحق « علوى » بكلية التجارة .. وشعر انه يعيش فى بيت بلا سقف .. الاب طار فجأة .. وكان يجىء بين الحين والحين .. ليطمئن .. فلما تزوج اقلع عن هذه العادة .. فقد أصبح له أولاد آخرون وكان التمزق النفسي لعلوى .. هل يحقد على والده وهل يحمل والدته المسئولية ؟

ويحصل علوى على البكالوريوس .. ويلتحق باحدى شركات مقاولات القطاع العام مراجعا للحسابات .. لتبدأ مأساته .

لو انه دفع به الى موقع آخر فى العمل .. غير هذا الموقع لما كانت المأساة سريعة حاسمة .. ولكن مكان المأساة ينادى صاحبها نداء خفيا .. لا يدركه صاحبها الا حينما تقع .. من هذا المكان اتيح له ان يتضاعف حقده على كل ما يحلق فوقه .. معنويا او ماديا .. وتحفزت كراهيته المخزونة لوالده . تفرض نفسها على سلوكه .. تتهيأ للانتقام من مجتمع لم يرحم مراهقته .. فطلقت والدته .. وهو يدرك المأساة بكل اعماقها ... وأطلق احتقاره على الكبار .. تمهيدا لاسقاط الهيبة عنهم .. ليضرب ضربته .. دون أن تشل يده هيبة أو رهبة .. أو حتى يفكر فى التراجع .. عما انتواه ... يتلمس أوهى المبررات لكى يوغل كفرانا بالمجتمع ونكاية به ..

كانت الاوراق التى تمر من تحت انفه لها رائحة نفاذة .. رائحة الشكوك ، والعمولات ، والاختلاسات ، وكل شىء غير نظيف ولكنها كاملة الشكل الرسمى من الامضاءات والاختام .. والعلاقات بين المسئولين ،

والمتعاملين مع الشركة من المقاولين كأحسن ما تكون ـ شيلني وأشيلك ـ ولكنه ليس فى وسعه أن يفتح فمه .. لان الاوراق الرسمية مستوفاة ..

ثم تفجرت مشكلته حينما زاره أحد المقاولين المتعاملين فى مكتبه ، وسأل عن أحد المهندسين فقال له انه غير موجود .. فترك له حقيبة طلب منه أن يسلمها له . ومضى المقاول واحتفظ هو بالحقيبة طول اليوم .. فلم يصل المهندس واضطر أن يحملها معه الى منزله ... واستبد به الفضول ففتحها واذا به يجدها محشوة بالبنكنوت كانت مفاجأة أذهلته .. فأسرع يغلقها .. وبعد قليل .. استجمع نفسه المشتتة ، وراح يحصر المبلغ .. الف .. الف .. الفان .. ثلاثة .. وأغلق الحقيبة . وفى الليل فوجىء بالمهندس يزوره فى البيت .. أعتقد أنه جاء لكى يأخذ الحقيبة .. ولكن المهندس .. قال له .. انها هدية له من المقاول .. لكى يغمض عينيه عن بعض مخالفات سوف تصل اليه فى أوراق الاسبوع القادم .. ولم يتردد فى قبولها .. كل مافى الامر انه عرض على المهندس ان ينال منها الثلث .. لكن المهندس اعتذر قائلا بأنه وصله حقه ، وأن هذا له وحده .. !

أيا كان الثمن .. فقد شعر أنه يوجه ضربته التى تمنى أن يضربها فى الصميم .. لن يكلفه الامر الا تحويرا خفيفا فى المستندات ..

وليس تزويرا .. هو وحده القادر عليه دون غيره .. وأطلت رغبته الدفينة فى احتقار الكبار ، وزمجرت رغبته

في الانتقـــام من المجتمع .. ونجحت العملية الاولى ، وقبض مؤخر أتعابه الفين آخرين .. !

ولكن نجاح تدليسه جعله يشعر أنه قد حقق الكثير .. فاندفع يتحفز لعملية أخرى .. مبررا لنفسه السلوك الملتوى بأنه لن يـــكون الشريف الوحيـد فى مجتمع للأشرار ..

وقبل أن تمضي عدة شهور على استثماره لذكائه .. اطبقت عليه الرقابة الادارية ، وحولته الى التحقيق واذا به يكتشف أنه لم يكن ذكيا كما كان يظن .. وانما هو الغرور الذى يكمن فى كل مجترىء على القانون بقدر .. فالذين لم يكونوا على مثل ذكائه .. لم يدانوا ، وحمل هو الجريمة برمتها ، فقد كان جملة المختلس يزيد عـلى مائتى الفى جنيــه لم يكن نصيبه منها سوى ستة عشــر الفا . وحولت القضية الى الجنايات ، وافرج عنه ليعيش بنصف مرتب فى انتظار يوم الفصل ، وكلما ذهب الى محام .. لا يكاد يستمع الى أرقام الاختلاس .. حتى يطلب منه أتعابا يسقط « علوى » من طوله لها ، وصدر الحكم ضده غيابيا بالسجن عشر سنوات .. واختفى .. وفجاة وجد نفسه جالسا على مقهى شديد التواضـع فى « بولاق الدكرور » .. اشعل سيجارة وراح يشرب الشاى على مهل .. احس انه تحت خيمة من همومه .. لكن أحاديث الذين كان يزخر بهم المقهى .. كانت تصل الى سمعه .. كشذرات من ضياء .. تقتحم ظلمة داجية .. الشهادات .. التصاريح .. العقود .. السفر .. البلاد العربية .. ونظر الى من حوله لاول مرة .. فى محاولة

للخروج من خيمة همومه .. وطالعتـــه الوجوه المتلفلفة بلهفة الطموح الى السفر .. تربض في ملامحهم مشاعر متضاربة .. الرغبة ، والخوف ، والحذر ، والاستسلام .. لكن أوضح هذه المشاعر الخوف من الهزيمة والعودة الى القرية ..

واحس انه يتجاوب معهم فى هذا الشعور .. هــو أيضا هارب من الاسرة .. حاقد على المنبع .. يفرقه عنهم انهم حددوا لعودتهم زمنا فى خيالهم .. أما هو فان عودته شبه مستحيلة .. الا تحت ستار من السرية .

فنظروا اليه .. وتواصل الحـــديث بينهم وبينه .. دلوه بحاجتهم الى ما يفعله .. انهم فى حاجة الى أوراق عصية عليهم ، ومستندات ليس من حقهم الحصـــول عليها .. وتكفل لهم بها ... واستأجر غرفه في فندق باسم جديد .. وراح يجرب حظه فى التزوير البحت .. ومن جديد احس انه يواصل رغبته التى تلازمه .. فى الكيد للمجتمع الذى يعتقد يقينا انه لم يرحمه ..

وبعد ثلاث سنوات .. وقع فى الفخ ..

وســـألته فى مـكتب اللواء عبد المنعم الصيرفى رئيس مكتب مكافحة التزييف بالوزارة :

ـ هل ما زلت يا « علوى » تعتقد انك على درجة عالية من الذكاء .. ؟

أجاب من تحت خيمة همومه :

ـ ذكائى لا اشك فيه .. ولـكن الذى لا أملكه هو الحظ ..

فهرس



رقم الايداع بدار الكتب [redacted] ٨٣

الترقيم الدولى ٢ ـ ٠٥٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ـ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٣٠٠مليم :

سوريا ٦٠٠ ق٠س ، لبنان ٦٠٠ ق٠ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية٦ ريالات ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن٨٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٣٫٥فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ، فينا ٣٥ شلنا كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم١٤كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورينات ٠



هذا الكتاب

« الجريمة والشباب » مجموعة من جرائم الشباب التعس •• كانت بعض حصاد عمل الكاتب فى حقل الجريمة ، والكتابة عنها فى مجلة المصور واذا كان عبد المنعم الجداوى قد عرف فى العالم العربى • بعرض وتحليل الجريمة بشكل لم يسبق اليه •• فان حسه المرهف ، وقلبه المفتوح جعله يرصد التيارات الاليمة التى كان ضحيتها بعض فلذات اكبادنا ••!

وقد يفزع هذا التعبير بعض القراء ، ولكنها الحقيقة ••• فالذين يشغلون اليوم مواقع الاباء •• قد شاركوا بشكل او باخر فى دفع الجيل الجديد الى السلوكيات التى انتهت به الى ما لا نريده له •• !!

والكاتب « عبد المنعم الجداوى » وقد اصبح بحكم « عمره ابا وجدا » •• هاله انحدار امل المستقبل فى هوة الجريمة •• فراح يغوص ، ويبحث ، يقرا ويناقش •• لكى يصل الى بعض الاسرار المهمة التى دفعت بالشباب الى الجريمة •• فكانت المقدمة التى صدر بها هذه المجموعة •• ثم اختار الجرائم التى كل ابطالها لم يتجاوزوا الثلاثين ، ومعظمهم حصلوا على نصيب كبير من التعليم •• فهؤلاء هم الذين انعكست عليهم التغيرات العنيفة التى اجتاحت مجتمعنا •• ! والكاتب اذ يضع كتابه هذا بين يدى القارىء • يؤكد له انه بداية لا نهاية •• بداية لكى تتجه مراكز الدراسات الخاصة بالشباب ، والجريمة فى الاتجاه السليم الذى يضع المصابيح الكشافة امام فلذات اكبادنا •• فلا يضيعون فى الظلام ، ولا يخرجون من الجامعات الى السجون !

٣٠ قرشا